الكِفايـة

في التَّفسيرِ بِالمأْثورِ والدِّراية

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الحادي عشر

[سورة النساء، الآية: ١٤١]- [سورة المائدة، الآية:٤٦]

الطبعة الأولى
١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

الرقم الدولى(ISBN):٥-٧١٥-٧٢-٩٩٥٣
الطبعة الأولى، ١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م
الناشر: دار القلم- بيروت – لبنان

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكترونى الآتى، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

Abdulla.khdhir@gmail.com
Abdulla. khdhir@hotmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١)} [النساء : ١٤١]

التفسير:

المنافقون هم الذين ينتظرون ما يحلُّ بكم -أيها المؤمنون- من الفتن والحرب، فإن منَّ الله عليكم بفضله، ونصركم على عدوكم وغنمتم، قالوا لكم: ألم نكن معكم نؤازركم؟ وإن كان للجاحدين لهذا الدين قَدْرٌ من النصر والغنيمة، قالوا لهم: ألم نساعدكم بما قدَّمناه لكم ونَحْمِكُم من المؤمنين؟ فالله تعالى يقضي بينكم وبينهم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين طريقًا للغلبة على عباده الصالحين، فالعاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:{الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ} [النساء : ١٤١]، أي:" المنافقون هم الذين ينتظرون ما يحلُّ بكم -أيها المؤمنون- من الفتن والحرب"[١].

قال الزمخشري:" أى: ينتظرون بكم ما يتجدد لكم من ظفر أو إخفاق"[٢].

قال قتادة:" هم المنافقين"[٣].

قوله تعالى:{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ} [النساء : ١٤١]، أي:" فإن منَّ الله عليكم بفضله، ونصركم على عدوكم وغنمتم"[٤].

قال مقاتل:" يعني: النصر على العدو يوم بدر"[٥].

قوله تعالى:{قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} [النساء : ١٤١]، أي: " قالوا لكم: ألم نكن معكم نؤازركم؟"[٦].

قال الزمخشري:أي:" {ألم نكن معكم} مظاهرين، فأسهموا لنا في الغنيمة"[٧].

قال مقاتل:" {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} على عدوكم، فأعطونا من الغنيمة فلستم أحق بها، فذلك قوله- سبحانه- في العنكبوت: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ }[٨]، على عدوكم"[٩].

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ} [النساء : ١٤١]، أي:" وإن كان للجاحدين لهذا الدين قَدْرٌ من النصر والغنيمة"[١٠].

قال مقاتل:" يعني: دولة على المؤمنين يوم أحد"[١١].

قال ابو مالك:" {نصيب}، يعني: حظا"[١٢].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم سمى ظفر المسلمين فتحا، وظفر الكافرين نصيبا؟

قلت: تعظيما لشأن المسلمين وتخسيسا لحظ الكافرين لأن ظفر المسلمين أمر عظيم «٣» تفتح لهم أبواب السماء حتى ينزل على أوليائه. وأما ظفر الكافرين، فما هو إلا حظ دنى ولمظة من الدنيا[١] يصيبونها"[٢].

---

[١] التفسير الميسر:١٠١.
[٢] الكشاف:٥٧٨/١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٣٠):ص١٠٩٤/٤.
[٤] التفسير الميسر:١٠١.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.
[٦] التفسير الميسر:١٠١.
[٧] الكشاف:٥٧٨/١.
[٨][سورة العنكبوت : ١٠].
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.
[١٠] التفسير الميسر:١٠١.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٣١):ص١٠٩٤/٤.

قوله تعالى:{قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤١]، أي:" قالوا لهم: ألم نساعدكم بما قدَّمناه لكم ونَحْمِكُم من المؤمنين؟"[٣].

قال التستري:" يعني: نغلب ونستولي عليكم"[٤].

قال مقاتل:"{قالوا}، أى: المنافقون للكفار، {ألم نستحوذ عليكم}، يعني ألم نحط بكم من ورائكم ونمنعكم من المؤمنين ونجادل المؤمنين عنكم فنحبسهم عنكم ونخبرهم أنا معكم، قالوا ذلك جبنا وفرقا منهم"[٥].

قال الزمخشري:أي:" ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم وأسركم فأبقينا عليكم ونمنعكم من المؤمنين بأن ثبطناهم عنكم، وخيلنا لهم ما ضعفت به قلوبهم ومرضوا في قتالكم، وتوانينا في مظاهرتهم عليكم، فهاتوا نصيبا لنا بما أصبتم"[٦].

وفي قوله تعالى:{قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤١]، ثلاثة وجوه:

أحدها : معناه: ألم نستول عليكم بالمعونة والنصرة ونمنعكم من المؤمنين بالتخذيل عنكم[٧].

والثاني : معناه: ألم نبين لكم أننا على دينكم ، وهذا قول ابن جريج[٨].

والثالث : معناه: ألم نغلب عليكم ، وهو قول السدي[٩]، والتستري[١٠].

والقولان الاخيران متقاربان في المعنى، "وذلك أن من تأوله بمعنى : ألم نبين لكم، إنما أراد - أن شاء الله - : ألم نغلب عليكم بما كان منا من البيان لكم أنا معكم"[١١].

وأصل " الاستحواذ " في كلام العرب: الغلبة ، ومنه قول الله جل ثناؤه : {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ}[سورة المجادلة : ١٩] ، بمعنى : غلب عليهم. يقال منه : حاذ عليه واستحاذ ، يحيذ ويستحيذ ، وأحاذ يحيذ. ومن لغة من قال : حاذ، قول العجاج في صفة ثور وكلب[١٢]:

يَحُوذُهُنَّ وَلَهُ حُوذِيّ

وقد أنشد بعضهم[١٣] :

يَحُوزُهُنَّ وَلَهُ حُوزِيُّ

وهما متقاربا المعنى.

ومن لغة من قال " أحاذ " ، قول لبيد في صفة عَيْرٍ وأتُنٍ [١٤]:

إذَا اجْتَمَعَتْ وَأَحْوَذَ جَانِبَيْهَا ... وَأَوْرَدَهَا عَلَى عُوجٍ طِوَالِ

---

[١]قوله «ولمظة من الدنيا» في الصحاح: لمظ يلمظ- بالضم- لمظا، إذا تتبع بلسانه بقية الطعام في فمه. واللمظة- بالضم- كالنكتة من البياض. (ع).

[٢] الكشاف:٥٧٩/١.

[٣] التفسير الميسر:١٠١.

[٤] تفسير التستري:٥٥.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.

[٦] الكشاف:٥٧٨/١.

[٧] انظر: النكت والعيون:٥٣٧/١.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٧١٣):ص٣٢٥/٩.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٧١٢):ص٣٢٥/٩.

[١٠] انظر: تفسير التستري:٥٥.

[١١] تفسير الطبري:٣٢٦/٩.

[١٢]ديوانه : ٧١ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ : ١٤١ ، واللسان (حوذ) (حوز) ، ورواية الديوان : يَحُوذُها وَهْوَ لَهَا حُوذِيُّ ... خَوْفَ الخِلاطِ فَهْوَ أَجْنَبِيُّ
كَمَا يَحُوذُ الفِئَةَ الكَمِيُّ

وفسروا " يحوذها " : يسوقها سوقًا شديدًا ، ومثله " يحوزها " في الرواية الآتية..

[١٣]انظر اللسان (حوذ) و(حوز).

[١٤]ديوانه : القصيدة : ١٧ ، البيت : ٣٩ ، واللسان (حوذ) ، وقوله : " إذا اجتمعت " يعني إناث حمار الوحش حين دعاها إلى الماء ، فضمها من جانبيها ، يأتيها من هذا الجانب مرة ، ومن هذا مرة حتى غلبها ولم شتاتها ، و " العوج الطوال " قوائمه ، وبعد البيت : رَفَعْنَ سُرَادِقًا في يَوْمِ رِيحٍ ... يُصَفَّقُ بين مَيْلٍ واعْتِدالِ
يعني غبارها ، ارتفع كأنه سرادق تصفقه الريح وتميله مرة هكذا ومرة هكذا ، فهو يميل ويعتدل.

يعني بقوله : " وأحوذ جانبيها " ، غلبها وقهرَها حتى حاذ كلا جانبيها ، فلم يشذّ منها شيء، وكان القياس في قوله :{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}، أن يأتي : " استحاذ عليهم " ، لأن " الواو " إذا كانت عين الفعل وكانت متحركة بالفتح وما قبلها ساكن ، جعلت العرب حركتها في " فاء " الفعل قبلها ، وحوَّلوها «ألفًا»، متبعة حركة ما قبلها ، كقولهم :استحال هذا الشيء عما كان عليه، من :حال يحول، واستنار فلان بنور الله، من :النور، واستعاذ بالله: من عاذ يعوذ، وربما تركوا ذلك على أصله كما قال لبيد : " وأحوذ " ، ولم يقل " وأحاذ " ، وبهذه اللغة جاء القرآن في قوله : {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}(١).

قال الماوردي:" وأصل الاستحواذ الغلبة ، ومنه قوله تعالى: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [المجادلة : ١٩]، يعني: غلب عليهم "(٢).

وفي قوله تعالى:{ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤١]، ثلاثة وجوه(٣):

أحدها: نمنعكم منهم بتخذيلهم عنكم.

والثاني: بما نعلمكم من أخبارهم.

والثالث: بصرفنا إياكم عن الدخول عن الإيمان.

قال ابن الجوزي:"ومراد الكلام: إظهار المنة من المنافقين على الكفار، أي: فاعرفوا لنا هذا الحق عليكم"(٤).

وقرئ :«ونمنعكم»، بالنصب بإضمار «أن»، قال الحطيئة(٥):

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء (٦)

قوله تعالى:{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} [النساء : ١٤١]، أي:" فالله تعالى يقضي بينكم وبينهم يوم القيامة"(٧).

قوله تعالى:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء : ١٤١]، أي:" ولن يجعل الله للكافرين طريقًا للغلبة على عباده الصالحين"(٨).

قال مقاتل:" يعني: حجة أبدا"(٩).

قال الزجاج:" أي: إن اللَّه ناصِرُ المؤمنين بالحجة والغلبة، فلن يجعل للكافرين أبداً على المؤمنين سَبِيلًا"(١٠).

وفي قوله تعالى:{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا} [النساء : ١٤١]، ثلاثة أوجه:

أحدها : أنه يعني: هو سبيل الحجة، أي: لا تكون الحجة للكافرين على المؤمنين أبدا، وهذا معنى قول السدي(١١).

قال الجصاص:" يعني: فيما فعلوا بهم من قتلهم وإخراجهم من ديارهم فهم في ذلك ظالمون لا حجة لهم فيه"(١٢).

والثاني : أن المراد: سبيلاً في الآخرة، وهذا قول عليّ(١٣)، وابن عباس(١)، وأبي مالك(٢)، وعطاء الخراساني(٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٣٢٦/٩-٣٢٧.

(٢) النكت والعيون:٥٣٧/١.

(٣) انظر: زاد المسير:٤٨٨/١.

(٤) زاد المسير:٤٨٨/١.

(٥) ديوانه:٥٤.

(٦) انظر: الكشاف:٥٧٨/١.

(٧) التفسير الميسر:١٠١.

(٨) التفسير الميسر:١٠١.

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.

(١٠) معاني القرآن:١٢٢/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢٠):ص٣٢٨/٩.

(١٢) أحكام القرآن:٢٧٩/٣.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٠٧١٧):ص٣٢٧/٩-٣٢٨.

والثالث: قال ابن كثير:" ويحتمل أن يكون المراد : { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا } أي : في الدنيا ، بأن يُسَلَّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : { إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأشْهَادُ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [غافر : ٥١ ، ٥٢]. وعلى هذا فيكون ردا على المنافقين فيما أملوه وتربصوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين ، خوفا على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم ، كما قال تعالى : { فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ } [المائدة : ٥٢]"[٤].

قال ابن العربي:" أما حمله على نفي وجود الحجة من الكافر على المؤمن فذلك ضعيف؛ لأن وجود الحجة للكافر محال، فلا يتصرف فيه الجعل بنفي ولا إثبات.

وأما نفي وجود الحجة يوم القيامة فضعيف؛ لعدم فائدة الخبر فيه؛ وإن أوهم صدر الكلام معناه؛ لقوله: {فالله يحكم بينكم يوم القيامة} [النساء: ١٤١] فأخر الحكم إلى يوم القيامة، وجعل الأمر في الدنيا دولة تغلب الكفار تارة وتغلب أخرى بما رأى من الحكمة وسبق من الكلمة، ثم قال: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا} [النساء: ١٤١]. فتوهم من توهم أن آخر الكلام يرجع إلى أوله، وذلك يسقط فائدته. وإنما معناه ثلاثة أوجه:

الأول: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا يمحو به دولة المؤمنين، ويذهب آثارهم، ويستبيح بيضتهم، كما جاء في الحديث: ودعوت ربي ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يستبيح بيضتهم فأعطانيها.

الثاني: أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا منه إلا أن تتواصوا بالباطل، ولا تتناهوا عن المنكر، وتتقاعدوا عن التوبة؛ فيكون تسليط العدو من قبلكم؛ وهذا نفيس جدا.

الثالث: أن الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا بالشرع؛ فإن وجد ذلك فبخلاف الشرع، ونزع بهذا علماؤنا في الاحتجاج على أن الكافر لا يملك العبد المسلم؛ وبه قال أشهب والشافعي؛ لأن الله سبحانه نفى السبيل للكافر عليه، والملك بالشراء سبيل فلا يشرع ولا ينعقد بذلك"[٥].

الفوائد:

١- في هذه الآية دليل على أن المنافق ليس بمؤمن وليس الإيمان هو الإقرار فقط، إذ لو كان الإيمان هو الإقرار لكانوا بذلك هم مؤمنين[٦]

٢-وفيها دليل أيضا على صحة نبوة النبي صلّى الله عليه وسلّم لأن القوم كانوا كاتمين اعتقادهم فأظهر الله عز وجل رسوله على اعتقادهم وكان ذلك حجة له عليهم إذ علموا إنه لا يطلع على ضمائر القلوب إلا البارئ جل وعز[٧].

٣-تكفل الله تعالى بعزة المؤمنين الصادقين ومنعتهم فلا يسلط عليهم أعداءه.

٤-استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم من الكافر لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في الحال ؛ لقوله تعالى : { وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}[٨].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٧١٩):ص٣٢٨/٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٧١٨):ص٣٢٨/٩.
[٣] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦١٣٥):ص١٠٩٥/٤.
[٤] تفسير ابن كثير:٤٣٧/٢.
[٥] أحكام القرآن:٦٤٠/١-٦٤١.
[٦] انظر: تفسير الثعلبي:٤٠٤/٣.
[٧] انظر: تفسير الثعلبي:٤٠٤/٣.
[٨] انظر: تفسير ابن كثير:٤٣٧/٢.

القرآن

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)} [النساء : ١٤٢]

التفسير:

إنَّ طريقة هؤلاء المنافقين مخادعة الله تعالى، بما يظهرونه من الإيمان وما يبطنونه من الكفر، ظنًّا أنه يخفى على الله، والحال أن الله خادعهم ومجازيهم بمثل عملهم، وإذا قام هؤلاء المنافقون لأداء الصلاة، قاموا إليها في فتور، يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة، ولا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا قليلا.

سبب النزول:

قال ابن جريج : {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم}، قال : نزلت في عبد الله بن أبيّ ، وأبي عامر بن النعمان، وفي المنافقين{يخادعون الله وهو خادعهم}، قال : مثل قوله في«البقرة»: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ}[سورة البقرة : ٩]، قال : وأما قوله : {وهو خادعهم}، فيقول : في النور الذي يعطَى المنافقون مع المؤمنين ، فيعطون النور، فإذا بلغوا السور سُلب ، وما ذكر الله من قوله:{انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ }[سورة الحديد : ١٣]. قال قوله : {وهو خادعهم}"[١].

قال مقاتل:" نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}"[٢].

قوله تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء : ١٤٢]، أي:" إنَّ طريقة هؤلاء المنافقين مخادعة الله تعالى، بما يظهرونه من الإيمان وما يبطنونه من الكفر، ظنًّا أنه يخفى على الله، والحال أن الله خادعهم ومجازيهم بمثل عملهم"[٣].

قال الزجاج:" أي يخادعون النبي - ﷺ - بإظهارهم له الإيمان وإبطانِهم الكفْرِ، فجعل الله عزَّ وجلَّ مخادعة النبي - ﷺ - مخادعة له"[٤].

قال الماوردي:" أي: يخادعون نبي الله بما يظهرونه من الإيمان ويبطنونه من الكفر ، فصار خداعهم لرسول الله صلى الله عليهم خداعاً لله عز وجل"[٥].

قال الطبري:أي:" إنّ المنافقين يخادعون الله ، بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم ، والله خادعهم بما حكَم فيهم من منع دِمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان ، مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفرَ ، استدراجًا منه لهم في الدنيا ، حتى يلقوه في الآخرة ، فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نارَ جهنم"[٦].

قال الحسن:" يعطى المؤمن يوم القيامة نورا ويعطى المنافق نورا يمشون به حتى ينتهوا إلى الصراط، فإذا انتهوا إلى الصراط مضى المؤمنون بنورهم ويطفي نور المنافقين، فـ {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ **قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**} [٧]، قال الحسن: فتلك خديعة الله إياهم"[٨].

وفي معنى قوله تعالى:{ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النساء : ١٤٢]، وجوه من التفسير:

---

[١] أخرجه الطبري(١٠٧٢٢):ص٣٢٩/٩-٣٣٠.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٦/١.
[٣] التفسير الميسر:١٠١.
[٤] معاني القرآن:١٢٢/٢-١٢٣.
[٥] النكت والعيون:٥٣٨/١.
[٦] تفسير الطبري:٣٢٨/٩.
[٧][سورة الحديد : ١٤].
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٨):ص١٠٩٥/٤.

أحدها : أن مُخادعةُ اللَّه إياهم جزاؤُهم على المخادعة بالعذاب، فسمى الجزاء على الفعل باسمه، ومن ذلك قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ} [الأنفال : ٣٠]. ذكره الزجاج عن بعضهم [١]، واختاره ابن عطية[٢].

والثاني : أنه أمر فيهم بأمر المُخْتَدِع لهم بما أمر به من قبول إيمانهم وإن علم ما يبطنون من كفرهم. ذكره الزجاج أيضا[٣].

والثالث: أي: يسرع لهم الجزاء على إظهار الإيمان وإضمار الكفر بترك العصمة والتوفيق، وتمديد الأموال والبنين، والإطراق على عاجل الدنيا، وخاتمتهم النار. وهذا قول سهل التستري[٤].

والرابع:أنه يفتح لهم باب من أبواب الجنة؛ فإذا رأوا ذلك قصدوا ذلك الباب، فلما دنوا منه أغلق دونهم، فذلك الخداع[٥].

والخامس: أنهم عندما شاركوا المؤمنين في هذه الدنيا ومنافعها، والتمتع والتقلب فيها؛ فظنوا أنهم يشاركونهم في منافع الآخرة والتمتع بها؛ فيحرمون ذلك، فذلك الخديعة. أفاده الماتريدي[٦].

والسادس:ما يعطيهم في الآخرة من النور الذي يمشون به مع المؤمنين ، فإذا جاؤواْ إلى الصراط طفىء نورهم ، فتلك خديعة الله إياهم. وهذا قول الحسن[٧]، والسدي[٨]، وابن جريج[٩]. جريج[٩].

قال ابن كثير:" قوله : { وَهُوَ خَادِعُهُمْ } أي: هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الحق والوصول إليه في الدنيا وكذلك في يوم القيامة كما قال تعالى:{ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ } [الحديد : ١٣ - ١٥] وقد ورد في الحديث : «من سَمَّع سَمَّع الله به ، ومن راءي راءي الله به»[١٠]، وفي حديث آخر : «إن الله يأمر بالعبد إلى الجنة فيما يبدو للناس ، ويعدل به إلى النار»[١١]، عياذًا بالله من ذلك"[١٢].

وقرأ مسلمة بن عبد الله النحوي: «وهو خادعهم» بإسكان العين، وذلك على التخفيف[١٣].

قوله تعالى:{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى} [النساء : ١٤٢]، أي:" وإذا قام هؤلاء المنافقون لأداء الصلاة، قاموا إليها في فتور"[١٤].

قال الواحدي:أي:" متثاقلين"[١٥].

---

[١] انظر: معاني القرآن:١٢٣/٢، والنكت والعيون:٥٣٨/١.
[٢] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.
[٣] انظر: معاني القرآن:١٢٣/٢، والنكت والعيون:٥٣٨/١.
[٤] انظر: تفسير التستري:٥٥.
[٥] انظر: تفسير الماتريدي:٣٩٥/٣.
[٦] انظر: تفسير الماتريدي:٣٩٥/٣.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢٣):ص٣٣٠/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢١):ص٣٢٩/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢٢):ص٣٢٩/٩-٣٣٠.
[١٠]صحيح البخاري برقم (٦٤٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٧٨٧).
[١١] .
[١٢] تفسير ابن كثير:٤٣٧/٢-٤٣٨.
[١٣] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.
[١٤] التفسير الميسر:١٠١.
[١٥] الوجيز:٢٩٧.

قال ابن كثير:" هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمانَ لهم بها ولا خشية ، ولا يعقلون معناها، فقوله تعالى : { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى } هذه صفة ظواهرهم ، كما قال : { وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى } [التوبة : ٥٤]"[١].

قال ابن عطية:" وتلك حال كل من يعمل العمل كارها غير معتقد فيه الصواب تقية أو مصانعة"[٢].

عن سماك الحنفي، عن ابن عباس" أنه كان يكره أن يقول الرجل: إني كسلان ويتأول هذه الآية: {وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى}"[٣].

ويحتمل قوله تعالى: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى} [النساء : ١٤٢]، وجهين[٤]:

أحدهما : متثاقلين .

والثاني : مقصَّرين .

وقرأ ابن هرمز الأعرج :«كسالى» بفتح الكاف[٥].

قوله تعالى:{يُرَاءُونَ النَّاسَ} [النساء : ١٤٢]، أي:" يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة"[٦].

قال ابن زيد:" هم المنافقون ، لولا الرياء ما صلُّوا"[٧].

قال الواحدي:" ليرى ذلك النَّاس لا لاتِّباع أمر الله يعني: ليراهم النَّاس مُصلِّين لا يريدون وجه الله"[٨].

قال الماوردي:"يعني: أنهم يقصدون بما يفعلونه من البر رياء الناس دون طاعة الله تعالى"[٩].

قال ابن كثير:" أي : لا إخلاص لهم [ولا معاملة مع الله بل إنما يشهدون الناس تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيرا عن الصلاة التي لا يُرَون غالبًا فيها كصلاة العشاء وقت العَتَمَة ، وصلاة الصبح في وقت الغَلَس" [١٠].

كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْوًا ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال ، معهم حُزَم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرّق عليهم بيوتهم بالنار»[١١].

وفي رواية : "والذي نفسي بيده ، لو علم أحدهم أنه يجد عَرْقًا سمينًا أو مَرْمَاتين حسنتين ، لشهد الصلاة ، ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار"[١٢].

واخرج الحافظ أبو يعلى عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : "من أحْسَنَ الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو ، فتلك استهانة ، استهان بها ربه عز وجل" [١٣].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٣٨/٢.
[٢] المحرر الوجيز:١٢٧/٢.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٣٩):ص١٠٩٦/٤.
[٤] انظر: النكت والعيون:٥٣٨/١.
[٥] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.
[٦] التفسير الميسر:١٠١.
[٧] أخرجه الطبري(١٠٧٢٥):٣٣١/٩.
[٨] الوجيز:٢٩٧.
[٩] النكت والعيون:٥٣٨/١.
[١٠] تفسير ابن كثير:٤٣٨/٢.
[١١]صحيح البخاري برقم (٦٥٧) وصحيح مسلم برقم (٦٥١).
[١٢]رواه البخاري في صحيحه برقم (٦٤٤).
[١٣]مسند أبو يعلى (٥٤/٩) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (٢٩٠/٢) من طريق زائدة عن إبراهيم الهجري به. قال الهيثمي في المجمع (٢٢١/١٠) : "فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف".

وعن قتادة قوله: "{يراؤن الناس}، وإنه والله لولا الناس ما صلى المنافق، ما يصلي إلا رياء وسمعة"[1].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى المراءاة وهي مفاعلة من الرؤية؟

قلت: فيها وجهان، أحدهما: أن المرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسانه. والثاني: أن يكون من المفاعلة بمعنى التفعيل، فيقال: راءى الناس. يعنى رآهم، كقولك: نعمه وناعمه، وفنقه وفانقه[2] وعيش مفانق"[3].

وقرأ جمهور الناس: «يرءون»، بهمزة مضمومة مشددة بين الراء والواو دون ألف، وهي تعدية رأى بالتضعيف، وهي أقوى في المعنى من «يراؤن»، لأن معناها يحملون الناس على أن يروهم، ويتظاهرون لهم بالصلاة وهم يبطنون النفاق[4].

قوله تعالى:{وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٤٢]، أي:" ولا يذكرون الله تعالى إلا ذكرًا قليلا"[5].

قال الواحدي:" لأنَّهم يعملونه رياءً وسمعةً ولو أرادوا به وجه الله لكان كثيراً"[6].

قال الحسن:" إنما قلّ، لأنه كان لغير الله"[7].

وقال الحسن ايضا:" فو الله لو كان ذلك القليل منهم لله لقبله، ولكن كان ذلك القليل منهم رياء"[8].

قال قتادة:" وإنما قال ذكر المنافق، لأن الله لم يقبله، كل ما ردّ الله قليل، كل ما قبل الله كثير"[9].

قال ابن كثير:" أي: في صلاتهم لا يخشعُون فيها ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعما يراد بهم من الخير معرضون"[10].

وقد روى الإمام مالك ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق : يجلس يَرْقُب الشمس ، حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشيطان ، قام فَنَقَر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"[11].

وفي تسمية ذكرهم بالقليل أربعة أقوال:

أحدها: أنه سمي قليلا، لأنه غير مقبول، قاله علي -رضي الله عنه-[12]، وقتادة[13].

والثاني: لأنه رياء، ولو كان لله لكان كثيرا، قاله ابن عباس[14]، والحسن[15].

والثالث: أنه قليل في نفسه، لاقتصاره على ما يظهر من التكبير دون ما يخفي من القراءة والتسبيح ، وإنما قَلَّ من أجل اعتقادهم لا من قلة ذكرهم ، ذكره الماوردي[16].

والرابع: أنه قليل بالنسبة إلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر. ذكره ابن عطية[17].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٠):ص١٠٩٦/٤.

[2] قوله «وفنقه وفانقه» في الصحاح أنهما بمعنى: أى نعمه.

[3] الكشاف:٥٨٠/١.

[4] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

[5] التفسير الميسر:١٠١.

[6] الوجيز:٢٩٧.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤١):ص١٠٩٦/٤.

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٢):ص١٠٩٦/٤.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٢):ص١٠٩٦/٤.

[10] تفسير ابن كثير:٤٣٩/٢.

[11] الموطأ (٢٢٠/١) وصحيح مسلم برقم (٦٢٢) وسنن أبي داود برقم (٤١٢) وسنن الترمذي برقم (١٦٠)، قال الترمذي : "حسن صحيح". وسنن النسائي (٢٥٤/١).

[12] انظر: زاد المسير:٤٨٩/١.

[13] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢٧):ص٣٣٢/٩.

[14] انظر: زاد المسير:٤٨٩/١.

[15] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٢٦):ص٣٣٢/٩.

[16] انظر: النكت والعيون:٥٣٩/١.

[17] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

قال الزمخشري:أي:" ولا يصلون إلا قليلا لأنهم لا يصلون قط غائبين عن عيون الناس إلا ما يجاهرون به، وما يجاهرون به قليل أيضا لأنهم ما وجدوا مندوحة من تكلف ما ليس في قلوبهم لم يتكلفوه. أو ولا يذكرون الله بالتسبيح والتهليل إلا ذكرا قليلا في الندرة، وهكذا ترى كثيرا من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالي لم تسمع منه تهليلة ولا تسبيحة ولا تحميدة، ولكن حديث الدنيا يستغرق به أوقاته لا يفتر عنه. ويجوز أن يراد بالقلة العدم"[١].

الفوائد:

١- بيان صفات المنافقين.

٢- قبح الرياء وذم المرائين.

٣- ذم ترك الذكر والتقليل منه لأمر الله تعالى بالإكثار منه في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً} .

القرآن

{مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)} [النساء : ١٤٣]

التفسير:

إنَّ مِن شأن هؤلاء المنافقين التردد والحَيْرة والاضطراب، لا يستقرون على حال، فلا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين. ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه، فلن تجد له طريقًا إلى الهداية واليقين.

قوله تعالى:{مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ} [النساء : ١٤٣]، أي:" إنَّ مِن شأن هؤلاء المنافقين التردد والاضطراب بين الكفر والإيمان"[٢].

قال ابن عطية:"معناه: مضطربين لا يثبتون على حال"[٣].

قال الطبري:أي:" مردّدين، وإنما عنى الله بذلك: أن المنافقين متحيِّرون في دينهم ، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة ، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة ، ولا مع المشركين على جهالة ، ولكنهم حيارَى بين ذلك ، فمثلهم المثلُ الذي ضرب لهم رسول الله -ﷺ-:عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال : «مَثَلُ المنافق كمثل الشَّاة العائرة بين الغنمين ، تَعِير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة ، لا تدري أيَّهُما تَتْبع!»[٤]"[٥].

قال الزمخشري:" ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم مترددون بينهما متحيرون"[٦].

قال مجاهد:" هم المنافقون"[٧].

قال ابن كثير:" يعني : المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا ، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا ، بل ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك ، فتارة يميل إلى هؤلاء ، وتارة يميل إلى أولئك { كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا } الآية [البقرة : ٢٠]"[٨].

عن أبي الأحوص قال عبدالله:" مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى وادي فوقع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر حتى أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب؟ إلى الهلكة، إرجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر: هلم النجاة

---

[١] الكشاف:٥٧٩/١-٥٨٠.

[٢] انظر: تفسير ابن كثير:٤٣٩/٩، والتفسير الميسر:١٠١..

[٣] المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

[٤] أخرجه الطبري(١٠٧٢٧):ص٣٣٣/٩.[إسناده صحيح].

[٥] تفسير الطبري:٣٣٢/٩.

[٦] الكشاف:٥٨٠/١.

[٧] أخررجه ابن ابي حاتم(٦١٤٥):ص١٠٩٧/٤.

[٨] تفسير ابن كثير:٤٣٩/٩.

فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاء سيل فأغرقه والذي عبر المؤمن والذي غرق المنافق، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء والذي مكث الكافر"[١].

وأصل " التذبذب ": التحرك والاضطراب[٢]،أو خوف أو إسراع في مشي ونحوه[٣]، كما قال النابغة[٤]:

أَلم تَرَ أَنَّ الله أَعْطَاكَ سُورَةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

ومنه قول البعيث بن حريث[٥] :

خيال لأم السلسبيل ودونها   مسيرة شهر للبريد المذبذب

قال الزمخشري:" وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أى يذاد ويدفع فلا يقر في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمى به الرحوان[٦]، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذب كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه"[٧].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن :«مذبذبين»، بفتح الميم والذالين[٨]، قال ابن عطية:"وهي قراءة مردودة"[٩].

وفي قراءة ابن عباس وعمرو بن فايد:«مُذَبْذِبِين»، بكسر الذال الثانية[١٠].

قال ابن جني:" أي: المهتز القلق الذي لا يثبت في مكان، فكذلك هؤلاء: يخِفُّون تارة إلى هؤلاء وتارة إلى هؤلاء...وهو من ذَبَّبْتُ عن الشيء: أي صرفت عنه شيئًا يريده إلى غير جهته، وقريب من لفظه، إلا أنه ليس من لفظه"[١١].

وفي مصحف عبد الله: «متذبذبين»[١٢].

وعن أبى جعفر: «مدبدبين»، بالدال غير المعجمة[١٣]، قال الزمخشري:" وكأن المعنى: أخذ بهم تارة في دبة وتارة في دبة، فليسوا بماضين على دبة واحدة. و«الدبة»: الطريقة، ومنها: دبة قريش. وذلك إشارة إلى الكفر والإيمان"[١٤].

قوله تعالى:{لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ} [النساء : ١٤٣]، أي:" فلا هم مع المؤمنين ولا هم مع الكافرين"[١٥].

قال الزمخشري:أي:"لا منسوبين إلى هؤلاء فيكونون مؤمنين، ولا منسوبين إلى هؤلاء فيسمون مشركين"[١٦].

قال السدي:" يقول: ليسوا بمشركين فيظهرون الشرك وليسوا بمؤمنين"[١٧].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٤):ص١٠٩٦/٤.

[٢] انظر: تفسير الطبري:٣٣٣/٩.

[٣] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

[٤]ديوانه ١٧، واللسان ٦/ ٥٣، ومجاز القرآن ٤، وتفسير الطبري :٣٣٣/٩، والإتقان ١/ ٨٩، وغيرها.

[٥] انظر: الحماسة: ١/ ١٤٨، وتفسير القرطبي:٤٢٤/٥، والبحر المحيط:١٠٨/٤.

[٦]. قوله «يرمى به الرحوان» في الصحاح الرحى معروفة، والألف منقلبة من الياء. تقول: هما رحيان. وفيه أيضا، رحت الحية ترحو، إذا استدارت. والرحي: قطعة من الأرض تستدبر وترتفع على ما حولها. ورحى القوم: سيدهم. والأرحاء: الأضراس. والأرحاء: القبائل التي تستقل بنفسها وتستغني عن غيرها اه. وظاهره أن الرحى هنا وادى، فليحرر..

[٧] الكشاف:٥٨٠/١.

[٨] انظر: المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

[٩] المحرر الوجيز:١٢٧/٢.

[١٠] انظر: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرات والإيضاح عنها، أبو الفتح:٢٠٣/١.

[١١]المحتسب في تبيين وجوه شواذ القرات والإيضاح عنها::٢٠/١.

[١٢] انظر:الكشاف:٥٨٠/١.

[١٣]انظر:الكشاف:٥٨٠/١.

[١٤] الكشاف:٥٨٠/١..

[١٥] التفسير الميسر:١٠١.

[١٦] الكشاف:٥٨٠/١..

[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٩):ص١٠٩٧/٤.

عن مجاهد قوله: "{لا إلى هؤلاء}، لأصحاب محمد"[1]، " قوله: {لا إلى هؤلاء}: اليهود"[2].

عن قتادة قوله: "{لا إلى هؤلاء}، يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا بمشركين مصرحين بالشرك"[3].

قوله تعالى:{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ} [النساء : ١٤٣]، أي:" ومن يصرف الله قلبه عن الإيمان به والاستمساك بهديه"[4].

قوله تعالى:{فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء : ١٤٣]، أي:" فلن تجد له طريقًا إلى الهداية واليقين"[5].

عن السدي: "{سبيلا}، يقول: حجة"[6].

الفوائد:

١- ذم الحيرة والتردد في الأمور كلها.

٢-أن المنافقين هم طلاب منافع، وأنهم لا إخلاص لديهم.

٣-ومن **الفوائد:** أن من الناس من ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو مرجحن مضطرب مذبذب، يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمنا، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال أو فقد ولد ترك دينه.

٤- أن هذه الأوصاف المذمومة للمنافقين تدل بتنبيهها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهرا وباطنا، والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووفقهم للصراط المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين وليختر أيهما أولى به[7].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)} [النساء : ١٤٤]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا توالوا الجاحدين لدين الله، وتتركوا موالاة المؤمنين ومودتهم. أتريدون بمودَّة أعدائكم أن تجعلوا لله تعالى عليكم حجة ظاهرة على عدم صدقكم في إيمانكم؟

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: ذكر الماتريدي عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: "نزلت في المنافقين الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين"[8].

قال الواحدي:" قال المفسرون: لما ذم الله المنافقين بأنهم مرة إلى الكفار ومرة إلى المسلمين من غير أن يقرُّوا مع أحد الفريقين، نهى المسلمين في هذه الآية أن يصنعوا كصنيع المنافقين فقال: {لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ}، يعني اليهود من قريظة والنضير، وذلك أنَّ الأنصار بالمدينة كان لهم رضاع وحلف ومودة، فقالوا لرسول الله - ﷺ -: من نتولى ؟ فقال: "المهاجرين"، ونزلت هذه الآية. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء"[9].

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٦):ص٤/١٠٩٧.
[2] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٨):ص٤/١٠٩٧.
[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٤٧):ص٤/١٠٩٧.
[4] التفسير الميسر:١٠١.
[5] التفسير الميسر:١٠١.
[6] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٥٠):ص٤/١٠٩٧.
[7] تفسير السعدي:٢١٠.
[8] تفسير الماتريدي:٣/٣٩٧.
[9] التفسير البسيط:٧/١٦٤، ولم اقف على قول ابن عباس-رضي الله عنه-.

قال مقاتل:" نزلت في المنافقين منهم عبد الله ابن أبي، ومالك بن دخشم، وذلك أن مواليهما من اليهود: أصبع ورافع عيروهما بالإسلام، وزينوا لهما ترك دينهما وتوليهما اليهود فصانعا اليهود، فقال الله:{لا تتخذوا الكافرين}، من اليهود، {أولياء من دون المؤمنين}"(١).

والثاني: أنها "نزلت في المؤمنين، نهاهم أن يتخذوا المنافقين أولياء بإظهارهم الإيمان علانية، وأمرهم أن يتخذوا المؤمنين أولياء"(٢).

والثالث: وذكر الواحدي عن مقاتل: "كانوا يظهرون المودة للمشركين الذين بمكة، فنهاهم الله"(٣)، فعلى هذا المراد بالكافرين المشركون.

قال الواحدي:" والقول الأول أظهر"(٤).

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [النساء : ١٤٤]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"(٥).

قال ابن عثيمين:" إن وصف الإيمان للمنادى؛ وتصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به؛ لأن النداء يستلزم انتباه المنادى"(٦).

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"(٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(٢).

قوله تعالى:{لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤٤]، أي:" لا توالوا الجاحدين لدين الله، وتتركوا موالاة المؤمنين ومودتهم "(٨).

قال يحيى بن سلام:" يعني: أولياء في النَّصيحة"(٩).

قال الزجاج:" أي لا تجعلوهم بطانتكم وخاصتكم"(١٠).

قال الزمخشري:أي:" لا تتشبهوا بالمنافقين في اتخاذهم اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام أولياء"(١١).

قال الطبري:أي:" لا توالوا الكفَّار فتؤازروهم من دون أهل ملَّتكم ودينكم من المؤمنين، فتكونوا كمن أوجبت له النار من المنافقين، وهذا نهي من الله عبادَه المؤمنين أن يتخلَّقوا بأخلاق المنافقين، الذين يتخذون الكافرين أولياءَ من دون المؤمنين، فيكونوا مثلهم في ركوب ما نهاهم عنه من موالاة أعدائه"(١٢).

قال الراغب:" نهى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذلك أن يستعان بهم استعانة المرؤوس بالرئيس، والمنتصر بالناصر لاستعانة المستخدم بالحاكم"(١٣).

وفي وجه النهي في الولاية واتخاذهم أولياء أقوال(١٤):

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٧/١.

(٢) تفسير الماتريدي:٣٩٧/٣.

(٣) التفسير البسيط:١٦٤/٧، ولم اقف على الأثر.

(٤) التفسير البسيط:١٦٤/٧.

(٥) التفسير الميسر:١٠١.

(٦) تفسير ابن عثيمين:٢٤٦/٢.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١.

(٨) التفسير الميسر:١٠١.

(٩) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:٢٣٩.

(١٠) معاني القرآن:١٢٣/٢.

(١١) الكشاف:٥٨٠/١.

(١٢) تفسير الطبري:٣٣٦/٩.

(١٣) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٠٧/٤.

(١٤) انظر: تفسير الماتريدي:٣٩٨/٣.

أحدها: أنه النهي عن ولايتهم ولاية الدين، أي: لا تثقوا بهم، ولا تصدقوهم، ولا تأمنوهم في الدين؛ فإنهم يريدون أن يصرفوكم عن دينكم؛ كقوله - تعالى -: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [آل عمران : ١٤٩].

والثاني:أنه النهي عن اتخاذهم أولياء في أمر الدنيا؛ كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران : ١١٨]، نهي - عز وجل - المؤمنين أن يجعلوا المنافقين موضع سرهم في أمر من أمور الحرب وغيره.

والثالث: أنه في كل أمر، أي: لا تصادقوهم، ولا تجالسوهم، ولا تأمنوهم.

قال الجصاص:" فإن الولي هو الذي يتولى صاحبه بما يجعل له من النصرة والمعونة على أمره والمؤمن ولي الله بما يتولى من إخلاص طاعته والله ولي المؤمنين بما يتولى من جزائهم على طاعته واقتضت الآية النهي عن الاستنصار بالكفار والاستعانة بهم والركون إليهم والثقة يهم وهو يدل على أن الكافر لا يستحق الولاية على المسلم بوجه ولدا كان أو غيره ويدل على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة في الأمور التي يتعلق بها التصرف والولاية وهو نظير قوله: {لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ} [آل عمران : ١١٨]، وقد كره أصحابنا توكيل الذمي في الشرى والبيع ودفع المال إليه مضاربة وهذه الآية دالة على صحة هذا القول"[١].

قوله تعالى:{أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء : ١٤٤]، أي:" أتريدون بمودَّة أعدائكم أن تجعلوا لله تعالى عليكم حجة ظاهرة على عدم صدقكم في إيمانكم؟"[٢].

قال البغوي:" أي: حجة بينة في عذابكم"[٣].

قال الماتريدي:" أي: تجعلون لله عليكم سلطانا مبينا"[٤].

قال مقاتل:" يعني: حجة بينة يحتج بها عليكم حين توليتم اليهود ونصحتموهم"[٥].

قال الزجاج:" أي: حجة ظاهرة، والسلطان في اللغة الحجة، وإنما قيل للخليفة والأمير سلطان لأن معناه أنه ذو الحجة"[٦].

قال الطبري:" يقول: لا تعرَّضوا لغضب الله، بإيجابكم الحجة على أنفسكم في تقدمكم على ما نهاكم ربكم من موالاة أعدائه وأهلِ الكفر به"[٧].

قال الزمخشري:أي:" {سلطانا}: حجة بينة، يعنى: أن موالاة الكافرين بينة على النفاق"[٨].

قال قتادة:" إن لله السلطان على خلقه، ولكنه يقول: عذرًا مبينًا"[٩].

قال عكرمة:" ما كان في القرآن من«سلطان»، فهو حجّة"[١٠].

عن مجاهد في قوله:"{سلطانًا مبينًا}، قال: حُجَّة"[١١].

وعن صعصعة ابن صوحان أنه قال لابن أخ له: "خالص المؤمن، وخالق الكافر والفاجر فان الفاجر يرضى منك بالخلق الحسن، وإنه يحق عليك أن تخالص المؤم"[١٢].

الفوائد:

١- حرمة اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

---

[١] أحكام القرآن:٢٨٠/٣.
[٢] التفسير الميسر:١٠١.
[٣] تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
[٤] تفسير الماتريدي:٣٩٨/٣.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٧/١.
[٦] معاني القرآن:١٢٣/٢.
[٧] تفسير الطبري:٣٣٦/٩.
[٨] الكشاف:٥٨٠/١.
[٩] أخرجه الطبري(١٠٧٣٧):ص٣٣٧/٩.
[١٠] أخرجه الطبري(١٠٧٣٨):ص٣٣٧/٩.
[١١] أخرجه الطبري(١٠٧٣٩)، (١٠٧٤٠):ص٣٣٧/٩.
[١٢] الكشاف:٥٨٠/١.

٢- إذا عصى المؤمنون ربهم فاتخذوا الكافرين أولياء سلط الله عليهم أعداءهم فساموهم الخسف.

القرآن

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)} [النساء : ١٤٥]

التفسير:

إن المنافقين في أسفل منازل النار يوم القيامة، ولن تجد لهم -أيها الرسول- ناصرًا يدفع عنهم سوء هذا المصير.

قوله تعالى:{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء : ١٤٥]، أي:" إن المنافقين في أسفل منازل النار يوم القيامة"[١].

قال ابن عباس:" ، يعني : في أسفل النار"[٢].

قال عبدالله:" : في توابيت من حديد مُبْهَمة عليهم"[٣]. وفي رواية أخرى:" ، توابيت من من نار تُطْبَقُ عليهم"[٤]. وروي عنه ايضا:" إن المنافقين في توابيتَ من حديد مقفلةٍ عليهم في النار"[٥].

قال أبو هريرة : "في توابيت تُرْتَجُ عليهم"[٦].

عن ابن جريج قال:" قال لي عبد الله بن كثير قوله :{في الدرك الأسفل من النار}، قال : سمعنا أن جهنم أدْراك ، منازل"[٧].

قال الطبري:أي:" إن المنافقين في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم، وكل طبَق من أطباق جهنم:«درك»"[٨].

قال ابن ابي زمنين:" وهو الباب السابع الأسفل"[٩].

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: "جهنم أدراك، أي منازل، فكل منزلة منها درك"[١٠].

قال الزمخشري:" {الدرك الأسفل}، الطبق الذي في قعر جهنم، والنار سبع دركات، سميت بذلك لأنها متداركة متتابعة بعضها فوق بعض"[١١].

فإن قلت: "لم كان المنافق أشد عذابا من الكافر؟

قلت: لأنه مثله في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله ومداجاتهم[١٢]"[١٣].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر:{في الدرك} مفتوحة الراء، وقرأ عاصم وحمزة والكسائى {في الدرك} ساكنة الراء، وروى الكسائى وحسين الجعفى عن أبى بكر عن عاصم {في الدرك} مثل أبى عمرو[١٤].

قوله تعالى:{وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} [النساء : ١٤٥]، أي:" ولن تجد لهم -أيها الرسول- ناصرًا يدفع عنهم سوء هذا المصير"[١٥].

قال الزجاج:" أي:لا يمنعهم مانع من عذاب الله عز وجل ولا يشفع لهم شافع"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:١٠١.
[٢] أخرجه الطبري(١٠٧٤٤):ص٣٣٩/٩.
[٣] أخرجه الطبري(١٠٧٤١):ص٣٣٨/٩.
[٤] أخرجه الطبري(١٠٧٤٦):ص٣٣٩/٩.
[٥] أخرجه الطبري(١٠٧٤٢):ص٣٣٨/٩-٣٣٩.
[٦] أخرجه الطبري(١٠٧٤٣):ص٣٣٩/٩.
[٧] أخرجه الطبري(١٠٧٤٥):ص٣٣٩/٩.
[٨] تفسير الطبري:٣٣٧/٩.
[٩] تفسير ابن ابي زمنين:٤١٦/١.
[١٠] معاني القرآن للفرا:١٢٤/٢.
[١١] الكشاف:٥٨١/١.
[١٢]قوله «ومداجاتهم» في الصحاح: المداجاة: المداراة.
[١٣] الكشاف:٥٨١/١.
[١٤] انظر: السبعة:٢٣٩.
[١٥] التفسير الميسر:١٠١.
[١٦] معاني القرآن للفرا:١٢٤/٢.

قال الطبري:" يعني : ولن تجد لهؤلاء المنافقين ، يا محمد ، من الله إذا جعلهم في الدرك الأسفل من النار ناصرًا ينصرهم منه ، فينقذهم من عذابه ، ويدفع عنهم أليمَ عقابه"[1].

الفوائد:

١- فى الآية إشارة إلى أن دار العذاب فى الآخرة ذات دركات بعضها أسفل من بعض، كما أن دار النعيم درجات بعضها أعلى من بعض.

٢- أن سبب كون المنافقين في الدرك الاسفل من النار، لأنهم شر أهلها، إذ هم جمعوا بين الكفر والنفاق ومخادعة الرسول والمؤمنين وغشهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، ونفوسهم أحط النفوس، ومن ثم كانوا أجدر الناس بالدرك الأسفل منها.

أما أكثر الكفار فقد غلب عليهم الجهل بحقيقة التوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره، من صنم أو وثن يتخذونه شفيعا عنده ووسيطا بينه وبينه، وقد قاسوا ذلك على معاملة الملوك المستبدين، والأمراء الظالمين[2].

٤-قال السعدي:" وهذا عام لكل منافق إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات"[3].

القرآن

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)} [النساء : ١٤٦]

التفسير:

إلا الذين رجعوا إلى الله تعالى وتابوا إليه، وأصلحوا ما أفسدوا من أحوالهم باطنًا وظاهرًا، ووالوا عباده المؤمنين، واستمسكوا بدين الله، وأخلصوا له سبحانه، فأولئك مع المؤمنين في الدنيا والآخرة، وسوف يعطي الله المؤمنين ثوابًا عظيمًا.

قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا} [النساء : ١٤٦]، أي:" إلا الذين رجعوا إلى الله تعالى وتابوا إليه"[4].

قال البغوي:أي:" من النفاق وآمنوا"[5].

قال الطبري:" أي : راجعوا الحق، وآبوا إلا الإقرار بوحدانية الله وتصديق رسوله وما جاء به من عند ربه من نفاقهم"[6].

قوله تعالى:{وَأَصْلَحُوا} [النساء : ١٤٦]، أي:" وأصلحوا ما أفسدوا من أحوالهم باطنًا وظاهرًا"[7].

قال البغوي:أي:" عملهم"[8].

قال الطبري: " يعني : وأصلحوا أعمالهم ، فعملوا بما أمرهم الله به ، وأدَّوا فرائضه ، وانتهوا عما نهاهم عنه ، وانزجروا عن معاصيه"[9].

قوله تعالى:{وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ} [النساء : ١٤٦]، أي:" واستمسكوا بدين الله"[10].

قال الثعلبي والبغوي:أي:"وثقوا بالله"[11].

قال الطبري: " يقول : وتمسَّكوا بعهد الله"[12].

---

[1] تفسير الطبري:٣٣٩/٩.
[2] انظر: تفسير المراغي:١٩٠/٥.
[3] تفسير السعدي:٢١١.
[4] التفسير الميسر:١٠١.
[5] تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
[6] تفسير الطبري:٣٤٠/٩.
[7] التفسير الميسر:١٠١.
[8] تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
[9] تفسير الطبري:٣٤٠/٩.
[10] التفسير الميسر:١٠١.
[11] تفسير الثعلبي:٤٠٦/٣، وتفسير البغوي:٣٠٣/٢.
[12] تفسير الطبري:٣٤٠/٩.

و«الاعتصام»:"التمسك والتعلق، فالاعتصام بالله : التمسك بعهده وميثاقه الذي عهد في كتابه إلى خلقه ، من طاعته وترك معصيته"[١].

قوله تعالى:{وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ} [النساء : ١٤٦]، أي:" وأخلصوا له سبحانه"[٢].

قال الزمخشري:أي:" لا يبتغون بطاعتهم إلا وجهه"[٣].

قال البغوي:" أراد الإخلاص بالقلب، لأن النفاق كفر القلب، فزواله يكون بإخلاص القلب"[٤].

قال الطبري: " يقول : وأخلصوا طاعتَهم وأعمالهم التي يعملونها لله ، فأرادوه بها ، ولم يعملوها رئاءَ الناس ، ولا على شك منهم في دينهم ، وامتراءٍ منهم في أن الله محصٍ عليهم ما عملوا ، فمجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ولكنهم عملوها على يقين منهم في ثواب المحسن على إحسانه ، وجزاء المسيء على إساءته ، أو يتفضَّل عليه ربه فيعفو متقرّبين بها إلى الله ، مريدين بها وجه الله"[٥].

قوله تعالى:{فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [النساء : ١٤٦]، أي:" فأولئك في زمرتة المؤمنين يوم القيامة"[٦].

قال الطبري: " يقول : فهؤلاء الذين وصف صفتَهم من المنافقين بعد توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم أي : مع المؤمنين في الجنة، لا مع المنافقين الذين ماتوا على نفاقهم ، الذين أوعدهم الدَرَك الأسفل من النار"[٧].

قال الزمخشري:أي:" فهم أصحاب المؤمنين ورفقاؤهم في الدارين"[٨].

قال الثعلبي:أي:" على دينهم"[٩].

قال ابن كثير:" أي : في زمرتهم يوم القيامة"[١٠].

قال الفراء: {معَ الْمُؤْمِنِينَ}، تفسيره من المؤمنين"[١١].

قال القتيبي: حاد عن كلامهم غيظا عليهم فقال {فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}، ولم يقل فأولئك هم المؤمنون"[١٢].

قوله تعالى:{وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ١٤٦]، أي:" وسوف يعطي الله المؤمنين ثوابًا عظيمًا"[١٣].

قال الزمخشري:أي:" فيشاركونهم فيه ويساهمونهم"[١٤].

قال الثعلبي والبغوي:" يعني: الجنة"[١٥].

قال الطبري:" وهذا استثناء من الله جل ثناؤه ، استثنى التائبين من نفاقهم إذا أصلحوا ، وأخلصوا الدين لله وحده ، وتبرءوا من الآلهة والأنداد ، وصدَّقوا رسوله ، أن يكونوا مع المصرّين على نِفاقهم حتى تُوافيهم مناياهم - في الآخرة، وأن يدخلوا مدَاخلهم من جهنم. بل وعدهم جل ثناؤه أن يُحلَّهم مع المؤمنين محلَّ الكرامة ، ويسكنهم معهم مساكنهم في الجنة،

---

[١] تفسير الطبري:٣٤١/٩.
[٢] التفسير الميسر:١٠١.
[٣] الكشاف:٥٨١/١.
[٤] تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
[٥] تفسير الطبري:٣٤١/٩.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٤٢/٢.
[٧] تفسير الطبري:٣٤١/٩.
[٨] الكشاف:٥٨١/١.
[٩] تفسير الثعلبي:٤٠٦/٣.
[١٠] تفسير ابن كثير:٤٤٢/٢.
[١١] نقل عنه الثعلبي في تفسيره:٤٠٦/٣.
[١٢] تفسير الثعلبي:٤٠٦/٣.
[١٣] التفسير الميسر:١٠١.
[١٤] الكشاف:٥٨١/١.
[١٥] تفسير الثعلبي:٤٠٦/٣، وتفسير البغوي:٣٠٣/٢.

ووعدهم من الجزاء على توبتهم الجزيلَ من العطاء فقال :{وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرًا عظيمًا}، يقول : وسوف يُعطي الله هؤلاء الذين هذه صفتهم، على توبتهم وإصلاحهم واعتصامهم بالله وإخلاصهم دينهم له ، وعلى إيمانهم ، ثوابًا عظيمًا وذلك : درجات في الجنة ، كما أعطى الذين ماتوا على النِّفاق منازل في النار ، وهي السفلى منها. لأن الله جل ثناؤه وعد عباده المؤمنين أن يؤتيهم على إيمانهم ذلك ، كما أوعد المنافقين على نفاقهم ما ذكر في كتابه "[1].

قال السمرقندي:" ثم قال بعد هذا كله: {فأولئك مع المؤمنين}، ولم يقل: هم المؤمنون، ثم قال: {وسوف يؤت الله المؤمنين}، ولم يقل: سوف يؤتيهم الله، بغضا لهم وإعراضا عنهم، والمنافقون هم الزنادقة والقرامطة الذين هم بين المؤمنين، يظهرون من أنفسهم الإسلام وإذا اجتمعوا فيما بينهم يسخرون بالإسلام وأهله، فهم من أهل هذه الآية ومأواهم الهاوية"[2].

عن إبراهيم قال ، قال حذيفة : "ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين! فقال عبد الله : وما علمك بذلك ؟ فغضب حذيفة ، ثم قام فتنحَّى. فلما تفرّقوا ، مرَّ به علقمة فدعاه فقال : أمَا إنّ صاحبك يعلم الذي قلت! ثم قرأ : {إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرًا عظيمًا}"[3].

الفوائد:

١- أن التائب من المنافقين مع المؤمنين وله ثوابهم.

٢-التوبة تجب ما قبلها حتى إن التائب من ذنبه كمن لا ذنب له ومهما كان الذنب الذي غشيه.

٣- أن الله تعالى خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: {وأصلحوا} لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما خصوصا في هذا المقام الحرج الذي يمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما[4].

القرآن

{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧)} [النساء : ١٤٧]

التفسير:

ما يفعل الله بعذابكم إن أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله، فإن الله سبحانه غني عمَّن سواه، وإنما يعذب العباد بذنوبهم. وكان الله شاكرًا لعباده على طاعتهم له، عليمًا بكل شيء.

قوله تعالى:{مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ} [النساء : ١٤٧]، أي:" ما يفعل الله بعذابكم إن أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله"[5].

قال مقاتل:"{ إن شكرتم}، نعمته، {وآمنتم}، يعني: صدقتم، فإنه لا يعذب شاكرا ولا مؤمنا"[6].

قال الماتريدي:أي:" أن ليس لله - عز وجل - حاجة في تعذيبه إياكم إن صدقتم وآمنتم، ولكن الحكمة توجب تعذيب من كفر به؛ وإلا ليس له حاجة في تعذيبكم"[7].

قال السمرقندي:" أي: ما يصنع الله بعذابكم إن شكرتم يعني إن آمنتم بالله تعالى ووحدتموه، ويقال: معناه ما حاجة الله إلى تعذيبكم لو كنتم موحدين شاكرين له وآمنتم به وصدقتم رسله"[1].

---

[1] تفسير الطبري:٣٤٠/٩-٣٤٢.[بتصرف بسيط].

[2] بحر العلوم:٣٥١/١.

[3] أخرجه الطبري(١٠٧٤٧):ص٣٤٢/٩.

[4] انظر: تفسير السعدي:٢١١.

[5] التفسير الميسر:١٠١.

[6] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٧/١.

(٧) تفسير الماتريدي:٤٠١/٣.

قال الزمخشري:" أيتشفى به من الغيظ، أم يدرك به الثار، أم يستجلب به نفعا، أم يستدفع به ضررا كما يفعل الملوك بعذابهم، وهو الغنى الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك. وإنما هو أمر أوجبته الحكمة أن يعاقب المسيء، فإن قمتم بشكر نعمته وآمنتم به فقد أبعدتم عن أنفسكم استحقاق العذاب"(٢).

قال السمعاني:" هذا استفهام بمعنى التقرير، ومعناه: لا يعذب الله المؤمن الشاكر، وتقدير قوله: {إن شكرتم وآمنتم}، أي: إن آمنتم وشكرتم، والشكر ضد الكفر، والكفر: ستر النعمة والشكر: إظهار النعمة"(٣).

قال الراغب:" أي: تعالى الله عن عذابكم، فلا يعذبكم إذا عرفتم ووفيتم حقها"(٤).

قال ابن كثير:" قال -مخبرًا عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم-، فقال:{ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ } أي : أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله "(٥).

قال البغوي:" أي: إن شكرتم نعماءه {وآمنتم} به، فيه تقديم وتأخير، تقديره: إن آمنتم وشكرتم، لأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، وهذا استفهام بمعنى التقرير، معناه: إنه لا يعذب المؤمن الشاكر، فإن تعذيبه عباده لا يزيد في ملكه، وتركه عقوبتهم على فعلهم لا ينقص من سلطانه، والشكر: ضد الكفر والكفر ستر النعمة، والشكر: إظهارها"(٦).

قال الطبري:أي:" ما يصنع الله ، أيها المنافقون ، بعذابكم ، إن أنتم تُبتم إلى الله ورجعتم إلى الحق الواجب لله عليكم ، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكم ، بالإنابة إلى توحيده ، والاعتصام به ، وإخلاصكم أعمالَكم لوجهه ، وترك رياء الناس بها ، وآمنتم برسوله محمد ﷺ فصدَّقتموه ، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به ؟ يقول : لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدَّرك الأسفل من النار ، إن أنتم أنبتم إلى طاعته ، وراجعتم العمل بما أمركم به ، وترك ما نهاكم عنه. لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا ، ولا يدفع عنها ضُرًّا ، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه ، جزاءٌ منه له على جرَاءته عليه ، وعلى خلافه أمره ونهيه ، وكفرانِه شكر نعمه عليه. فإن أنتم شكرتم له على نعمه ، وأطعتموه في أمره ونهيه ، فلا حاجة به إلى تعذيبكم"(٧).

قال قتادة:" إن الله جل ثناؤه لا يعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا"(٨).

وإن قيل: "لم أخر الإيمان عن الشكر؟

قيل: لأنه عني به معرفة النعمة التي يتوصل به إلى معرفة النعم، ومعرفة المنعم هي الإيمان، فإذا الشكر على هذا الوجه مقدم على الإيمان، لأنه أرفع منه وهو لا ينفك عن الإيمان، والإيمان قد ينفك عنه، ووصفه نفسه بالشكر تنبيها أنه يقابلهم بما يكون منهم، فقد تقدم أن الشكر قد يكون من المولى للعبد بمعنى مقابلته بما يكون من خدمته"(٩).

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟

قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرا مبهما، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكرا مفصلا، فكان الشكر متقدما على الايمان، وكأنه أصل التكليف ومداره"(١٠).

---

(١) بحر العلوم:٣٥١/١.
(٢) الكشاف:٥٨١/١-٥٨٢.
(٣) تفسير السمعاني:٤٩٥/١.
(٤) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٠٩/٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٤٤٢/٢.
(٦) تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
(٧) تفسير الطبري:٣٤٢/٩-٣٤٣.
(٨) اخرجه الطبري(١٠٧٤٨):ص٣٤٣/٩.
(٩) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٠٩/٤.
(١٠) الكشاف:٥٨٢/١.

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء : ١٤٧]، أي:" وكان الله شاكرًا لعباده على طاعتهم له، عليمًا بكل شيء"[١].

قال الزمخشري:أي:" مثيبا موفيا أجوركم عليما بحق شكركم وإيمانكم"[٢].

قال ابن كثير:" أي : من شكر شكر له ومن آمن قلبه به علمه ، وجازاه على ذلك أوفر الجزاء"[٣].

قال السمرقندي:" أي: شاكرا للقليل من أعمالكم، عليما بأعمالكم وثوابكم. ويقال: شاكرا يقبل اليسير ويعطي الجزيل، عليما بما في صدوركم. ويقال: بمن شكر وآمن فلا يعذب شاكرا ولا مؤمنا"[٤].

قال الماتريدي:أي:" يقبل الإيمان بعد الجحود والتكذيب؛ إذا تاب"[٥].

وقيل: {شاكرا}، أي: يقبل القليل من العمل إذا كان خالصا، ليس كملوك الأرض لا يقبلون اليسير من الأشياء"[٦].

قال السمعاني:" الشكر من الله قبول العمل"[٧].

قال البغوي:" فالشكر من الله تعالى هو الرضى بالقليل من عباده وإضعاف الثواب عليه، والشكر من العبد: الطاعة، ومن الله: الثواب"[٨].

قال الراغب:" نبه بقوله: {عليما}، أنه لا يخفى عليه ما يتحراه العبد"[٩].

الفوائد:

١- لا يعذب الله تعالى المؤمن الشاكر لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالإيمان والشكر أمان الإنسان.

٢-إثبات اسمين من اسمائه سبحانه، وهما: «الشاكر»،«العليم»:

فمن أسمائه تعالى: «الشاكرُ،الشَّكور»: الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة؛ فإن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنّة نبيّه بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يحتمل المتحمّلون لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئاً لأجله عوّضه خيراً منه، وهو الذي وفّق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنّما هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً[١٠].

قال الخطابي:" الشكور: هو الذي يشكر اليسير من الطاعة فيثيب عليه الكثير من الثواب، ويعطي الجزيل من النعمة، فيرضى باليسير من الشكر، كقوله -سبحانه-: {إن ربنا لغفور شكور} [فاطر:٣٤]، ومعنى الشكر المضاف إليه: الرضى بيسير الطاعة من العبد والقبول له. وإعظام الثواب عليه -والله أعلم- وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله -جل وعز - بالشكور ترغيب الخلق في الطاعة. قلت أو كثرت لئلا يستقلوا القليل من العمل فلا يتركوا اليسير من جملته إذا أعوزهم الكثير منه"[١١].

ومن أسمائه «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ.

---

(١) التفسير الميسر:١٠١.
(٢) الكشاف:٥٨٢/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٤٤٢/٢.
(٤) بحر العلوم:٣٥١/١.
(٥) تفسير الماتريدي:٤٠١/٣.
(٦) تفسير الماتريدي:٤٠١/٣.
(٧) تفسير السمعاني:٤٩٥/١.
(٨) تفسير البغوي:٣٠٣/٢.
(٩) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٠٩/٤.
(١٠) انظر: الحق الواضح المبين:٧٠.
(١١) شأن الدعاء:٦٥/١-٦٦.

قال الخطابي: "«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق"[1].

والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال: {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن/ ٢٨][2].

القرآن

{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨)} [النساء : ١٤٨]

التفسير:

لا يُحِبُّ الله أن يَجهر أحدٌ بقول السوء، لكن يُباح للمظلوم أن يَذكُر ظالمه بما فيه من السوء؛ ليبيِّن مَظْلمته. وكان الله سميعًا لما تجهرون به، عليمًا بما تخفون من ذلك.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: قال مجاهد:"نزلت في رجل ضاف رجلا بفلاةٍ من الأرض فلم يضفه ، فنزلت : {إِلَّا مَنْ ظُلِمَ}، ذكر أنه لم يضفه ، لا يزيد على ذلك"[3].

والثاني: قال مقاتل:" نزلت في أبي بكر- رضي الله عنه- شتمه رجل والنبي- ﷺ- جالس فسكت عنه مرارا ثم رد عليه أبو بكر- رضي الله عنه- فقام النبي- ﷺ- عند ذلك، فقال أبو بكر- رضي الله عنه-: يا رسول الله، شتمني وأنا ساكت، فلم تقل له شيئا حتى إذا رددت عليه قمت. قال: «إن ملكا كان يجيب عنك، فلما أن رددت عليه ذهب الملك وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس عند مجيء الشيطان»[4]"[5].

قال الماتريدي:" وقيل: نزلت الآية في أبي بكر - رضي الله عنه - شتمه رجل بمكة، فسكت عنه ما شاء الله، ثم انتصر؛ فقام النبي - ﷺ – وتركه"[6].

قوله تعالى:{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ} [النساء : ١٤٨]، أي:" لا يُحِبُّ الله أن يَجهر أحدٌ بقول السوء، لكن يُباح للمظلوم أن يَذكُر ظالمه بما فيه من السوء؛ ليبيِّن مَظْلمته"[7].

قال الزجاج:" المعنى: أن المظلوم جائز أن يظهر بظلامته تشكيا، والظالم يجهر بالسوء من القول ظلما واعتداء"[8].

قال الزمخشري:" استثنى من الجهر الذي لا يحبه الله جهر المظلوم. وهو أن يدعو على الظالم ويذكره بما فيه من السوء"[9].

---

[1] شأن الدعاء: ٥٧/١، والأسماء والصفات للبيهقي:١٢١/١.

[2] انظر: شأن الدعاء، الخطابي: ٥٧/١.

(٣) أخرجه الطبري(١٠٧٦١):ص٣٤٧/٩. وانظر: اسباب النزول للواحدي:١٨٦، ولباب النقول للسيوطي:٧٣-٧٤.

(٤)أخرجه أحمد: (٩٦٢٢):ص ٤٣٦/٢، وأبو داود: (٤٨٩٧)، ونص الحديث: عن أبي هريرة: "أن رجلا شتم أبا بكر والنبي ﷺ جالس، فجعل النبي ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت، قال: إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان، ثم قال: يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله، عز وجل، إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله، عز وجل، بها قلة".

[5] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٨/١.

[6] تفسير الماتريدي:٤٠٣/٣.

[7] التفسير الميسر:١٠١.

[8] معاني القرآن:١٢٥/٢.

[9] الكشاف:٥٨٢/١.

قال ابن عطية:" المحبة في الشاهد إرادة يقترن بها استحسان وميل اعتقاد، فتكون الأفعال الظاهرة من المحب بحسب ذلك، والجهر بالسوء من القول لا يكون من الله تعالى فيه شيء من ذلك، أما أنه يريد وقوع الواقع منه ولا يحبه هو في نفسه. والجهر: كشف الشيء، ومنه الجهرة في قول الله تعالى: {أرنا الله جهرة} [النساء: ٥٣]، ومنه قولهم: جهرت البير، إذا حفرت حتى أخرجت ماءها"(١).

وفي قوله تعالى:{لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ} [النساء : ١٤٨]، وجوه:

أحدها : يعني إلا أن يكون مظلوماً فيدعو على من ظلمه ، وهذا قول ابن عباس(٢)، والحسن(٣)، والحسن(٣)، واختاره الثعلبي(٤).

قال ابن عطية:" قول الحسن دعاء في المدافعة، وتلك أقل منازل السوء من القول، وقول ابن عباس الدعاء على الظالم بإطلاق في نوع الدعاء"(٥).

والثاني : إلا أن يكون مظلوماً فيجهر بظلم من ظلمه، وهذا قول مجاهد(٦).

والثالث : إلا من ظلم فانتصر من ظالمه ، وهذا قول الحسن(٧)، والسدي(٨).

والرابع : إلا أن يكون ضيفاً ، فينزل على رجل فلا يحسن ضيافته ، فلا بأس أن يجهر بذمه ، وهذا مروي عن مجاهد أيضا(٩)، واختاره الفراء(١٠).

قال الماتريدي:" وإلى هذا يذهب أكثر المتأولين، لكنه بعيد"(١١).

قال الجصاص:" قال أبو بكر: إن كان التأويل كما ذكر فقد يجوز أن يكون ذلك في وقت كانت الضيافة واجبة، وقد روي عن النبي ﷺ :«الضيافة ثلاثة أيام فما زاد فهو صدقة»(١٢)، وجائز أن يكون فيمن لا يجد ما يأكل فيستضيف غيره فلا يضيفه فهذا مذموم يجوز أن يشكى"(١٣).

والخامس: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفتري عليه. وهذه رواية ابن عمر عن عبدالكريم(١٤).

والسادس: أن المعنى: لا يحب الله الجهر بالسوء من القول لأهل النفاق، إلا من أقام على نفاقه، فإنه لا بأس بالجهر له بالسوء من القول. وهذا قول ابن زيد(١٥). اعترض عليه الطبري(١٦).

والسابع: قال ابن المستنير: "{إلا من ظلم}، معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كفرا أو نحوه فذلك مباح، والآية في الإكراه"(١٧).

---

(١) المحرر الوجيز:١٢٩/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٤٩)-(١٠٧٥١):ص٣٤٤/٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٥٢):ص٣٤٤/٩.
(٤) انظر: الكشف والبيان:٤٠٧/٣.
(٥) المحرر الوجيز:١٢٩/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٥٦)-(١٠٧٥٧):ص٣٤٦/٩
(٧) انظر: النكت والعيون:٥٤٠/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٦٢):ص٣٤٨/٩.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٥٣)-(١٠٧٥٥):ص٣٤٥/٩-٣٤٦.
(١٠) انظر: معاني القرآن:٢٩٣/١.
(١١) تفسير الماتريدي:٤٠٣/٣.
(١٢)أخرجه ابن أبي شيبة: (٣٣٤٦١):ص٤٧٧/١٢، وأحمد:(٧٨٦٠):ص٢٨٨/٢، و(٩٥٦٠)ص: ٤٣١/٢، و"البخاري" في "الأدب المفرد(٧٤٢).
(١٣) أحكام القرآن:٢٨١/٣.
(١٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦١٧٢):ص١١٠١/٤.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٠٧٦٣)، و(١٠٧٦٤):ص٣٤٨/٩-٣٤٩.
(١٦) انظر: تفسير الطبري:٣٥١/٩-٣٥٢.
(١٧) المحرر الوجيز:١٢٩/٢-١٣٠.

والراجح-والله اعلم- أن المعنى:"لا يحب الله ، أيها الناس ، أن يجهر أحدٌ لأحد بالسوء من القول {إلا من ظلم}، بمعنى : إلا من ظلم ، فلا حرج عليه أن يخبر بما أسيء عليه، وإذا كان ذلك معناه ، دخل فيه إخبار من لم يُقْرَ ، أو أسيء قراه ، أو نيل بظلم في نفسه أو ماله"[١].

قرأ العامة:{ مَنْ ظُلِمَ}، بضم "الظاء"، وقرأه بعضهم : «إلا مَنْ ظَلَمَ»، بفتح" الظاء"[٢].
الظاء"[٢].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء : ١٤٨]، أي:" وكان الله سميعًا لما تجهرون به، عليمًا بما تخفون من ذلك"[٣].

قال الماتريدي:أي:{سميعا}" بجهر السوء، {عليما} به"[٤].

قال الثعلبي:أي:" {سميعا}، لدعاء المظلوم، {عليما}، بعقاب الظالم"[٥].

قال السمعاني:أي:" {سميعا}، لأقوالكم: {عليما}، بنياتكم"[٦].

قال الباقلاني:" وقالوا: ومن الإحالة في الكلام قولُه: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ} ، فكأنَّه يُحبُّ من المظلوم أن يجهرَ بالسوء.

وهذا متناقض جدا - زعموا - فيقال لهم: ليس ذلك على ما توهمتم، ومعنى هذه اللفظة الذي هو لفظ الاستثناء لكن لا يُحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوء من القول ولكن من ظَلَمَ فله أن يُخبرَ بظلمِ من ظلمَهُ ودخول الضرر عليه، ولا يجب الكشفُ عن عورات الناس وزلاتهم وكثرةُ التتبع لهم والتجسسُ عليهم.

وقال بعضهم: قولُه :{إلا من ظُلِمَ}، فإنّه يحل له أن يدعو اللهَ على ظالمه ويستكفَّه شرَّه، ويرغبُ إليه في منعه من ظلمه، وقد قال قومٌ قولُه: {لا يُحبُّ اللهُ الجهرَ بالسوء من القول}، كلام تام، ثم ابتدأ فقال: {إلا من ظُلمَ}، فإن له أن ينتصرَ ويمنعَ الظلمَ ويدفَعَه فبطل بذلك ما قالوه"[٧].

الفوائد:

١- في قوله: {لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم}، دليل على أنه ليس في إباحة الشيء في حال - يوجب حظره في حال أخرى؛ لأنه نهي عن الجهر بالسوء من القول، ثم لم يدل ذلك على أنه لا ينهى عن ذلك في غير حال الجهر[٨].

٢- حرمة الجهر بالسوء والسر به كذلك فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن ينطق بما يسوء إلى القلوب والنفوس إلا في حالة الشكوى وإظهار الظلم لا غير.

٣-في هذه الآية دلالة على وجوب الإنكار على من تكلم بسوء فيمن كان ظاهره الستر والصلاح لأن الله تعالى قد أخبر أنه لا يجب ذلك وما لا يحبه فهو الذي لا يريده فعلينا أن نكرهه وننكره وقال: {إلا من ظلم}، فما لم يظهر لنا ظلمه فعلينا إنكار سوء القول فيه[٩].

٤-إثبات اسمين من أسماءه: «السميع»، و«البصير»:

قال الخطابي:" السميع: بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة. كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة"[١٠].

و«البصير»: "هو المبصر. فعيل بمعنى: مفعل، ويقال: البصير: العالم بخفيات الأمور"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٣٤٩/٩-٣٥٠.

[٢] انظر: تفسير الطبري:٣٤٤/٩.

[٣] التفسير الميسر:١٠١.

[٤] تفسير الماتريدي:٤٠٤/٣.

[٥] تفسير الثعلبي:٤٠٧/٣.

[٦] تفسير السمعاني:٤٩٦/١.

[٧] الانتصار للقرآن:٧٤١/٢.

[٨] انظر: تفسير الماتريدي:٤٠٤/٣.

[٩] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٢٨١/٣.

[١٠] شأن الدعاء: ٥٩/١.

القرآن

{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (١٤٩)} [النساء : ١٤٩]

التفسير:

إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه أو عفيتم عمن أساء إليكم، فإن الله تعالى كان مبالغا في العفو عن عباده مع قدرته عليهم[٢].

قوله تعالى:{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ} [النساء : ١٤٩]، أي:" إن أظهرتم أيها الناس عمل الخير أو أخفيتموه"[٣].

قال مقاتل:" يعني: تعلنوه، {أو تخفوه}، يعني: تسروه"[٤].

قال ابن كثير:" أي : إن تظهروا - أيها الناس - خيرًا ، أو أخفيتموه"[٥].

قال الطبري:" يقول: إن تقولوا جميلا من القول لمن أحسن إليكم، فتظهروا ذلك شكرًا منكم له على ما كان منه من حسن إليكم ، أو تتركوا إظهار ذلك فلا تبدوه"[٦].

وعن مجاهد: "{إن تبدوا}، قال: من اليقين والشك"[٧].

قوله تعالى:{أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ} [النساء : ١٤٩]، أي:" أو عفيتم عمن أساء إليكم"[٨].

قال ابن كثير:" أو عفوتم عمن أساء إليكم"[٩].

قال الطبري:" يقول: أو تصفحوا لمن أساءَ إليكم عن إساءته، فلا تجهروا له بالسوء من القول الذي قد أذنت لكم أن تجهروا له به"[١٠].

قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء : ١٤٩]، أي:" فإن الله تعالى كان مبالغا في العفو عن عباده مع قدرته عليهم"[١١].

قال مقاتل:" يقول: فإن الله أقدر على عفو ذنوبك منك على العفو عن صاحبك"[١٢].

قال ابن كثير:أي:" فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم"[١٣].

قال الطبري:" يقول: لم يزل ذا عفوٍ عن خلقه، يصفح عمن عصَاه وخالف أمره، ذا قدرة على الانتقام منهم"[١٤].

قال ابن عباس:" أخبر الله عباده بحكمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا ثم استغفر الله يجد الله غفورا رحيما ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال"[١٥].

قال الزمخشري:"ثم حثّ على العفو، وأن لا يجهر أحد لأحد بسوء وإن كان على وجه الانتصار، بعد ما أطلق الجهر به وجعله محبوبا، حثا على الأحب إليه والأفضل عنده والأدخل

---

[١] شأن الدعاء:٦١/١.
[٢] انظر: صفوة التفاسير:٢٩٠.
[٣]صفوة التفاسير:٢٩٠.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٨/١.
[٥] تفسير ابن كثير:٤٤٤/٢.
[٦] تفسير الطبري:٣٥٠/٩-٣٥١.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٧٣):ص١١٠١/٤.
[٨]صفوة التفاسير:٢٩٠.
[٩] تفسير ابن كثير:٤٤٤/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٣٥٠/٩-٣٥١.
[١١]صفوة التفاسير:٢٩٠.
[١٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٨/١.
[١٣] تفسير ابن كثير:٤٤٤/٢.
[١٤] تفسير الطبري:٣٥١/٩.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٧٤):ص١١٠١/٤.

في الكرم والتخشع والعبودية، وذكر إبداء الخير وإخفاءه تشبيبا للعفو، ثم عطفه عليهما اعتدادا به وتنبيها على منزلته، وأن له مكانا في باب الخير وسيطا ، والدليل على أن العفو هو الغرض المقصود بذكر إبداء الخير وإخفائه قوله: {فإن الله كان عفوا قديرا}، أى: يعفو عن الجانين مع قدرته على الانتقام، فعليكم أن تقتدوا بسنة الله"[١].

وقد جاء في الحديث الصحيح : "ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبدا بعفو إلا عزًّا ، ومن تواضع لله رفعه الله"[٢].

ويحتمل الآية أن العفو والتجاوز خير عند الله من الانتصار، وذلك من وجهين[٣]:

أحدهما: أن يكون على الترغيب: رغبهم - عز وجل - بالعفو عن السوء والمظلمة، فكما أنه يعفو عن خلقه، ويتجاوز عنهم مع قدرته على الانتقام - فاعفوا أنتم عن ظالمكم أيضا، وإن أنتم قدرتم على الانتصار والانتقام منهم، فيكون لكم بذلك عند الله الثواب.

والثاني: أن يأمرهم بالعفو عن مظالمهم؛ ليعفو - عز وجل - عن مظالمهم التي فيما بينهم وبين ربهم؛ وعلى ذلك يخرج قوله: {فإن الله كان عفوا قديرا}، فإن الله - عز وجل - أقدر على عفو ذنوبكم منكم على عفو صاحبكم المسيء إليكم.

الفوائد:

١-استحباب فعل الخير وسره كجهره لا ينقص أجره بالجهر ولا يزيد بالسر.

٣- استحباب العفو عن المؤمن إذا بدا منه سوء، ومن يعف يعف الله عنه.

٣-إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما: «العفو»، و«القدير»:

و«العفو»: "الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء وقيل: إن العفو مأخوذ من عفت الريح الأثر إذا درسته، فكان العافي عن الذنب يمحوه بصفحه عنه"[٤].

و«القدير»: "من القدرة على الشيء. يقال: قدر يقدر قدرة فهو قادر وقدير، كقوله تعالى: {وكان الله على كل شيء قديرا} [الأحزاب:٢٧] ووصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور، وقد يكون القادر بمعنى المقدر للشيء، يقال: قدرت الشيء وقدرته بمعنى واحد كقوله: {فقدرنا فنعم القادرون} [المرسلات:٢٣] أي: نعم المقدرون. وعلى هذا يتأول قوله -سبحانه-: {فظن أن لن نقدر عليه} [الأنبياء:٨٧] أي: لن نقدر عليه الخطيئة أو العقوبة إذ لا يجهز على نبي الأن يظن عدم قدرة الله -جل وعز- عليه فى حال من الأحوال"[٥].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠)} [النساء : ١٥٠]

التفسير:

إن الذين يكفرون بالله ورسله من اليهود والنصارى، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله بأن يؤمنوا بالله ويكذبوا رسله الذين أرسلهم إلى خلقه، أو يعترفوا بصدق بعض الرسل دون بعض، ويزعموا أنَّ بعضهم افتروا على ربِّهم، ويريدون أن يتخذوا طريقًا إلى الضلالة التي أحدثوها والبدعة التي ابتدعوها.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء : ١٥٠]، أي:" إن الذين يكفرون بالله ورسله من اليهود والنصارى"[٦].

---

[١] الكشاف:٥٨٢/١.

[٢]رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[٣] انظر: تفسير الماتريدي:٤٠٤/٣.

[٤] شأن الدعاء:٩١/١.

[٥] شأن الدعاء:١٨٦/١.

[٦] التفسير الميسر:١٠٢.

قال القرطبي:" لما ذكر المشركين والمنافقين ذكر الكفار من أهل الكتاب، اليهود والنصارى، إذ كفروا بمحمد ﷺ، وبين أن الكفر به كفر بالكل، لأنه ما من نبي إلا وقد أمر قومه بالايمان بحمد ﷺ وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام"[١].

قال ابن عرفة:" عبر عنهم بلفظ المضارع، ثم قال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء : ١٥٢] ، فعبر بلفظ الماضي؛ لأن الإيمان مأمور مطلوب به فجعل كالواقع المحقق، والكفر منهي محنه فجعل كأنه لم يقع"[٢].

قوله تعالى:{وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء : ١٥٠]، أي:" ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله"[٣].

قال ابن عطية:" وفرقوا بين الله ورسله في أنهم قالوا: نحن نؤمن بالله ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياء"[٤].

قال القرطبي:" أي: بين الإيمان بالله ورسله، فنص سبحانه على أن التفريق بين الله ورسله كفر، وإنما كان كفرا لأن الله سبحانه فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردوا عليهم شرائعهم ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية. وكذلك التفريق بين رسله في الإيمان بهم كفر"[٥].

قال ابن جريج:" اليهود والنصارى. آمنت اليهود بعُزَير وكفرت بعيسى، وآمنت النصارى بعيسى وكفرت بعزَير، وكانوا يؤمنون بالنبيّ ويكفرون بالآخر"[٦].

قال السدي:" يقولون : محمد ليس برسولٍ لله! وتقول اليهود : عيسى ليس برسولٍ لله! فقد فرَّقوا بين الله وبين رسله"[٧].

قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ} [النساء : ١٥٠]، أي:ويقولون:" نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض"[٨].

قال ابن عطية:" قيل: معناه من الأنبياء، وقيل: هو تصديق بعضهم لمحمد في أنه نبي، لكن ليس إلى بني إسرائيل، ونحو هذا من تفريقاتهم التي كانت تعنتا وروغانا"[٩].

قال القرطبي:" وهم اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، وقد تقدم هذا من قولهم في«البقرة». ويقولون لعوامهم: لم نجد ذكر محمد في كتبنا"[١٠].

قال السدي:" فهؤلاء يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض"[١١].

قوله تعالى:{وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [النساء : ١٥٠]، أي:" ويريدون أن يتخذوا طريقًا إلى الضلالة التي أحدثوها والبدعة التي ابتدعوها"[١٢].

قال ابن جريج:"{ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا}، قال : دينًا يدينون به الله"[١٣].

قال ابن كثير:{سبيلا}:" أي : طريقًا ومسلكًا"[١٤].

قال ابن عطية:" أي: بين الإيمان والإسلام والكفر الصريح المجلح"[١].

---

[١] تفسير القرطبي:٥/٦.
[٢] تفسير ابن عرفة:٦٧/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٠٢.
[٤] المحرر الوجيز:١٣٠/٢.
[٥] تفسير القرطبي:٥/٦.
[٦] أخرجه الطبري(١٠٧٦٧):ص٣٥٤/٩.
[٧] أخرجه الطبري(١٠٧٦٦):ص٣٥٤/٩.
[٨] صفوة التفاسير:٢٩٠.
[٩] المحرر الوجيز:١٣٠/٢.
[١٠] تفسير القرطبي:٥/٦.
[١١] أخرجه الطبري(١٠٧٦٦):ص٣٥٤/٩.
[١٢] التفسير الميسر:١٠٢.
[١٣] أخرجه الطبري(١٠٧٦٧):ص٣٥٤/٩.
[١٤] تفسير ابن كثير:٤٤٥/٢.

قال القرطبي:" أي: يتخذوا بين الإيمان والجحد طريقا، أي دينا مبتدعا بين الإسلام واليهودية"[٢].

قال البيضاوي:أي:" طريقا وسطا بين الإيمان والكفر، ولا واسطة: إذ الحق لا يختلف فإن الإيمان بالله سبحانه وتعالى لا يتم إلا بالإيمان برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه تفصيلا أو إجمالا، فالكافر ببعض ذلك كالكافر بالكل في الضلال كما قال الله تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [يونس : ٣٢]"[٣].

قال الطبري:" يقول : ويريد المفرِّقون بين الله ورسله ، الزاعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أن يتخذوا بين أضعاف قولهم : {نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض}، {سبيلا}، يعني : طريقًا إلى الضلالة التي أحدثوها ، والبدعة التي ابتدعوها ، يدعون أهل الجهل من الناس إليه"[٤].

قال الزمخشري:" معنى «اتخاذهم بين ذلك سبيلا»: أن يتخذوا دينا وسطا بين الإيمان والكفر كقوله: {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [الإسراء : ١١٠]، أى: طريقا وسطا في القراءة وهو ما بين الجهر والمخافتة. وقد أخطؤا، فإنه لا واسطة بين الكفر والإيمان"[٥].

قال قتادة:" أولئك أعداء الله اليهود والنصارى. آمنت اليهود بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ. فاتخذوا اليهودية والنصرانية ، وهما بدعتان ليستا من الله، وتركوا الإسلام وهو دين الله الذي بعث به رُسله"[٦].

الفوائد:

١- تقرير كفر اليهود والنصارى لفساد عقيدتهم وبطلان أعمالهم.

٢- كفر من كذب بالله ورسوله ولو في شيء واحد مما وجب الإيمان به.

٣- بطلان إيمان من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض.

القرآن

{أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)} [النساء : ١٥١]

التفسير:

أولئك هم أهل الكفر المحقَّق الذي لا شك فيه، وأعتدنا للكافرين عذابًا يخزيهم ويهينهم.

قوله تعالى:{أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [النساء : ١٥١]، أي:" أولئك هم أهل الكفر المحقَّق الذي لا شك فيه"[٧].

قال البيضاوي:أي:" هم الكاملون في الكفر لا عبرة بإيمانهم هذا"[٨].

قال النسفي:اي:" هم الكاملون في الكفر، لأن الكفر بواحد كفر بالكل"[٩].

قال ابن عرفة:" أي كفرا محققا يقينا لَا شك فيه بخلاف من وحد الله وجحد بعض الصفات كالمعتزلة، فإن في كفرهم نظر، أو لذلك اختلف العلماء فيهم"[١٠].

---

[١] المحرر الوجيز:١٣٠/٢.

[٢] تفسير القرطبي:٥/٦.

[٣] تفسير البيضاوي:١٠٦/٢.

[٤] تفسير الطبري:٣٥٢/٩-٣٥٣.

[٥] الكشاف:٥٨٢/١.

[٦] اخرجه الطبري(١٠٧٦٥):٣٥٤/٩.

[٧] التفسيير الميسر:١٠٢.

[٨] تفسير البيضاوي:١٠٦/٢.

[٩] تفسير النسفي:٤١٠/١.

[١٠] تفسير ابن عرفة:٦٧/٢.

قال ابن كثير:" أي : كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ؛ لأنه ليس شرعيًّا ، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلا وأقوى برهانًا منه ، لو نظروا حق النظر في نبوته"(١).

قال الزمخشري:" أى: هم الكاملون في الكفر. و{حقا}، تأكيد لمضمون الجملة، كقولك: هو عبد الله حقا، أى حق ذلك حقا، وهو كونهم كاملين في الكفر، أو هو صفة لمصدر الكافرين، أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه"(٢).

قال ابن عطية:" ثم أخبر تعالى عنهم أنهم الكافرون حقا، لئلا يظن أحد أن ذلك القدر الذي عندهم من الإيمان ينفعهم، وباقي الآية وعيد"(٣).

قال القرطبي:" تأكيد يزيل التوهم في إيمانهم حين وصفهم بأنهم يقولون نؤمن ببعض، وأن ذلك لا ينفعهم إذا كفروا برسوله، وإذا كفروا برسوله فقد كفروا به عز وجل، وكفروا بكل رسول مبشر بذلك الرسول، فلذلك صاروا الكافرين حقا"(٤).

قال الطبري:" يقول : أيها الناس ، هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم ، هم أهل الكفر بي ، المستحقون عذابي والخلود في ناري حقًّا. فاستيقنوا ذلك ، ولا يشككنَّكم في أمرهم انتحالهم الكذب ، ودعواهم أنهم يقرُّون بما زعموا أنهم به مقرُّون من الكتب والرسل ، فإنهم في دعواهم ما ادعوا من ذلك كَذَبَةٌ. وذلك أن المؤمن بالكتب والرسل ، هو المصدّق بجميع ما في الكتاب الذي يزعم أنه به مصدق ، وبما جاء به الرسول الذي يزعم أنه به مؤمن. فأما من صدّق ببعض ذلك وكذَّب ببعض ، فهو لنبوة من كذب ببعض ما جاء به جاحد ، ومن جحد نبوة نبي فهو به مكذب. وهؤلاء الذين جحدوا نبوة بعض الأنبياء ، وزعموا أنهم مصدقون ببعض ، مكذبون من زعموا أنهم به مؤمنون ، لتكذيبهم ببعض ما جاءهم به من عند ربهم ، فهم بالله وبرسله الذين يزعمون أنهم بهم مصدقون ، والذين يزعمون أنهم بهم مكذبون كافرون، فهم الجاحدون وحدانية الله ونبوّة أنبيائه حق الجحود ، المكذبون بذلك حق التكذيب. فاحذروا أن تغتروا بهم وببدعتهم"(٥).

قوله تعالى:{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء : ١٥١]، أي:" وأعتدنا للكافرين عذابًا يخزيهم ويهينهم"(٦).

قال الطبري:" يعني : {وأعتدنا} لمن جحد بالله ورسوله جحودَ هؤلاء الذين وصفت لكم ، أيها الناس ، أمرَهم من أهل الكتاب ، ولغيرهم من سائر أجناس الكفار {عذابًا}، في الآخرة {مهينًا}، يعني : يهين من عُذِّب به بخلوده فيه"(٧).

قال السعدي:" كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي"(٨).

قال ابن كثير:" أي: كما استهانوا بمن كفروا به إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله ، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته ، كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة ، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقاتلوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي : { وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ } [البقرة : ٦١] في الدنيا والآخرة"(٩).

الفوائد:

---

(١) تفسير ابن كثير:٤٤٥/٢.
(٢) الكشاف:٥٨٢/١.
(٣) المحرر الوجيز:١٣٠/٢.
(٤) تفسير القرطبي:٥/٦-٦.
(٥) تفسير الطبري:٣٥٣/٩.
(٦) التفسيير الميسر:١٠٢.
(٧) تفسير الطبري:٣٥٣/٩-٣٥٤.
(٨) تفسير السعدي:٢١٢.
(٩) تفسير ابن كثير:٤٤٥/٢.

١- بطلان اليهودية والنصرانية حيث أوعد تعالى اليهود والنصارى بالعذاب المهين.
٢- أن وجه كونهم كافرين - حتى بما زعموا الإيمان به- أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به[١].
فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها
٣-ومن الفوائد الآية والتي قبلها: أن الكافرين بالرسل فريقان[٢]:
- فريق لا يؤمن بأحد منهم، لإنكارهم النبوات وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله، وأكثر الملحدين فى هذا العصر من ذلك الفريق.
- وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد فهما ليسا برسولين، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب، ولا عبرة بما يدعونه إيمانا.

القرآن

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)} [النساء : ١٥٢]

التفسير:
والذين صَدَّقوا بوحدانية الله، وأقرُّوا بنبوَّة رسله أجمعين، ولم يفرقوا بين أحد منهم، وعملوا بشريعة الله، أولئك سوف يعطيهم جزاءهم وثوابهم على إيمانهم به وبرسله. وكان الله غفورًا رحيمًا.
قوله تعالى:{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء : ١٥٢]، أي:" والذين صَدَّقوا بوحدانية الله، وأقرُّوا بنبوَّة رسله أجمعين"[٣].
قال الطبري:أي:" والذين صدقوا بوحدانية الله، وأقرّوا بنبوة رسله أجمعين، وصدّقوهم فيما جاءوهم به من عند الله من شرائع دينه"[٤].
قوله تعالى:{وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} [النساء : ١٥٢]، أي:" ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله"[٥].
قال مقاتل:" يعني: بين الرسل وصدقوا بالرسل جميعا"[٦].
قال أبو السعود:" بأن يؤمنوا ببعضهم ويكفروا بآخرين كما فعله الكفرة"[٧].
قال الطبري:"يقول: ولم يكذّبوا بعضهم ويصدقوا بعضهم، ولكنهم أقرُّوا أن كل ما جاءوا به من عند ربهم حق"[٨].
قال الماتريدي:" يعني: من الرسل، وقالوا: { آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ ...} [البقرة : ١٣٦] إلى آخر ما ذكر"[٩].
قال السمرقندي:أي:" في الإيمان والتصديق، يعني لم يكفروا ولم يجحدوا بأحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام، ويصدقون بجميع الكتب"[١٠].

---

[١] انظر: تفسير السعدي:٢١٢.
[٢] انظر: تفسير المراغي:٦/٦.
[٣] التفسير الميسر:١٠٢.
[٤] تفسير الطبري:٩/٣٥٥.
[٥] التفسير الميسر:١٠٢.[بتصرف].
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤١٨.
[٧] تفسير أبي السعود:٢/٢٤٩.
[٨] تفسير الطبري:٩/٣٥٥.
[٩] تفسير الماتريدي:٣/٤٠٦.
[١٠] بحر العلوم:١/٣٥٣.

قال ابن كثير:"قوله:{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ } يعني بذلك : أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله ، كما قال تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة : ٢٨٥]"[١].

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية:" يعني به النبي ﷺ وأمته"[٢].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف جاز دخول بين على أحد وهو يقتضى شيئين فصاعدا؟

قلت: إن أحدا عام في الواحد المذكر والمؤنث وتثنيتهما وجمعهما، تقول: ما رأيت أحدا، فتقصد العموم، ألا تراك تقول: إلا بنى فلان، وإلا بنات فلان فالمعنى: ولم يفرقوا بين اثنين منهم أو بين جماعة ومنه قوله تعالى: { لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ} [الأحزاب : ٣٢] "[٣].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ} [النساء : ١٥٢]، أي:" أولئك سوف يعطيهم جزاءهم وثوابهم"[٤].

قال مقاتل:" يعني: جزاء أعمالهم"[٥].

قال السمرقندي:" أي: سنعطيهم ثوابهم في الجنة"[٦].

قال ابن كثير:أي:"على ما آمنوا بالله ورسله"[٧].

قال الطبري:" يقول: هؤلاء الذين هذه صفتهم من المؤمنين بالله ورسله، سوف يعطيهم جزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرسل في توحيد الله وشرائع دينه، وما جاءت به من عند الله"[٨].

قال الزمخشري:" معناه: أن إيتاءها كائن لا محالة وإن تأخر فالغرض به توكيد الوعد وتثبيته لا كونه متأخرا"[٩].

قال السمعاني:" إنما سماه أجرا مجازا؛ لأنه ذكره بإزاء العمل، لأن العمل يوجبه، وهذا نحو قوله - تعالى - في قصة موسى: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا } [القصص : ٢٥]، سماه «أجرا» على مقابلة العمل؛ لأن موسى عمل؛ ليؤجر عليه"[١٠].

قال الشوكاني:" الإشارة بقوله: أولئك إلى {الذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم}"[١١].

قال أبو السعود:" وتصديره بـ{سوف}، لتأكيد الوعد والدلالة على إنه كائن لا محالة وإن تراخى"[١٢].

وقرأ حمزة وعاصم-في رواية أبي بكر-، وابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر والكسائى:{نؤتيهم}، بالنون[١٣].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء : ١٥٢]، أي:وكان الله" غفوراً لما سلف منهم من المعاصي والآثام متفضلاً عليهم بأنواع الإنعام"[١٤].

---

[١] تفسير ابيين كثير:٤٤٥/٢.
[٢] تفسير القرطبي:٦/٦.
[٣] الكشاف:٥٨٣/١.
[٤] التفسير الميسر:١٠٢.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٨/١.
[٦] بحر العلوم:٣٥٣/١.
[٧] تفسير ابيين كثير:٤٤٥/٢.
[٨] تفسير الطبري:٣٥٥/٩.
[٩] الكشاف:٥٨٣/١.
[١٠] تفسير السمعاني:٤٩٧/١.
[١١] فتح القدير:٦١٣/١.
[١٢] تفسير أبي السعود:٢٤٩/٢.
[١٣] انظر: السبعة في القراءات:٢٤٠.
[١٤] صفوة التفاسير:٢٩٠.

قال ابن كثير:" أي : لذنوبهم، أي : إن كان لبعضهم ذنوب"[١].

قال البيضاوي:" {وكان الله غفورا}، لما فرط منهم. {رحيما}، عليهم بتضعيف حسناتهم"[٢].

قال الطبري:"يقول: ويغفر لمن فعل ذلك من خلقه ما سلف له من آثامه، فيستر عليه بعفوه له عنه، وتركه العقوبة عليه، فإنه لم يزل لذنوب المنيبين إليه من خلقه غفورًا، {رحيمًا}، يعني ولم يزل بهم رحيمًا، بتفضله عليهم بالهداية إلى سبيل الحق، وتوفيقه إياهم لما فيه خلاص رِقابهم من النار"[٣].

قال الماتريدي:" أخبر - عز وجل - أنه لم يزل غفورا رحيما، وهم يقولون: لم يكن غفورا رحيما ولكن صار غفورا رحيما، وبالله العصمة"[٤].

قال الراغب:" ونبه بذكر الغفران على غفران ذنوبهم وبالرحمة على مجازاتهم بالإحسان"[٥].

الفوائد:

١- صحة الدين الإسلامي إذ وعد المؤمنين بتوفية أجورهم والمغفرة والرحمة لهم.

٢-وفي الآية دلالة نقض قول المعتزلة؛ لأنهم لا يسمون صاحب الكبيرة مؤمنا، وهو قد آمن بالله ورسله ولم يفرق بين أحد من رسله؛ فدخل في قوله - تعالى -: {أولئك سوف يؤتيهم أجورهم} وهم يقولون: لا يؤتيهم أجورهم[٦].

٣- إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: «الغفور» و«الرحيم»:

«الغفور»: "هو الذي تكثر منه المغفرة"[٧].

وأن اقتران اسم«الغفور» باسم«الرحيم» يفيد أنه سبحانه يغفر للمستغفرين والتائبين لأنه واسع الرحمة. بمعنى أنه يغفر لمن تاب إليه وأناب رحمة منه لهذا العبد، لأنه لو لم يرحمه ويتداركه بمغفرته لهلك وخسر[٨].

و«الرحيم»: يتضمن صفة الرحمة التي تعم عباده المؤمنين فحسب بأن هداهم إلى الإيمان في الدنيا، وهو يثيبهم في الآخرة الثواب الدائم الذي لا ينقطع، إذ يقول سبحانه: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب آية ٤٣].

القرآن

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣)} [النساء : ١٥٣]

التفسير:

يسألك اليهود -أيها الرسول- معجزة مثل معجزة موسى تشهد لك بالصدق: بأن تنزل عليهم صُحُفًا من الله مكتوبةً، مثل مجيء موسى بالألواح من عند الله، فلا تعجب -أيها الرسول- فقد سأل أسلافهم موسى -عليه السلام- ما هو أعظم: سألوه أن يريهم الله علانيةً، فَصُعِقوا بسبب ظلمهم أنفسهم حين سألوا أمرًا ليس من حقِّهم. وبعد أن أحياهم الله بعد الصعق، وشاهدوا الآيات

---

[١] تفسير ابيبن كثير:٤٤٥/٢.

[٢] تفسير البيضاوي:١٠٦/٢.

[٣] تفسير الطبري:٣٥٥/٩.

[٤] تفسير الماتريدي:٤٠٦/٣.

[٥] تفسير الراغب الاصفهاني:٢١٣/٤.

[٦] انظر: تفسير الماتريدي:٤٠٦/٣.

[٧] شأن الدعاء للخطابي:٦٥/١.

[٨] انظر: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ع٤٥:ص٩٤، وع٤٦:ص٧٢-٧٣.

البينات على يد موسى القاطعة بنفي الشرك، عبدوا العجل من دون الله، فعَفونا عن عبادتهم العجل بسبب توبتهم، وآتينا موسى حجة عظيمة تؤيِّد صِدق نُبُوَّتِه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: عن محمد بن كعب القرظي؛ قال: "جاء أناس من اليهود إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله؛ فأتنا بالألواح من عند الله؛ حتى نصدقك؛ فأنزل الله: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} إلى قوله: {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} [النساء: ١٥٦]"[١]. [ضعيف جداً].

والثاني: عن ابن جريج في قوله: "{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ}؛ وذلك أن اليهود والنصارى أتوا النبي - ﷺ -، فقالوا: لن نبايعك على ما تدعونا إليه؛ حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان أنك رسول الله. قال الله -جل ثناؤه-: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً}"[٢]. [ضعيف جداً].

قوله تعالى:{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [النساء : ١٥٣]، أي:" يسألك اليهود -أيها الرسول- معجزة مثل معجزة موسى تشهد لك بالصدق: بأن تنزل عليهم صُحُفًا من الله مكتوبة من عند الله"[٣].

قال الزجاج:" وهذا حين قالوا للنبي - ﷺ -: { وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ}[٤]"[٥].

قال السمعاني:" هم اليهود، قالوا للنبي لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء جملة، كما أنزلت التوراة على موسى جملة"[٦].

وفي تفسير قوله تعالى:{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [النساء : ١٥٣]، وجوه:

أحدها : أن اليهود سألوا محمداً -ﷺ- ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء مكتوباً ، كما نزل على موسى الألواح ، والتوراة مكتوبة من السماء ، وهذا قول السدي[٧]، ومحمد بن كعب[٨].

والثاني : أنهم سألوه نزول ذلك عليهم خاصة ، تحكماً في طلب الآيات ، وهذا قول الحسن[٩]، وقتادة[١٠].

والثالث : أنهم سألوه أن ينزِّل على طائفة من رؤسائهم كتاباً من السماء بتصديقه ، وهذا قول ابن جريج[١١].

والصواب من القول أن يقال : "إن أهل التوراة سألوا رسولَ الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتابًا من السماء ، آيةً معجزةً جميعَ الخلق عن أن يأتوا بمثلها ، شاهدةً لرسول الله ﷺ بالصدق ، آمرة لهم باتباعه، وجائز أن يكون الذي سألوه من ذلك كتابًا مكتوبًا ينزل عليهم

---

[١] أخرجه الطبري(١٠٧٦٩):ص٣٥٦/٩. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه ثلاث: أحدها: عبد العزيز بن أبان الأموي السعيدي؛ متروك، وكذبه ابن معين؛ كما في "التقريب" ١/ ٥٠٨. والثاني: أبو معشر نجيح السندي؛ ضعيف، أسن واختلط؛ كما في "التقريب": ٢/ ٢٩٨. والعلة الثالثة: الإرسال.

[٢]أخرجه سُنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان": (١٠٧٧١):ص٣٥٧/٩.

وهذا سند واه بمرة؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: وضعف سنيد صاحب "التفسير".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٧٢٦)، وزاد نسبته لابن المنذر.

[٣] التفسير الميسر:١٠٢.

[٤][سورة الإسراء : ٩٣].

[٥] معاني القرآن:١٢٦/٢.

[٦] تفسير السمعاني:٤٩٧/١.

[٧] انظر تفسير الطبري(١٠٧٦٨):ص٣٥٦/٩.

[٨] انظر تفسير الطبري(١٠٧٦٩):ص٣٥٦/٩.

[٩] انظر: النكت والعيون:٥٤٠/١.

[١٠] انظر تفسير الطبري(١٠٧٧٠):ص٣٥٧/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٧١):ص٣٥٧/٩.

من السماء إلى جماعتهم وجائز أن يكون ذلك كتبًا إلى أشخاص بأعينهم. بل الذي هو أولى بظاهر التلاوة ، أن تكون مسألتهم إياه ذلك كانت مسألة لتنزيل الكتاب الواحد إلى جماعتهم ، لذكر الله تعالى في خبره عنهم «الكتاب» بلفظ الواحد بقوله : {يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابًا من السماء}، ولم يقل «كتبًا»"[١].

قوله تعالى:{فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً} [النساء : ١٥٣]، أي:" فلا تعجب -أيها الرسول- فقد سأل أسلافهم موسى -عليه السلام- ما هو أعظم: سألوه أن يريهم الله علانيةً"[٢].

قال الزجاج:" أي فقد سألوا موسى بعد أن جاءهم بالآيات، فقالوا: {أرنا الله جهرة}"[٣].

عن قتادة: "{فقد سألوا موسى أكبر من ذلك} [النساء: ١٥٣]، قولهم أرنا الله جهرة"[٤].

وعن قتادة أيضا في قوله: "{جهرة} [النساء: ١٥٣]، أي: عيانا"[٥]. وروي عن الربيع بن أنس مثل ذلك[٦].

قال ابن عباس:"إنما قالوا جهرةً : {أرنا الله}، قال : هو مقدّم ومؤخر"[٧].

وعن ابن عباس أيضا ، "أنه قال في قول الله: {جهرة} [النساء: ١٥٣] أي: علانية"[٨].

قال الطبري:" يعني : فقد سأل أسلافُ هؤلاء اليهود وأوائلهم موسى عليه السلام ، أعظم مما سألوك من تنزيل كتاب عليهم من السماء ، فقالوا له : " أرنا الله جهرة " ، أي : عِيانًا نعاينه وننظر إليه، [وهذا] توبيخ من الله جل ثناؤه سائلي الكتابَ الذي سألوا رسول الله ﷺ أن ينزله عليهم من السماء ، في مسألتهم إياه ذلك وتقريعٌ منه لهم. يقول الله لنبيه ﷺ : يا محمد ، لا يعظُمَنَّ عليك مسألتهم ذلك فإنهم من جهلهم بالله وجراءَتهم عليه واغترارهم بحلمه ، لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم ، لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم ، فعبدوا العجل واتخذوه إلهًا يعبدونه من دون خالقهم وبارئهم الذي أرَاهم من قدرته وعظيم سلطانه ما أراهم ، لأنهم لن يعدُوا أن يكونوا كأوائلهم وأسلافهم"[٩].

ويحتمل قوله تعالى:{فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً} [النساء : ١٥٣]، وجهين[١٠]:

أحدهما : أن الله تعالى بيَّن بذلك أن سؤالهم للإِعْنَاتِ لا للاستبصار كما أنهم سألوا موسى أن يريهم الله جهرة ، ثم كفروا بعبادة العجل .

والثاني : أنه بيَّن بذلك أنهم سألوا ما ليس لهم ، كما أنهم سألوا موسى من ذلك ما ليس لهم .

وفي قوله تعالى:{قَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً} [النساء : ١٥٣]، قولان :

أحدهما : أنهم سألوه رؤيته جهرة ، أي معاينة، وهذا اختيار الزجاج[١١].

والمعنى: "أرنا رؤية بينة منكشفة ظاهرة، لأن من علم الله عز وجل فقد زاد علما، ولكن سألوه رؤية يدركونها بأبصارهم، ودليل هذا القول قوله عز وجل: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة : ٥٥] "[١٢].

والثاني : أنهم قالوا : جهرة من القول: أَرِنا الله ، فيكون على التقديم والتأخير ، وهذا قول ابن عباس[١]، واختيار أبي عبيدة[٢].

---

[١] انظر: تفسير الطبري:٣٥٧/٩-٣٥٨.

[٢] التفسير الميسر:١٠٢.

[٣] معاني القرآن:١٢٦/٢.

[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٨٨):ص١١٠٣/٤.

[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٠):ص١١٠٣/٤.

[٦] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦١٩٠):ص١١٠٣/٤.

[٧] أخرجه الطبري(١٠٧٧٢):ص٣٥٩/٩.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٨٩):ص١١٠٣/٤.

[٩] تفسير الطبري:٣٥٨/٩.

[١٠] انظر: النكت والعيون:٥٤٠/١.

[١١] انظر: معاني القرآن:١٢٦/٢-١٢٧.

[١٢] معاني القرآن للزجاج:١٢٦/٢، وانظر: النكت والعيون:٥٤٠/١.

قال ابو عبيدة:" قالوا جهرة: أرنا الله، لأنهم إذا رأوا الله فالسر جهرة، فإنما جهرة صفة لقولهم"[٣].

قوله تعالى:{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [النساء : ١٥٣]، أي:" فجاءتهم من السماء نار فأهلكتهم بسبب ظلمهم"[٤].

قال أبو السعود:" أي: النار التى جاءت من السماء فأهلكتهم"[٥].

قال الطبري:" يقول : فصُعقوا بظلمهم أنفسهم. وظلمهم أنفسهم ، كان مسألَتهم موسى أن يريهم ربهم جهرة ، لأن ذلك مما لم يكن لهم مسألته"[٦].

قال قتادة:" أخذتهم الصاعقة ، أي ماتوا"[٧].

قال الربيع بن انس:" هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه ، قال: سمعوا كلاما فصعقوا ، يقول: ماتوا"[٨].

قال ابن شابور : "سمعت عروة بن رويم ، يقول: سأل بنو إسرائيل موسى يعني أن يريهم الله جهرة ، فأخبرهم أنهم لن يطيقوا ذلك ، فأبوا ، فسمعوا من الله فصعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء"[٩].

وعن السدي، قوله: "{جهرة فأخذتهم الصاعقة} [النساء: ١٥٣] ، والصاعقة: نار"[١٠].

ويحتمل قوله تعالى:{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} [النساء : ١٥٣]، وجهين[١١]:

أحدهما : بظلمهم لأنفسهم .

والثاني : بظلمهم في سؤالهم .

قال النسفي:"{بِظُلْمِهِمْ} على أنفسهم بسؤال شيء في غير موضعه أو بالتحكم على نبيهم في الآيات وتعنتهم فى سؤل الرؤية لا بسؤال الرؤية لأنها ممكنة كما نزل القرآن جملة ولو كان ذلك بسبب سؤال الرؤية لكان موسى بذلك أحق فإنه قال رب أرنى انظر اليك وما أخذته الصاعقة بل أطمعه وقيده بالممكن ولا يعلق بالممكن إلا ما هو ممكن الثبوت ثم أحياهم"[١٢].

وقرئ: "«الصعقة»"[١٣].

قوله تعالى:{ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ} [النساء : ١٥٣]، أي:" ثم اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه"[١٤].

قال السمعاني:" يعنى: إلها"[١٥].

قال الطبري:"يعني : ثم اتخذ هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوه من رؤية ربهم جهرةً ، بعد ما أحياهم الله فبعثهم من صعقتهم العجلَ الذي كان السامريُّ نبذ فيه ما نبذ من القبْضة التي قبضها من أثر فرس جبريل عليه السلام إلهًا يعبدونه من دون الله"[١٦].

قال أبو العالية:" إنما سمي العجل ، لأنهم عجلوا فاتخذوه قبل أن يأتيهم"[١٧].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٧٢):ص٣٥٩/٩.
[٢] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٢٦/٢.
[٣] معاني القرىن للزجاج:١٢٦/٢.
[٤] صفوة التفاسير:٢٩١.
[٥] تفسير ابي السعود:٢٤٩/٢.
[٦] تفسير الطبري:٣٥٩/٩.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٤):ص١١٠٤/٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩١):ص١١٠٤/٤.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٢):ص١١٠٤/٤. قال ابن أبي حاتم:" والسياق لمحمد وفي حديث عيسى بن يونس: ثم بعث الذين صعقوا أو صعق الآخرون ثم بعثوا ، فقال الله تعالى: {فأخذتهم الصاعقة} [النساء: ١٥٣]".
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٣):ص١١٠٤/٤.
[١١] انظر: النكت والعيون:٥٤١/١.
[١٢] تفسير النسفي:٤١١/١.
[١٣] انظر: تفسير أبي السعود:٢٤٩/٢.
[١٤] صفوة التفاسير:٢٩١.
[١٥] تفسير السمعاني:٤٩٧/١.
[١٦] تفسير الطبري:٣٥٩/٩.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٥):ص١١٠٤/٤.

عن مجاهد ، "قوله: {العجل} [النساء: ١٥٣] حسيل البقر: ولد البقرة"[١].

قوله تعالى:{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ} [النساء : ١٥٣]، أي:"من بعد ما جاءتهم المعجزات والحجج الباهرات"[٢].

قال الطبري:" يعني : من بعد ما جاءت هؤلاء الذين سألوا موسى ما سألوا ، البينات من الله ، والدلالاتُ الواضحات بأنهم لن يروا الله عيانًا جهارًا"[٣].

و{البينات}: "آيات تبين عن أنهم لن يروا الله في أيام حياتهم في الدنيا جهرة، وكانت تلك الآيات البينات لهم على أن ذلك كذلك : إصعاقُ الله إياهم عند مسألتهم موسى أن يريهم ربه جهرة ، ثم إحياءه إياهم بعد مماتهم ، مع سائر الآيات التي أراهم الله دلالةً على ذلك"[٤].

قوله تعالى:{فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ} [النساء : ١٥٣]، أي:" فعفونا عن عبادتهم العجل"[٥].

قال البغوي:أي:" ولم نستأصلهم"[٦].

قال النسفي:" تفضلاً ولم نستأصلهم"[٧].

عن أبي العالية ، "قوله: {عفونا} [النساء: ١٥٣]، يعني: من بعد ما اتخذوا العجل"[٨].
وروي عن الربيع بن أنس مثل ذلك[٩].

قال السمعاني: فيه استدعاء للتوبة، ومعناه: أن أولئك الذين اجترموا ذلك الإجرام، عفونا عنهم؛ فتوبوا أنتم، حتى نعفو عنكم"[١٠].

قوله تعالى:{وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء : ١٥٣]، أي:" وآتينا موسى حجة عظيمة تؤيِّد صِدق نُبُوَّتِه"[١١].

قال النسفي:" حجة ظاهرة على من خالفه"[١٢].

قال ابن ابي زمنين:أي:"حجة بيّنة"[١٣].

قال البغوي:" أي: حجة بينة من المعجزات، وهي الآيات التسع"[١٤].

قال السمعاني:أي:" حجة بينة من المعجزات"[١٥].

عن مجاهد ، "قوله: {وآتينا موسى سلطانا مبينا} [النساء: ١٥٣] يقول: حجة"[١٦].

الفوائد:

١- تعنت أهل الكتاب إزاء الدعوة الإسلامية وكفرهم بها على علم إنها دعوة حق.

٢- بيان قبائح اليهود وخبثهم الملازم لهم طوال حياتهم.

القرآن

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)} [النساء : ١٥٤]

التفسير:

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٦):ص١١٠٤/٤.
[٢] صفوة التفاسير:٢٩١.
[٣] تفسير الطبري:٣٦٠/٩.
[٤] تفسير الطبري:٣٦٠/٩.
[٥] التفسير الميسر:١٠٢.
[٦] تفسير البغوي:٣٠٦/٢.
[٧] تفسير النسفي:٤١١/١.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٧):ص١١٠٤/٤.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦١٩٦):ص١١٠٤/٤.
[١٠] تفسير السمعاني:٤٩٧/١.
[١١] التفسير الميسر:١٠٢.
[١٢] تفسير النسفي:٤١١/١.
[١٣] تفسير ابن ابي زمنين:٤١٨/١.
[١٤] تفسير البغوي:٣٠٦/٢.
[١٥] تفسير السمعاني:٤٩٧/١.
[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٨):ص١١٠٥/٤.

ورفعنا فوق رؤوسهم جبل الطور حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المؤكد الذي أعطوه بالعمل بأحكام التوراة، وأمرناهم أن يدخلوا باب «بيت المقدس» سُجَّدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وأمرناهم ألا يَعْتَدُوا بالصيد في يوم السبت فاعتدَوا، وصادوا، وأخذنا عليهم عهدًا مؤكدًا، فنقضوه.

قوله تعالى:{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ} [النساء : ١٥٤]، أي:" ورفعنا فوق رؤوسهم جبل الطور حين امتنعوا عن الالتزام بالعهد المؤكد الذي أعطوه بالعمل بأحكام التوراة ليقبلوه"[١].

قال محمد صديق خان القِنَّوجي:" أي: الجبل المسمى بالطور بسبب ميثاقهم ليعطوه لأنه روي أنهم امتنعوا من قبول شريعة موسى فرفع الله عليهم الطور فقبلوها"[٢].

قال الطبري: يعني : الجبل، وذلك لما امتنعوا من العمل بما في التوراة وقبول ما جاءهم به موسى فيها {بميثاقهم}، يعني : بما أعطوا الله الميثاق والعهد : لنعملن بما في التوراة"[٣].

قال النسفي:أي:" بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه"[٤].

قال ابن كثير:" وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ، عليه السلام ، ورفع الله على رؤوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا ، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم ، كما قال تعالى : { وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [الأعراف : ١٧١]"[٥].

قال أبو السعود:"{ بميثاقهم}، أي: بسبب ميثاقهم ليعطوه على ماروى أنهم امتنعوا عن قبول شريعة التوراة فرفع الله تعالى عليهم الطور فقبلوها أو ليخافوا فلا ينقضوه على ما روي أنهم هموا بنقضه فرفع الله تعالى عليهم الجبل فخافوا وأقلعوا عن النقض وهو الأنسب بما سيأتي من قوله عز وجل :{وأخذنا منهم ميثاقا غليظا}"[٦].

قال السمعاني:" الطور: جبل الطور، والميثاق: العهد المؤكد باليمين"[٧].

عن مسلم البطين ، في قوله: "{ورفعنا فوقهم الطور} [النساء: ١٥٤] قال: رفعته الملائكة"[٨].

قال عطاء:" رفع فوقهم الجبل على بني إسرائيل ، فقال: لتؤمنن به أو ليقعن عليكم"[٩].

قال مجاهد : "رُفِعَ الجبل فوقهم كالسحابة، فقيل لهم: لتؤمِنُنَّ أو ليقعن عليكم، فآمنوا"[١٠].

قال السدي:" فلما أبوا أن يسجدوا ، أمر الله الجبل أن يقع عليهم ، فنظروا إليه وقد غشيهم ، فسقطوا سجدا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم ، فكشفه عنهم ، فقالوا: ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم ، فهم يسجدون كذلك ، وذلك قول الله تعالى: {ورفعنا فوقهم الطور} [النساء: ١٥٤] "[١١].

وذكر أهل التفسير في{الطُّورَ}[النساء : ١٥٤]، أقاويل[١٢]:

أحدها : إنه اسم جبل بعينه، ثم اختلفوا في تحديده على وجهين:

---

[١] انظر: التفسير الميسر:١٠٢، وصفوة التفسير:٢٩١.

[٢] فتح البيان في مقاصد القرآن:٢٨٦/٣.

[٣] تفسير الطبري:٣٦١/٩.

[٤] تفسير النسفي:٤١٢/١.

[٥] تفسير ابن كثير:٤٤٦/٢.

[٦] تفسير أبي السعود:٢٥٠/٢.

[٧] تفسير السمعاني:٤٩٨/١.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٩٩):ص١١٠٥/٤.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٠٢):ص١١٠٥/٤.

[١٠] أخرجه الطبري(١١١٦):ص١٥٨/٢.

[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٠٣):ص١١٠٥/٤.

[١٢] أنظر: تفسير الطبري: ١٥٧/٢-١٥٨، وتفسير ابن كثير: ٢٨٧/١،والنكت والعيون: ١٣٤/١.

الأول: أنه اسم الجبل، الذي كلم الله عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة دون غيره، وهذه رواية ابن جريج عن ابن عباس[١].

وقال الفراء في تفسير قوله تعالى: {وَالطُّورِ} [الطور: ١]، قال:" وهو الجبل الذي بمدين، الذي كلّم الله جلَّ وَعزَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلام عنده نكليما"[٢].

والثاني : إنه جبل بالشام[٣]، قال ذو الرمة[٤]:

أَعاريبُ طُورِيُّونَ عن كُلِّ بلدة   يَحيدونَ عنها مِنْ حِذَارِ المَقادِرِ

قوله «طوريون»، أي: "وحشيون، يحيدون عن القرى حذار الوباء والتلف، كأنهم نسبوا إلى الطور وهو جبل بالشام"[٥].

والثالث: أن الطور ما أَنْبَتَ من الجبال خاصة، دون ما لم ينبت[٦]، وهذه رواية الضحاك عن ابن ابن عباس[٧].

والرابع : أن الطور اسم لكل جبل، وهو قول قتادة[٨]، وورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس[٩]، عباس[٩]، وعطاء[١٠]، وعكرمة[١١] والحسن[١٢]، والضحاك[١٣]، والربيع بن أنس[١٤]، وأبي صخر[١٥]، ومجاهد[١٦]، وابن زيد[١٧].

واختلف في الأصل اللغوي لكملة «الطور»، على وجهين:

الأول:أنها كلمة عربية، قال العجاج[١٨] :

داني جناحيه من الطور فمر   تقضّي البازي إذا البازيُّ كر

والثاني: أنها كلمة سريانية تعني:«الجبل». قاله مجاهد [١٩]، وابن زيد [٢٠].

---

(١) أنظر: تفسير الطبري(١٢٢٤):ص١٥٩/٢.

(٢) معاني القرآن: ٩١/٣.

(٣) أنظر: تفسير البسيط: ٦٢٩/٢، والمحرر الوجيز: ٣٣٠/١، و٥٠٢/١٥.

(٤)ورد البيت في "التهذيب" (طور) ٣/ ٢٢٢٩، "اللسان" (طرأ) ٥/ ٢٦٤٩، و (طور) ٥/ ٢٧١٨، "الخزانة" ٧/ ٣٥٥، و"ديوان ذي الرمة" ٣/ ١٦٩٨، وفي بعضها (قرية) بدل (بلدة).

(٥) التفسير البسيط: ٦٣٠/٢.

(٦)هذا قول لم نجده في كتب اللغة في مادته.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥١):ص١٢٩/١، وتفسير الطبري(١١٢٥):ص١٥٩/٢.

(٨) أنظر: تفسير الطبري(١١١٨):ص١٥٨/٢.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٢):ص١٢٩/١.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٥٣):ص١٢٩/١.

(١١) أنظر: تفسير الطبري(١١٢١):ص١٥٩/٢.

(١٢) تفسير ابن ابي حاتم: ص١١٠٥/٤..

(١٣) تفسير ابن ابي حاتم: ص١١٠٥/٤..

(١٤) تفسير ابن ابي حاتم: ص١١٠٥/٤..

(١٥) تفسير ابن ابي حاتم: ص١١٠٥/٤..

(١٦) أنظر: تفسير الطبري(١١١٦)، و(١١١٧):ص١٥٨/٢.

(١٧) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٣):ص١٥٩/٢.

(١٨)ديوانه : ١٧، ومجاز القرآن: ٣٠٠/٢، وغريب الحديث: ١٨٠، وهو من قصيدة جيدة يذكر فيها مآثر عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، وقد ولي الولايات العظيمة ، وفتح الفتوح الكثيرة ، وقاتل الخوارج . والضمير في قوله : " دانى " يعود إلى متأخر ، وهو " البازي " المذكور في البيت بعده . فإن قبله ، ذكر عمر بن عبيد الله وكتائبه من حوله :

حول ابن غراء حصان إن وتر   فات ، وإن طالب بالوغم اقتدر

إذا الكرام ابتدروا الباع ابتدر   دانى جناحيه من الطور فمر

يريد : " ابتدر منقضا انقضاض البازي من الطور ، دانى جناحيه . . فمر " فقدم وأخر . وهو من جيد التقديم والتأخير . وقوله : " دانى " أي ضم جناحيه وقر بهما وضيق ما بينهما تأهبا للانقضاض من ذروة الجبل . ومر : أسرع إسراعا شديدا . وقوله : " تقضى " أصلها " تقضض " ، فقلب الضاد الأخيرة ياء ، استثقل ثلاث ضادات ، كما فعلوا في " ظنن " " وتظنى " على التحويل . وتقضض الطائر : هوى في طيرانه يريد الوقوع . والبازي : ضرب من الصقور ، شديد . وكسر الطائر جناحيه : ضم منهما شيئا - أي قليلا - وهو يريد السقوط .

(١٩) أنظر: تفسير الطبري(١١١٦)، و(١١١٧):ص١٥٨/٢.

(٢٠) أنظر: تفسير الطبري(١١٢٣):ص١٥٩/٢.

والقول الأول أقرب إلى الصواب، لأنه جاء «الطور» بمعنى الجبل في كلام العرب، كما سبق الاستشهاد بقول العجاج، وبه قال الإمام الطبري[1]، ومنه قول جرير[2]:

فإن ير سليمان الجنّ يستأنسوا بها   وإن ير سليمان أحب الطّور ينزل

قال القفال رحمه الله: إنما قال: «ميثاقكم»، ولم يقل: مواثيقكم، لوجهين[3]:

أحدهما: أراد به الدلالة على أن كل واحد منهم قد أخذ ذلك كما قال: {ثم يخرجكم طفلا} [غافر: ٦٧] أي كل واحد منكم.

والثاني: أنه كان شيئا واحدا أخذ من كل واحد منهم كما أخذ على غيره فلا جرم كان كله ميثاقا واحدا ولو قيل مواثيقكم لأشبه أن يكون هناك مواثيق أخذت عليهم لا ميثاق واحد، والله أعلم.

قوله تعالى:{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [النساء : ١٥٤]، أي:" وأمرناهم أن يدخلوا باب «بيت المقدس» سُجَّدًا، فدخلوا يزحفون على أستاههم"[4].

قال أبو السعود:أي:" على لسان موسى عليه السلام والطور مظل عليهم: {ادخلوا الباب سجدا}، أي: متطامنين خاضعين"[5].

قال الطبري:" يعني :«باب حِطّة»، حين أمروا أن يدخلوا منه سجودًا ، فدخلوا يزحفون على أستاههم"[6].

قال النسفي:أي:" والطور مظل عليهم: {ادخلوا الباب سُجَّداً}، أي: ادخلوا باب ايلياء مطأطئين عند الدخول رؤسكم"[7].

قال ابن كثير:" أي : فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل ، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا ، وهم يقولون : حطة. أي : اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، حتى تهنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم ، وهم يقولون : حنطة في شعرة"[8].

قال السمعاني:" قيل: إنهم سجدوا على أنصاف وجوههم، حتى دخلوا الباب، وفي القصة: أنهم قالوا: بهذا السجود رفع العذاب عنا، فلا نترك هذا السجود، وكانوا يسجدون بعد ذلك على أنصاف وجوههم"[9].

عن ابن عباس ، في قوله: "{ادخلوا الباب سجدا} [النساء: ١٥٤] قال: من باب صغير"[10].

وروي عكرمة: عن ابن عباس: "كان الباب قبل القبلة"[11].

قال مجاهد:" باب الحطة من باب إيلياء من بيت المقدس"[12]. وروي عن الضحاك ، والسدي نحو ذلك[13].

عن ابي هريرة: قال رسول الله ﷺ: " قال الله تعالى لبني إسرائيل: {ادخلوا الباب سجدا} [النساء: ١٥٤] فدخلوا الباب يزحفون على أستائهم "[14].

---

(1) انظر: تفسيره: ١٥٧/٢. وانظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٤٩٤.
(2) البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره: ٢١٢/١.
(3) انظر: تفسير الرازي: ١٠٠/٢.
(4) التفسير الميسر:١٠٢.
(5) تفسير أبي السعود:٢٥٠/٢.
(6) تفسير الطبري:٣٦١/٩.
(7) تفسير النسفي:٤١٢/١.
(8) تفسير ابن كثير:٤٤٧/٢.
(9) تفسير السمعاني:٤٩٨/١.
(10) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٤):ص١١٠٥/٤.
(11) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٥):ص١١٠٥/٤.
(12) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٦):ص١١٠٦/٤.
(13) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٠٦):ص١١٠٦/٤.
(14) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٧):ص١١٠٦/٤.

قال ابن عباس:" ركعا من باب صغير ، فدخلوا من قبل استائهم"[١].
وفي رواية عكرمة عن ابن عباس:" فدخلوا على شق"[٢].
وقال الربيع:" وكان سجود أحدهم على خده"[٣].
وقال ابن مسعود:" : قيل لهم: {ادخلوا الباب سجدا}، فدخلوا مقنعي رءوسهم"[٤].
واختلفوا في «الباب» في قوله تعالى:{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [النساء : ١٥٤]، على ثلاثة أوجه:
أحدها: أنه باب في بيت المقدس يعرف اليوم بـ (باب حِطَّةَ)، وهذا قول ابن عباس[٥]، ومجاهد[٦]، والسدي[٧]، والضحاك[٨]، وقتادة [٩]، واختاره الطبري[١٠]، وهو المشهور.
والثاني: أنه باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل.
والثالث: أنه باب القرية، التي أمروا بدخولها[١١].
واختلفوا في قوله{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} [النساء : ١٥٤]، على وجهين [١٢]:
أحدهما: أن معناه: رُكَّعاً، منحنين ركوعا. وهذا قول ابن عباس[١٣].
والثاني: أن معناه: متواضعين خشوعا، لا على هيئة متعينة.
والقول الأول أشبه بالصواب: وأصل (السجود) الانحناء لمن سُجد له معظَّما بذلك. فكل منحن لشيء تعظيما له فهو (ساجد) ومنه قول زيد الخيل بن مهلهل الطائي[١٤]:
بَجَمْعٍ تَضَلُّ الْبَلْقُ في حُجُرَاتِهِ   تَرَى الأكْمَ فِيهِ سُجَّداً لِلْحَوافِرِ
فقوله :"سجدا"، أي: خاشعة خاضعة، ومن ذلك قول أعشى بني قيس بن ثعلبة[١٥]:
يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمِلَيـ   ـكِ طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جِوَاراً
فذلك تأويل ابن عباس قوله : {سجدا}، ركعا، لأن الراكع منحن، وإن كان الساجد أشد انحناء منه[١٦].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٨):ص١١٠٦/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٠٩):ص١١٠٦/٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢١٠):ص١١٠٦/٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢١١):ص١١٠٦/٤.
[٥] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦):ص١٠٤/٢.
[٦] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٣):ص١٠٣/٢، وتفسير ابن أبي حاتم(٥٧٤):ص١١٧/١.
[٧] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٥):ص١٠٤/٢.
[٨] أنظر: تفسير ابن أبي حاتم:١١٧/١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٧٣):ص٣٦١/٩.
[١٠] أنظر: تفسير الطبري: ١٠٣/٢.
[١١] أنظر: النكت والعيون: ١٢٥/١.
[١٢] انظر: تفسير الطبري: ١٠٤/٢، وتفسير القرطبي: ٤١٠/١.
[١٣] أنظر: تفسير الطبري(١٠٠٦)، و(١٠٠٧)، و(١٠٠٨):ص١٠٤/٢.
[١٤] الكامل ١ : ٢٥٨ ، والمعاني الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجري : ١٩ ، ومجموعة المعاني : ١٩٢ ، وغيرها . والباء في قوله " بجمع " متعلقة ببيت سالف هو :
بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعْرِفُونَ إذَا غَدَا ... أَبُو مِكْنَفٍ قَدْ شَدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ؟
والبلق جمع أبلق وبلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين. والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) : الناحية. والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهي تل يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة في المعاني الكبير : " يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل. يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر " . وفي المطبوعة هنا " فيه " والجيد ما أثبته ، والضمير في " منه " للجيش أو الجمع.
[١٥] ديوانه: ٤١. راوح يراوح مراوحة : عمل عملين في عمل ، يعمل ذامرة وذا مرة ، قال لبيد يصف فرسا :
وولّى عامدا لِطِيات فَلْج   يراوح بين صون وابتذال
وقوله : " من صلوات " " من " هنا لبيان الجنس ، مثل قوله تعالى : يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق " . وحذف " بين " التي تقتضيها " يراوح " ، لدلالة ما يأتي عليها ، وهو قوله : " طورا . . وطورا " . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء مع تضرع واستغاثة وجزع . جأر إلى ربه يجأر جؤارا .
[١٦] انظر: تفسير الطبري: ١٠٥/٢.

قوله تعالى:{وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} [النساء : ١٥٤]، أي:" وأمرناهم ألا يَعْتَدُوا بالصيد في يوم السبت فخالفوا واصطادوا"[١].

قال الطبري:أي:" لا تتجاوزوا في يوم السبت ما أبيح لكم إلى ما لم يبح لكم"[٢].

قال أبو السعود:" أي: لاتظلموا باصطياد الحيتان {فى السبت}"[٣].

قال ابن كثير:" أي : وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرّم الله عليهم ، ما دام مشروعًا لهم"[٤].

قال النسفي:أي:" لا تجاوزوا الحد"[٥].

قال الماتريدي:لا" تعملوا في السبت عملا من الدنيا، وتفرغوا فيه للعبادة"[٦].

قال قتادة:" أمر القوم أن يأكلوا الحيتان يوم السبت ولا يعرضوا ، وأحلت لهم ما خلا ذلك"[٧].

عن صفوان بن عسال المرادي:" أن يهوديا قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبي فقال الآخر: لا تقل نبي فإنه لو سمع صارت أربعة أعين فأتياه فسألاه عن هذه الآية: {ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات} فقال لا تشركوا بالله شيئا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تأكلوا الربا ولا تسحروا ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله ولا تسرفوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت فقبلا يده وقالا نشهد أنك نبي قال: فما يمنعكم أن تتبعوني؟ قالا إن داود دعا ربه أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن تبعناك أن يقتلنا اليهود"[٨].

قرأ نافع {لا تَعَدُّوا}، بتسكين العين وتشديد الدال، من الاعتدا، وروى عنه ورش:{لا تعدوا}، بفتح العين وتشديد الدال، وقرأ الباقون:{لا تعدو}، خفيفة ساكنة العين، من عَدَوت، وعدوهم فيه تجاوزهم حقوقه ، فيكون تعديهم فيه - على تأويل القراءة الثانية - ترك واجباته[٩].

قوله تعالى:{وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [النساء : ١٥٤]، أي:" وأخذنا عليهم عهدًا مؤكدًا، فنقضوه"[١٠].

قال أبو مالك:"{غليظا}، يعني: شديدا"[١١].

قال النسفي:أي:" عهداً مؤكداً"[١٢].

قال ابن عرفة:" أي: لَا يقبل الحل شرعا"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : شديدا ، فخالفوا وعَصَوْا وتحيلوا على ارتكاب مناهى الله ، عز وجل ، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله : { وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ} [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٦] الآيات"[١٤].

---

[١] انظر: التفسير الميسر:١٠٢ ، وصفوة التفسير:٢٩١.
[٢] تفسير الطبري:٣٦١/٩.
[٣] تفسير أبي السعود:٢٥٠/٢.
[٤] تفسير ابن كثير:٤٤٧/٢.
[٥] تفسير النسفي:٤١٢/١.
[٦] تفسير الماتريدي:٤٠٨/٣.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢١٣):ص١١٠٧/٤.
[٨]أخرجه الترمذي في التفسير سورة الإسراء: ٨ / ٥٨٠، وقال: "هذا حديث حسن صحيح" والنسائي في تحريم الدم باب السحر: ٧ / ١١١-١١٢ والإمام أحمد في المسند: ٤ / ٢٣٩-٢٤٠، والطبري في التفسير: ١٥ / ١٧٢، وأخرجه ابن ماجه مختصرا عن صفوان بن عسال أن قوما من اليهود قبلوا يد النبي ﷺ ورجليه. قال الحافظ ابن كثير: (٣ / ٦٨) : "وهو حديث مشكل وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء وقد تكلموا فيه ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات فإنها وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون والله أعلم".
[٩] انظر: السبعة في القراءات:٢٤٠،والنكت والعيون:٥٤١/١.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٢.
[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢١٤):ص١١٠٧/٤.
[١٢] تفسير النسفي:٤١٢/١.
[١٣] تفسير ابن عرفة:٦٩/٢.
[١٤] تفسير ابن كثير:٤٤٧/٢.

قال أبو السعود:أي:" على الامتثال بما كلفوه {ميثاقا غليظا} مؤكدا وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في التوراة، قيل إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله تعالى يعذبهم بأي أنواع العذاب أراد"[١].

ويحتمل قوله تعالى:{ غَلِيظًا} [النساء : ١٥٤]، وجهين[٢]:

أحدهما : أنه العهد بعد اليمين .

والثاني : أن بعض اليمين ميثاق غليظ .

قال الطبري:" يعني : عهدًا مؤكدًا شديدًا، بأنهم يعملون بما أمرهم الله به ، وينتهون عما نهاهم الله عنه ، مما ذكر في هذه الآية ، ومما في التوراة"[٣].

الفوائد:

١- بيان عناد اليهود وعصيانهم على الرغم من رؤيتهم للآيات.

٢-أن نقض اليهود للعهود والمواثيق أصبح طبعاً لهم لا يفارقهم أبداً، ولذا وجب عدم الثقة في عهودهم ومواثيقهم.

٣- ويستفاد من الآية: ان الله عز وجل أرسل الرسل والأنبياء ليذكروا العباد بالميثاق الغليظ، وهو أعظم ميثاق على الإطلاق، ألا وهو ميثاق الإيمان والتوحيد، والله عز وجل أخذ الميثاق الأول على بني آدم حينما أخرجهم جميعاً من صلب آدم: أن يكونوا موحدين لا مشركين.

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف : ١٧٢].

القرآن

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥)} [النساء : ١٥٥]

التفسير:

فلعنَّاهم بسبب نقضهم للعهود، وكفرهم بآيات الله الدالة على صدق رسله، وقتلهم للأنبياء ظلمًا واعتداءً، وقولهم: قلوبنا عليها أغطية فلا تفقه ما تقول، بل طمس الله عليها بسبب كفرهم، فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلا لا ينفعهم.

قوله تعالى:{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} [النساء : ١٥٥]، أي:" فبسبب نقضهم للعهود لعنّاهم وأذللناهم"[٤].

قال الفراء:" المعنى: فبنقضهم"[٥].

قال قتادة:" فبنقضهم ميثاقهم"[٦].

قال مقاتل:" يعني: فبنقضهم إقرارهم بما في التوراة"[٧].

قال الطبري:أي:" فبنقض هؤلاء الذين وصفتُ صفتهم من أهل الكتاب، عهودهم التي عاهدوا الله أن يعملوا بما في التوراة"[٨].

قال القرطبي:" ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي -ﷺ-"[٩].

---

[١] تفسير أبي السعود:٢/٢٥٠.
[٢]انظر: النكت والعيون:١/٥٤١.
[٣] تفسير الطبري:٩/٣٦٢.
[٤] صفوة التفاسير:٢٩١، والتفسير الميسر:١٠٣.
[٥] معاني القرآن:١/٢٤٤.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢١٥):ص٤/١١٠٧.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤١٩.
[٨] تفسير الطبري:٩/٣٦٣.
[٩] تفسير القرطبي:٦/٨.

قال الزجاج:" وتأويل «نقضهم ميثاقهم»، أن الله عز وجل أخذ عليهم الميثاق في أن يبينوا ما أنزل عليهم من ذكر النبي - ﷺ – وغيره، قال الله عز وجل: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [آل عمران : ١٨٧]"[١].

قوله تعالى:{وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ} [النساء : ١٥٥]، أي:"وبجحودهم بآيات الله الدالة على صدق رسله"[٢].

قال مقاتل:" يعني: الإنجيل والقرآن، وهم اليهود"[٣].

قال السمرقندي:" يعني: بكفرهم بآيات الله لعنهم الله وخذلهم"[٤].

قال الطبري:"يقول: وجحودهم بأعلام الله وأدلته التي احتج بها عليهم في صدق أنبيائه ورسله وحقيقة ما جاءوهم به من عنده"[٥].

قال مجاهد:" الآيات: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ويده وعصاه"[٦].

وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه -: " وكفرهم بآيات الله من بعد ما تبينت "[٧].

قوله تعالى:{وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} [النساء : ١٥٥]، أي:" وقتلهم للأنبياء ظلمًا واعتداءً"[٨].

قال السمرقندي:" يعني: وبقتلهم الأنبياء بغير جرم"[٩].

قال الطبري:" يقول : وبقتلهم الأنبياء بعد قيام الحجة عليهم بنبوّتهم، بغير استحقاق منهم ذلك لكبيرة أتوها ، ولا خطيئة استوجبوا القتل عليها "[١٠].

قال ابن مسعود:" كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق لهم من آخر النهار"[١١].

ذكر الماتريدي عن ابن عباس - رضي الله عنه -: قال:" كانوا يقتلون الأنبياء، وأما الرسل - عليهم السلام - فكانوا معصومين، لم يقتل رسول قط؛ ألا ترى أنه قال: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا}[١٢]، وقال - عز وجل -: {إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ}[١٣]"[١٤].

قوله تعالى:{وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [النساء : ١٥٥]، أي:" وقولهم: قلوبنا عليها أغطية فلا تفقه ما تقول"[١٥].

قال السمرقندي:" يعني: ذا غلاف ولا نفقه حديثك"[١٦].

قال الطبري:" يعني : وبقولهم:{قلوبنا غلف}، يعني : يقولون : عليها غِشاوة وأغطِية عما تدعونا إليه ، فلا نفقَه ما تقول ولا نعقله "[١٧].

قال مقاتل:" وذلك حين سمعوا من النبي- ﷺ- {وقتلهم الأنبياء}، عرفوا أن الذي قال لهم النبي- ﷺ- حق، وقالوا :{قلوبنا غلف}، يعني: في أكنة عليها الغطاء فلا تفقه ولا تفهم ما تقول يا محمد، كراهية ما سمعوا من النبي- ﷺ- من كفرهم بالإنجيل والفرقان"[١].

---

[١] معاني القرآن:١٢٧/٢.
[٢]التفسير الميسر:١٠٣، وصفوة التفاسير:٢٩١.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٩/١.
[٤] بحر العلوم:٣٥٤/١.
[٥] تفسير الطبري:٣٦٣/٩.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢١٦):ص١١٠٧/٤.
[٧] تفسير الماتريدي:٤٠٨/٣.
[٨] التفسير الميسر:١٠٣.
[٩] بحر العلوم:٣٥٤/١.
[١٠] تفسير الطبري:٣٦٣/٩.
[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢١٧):ص١١٠٧/٤.
[١٢][سورة غافر : ٥١].
[١٣][سورة الصافات : ١٧٢].
[١٤] تفسير الماتريدي:٤٠٨/٣.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٣.
[١٦] بحر العلوم:٣٥٤/١.
[١٧] تفسير الطبري:٣٦٣/٩.

قال ابن عباس:" إنما سمي القلب لتقلبه"[٢].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} [النساء : ١٥٥]، وجوه:

أحدها : أنها في غطاء ومحجوبة عن فهم الإعجاز ودلائل التصديق، وهذا قول ابن عباس في رواية علي بن ابي طلحة، ومجاهد[٣]، وسعيد بن جبير[٤]، وعكرمة[٥]، والسدي[٦]، وقتادة في رواية معمر[٧]، وهو بعض البصريين[٨].

والثاني : يعني: أنها أوعية للعلم ومملوءة علما، لانحتاج إلى علم محمد ولا غيره. وهذا قول ابن عباس[٩]، وعطية العوفي[١٠]، وعطاء الخرساني[١١]، والزجاج[١٢].

قال الماوردي:"فيكون ذلك منهم على التأويل الأول إعراضاً ، وعلى التأويل الثاني إبطالاً"[١٣].

والثالث: أنها لا تفقه. وهذا قول أبي العالية[١٤]، وقتادة في رواية ابن أبي عروبة[١٥].

والرابع: أنها أوعية للمنكر. وهذا قول عطية[١٦].

والخامس: أنها لم تختن. وهذا قول الحسن[١٧].

والسادس: أن عليها طابع. وهذا قول عكرمة[١٨].

والسابع: أنها أوعية للخير. وهذا قول عوف[١٩].

وقرأ بعضهم: «غلف»، بضم اللام[٢٠].

قوله تعالى:{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء : ١٥٥]، أي:" بل طمس الله عليها بسبب كفرهم"[٢١].

قال أبو مالك:"{بل طبع الله}، يعني:ختم الله"[٢٢].

قال السمرقندي:" يعني: ختم الله على قلوبهم بكفرهم"[٢٣].

قال عوف: "بلغني في قول الله تعالى: {وقالوا قلوبنا غلف}، قال: قالوا: قلوبنا أوعية للخير، فأكذبهم الله وقال:{بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا}"[٢٤].

قال قتادة:" لما بدل القوم أمر الله وقتلوا رسله وكفروا بكتابه ونقضوا الميثاق الذي عليهم، طبع الله على قلوبهم حين فعلوا ذلك"[١].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤١٩/١-٤٢٠.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢١٨):ص١١٠٨/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢١):ص١١٠٨/٤.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢١):ص١١٠٨/٤.
(٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢١):ص١١٠٨/٤.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢١):ص١١٠٨/٤.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢١):ص١١٠٨/٤.
(٨) انظر: النكت والعيون:٥٤٢/١.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢١٩):ص١١٠٨/٤.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٠):ص١١٠٨/٤.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٠):ص١١٠٨/٤.
(١٢) انظرك معاني القرآن:١٢٧/٢.
(١٣)النكت والعيون:٥٤٢/١.
(١٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٣):ص١١٠٨/٤.
(١٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٣٦٢٢٢):ص١١٠٨/٤.
(١٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٤):ص١١٠٨/٤.
(١٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٢):ص١١٠٨/٤.
(١٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٥):ص١١٠٨/٤.
(١٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٧):ص١١٠٨/٤.
(٢٠) انظر: بحر العلوم:٣٥٤/١.
(٢١) التفسير الميسر:١٠٣.
(٢٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٢٦):ص١١٠٩/٤.
(٢٣) بحر العلوم:٣٥٤/١.
(٢٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٢٧):ص١١٠٩/٤.

وفي تفسير قوله تعالى:{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} [النساء : ١٥٥]، وجهان:
أحدهما : أنه جعل فيها علامة تدل الملائكة على كفرهم كعلامة المطبوع ، وهو قول بعض البصريين(٢).
الثاني : ذمهم بأن قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تفهم أبداً ولا تطيع مرشداً، إذ جعل الله مجازاتهم على كفرهم أن طبع على قلوبهم. وهذا قول الزجاج(٣).
قال الزمخشري: قوله: "{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}، رد وإنكار لقولهم (قلوبنا غلف) فكان متعلقا به، وذلك أنهم أرادوا بقولهم: {قلوبنا غلف} أن الله خلق قلوبنا غلفا، أى في أكنة لا يتوصل إليها شيء من الذكر والموعظة، كما حكى الله عن المشركين وقالوا: { لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ} [الزخرف : ٢٠]... ، فقيل لهم: بل خذلها الله ومنعها الألطاف بسبب كفرهم، فصارت كالمطبوع عليها، لا أن تخلق غلفا غير قابلة للذكر ولا متمكنة من قبوله"(٤).
قوله تعالى:{فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٥٥]، أي:" فلا يؤمنون إلا إيمانًا قليلا لا ينفعهم"(٥).
قال السمرقندي:" أي" لا يؤمنون إلا قليل منهم"(٦).
قال النسفي:" كعبد الله بن سلام وأصحابه"(٧).
قال القرطبي:" أي: إلا إيمانا قليلا، أي: ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم"(٨).
وفي قوله تعالى:{فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء : ١٥٥]، ثلاثة وجوه:
أحدها : أن القليل منهم يؤمن بالله. وهذا قول قتادة(٩).
الثاني : لا يؤمنون إلا بقليل، وهو إيمانهم ببعض الأنبياء دون جميعهم(١٠).
والثالث: وقال مقاتل:" يقول: ما أقل ما يؤمنون، فإنهم لا يؤمنون البتة"(١١).

الفوائد:

١-بيان جرائم اليهود.
٢-نقضهم العهود والمواثيق وخاصة عهدهم بالعمل بها في التوراة.
٣-قولهم قلوبنا غلف حتى لا يقبلوا دعوة الإسلام، وما أراد الرسول إعلامهم به وكذبهم الله تعالى في هذه الدعوى، وأخبر أن لا أغطية على قلوبهم، ولكن طبع الله تعالى عليها بسبب ذنوبهم فران عليها الران فمنعها من قبول الحق اعتقاداً وقولاً وعملاً، هذا ما تضمنته الآية الأولى، وهي قوله تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ} والباء سببية والميم صلة والأصل، فبنقضهم، أي: بسبب نقضهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم. {فَلا يُؤْمِنُونَ إلا قَلِيلاً} أي: إيماناً قليلاً؛ كلإيمانهم بموسى وهارون والتوراة والزبور مثلاً.

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٢٨):ص١١٠٩/٤.
(٢) انظر: النكت والعيون:٥٤٢/١.
(٣) انظر: معاني القرآن:١٢٧/٢.
(٤) الكشاف:٥٨٦/١.
(٥) التفسير الميسر:١٠٣.
(٦) بحر العلوم:٣٥٤/١.
(٧) تفسير النسفي:٤١٣/١.
(٨) تفسير القرطبي:٨/٦.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٢٩):ص١١٠٩/٤.
(١٠) انظر: بحر العلوووم:٣٥٤/١، والنكت والعيون:٥٤٢/١-٥٤٣.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٠/١.

القرآن

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦)} [النساء : ١٥٦]

التفسير:

وكذلك لعنَّاهم بسبب كفرهم وافترائهم على مريم بما نسبوه إليها من الزنى، وهي بريئة منه.

سبب النزول:

قال السمرقندي:" ثم قال تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما}، وذلك أن مريم كانت متعبدة لله تعالى ناسكة، اصطفاها الله تعالى بولد بغير أب، فعيرها اليهود واتهموها وقذفوها بيوسف بن ماثان، وكان يوسف خادم بيت المقدس ويقال: كان ابن عمها، فأنزل الله تعالى إكذابا لقولهم وبين بهتانهم فقال: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما}"[1].

قوله تعالى:{وَبِكُفْرِهِمْ} [النساء : ١٥٦]، أي:" وكذلك لعنَّاهم بسبب كفرهم"[2].

قال السمرقندي:" يعني: لعنهم الله وخذلهم بذلك"[3].

قال البيضاوي:يعني:" بعيسى عليه الصلاة والسلام، وهو معطوف على بكفرهم لأنه من أسباب الطبع، أو على قوله: فبما نقضهم ويجوز أن يعطف مجموع هذا وما عطف عليه على مجموع ما قبله ويكون تكرير ذكر الكفر إيذانا بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد عليهم الصلاة والسلام"[4].

قوله تعالى:{وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} [النساء : ١٥٦]، أي:" وافترائهم على مريم بما نسبوه إليها من الزنى، وهي بريئة منه"[5].

قال ابن عباس:"يعني : أنهم رموها بالزنا"[6].

قال السدي:" حين قذفوها بالزنا"[7].

قال جوبير:" قالوا: زنت"[8].

قال البيضاوي:" يعني: نسبتها إلى الزنا"[9].

قال الطبري:" يعني : بفريتهم عليها ، ورميهم إياها بالزنا ، وهو «البهتان العظيم»، لأنهم رموها بذلك ، وهي مما رموها به بغير ثَبَتٍ ولا برهان بريئة ، فبهتوها بالباطل من القول"[10].

قال مقاتل:" وذلك أن اليهود قذفوا مريم- عليها السلام- بيوسف بن ماثان بالزنا وكان ابن عمها وكان قد خطبها، ومريم ابنة عمران بن ماثان"[11].

قال الزجاج:" البهتان: الكذب الذي يحير من شذته وعظمه، وذلك أن إليهود - لعنها الله - رمت مريم، وهي صفوة الله على نساء العالمين، بأمر عظيم"[12].

الفوائد:

١- كفرهم بآيات الله والمنزلة على عبد الله عيسى ورسوله والمنزلة على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- قولهم على مريم بهتاناً عظيماً حيث رموها بالفاحشة، وقالوا عيسى ابن مريم ابن زنى لعنهم الله.

---

[1] بحر العلوم:٣٥٤/١.
[2] التفسير الميسر:١٠٣.
[3] بحر العلوم:٣٥٤/١.
[4] تفسير البيضاوي:١٠٧/٢.
[5] التفسير الميسر:١٠٣.
[6] أخرجه الطبري(١٠٧٧٦):ص٣٦٧/٩.
[7] أخرجه الطبري(١٠٧٧٧):ص٣٦٧/٩.
[8] أخرجه الطبري(١٠٧٧٨):ص٣٦٧/٩.
[9] تفسير البيضاوي:١٠٧/٢.
[10] تفسير الطبري:٣٦٦/٩.
[11] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٠/١.
[12] معاني القرآن:١٢٨/٢.

القرآن

{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧)} [النساء : ١٥٧]

التفسير:

وبسبب قولهم -على سبيل التهكم والاستهزاء-: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوا عيسى وما صلبوه، بل صلبوا رجلا شبيهًا به ظنًّا منهم أنه عيسى. ومن ادَّعى قَتْلَهُ من اليهود، ومن أسلمه إليهم من النصارى، كلهم واقعون في شك وحَيْرَة، لا عِلْمَ لديهم إلا اتباع الظن، وما قتلوه متيقنين بل شاكين متوهمين.

قوله تعالى:{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} [النساء : ١٥٧]، أي:" وبسبب قولهم -على سبيل التهكم والاستهزاء-: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله"[١].

قال ابن كثير:" أي: هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب: قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ، كقول المشركين:{ يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [الحجر : ٦]"[٢].

قال قتادة:" أولئك أعداء الله ابتهروا بقتل نبي الله عيسى، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه"[٣].

وفي قوله تعالى:{ رَسُولَ اللَّهِ} [النساء : ١٥٧]، قولان[٤]:

أحدهما : أنه من قول اليهود ،بمعنى رسول الله في زعمه .

والثاني : أنه من قول الله تعالى لا على وجه الإخبار عنهم ، وتقديره : الذي هو رسولي. وهذا قول مقاتل[٥].

قوله تعالى:{وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء : ١٥٧]، أي:" وما قتلوا عيسى ولا صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من أُلقي عليه شَبَهُهُ"[٦].

قال ابن كثير:" أي : رأوا شبهه فظنوه إياه"[٧].

قال مجاهد:" صلبوا رجلا غير عيسى يحسبونه إياه"[٨].

عن الحسن قال: "قال رسول الله -ﷺ-لليهود: «إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة»"[٩].

وفيمن ألقي عليه شبهه قولان:

أحدهما: أنه بعض من أراد قتله من اليهود. وهذا قول ابن عباس في رواية أبي صالح[١٠]، مقاتل[١١]، وأبي سليمان[١٢].

قال مقاتل:" وكان الله- عز وجل- قد جعله[أي: الشبيه المقتول] على صورة عيسى فقتلوه، وكان المقتول لطم عيسى، وقال لعيسى حين لطمه: أتكذب على الله حين تزعم أنك رسوله. فلما أخذه اليهود ليقتلوه قال لليهود: لست بعيسى أنا فلان، واسمه يهوذا فكذبوه، وقالوا

---

[١] التفسير الميسر:١٠٣.

[٢] تفسير ابن كثير:٤٤٨/٢.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣١):ص١١٠٩/٤-١١١٠.

[٤] انظر: النكت والعيون:٥٤٣/١.

[٥] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٠/١.

[٦] صفوة التفاسير:٢٩١.

[٧] تفسير ابن كثير:٤٤٩/٢.

[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٤):ص١١١٠/٤.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٣٢):ص١١١٠/٤.

[١٠] انظر: زاد المسير:٤٩٤/١.

[١١] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٠/١.

[١٢] انظر: زاد المسير:٤٩٤/١.

له: أنت عيسى، وكانت اليهود جعلت المقتول رقيبا على عيسى- ﷺ- فألقى الله- تعالى ذكره- شبهه على الرقيب فقتلوه"[1].

قال محمد بن مروان: "ويقال أن الله وضع في شبه من عيسى على وجه ططيانوس ولم يلق عليه شبه جسده وخلقه، فلما قتلوه نظروا إليه، فقالوا: إن الوجه وجه عيسى وإنما هو ططيانوس، وقد قيل إن الذي شبه لعيسى وصلب مكانه رجل إسرائيلي وكان يقال له إيشوع بن مدين"[2].

والثاني: أنه رجل من أصحاب عيسى، وذلك عندما سأل عيسى من كان معه في البيت أن يلقى على بعضهم شَبهه ، فانتدب لذلك رجل ، فألقي عليه شبهه ، فقتل ذلك الرجل ، ورفع عيسى ابن مريم عليه السلام. وهذا قول ابن عباس[3]، وقتادة[4]، ووهب بن منبه[5]، والسدي[6]، وابن أبي أبي بزة[7]، وابن إسحاق[8]، وابن جريج[9].

قال ابن عباس:" لما أراد الله تعالى أن يرفع عيسى إلى السماء،. فخرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين يعني فخرج عيسى من عين في البيت ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي، فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب، أنا، فقال: أنت هو ذاك فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه، فقتلوه ثم صلبوه، فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، فهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن ما شاء الله ثم رفعه إليه، فهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ"[10].

قال وهب بن منبه: "أُتِي عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت ، وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليهم صوَّرهم الله كلهم على صورة عيسى ، فقالوا لهم : سحرتمونا! لتبرزنّ لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا! فقال عيسى لأصحابه : من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة ؟ فقال رجل منهم : أنا! فخرج إليهم ، فقال : أنا عيسى وقد صوّره الله على صورة عيسى ، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثَمَّ شُبِّه لهم ، وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى ، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى ، ورفع الله عيسى من يومه ذلك"[11].

وروي عن وهب بن منبه أيضا:" إن عيسى ابن مريم عليه السلام لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا ، جزع من الموت وشقَّ عليه ، فدعا الحواريّين فصنع لهم طعامًا ، فقال : احضروني الليلة ، فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل ، عشّاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضِّئهم بيده ، ويمسح أيديهم بثيابه ، فتعاظموا ذلك وتكارهوه ، فقال : ألا مَن ردَّ علي شيئًا الليلة مما أصنع ، فليس مني ولا أنا منه! فأقرُّوه ، حتى إذا فرغ من ذلك قال : أمَّا ما صنعت بكم الليلة ، مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي ،

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٠/١.
[2] الكشف والبيان:٤١٠/٣.
[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٣):ص١١١٠/٤. قال ابن كثير:٤٥٠/٢:" وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس".
[4] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٨١)، و(١٠٧٨٢):ص٣٧٠/٩.
[5] انر: تفسير الطبري(١٠٧٧٩):ص٣٦٨/٩.
[6] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٨٣):ص٣٧١/٩.
[7] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٨٤):ص٣٧١/٩.
[8] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٨٥):ص٣٧١/٩-٣٧٣.
[9] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٨٦):ص٣٧٣/٩.
[10] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٣):ص١١١٠/٤. قال ابن كثير:٤٥٠/٢:" وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس".
[11] أخرجه الطبري(١٠٧٧٩):٣٦٨/٩.

فليكن لكم بي أسوة ، فإنكم ترون أنّي خيركم ، فلا يتعظَّم بعضكم على بعض ، وليبذل بعضكم لبعض نفسه ، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها ، فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء : أن يؤخِّر أجلي. فلما نَصَبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا ، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاءً. فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله! ما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها! قالوا : والله ما ندري ما لنا! لقد كنا نسمر فنكثر السَّمَر ، وما نطيق الليلة سمرًا ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه! فقال : يُذْهَب بالراعي وتتفرق الغنم! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعَى به نفسه. ثم قال : الحقَّ ، ليكفرنَّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات ، وليبيعنِّي أحدكم بدراهم يسيرة ، وليأكلن ثمني! فخرجوا فتفرقوا ، وكانت اليهود تطلبه ، فأخذوا شمعون أحد الحواريين ، فقالوا : هذا من أصحابه! فجحد وقال : ما أنا بصاحبه! فتركوه ، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك. ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه ، فلما أصبح أتى أحدُ الحواريين إلى اليهود فقال : ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح ؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا ، فأخذها ودلَّهم عليه. وكان شبِّه عليهم قبل ذلك ، فأخذوه فاستوثقوا منه ، وربطوه بالحبل ، فجعلوا يقودونه ويقولون له : أنت كنت تحيي الموتى ، وتنتهر الشيطان ، وتبرئ المجنون ، أفلا تنجّي نفسك من هذا الحبل ؟! ويبصقون عليه ، ويلقون عليه الشوك ، حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها ، فرفعه الله إليه ، وصلبوا ما شبِّه لهم ، فمكث سبعًا.

ثم إنّ أمَّه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون ، جاءتا تبكيان حيث المصلوب ، فجاءهما عيسى فقال : علام تبكيان ؟ قالتا : عليك! فقال : إني قد رفعني الله إليه ، ولم يصبني إلا خير ، وإن هذا شيء شبِّه لهم ، فأْمُرَا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا. فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر. وفقَد الذي كان باعه ودلَّ عليه اليهود ، فسأل عنه أصحابه ، فقالوا : إنه ندم على ما صنع ، فاختنق وقتل نفسه. فقال : لو تابَ لتابَ الله عليه! ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له : يُحَنَّى فقال : هو معكم ، فانطلقوا ، فإنه سيصبح كلّ إنسان منكم يحدِّث بلغة قوم ، فلينذِرْهم وَلْيدعهم "[1].

قال ابن كثير:"وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه - أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات ، التي كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهَدُ طيرانه بإذن الله ، عز وجل ، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمه الله بها وأجراها على يديه ، ومع هذا كذبوه وخالفوه ، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبي الله عيسى ، عليه السلام ، لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه ، عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلا مشركًا من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته : اليونان - وأنهوا إليه : أن ببيت المقدس رجلا يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا ، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امتثل مُتَوَلِّي بيت المقدس ذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ، عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه ، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل : سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه ، أو خروجه عليهم قال لأصحابه : أيكم يُلْقَى عليه شبهي ، وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتَدَب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَنْتَدبُ إلا ذلك الشاب - فقال : أنت هو - وألقى اللهُ عليه شبه عيسى ، حتى كأنه هو ، وفُتحَت رَوْزَنَة من سقف البيت ، وأخذت عيسى عليه السلام سِنةٌ من النوم ، فرفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال الله تعالى : { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} الآية [آل عمران : ٥٥]، فلما رفع خرج أولئك النفر

---

[1] أخرجه الطبري(١٠٧٨٠):٩/٣٦٨-٣٧٠

فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح ، فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم ، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، ويقال : إنه خاطبها ، والله أعلم.

وهذا كله من امتحان الله عباده ؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم ، الذي أنزله على رسوله الكريم ، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين ، المطلع على السرائر والضمائر ، الذي يعلم السر في السموات والأرض ، العالم بما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون - : { وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ }"[1].

قوله تعالى:{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} [النساء : ١٥٧]، أي:" وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى لفي شك من قتله"[2].

قال ابن كثير:" يعني بذلك : من ادعى قتله من اليهود ، ومن سَلَّمه من جهال النصارى ، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر"[3].

قال محمد بن إسحاق:" أي: حين اختلفوا في العدة من أصحابه"[4].

وفي «المختلفين» في قوله تعالى:{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} [النساء : ١٥٧]، قولان:

القول الأول: أنهم اليهود، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان:

أحدهما: أنها كناية عن قتله، فاختلفوا هل قتلوه أم لا؟ وفي سبب اختلافهم في ذلك ثلاثة أقوال[5]:

أحدها: أنهم لما قتلوا الشخص المشبه كان الشبه قد ألقي على وجهه دون جسده، فقالوا: الوجه وجه عيسى، والجسد جسد غيره، ذكره ابن السائب[6].

والثاني: أنهم قالوا: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا، فأين عيسى؟ يعنون الذي دخل في طلبه، هذا قول السدي[7]، والكلبي[8].

والثالث: أن ختلافهم فيه: فاليهود قالت: نحن قتلناه وصلبناه. وقالت طائفة من النصارى: بل نحن قتلناه، وقالت طائفة منهم: ما قتلوه هؤلاء ولا هؤلاء بل رفعه الله إليه [ونحن ننظر إليه] وقال الذين لما قتل ططيانوس: ألم تروا إنه قتل وصلب فهذا اختلافهم وشكهم. وهذا قول الكلبي أيضا[9].

والثاني: أن «الهاء» كناية عن عيسى، واختلافهم فيه قول بعضهم: هو ولد زنى، وقول بعضهم، هو ساحر.

والقول الثاني: أن المختلفين النصارى، فعلى هذا في هاء «فيه» قولان[10]:

أحدهما: أنها ترجع إلى قتله، هل قتل أم لا؟

والثاني: أنها ترجع إليه، هل هو إله أم لا؟

---

[1] تفسير ابن كثير:٢/٤٤٨-٤٤٩.

[2] صفوة التفاسير:٢٩١.

[3] تفسير ابن كثير:٢/٤٤٩.

[4] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٦):ص٤/١١١١.

[5]انظر: النكت والعيون:١/٥٤٣، وزاد المسير:١/٤٩٥

[6] انظر: زاد المسير:١/٤٩٥.

[7] انظر: الكشف والبيان:٣/٤١٠، وأخرج الطبري(١٠٧٩٢):ص٩/٣٧٧:"{وما قتلوه يقينًا}، وما قتلوا أمره يقينًا أن الرجل هو عيسى ، {بل رفعه الله إليه} " .

[8] انظر: بحر العلوم:١/٢١٧.

[9] انظر: الكشف والبيان:٣/٤١٠.

[10] انظر: زاد المسير:١/٤٩٥.

وفي الهاء في قوله تعالى:{لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} [النساء : ١٥٧]، قولان[١]:
أحدهما: أنها ترجع إلى قتله.
والثاني: إلى نفسه، هل هو إله، أم لغير رشدة [٢]، أم هو ساحر؟

قوله تعالى:{مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} [النساء : ١٥٧]، أي:" لا عِلْمَ لديهم إلا اتباع الظن"[٣].

قال الحسن:" ما استيقنته أنفسهم، ولكن ظنا منهم"[٤].

قال محمد بن إسحاق:" أي: ما استيقنوا بقتله إلا اتباع الظن"[٥].

قوله تعالى:{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء : ١٥٧]، أي:" وما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل شاكين متوهمين"[٦].

قال ابن عباس:" يعني: لم يقتلوا ظنهم يقينا"[٧].

قال محمد بن إسحاق:" وما قتلوه يقينا عندهم علمهم"[٨].

قال الطبري:" يقول : وما قتلوا - هذا الذي اتبعوه في المقتول الذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى - يقينًا أنه عيسى ولا أنه غيره ، ولكنهم كانوا منه على ظنّ وشبهةٍ"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء : ١٥٧]، أربعة وجوه:
أحدها : ما قتلوا ظنهم يقيناً كقول القائل: ما قتلته علماً ، وهذا قول ابن عباس[١٠]، وجويبر[١١].
والثاني : ما قتلوا العلم به يقينا، تقول: قتلته يقينا، وقتلته علما للرأي والحديث. هذا قول الفراء[١٢]، وابن قتيبة[١٣].

قال ابن قتيبة: "يعني: العلم، لم يتحقّقوه ويستيقنوه، وأصل ذلك أن القتل للشيء يكون عن قهر واستعلاء وغلبة. يقول: فلم يكن علمهم بقتل المسيح علما أحيط به، إنما كان ظنّا، قوله سبحانه: وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ [الأنعام: ١٤٦]، أي: كلّ ذي مخلب من الطير، وكلّ ذي حافر من الدّواب كذلك قال المفسّرون"[١٤].

والثالث: وما قتلوا أمره يقيناً أن الرجل هو المسيح أو غيره ، وهذا قول السدي[١٥].
والرابع : وما قتلوه حقاً ، وهو قول الحسن[١٦].

وقال ابن الأنباري: "«اليقين» مؤخر في المعنى، فالتقدير: وما قتلوه، بل رفعه الله إليه يقينا"[١٧].

الفوائد:

١-قتلهم الأنبياء؛ كزكريا ويحي وغيرهم وهو كثير في عهود متباينة.
٢- بطلان اعتقاد النصارى في أن عيسى صلب وقتل، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى فهم مؤاخذون على قصدهم حيث صلبوا وقتلوا من ظنوه أنه عيسى عليه السلام.

---

[١] انظر: زاد المسير:٤٩٥/١.
[٢]في «اللسان» : وهو لرشدة، وهو نقيض زنية. هذا ولد رشدة: إذا كان لنكاح صحيح.
[٣] التفسير الميسر:١٠٣.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٧):ص١١١١/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٨):ص١١١١/٤.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٤٩/٢.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٣٩):ص١١١١/٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٠):ص١١١١/٤.
[٩] تفسير الطبري:٣٧٧/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٠):ص٣٧٧/٩.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩١):ص٣٧٧/٩.
[١٢] انظر: معاني القرآن:٢٩٤/١.
[١٣] انظر: تاويل مشكل القرآن:٩٨.
[١٤] تأويل مشكل القرآن:٩٨.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٢):ص٣٧٧/٩.
[١٦]انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٣٧):ص١١١١/٤، والنكت والعيون:٥٤٣/١، وزاد المسير:٤٩٥/١.
[١٧] زاد المسير:٤٩٥/١.

القرآن

{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨)} [النساء : ١٥٨]

التفسير:

بل رفع الله عيسى إليه ببدنه وروحه حيًّا، وطهَّره من الذين كفروا. وكان الله عزيزًا في ملكه، حكيمًا في تدبيره وقضائه.

قوله تعالى:{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء : ١٥٨]، أي:" بل رفع الله عيسى إليه ببدنه وروحه حيًّا"[١].

قال الطبري:" يعني : بل رفع الله المسيح إليه. يقول : لم يقتلوه ولم يصلبوه ، ولكن الله رفعه إليه فطهَّره من الذين كفروا"[٢].

قال مجاهد:" رفع الله إليه عيسى حيا"[٣].

عن أبي زرعة الشيباني:" أن عيسى بن مريم رفع من جبل طور زيتا، قال: بعث الله ريحا فخفقت به حتى هرول، ثم رفعه الله إلى السماء"[٤].

قال ابن عباس:" {حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}[٥]، قال: ثلاثة وثلاثين سنة، وهو الذي رفع عليه عيسى بن مريم -عليه السلام-"[٦].

وفي تفسير قوله تعالى:{بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء : ١٥٨]، وجهان:

أحدهما : أنه رفعه إلى موضع لا يجري عليه حكم أحد من العباد ، فصار رفعه إلى حيث لا يجري عليه حكم العباد رفعاً إليه ، وهذا قول بعض البصريين[٧].

والثاني : أنه رفعه إلى السماء ، وهو قول الحسن[٨]، ومجاهد[٩].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : ١٥٨]، أي:" وكان الله عزيزًا في ملكه، حكيمًا في تدبيره وقضائه"[١٠].

قال القرطبي:" أي قويا بالنقمة من اليهود فسلط عليهم بطرس بن أستيسانوس الرومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. {حكيما}، حكم عليهم باللعنة والغضب"[١١].

قال ابن كثير:" أي منيع الجناب لا يرام جنابه ، ولا يضام من لاذ ببابه { حَكِيمًا } أي : في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، والسلطان العظيم ، والأمر القديم"[١٢].

قال الطبري:" يعني : ولم يزل الله منتقمًا من أعدائه ، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة بظلمهم ، وكلعنه الذين قصّ قصتهم بقوله : {فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله}، {حكيمًا}، يقول : ذا حكمة في تدبيره وتصريفه خلقَه في قضائه، يقول : فاحذروا أيها السائلون محمدًا أن ينزل عليكم كتابًا من السماء ، من حلول عقوبتي بكم ، كما حل بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم ، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي"[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٣.
[٢] تفسير الطبري:٣٧٨/٩.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٢):ص١١١٢/٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٣):ص١١١٢/٤.
[٥][سورة الأحقاف : ١٥].
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤١):ص١١١١/٤.
[٧] انظر: النكت والعيون:٥٤٤/١.
[٨] انظر: النكت والعيون:٥٤٤/١.
[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٢٤٢):ص١١١٢/٤.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٣.
[١١] تفسير القرطبي:١٠/٦.
[١٢] تفسير ابن كثير:٤٤٩/٢.
[١٣] تفسير الطبري:٣٧٨/٩.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: أرأيت قول الله: {وكان الله عزيزا حكيما}، قال ابن عباس: كذلك كان ولم يزل"[١].

وفي رواية اخرى:" أما قوله: {وكان}، فإنه لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن ... ، بكل شيء عليم"[٢].

وفي رواية اخرى:"{وكان الله عزيزًا حكيمًا}، قال : معنى ذلك : أنه كذلك"[٣].

وعن ابن عباس أيضا:"قال يهودي: إنكم تزعمون أن الله كان عزيزا حكيما، فكيف هو اليوم؟ قال ابن عباس: إنه كان من نفسه عزيزا حكيما"[٤].

الفوائد:

١- تقرير رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ونزوله في آخر أيام الدنيا.

٢-إثبات اسمين من أسمائه تعالى:«العزيز»، «الحكيم»:

ومعنى "العزة"؛ أي: المنعة والغلبة، ومنه قوله تعالى: {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} [ص : ٢٣]؛ أي: غلبني وقهرني، ومن أمثال العرب: "من عز بز"؛ أي: من غلب استلب[٥].

و«الحكيم»: إما فعيل بمعنى فاعل؛ أي: ذو الحكم، وهو القضاء على الشيء بأنه كذا أو ليس كذا، أو فعيل بمعنى مفعل، وهو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، وقيل: لحكيم ذو الحكمة، وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم "[٦].

وهو تعالى «الحكيم»: الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطّلاع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تام القدرة، غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلْقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال، وحكمته نوعان[٧]:

النوع الأول: الحكمة في خلقه؛ فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به.

لنوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه.

القرآن

{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩)} [النساء : ١٥٩]

التفسير:

وإنه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول عيسى آخر الزمان إلا آمن به قبل موته عليه السلام، ويوم القيامة يكون عيسى -عليه السلام- شهيدًا بتكذيب مَن كذَّبه، وتصديق مَن صدَّقه.

قوله تعالى:{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء : ١٥٩]، أي:" وإنه لا يبقى أحدٌ من أهل الكتاب بعد نزول عيسى آخر الزمان إلا آمن به قبل موته عليه السلام"[٨].

قال ابن عباس:" يعني : أنه سيدرك أناسٌ من أهل الكتاب حين يبعث عيسى ، فيؤمنون به {ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا}"[٩].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٤):ص١١١٢/٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٥):ص١١١٢/٤.
[٣] أخرجه الطبري(١٠٧٩٣):ص٣٧٨/٩.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٤٦):ص١١١٢/٤.
[٥] انظر: معاني القرآن للنحاس:٢١٩/٢.
[٦] انظر: شرح نونية ابن القيم، الهراس:٧٥/٢.
[٧] انظر: شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:١٠٢-١٠٣.
[٨] التفسير الميسر:١٠٣.
[٩] أخرجه الطبري(١٠٨٠٧):ص٣٨١/٩.

قال الزمخشري:" المعنى: وما من اليهود والنصارى أحد إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى، وبأنه عبد الله ورسوله، يعنى: إذا عاين قبل أن تزهق روحه حين لا ينفعه إيمانه لانقطاع وقت التكليف"[١].

وفي رواية عكرمة عن ابن عباس: "لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم. قال : وإن ضُرب بالسيف ، يتكلم به. قال : وإن هوى ، يتكلم به وهو يَهْوِي"[٢].

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [النساء : ١٥٩]، ثلاثة أقوال:

أحدها : إلا ليؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح ، إذا نزل من السماء لقتل الدجّال، وهذا قول ابن عباس[٣]، وأبي مالك[٤]، والحسن[٥]، وقتادة[٦]، وابن زيد[٧].

والثاني : إلا ليؤمنن بالمسيح قبل موت الكتابي عند المعاينة ، فيؤمن بما أنزل الله من الحق وبالمسيح عيسى ابن مريم ، وهذا قول ابن عباس أيضا[٨]، والحسن[٩]، ومجاهد [١٠]، والضحاك[١١]، وعكرمة-في إحدى الروايات-[١٢]، وابن سيرين[١٣]، والسدي[١٤]، وجويبر[١٥].

والثالث : إلا ليؤمنن بمحمد -ﷺ- قبل موت الكتابي ، وهذا قول عكرمة[١٦].

ورجّح الطبري القول الاول، وقال:"وأولى الأقوال بالصحة والصواب ، قول من قال: تأويل ذلك : «وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى»، وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال، لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان ، في الموارثة والصلاة عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة. فلو كان كل كتابيّ يؤمن بعيسى قبل موته ، لوجب أن لا يرث الكتابيّ إذا مات على مِلّته إلا أولاده الصغار ، أو البالغون منهم من أهل الإسلام ، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم. وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغٌ مسلم ، كان ميراثه مصروفًا حيث يصرف مال المسلم يموت ولا وارث له ، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغَسْله وتقبيره، لأن من مات مؤمنًا بعيسى ، فقد مات مؤمنًا بمحمد وبجميع الرسل. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه ، جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين صلوات الله عليهم ، فالمصدّق بعيسى والمؤمن به ، مصدق بمحمد وبجميع أنبياء الله ورسله. كما أن المؤمن بمحمد ، مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله. فغير جائز أن يكون مؤمنًا بعيسى من كان بمحمد مكذِّبًا"[١٧].

قال ابن كثير:" فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى : أن كل كتابي لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد ، عليهما الصلاة والسلام فهذا هو الواقع ، وذلك أن كل أحد عند احتضاره يَتَجَلي له، كان جاهلا به ، فيؤمن به ، ولكن لا يكون ذلك إيمانا نافعا له ، إذا كان قد شاهد الملك ، كما

---

[١] الكشاف:٥٨٨/١.
[٢] أخرجه الطبري(١٠٨١٥):ص٣٨٣/٩.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٤)، و(١٠٧٩٥):ص٣٨٠/٩، و(١٠٨٠٧):ص٣٨١/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٦):ص٣٨٠/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٧)، و(١٠٧٩٨):ص٣٨٠/٩، و(١٠٨٠٨):ص٣٨١/٩-٣٨٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٧٩٩)-(١٠٨٠١):ص٣٨٠/٩-٣٨١.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٠٦):ص٣٨١/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٠٩):ص٣٨٢/٩-رواية علي بن ابي طلحة، و(١٠٨١٤):ص٣٨٣/٩. رواية سعيد بن جبير عنه، و(١٠٨١٥)، و(١٠٨١٦):ص٣٨٣/٩-٣٨٤. رواية عكرمة عنه.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٣)، و(١٠٨٢٤):ص٣٨٥/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٨١٠)-(١٠٨١٢):ص٣٨٢/٩-٣٨٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٢):ص٣٨٥/٩.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٨١٧):ص٣٨٤/٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٥):ص٣٨٥/٩.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٦):ص٣٨٥/٩.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٨):ص٣٨٦/٩.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٢٩):ص٣٨٦/٩.
[١٧] تفسير الطبري:٣٨٦/٩-٣٨٧.

قال تعالى في أول هذه السورة : { وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ } الآية [النساء : ١٨] وقال تعالى : { فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ[وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} الآيتين:[غافر : ٨٤ ، ٨٥]، وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير في رد هذا القول ، حيث قال : «ولو كان المراد بهذه الآية هذا ، لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح ، ممن كفر بهما - يكون على دينهما ، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه ؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته»[١]"[٢].

قال ابن كثير:"فهذا ليس بجيد ؛ إذ لا يلزم من إيمانه في حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلمًا ، ألا ترى إلى قول ابن عباس : ولو تردى من شاهق أو ضُرب بسيف أو افترسه سَبُع ، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى" فالإيمان في مثل هذه الحالات ليس بنافع ، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمناه.

ومن تأمل هذا جيدًا وأمعن النظر ، اتضح له أن هذا ، وإن كان هو الواقع ، لكن لا يلزم منه أن يكون المرادُ بهذه الآية هذا ، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى ، عليه السلام ، وبقاء حياته في السماء ، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه وتضادّت وتعاكست وتناقضت ، وخلت عن الحق ، ففرّط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى : تَنَقَّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم ، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه ، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية ، تعالى الله عن قول هؤلاء وهؤلاء علوًّا كبيرًا ، وتنزه وتَقَدّس لا إله إلا هو"[٣].

وعن شهر بن حوشب: قال لي الحجاج: "آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها، يعني: هذه الآية، وقال إني أوتى بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا يا عدو الله، أتاك موسى نبيا فكذبت به فيقول: آمنت أنه عبد نبي. وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبيا فزعمت أنه الله أو ابن الله، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه. قال: وكان متكئا فاستوى جالسا فنظر إلي وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن علي بن الحنفية، فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية، أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له: ما أردت إلى أن تقول حدثني محمد بن علي بن الحنفية. قال: أردت أن أغيظه، يعني بزيادة اسم علي، لأنه مشهور بابن الحنفية"[٤].

روي عن أبي هريرة : "أن نبيَّ الله ﷺ قال : الأنبياء إخوة لعَلاتٍ ، أمهاتهم شتى ودينهم واحدٌ. وإنيّ أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ. وإنه نازلٌ ، فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربُوع الخَلق ، إلى الحمرة والبياض ، سَبْط الشعر ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بَلل ، بين ممصَّرتين ، فيدُقّ الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال ، ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلَّها غير الإسلام ، ويهلك الله في زمانه مسيحَ الضلالة الكذابَ الدجال ، وتقع الأمَنَة في الأرض في زمانه ، حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، وتلعب الغِلمان أو: الصبيان بالحيات ، لا يضرُّ بعضهم بعضًا. ثم يلبث في الأرض ما شاء الله وربما قال: أربعين سنة ثم يتوفَّى، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه"[٥].

قال الزمخشري: [إن] قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟

---

[١] انظر: تفسير الطبري:٣٨٦/٩-٣٨٧.[بتصرف في العبارات].
[٢] تفسير ابن كثير:٤٥٥/٢.
[٣] تفسير ابن كثير:٤٥٤/٢-٤٥٥.
[٤] الكشاف:٥٨٨/١.
[٥] أخرجه الطبري(١٠٨٣٠):ص٣٨٨/٩-٣٨٩.

قلت: فائدته الوعيد، وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم، بعثا لهم وتنبيها على معاجلة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاما للحجة لهم"[١].

قوله تعالى:{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء : ١٥٩]، أي:" ويوم القيامة يكون عيسى -عليه السلام- شهيدًا بتكذيب مَن كذَّبه، وتصديق مَن صدَّقه"[٢].

قال ابن كثير:" أي : بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض"[٣].

قال الطبري:أي:" ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب {شهيدًا}، يعني : شاهدًا عليهم بتكذيب من كذَّبه منهم ، وتصديق من صدقه منهم ، فيما أتاهم به من عند الله ، وبإبلاغه رسالة ربه"[٤].

قال الزمخشري:"يشهد على اليهود بأنهم كذبوه، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء : ١٥٩]، وجهان:

أحدهما : أن المسيح-عليه السلام- يكون شهيداً بتكذيب من كذبه وتصديق من صدقه من أهل عصره[٦].

والثاني : أنه يكون شهيداً أنه بلَّغ رسالة ربه ، وأقر بالعبودية على نفسه ، وهذا قول قتادة[٧]، وابن جريج[٨].

الفوائد:

١- أن الإيمان؛ كالتوبة عند معاينة ملك الموت لا تنفع ولا تقبل وجودها كعدمها.

٢-أن عيسى-عليه السلام- سوف ينزل في آخر هذه الأمة، عند اقتراب الساعة وظهور علاماتها الكبار، يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين [٩]، وكما جاء في الحديث:" وإنيّ أولى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن بيني وبينه نبيٌّ، وإنه نازلٌ ، فإذا رأيتموه فاعرفوه..." [١٠] الحديث.

٣-أن عيسى-عليه السلام-سوف يشهد يوم القيامة على أهل الكتاب ببطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشريعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق وما عداه فهو ضلال وباطل[١١].

القرآن

{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠)} [النساء : ١٦٠]

التفسير:

---

[١] الكشاف:٥٨٩/١.
[٢] التفسير الميسر:١٠٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٤٥٤/٢.
[٤] تفسير الطبري:٣٩٠/٩.
[٥] الكشاف:٥٨٩/١.
[٦] انظر: النكت والعيون:٥٤٤/١.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٣٢):٣٩٠/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٣١):٣٩٠/٩.
[٩] انظر: تفسير السعدي:٢١٣.
[١٠] أخرجه الطبري(١٠٨٣٠):ص٣٨٨/٩-٣٨٩.
[١١] انظر: تفسير السعدي:٢١٣.

فبسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حَرَّم الله عليهم طيبات من المأكل كانت حلالا لهم، وبسبب صدِّهم أنفسهم وغيرهم عن دين الله القويم.

قوله تعالى:{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا} [النساء : ١٦٠]، أي:" أي بسبب ظلم اليهود وما ارتكبوه من الذنوب العظيمة"(١).

قال قتادة:" عوقب القوم بظلم ظلموه وبَغْيٍ بَغَوْه" (٢).

قال مقاتل:" يعني: اليهود"(٣).

قوله تعالى:{حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء : ١٦٠]، أي:"حرمنا عليهم أنواعاً من الطيبات التي كانت محلّلة لهم"(٤).

قال قتادة:" حرمت عليهم أشياء ببغيهم وبظلمهم" (٥).

قال الشَّافِعِي: "يعني - والله تعالى أعلم - طيبات كانت أحِلت لهم"(٦).

قال مقاتل:" يعني في الأنعام: يعني اللحوم والشحوم وكل ذي ظفر لهم حلال فحرمها الله- عز وجل- عليهم بعد موس"(٧).

قال الماتريدي:" لولا آية أخرى سوى هذه؛ وإلا صرفنا قوله - سبحانه وتعالى -: {حرمنا عليهم طيبات} على المنع، دون حقيقة التحريم؛ لأنهم أهل كفر؛ فلا يبالون ما يتناولون من المحرم والمحلل، ولا يمتنعون عن التناول من ذلك؛ فإذا كان ما ذكرنا - فيجيء أن يعود تأويل الآية إلى المنع؛ كقوله - تعالى -: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} [القصص : ١٢] ، فليس هو على التحريم؛ ولكن على المنع؛ أي: منعناه؛ فلم يأخذ من لبن المراضع دون لبن أمه؛ فعلى ذلك يجب أن يكون الأول.

ثم المنع لهم يكون من وجهين:

أحدهما: منع من جهة منع الإنزال؛ لقلة الأمطار والقحط؛ كسني يوسف - عليه السلام - وسني مكة، على ما كان لهم من القحط.

والثاني: منع من جهة الخلق: ألا يعطوا شيئا، لا بيعا ولا شراء ولا معروفا.

ولكن في آية أخرى بيان أن قوله: {حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم} - أنه على التحريم، ليس على المنع، وهو قوله: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ} [الأنعام : ١٤٦]، أخبر - عز وجل - أن ذلك جزاء بغيهم؛ فدل ما ذكرنا في الآية أن ذلك على حقيقة التحريم؛ لما يحتمل أن يكونوا لا يستحلون ما ذكر في الآية، ولكن كانوا يتناولون الربا على غير الاستحلال؛ فحرم ذلك عليهم"(٨).

وفي حرف ابن مسعود - رضي الله عنه - وحرف ابن عباس - رضي الله عنهما -: «حرمنا عليهم طيبات كانت أحلت لهم»(٩).

قوله تعالى:{وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء : ١٦٠]، أي:" وبسبب منعهم كثيراً من الناس عن الدخول في دين الله"(١٠).

قال الطبري:" يعني: وبصدّهم عبادَ الله عن دينه وسبله التي شرعَها لعباده، صدًّا كثيرًا، وكان صدُّهم عن سبيل الله: بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك عن الله، وتبديلهم كتاب

---

(١) صفوة التفاسير:٢٩٢.
(٢)أخرجه الطبري(١٠٨٣٣):ص٣٩١/٩.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢١/١.
(٤) صفوة التفاسير:٢٩٢.
(٥)أخرجه الطبري(١٠٨٣٣):ص٣٩١/٩.
(٦) تفسير الإمام الشافعي:٤٨٠/١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢١/١.
(٨) تفسير الماتريدي:٤١٣/٣-٤١٤.
(٩) انظر: تفسير الماتريدي:٤١٤/٣.
(١٠) صفوة التفاسير:٢٩٢.

الله، وتحريف معانيه عن وجوهه. وكان من عظيم ذلك: جحودهم نبوة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وتركهم بيانَ ما قد علِموا من أمره لمن جَهِل أمره من الناس"[١].

روي عن مجاهد في قول الله:"{وبصدّهم عن سبيل الله كثيرًا}،قال: أنفسَهم وغيرَهم عن الحق" [٢].

ويحتمل قوله تعالى:{وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء : ١٦٠]، وجهين[٣]:

أحدهما: أنهم صدوا من يستجهلون ويستسفهون عن سبيل الله: كانوا يدلون على الباطل وعلى غير سبيل الله، فذلك الصد محتمل.

والثاني: أنهم كانوا يصدون عن سبيل الله بالقتال والحرب.

قال الراغب:" واعلم أن تحريم الله على ثلاثة أضرب:

الأول: تحريمه الخبائث وكل ما ليس له هذا بوجه والبدن تعافه كالذباب، والخنافس، والأشياء المخلوقة من فضول البدن وهذا الجنس يحرم عقلا وشرعا.

الثاني: ما يعلم ضره أكثر من نفعه وقد يظن بعض الناس فيه نفعا كثيرا، فهو مترد من التحريم والتخيل في العقل.

والثالث: ضرب نافع في الأحوال الدنيوية جدا، إلا أن نفعه ليس بضروري، والعقل لا يقتضي بتحريمه، والشرع قد حرمه في حال دون حال، تهذيبا للنفوس عبادة، ودفعا لسلطان شهوتهم كتحريم الشحم على بني إسرائيل، وهو ما قال تعالى: {وعلى الذين هادوا حرمنا} الآية، فنبه تعالى أنهم لما أسرفوا وصاروا يظلمون، ويصدون عن سبيل الله، حرم عليهم بعض الأطعمة، ليكون في ذلك عقوبة لهم من وجه وتهذيب يقمع شهوتهم من وجه، فقلة الطعم سبب لتوهين الشهوة، ولتوهينها أمر تعالى في كل شرع بصوم، ليكون ذلك سببا لمنعها عما تدعو إليه، فلا تكون كالبهائم التي تأكل ما تشتهي، وإلى نحو هذا أشار قوله عليه الصلاة والسلام: «صوموا تصحوا»[٤]، فإن في الصوم صحة للبدن، وصحة النفس"[٥].

الفوائد:

١- المعاصي تورث الحرمان من خير الدنيا والآخرة.

٢- حرمة الصد عن الإسلام ولو بالسلوك الشائن والمعاملة الباطلة.

القرآن

{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١)} [النساء : ١٦١]

التفسير:

وبسبب تناولهم الربا الذي نهوا عنه، واستحلالهم أموال الناس بغير استحقاق، وأعتدنا للكافرين بالله ورسوله مِن هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا في الآخرة.

قوله تعالى:{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ} [النساء : ١٦١]، أي:" وبسبب تناولهم الربا الذي نهوا عنه"[٦].

قال الطبري:" وهو أخذهم ما أفضلوا على رءوس أموالهم، لفضل تأخير في الأجل بعد مَحِلِّها، {وقد نهوا عنه}، يعني: عن أخذ الربا"[٧].

قال مقاتل بن حيان:" كان الله حرم على أهل التوراة حين أقروا بها أن يأكلوا الربا ، فأكلوا الربا"[١].

---

[١] تفسير الطبري:٣٩١/٩.

[٢]أخرجه الطبري(١٠٨٣٤):ص٣٩١/٩.

[٣] انظر: تفسير الماتريدي:٤١٤/٣.

(٤)أخرجه الطبراني في الكبير (٨٣١٢)، وانظر كشف الخفاء (١/ ٥٣٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٣٥٠٤)، (٣٥٠٤)، والضعيفة (٢٥٣).

[٥] تفسير الراغب الاصفهاني:٢٢٦/٤.

[٦] التفسير الميسر:١٠٣.

[٧] تفسير الطبري:٣٩١/٩-٣٩٢.

قال النسفي:" كان الربا محرماً عليهم كما حرم علينا وكانوا يتعاطونه"[2].

قوله تعالى:{وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ} [النساء : ١٦١]، أي:" واستحلالهم أموال الناس بغير استحقاق"[3].

قال السمعاني:" يعنى: الرشا"[4].

قال السيوطي:أي:" بالرشا في الحكم"[5].

قال النسفي:أي:" بالرشوة وسائر الوجوه المحرمة"[6].

قال الطبري:" يعني: ما كانوا يأخذون من الرُّشَى على الحكم، كما وصفهم الله به في قوله: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة المائدة: ٦٢]، وكان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون:"هذا من عند الله"، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله على جميع ذلك، بتحريمه ما حرَّم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالا قبل ذلك، وإنما وصفهم الله بأنهم أكلوا ما أكلوا من أموال الناس كذلك بالباطل، لأنهم أكلوه بغير استحقاق، وأخذوا أموالهم منهم بغير استيجاب"[7].

قال مقاتل بن حيان:" قوله: {بالباطل}، قال: ظلما"[8]، قال: " كان الله حرم على أهل التوراة حين أقروا بها أن يأكلوا أموال الناس ، فأكلوا أموال الناس ، فلما فعلوا ذلك حرم الله عليهم ما كان أحل لهم في التوراة"[9].

قوله تعالى:{وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء : ١٦١]، أي:" وهيّأنا للكافرين بالله ورسوله مِن هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا في الآخرة"[10].

قال مقاتل:قوله:" {وأعتدنا للكافرين منهم}}، يعني: من اليهود"[11].

قال ابن عباس:"{عذابا أليما} ، يقول: نكالا موجعا"[12].

قال السيوطي:أي:" مؤلما"[13].

قال الطبري:" يعني: وجعلنا للكافرين بالله وبرسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود، العذاب الأليم، وهو الموجع من عذاب جهنم عنده، يصلونها في الآخرة، إذا وردوا على ربهم، فيعاقبهم بها"[14].

قال الراغب:" لما نبه بما تقدم أنهم كفروا، ذكر ما أعد للكافرين ليكون فيه إشارة إلى أنهم يستحقون ذلك العذاب، أنهم من جملتهم"[15].

الفوائد:

١-حرمة الربا وأنه موجب للعقوبة في الدنيا والآخرة.

٣- حرمة أكل أموال الناس بالباطل؛ كالسرقة والغش والرشوة.

القرآن

---

[1] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٣):ص١١١٥/٤.

[2] تفسير النسفي:٤١٥/١.

[3] التفسير الميسر:١٠٣.

[4] تفسير السمعاني:٥٠١/١.

[5] تفسير الجلالين:١٣١.

[6] تفسير النسفي:٤١٥/١.

[7] تفسير الطبري:٣٩٢/٩.

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٥):ص١١١٦/٤.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٤):ص١١١٥/٤.

[10] التفسير الميسر:١٠٣.[بتصرف].

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٦):ص١١١٦/٤.

[12] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٧):ص١١١٦/٤.

[13] تفسير الجلالين:١٣١.

[14] تفسير الطبري:٣٩٢/٩.

[15] تفسير الراغب الاصفهاني:٢٢٦/٤.

{لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)} [النساء : ١٦٢]

التفسير:

لكنِ المتمكنون في العلم بأحكام الله من اليهود، والمؤمنون بالله ورسوله، يؤمنون بالذي أنزله الله إليك -أيها الرسول- وهو القرآن، وبالذي أنزل إلى الرسل من قبلك كالتوراة والإنجيل، ويؤدُّون الصلاة في أوقاتها، ويخرجون زكاة أموالهم، ويؤمنون بالله وبالبعث والجزاء، أولئك سيعطيهم الله ثوابًا عظيمًا، وهو الجنة.

سبب النزول:

قال ابن عباس : " نزلت في عبد الله بن سلام وأسيد بن سعية وثعلبة بن سعية وأسد بن عبيد، حين فارقوا يهود وشهدوا أن الذي جاء به رسول الله ﷺ حق من الله، وأنهم يجدونه مكتوبا عندهم"[١].

وفي السياق نفسه قال مقاتل:" وذلك أن عبد الله بن سلام وأصحابه قالوا للنبي- ﷺ-: إن اليهود لتعلم أن الذي جئت به حق، وإنك لمكتوب عندهم في التوراة. فقالت اليهود: ليس كما تقولون: وإنهم لا يعلمون شيئا وإنهم ليغرونك ويحدثونك بالباطل، فقال الله- عز وجل-: {لكن الراسخون في العلم}"[٢].

قوله تعالى:{لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ} [النساء : ١٦٢]، أي:" لكن المتمكنون في العلم منهم والثابتون فيه"[٣].

قال مقاتل:" يعني: ابن سلام وأصحابه من اليهود"[٤].

قال الطبري:" وهم الذين قد رَسخوا في العلم بأحكام الله التي جاءت بها أنبياؤه، وأتقنوا ذلك، وعرفوا حقيقته"[٥].

قال ابن كثير:" أي : الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع"[٦].

قال الراغب:" الراسخ في العلم: هو الذي لا يعترضه شبهة لتمكنه في معرفته وتحققه بها، وكونه من الذين قال فيهم: {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} [الحجرات : ١٥]- فنبه أن الراسخين في العلم يعرفون معنى النبوة ويعتبرونه، فحيث ما وجدوه يتبعوه، فالحق لا ينافي بعضه بعضا"[٧].

عن فياض الرقي، عن عبد الله بن يزيد -وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ أنسا وأبا الدرداء، وأبا أمامة-، قال: "حدثنا أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ سئل عن: «الراسخين في العلم»، فقال: من برت يمينه وصدق لسانه واستقام قلبه ومن عف بطنه وفرجه، فهو من الراسخين في العلم"[٨].

وإن قيل: "ما وجه لكن ها هنا؟ وهو لإبطال الشيء وإثبات آخر، فما الذي أبطل ها هنا؟

قيل: لكن وإن كان كما قلت، فتارة تجيء بعد نفي، ما جاءني زيد ولكن عمرو، وتارة تجيء بعد إيجاب، والإبطال فيه مقدر، نحو جاءني زيد لكن أخوه أحسن إلي، والتقدير: أخوه لم يجئني لكن أحسن إلي، فأغنى عن الإبطال بذكر الإيجاب، ولما اقتص عن اليهود ما كان منهم،

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٩):ص٤/١١١٦، وانظر: تفسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٢٢/١. وأسلوب العبارة ركيك ومضمونها: أن اليهود كذبت عبد الله بن سلام وأصحابه وأخبرت النبي أنهم جهلة لا يعلمون شيئا وأنهم يغرون النبي ويحدثونه بالباطل.

(٣) صفوة التفاسير:٢٩٢.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٢/١.

(٥) تفسير الطبري:٣٩٣/٩.

(٦) تففسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

(٧) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٢٦/٤.

(٨) اخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٦٨):ص١١١٦/٤.

وألزمهم المذمة، بين أن الراسخين لم يذهبوا مذهبهم، لكن يؤمنون بكل ذلك ويستحقون به الثواب، بخلاف هو لا الذين يستحقون العقاب"[١].

قوله تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ} [النساء : ١٦٢]، أي:"والمؤمنون بالله ورسوله"[٢].

قال مقاتل:" يعني: أصحاب محمد- ﷺ- من غير أهل الكتاب"[٣].

قال ابن كثير:" عطف على الراسخين ، وخبره: { يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ}"[٤].

قال الطبري:" يعني: والمؤمنون بالله ورسله، هم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل الله إليك، يا محمد، وبالكتب التي أنزلها على من قبلك من الأنبياء والرسل، ولا يسألونك كما سألك هؤلاء الجهلة منهم: أن تنزل عليهم كتابًا من السماء، لأنهم قد علموا بما قرأوا من كتب الله وأتتهم به أنبياؤهم، أنك لله رسول، واجبٌ عليهم اتباعك، لا يَسعهم غير ذلك، فلا حاجة بهم إلى أن يسألوك آية معجزة ولا دلالة غير الذي قد علموا من أمرك بالعلم الراسخ في قلوبهم من إخبار أنبيائهم إياهم بذلك، وبما أعطيتك من الأدلّة على نبوتك"[٥].

قوله تعالى:{يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} [النساء : ١٦٢]، أي:" يؤمنون بالذي أنزله الله إليك -أيها الرسول- وهو القرآن"[٦].

قال الطبري:أي:" يؤمنون بك وبما أنزل إليك من الكتاب، وبما أنزل من قبلك من سائر الكتب"[٧].

قال قتادة:" استثنى الله أُثْبِيَّةً من أهل الكتاب، وكان منهم من يؤمن بالله وما أنزل عليهم، وما أنزل على نبي الله، يؤمنون به ويصدّقون، ويعلمون أنه الحق من ربهم"[٨].

قوله تعالى:{وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ} [النساء : ١٦٢]، أي:" يؤدُّون الصلاة في أوقاتها"[٩].

قال مقاتل:" ثم نعتهم فقال- سبحانه- :{والمقيمين الصلاة}"[١٠].

قال الحسن:" فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها والزكاة فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها"[١١].

قال الزهري: "إقامتها: أن تصلي الصلوات الخمس لوقتها"[١٢].

واختلفوا في نصب {الْمُقِيمِينَ} [النساء : ١٦٢]،على أربعة أقوال[١٣]:

أحدها: أنه خطأ من الكاتب، وهذا قول عائشة[١٤]، ووأبان بن عثمان[١٥].

وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: "إن في المصحف لحنا ستقيمه العرب بألسنتها، فقيل له: ألا تغيره؟ فقال: دعوه فإنه لا يحل حراما ولا يحرم حلالا"[١٦].

---

[١] تفسير الراغب الاصفهاني:٤/٢٢٧.

[٢] انظر: التفسير الميسر:١٠٣، وصفوة التفاسير:٢٩٢.

[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٢٢.

[٤] تففسير ابن كثير:٢/٤٦٨.

[٥] تفسير الطبري:٩/٣٩٣-٣٩٤.

[٦] انظر: التفسير الميسر:١٠٣، وصفوة التفاسير:٢٩٢.

[٧] تفسير الطبري:٩/٣٩٤.

[٨] أخرجه الطبري(١٠٨٣٦):ص٩/٣٩٤.

[٩] التفسير الميسر:١٠٣.

[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٢٢.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٢):ص٤/١١١٧.

[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٢):ص٤/١١١٧.

[١٣] انظر: تفسير الطبري:٩/٣٩٥-٣٩٩، وتفسير ابن كثير:٢/٤٦٨، وزاد المسير:١/٤٩٧-٤٩٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٣٨):ص٩/٣٩٥.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٣٧):ص٩/٣٩٥.

[١٦]لا يصح مثل هذا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه. أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص (١٥٩- ١٦٠) ح ٢٠/ ٤٩ وابن أبي داود في «المصاحف» ص (٤٢) كلاهما عن الزبير بن خريت، عن عكرمة، وهذا مرسل، فهو ضعيف، وأخرجه ابن أبي داود ص ٤١ عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي، وهذا معضل مع جهالة القرشي هذا، وكرره من وجه آخر، عن قتادة، وهو مرسل ومع إرساله فيه من لم يسم، وكرره ص ٤١- ٤٢ من وجه آخر عن

وقد قرأ ابن مسعود، وأبي، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والجحدري: «والمقيمون الصلاة» بالواو[١].

قال الأنباري: "حديث عثمان لا يصح، لأنه غير متصل، ومحال أن يؤخر عثمان شيئا فاسدا، ليصلحه من بعده"[٢].

قال البغوي:"وعامة الصحابة وأهل العلم على أنه صحيح"[٣].

قال مكي بن أبي طالب:" وهذا القول قد طعن فيه، لأن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد أجمعوا على صحة ما بين اللوحين، فلا يمكن أن يجتمعوا على غلط"[٤].

قال الزجاج:" وقال بعضهم: في كتاب الله أشياء ستصلحها العرب بألسنتها، وهذا القول عند أهل اللغة بعيد جدا، لأن الذين جمعوا القرآن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم أهل اللغة وهم القدوة وهم قريبو العهد بالإسلام فكيف يتركون في كتاب الله شيئا يصلحه غيرهم، وهم الذين أخذوه عن رسول الله - ﷺ - وجمعوه، وهذا ساقط عمن لا يعلم بعدهم وساقط عمن يعلم، لأنهم يقتدى بهم فهذا مما لا ينبغي أن ينسب إليهم رحمة الله عليهم، والقرآن محكم لا لحن فيه، ولا تتكلم العرب بأجود منه في الإعراب، كما قال عز وجل: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت : ٤٢]، وقال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [الشعراء : ١٩٥]، ولسيبويه والخليل وجميع النحويين في هذا باب يسمونه باب المدح قد بينوا فيه صحة هذا وجودته"[٥].

قال الزبير: "قلت لأبان بن عثمان بن عفان: ما شأنها كتبت: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة}؟ قال: إن الكاتب لما كتب:"لكن الراسخون في العلم منهم"، حتى إذا بلغ قال: ما أكتب؟ قيل له:اكتب:{والمقيمين الصلاة}، فكتب ما قيلَ له"[٦].

وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنه سأل عائشة عن قوله:"والمقيمين الصلاة"، وعن قوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ} [سورة المائدة: ٦٩] ، وعن قوله: {إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} [سورة طه: ٦٣][٧]، فقالت: يا ابن أختي، هذا عمل الكاتب، أخطئوا في الكتاب"[١].

قتادة، عن نصر بن عاصم الليثي، عن عبد الله بن خطيم، عن يحيى بن يعمر، عن عثمان به، وهذا إسناد ضعيف لجهالة بن خطيم هذا، وهذه الروايات جميعا واهية لا تقوم بها حجة وهذا الخبر باطل لا أصل له عن عثمان، والذي صح في ذلك ما أخرجه البخاري ٤٩٨٤ عن الزهري، عن أنس، قال: فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوها في المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن، فاكتبوها بلسان قريش، فإن القرآن أنزل بلسانهم ففعلوا» وهو بعض حديث اختصره البخاري في هذه الرواية، وكرره ٤٩٨٧ عن أنس، عن حذيفة بن اليمان فذكر حديثه، وفيه «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا....» فهذا الذي صح عن عثمان رضي لله عنه، وهو يدفع ما تقدم ويبطله، فإن عثمان بن عفان قد اختار ثلاثة من قريش وهم أفصح العرب، وأمر زيدا أن يكتب بلغتهم- أي لغة قريش- كل ما اختلفوا فيه، فإذا عثمان لم يترك شيئا لمن بعده من العرب، وهل هناك أفصح من أصحاب رسول الله ﷺ آنذاك أم هل يخفى لحن على أصحاب رسول الله ﷺ ويسكتون على ذلك، وقد كان أبي بن كعب يقوم فيهم رمضان وهم متوافرون؟!.

(١) انظر: تفسير الطبري:٣٩٥/٩-٣٩٩، وتفسير ابن كثير:٤٦٨/٢، وزاد المسير:٤٩٧/١-٤٩٨.

(٢) زاد المسير:٤٩٨/١.

(٣) تفسير البغوي:٧٢١/١.

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية:٤٦٦٣/٧.

(٥) معاني القرآن:١٣١/٢.

(٦) أخرجه الطبري(١٠٨٣٧):ص٣٩٥/٩.

(٧)قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في "الفتاوى" ٢/ ٢٥٢: وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ} لحن وأن عثمان -رضي الله عنه- قال: إن في المصحف المصحف لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها. وهذا خبر باطل لا يصح. وقال في "تفسيره" ٥/ ٢٠٩: ومن زعم أن الكتاب غلط فهو الغالط غلطًا منكرًا، فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف وكلها مكتوبة بالألف فكيف يتصور في هذا غلط".

وقال الألوسي في "روح المعاني" ١٦/ ٢٢٤: والذي أجنح إليه تضعيف جميع ما ورد مما فيه طعن بالمتواتر، ولم يقبل تأويلاً ينشرح له الصدر ويقبله الذوق، وإن صححه من صححه، والطعن في الرواية أهون بكثير من الطعن بالأئمة الذين تلقوا القرآن الذي وصل إلينا بالتواتر عن النبي -ﷺ- ولم يألوا جهدًا في إتقانه وحفظه. وقال الدكتور عبد الحي الفرماوي في كتابه "رسم المصحف" ص ١٣١ بعد أن ضعف هذه الرواية: وقد ذكر بعض العلماء هذه الرواية في كتبهم بحسن قصد من غير تحر ولا دقة فاتخذها أعداء الإسلام من المارقين والمستشرقين للطعن في الإسلام وفي القرآن، لتوهين فقه

قال أبو الحسن:" وهذان الخبران لا يصححهما أهل النظر"[٢].

والثاني: أنه مخفوض عطفا على قوله:{ بِمَا أُنزلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزلَ مِنْ قَبْلِكَ}، يعني: وبالمقيمين الصلاة، وكأنه يقول : وبإقامة الصلاة ، أي : يعترفون بوجوبها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمقيمين الصلاة الملائكة، يعني : يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالملائكة[٣]. وهذا اختيار الطبري[٤].

قال ابن كثير:"وفي هذا نظر"[٥].

والثالث: أنه نسق على الهاء والميم من قوله :{منهم}، فالمعنى: لكن الراسخون في العلم منهم، ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك[٦].

قال الزجاج:" وهذا عند النحويين رديء، أعني العطف على الهاء والميم لأنه لا يعطف بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في شعر"[٧].

والرابع:أنه منصوب على المدح، فالمعنى: اذكر المقيمين الصلاة، وهم المؤتون الزكاة، كما جاء في قوله :{ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا } [البقرة : ١٧٧] ، قالوا : وهذا سائغ في كلام العرب ، كما قال الخرنق بنت بدر بن هفان[٨]:

لا يَبْعَدَن قومي الذين همُو سُمّ العداة وآفة الجُزرِ
النازلين بكل مُعْتركٍ والطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأزْرِ

وهذا على معنى: اذكر النازلين، وهم الطيبون، ومن هذا قولك: مررت بزيد الكريم، إن أردت أن تخلصه من غيره. فالخفض هو الكلام، وإن أردت المدح والثناء، فإن شئت نصبت، فقلت: بزيد الكريم، كأنك قلت: اذكر الكريم، وإن شئت رفعت على معنى: هو الكريم. وتقول: جاءني قومك المطعمين في المحل، والمغيثون في الشدائد على معنى: اذكر المطعمين، وهم المغيثون، وهذا القول اختيار الخليل[٩]، وسيبويه[١٠].

فهذه الأقوال حكاها الزجاج، واختار القول الأخير[١١].

قوله تعالى:{وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [النساء : ١٦٢]، أي:" ويخرجون زكاة أموالهم"[١٢].

قال مقاتل:" يعني: المعطون الزكاة"[١٣].

قال ابن كثير:" يحتمل أن يكون المراد زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس ، ويحتمل الأمرين"[١٤].

المسلمين بكتاب ربهم - .. ثم قال-: ويجاب عن تصحيح السيوطي: بأن هذه الرواية على فرض صحتها، فهي رواية آحادية لا يثبت بها قرآن، وهي معارضة للقطعي الثابت بالتواتر فهي باطلة مردودة، فإن من قواعد المحدثين أن مما يدرك به وضع الخبر ما يؤخذ من حال المروي كأن يكون مناقضًا لنص القرآن أو السنة أو الإجماع أو صريح العقل، حيث لا يقبل شيء من ذلك التأويل أو لم يحتمل سقوط شيء منه يزول به المحذور، وهذه الرواية مخالفة للمتواتر القطعي الذي تلقته الأمة بالقبول فيها باطلة لا محالة.

انظر: "معاني القرآن" للفراء ١/ ١٠٦، "جامع البيان" ١٦/ ١٨٠، "الجامع لأحكام القرآن" ٦/ ١٤، "دقائق التفسير" ٥/ ٢٠٢، "الإتقان" ١/ ١٨٢، "مناهل العرفان" ١/ ١٨٦، "رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين" ص ١٣١.

[١] أخرجه الطبري(١٠٨٣٨):ص٣٩٥/٩.

[٢] النكت في القرآن الكريم:٣٢٠.

[٣] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٣٠/٢.

[٤] انظر: تفسير الطبري:٣٩٧/٩.

[٥] تفسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

[٦] انظر: معاني القرآن للفراء:١٣١/٢، وزاد المسير:٤٩٨/١.

[٧] معاني القرآن:١٣١/٢.

[٨] ديوانه:٢٩.

[٩] انظر: مجاز القرآن لابي عبيدة:١٤٢/١-١٤٣، ومعاني القرآن للزجاج:١٣٢/٢-١٣٣، وزاد المسير: ٤٩٨/١.

[١٠] انظر: مجاز القرآن لابي عبيدة:١٤٢/١-١٤٣، ومعاني القرآن للزجاج:١٣٢/٢-١٣٣، وزاد المسير: ٤٩٨/١.

[١١] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٣٢/٢-١٣٣.

[١٢] التفسير الميسر:١٠٣.

[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٢/١.

[١٤] تفسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

قوله تعالى:{وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}[النساء : ١٦٢]،أي:" ويؤمنون بالله وبالبعث والجزاء"(١).

قال مقاتل:" أنه واحد لا شريك له، والبعث الذي فيه جزاء الأعمال"(٢).

قال ابن كثير:" أي : يصدقون بأنه لا إله إلا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها"(٣).

قال النضر بن شميل: "تفسير «المؤمن»: أنه أمن من عذاب الله"(٤).

قال قتادة:" المؤمنون: هم العجاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجيب لهم"(٥).

قال سعيد بن جبير:" {واليوم الآخر}، يعني: ويصدقون بالغيب الذي فيه جزاء الأعمال"(٦).

قال الراغب:" وقد ذكر تعالى عامة الإيمان الاعتقادي، فإن جماعة ذلك هي المذكورة في قوله تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } [النساء : ١٣٦] الآية، ولم يذكر «الملائكة» ها هنا في ضمن الإيمان {وما أنزل} إيمانا بالملائكة الذين نزلوا به وإنما قدم الإيمان بالنبي - ﷺ - على الإيمان بالله ها هنا لأن القصد من الآية إليه، والمذكور بعده على سبيل التبع، وذكر من الإيمان العملي إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأنهما ركنا العبادة، وعلى هذا يخصهما في عامة الآيات من بين العبادات"(٧).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء : ١٦٢]، أي:" أولئك سيعطيهم الله ثوابًا عظيمًا، وهو الجنة"(٨).

قال ابن كثير:" يعني : الجنة"(٩).

قرأ حمزة:«سيؤتيهم»، بالياء، والباقون بالنون(١٠).

الفوائد:

١-أن من أهل الكتاب صلحاء ربانيون وذلك؛ كعبد الله بن سلام وآخرين.

٢- الرسوخ في العلم يأمن صاحبه الزلات والوقوع في المهلكات.

٣- فضل إقام الصلاة لنصب "والمقيمي الصلاة" في الآية على المدح والتخصيص.

القرآن

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣)} [النساء : ١٦٣]

التفسير:

إنا أوحينا اليك -أيها الرسول- بتبليغ الرسالة كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط -وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب- وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان. وآتينا داود زبورًا، وهو كتاب وصحف مكتوبة.

سبب النزول:

---

(١) التفسير الميسر:١٠٣.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٢/١.

(٣) تفسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٣):ص١١١٧/٤.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٤):ص١١١٧/٤.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٥):ص١١١٧/٤.

(٧) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٣٠/٤.

(٨) التفسير الميسر:١٠٣.

(٩) تفسير ابن كثير:٤٦٨/٢.

(١٠) انظر: تفسير البوغي:٣١٠/٢.

عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "قال عدي بن زيد: يا محمد! ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى؛ فأنزل الله: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} الآيات كلها"[١]. [ضعيف].

وفي المعنى نفسه قال مقاتل:" وذلك أن عدي بن زيد وصاحبيه اليهود قالوا للنبي- ﷺ- والله ما أوحى الله إليك، ولا إلى أحد من بعد موسى فكذبهم الله - عز وجل- فقال: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده}"[٢].

قوله تعالى:{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ} [النساء : ١٦٣]، أي:" إنا أوحينا اليك -أيها الرسول- بتبليغ الرسالة كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده"[٣].

قال الربيع:" أوحى الله إليه كما أوحى إلى جميع النبيين من بعده"[٤].

قال مقاتل:" يعني{من بعد نوح}: هود وصالح"[٥].

قوله تعالى:{وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ} [النساء : ١٦٣]، أي:" وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط -وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة من ولد يعقوب- وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان"[٦].

قال مقاتل:" {والأسباط}، يعني: بني يعقوب يوسف وإخوته"[٧].

قال ابو العالية:" {والأسباط}، هو يوسف وأخوته بنو يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط"[٨]. وروي عن قتادة[٩]، والربيع بن أنس[١٠] نحو ذلك. ذلك.

قال السدي:" {والأسباط}: هم بنو يعقوب يوسف وبنيامين وروبيل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهاب"[١١].

قوله تعالى:{وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء : ١٦٣]، أي:" وآتينا داود زبورًا، وهو كتاب وصحف مكتوبة"[١٢].

قال ابن كثير:" الزبور : اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود ، عليه السلام"[١٣].

عن الربيع: "قوله:{وآتينا}، قال: أعطاه الله"[١٤]، "«الزبور»: ثناء على الله ودعاء وتسبيح"[١٥].

---

[١] أخرجه الطبري(١٠٨٤٠):ص٩/٤٠٠. ورواية الطبري:" قال سُكَين وعدي بن زيد : يا محمد ، ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى! فأنزل الله في ذلك من قولهما : " إنا...".
والبيهقي في "دلائل النبوة":٢/ ٥٣٥، وابن مردويه في "تفسيره" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٣٧٩):ص١٠/ ٣٥٣، ٣٥٤، -جميعهم من طريق ابن إسحاق -وهذا في "المغازي" له (٢/ ١٩١ - سيرة ابن هشام).
وأخرجه أيضا ابن ابي حاتم(٦٢٧٨):ص٤/١١١٨، وروايته:" قال سكين ومحمد وعدي بن يزيد: يا محمد".
وهذا سند ضعيف؛ لجهالة محمد بن أبي محمد شيخ ابن إسحاق.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٢٣.
[٣] التفسير الميسر:١٠٤.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٧٦):ص٤/١١١٧.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٢٣.
[٦] التفسير الميسر:١٠٤.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٢٣.
[٨] اخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٧٩):ص٤/١١١٨.
[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٢٧٩):ص٤/١١١٨.
[١٠]انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٢٧٩):ص٤/١١١٨.
[١١] اخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٨٠):ص٤/١١١٨.
[١٢] التفسير الميسر:١٠٤.
[١٣] تفسير ابن كثير:٢/٤٦٩.
[١٤] اخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٨٢):ص٤/١١١٨.
[١٥] اخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٨١):ص٤/١١١٨.

قال مقاتل:" ليس فيه حد ولا حكم ولا فريضة ولا حلال ولا حرام، خمسين ومائة سورة، فأخبره الله بهن ليعلموا أنه نبي"[1].

قرأ حمزة وحده: {زبورا}، بضم الزاى حيث وقع هذا الحرف، وقرأ الباقون:{زبورا}، مفتوحتين[2].

الفوائد:

١-تقرير مبدأ الوحي الإلهي.

٢- أول الرسل نوح عليه السلام، وآخرهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

القرآن

{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤)} [النساء : ١٦٤]

التفسير:

وأرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك في القرآن من قبل هذه الآية، ورسلا لم نقصصهم عليك لحكمة أردناها. وكلم الله موسى تكليمًا؛ تشريفًا له بهذه الصفة.

سبب النزول:

قال مقاتل:" فقالت اليهود: ذكر محمد النبيين ولم يبين لنا أمر موسى أكلمه الله أم لم، يكلمه؟ فأنزل الله- عز وجل- في قول اليهود:{ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل}"[3].

قوله تعالى:{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ} [النساء : ١٦٤]، أي:" وأرسلنا رسلا قد قصصناهم عليك في القرآن"[4].

قال مقاتل:" هؤلاء بمكة في الأنعام[5] وفي غيرها، لأن هذه مدنية"[6].

قال ابن كثير:" أي : من قبل هذه الآية ، يعني: في السور المكية وغيرها، وهذه تسمية الأنبياء الذين نُصَّ على أسمائهم في القرآن ، وهم : آدم وإدريس ، ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، والْيَسَع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى -عليهم الصلاة والسلام- وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد صلى الله وعليه وسلم"[7].

وسلم"[7].

قوله تعالى:{وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ} [النساء : ١٦٤]، أي:" ورسلا لم نقصصهم عليك لحكمة أردناها"[8].

قال ابن كثير:" أي : خلقا آخرين لم يذكروا في القرآن"[9].

قال علي:" بعث الله نبيا عبدا حبشيا فهو ممن لم يقصه على محمد ﷺ"[10].

عن أبي أمامة قال: "قلت: يا نبي الله، كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جما غفيرا"[11].

وعن أنس قال : "قال رسول الله ﷺ : «بعث الله ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس»"[1].

---

[1] التفسير الميسر:١٠٤.
[2] انظر: السبعة في القراءات:٢٤٠.
[3] التفسير الميسر:١٠٤.
[4] التفسير الميسر:١٠٤.
[5]يشير إلى الآيات: (٨٣- ٨٧)، من سورة الأنعام وبدايتها:{وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه..} الآيات.
[6] التفسير الميسر:١٠٤.
[7] تفسير ابن كثير:٤٦٩/٢.
[8] التفسير الميسر:١٠٤.
[9] تفسير ابن كثير:٤٦٩/٢.
[10] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٨٤):ص١١١٩/٤، وفي رواية (٦٢٨٥):ص١١١٩/٤:" بعث نبي من الحبش فهو ممن لم يقصه على محمد ﷺ".
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٨٣):ص١١١٨/٤.

وعن عن أنس أيضا قال : "قال رسول الله ﷺ : «بعثت على إثر من ثلاثة آلاف نبي من بني إسرائيل»"[2].

قوله تعالى:{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء : ١٦٤]، أي:" وكلم الله موسى تكليمًا؛ تشريفًا له بهذه الصفة"[3].

قال مقاتل:" يعني: مشافهة وهو ابن أربعين سنة ليلة النار، ومرة أخرى حين أعطي التوراة"[4].

قال الزجاج:" أخبر الله عز وجل بتخصيص نبي ممن ذكر، فأعلم عز وجل أن موسى كلم بغير وحي، وأكد ذلك بقوله تكليما، فهو كلام كما يعقل الكلام لا شك في ذلك"[5].

قال ابن كثير:" وهذا تشريف لموسى ، عليه السلام ، بهذه الصفة ؛ ولهذا يقال له : الكليم"[6].

عن جابر بن عبد الله قال: "لما كلم الله تعالى موسى يوم الطور، كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب هذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال: لا يا موسى، إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسنة كلها وأنا أقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى، صف لنا كلام الرحمن، فقال: لا أستطيعه. قالوا: فشبه. قال: ألم تروا إلى صوت الصواعق فإنها قريب منه وليس به"[7].

وقال كعب:" إن الله تعالى لما كلم موسى بالألسنة كلها سوى كلامه، فقال له موسى: أي رب هذا كلامك؟ قال: لا، ولو كلمتك بكلامي لم تستقم له. قال: أي رب فهل من خلقك شيء يشبه كلامك؟ قال: لا. قال: وأشد خلقي شبها بكلامي أشد ما تسمعون من الصواعق"[8].

وروي عن كعب ايضا، قال: "كلم الله موسى مرتين"[9].

وروي عن ابن داود في قول الله تعالى: "{وكلم الله موسى تكليما} قال: مرارا"[10].

وعن أبي عصمة في قول الله تعالى: "{وكلم الله موسى تكليما}، قال: مشافهة"[11].

عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله ﷺ : «لَما كلم الله موسى كان يُبْصِرُ دبيبَ النمل على الصفا في الليلة الظلماء»"[12].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: إثبات صفة الكلام لله -تعالى- كما يليق بجلاله، وأنه سبحانه كلم نبيه موسى -عليه السلام- حقيقة بلا وساطة.

٢- ذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله ومنهم من لم يقصصه عليه وهذا يدل على كثرتهم.

---

[1] مسند أبي يعلى: ١٦٠/٧، ورواه أبو نعيم في الحلية:٥٣/٣. قال الهيثمي في المجمع (٢١٠/٨) : "فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف جدًا".

[2] رواه ابن كثير في تفسيره:٤٧١/٢، وقال:" وهذا غريب من هذا الوجه وإسناده لا بأس به ، رجاله كلهم معروفون إلا أحمد بن طارق هذا ، فإني لا أعرفه بعدالة ولا جرح".
ورواه أبو نعيم في الحلية: ١٦٢/٣، وقال : "غريب".

[3] التفسير الميسر:١٠٤.

[4] التفسير الميسر:١٠٤.

[5] معاني القرآن:١٣٣/٢.

[6] تفسير ابن كثير:٤٧٤/٢.

[7] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٨٦):ص١١١٩/٤. قال ابن كثير:٤٧٥/٢:" وهذا إسناد ضعيف".

[8] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٨٧):ص١١١٩/٤.

[9] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٨٨):ص١١٢٠/٤.

[10] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٨٩):ص١١٢٠/٤.

[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٩٠):ص١١٢٠/٤.

[12] ورواه الطبراني في المعجم الصغير برقم (٧٧) ، من طريق أحمد بن الحسين بن بهرام به ، وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٣/٨) : "فيه الحسين بن أبي جعفر الجفري : وهو متروك"، قال ابن كثير:٤٧٤/٢:" وهذا حديث غريب ، وإسناده لا يصح ، وإذا صح موقوفًا كان جيدًا".

القرآن

{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)} [النساء : ١٦٥]

التفسير:

أرسَلْتُ رسلا إلى خَلْقي مُبشِّرين بثوابي، ومنذرين بعقابي؛ لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل. وكان الله عزيزًا في ملكه، حكيمًا في تدبيره.

قوله تعالى:{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [النساء : ١٦٥]، أي:" أرسَلْتُ رسلا إلى خَلْقي مُبشِّرين بثوابي، ومنذرين بعقابي"[١].

عن ابن عباس:" قوله: {مبشرا}، قال:مبشرا بالجنة"[٢]، " قوله: {نذيرا}، قال: نذيرا من من النار"[٣].

قال مقاتل:" {مبشرين} بالجنة، {ومنذرين} من النار"[٤].

قال ابن كثير:" أي : يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب"[٥].

قال السمرقندي:" أي: أرسلنا رسلا مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار"[٦].

قال الثعلبي:" سمى الله تعالى النبيين بهذين الاسمين، فقال: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [البقرة : ٢١٣]، ثم سمى المرسلين خاصة بهذا الإسم، فقال: {مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [النساء : ١٦٥] ، ثم سمى نبينا خاصة بهذين الاسمين، فقال: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨)لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ(٩)} [الفتح : ٨-٩]"[٧].

قوله تعالى:{لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [النساء : ١٦٥]، أي:" لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل"[٨].

قال السدي:" فيقولوا : ما أرسلت إلينا رسلا"[٩].

عن أبي مالك قوله: "{لئلا}، يعني: لكيلا"[١٠].

قال مقاتل:" فيقولوا يوم القيامة: لم يأتنا لك رسول"[١١].

قال مكي بن أبي طالب:" أي: كيلا يقولوا: هلا {أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} [طه: ١٣٤ - القصص: ٤٧]"[١٢].

قال الثعلبي:أي:" فيقول: ما أرسلت إلينا رسولا فنتبع وما أنزلت علينا كتابا. وقال في آية أخرى: { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ **رَسُولًا**} [الإسراء : ١٥]"[١٣].

قال الزجاج:أي:" يبين، لأن الشاهد هو المبين لما يشهد به، فالله جل وعز يبينه ويعلم مع إبانته أنه حق"[١٤].

قال ابن كثير:" أي : أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر ، كما قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ

---

[١] التفسير الميسر:١٠٤.
[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٩١):ص١١٢٠/٤.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٩٢):ص١١٢٠/٤.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٣/١.
[٥] تفسير ابن كثير:٤٧٥/٢.
[٦] بحر العلوم:٣٥٨/١.
[٧] الكشف والبيان:٤١٦/٣.
[٨] التفسير الميسر:١٠٤.
[٩] أخرجه الطبري(١٠٨٤٩):ص٤٠٨/٩.
[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٢٩٣):ص١١٢٠/٤.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٣/١.
[١٢] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٥٣٥/٢.
[١٣] الكشف والبيان:٤١٦/٣.
[١٤] معاني القرآن:١٣٤/٢.

بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى } [طه : ١٣٤] ، وكذا قوله تعالى : { وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [القصص : ٤٧] "[١].

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ، -رضي الله عنه- قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«لا أَحَدَ أَغْيَرَ من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظَهَر منها وما بطن ، ولا أحدَ أحبَّ إليه المدحُ من الله ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحدَ أَحَبَّ إليه العُذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين" وفي لفظ : "من أجل ذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه»"[٢].

قال السمرقندي:" ولو إن الله تعالى لم يرسل رسولا كان ذلك عدلا منه إذ أعطى كل واحد من خلقه من العقل ما يعرفه، ولكن أرسل تفضلا منه، ولكي يكون زيادة في الحجة عليهم"[٣].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : ١٦٥]، أي:" وكان الله عزيزًا في ملكه، حكيمًا في تدبيره"[٤].

قال السمرقندي:أي:" {عزيزا} بالنقمة لمن يجحده، {حكيما}، حكم إرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام"[٥].

قال الطبري:" يقول : ولم يزل الله ذا عِزة في انتقامه ممن انتقم منه من خلقه ، على كفره به ، ومعصيته إياه ، بعد تثبيته حجَّتَه عليه برسله وأدلَّتَه " حكيمًا " ، في تدبيره فيهم ما دبّره"[٦].

الفوائد:

١-بيان الحكمة في إرسال الرسل، وهي الحجة على الناس يوم القيامة.

قال السعدي:" فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى يبينون لهم أمر دينهم ومراضي ربهم ومساخطه وطرق الجنة وطرق النار فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[٧].

٢- أن الله أرسل الرسل مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين.

٣- أن من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب وذلك أيضا من فضله وإحسانه حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر فأزال هذا الاضطرار فله الحمد وله الشكر ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يتمها بالتوفيق لسلوك طريقهم إنه جواد كريم[٨].

٤-ومن اسمائه تعالى: «العزيز»: " هو المنيع الذي لا يغلب"[٩]، و«الحكيم»:" هو المحكم لخلق لخلق الأشياء"[١٠].

القرآن

{لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦)} [النساء : ١٦٦]

---

[١] تفسير ابن كثير:٢/٤٧٥.
[٢]صحيح البخاري برقم (٤٦٣٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٦٠).
[٣] بحر العلوم:١/٣٥٨.
[٤] التفسير الميسر:١٠٤.
[٥] بحر العلوم:١/٣٥٨.
[٦] تفسير الطبري:٩/٤٠٨.
[٧] تفسير السعدي:٢١٤.
[٨] انظر: تفسير السعدي:٢١٤.
[٩] شأن الدعاء:١/٤٧.
[١٠] شأن الدعاء:١/٧٣.

التفسير:
إن يكفر بك اليهود وغيرهم -أيها الرسول- فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أَنْزَلَ عليه القرآن العظيم، أنزله بعلمه، وكذلك الملائكة يشهدون بصدق ما أوحي إليك، وشهادة الله وحدها كافية.

في سبب نزول الآية وجهان:

أحدهما: عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-؛ قال: "دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جماعة من يهود، فقال لهم: «إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله»، فقالوا: ما نعلم ذلك؛ فأنزل الله -تعالى-: {لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}"[1].[ضعيف].

والثاني: ونقل الواحدي عن الكلبي: "إن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله - ﷺ - فقالوا: سألنا عنك اليهود فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولا، فنزلت هذه الآية: {لكن الله يشهد}"[2].

قوله تعالى:{لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ} [النساء : ١٦٦] ، أي:" إن لم يشهد لك هؤلاء بالنبوة فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أَنْزَلَ عليه القرآن العظيم"[3].

قال مكي بن ابي طالب:" المعنى: إن جحدوا ما أنزل إليك يا محمد بأن قالوا: {مَآ أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} فإن الله يشهد أنه أنزله إليك"[4].

قال الطبري:أي:" إن يكفر بالذي أوحينا إليك ، يا محمد ، اليهود الذين سألوك أن تنزل عليهم كتابًا من السماء ، وقالوا لك : «ما أنزل الله على بشر من شيء» فكذبوك ، فقد كذبوا. ما الأمر كما قالوا : لكن الله يشهد بتنزيله إليك ما أنزل من كتابه ووحيه"[5].

قال ابن كثير:" لما تضمن قوله تعالى : { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ } إلى آخر السياق ، إثبات نبوته -ﷺ- والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب ، قال الله تعالى:{ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إِلَيْكَ }، أي:وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب ، وهو:القرآن العظيم الذي { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } [فصلت : ٤٢]"[6].

قوله تعالى:{أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء : ١٦٦] ، أي:" أنزل ذلك إليك بعلمه"[7].

قال مكي بن ابي طالب:أي:"بعلم منه أنك خِيرته من خلقه"[8].

قال الزجاج:" أي: أنزل القرآن الذي فيه علمه"[9].

قال الطبري:اي:" أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خِيرَته من خلقه ، وصفِيُّه من عباده"[10].

قال ابن كثير:"أي: فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه ، من البينات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة ، التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب

---

[1] أخرجه ابن إسحاق، ومن طريقه الطبري(١٠٨٥٠)، و(١٠٨٥١):٤٠٩/٩، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٧٥٠)، وزاد نسبته لابن المنذر.
وسنده ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق.
[2] أسباب النزول:١٨٧.
[3] صفوة التفاسير:٢٩٥، والتفسير الميسر:١٠٤.
[4] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٥٣٥/٢.
[5] تفسير الطبري:٤٠٩/٩.
[6] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[7] انظر: تفسير الطبري:٤٠٩/٩.
[8] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٥٣٥/٢.
[9] معاني القرآن:١٣٤/٢.
[10] تفسير الطبري:٩،٤٠٩.

، إلا أن يُعْلِمَه الله به ، كما قال تعالى:{ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ } [البقرة : ٢٥٥] ، وقال { وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا } [طه : ١١٠]"[١].

قوله تعالى:{وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ} [النساء : ١٦٦] ، أي:" وكذلك الملائكة يشهدون بصدق ما أوحي إليك"[٢].

قال مكي بن ابي طالب:أي:"ويشهد بذلك ملائكته"[٣].

قال ابن ابي زمنين: اي:" أنه أنزله إليك"[٤].

قال الطبري:أي:" ويشهد لك بذلك ملائكته ، فلا يحزنك تكذيبُ من كذَّبك ، وخلافُ من خالفك"[٥].

قال الواحدي:أي: يشهد " لك بالنُّبوَّة إنْ جحدت اليهود وشهادة الملائكة إنَّما تُعرف بقيام المعجزة فمَنْ ظهرت معجزته شهدت الملائكة بصدقه"[٦].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} [النساء : ١٦٦]، أي:" وشهادة الله وحدها كافية"[٧].

قال الواحدي: "أَيْ: كفى الله شهيدا"[٨].

قال الطبري:أي:" وحسبك بالله شاهدًا على صدقك دون ما سواه من خلقه ، فإنه إذا شهد لك بالصدق ربك ، لم يَضِرْك تكذيب من كذَّبك"[٩].

قال الزجاج:" معناه: وكفى الله شهيدا، و«الباء» دخلت مؤكدة، المعنى: اكتفوا بالله في شهادته"[١٠].

قال السمعاني:" فإن قيل: إذا شهد الله له بالرسالة، فأي حاجة إلى شهادة الملائكة؟

قيل: لأن الذين حضروا عند النبي، كان عندهم أنهم علماء الأرض؛ فقالوا: نحن علماء الأرض، ونحن ننكر رسالتك، فقال الله تعالى: إن أنكره علماء الأرض، يشهد به علماء السماء، وهم الملائكة، على مقابلة زعمهم وظنهم؛ لا للحاجة إلى شهادتهم؛ فإنه قال: {وكفى بالله شهيدا}"[١١].

الفوائد:

١-شهادة الرب تبارك وتعالى والملائكة بنبوة خاتم الأنبياء ورسالته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢- إن ما حواه القرآن من تشريع وما ضمه بين دفتيه من معارف وعلوم أكبر شهادة للنبي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة والرسالة.

٣- و«الشهيد»: اسم من أسمائه تعالى، أي: "المطَّلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات، خفيّها وجليها. وأبصر جميع الموجودات، دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما عملوه"[١٢].

قال الخطابي:" الشهيد: هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء، وقد قال -سبحانه -: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}[البقرة/١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه، ويكون الشهيد، بمعنى: العليم. كقوله: {شهد الله أنه لا إله إلا هو} [آل عمران:١٨]، قيل: معناه: علم الله"[١٣].

---

[١] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[٢] التفسير الميسر:١٠٤.
[٣] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٥٣٥/٢.
[٤] تفسير ابن أبي زمنين:٤٢٤/١.
[٥] تفسير الطبري:٩،٤٠٩.
[٦] الوجيز:٣٠٢.
[٧] التفسير الميسر:١٠٤.
[٨] الوجيز:٣٠٢.
[٩] تفسير الطبري:٩،٤٠٩.
[١٠] معاني القرآن:١٣٤/٢.
[١١] تفسير السمعاني:٥٠٤/١.
[١٢] تفسير السعدي:٩٤٨.
[١٣] شأن الدعاء:٧٥/١-٧٦.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧)} [النساء : ١٦٧]

التفسير:

إن الذين جحدوا نُبُوَّتك، وصدوا الناس عن الإسلام، قد بَعُدوا عن طريق الحق بُعْدًا شديدًا.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء : ١٦٧]، أي:" إن الذين جحدوا نُبُوَّتك"[١].

قال ابن كثير:" أي : كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق"[٢].

قال الطبري:أي:" الذين جحدوا ، يا محمد ، نبوتك بعد علمهم بها ، من أهل الكتاب الذين اقتصصت عليك قصتهم ، وأنكروا أن يكون الله جل ثناؤه أوحى إليك كتابه"[٣].

قوله تعالى:{وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} [النساء : ١٦٧]، أي:" وصدوا الناس عن الإسلام"[٤].

قال السمرقندي:" يعني: صرفوا الناس عن دين الله"[٥].

قال ابن كثير:أي" وسَعَوْا في صد الناس عن اتباعه والاقتداء به"[٦].

قال السمعاني:" صدهم عن سبيل الله كان بكتمان نعت محمد"[٧].

قال الطبري:" يعني : عن الدين الذي بعثَك الله به إلى خلقه ، وهو الإسلام. وكان صدهم عنه ، قِيلُهم للناس الذين يسألونهم عن محمد من أهل الشرك :«ما نجد صفة محمد في كتابنا!»، وادعاءهم أنهم عُهِد إليهم أن النبوّة لا تكون إلا في ولد هارون ومن ذرية داود ، وما أشبه ذلك من الأمور التي كانوا يثبِّطون الناس بها عن اتباع رسول الله ﷺ والتصديق به وبما جاء به من عند الله"[٨].

عن مجاهد قوله: "{عن سبيل الله}، عن الحق"[٩].

قوله تعالى:{قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء : ١٦٧]، أي:" قد بَعُدوا عن طريق الحق بُعْدًا شديدًا"[١٠].

قال مقاتل:" يعني: طويلا"[١١].

قال الطبري:" يعني : قد جاروا عن قصد الطريق جورًا شديدًا ، وزالوا عن المحجّة"[١٢].

قال ابن كثير:أي:"قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه ، وبَعُدُوا منه بعدًا عظيما شاسعًا"[١٣].

قال السمعاني:" أي: هلكوا، والضلال: الهلاك"[١٤].

الفوائد:

١- شر الكفر ما كان مع الصد عن سبيل اله والظلم، وهذا كفر اليهود، العياذ بالله.

---

[١] التفسير الميسر:١٠٤.
[٢] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[٣] تفسير الطبري:٤١٠/٩.
[٤] التفسير الميسر:١٠٤.
[٥] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[٧] تفسير السمعاني:٥٠٤/١.
[٨] تفسير الطبري:٤١٠/٩.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٩٧):ص١١٢١/٤.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٤.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.
[١٢] تفسير الطبري:٤١٠/٩.
[١٣] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[١٤] تفسير السمعاني:٥٠٤/١.

قال السعدي:" وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين ورجع بالخسارتين وفاتته الهدايتان"[1].

٢- أن أشد الناس ضلالا من كان ضالا ويعتقد فى نفسه أنه محق، ويتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال، فهو قد سار فى سبيل الشيطان، وبعد عن سبيل الله، فلم يعد يفقه أنها هى الموصلة إلى خير العاقبة[2].

[1] تفسير السعدي:٢١٥.

[2] انظر: تفسير المراغي:٢٥/٦.

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨)} [النساء : ١٦٨]

التفسير:

إن الذين كفروا بالله وبرسوله، وظلموا باستمرارهم على الكفر، لم يكن الله ليغفر ذنوبهم، ولا ليدلهم على طريق ينجيهم.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [النساء : ١٦٨]، أي:" إن الذين كفروا بالله وبرسوله"[١].

قال السمرقندي:" أي: جحدوا "[٢].

قال مقاتل:" يعني: اليهود كفروا بمحمد والقرآن"[٣].

قوله تعالى:{وَظَلَمُوا} [النساء : ١٦٨]، أي:" وظلموا باستمرارهم على الكفر"[٤].

قال مقاتل:" يعني: وأشركوا بالله"[٥].

عن إبراهيم قوله: "{وظلموا}، قال: الظلم: الفاحشة"[٦].

قال السمعاني:" فإن قال قائل: أي معنى لقوله: {وظلموا} وقد قال: {كفروا} وظلمهم كفرهم؟

قيل: معناه: كفروا بالله، وظلموا محمدا بكتمان نعته"[٧].

قال السعدي:" وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه، والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم"[٨].

قوله تعالى:{لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ} [النساء : ١٦٨]، أي:" لم يكن الله ليغفر ذنوبهم"[٩].

قال السمرقندي:" أي: ما داموا على كفرهم"[١٠].

قال ابن كثير:" أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك ، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه ، بأنه لا يغفر لهم"[١١].

قال السمعاني:" قيل: ذكره تأكيدا {لم يكن الله ليغفر لهم} في هذا إشارة إلى أن الله - تعالى - لو غفر للكافرين أجمع، كان يسع ذلك رحمته، لكنه قطع القول بأن لا يغفر لهم"[١٢].

قوله تعالى:{وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا} [النساء : ١٦٨]، أي:" ولا ليدلهم على طريق ينجيهم"[١٣].

قال ابن كثير:" أي : سبيلا إلى الخير"[١٤].

قال السمرقندي:" يعني: لا يوفقهم لطريق الإسلام"[١٥].

قال السمعاني:"يعني: الإسلام"[١٦].

الفوائد:

---

[١] التفسير الميسر:١٠٤.
[٢] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.
[٤] التفسير الميسر:١٠٤.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٢٩٨):ص١١٢١/٤.
[٧] تفسير السمعاني:٥٠٤/١.
[٨] تفسير السعدي:٢١٥.
[٩] التفسير الميسر:١٠٤.
[١٠] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[١١] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[١٢] تفسير السمعاني:٥٠٤/١.
[١٣] التفسير الميسر:١٠٤.
[١٤] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[١٥] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[١٦] تفسير السمعاني:٥٠٥/١.

١- سنة الله تعالى في أن العبد إذا أبعد في الضلال، وتوغل في الشر والفساد يتعذر عليه التوبة فيموت على ذلك ويهلك.
٢-أنه انسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا وبسبب استمرارهم في طغيانهم وازديادهم في الكفر، فطبع على قلوبهم بذلك، قال تعالى: {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيد} [فصلت : ٤٦].

القرآن

{إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)} [النساء : ١٦٩]

التفسير:

إلا طريق جهنم ماكثين فيها أبدًا، وكان ذلك على الله يسيرًا، فلا يعجزه شيء.

قوله تعالى:{إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ} [النساء : ١٦٩]، أي:" لن يهديهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم"[١].

قال السمرقندي يعني: يتركهم ويخذلهم في طريق الكفر عقوبة لكفرهم ولجحودهم وهو طريق جهنم. ويقال: إلا العمل الذي يجبرهم إلى جهنم"[٢].

قال مقاتل:" يعني: طريق الكفر، فهو يقود إلى جهنم"[٣].

قال السمعاني:" يعنى: اليهودية"[٤].

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء : ١٦٩]، أي:" ماكثين فيها أبدًا"[٥].

قال سعيد بن جبير:" يعني: لا يموتون"[٦].

وعن ابن عباس: "{خالدين فيها أبدا}، قال: لا انقطاع له"[٧].

قال السمرقندي:" أي: دائمين فيها"[٨].

قال المراغي:" أي: يدخلونها ويذوقون عذابها حال كونهم خالدين فيها أبدا لا يخرجون منها"[٩].

قوله تعالى:{وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [النساء : ١٦٩]، أي:" وكان ذلك على الله يسيرًا، فلا يعجزه شيء"[١٠].

قال مقاتل:" يعنى: عذابهم على الله هينا"[١١].

قال السمرقندي:" أي: خلودهم وعذابهم في النار هيّن على الله تعالى"[١٢].

قال المراغي:" أي: وكان ذلك الجزاء سهلا على الله دون غيره، لأنه مقتضى حكمته وسننه، وليس بالعزيز على قدرته"[١٣].

قال الطبري:" يقول : وكان تخليدُ هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم ، على الله يسيرًا ، لأنه لا يقدر من أراد ذلك به على الامتناع منه ، ولا له أحد يمنعه منه ، ولا يستصعب عليه ما أراد فعله به من ذلك ، وكان ذلك على الله يسيرًا ، لأن الخلق خلقُه ، والأمرَ أمرُه"[١٤].

قال البغوي:" وهذا في حق من سبق حكمه فيهم أنهم لا يؤمنون"[١٥].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٩٦.
[٢] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.
[٤] تفسير السمعاني:٥٠٥/١.
[٥] التفسير الميسر:١٠٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٠):ص١١٢١/٤.
[٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠١):ص١١٢١/٤.
[٨] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[٩] تفسير المراغي:٢٦/٦.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٤.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.
[١٢] بحر العلوم:٣٥٩/١.
[١٣] تفسير المراغي:٢٦/٦.
[١٤] تفسير الطبري:٤١١/٩-٤١٢.
[١٥] تفسير البغوي:٣١٣/٢.

الفوائد:

١-أن طريق جهنم هى الطريق التي ينتهى إليها من دسى نفسه بالكفر والظلم، وأوغل فى السير فيها طول عمره، واستمرأ الشرور والمفاسد، حتى هوت به إلى واد سحيق.

٢-أن الآية تحقير لأمر اليهود وبيان، لأن الله لا يعبأ بهم ولا يبالى بشأنهم.

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧٠)} [النساء : ١٧٠]

التفسير:

يا أيها الناس قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالإسلام دين الحق من ربكم، فَصَدِّقوه واتبعوه، فإن الإيمان به خير لكم، وإن تُصرُّوا على كفركم فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم؛ لأنه مالك ما في السموات والأرض. وكان الله عليمًا بأقوالكم وأفعالكم، حكيمًا في تشريعه وأمره.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ} [النساء : ١٧٠]، أي:" يا أيها الناس قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالإسلام دين الحق من ربكم"(١).

قال مقاتل:" يعنى: محمدا، {بالحق}، يعنى: بالقرآن {من ربكم}"(٢).

قال ابن كثير:" أي : قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق ، والبيان الشافي من الله ، عز وجل"(٣).

قال السمرقندي:" أي: بشهادة أن لا إله إلا الله، ويقال: ببيان الحق. ويقال: للحق، يعني للعرض والحجة"(٤).

قال ابن عباس:" {يا أيها الناس}، أي: الفرقين جميعا من الكافرين والمنافقين"(٥).

وعنه أيضا:" يعني: أهل مكة"(٦).

قوله تعالى:{فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ} [النساء : ١٧٠]، أي:" فَصَدِّقوه واتبعوه، فإن الإيمان به خير لكم"(٧).

قال مقاتل:" يعني: صدقوا بالقرآن فهو خير لكم من الكفر"(٨).

قال ابن كثير:أي:" فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيرًا لكم"(٩).

قال الطبري:" فصدِّقوه وصدّقوا بما جاءكم به من عند ربكم من الدين ، فإن الإيمان بذلك خير لكم من الكفر به"(١٠).

قال السمرقندي:" أي: صدقوا بوحدانية الله تعالى، والقرآن الذي جاءكم به محمد ﷺ خيرا لكم من عبادة الأوثان، لأن عبادة الأوثان لا تغنيكم شيئا"(١١).

قوله تعالى:{وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [النساء : ١٧٠]، أي:" وإن تُصرُّوا على كفركم، فإن الله غني عنكم وعن إيمانكم؛ لأنه مالك ما في السموات والأرض"(١٢).

قال مقاتل:" من الخلق"(١٣).

---

(١) التفسير الميسر:١٠٤.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.

(٣) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.

(٤) تفسير السمرقندي:٣٥٩/١.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٢):ص١١٢٢/٤.

(٦) تفسير السمرقندي:٣٥٩/١.

(٧) التفسير الميسر:١٠٤.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.

(٩) تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.

(١٠) تفسير الطبري:٤١٢/٩.

(١١) تفسير السمرقندي:٣٥٩/١.

(١٢) التفسير الميسر:١٠٤.

(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٤/١.

قال الطبري:" يقول : وإن تجحدوا رسالتَه وتكذّبوا به وبما جاءكم به من عند ربكم ، فإن جحودكم ذلك وتكذيبكم به ، لن يضرَّ غيركم ، وإنما مكروهُ ذلك عائدٌ عليكم ، دون الذي أمركم بالذي بعث به إليكم رسوله محمدًا ﷺ ، وذلك أن لله ما في السموات والأرض ، ملكًا وخلقًا ، لا ينقص كفركم بما كفرتم به من أمره ، وعصيانكم إياه فيما عصيتموه فيه ، من ملكه وسلطانه شيئًا"[1].

قال السمرقندي:" أي: إن تجحدوا بالله وبمحمد ﷺ، فإن الله غني عنكم فإن لله ما في السماوات والأرض كلهم عبيده وإماؤه"[2].

قال ابن كثير:" أي : فهو غني عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم ، كما قال تعالى : { وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ } [إبراهيم : ٨]"[3].

قوله تعالى:{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء : ١٧٠]، أي:" وكان الله عليمًا بأقوالكم وأفعالكم، حكيمًا في تشريعه وأمره"[4].

قال السمرقندي: أي:" {وكان الله عليما} بخلقه، {حكيما}، في أمره"[5].

قال ابن كثير:"أي: [{عَلِيمًا}] بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغَوَاية فيغويه { حَكِيمًا }، أي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره"[6].

الفوائد:

١-في الآية دليل على عموم رسالة نبي الله ورسوله محمد ﷺ، لان المعنى: فإذا كانت السموات والأرض قد خضعتا لله تعالى كونًا وقدرًا خضوع سائر ملكه، فأولى بكم أن تؤمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزله عليه، وأن تنقادوا لذلك شرعًا حتى يكون الكون كلُّه خاضعًا لله قدرًا وشرعًا.

٢-إثبات صفتي :«العلم» و«الحكمة» لله تعالى. وبموجبهما يتم الجزاء العادل الرحيم.

فالله هو«العليم»، أي: المحيط علمه بكل شي، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[7].

قال الخطابي:" العليم: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق"[8].

وأما«الحكيم»، فيدل هذا الاسم الكريم على أن الحكم لله، ويدل على أن الله موصوف بالحكمة، لأن الإحكام هو الإتقان، والإتقان وضع الشيء في موضعه. ففي الآية إثبات حكم وإثبات حكمة:

فالله عز وجل وحده هو الحاكم، وحكم الله إما كوني وإما شرعي:

- فحكم الله الشرعي ما جاءت به رسله ونزلت به كتبه من شرائع الدين، قال تعالى: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ١٠].
- وحكم الله الكوني: ما قضاه على عباده من الخلق والرزق والحياة والموت ونحو ذلك من معاني ربوبيته ومتقتضياتها، {فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف: ٨٠][9].

ومن فوائد اقتران الاسمين: «العليم، والحكيم»: أن الإيمان بعلم الله وحكمته يستلزم الطمأنينة التامة لما حكم به من أحكام كونية وشرعية، لصدور ذلك عن علم وحكمة، فيزول عنه القلق النفسي وينشرح صدره[1].

---

[1] تفسير الطبري:٤١٢/٩.
[2] تفسير السمرقندي:٣٥٩/١.
[3] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[4] التفسير الميسر:١٠٤.
[5] تفسير السمرقندي:٣٥٩/١.
[6] تفسير ابن كثير:٤٧٦/٢.
[7] انظر: شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين:١٨٨/١.
[8] شأن الدعاء:٥٧/١.
[9] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١)} [النساء : ١٧١]

التفسير:

يا أهل الإنجيل لا تتجاوزوا الاعتقاد الحق في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق، فلا تجعلوا له صاحبةً ولا ولدًا. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله أرسله الله بالحق، وخَلَقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، وهي قوله: «كن» ، فكان، وهي نفخة من الله تعالى نفخها جبريل بأمر ربه، فَصدِّقوا بأن الله واحد وأسلموا له، وصدِّقوا رسله فيما جاؤوكم به من عند الله واعملوا به، ولا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين. انتهوا عن هذه المقالة خيرًا لكم مما أنتم عليه، إنما الله إله واحد سبحانه. ما في السموات والأرض مُلْكُه، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد؟ وكفى بالله وكيلا على تدبير خلقه وتصريف معاشهم، فتوكَّلوا عليه وحده فهو كافيكم.

سبب النزول:

قال الواحدي:" نزلت في طوائف من النصارى حين قالوا عيسى ابن الله، فأنزل الله تعالى: {لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق} الآية"[٢].

قال البغوي:" نزلت في النصارى وهم أصناف: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية فقالت اليعقوبية: عيسى هو الله، وكذلك الملكانية، وقالت النسطورية: عيسى هو ابن الله، وقالت: المرقوسية ثالث ثلاثة، فأنزل الله تعالى هذه الآية"[٣].

قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} [النساء : ١٧١]، أي:" يا أهل الإنجيل لا تتجاوزوا الاعتقاد الحق في دينكم"[٤].

قال البغوي:أي:" لا تشددوا في دينكم فتفتروا على الله"[٥].

عن قتادة: في قوله:"{ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}، قال: لا تبتدعوا"[٦].

وقال الحسن:" لا تعتدوا[٧].

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم:" الغلو: فراق الحق وكان مما غلوا فيه أن دعوا لله صاحبة وولدا -سبحانه وتعالى-"[٨].

قال التستري:" أي لا تجاوزوا دينكم بالبدع، وتعدلوا عن الحق، وهو الكتاب والسنة والإجماع، ميلا إلى هوى نفوسكم"[٩].

قال الزجاج:" الغلو: مجاوز القدر في الظلم"[١٠].

قال الماوردي:"والغلو : مجاوزة الحد ، ومنه غلاء السعر ، إذا جاوز الحد في الزيادة ، وغلا في الدين ، إذا فرط في مجاوزة الحق"[١١].

قال السمعاني: "الغلو: غير محمود في الدين"[١٢].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٩٠/١.
(٢) أسباب النزول:١٨٧.
(٣) تفسير البوغي:٣١٣/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٠٥.
(٥) تفسير البغوي:٣١٤/٢.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٣):ص١١٢٢/٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٥):ص١١٢٢/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٤):ص١١٢٢/٤.
(٩) تفسير التستري:٥٧.
(١٠) معاني القرىن:١٣٥/٢.
(١١) النكت والعيون:٥٤٦/١.
(١٢) تفسير السمعاني:٥٠٥/١.

روى ابن عباس عن النبي-ﷺ- أنه قال: " إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو"[١].

قال الماتريدي:" والغلو في الدين: هو المجاوزة عن الحد الذي حد لهم، وكذلك الاعتداء: هو المجاوزة عن الحد الذي أحد لهم، في الفعل وفي النطق جميعا.

وقال بعضهم: تفسير الغلو ما ذكر: {ولا تقولوا على الله إلا الحق}؛ فالقول على الله بما لا يليق به غلو.

وقيل: لا تغلوا: أي: لا تعمقوا في دينكم، ولا تشددوا؛ فيحملكم ذلك على الافتراء على الله، والقول بما لا يحل ولا يليق"[٢].

وفي الخطاب الموجه في قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ} [النساء : ١٧١]، قولان:

أحدهما : أنه خطاب للنصارى خاصة[٣]، اختاره السمعاني[٤].

والثاني : أنه خطاب لليهود والنصارى ، لأن الفريقين غلوا في المسيح ، فقالت النصارى : هو الرب ، وقالت اليهود : هو لغير رشدة ، وهذا قول الحسن[٥].

قوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ} [النساء : ١٧١]، أي:" ولا تقولوا على الله إلا الحق"[٦].

قال الماوردي:" يعني: في غلوهم في المسيح"[٧].

قال الثعلبي:أي:" لا تقولوا أن لله شركاء أو ابنا"[٨].

قال البغوي:أي:" لا تقولوا إن له شريكا وولدا"[٩].

قال الزمخشري:" وهو تنزيهه عن الشريك والولد"[١٠].

قال أبو حيان:" وهو تنزيهه عن الشريك والولد والحلول والاتحاد"[١١].

قال أبو السعود:" أي: لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد بل نزهوه عن جميع ذلك"[١٢].

قوله تعالى:{إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ} [النساء : ١٧١]، أي:" إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله أرسله الله بالحق"[١٣].

قال الزجاج:" أي، فكيف يكون إلها وهو ابن مريم، وكيف يكون إلها وأمه قبله والله عز وجل القديم الذي لم يزل"[١٤].

قال إبراهيم:" : المسيح: الصديق"[١٥].

وروي عن يحيى بن عبد الرحمن الثقفي :" أن عيسى ابن مريم كان سائحا، ولذلك سمي المسيح. قال: يمشي بأرض، ويصبح بأخرى"[١٦].

---

[١]أخرجه أحمد "١٨٥٤"، والنسائي "٣٠٥٩"، وابن ماجه "٣٠٢٩". وصححه بن خزيمة وابن حبان والحاكم.

[٢] تفسير الماتريدي:٤٢٤/٣.

[٣] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١.

[٤] انظر: تفسير السمعاني:٥٠٥/١.

[٥]انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١، وتفسير السمعاني:٥٠٥/١.

[٦] التفسير الميسر:١٠٥.

[٧] النكت والعيون:٥٤٦/١.

[٨] الكشف والبيان:٤١٨/٣.

[٩] تفسير البغوي:٣١٤/٢.

[١٠] الكشاف:٥٩٣/١.

[١١] البحر المحيط في التفسير:١٤٢/٤.

[١٢] تفسير أبي السعود:٢٥٩/٢.

[١٣] التفسير الميسر:١٠٥.

[١٤] معاني القرن:١٣٥/٢.

[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٦):ص١١٢٢/٤.

[١٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٧):ص١١٢٢/٤.

قال ابن عباس:" لم يكن من الأنبياء من له اسمين إلا عيسى ومحمد -ﷺ-"[١].

وقرأ جعفر بن محمد :« إنما المسيح»، بوزن: السكيت[٢].

قوله تعالى:{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} [النساء : ١٧١]، أي:" وخَلَقَه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، وهي قوله: «كن» ، فكان"[٣].

قال البغوي: "وهي قوله {كن} فكان بشرا من غير أب"[٤].

قال قتادة:" قال له: كن فكان"[٥].

قال شاذ بن يحيى:" ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى"[٦].

قال البغوي: " {ألقاها إلى مريم}، أي: أعلمها وأخبرها بها، كما يقال: ألقيت إليك كلمة حسنة"[٧].

قال الزمخشري:" وقيل لعيسى :{كلمة الله}، {وكلمة منه} لأنه وجد بكلمته وأمره لا غير، من غير واسطة أب ولا نطفة، ومعنى:{ألقاها إلى مريم}، أوصلها إليها وحصلها فيها"[٨].

قال أبو السعود:" {ألقاها إلى مريم}، أي: أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام وقيل أعلمها إياها وأخبرها بها بطريق البشارة"[٩].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ} [النساء : ١٧١]، ثلاثة أقوال:

أحدها : لأن الله كَلَّمَه حين قال له كن ، وهذا قول الحسن[١٠]، وقتادة[١١].

الثاني : لأنه بشارة الله التي بشر بها ، فصار بذلك كلمة الله[١٢].

والثالث : لأنه يهتدى به كما يُهْتَدَى بكلام الله[١٣].

قوله تعالى:{وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء : ١٧١]، أي:" وهو ذو روح مبتدأةٍ من الله، أثر نفخة من الله تعالى نفخها جبريل بأمر ربه"[١٤].

قال مجاهد:" رسول منه"[١٥].

قال الزمخشري:" وقيل له: روح الله، وروح منه، لأنه ذو روح وجد من غير جزء من ذى روح، كالنطفة المنفصلة من الأب الحى وإنما اخترع اختراعا من عند الله وقدرته خالصة"[١٦].

قال أبو السعود:" قيل هو الذي نفخ جبريل عليه السلام في درع مريم فحملت بإذن الله تعالى سمي النفخ روحا لأنه ريح تخرج من الروح"[١٧].

قال القرطبي:" قوله تعالى:{وَرُوحٌ مِنْهُ} ،هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال، فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلوا"[١٨].

وفي تفسير قوله تعالى:{وَرُوحٌ مِنْهُ} [النساء : ١٧١]، ثلاثة أوجه[١]:

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٨):ص١١٢٣/٤.
[٢] انظر: الكشاف:٥٩٣/١.
[٣] التفسير الميسر:١٠٥.
[٤] تفسير البغوي:٣١٤/٢.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٠٩):ص١١٢٣/٤.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣١٠):ص١١٢٣/٤.
[٧] تفسير البغوي:٣١٤/٢.
[٨] الكشاف:٥٩٣/١.
[٩] تفسير أبي السعود:٢٥٩/٢.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١.
[١١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٠٩):ص١١٢٣/٤.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١.
[١٤] انظر: التفسير الميسر:١٠٥، وصفوة التفاسير:٢٩٦.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣١١):ص١١٢٣/٤.
[١٦] الكشاف:٥٩٣/١.
[١٧] تفسير أبي السعود:٢٥٩/٢.
[١٨] تفسير القرطبي:٢٢/٦.

أحدها : سُمِّي بذلك لأنه رُوح من الأرواح ، وأضافه الله إلى نفسه تشريفاً له.
والثاني : أنه سُمِّي روحاً ؛ لأنه يحيا به الناس كما يُحْيَون بالأرواح .
والثالث : أنه سُمِّي بذلك لنفخ جبريل عليه السلام ، لأنه كان ينفخ فيه الروح بإذن الله ، والنفخ يُسَمَّى في اللغة روحاً ، فكان عن النفخ فسمي به.

يحكى :"أن طبيبا حاذقا نصرانيا للرشيد ناظر علي بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له إن في كتابكم ما يدل على إن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا هذه الآية، فقرأ الواقدي: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ} [الجاثية : ١٣]، فقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءا من الله تعالى علوا كبيرا، فانقطع النصراني فأسلم وفرح الرشيد فرحا شديدا"[٢].

قوله تعالى:{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [النساء : ١٧١]، أي:" فَصدِّقوا بأن الله واحد وأسلموا له، وصدِّقوا رسله فيما جاؤوكم به من عند الله واعملوا به"[٣].

قال المراغي:" أي: فآمنوا بالله إيمانا يليق به، وهو أنه واحد أحد تنزه عن صفات الحوادث، وأن كل ما فى الكون مخلوق له، وهو الخالق له، وأن الأرض فى مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها، وآمنوا برسله كلهم إيمانا يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم، وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه"[٤].

قوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ} [النساء : ١٧١]، أي:" ولا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، انتهوا عن هذه المقالة خيرًا لكم مما أنتم عليه"[٥].

قال المراغي:أي:" ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب والابن وروح القدس، انتهوا عنه وقولوا قولا آخر خيرا لكم منه، وهو قول جميع النبيين والمرسلين الذين جاءوا بتوحيد الله وتنزيهه "[٦].

قال القرطبي:" كأنه قال: ائتوا خيرا لكم، لأنه إذا نهاهم عن الشرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لهم"[٧].

ويحتمل قوله تعالى:{وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ} [النساء : ١٧١]، وجهين:
أحدهما : هو قول النصارى: أب وابن وروح القدس ، وهذا قول بعض البصريين[٨].
والثاني : هو قول من قال : آلهتنا ثلاثة ، وهو قول الزجاج[٩].

قوله تعالى:{إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [النساء : ١٧١]، أي:" إنما الله منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة"[١٠].

قال الزجاج:" أي: ما هو إلا إله واحد"[١١].

قال المراغي:أي:" منزه عن التعدد، فليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا هو مركب ولا متحد بشىء من المخلوقات"[١٢].

قوله تعالى:{سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ} [النساء : ١٧١]، أي:" تنزّه الله عن أن يكون له ولد"[١].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١، وتفسير البغوي:٣١٤/٢.
[٢] تفسير أبي السعود:٢٥٩/٢.
[٣] التفسير الميسر:١٠٥.
[٤] تفسير المراغي:٣٠/٦.
[٥] صوة التفاسير:٢٩٦، والتفسير الميسر:١٠٥.
[٦] تفسير المراغي:٣١/٦.
[٧] تفسير القرطبي:٢٥/٦.
[٨] انظر: النكت والعيون:٥٤٦/١-٥٤٧.
[٩] انظر: معاني القرآن:١٣٥/٢.
[١٠] صفوة التفاسير:٢٩٦.
[١١] معاني القرآن:١٣٥/٢.
[١٢] تفسير المراغي:٣١/٦.

قال الطبري:" يقول : علا الله وجل وعز وتعظمَّ وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة"[٢].

قال ابن كثير:" أي : تعالى وتقدس عن ذلك علوا كبيرا"[٣].

قال الزمخشري:أي:" سبحه تسبيحا من أن يكون له ولد"[٤].

قال النسفي:أي:" أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد"[٥].

قال القرطبي:" أي تنزيها عن أن يكون له ولد، أي كيف يكون له ولد؟ وولد الرجل مشبه له، ولا شبيه لله عز وجل"[٦].

قال المراغي:" أي: تقدس عن أن يكون له ولد كما قلتم فى المسيح إنه ابنه، أو إنه هو عينه، فإنه تبارك وتعالى ليس له مماثل فيكون له منه زوج يتزوجها فتلد له ولدا"[٧].

قال الفراء:" معنى «سبحانه»: تبرئته من أن يكون له ولد، وهذا قول أهل العربية"[٨].

روي عن ابن عباس قال:"سبحان الله، قال: تنزيه الله نفسه عن السوء، قال: ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إله إلا الله قد عرفناه فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال"[٩].

عن النضر بن عربي قال: "سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله، فقال: اسم يعظم الله به ويحاشا به من السوء"[١٠].

قال الحسن:" «سبحان الله»: اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه"[١١].

وقرأ الحسن: «إن يكون»، بكسر الهمزة ورفع النون: أى: سبحانه ما يكون له ولد[١٢].

قوله تعالى:{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [النساء : ١٧١]، أي وله ما في السماوات والارض" خلقاً وملكاً وعبيدا، فكيف يكون له منهم صاحبة اول ولد"[١٣].

قال الطبري:" لله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكًا وخلقًا ، وهو يرزقهم ويَقُوتهم ويدبِّرهم ، فكيف يكون المسيح ابنًا لله ، وهو في الأرض أو في السموات ، غيرُ خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن ؟"[١٤].

قال ابن كثير:" أي : الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيها عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة أو ولد ؟ كما قال في الآية الأخرى : { بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [الأنعام : ١٠١] ،وقال تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم : ٨٨ : ٩٥]"[١٥].

---

[١] صفوة التفاسير:٢٩٦.

[٢] تفسير الطبري:٤٢٣/٩.

[٣] تفسير ابن كثير:٤٧٩/٢.

[٤] الكشاف:٥٩٣/١.

[٥] تفسير النسفي:٤١٩/١.

[٦] تفسير القرطبي:٢٥/٦.

[٧] تفسير المراغي:٣١/٦.

[٨] معاني القرآن:١٣٥/٢.

[٩] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣١٤):ص١١٢٣/٤-١١٢٤.

[١٠] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣١٥):ص١١٢٤/٤.

[١١] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣١٦):ص١١٢٤/٤.

[١٢] انظر: الكشاف:٥٩٤/١.

[١٣] صفوة التفاسير:٢٩٦، والتفسير الميسر:١٠٥.

[١٤] تفسير الطبري:٤٢٤/٩.

[١٥] تفسير ابن كثير:٤٨٠/٢.

قال الزمخشري:" بيان لتنزهه عما نسب إليه، يعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزأ منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض"[1].

قال أبو حيان:" إخبار لملكه بجميع من فيهن، فيستغرق ملكه عيسى وغيره. ومن كان ملكا لا يكون جزءا من المالك على أن الجزئية لا تصح إلا في الجسم، والله تعالى منزه عن الجسم والعرض"[2].

قوله تعالى:{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء : ١٧١]، أي:" وكفى بالله وكيلا على تدبير خلقه وتصريف معاشهم، فتوكَّلوا عليه وحده فهو كافيكم"[3].

قال القرطبي:" أي: لأوليائه"[4].

قال الزمخشري:أي:" يكل إليه الخلق كلهم أمورهم، فهو الغنى عنهم وهم الفقراء إليه"[5].

قال أبو حيان:" أي كافيا في تدبير مخلوقاته وحفظها، فلا حاجة إلى صاحبة ولا ولد ولا معين"[6].

قال النسفي:أي:" حافظاً ومدبراً لهما ولما فيهما ومن عجز عن كفاية أمر يحتاج إلى ولد يعينه"[7].

قال المراغي:" أي: كفى به حافظا ووكيلا إذا وكلوا أمورهم إليه، فهو غنى عن الولد، فإن الولد إنما يحتاج إليه أبوه ليعينه فى حياته، ويقوم مقامه بعد وفاته، والله تعالى منزه عن كل ذلك"[8].

قال البيضاوي:" تنبيه على غناه عن الولد فإن الحاجة إليه ليكون وكيلا لأبيه والله سبحانه وتعالى قائم بحفظ الأشياء كاف في ذلك مستغن عمن يخلقه أو يعينه"[9].

الفوائد:

١- حرمة الغلو في الدين إذ هي من الأسباب الموجبة للابتداع والضلال.

٢-تضمنت الآية إثبات الوحدانية لله تعالى.

٣-حرمة القول على الله تعالى بدون علم مطلقاً والقول عليه بغير الحق بصورة خاصة.

٤- نفي الولد لله سبحانه وتعالى.

٥-بيان المعتقد الحق في عيسى -عليه السلام-، وأنه عبد الله ورسوله كان بكلمة الله ونفخة جبريل-عليه السلام-.

٦-إثبات الصفات ما تضمنه قوله {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} فإنه يقتضي الحياة والقدرة والعلم والإرادة، فاقتضت الآية أيضا إثبات الكلام فإن هذا من القرآن وهو كلام الله، أما القدرة فخلقه السماوات والأرض وتخصيص أحدهما بصفة دون الأخرى دليل على الإرادة وكون فاعلها عالما[10].

٧-إثبات اسمه تعالى«الوكيل»، فهو سبحانه المتولّي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته، الذي تولى أولياءه، فيسَّرهم لليُسرى، وجنّبهم العُسرى، وكفاهم الأمور، فمن اتخذه وكيلاً

---

[1] الكشاف:٥٩٤/١.

[2] البحر المحيط في التفسير:١٤٥/٤.

[3] التفسير الميسر:١٠٥.

[4] تفسير القرطبي:٢٥/٦.

[5] الكشاف:٥٩٤/١.

[6] البحر المحيط في التفسير:١٤٥/٤.

[7] تفسير النسفي:٤١٩/١.

[8] تفسير المراغي:٣٢/٦.

[9] تفسير البيضاوي:١١١/٢.

[10] انظر: تفسير ابن عرفة:٧٥/٢.

كفاه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ}[البقرة:٢٥٧]، وقال: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الزمر : ٦٢][١].

قال الفراء:" وقوله: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} [الإسراء : ٢] ،يقال: ربا، ويقال: كافيا"[٢]، .. وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا} [الإسراء : ٥٤] ،يقول: حافظا وربا"[٣]... وقوله عز وجل: { فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [المزمل : ٩] ، كفيلا بما وعدك"[٤].

قال الخطابي:" ويقال معناه: أنه الكفيل بأرزاق العباد، والقائم عليهم بمصالحهم، وحقيقته أنه الذي يستقل بالأمر الموكول إليه ومن هذا قول المسلمين: {حسبنا الله ونعم الوكيل} [آل عمران:١٧٣] أي: نعم الكفيل بأمورنا والقائم بها"[٥].

القرآن

{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)} [النساء : ١٧٢]

التفسير:

لن يَأْنف ولن يمتنع المسيح أن يكون عبدًا لله، وكذلك لن يأنَفَ الملائكة المُقَرَّبون من الإقرار بالعبودية لله تعالى. ومن يأنف عن الانقياد والخضوع ويستكبر فسيحشرهم كلهم إليه يوم القيامة، ويفصلُ بينهم بحكمه العادل، ويجازي كلا بما يستحق.

سبب النزول:

نقل الواحدي عن الكلبي: "إن وفد نجران قالوا: يا محمد تعيب صاحبنا؟ قال: «ومن صاحبكم؟ » قالوا: عيسى، قال:«وأي شيء أقول فيه؟» قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله، فقال لهم:«إنه ليس بعار لعيسى أن يكون عبد الله»، قالوا: بلى، فنزلت: {لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله} الآية"[٦].

قوله تعالى:{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ} [النساء : ١٧٢]، أي:" لن يَأْنف ولن يمتنع المسيح أن يكون عبدًا لله"[٧].

قال ابن قتيبة:" أي: لن يأنف"[٨].

قال الزجاج:" أي: ليس يستنكف الذي تزعمون أنه إله أن يكون عبدا لله، فتأويل {لن يستنكف}: لن ينقبض "[٩].

قال الطبري:أي:" لن يأنف ولن يستكبر المسيح من أن يكون عبدًا لله"[١٠].

قال قتادة:" لن يحتشم المسيح أن يكون عبدًا الله"[١١].

وقال الكلبي: "{لن يستنكف}: لن يتعظم"[١٢].

وقال مقاتل: "لن يأنف"[١٣].

وقال ابن عباس:" لن يستكبر"[١٤]. وروي عن عطاء الخراساني نحو ذلك[١٥].

---

[١] انظر: شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:١٧٦.
[٢] معاني القرآن:١١٦/٢.
[٣] معاني القرآن:١٢٥/٢.
[٤] معاني القرآن:١٩٨/٣.
[٥] شأن الدعاء:٧٧/١.
[٦] اسباب النزول:١٨٧.
[٧] التفسير الميسر:١٠٥.
[٨] غريب القرآن:١٣٧.
[٩] معاني القرآن:١٣٥/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٤٢٤/٩.
[١١] أخرجه الطبري(١٠٨٥٦):ص٤٢٤/٩.
[١٢]انظر: "بحر العلوم" ١/ ٤٥٨، ولم أقف عليه عن الكلبي.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣١٧):ص١١٢٤/٤.
[١٥] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣١٧):ص١١٢٤/٤.

ومعنى «يستنكف»: أي: لن يأنف، وأصله في اللغة من «نكفت الدمع»، إذا نحيته بإصبعك من خدك، قال الشاعر[(١)]:

فبانوا فلولا ما تذكر منهم   من الخلف لم ينكف لعينيك مدمع[(٢)]

قوله تعالى:{وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ} [النساء : ١٧٢]، أي:" وكذلك لن يأنَفَ الملائكة المُقَرَّبون من الإقرار بالعبودية لله تعالى"[(٣)].

قال الطبري:أي:" ولن يستنكف أيضًا من الإقرار لله بالعبودة والإذعان له بذلك، رسلُه {المقربون}، الذين قرَّبهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه"[(٤)].

قال مقاتل:" ولايستنكف ملائكة المقربون أن يكونوا عبيدا لله ليعتبروا بكون الملائكة أقرب إلى- الله عز وجل- منزلة من عيسى ابن مريم وغيره، فإن عيسى عبد من عباده"[(٥)].

عن الأجلح قال: "قلت للضحاك: ما {المقربون}؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية"[(٦)].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ} [النساء : ١٧٢]، أي:" ومن يأنف عن الانقياد والخضوع لله تعالى"[(٧)].

قال الطبري:أي:" ومن يتعظّم عن عبادة ربه، ويأنفْ من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك"[(٨)].

قال مقاتل:" يعني: ومن يأنف عن عبادة الله، يعني: التوحيد، {ويستكبر}، يعنى: ويتكبر عن العبادة"[(٩)].

قال السمرقندي:" أي يتعظم ن عبادته ويستكبر، والاستكبار هو الاستنكاف، يقال: استنكف واستكبر يعني استكبر عن طاعته"[(١٠)].

قال السمعاني:" الفرق بين الاستنكاف والاستكبار: أن الاستنكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو الغلو، والتكبر من غير أنفة"[(١١)].

قوله تعالى:{فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} [النساء : ١٧٢]، أي:" فسيحشرهم كلهم إليه يوم القيامة، ويفصلُ بينهم بحكمه العادل، ويجازي كلا بما يستحق"[(١٢)].

قال الطبري:" يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعًا، فيجمعهم لموعدهم عنده"[(١٣)].

قال النسفي:أي:" فيجازيهم على استنكافهم واستكبارهم"[(١٤)].

عن الضحاك ، في قوله: "{جميعا} [البقرة: ٢٩] قال: البر والفاجر"[(١٥)].

قال ابن عطية:" أخبر تعالى عمن يستنكف أي يأنف عن عبادة الله ويستكبر، بأنه سيناله الحشر يوم القيامة والرد إلى الله، وقوله {سيحشرهم}، عبارة وعيد"[(١٦)].

قرأ جمهور الناس:«فسيحشرهم» بالياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن:«فسنحشرهم» بنون الجماعة، وقرأ مسلمة: «فسيحشرهم»[(١)].

---

(١) البيت في "تهذيب اللغة" ٤/ ٣٦٦٤، و"اللسان" ٩/ ٣٤٠ (نكف)، ومعاني القرآن للزجاج:١٣٥/٢، دون نسبة، ولم أقف على قائله.
(٢) انظر:تهذيب اللغة:٤/ ٣٦٦٤، واللسان:مادة"نكف":ص ٩/ ٣٤٠، ومعاني القرآن للزجاج:١٣٥/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٠٥.
(٤) تفسير الطبري:٤٢٥/٩.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.
(٦) أخرجه الطبري(١٠٨٥٧):ص٤٢٥/٩.
(٧) التفسير الميسر:١٠٥.[بتصرف].
(٨) تفسير الطبري:٤٢٥/٩.
(٩) أخرجه الطبري(١٠٨٥٧):ص٤٢٥/٩.
(١٠) بحر العلوم:٣٦١/١.
(١١) تفسير السمعاني:٥٠٧/١.
(١٢) التفسير الميسر:١٠٥.
(١٣) تفسير الطبري:٤٢٥/٩.
(١٤) تفسير النسفي:٤٢٠/١.
(١٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣١٩):ص١١٢٤/٤.
(١٦) المحرر الوجيز:١٤٠/٢.

الفوائد:

١-حرمة الاستنكاف عن الحق والاستكبار عن قبوله.

٢- ومن هذه الآية يفهم أن الملائكة أعظم من المسيح خلقا وأفعالا، ومنهم روح القدس الذي بنفخة منه خلق المسيح، ومن ثم استدل بها كثير من العلماء على تفضيل الملائكة المقربين على الأنبياء(٢).

القرآن

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)} [النساء : ١٧٣]

التفسير:

فأمَّا الذين صَدَّقوا بالله اعتقادًا وقولا وعملا واستقاموا على شريعته فيوفيهم ثواب أعمالهم، ويزيدُهم من فضله، وأما الذين امتنعوا عن طاعة الله، واستكبروا عن التذلل له فيعذبهم عذابًا موجعًا، ولا يجدون لهم وليًّا ينجيهم من عذابه، ولا ناصرًا ينصرهم من دون الله.

قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [النساء : ١٧٣]، أي:" فأمَّا الذين صَدَّقوا بالله اعتقادًا وقولا وعملا واستقاموا على شريعته"(٣).

قال الطبري:" فأما المؤمنون المقرّون بوحدانية الله ، الخاضعون له بالطاعة ، المتذلِّلون له بالعبودية ، والعاملون الصالحات من الأعمال ، وذلك : أن يَرِدُوا على ربهم قد آمنوا به وبرسله ، وعملوا بما أتاهم به رسله من عند ربهم ، من فعل ما أمرهم به ، واجتناب ما أمرهم باجتنابه"(٤).

قوله تعالى:{فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ} [النساء : ١٧٣]، أي:" فيوفيهم ثواب أعمالهم"(٥).

قال الطبري:" يقول : فيؤتيهم جزاءَ أعمالهم الصالحة وافيًا تامًّا"(٦).

قال ابن الجوزي:" أي: ثواب أعمالهم"(٧).

قال الأعمش:" {أجورهم}، أن يدخلهم الجنة"(٨).

قوله تعالى:{وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ} [النساء : ١٧٣]، أي:" ويزيدُهم من فضله وإحسانه وسعة رحمته"(٩).

قال ابن الجوزي:أي: "مضاعفة الحسنات"(١٠).

قال الثعلبي:" في التضعيف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر"(١١).

قال الطبري:أي:" ويزيدهم على ما وعدهم من الجزاء على أعمالهم الصالحة والثواب عليها ، من الفضل والزيادة ما لم يعرّفهم مبلغه ، ولم يحدّ لهم منتهاه. وذلك أن الله وعد من جاء من عباده المؤمنين بالحسنة الواحدة عشرَ أمثالها من الثواب والجزاء. فذلك هو أجر كلِّ عامل على عمله الصالح من أهل الإيمان المحدود مبلغه ، والزيادة على ذلك تفضُّل من الله عليهم ، وإن كان كل ذلك من فضله على عباده. غيرَ أن الذي وعد عبادَه المؤمنين أن يُوفيهم فلا

---

(١) انظر: المحرر الوجيز:١٤٠/٢.
(٢) انظر: تفسير المراغي:٣٤/٦.
(٣) التفسير الميسر:١٠٥.
(٤) تفسير الطبري:٤٢٦/٩.
(٥) التفسير الميسر:١٠٥.
(٦) تفسير الطبري:٤٢٦/٩.
(٧) زاد المسير:٥٠٢/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٠):ص١١٢٤/٤.
(٩) انظر: أيسر التفاسير:٦٦٦، والتفسير الميسر:١٠٥.
(١٠) زاد المسير:٥٠٢/١.
(١١) تفسير الثعلبي:٤٢٠/٣.

ينقصهم من الثواب على أعمالهم الصالحة ، هو ما حَدُّ مبلغه من العَشْر ، والزيادة على ذلك غير محدود مبلغها ، فيزيد من شاء من خلقه على ذلك قدر ما يشاء ، لا حدّ لقَدْره يوقف عليه"[١].

عن الأعمش:" قوله: {ويزيدهم من فضله}، قال: الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا"[٢].

وروى ابن مسعود عن النبي -ﷺ -في قوله تعالى: {فيوفيهم أجورهم}، قال: "يدخلون الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا"[٣].

قوله تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا} [النساء : ١٧٣]، أي:" وأما الذين امتنعوا عن طاعة الله"[٤].

قال مقاتل:" يعنى: أنفوا"[٥].

قال الطبري:أي:" وأما الذين تعظَّموا عن الإقرار لله بالعبودة، والإذعان له بالطاعة"[٦].
بالطاعة"[٦].

قال ابن كثير:" أي : امتنعوا من طاعة الله وعبادته"[٧].

قوله تعالى:{وَاسْتَكْبَرُوا} [النساء : ١٧٣]، أي:" واستكبروا عن التذلل لله "[٨].

قال مقاتل:" واستكبروا عن عبادة الله بالتوحيد"[٩].

قال الطبري:أي:" واستكبروا عن التذلّل لألوهته وعبادته، وتسليم الربوبيّة والوحدانية له"[١٠].

قال ابن كثير: أي : "واستكبروا عن طاعة الله وعبادته"[١١].

قال الماتريدي:" والاستنكاف والاستكبار واحد في الحقيقة، وقال الكساني: وإنما جمع بينهما؛ لاختلاف اللفظين، وهذا من حسن كلام العرب: كقول العرب: كيف حالك؟ وبالك؟ والحال والبال واحد، ومثله في القرآن والشعر كثير، لكن الاستنكاف -والأنفة- لا يضاف إلى الله تعالى، والاستكبار يضاف، فهما من هذا المعنى مختلفان، وأما في الحقيقة فهما واحد"[١٢].

قوله تعالى:{فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء : ١٧٣]، أي:" فيعذبهم عذابًا موجعًا"[١٣].

قال مقاتل:" يعني: وجيعا"[١٤].

قوله تعالى:{وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء : ١٧٣]، أي:" ولا يجدون لهم وليًّا ينجيهم من عذابه، ولا ناصرًا ينصرهم من دون الله"[١٥].

قال مقاتل:" {وليا}: يعني قريبا ينفعهم، {ولا نصيرا}، يعني: مانعا يمنعهم من الله- عز وجل- "[١].

---

[١] تفسير الطبري:٤٢٦/٩.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢١):ص١١٢٥/٤.
[٣]ضعيف. أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» ٨٤٦ والطبراني ١٠٤٦٢ من حديث ابن مسعود، وفيه إسماعيل بن عبد الله الكندي، وهو ضعيف وقال الذهبي في «الميزان» أتى بخبر منكر. وقال ابن كثير في «تفسيره» ١/ ٦٠٥: لا يثبت. وصوب الوقف فيه. والمرفوع ضعفه أيضا السيوطي في «الدر» ٢/ ٤٤٠ ووافقه الشوكاني وهو كما قالوا. وانظر «تفسير الشوكاني» ٧٣٥ بتخريجنا.
[٤] التفسير الميسر:١٠٥.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.
[٦] تفسير الطبري:٤٢٧/٩.
[٧] تفسير ابن كثير:٤٨١/٢.
[٨] التفسير الميسر:١٠٥.
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.
[١٠] تفسير الطبري:٤٢٧/٩.
[١١] تفسير ابن كثير:٤٨١/٢.
[١٢] تفسير الماتريدي:٤٣٠/٣.
[١٣] التفسير الميسر:١٠٥.
[١٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٥.

قال السمرقندي:" يعني من عذاب الله {وليا} يعينهم، {ولا نصيرا}، مانعا يمنعهم"[٢].

قال الطبري:" يقول: ولا يجد المستنكفون من عبادته والمستكبرون عنها، إذا عذبهم الله الأليم من عذابه، سوى الله لأنفسهم وليًّا ينجيهم من عذابه وينقذهم منه، {ولا نصيرًا}، يعني: ولا ناصرًا ينصرهم فيستنقذهم من ربهم، ويدفع عنهم بقوّته ما أحلَّ بهم من نقمته، كالذي كانوا يفعلون بهم إذا أرادهم غيرهم من أهل الدنيا في الدنيا بسوء، من نصرتهم والمدافعة عنهم"[٣].

عن ابن عباس ، قوله: {ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا} [النساء: ١٧٣] إلا أن يتوب قبل موته فيتوب الله عليه"[٤].

قال ابو حيان:" هذا وعيد شديد للذين يتركون عبادة الله أنفة تكبرا"[٥].

قال ابن عطية في هذه الآية:" هذا وعيد للمستنكفين الذين يدعون عبادة الله أنفة وتكبرا، وهذا الاستنكاف إنما يكون من الكفار عن اتباع الأنبياء وما جرى مجراه، كفعل حيي بن أخطب وأخيه أبي ياسر بمحمد عليه السلام، وكفعل أبي جهل وغيره، وإلا فإذا فرضت أحدا من البشر عرف الله تعالى، فمحال أن تجده يكفر به تكبرا عليه، والعناد المجوز إنما يسوق إليه الاستكبار عن البشر، ومع تقارب المنازل في ظن المتكبر"[٦].

الفوائد:

١- بيان الجزاء الأخروي وهو إما نعيم وإما جحيم.

٢- إثبات اسمين من أسماءه تعالى، وهما: «الولي»: و"هو الناصر. ينصر عباده المؤمنين"[٧].

يوصف الله عز وجل بأنه ولي الذين آمنوا ومولاهم، و«الولي» و«المولى»: اسمان لله تعالى، قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} [البقرة: ٢٥٧] : "نصيرهم وظهيرهم؛ يتولاهم بعونه وتوفيقه"[٨].

جاء في الحديث:"اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها"[٩].

ويوصف الله عز وجل بأنه «الناصر» و«النصير»، والله - عز وجل - هو النصير الذي ينصر عباده المؤمنين ويعينهم.

و«النصير»: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول؛ لأن كل واحد من المتناصرين ناصرٌ ومنصورٌ وقد نصره ينصره نصراً، إذا أعانه على عدوه وشدّ منه[١٠]، والله - عز وجل - النصير، ونصره ليس كنصر المخلوق: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[الشورى:١١][١١].

القرآن

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤)} [النساء : ١٧٤]

التفسير:

يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم، وهو رسولنا محمد، وما جاء به من البينات والحجج القاطعة، وأعظمها القرآن الكريم، مما يشهد بصدق نبوته ورسالته الخاتمة، وأنزلنا إليكم القرآن هدًى ونورًا مبينًا.

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٥/١.

[٢] بحر العلوم:٣٦١/١.

[٣] تفسير الطبري:٤٢٧/٩.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٢):ص١١٢٥/٤.

[٥] البحر المحيط:١٤٨/٤.

[٦] المحرر الوجيز:١٤٠/٢-١٤١.

[٧] شأن الدعاء للخطابي:٧٨/١.

[٨] تفسير الطبري:٤٢٤/٥.

[٩] رواه مسلم (٢٧٢٢).

[١٠] انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٥/ ٦٤..

[١١] الأسماء والصفات للبيهقي، بتحقيق الشيخ عماد الدين أحمد، ١/ ١٢٧ - ١٢٨.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ} [النساء : ١٧٤]، أي:" يا أيها الناس قد أتاكم حجة من ربكم، وهو رسولنا محمد رسول الله المؤيد بالمعجزات الباهرة"[١].

قال السمرقندي:" أي: بيانا من ربكم وحجة من ربكم، وهو محمد ﷺ والقرآن"[٢].

عن مجاهد ، قوله: "{برهان من ربكم} قال: حجة"[٣]. وروي عن السدي مثل ذلك[٤].

وعن قال سفيان في قوله: "{قد جاءكم برهان من ربكم} [النساء: ١٧٤] قال: النبي - ﷺ-"[٥].

وقال قتادة:" بينة من ربكم[٦].

قال الراغب:" عنى بالـ{برهان}: الآيات القاهرة المبنية عن المعجزات"[٧].

قال الزمخشري:" البرهان: القرآن. أو أراد بالبرهان دين الحق أو رسول الله صلى الله عليه وسلم "[٨].

قال ابن عطية:" الآية إشارة إلى محمد رسول الله، و «البرهان» : الحجة النيرة الواضحة التي تعطي اليقين التام، والمعنى: قد جاءكم مقترنا بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه وفساد ما أنتم عليه من النحل"[٩].

قوله تعالى:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء : ١٧٤]، أي:" وأنزلنا إليكم القرآن هدًى ونورًا مبينًا"[١٠].

قال السمرقندي:" أي: بيانا من العمى وبيان الحلال من الحرام، وهو القرآن"[١١].

قال قتادة:" وهو هذا القرآن"[١٢]. وروي عن ابن جريج نحو ذلك[١٣].

قال الراغب:" عنى بالـ{نور}: القرآن، لأنه به يعرف الطريق إلى الله"[١٤].

قال ابن الجوزي:" وإنما سماه: نورا، لأن الأحكام تبين به بيان الأشياء بالنور"[١٥].

الفوائد:

١- أن الدعوة الإسلامية دعوة عامة فهي للأبيض والأصفر على حد سواء.

٢- إطلاق لفظ البرهان على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه بأميته وكماله الذي لا مطمع لبشري أن يساميه فيه برهان على وجود الله وعلمه ورحمته.

القرآن

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (١٧٥)} [النساء : ١٧٥]

التفسير:

فأمَّا الذين صدَّقوا بالله اعتقادًا وقولا وعملا واستمسكوا بالنور الذي أُنزل إليهم، فسيدخلهم الجنة رحمة منه وفضلا ويوفقهم إلى سلوك الطريق المستقيم المفضي إلى روضات الجنات.

---

[١] صفوة التفاسير:٢٩٦، التفسير الميسر:١٠٥.
[٢] بحر العلوم:٣٦٢/١.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٣):ص١١٢٥/٤.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٦١):ص٩،٤٢٨، وتفسير ابن أبي حاتم(٦٣٢٣):ص١١٢٥/٤.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٤):ص١١٢٥/٤.
[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٥):ص١١٢٥/٤.
[٧] تفسير الراغب الأصفهاني:٢٤٣/٤.
[٨] الكشاف:٥٩٨/١.
[٩] المحرر الوجيز:١٤١/٢.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٥.
[١١] بحر العلوم:٣٦٢/١.
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٦):ص١١٢٥/٤.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٦٢):ص٤٢٨/٩.
[١٤] تفسير الراغب الأصفهاني:٢٤٣/٤.
[١٥] زاد المسير:٥٠٣/١.

قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ} [النساء : ١٧٥]، أي:" فأمَّا الذين صدَّقوا بالله اعتقادًا وقولا وعملا"[١].

قال السمرقندي:" أي: صدقوا بوحدانية الله تعالى"[٢].

قال الطبري:أي:" فأما الذين صدَّقوا الله وأقرّوا بوحدانيته ، وما بعث به محمدًا ﷺ من أهل الملل"[٣].

قوله تعالى:{وَاعْتَصَمُوا بِهِ} [النساء : ١٧٥]، أي:" واستمسكوا بالنور الذي أُنزل إليهم"[٤].

قال مقاتل:" يعني احترزوا بالله- عز وجل-"[٥].

قال الماتريدي:" جعل الاعتصام به ما به ينال رحمته وفضله. و«الاعتصام»: هو أن يلتجأ إليه في كل الأمور، وبه يوكل، لا يلتجأ بمن دونه"[٦].

قال الطبري:" يقول : وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله إلى نبيه"[٧].

قال السمرقندي:" أي: تمسكوا بدينه"[٨].

ويحتمل قوله تعالى:{وَاعْتَصَمُوا بِهِ} [النساء : ١٧٥]، وجهين:

أحدهما : اعتصموا بالقرآن ، وهذا قول ابن جريج[٩]، واختيار النحاس[١٠].

قال النحاس:" أي: امتنعوا بكتابه عن معاصيه وإذا اعتصموا بكتابه فقد اعتصموا به"[١١].

والثاني : اعتصموا بالله من زيغ الشيطان وهوى الإنسان. وهذا معنى قول مقاتل[١٢]، واختيار البغوي[١٣].

قال ابن عطية:" ثم وعد تبارك وتعالى المؤمنين بالله، المعتصمين به، والضمير في به يحتمل أن يعود على الله تعالى، ويحتمل أن يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالى: نورا مبينا و «الاعتصام» به التمسك بسببه وطلب النجاة والمنعة به، فهو يعصم كما تعصم المعاقل"[١٤].

وهذا قد فسره قول النبي ﷺ: «كتاب الله: هو حبل الله المتين»[١٥].

قال قتادة:"حبل الله المتين الذي أمر أن يُعتصم به: هذا القرآن"[١٦].

قوله تعالى:{فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ} [النساء : ١٧٥]، أي:" فسيدخلهم الجنة رحمة منه وفضلا"[١٧].

قال الزمخشري:أي:"في ثواب مستحق وتفضل"[١٨].

قال ابن عطية:" «الرحمة» و «الفضل» : الجنة وتنعيمها"[١].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٥.
[٢] بحر العلوم:٣٦٢/١.
[٣] تفسير الطبري:٤٢٩/٩.
[٤] التفسير الميسر:١٠٥.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٦/١.
[٦] تفسير الماتريدي:٤٣١/٣.
[٧] تفسير الطبري:٤٢٩/٩.
[٨] بحر العلوم:٣٦٢/١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٦٣):ص٤٢٩/٩.
[١٠] انظر: إعراب القرآن:٢٥٤/١.
[١١]إعراب القرآن:٢٥٤/١.
[١٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٦/١، والنكت والعيون:٥٤٧/١.
[١٣] انظر: تفسير البغوي:٣١٦/٢.
[١٤] المحرر الوجيز:١٤١/٢.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٣٩١٤):ص٧٢٣/٣.
[١٦] أخرجه الطبري(٧٥٦٤):٧١/٧.
[١٧] التفسير الميسر:١٠٥.
[١٨] الكشاف:٥٩٨/١.

قال الطبري:أي:" فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه ، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحَقهم من فضله ما لَحِق أهل الإيمان به والتصديق برسله"[٢].

وفي تفسير «الرحمة» في الآية، قولان:

أحدهما: أنها الجنة، قاله ابن عباس[٣]، ومقاتل[٤].

والثاني: أنها نفس الرحمة، والمعنى: سيرحمهم، قاله أبو سليمان[٥].

وفي تفسير «الفضل» في الآية، قولان:

أحدهما: أنه الرزق في الجنة، قاله مقاتل[٦].

والثاني: أنه الإحسان، قاله أبو سليمان[٧].

قوله تعالى:{وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء : ١٧٥]، أي:" ويوفقهم إلى سلوك الطريق المستقيم المفضي إلى روضات الجنات"[٨].

قال الواحدي:أي:" ديناً مستقيماً"[٩].

قال ابن الجوزي:" أي: يوفقهم لإصابة الطريق المستقيم"[١٠].

قال الطبري:" يقول:ويوفقهم لإصابة فضله الذي تفضل به على أوليائه ، ويسدِّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته ، ولاقتفاء آثارهم واتباع دينهم. وذلك هو «الصراط المستقيم»، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده ، وهو الإسلام"[١١].

قال الزمخشري:" {ويهديهم إليه}، إلى عبادته، {صراطا مستقيما}، وهو طريق الإسلام. والمعنى: توفيقهم وتثبيتهم."[١٢].

قال ابن عطية:" معناه: إلى الفضل، وهذه هداية طريق الجنان، كما قال تعالى: {سيهديهم ويصلح بالهم} [محمد: ٥]، لأن هداية الإرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله واعتصموا بكتابه"[١٣].

قال النحاس:" {ويهديهم إليه}، أي: إلى ثوابه"[١٤].

قال علي-رضي الله عنه:" سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: «الصراط المستقيم كتاب الله»"[١٥].

وفي تفسير «الهداية» في قوله تعالى:{وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء : ١٧٥]، وجهان:

أحدهما : أن يعطيهم في الدنيا ما يؤديهم إلى نعيم الآخرة ، وهذا قول الحسن[١٦].

والثاني : هو الأخذ بهم في الآخرة إلى طريق الجنة ، وهو قول بعض المفسرين البصريين[١٧].

---

[١] المحرر الوجيز:١٤١/٢.
[٢] تفسير الطبري:٤٢٩/٩.
[٣] انظر: زاد المسير:٥٠٣/١.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٦/١.
[٥] انظر: زاد المسير:٥٠٣/١.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٢٦/١.
[٧] .
[٨] التفسير الميسر:١٠٥.
[٩] الوجيز:٣٠٤.
[١٠] زاد المسير:٥٠٣/١.
[١١] تفسير الطبري:٤٢٩/٩.
[١٢] الكشاف:٥٩٨/١.
[١٣] المحرر الوجيز:١٤١/٢.
[١٤]إعراب القرآن:٢٥٤/١.
[١٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٢٧):ص١١٢٥/٤.
[١٦] انظر: النكت والعيون:٥٤٨/١.
[١٧] انظر: النكت والعيون:٥٤٨/١.

قال السمرقندي:" أي يرشدهم إلى دينه، ويوفقهم لذلك. وفي الآية تقديم وتأخير فكأنه يقول: يهديهم في الدنيا صراطا مستقيما أي دينا لا عوج فيه، ويثيبهم على ذلك ويدخلهم في الآخرة في رحمة منه وفضل وهو الجنة والكرامة"[١].

الفوائد:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.
٢-القرآن نور لما يحصل به من الإهتداء إلى سبيل النجاة وطرق السعادة والكمال.
٣-ثمن السعادة ودخول الجنة الإيمان بالله ورسوله ولقائه والعمل الصالح وهو التمسك بالكتاب والسنة المعبر عنه بالاعتصام.

القرآن

{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)} [النساء : ١٧٦]

التفسير:

يسألونك -أيها الرسول- عن حكم ميراث الكلالة، وهو من مات وليس له ولدٌ ولا والد، قل: الله يُبيّن لكم الحكم فيها: إن مات امرؤ ليس له ولد ولا والد، وله أخت لأبيه وأمه، أو لأبيه فقط، فلها نصف تركته، ويرث أخوها شقيقًا كان أو لأب جميع مالها إذا ماتت وليس لها ولد ولا والد. فإن كان لمن مات كلالةً أختان فلهما الثلثان مما ترك. وإذا اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث فللذكر مثل نصيب الأنثيين من أخواته. يُبيِّن الله لكم قسمة المواريث وحكم الكلالة، لئلا تضلوا عن الحقِّ في أمر المواريث. والله عالم بعواقب الأمور، وما فيها من الخير لعباده.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أنها نزلت في جابر بن عبد الله.

أخرج البخاري[٢]، وأحمد[٣]، ومسلم[٤]، وأبو داود[٥]، والترمذي[٦]، والنَّسَائِي[٧]، وابن وابن ماجه[٨]، وغيرهم[٩]، عن جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: " مرضت، فعادني رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وهما يمشيان، فأغمي علي، فدعا رسول الله ﷺ بماء فتوضأ، ثم صبه علي فأفقت، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي، كيف أصنع في مالي؟ فسكت رسول الله ﷺ، حتى نزلت آية الميراث".[صحيح].

والثاني: وقال قتادة:"{يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة}، فسألوا عنها نبيَّ الله ، فأنزل الله في ذلك القرآن :{إن امرؤ هلك ليس له ولد}، فقرأ حتى بلغ :{والله بكل شيء عليم}"[١٠].[مرسل صحيح الإسناد].

والثالث: وقال سعيد بن المسيب:"سأل عمر بن الخطاب النبيَّ ﷺ عن الكلالة ، فقال : أليس قد بيَّن الله ذلك ؟ قال : فنزلت:{يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة}"[١].[ضعيف].

---

[١] بحر العلوم:٣٦٢/١.
[٢] صحيح البخاري(١٩٤)، و(٤٥٧٧)، و(٥٦٥١)، و(٥٦٧٦)، و(٦٧٢٣)، و(٦٧٤٣)، و(٧٣٠٩)، وفي الادب المفرد:(٥١١) باب عيادة المغمى عليه.
[٣] المسند(١٤٢٣٥):ص٢٩٨/٣، و(١٤٣٤٩):ص٣٠٧/٣.
[٤] صحيح المسلم(١٦١٦):ص١٢٣٤/٣-١٢٣٥. باب ميراث الكلالة.
[٥] سنن أبي داود(٢٨٨٦).
[٦] سنن الترمذي(٢٠٩٦)، و(٢٠٩٧)، و(٣٠١٥).
[٧] سنن النسائي:٨٧/١، والسنن الكبرى(٧١)، و(٦٢٨٧)، و(٦٢٨٨)، و(٦٢٨٩)، و(٧٤٥٦)، و(٧٤٧٠)، و(١١٠٢٥). و(١١٠٢٥).
[٨] سنن ابن ماجة(١٤٣٦)، و(٢٧٢٨).
[٩] أخرجه أيضا الحميدي في مسنده(١٢٦٤):ص٣٢٢/٢، والدارمي(٧٣٣)، وابن خزيمة(١٠٦).
[١٠] أخرجه الطبري(١٠٨٦٥):٤٣١/٩.

والراجح- والله أعلم- أن سبب نزول الآية قصة جابر، وذلك لصحة سندها، وصراحة لفظها، وموافقتها للفظ الآية، وقواعد الفرائض، واتفاق أكثر المفسرين على ذلك[٢].

واختلف في مكان الذي نزلت فيه هذه الآية على قولين:

أحدها: أنها نزلت في المدينة. وهذا قول جابر بن عبدالله[٣].

والثاني:أنها أنزلت في مسيرٍ كان فيه رسول الله -ﷺ- وأصحابه. وهذا قول ابن سيرين[٤].

قال ابن سيرين:" نزلت : {يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة}، والنبيّ في مسير له ، وإلى جنبه حذيفة بن اليمان ، فبلَّغها النبي ﷺ حُذيفة ، وبلّغها حذيفة عمر بن الخطاب وهو يسير خلفه. فلما استُخلف عمر سأل عنها حذيفة ، ورجا أن يكون عنده تفسيرها ، فقال له حذيفة:والله إنك لعاجز إن ظننت أن إمارتك تحملني أن أحدِّثك فيها بما لم أحدِّثك يومئذ! فقال عمر:لم أرِد هذا، رحمك الله!"[٥].

وفي رواية اخرى:"فقال : والله إنك لأحمق إن كنت ظننت أنه لقّانيها رسول الله فلقَّيْتُكها كما لقَّانيها، والله لا أزيدك عليها شيئًا أبدًا! قال : وكان عمر يقول : اللهم مَن كنتَ بيّنتها له، فإنها لم تُبَيَّن لي"[٦].

قوله تعالى:{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} [النساء : ١٧٦]، أي:" يسألونك -أيها الرسول- عن حكم ميراث الكلالة، وهو من مات وليس له ولدٌ ولا والد، قل: الله يُبيِّن لكم الحكم فيها"[٧].

قال الطبري:أي:" يسألونك ، يا محمد ، أن تفتيهم في الكلالة"[٨].

قال ابن كثير:" وكأن معنى الكلام - والله أعلم -{ يَسْتَفْتُونَكَ }:عن الكلالة قل: الله يفتيكم فيها ، فدل المذكور على المتروك"[٩].

واختلفوا في الكلالة على أقوال :

أحدها:أن الكلالة: من لا ولد له، رواه ابن عباس، عن عمر بن الخطاب[١٠]، وهو قول طاوس[١١].

والثاني:أن الكلالة ما عدا الوالد ، وهو قول الحكم بن عيينة في أحد قوليه[١٢].

والثالث : أن الكلالة ما عدا الولد والوالد ، وهو قول أبي بكر[١٣]، وعمر[١٤]، والمشهور عن ابن عباس[١٥]، وسليم بن عبد[١٦]، وقتادة[١]، والحكم[٢]، وابن زيد[٣]، والزهيري[٤]، وأبي إسحاق[٥]، إسحاق[٥]، والضحاك[٦]، والحسن[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، واختيار الفراء[٩]، والزجاج[١٠].

---

[١]أخرجه الطبري في تفسيره(١٠٨٦٦):٤٣١/٩، وأخرجه إسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ مطولا كما في "المطالب العالية" : (١٦٤٥):ص٤/ ١٣٢، ١٣٣. [وسنده ضعيف لإرساله].

قال الحافظ: "صحيح؛ إن كان ابن المسيب سمعه من حفصة -رضي الله عنها-".

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٢/ ٧٥٣)، وزاد نسبته لابن مردويه.

[٢] انظر: المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة:٤٥٥/١.

[٣] انظر: صحيح البخاري(١٩٤)، و(٤٥٧٧)، و(٥٦٥١)، و(٥٦٧٦)، و(٦٧٢٣)، و(٦٧٤٣)، و(٧٣٠٩)، وفي الادب المفرد:(٥١١) باب عيادة المغمى عليه، وصحيح المسلم(١٦١٦):ص١٢٣٤/٣-١٢٣٥. باب ميراث الكلالة، وغيرهما كما بيّناه في سبب النزول.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٨٧٤)-(١٠٨٧٦):ص٤٣٥/٩-٤٣٦.

[٥] أخرجه الطبري(١٠٨٧٤):ص٤٣٥/٩.

[٦] أخرجه الطبري(١٠٨٧٦):٤٣٥/٩-٤٣٦.

[٧] التفسير الميسر:١٠٦.

[٨] تفسير الطبري:٤٣٠/٩.

[٩] تفسير ابن كثير:٤٨٢/٢.

[١٠] انظر: زاد المسير:٣٨٠/١، ونسبه الماوردي الى ابن عباس، انظر: النكت والعيون: ٤٦٠/١.

[١١] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٨٧٦٥):ص٦٧/٨-٥٨.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٨٧٤٥):ص٥٣/٨.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٨٧٤٧):ص٥٤/٨، وابن أبي حاتم(٤٩٣٣):ص٨٨٧/٣

[١٥] انظر: تفسير الطبري(٨٧٥٠)-(٨٧٥٥):ص٥٥/٨-٥٦.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(٨٧٥٦)-(٨٧٥٩:ص٥٦/٨-٥٧.

والرابع: أن الكلالة: بنو العم الأباعد، ذكره ابن فارس، عن ابن الأعرابي[١١].
والخامس: أنهم الأخوة للأم. قاله عطية[١٢].
والسادس: أنهم الأخوة للأب. قاله عبيد بن عمير[١٣].
والسابع: وقيل: هم الأخوة والأخوات[١٤].

قال الواحدي:" والذي عليه الأكثرون وهو الصواب أن الكلالة ما عدا الوالد والولد"[١٥].

قال الزجاج:" زعم أهل اللغة أن الكلالة من قولك : تكلله النسب، أي: لم يكن الذي يرثه ابنه ولا أباه. والكلالة سوى الولد والوالد، والدليل على أن الأب ليس بكلالة قول الشاعر[١٦]:

فإنّ أَبَا الْمَرْء أحْمَى لَهُ ومَوْلَى الكَلاَلَةِ لَا يَغضَبُ

وإنما هو كالإكليل الذي على الرأس"[١٧].

ويجدر القول بأن الوارث يسمى "كلالة". قاله سعيد بن جبير[١٨]، وكما جاء في حديث جابر أنه قال: "ليس يرثني إلا كلالة"[١٩].

وكذلك أن الموروث أي: الميت، يسمى "كلالة"، قاله الضحاك والسدي[٢٠]، ومنه قول الفرزدق[٢١]:

ورثتم قناة الملك لا عن كلالة عن ابني مناف: عبد شمس وهاشم

وقال الطرماح[٢٢]:

يهز سلاحا لم يرثه كلالة يشك به منها جلود المغابن

يصف ثورا وقرنه وأنه ورثه من أبيه، وجعل القرن له كالرمح من الأسلحة، وأنه يشق به مغابن الكلاب. فالكلالة في هذا البيت يحتمل أنه الوارث، ويحتمل أنه الموروث[٢٣].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٨٧٦٠):ص٥٧/٨.
[٢]انظر: تفسير الطبري(٨٧٦١):ص٥٧/٨.
[٣]انظر: تفسير الطبري(٨٧٦٢):ص٥٧/٨.
[٤] انظر: تفسير الطبري(٨٧٦٣)، و(٨٧٦٤):ص٥٧/٨.
[٥]انظر: تفسير الطبري(٨٧٦٣)، و(٨٧٦٤):ص٥٧/٨.
[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٣٣):ص٨٨٧/٣.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٣٣):ص٨٨٧/٣.
[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٤٩٣٥):ص٨٨٧/٣.
[٩] انظر: معاني القران:٢٥٧/١.
[١٠] انظر: معاني القرآن:٢٥/٢-٢٦.
[١١] انظر: زاد المسير:٣٨٠/١.
[١٢] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.
[١٣] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.
[١٤] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.
[١٥] التفسير البسيط:٣٦٧/٦.
[١٦]لم أعرف قائله وهو من "شواهد الزجاج في معانيه" ٢/ ٢٦، "الكشف والبيان" ٤/ ٢٤ أ، "اللسان مادة"كلل"" ٧/ ٣٩١٨ ، وتهذيب اللغة، مادة"كلل":ص٣٣١/٩، أراد الشاعر: أن أبا المرء أغضب له إذا ظلم، وموالي الكلالة وهم الإخوة والأعمام وبنو الأعمام وسائر القرابات لا يغضبون للمرء غضب الأب.[انظر: التفسير البسيط للواحدي:٣٧١/٦
[١٧] معاني القرآن:٢٥/٢-٢٦.
[١٨] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.
[١٩]حديث جابر من "تهذيب اللغة" ٩/ ٢٤٧، أخرجه الطبري(٨٧٣١):ص٣٤/٨ بنحوه، وذكره -بنصه- السمين في :عمدة الحفاظ:٥٠١ (كلل)..
[٢٠] انظر: تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.
[٢١]البيت في "الكشف والبيان" ٤/ ٢٤ أ، "اللسان" ٧/ ٣٩١٨ (كلل) فيه الشطر الأول، "عمدة الحفاظ" ص ٥٠١ (كلل)، "الدر المصون" ٣/ ٦٠٧، وقد ذكر د. أحمد الخراط في تحقيقه للأخير أن البيت ليس في "ديوان الفرزدق"، هذا مع أني لم أجده في "معجم شواهد العربية" رغم اتفاق من عزوت إليهم على نسبته إلى الفرزدق، فقد يكون سقط من "ديوان الفرزدق" و"منتهى الطلب"، والله أعلم..
[٢٢]ديوانه: ١٣٣، و"البحر المحيط" ٣/ ٣٥٢، و"أساس البلاغة" (كلل) و"الصحاح" (سلح)، و"المحكم" (سلح) و"اللسان" (سلح): (بزغ). والمغابن جمع مغبن، وهو الإبط والرفغ (باطن الفخذ)، وتطلق المغابن على معاطف الجلد أيضا. انظر: "اللسان" ٦/ ٣٢١١ (غبن)..
[٢٣] انظر: التفسير البسيط:٣٧٠/٦.

وقال النضر بن شميل: أن الكلالة "هو المال"(١).

نستنتج بأن كل من مات ولا ولد له ولا والد فهو كلالة ورثته، وكل وارث ليس بوالد للميت ولا ولد له فهو كلالة موروثه(٢).

قال ابن عطية:" ان المترجح أن «الكلالة»، هي: الوراثة التي خلت من أب وابن وابنة ولم يكن فيها عمود نسب لا عال ولا سافل، وبقي فيها من يتكلل، أي: يحيط من الجوانب كما يحيط الإكليل"(٣).

قال الشافعي:" والكلالة في هاتين الآيتين(٤): الميت لا الوارث، وقد قيل للورثة الذين يرثون الميت وليس فيهم أب ولا ولد: كلالة أيضاً، ألا ترى أن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: مرضت فأتيت النبي - ﷺ - فقلت: "إني رجل لا يرثنى إلا كلالة" (٥)الحديث، فجعل الكلالة: ورثته، فأما الآيتان: فالكلالة فيهما - الميت - الموروث لا الوارث"(٦).

وروى أنس عن النبي ﷺ أنه سئل عن الكلالة، فقرأ آخر سورة النساء، فرد عليه السائل فقال ﷺ: «لست بزائدك حتى أزاد»(٧).

والكلالة:" مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء : بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة من لا ولد له ، كما دلت عليه هذه الآية : { إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ }، أي: مات، { لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ }"(٨).

وقد أُشْكِل حُكْم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : "أيها الناس، ثلاثٌ ودِدت أن رسول الله ﷺ لم يفارِقنا حتى يعهد إلينا فيهن عهدًا يُنتهى إليه: الجدّ، والكلالة، وأبواب الربا"(٩).

عن معدان بن أبي طلحة : "أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوم الجمعة فقال : إنيّ والله ما أدع بعدي شيئًا هو أهمّ إليّ من أمر الكلالة ، وقد سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أغلظ لي في شيء ما أغلظ لي فيها ، حتى طعن في نحري وقال :«تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء»، وإن أعِش أقض فيها بقضية لا يختلف فيها أحدٌ قرأ القرآن"(١٠).

وعن سعيد بن المسيب : "أن عمر بن الخطاب كتب في الجدّ والكلالة كتابًا ، فمكث يستخير الله فيه يقول : اللهم إن علمت فيه خيرًا فأمضه، حتى إذا طُعِن ، دعا بكتاب فَمُحي ، فلم يدر أحدٌ ما كتب فيه ، فقال :إني كنت كتبت في الجدّ والكلالة كتابًا ، وكنت أستخير الله فيه ، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه "(١١).

وعن طارق بن شهاب قال : "أخذ عمر كتِفًا وجمع أصحاب محمد ﷺ ، ثم قال : لأقضين في الكلالة قضاءً تحدَّثُ به النساء في خدورهن! فخرجت حينئذ حيَّة من البيت ، فتفرَّقوا ، فقال : لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتمَّه"(١٢).

---

(١) تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣.

(٢)تهذيب اللغة" ٤/ ٣١٧٦ (كل) بتصرف، والتفسير البسيط للواحدي:٣٦٩/٦.

(٣) المحرر الوجيز:١٤١/٢.

(٤)يقصد الآية(١٢) و(١٧٦) من سورة النساء، قال تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ } .

(٥)حديث جابر من "تهذيب اللغة" ٩/ ٢٤٧، أخرجه الطبري(٨٧٣١):ص٣٤/٨ بنحوه، وذكره -بنصه- السمين في :عمدة الحفاظ:٥٠١ (كلل)..

(٦) تفسير الإمام الشافعي:٥٤٦/٢.

(٧) تفسير الثعلبي:٢٦٩/٣، وانظر: مختلف الحديث:١٨٥، بتفاوت..

(٨) تفسير ابن كثير:٤٨٢/٢.

(٩) أخرجه الطبري(١٠٨٨٣):ص٤٣٩/٩، وابن المنذر(١٤٤٠):ص٢/، ٥٩١ورواه البخاري في صحيحه برقم (٥٥٨٨) ومسلم في صحيحه برقم (٣٠٣٢)، والبيهقي في السنن ٦: ٨/٢٤٥: ٢٨٩، وذكره السيوطي في الدر المنثور ٢: ٢٤٩، وزاد نسبته لعبد الرزاق.

(١٠) أخرجه الطبري(١٠٨٨٦):ص٤٤١/٩.

(١١) أخرجه الطبري(١٠٨٧٨):ص٤٣٧/٩.

(١٢) أخرجه الطبري(١٠٨٨٢):ص٤٣٩/٩.

قوله تعالى:{إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ} [النساء : ١٧٦]، أي:" إن مات امرؤ ليس له ولد ولا والد، وله أخت لأبيه وأمه، أو لأبيه فقط"[١].

قال الطبري:أي:" إن إنسان من الناس مات {ليس له ولد}، ذكر ولا أنثى، {وله أخت}، يعني : وللميت أخت لأبيه وأمه ، أو لأبيه "[٢].

عن السدي:قوله:"{ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ}، يقول: مات"[٣]. وروي عن سعيد بن جبير مثل ذلك[٤].

عن سعيد بن جبير ، في قول الله تعالى: "{ليس له ولد وله أخت}: من أبيه وأمه ، أو من أبيه"[٥].

قال ابن كثير:"{إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ}، أي : مات ، قال الله تعالى : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ } [القصص : ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله ، عز وجل ، كما قال : { كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإكْرَامِ } [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧]"[٦].

وقوله :{ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ } "تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد"[٧].

قوله تعالى:{فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ} [النساء : ١٧٦]، أي:"فلها نصف تركته"[٨].

قال سعيد بن جبير:" من الميراث، والبقية للعصبة"[٩].

قوله تعالى:{وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ} [النساء : ١٧٦]، أي:" ويرث أخوها شقيقًا كان أو لأب جميع مالها إذا ماتت وليس لها ولد ولا والد"[١٠].

قال الطبري:أي:" وأخو المرأة يرثها إن ماتت قبله ، إذا وُرِثت كلالة، ولم يكن لها ولد ولا والد"[١١].

قوله تعالى:{فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ} [النساء : ١٧٦]، أي:" فإن كان لمن مات كلالةً أختان فلهما الثلثان مما ترك"[١٢].

قال الطبري:أي:" فإن كانت المتروكة من الأخوات لأبيه وأمه أو لأبيه {اثنتين}، فلهما ثلثا ما ترك أخوهما الميت، إذا لم يكن له ولد ، وورث كلالة "[١٣].

قال سعيد بن جبير:" فلو مات الأخ وكانت له أختان فصاعدا من أبيه وأمه أو من أبيه"[١٤]، "{فلهما الثلثان مما ترك} [النساء: ١٧٦] يعني: الأخ"[١٥].

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ} [النساء : ١٧٦]، أي:" وإذا اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث، فللذكر مثل نصيب الأنثيين من أخواته"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٦.
[٢] تفسير الطبري:٤٣٠/٩.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٠):ص١١٢٦/٤.
[٤] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٣٠):ص١١٢٦/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣١):ص١١٢٦/٤.
[٦] تفسير ابن كثير:٤٨٣/٢.
[٧] تفسير ابن كثير:٤٨٣/٢.
[٨] التفسير الميسر:١٠٦.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٢):ص١١٢٦/٤.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٦.
[١١] تفسير الطبري:٤٤٤/٩.
[١٢] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٣] تفسير الطبري:٤٤٤/٩.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٤):ص١١٢٦/٤.
[١٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٦):ص١١٢٧/٤.
[١٦] التفسير الميسر:١٠٦.

قال الطبري:" يعني : وإن كان المتروكون من إخوته {رجالا ونساء فللذكر} منهم بميراثهم عنه من تركته مثل نصيب اثنتين من أخواته، وذلك إذا ورث كلالةً ، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه ، أو : لأبيه"[1].

عن سعيد: "{وإن كانوا إخوة}، يعني: إخوة الميت"[2]، "{رجالا ونساء}من أبيه وأمه ، أو من أبيه فللذكر مثل حظ الأنثيين"[3].

عن ابن عباس ، قوله: "{فللذكر مثل حظ الأنثيين}،صغيرا أو كبيرا"[4].

قال السدي:"{حظ}: يقول: نصيب"[5].

قوله تعالى:{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء : ١٧٦]، أي:" يُبيِّن الله لكم قسمة المواريث وحكم الكلالة، لئلا تضلوا عن الحقِ في أمر المواريث"[6].

قال ابن جريج:" في شأن المواريث"[7].

قال سعيد بن جبير:" يقول أن لا تحطوا قسمة الميراث"[8].

قال مقاتل بن حيان:" يقول: أن تحفظوا قسمة المواريث ، فهذه الضلالة التي يكون فيها الإخوة عصبة ، إذا لم يكن ولد فيرثون مع الجد في الكلالة"[9].

قال مالك:" فهذه الضلالة التي يكون فيها الإخوة عصبة إذا لم يكن ولد فيرثون مع الجد في الكلالة"[10].

قال الطبري:أي:" يبين الله لكم قسمة مواريثكم ، وحكم الكلالة ، وكيف فرائضهم ،لئلا تضلوا في أمر المواريث وقسمتها ، أي: لئلا تجوروا عن الحق في ذلك وتخطئوا الحكم فيه ، فتضلّوا عن قصد السبيل"[11].

قال ابن كثير:"أي : يفرض لكم فرائضه ، ويحدّ لكم حدوده ، ويوضح لكم شرائعه، لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان "[12].

قال السعدي:أي:" يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم فضلا منه وإحسانا لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم"[13].

قال الماتريدي:" قيل: ألا تضلوا في قسمة المواريث. وقيل: ألا تخطئوا. وقيل: ألا تخلطوا، وهو واحد"[14].

قال ابن سيرين:" كان عمر إذا قرأ:{يبين الله لكم أن تضلوا}، قال : اللهم مَنْ بَيَّنت له الكلالة ، فلم تُبَيَّن لي"[15].

وفي تفسير قوله تعالى:{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء : ١٧٦]، وجهان[16]:

---

[1] تفسير الطبري:٤٤٤/٩.

[2] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٧):ص١١٢٧/٤.

[3] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٨):ص١١٢٧/٤.

[4] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٣٩):ص١١٢٧/٤.

[5] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٤٠):ص١١٢٧/٤.

[6] التفسير الميسر:١٠٦.

[7] أخرجه الطبري(١٠٨٩١):٤٤٥/٩.

[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٤٢):ص١١٢٧/٤.

[9] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٤٣):ص١١٢٨/٤.

[10] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٤٤):ص١١٢٨/٤.

[11] تفسير الطبري:٤٤٥/٩.

[12] تفسير ابن كثير:٤٨٥/٢.

[13] تفسير السعدي:٣١٨/٣.

[14] تفسير الماتريدي:٤٣٤/٣.

[15] أخرجه الطبري(١٠٨٩٢):٤٤٥/٩.

[16] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٣٦/٢-١٣٧.

أحدهما: أن المعنى: يبين الله لكم أن لا تضلوا، فأضمرت«لا». وهذا قول الفراء[١]، والكسائي[٢]، وابن قتيبة[٣]، والطبري[٤]، والزجاج[٥]، والماتريدي[٦]، والنحاس[٧]، وغيرهم. وغيرهم.

ومثل هذا قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا} [فاطر: ٤١] أي: لئلا تزولا، ومثله: {كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ} [الحجرات: ٢]. ومنه قول القطامي في صفة ناقة[٨]:

رَأَيْنَا مَا يَرَى البُصَرَاءُ فِيهَا   فَآلَيْنَا عَلَيْها أَنْ تُبَاعَا

بمعنى: أن لا تباع.

والثاني: أن المعنى: يبين الله لكم كراهة أن تضلوا، وحذفت " كراهة "، لأن في الكلام دليلا عليها، وإنما جاز الحذف عندهم على أحد، ومن ذلك قوله: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ } [يوسف : ٨٢]، والمعنى واسأل أهل القرية. وهذا قول البصريين[٩].

قال الواحدي:" وهذا القول يبعد، لأنه لم يدل على الاجتناب شيء"[١٠].

و الذي عليه البصريون أظهر، وفي حديث ابن عمر: «لا يدعو أحدكم على ولده أن يوافق من الله ساعة إجابة»[١١]، قيل: معناه: لئلا يوافق ساعة إجابة، والأظهر تقدير البصريين: أي كراهة أن يوافق ساعة إجابة، وفي معنى الكراهة الحذر والتفادي، وهو استعمال معروف وتكرر في القرآن [١٢].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النساء : ١٧٦]، أي:" والله عالم بعواقب الأمور، وما فيها من الخير لعباده"[١٣].

قال سعيد بن جبير:" يعني: من قسمة المواريث وغيرها عليم"[١٤].

قال الطبري:أي:"من مصالح عباده في قسمة مواريثهم وغيرها ، وجميع الأشياء، فهو بذلك كله ذو علم"[١٥].

قال ابن كثير:" أي : هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده ، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى"[١٦].

قال الشوكاني:أي:" والله بكل شيء من الأشياء التي هذه الأحكام المذكورة منها {عليم}، أي: كثير العلم [١٧].

قال السعدي:" أي: عالم بالغيب والشهادة والأمور الماضية والمستقبلة، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة"[١٨].

---

[١] انظر: معاني القرآن:٢٢٣/١.
[٢] انظر: معاني القرآن للفراء:٢٢٣/١، وإعراب القرآن للنحاس:١٦٥/١، والدر المصون:١٧٦/٤.
[٣] انظر: تاويل مشكل القرآن:١٤٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري:٤٤٥/٩.
[٥] انظر: معاني القرآن:٤٣/١، و١٣/٢، و١٦٢/٢.
[٦] انظر: تفسير الماتريدي:٦٠٦/١، و٤٣٤/٣
[٧] انظر: إعراب القرآن:١٦٥/١.
[٨]ديوانه" ص ٤٣، و"تفسير الطبري" ٩/ ١١٨، و"الدر المصون" ٥/ ٥١٣، وهو يصف ناقته يقول: لا تباع لما رأينا من من حسنها.
[٩] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٣٧/٢.
[١٠] التفسير البسيط:٢١٤/٧.
[١١] .
[١٢] انظر: تفسير المنار:٩٢/٦.
[١٣] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٤] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٤٦):ص١١٢٨/٤.
[١٥] تفسير الطبري:٤٤٥/٩.
[١٦] تفسير ابن كثير:٤٨٥/٢.
[١٧] فتح القدير:٦٢٧/١.
[١٨] تفسير السعدي:٣١٨/٣.

قال المراغي:أي:" فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم لصلاح أنفسكم، وذلك شأنه فى جميع أفعاله وأحكامه، فكلها موافقة للحكمة، دالة على واسع العلم وعظيم الرحمة"[1].

قال الماتريدي:"وعيد"[2].

قال الخطابي: " إن الله سبحانه أنزل في الكلالة آيتين؛ إحداهما في الشتاء، وهي الآية التي في سورة النساء -يعني في أولها [آية:١٢] - وفيها إجمال وإبهام لا يكاد يتبين هذا المعنى من ظاهرها، ثم أنزل الآية الأخرى في الصيف وهي التي في آخر سورة النساء -[آية:١٧٦]- وفيها من زيادة البيان ما ليس في آية الشتاء، فأحال السائل عليها ليتبين المراد بالكلالة المذكورة فيها"[3].

قال البراء:" آخر سورة نزلت : «براءة»، وآخر آية نزلت:{ يَسْتَفْتُونَكَ }"[4]. والمراد -والله أعلم- آخر آية نزلت في الميراث.

الفوائد:

١- جواز سؤال من لا يعلم من يعلم للحصول على العلم المطلوب له.

٢- إثبات وجود الله تعالى عليماً قديراً سميعاً بصيراً، وتقرير نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ سؤال الأصحاب وإجابة الرب تعالى بواسطة وحيه المنزل على رسوله يقرر ذلك ويثبته.

٣- بيان قسمة تركة من يورث كلالة من رجل أو امرأة؛ فالأخت الواحدة لها من أخيها نصف ما ترك، والاختان لهما الثلثان، والأخوة مع الأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين، والأخ يرث أخته إن لم يكن لها ولد ولا ولد ولد، والإخوة والأخوات يرثون أختهم للذكر مثل حظ الأنثيين إذا لم تترك ولداً ولا ولد ولد.

٤-ومن صفاته تعالى: «العليم»، قال الخطابي: "«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق"[5].

«آخر تفسير سورة النساء، والحمد لله وحده»

---

[1] تفسير المراغي:٤٠/٦.
[2] تفسير الماتريدي:٤٣٤/٣.
[3] معالم السنن:٨٦/٤.
[4] صحيح البخاري برقم (٢٦٠٥).
[5] شأن الدعاء: ٥٧/١، والأسماء والصفات للبيهقي:١٢١/١.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة «المائدة»

سورة «المائدة»: هي السورة الخامسة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، فقد سبقتها سور: الفاتحة، والبقرة، وآل عمران، والنساء.

وعدد آياتها عشرون ومائة آية عند الكوفيين، ويرى الحجازيون والشاميون أن عدد آياتها اثنتان وعشرون ومائة آية، ويرى البصريون أن عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة آية(١).

اختلافها ثلاث آيات:

- {بِالْعُقُودِ } [المائدة: ١]، {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [المائدة: ١٥]- تركهما كوفي.
- {فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [المائدة: ٢٣]، عدها بصري.

أسما السورة:

ولهذه السورة الكريمة أسماء أشهرها:

١-المائدة

وهو الاسم التوقيفي لهذه السوورة، وسميت بهذا الاسم، لأنها انفردت بذكر قصة المائدة التي طلب الحواريون من عيسى- عليه السلام- نزولها من السماء، وقد حكى الله- تعالى- ذلك في آخر السورة في قوله- تعالى-: {إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ} [الآيات من ١١٢: ١١٥].

قال المهايميّ:"سميت بها، لأن قصتها أعجب ما ذكر فيها، لاشتمالها على آيات كثيرة ولطف عظيم على من آمن، وعنف شديد على من كفر"(٢).

وقد سميت هذه السورة «سورة المائدة» في كتب التفسير، وكتب السنة، وهي أشهر أسمائها، ووقعت تسميتها في كلام الصحابة كعبدالله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وابن عباس، وأسماء بنت يزيد، وغيرهم، كما ورد في كتب السنة، منها:

أ- ما رواه بن نفير، قال: "حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه"(٣).

ب- وقد جاء عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، قالت: "إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة"(٤).

ت- كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو، قال: "أنزلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها"(٥).

ث- وعن ابن عباس-رضي الله عنه-:"أن النبي-ﷺ- قرأ في خطبته سورة المائدة والتوبة"(٦).

٢-سورة العقود

---

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر للدمياطي ص: ٣٥١.

(٢) تفسير المهايمي:١/١٧٧.

(٣) مستدرك الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، ٢/٣١١، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

ورواه الإمام أحمد، ٦/٥٤، برقم ٢٦٠٦٣، وزاد: "وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: القرآن".

(٤)أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦١٦)، وقال عنه الأرنؤوط : "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب"، وكذلك أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧|١٣).

(٥)أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦٦٤٣)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط: "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن لهيعة وحيي بن عبدالله"، وصححه الألباني في صحيح السيرة ص:١٠٧.

(٦) أخرجه عبد بن حميد كما في الدر المنثور:٣/٣.

وتسمى أيضا بسورة «العقود»، لأنها السورة الوحيدة التي افتتحت بطلب الإيفاء بالعقود، قال- تعالى-:{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ }[المائدة: ١].
ذكر هذه التسمية بعض المفسرين كأبي حيان[١]، والآلوسي[٢]، والسخاوي[٣]، والسيوطي[٤]، والسيوطي[٤]، والبقاعي[٥].

٣- سورة المنقذة

وتسمى- أيضا- «المنقذة»، ووجه تسميته بذلك أنها تنقذ صاحبها من ملائكة العذاب، واستندوا في تسميتها بسورة"المنقذة" على حديث ذكره ابن عطية[٦]، والقرطبي[٧]، في تفسيرهما، وهو ما روي عن النبي-ﷺ-، أنه قال: «سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة. تنقذ صاحبها من أيدى ملائكة العذاب"[٨].

وقد ذكر هذا الاسم بعض المفسرين في كتبهم، كابن عطية[٩]، وأبي حيان[١٠]، والآلوسي[١١]، كما ذكره السيوطي في الإتقان[١٢].

٤- سورة الأحبار

ورد تسميتها بسورة «الأحبار»، لاشتالها على ذكرهم في قوله: { وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: ٦٣][١٣].
والأحبار هم العلماء، قال جرير[١٤]:

إن البعيث وعبد آل مقاعس   لا يقرآن بسورة الأحبار

أي: لا يفيان بالعهود، يعني بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١][١٥].

٥- تسميات أخرى

وقد وردت تسميات أخرى أقل شهرة، منها:

أولا:- سورة الأخيار

قال ابن عاشور:" وفي كتاب «كنايات الأدباء» لأحمد الجرجاني[١٦]:«يقال: فلان لا يقرأ سورة الأخيار، أي لا يفي بالعهد، وذلك أن الصحابة- رضي الله عنهم- كانوا يسمون سورة المائدة سورة الأخبار"[١٧].

ثانيا:سورة المبعثرة

ورد هذه التسمية عند أبي حيان، ولم يعلل سبب تسميتها بـ«المبعثرة»، ودون ذكر سنده في ذلك[١].

---

(١)انظر: البحر المحيط:١٥٦/٤
[٢] انظر: روح المعاني:٤٧/٥.
[٣] انظر: جمال القراء وكمال الإقراء:٣٦/١.
[٤] انظر: الإتقان: ١٧٢/١.
[٥] انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٣٢٥/٢
[٦] انظر: المحرر الوجيز:١٤٣/٢.
[٧] انظر: تفسير القرطبي:٣٠/٦.
[٨] لم أقف على تخريجه، قال محقق تفسير القرطبي٣٠/٦:"لم اجده، والظاهر أنه من رواية النقاش، وهو موضوع بكل حال".
[٩] انظر: المحرر الوجيز:٣١٢/٤.
[١٠] انظر: البحر المحيط:١٥٦/٤.
[١١].انظر: روح المعاني:٤٧/٥
[١٢]انظر: الإتقان في علوم القرآن:١٧٢/١.
[١٣] انظر: بصائر ذوي التمييز:١٧٦/١.
[١٤] ديوانه:٣٩٠، شرح: د. يوسف عبد، يعني بـ"عبد آل مقاعس": الفرزدق".
[١٥] انظر: النهاية:٣٢٨/١.
[١٦]انظر: كنايات الأدباء، أحمد الجرجاني: ١٢١.
[١٧] التحرير والتنوير:٦٩/٦.

ثالثا:-سورة المائة وعشرون آية

جاءت تسميتها بذلك في مصحفين، احدها نسخت سنة(١٢٥٨هـ)[٢]، والآخر في القرن الثالث عشر الهجري[٣]، ولم أقف على هذا الاسم عند السادة المفسرين، كما انه من الغريب تسمية السورة بعدد آياتها- والله أعلم-.

نستنتج مما سبق بأن اسم السورة التوفيقي، هو: سورة«المائدة»، وأما الأسماء الاخرى، فجميعها من إجتهاد العلماء ولم يرد فيها حديث من النبي-ﷺ-، أو اثر من صحابته- رضوان الله تعالى عليهم-.

مكان نزول السورة:

في مكان نزول السورة أقوال:

القول الاول: أنها مدنية. وهذا قول ابن عباس[٤]، والضحاك[٥]، وقتادة[٦]، وجمهور العلماء[٧]، وذلك بناء على سببين:

أحدهما: القول الذي رجحه العلماء من أن القرآن المدني هو الذي نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلم بعد الهجرة ولو كان نزوله في غير المدينة.

قال ابن عطية:" هذه السورة مدنية بإجماع... ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح، وهو قوله تعالى: {ولا يجرمنكم شنآن قوم} [المائدة: ٢] الآية، وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي -ﷺ- فهو مدني سواء ما نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار أو بمكة، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة"[٨].

قال القرطبي:" وهي مدنية بإجماع... وكل ما أنزل من القرآن بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم فهو مدني، سواء نزل بالمدينة أو في سفر من الأسفار. وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة"[٩].

والثاني: أن السورة بدأت بقوله تعالى: { يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ١]، وهذه الخصلة لاتكون غلا في السور المدنية.

قال ابن العربي:" قال علماؤنا: قال علقمة: إذا سمعت: {يا أيها الذين آمنوا} [المائدة: ١] فهي مدنية، وإذا سمعت: {يا أيها الناس} [النساء: ١] فهي مكية؛ وهذا ربما خرج على الأكثر"[١٠].

وقد أورد الإمام السيوطي كثيرا من الأحاديث والآثار تدل صريحا على أنها آخر ما نزل من القرآن[١١].

والقول الثاني: أنها مدنية كلها إلا قوله تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [الآية: ٣]، فإنها نزلت بـ«عرفات». وهذا قول مقاتل بن حيان[١٢]، وشهاب الخفاجي[١٣].

قال أبو سليمان الدمشقي: "فيها من المكي:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[الآية: ٣]"[١٤].

---

[١] انظر: البحر المحيط:١٥٦/٤.
[٢] والمصحف بجامعة الإمام بالرياض برقم(١٨٤٢).
[٣] والمصحف بجامعة الإمام برقم(٦٧١).
[٤] انظر: زاد المسير:٥٠٥/١.
[٥] انظر: زاد المسير:٥٠٥/١.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١١١٠):ص٥٣١/٩.
[٧] انظر: المحرر الوجيز: ١٤٣/٢، وتفسير القرطبي:٣٠/٦، وغيرها.
[٨] المحرر الوجيز:١٤٣/٢.
[٩] تفسير القرطبي:٣٠/٦.
[١٠] أحكام القرآن:٣/٢.
[١١]انظر : الدر المنثور:٣|٤..
[١٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٧/١.
[١٣] انظر: محاسن التأويل:٣/٤.
[١٤] زاد المسير:٥٠٥/١.

قال ابن الجوزي:"والصحيح أن قوله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، نزلت بعرفة يوم عرفة، فلهذا نسبت إلى«مكة»"[١].

واعترض القاسمي على القول الثاني، من خلال نظرين[٢]:

الأول:- إن هذا بناء على أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة. والمدني ما نزل بالمدينة، وهو اصطلاح لبعض السلف. ولكن الأشهر كما في "الإتقان" أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها، سواء نزل بمكة أم بالمدينة، عام الفتح أو عام حجة الوداع، أم بسفر من الأسفار[٣].

الثاني:- بقي عليه، لو مشي على ذاك الاصطلاح، آيات آخر.

القول الثالث:أنها مدنية كلها إلا قوله تعالى:{ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}[الآية: ٣]، وهذا قول أبي سليمان الدمشقي[٤].

قال السدي:" عن السدي قوله: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، هذا نزل يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام. ورجع رسول الله ﷺ فمات"[٥].

القول الرابع: أنها نزلت عند منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية.

ذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: "لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية قال:«يا علي أشعرت أنه نزلت علي سورة المائدة ونعمت الفائدة»"[٦].

قال ابن عطية:"وهذا عندي لا يشبه كلام النبي -ﷺ- "[٧].

قال ابن العربي: "هذا حديث موضوع، لا يحل لمسلم اعتقاده، أما أنا نقول: سورة المائدة نعمت الفائدة فلا نؤثره عن أحد، ولكنه كلام حسن"[٨].

القول الخامس: أنها نزلت في حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة. وهذا قول محمد القرظي[٩].

وأخرج الطبري عن الربيع بن أنس قال: "نزلت«سورة المائدة» على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسير في حجة الوداع، وهو راكب راحلته، فبركت به راحلته من ثقلها"[١٠].

والراجح-والله أعلم- انهما مدنية، وهذا قول الجمهور، باعتبار أن السور المدنية هي ما نزلت بعد الهجرة، وهذه السورة نزلت بعد سورة «الفتح»، وكان نزول سورة «الفتح» بعد صلح «الحديبية» فى السنة السادسة من الهجرة، فيكون نزول سورة «المائدة» فيما بين صلح «الحديبية» وغزوة «تبوك».

والظاهر أن سورة المائدة لم تنزل دفعة واحدة في وقت معين أو في زمان معين، وإنما نزل بعضها في السنوات التي سبقت صلح الحديبية، ونزل معظمها بعد هذا الوقت، وأن الروايات التي تقول بنزولها دفعة واحدة أو في وقت معين وزمان معين من الممكن أن تحمل على أن المراد بها مجموع السورة لا جميعها[١١]. والله أعلم.

أغراض السورة ومقاصدها:

وفيما يأتي مجمل ما اشتملت عليه سورة النساء:

---

[١] زاد المسير:٥٠٥/١.
[٢] انظر: محاسن التأويل:٣/٤.
[٣] انظر: الإتقان:٧٣/١.
[٤] انظر: زاد المسير:٥٠٥/١.
[٥] أخرجه الطبري(١١٠٨٠):ص٥١٨/٩.
[٦] ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز:١٤٣/٢، والقرطبي في تفسيره:٣٠/٦، وأبو حفص سراج الدين، في اللباب في علوم الكتاب:١٦٠/٧.
[٧] المحرر الوجيز:١٤٣/٢.
[٨] أحكام القرآن:٣/٢.
[٩] انظر: الدر المنثور:٣/٣-٤.
[١٠] تفسير الطبري(١١١١٢):ص٥٣١/٩.
[١١] انظر: التفسير الوسيط، للطنطاوي:١٠/٤.

اولا:- تعد سورةالمائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم، والأمر والنهي حيث تضمنت بيان تمام الشرائع، ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل، وما أُخذ على الأمة، وبها تم الدين، فهي سورة التكميل؛ لأن فيها تحريم الصيد على المحرم الذي هو من تمام الإحرام، وتحريم الخمر الذي هو من تمام حفظ العقل والدين، وعقوبة المعتدين من السُّراق والمحاربين الذي هو من تمام حفظ الدماء والأموال، وإحلال الطيبات الذي هو من تمام عبادة الله تعالى، ولهذا ذُكر فيها ما يختص بشريعة محمد ﷺ؛ كالوضوء والتيمم، والحكم بالقرآن على كل دين، ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام، وذكر فيها أن من ارتد عوض الله بخير منه، ولا يزال هذا الدين كاملا.

الثاني:- تطرقت السورة أيضا إلى جوانب العقيدة وقصص أهل الكتاب، وتناولت أحكام العقود، والذبائح، والصيد، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، وأحكام الطهارة، وحد السرقة، والبغي، والإفساد في الأرض، وتحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وكفارة اليمين، وحكم من ترك تحكيم شريعة الله تعالى، والوصية عند الموت، وغير ذلك من الأحكام والتشريعات.

والثالث:- تضمنت السورة قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في دخول بيت المقدس وردهم القبيح ومفارقة موسى عليه السلام لهم، وفيها أيضاً قصة ابني آدم «قابيل وهابيل»، وهي تعرض نموذجين من نماذج البشر: نموذج النفس الشريرة الأثيمة، ونموذج النفس الخيِّرة الكريمة.

وتطرقت السورة لقصة المائدة التي كانت من معجزات عيسى عليه السلام.

والرابع:- ختمت السورة بالموقف الرهيب يوم الحشر حيث يُدعى المسيح عيسى عليه السلام رؤوس الأشهاد، ويسأله ربه تبكيتاً للنصارى الذين عبدوه من دون الله تعالى، ويا له من موقف مخزٍ لأعداء الله تشيب لهوله الرؤوس، وتتفطر من فزعه النفوس!

وجوه المناسبة بين سورة النساء والتي قبلها:

ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة "آل عمران" التي قبلها[١]:

أولا:- لما كانت سورة «النساء» مشتملة على عدة عقود، بدأت سورة المائدة بالأمر بالوفاء بالعقود.

ثانيا:-اتحدت سورة النساء والمائدة في تقرير الفروع الحكمية.

ثالثا:- مهدت سورة النساء لتحريم الخمر، وحرمته سورة المائدة البتة.

رابعا:- بدأت سورة النساء ببدء الخلق، وختمت سورة المائدة بالانتهاء من البعث والجزاء.

فضائل السورة:

ورد في فضل هذه السورة مجموعة من الأخبار:

أحدها:- ورد في فضلها حديث أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها-، قالت: "إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة"[٢].

---

[١] انظر: روح المعاني:٣/٢٢٢.

[٢]أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٦١٦)، وقال عنه الأرنؤوط : "حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لضعف ليث بن أبي سليم وشهر بن حوشب"، والطبري(١١١٠٧):٩/٥٢٩، والطبراني (٤٤٩):ص٢٤/١٢٨، والبيهقي في الشعب(٢٤٣٠):ص٢/٤٦٩، وكذلك أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧|١٣)، وزاد نسبته السيوطي في الدر المنثور:٣/٣، إلى عبد بن حميد، ومحمد بن نصر في الصلاة، وابي نعيم في الحلية.

والحديث إسناده فيه ليث بن أبي سليم، قال الحافظ عنه:"صدوق اختلط جدا ولم يتميز حديثه فترك، وقال أحمد:مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس". انظر: الميزان:٤/٣٤٠. وقال بحبى بن معين:"ليس حديثه بذاك ضعيف، وقال أبو زرعة: ليث لا يشتغل به، وهو مضطرب الحديث". انظر: الجرح والتعديل:٧/١٧٧.

وفيه ايضا شهر بن حوشب: صديق كثير الإرسال والاوهام، كما قال الحافظ في التقريب:٢٦٩، وقال ابن معين: ثقة، وقال النسائي وابن عدي: ليس بالقوي، وقال البخاري: شهر حسن الحديث، وقوي أمره. انظر: الميزان:٢/٤٧٤، وقال أبو حاتم:" لايحتج بحديثه، وقال أبو زرعة: لا بأس به. انظر: الجرح والتعديل: ٤/٣٨٢.

والثاني:- تعدّ سورة المائدة من طوال سور القرآن، ومن أجلها منزلة وأعلاها مكانة، وكغيرها من السور المدنية تناولت القضايا التشريعية، كما هو شأن سورة البقرة، والنساء، والأنفال، إلى جانب احتضانها موضوع العقيدة، وقصص أهل الكتاب.
والثالث:- أنها آخر سورة نزلت من القرآن الكريم.
قال الرازي:"أكثر الأمة على أن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، وليس فيها منسوخ"[١].
قال أبو ميسرة: "المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ليس فيها منسوخ وفيها ثمان عشرة فريضة"[٢].
وكذلك يقول ابن تيمية: " سورة المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي؛ ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه قال:«هِيَ آخِرُ الْقُرْآنِ نُزُولًا فَأَحِلُّوا حَلَالَهَا وَحَرِّمُوا حَرَامَهَا"، وهذا افتتحت بقوله:{ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}، والعقود هي العهود وذكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها"[٣].
هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

والحديث له شواهد منها: ما اخرجه البيهقي في الدلائل عن أم عمرو بنت عبس عن عمتها، باب (ذكر السور التي نزلت بمكة والتي نزلت بالمدينة):ص١٤٥/٧، وما اخرجه أبو عبيد في فضائله، باب(المائدة والأنعام):ص١٢٨، عن محمد بن كعب القرظي مرسلا، والطبري في تفسيره(١١١٠٦):ص٥٢٨/٩، عن الربيع بن انس، وبجموع هذه الشواهد يقوي الحديث ويرفعه إلى درجة الحسن لغيره.

[١] مفاتيح الغيب:٤٥٢/١٢.

[٢] الجامع أحكام القرآن:٣٠/٦.

[٣]مجموع الفتاوى:٤٤٨/١٤

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١)} [المائدة: ١]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، أتِمُّوا عهود الله الموثقة، من الإيمان بشرائع الدين، والانقياد لها، وأدُّوا العهود لبعضكم على بعض من الأمانات، والبيوع وغيرها، مما لم يخالف كتاب الله، وسنة رسوله محمد ﷺ. وقد أحَلَّ الله لكم البهيمة من الأنعام، وهي الإبلُ والبقر والغنم، إلا ما بيَّنه لكم من تحريم الميتة والدم وغير ذلك، ومن تحريم الصيد وأنتم محرمون. إن الله يحكم ما يشاء وَفْق حكمته وعدله.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ١]،أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[١].

قال الطبري:أي:" يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وأذعنوا له بالعبودية، وسلموا له الألوهة وصدَّقوا رسوله محمدًا ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه"[٢].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٣].

قال الزجاج:" أي: يا أيها الذين صدقوا النبي - ﷺ - "[٤].

قال سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله"[٥].

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٦].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٧].

قال خيثمة: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[٧].

قال القرطبي:" قال علقمة: كل ما في القرآن{يا أيها الذين آمنوا}، فهو مدني، و{يا أيها الناس} فهو مكي، وهذا خرج على الأكثر"[٨].

واختلف في المخاطبين بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ١]، على قولين:

أحدهما:أنهم المؤمنون من أمة محمد-ﷺ-، وهذا معنى قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، وقتادة[١١]، والحسن[١٢]،عبدالله بن عبيدة[١]، ومحمد بن كعب القرظي[٢]، وابن زيد[٣]، ومقاتل[٤]، واختاره ابن ابن عطية[٥]، والقرطبي[٦]، وهو قول الجمهور[٧].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٦.
[٢] جامع البيان:٤٤٧/٩.
[٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.
[٤] معاني القرآن:١٣٩/٢.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٤):ص١٠٩٠/٤.
[٦] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣
[٧] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.
[٨] تفسير القرطبي:٣١/٦.
[٩] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٧):ص٤٥٢/٩.
[١٠] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٨):ص٤٥٢/٩-٤٥٣.
[١١] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٥)، و(١٠٩٠٦):ص٤٥٢/٩.
[١٢] انظر: النكت والعيون:٦/٢، وتفسير القرطبي:٣٢/٦.

قال ابن عطية:" ولفظ «المؤمنين» يعم مؤمني أهل الكتاب، إذ بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ ولفظ «العقود» يعم عقود الجاهلية المبنية على بر مثل دفع الظلم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام فإنما معنى الآية أمر جميع المؤمنين بالوفاء على عقد جار على رسم الشريعة"[٨].

والثاني: أنهم أهل الكتاب، وفيهم نزلت، وهذا قول ابن جريج[٩].

ويسنده قوله تعالى:{وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه}[آل عمران: ١٨٧]، ذكره ابن العربي[١٠].

والصحيح، أنها عامة، لأن" لفظ المؤمنين يعم مؤمني أهل الكتاب، لأن بينهم وبين الله عقدا في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد -ﷺ-، فإنهم مأمورون بذلك في قوله:{أوفوا بالعقود} وغير موضع"[١١].

قوله تعالى:{أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]، أي:" أَتِمُّوا عهود الله الموثقة، من الإيمان بشرائع الدين، والانقياد لها، وأَدُّوا العهود لبعضكم على بعض من الأمانات، والبيوع وغيرها، مما لم يخالف كتاب الله، وسنة رسوله محمد -ﷺ-"[١٢].

قال الواحدي:" يعني: بالعهود المؤكَّدة التي عاهدتموها مع الله والنَّاس"[١٣].

قال الطبري:أي:"أوفوا بالعهود التي عاهدتموها ربَّكم، والعقود التي عاقدتموها إياه، وأوجبتم بها على أنفسكم حقوقًا، وألزمتم أنفسكم بها لله فروضًا، فأتمُّوها بالوفاء والكمال والتمام منكم لله بما ألزمكم بها، ولمن عاقدتموه منكم، بما أوجبتموه له بها على أنفسكم، ولا تنكُثُوها فتنقضوها بعد توكيدها"[١٤].

قال الزجاج:" خاطب الله جل وعز جميع المؤمنين بالوفاء بالعقود التي عقدها الله عليهم، والعقود التي يعقدها بعضهم على بعض على ما يوجبه الدين... و{العقود}: العهود"[١٥].

قال الشافعي:" جماع الوفاء بالنذر وبالعهد، كان بيمين أو غيرها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} الآية، وهذا من سعة لسان العرب الذي خوطبت به، وظاهره عام على كل عقد، ويشبه - واللَّه تعالى أعلم - أن يكون أراد اللَّه - عز وجل -، أن يوفى بكل عقد كان بيمين أو غير يمين، وكل عقد نذر، إذا كانت في العقد لله طاعة، ولم يكن فيما أمر بالوفاء منها معصية"[١٦].

قال الجصاص:" اشتمل قوله تعالى:{يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}، على إلزام الوفاء بالعهود والذمم التي نعقدها لأهل الحرب وأهل الذمة والخوارج وغيرهم من سائر الناس وعلى

---

[١] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٩):ص٤٥٣/٩.
[٢] انظر:تفسير الطبري(١٠٩١٠):ص٤٥٣/٩.
[٣] انظر:تفسير الطبري(١٠٩١١)، و(١٠٩١٢):ص٤٥٣/٩.
[٤] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.
[٥] انظر: المحرر الوجيز:١٤٣/٢.
[٦] انظر: تفسير القرطبي:٣٢/٦.
[٧] انظر: زاد المسير:٥٠٥/١.
[٨] المحرر الوجيز:١٤٣/٢.
[٩] انظر:تفسير الطبري(١٠٩١٣):ص٤٥٤/٩.
[١٠] .
[١١] تفسير القرطبي:٣٢/٦.
[١٢] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٣] الوجيز:٣٠٦.
[١٤] جامع البيان:٤٤٧/٩.
[١٥] معاني القرآن:١٣٩/٢.
[١٦] تفسير الغمام الشافعي:٦٩٢/٢.

إلزام الوفاء بالنذور والأيمان وهو نظير قوله تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} [النحل: ٩١]"[١].

قال الزمخشري:"والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله وتحريم حرامه وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل وهو قوله أحلت لكم وما بعده"[٢].

و«العقود»، جمع: «عَقْدٍ»، وأصل«العقد»، عقد الشيء بغيره، وهو وصله به، كما يعقد الحبل بالحبلِ، إذا وصل به شدًّا. يقال منه: عقد فلان بينه وبين فلان عقدًا، فهو يعقده، ومنه قول الحطيئة[٣]:

قَوْمٌ إذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِجَارِهِمُ   شَدُّوا العِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرَبَا

وذلك إذا وَاثقه على أمر وعاهده عليه عهدًا بالوفاء له بما عاقده عليه، من أمان وذِمَّة، أو نصرة، أو نكاح، أو بيع، أو شركة، أو غير ذلك من العقود[٤].

والمراد بالإيفاء بالعهد" إتمامه على ما عقد عليه من شروطه الجائزة"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]، ستة أقاويل:

أحدها: أنها عهود الله، التي أخذ بها الإيمان، على عباده فيما أحله لهم، وحرمه عليهم، وهذا قول ابن عباس[٦]، ومجاهد[٧].

والثاني: أنها العهود التي أخذها الله تعالى على أهل الكتاب أن يعملوا بما في التوراة، والإنجيل من تصديق محمد -ﷺ-، وهذا قول ابن جريج[٨].

قال، قال محمد بن مسلم: "قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمرو بن حزم حين بعثه على نَجْران فكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم، فيه:«هذا بيان من الله ورسوله:{يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}، فكتب الآيات منها حتى بلغ، {إن الله سريع الحساب}"[٩].

والثالث: أنها عهود الجاهلية وهي الحلف الذي كان بينهم على النُّصرة والمؤازرة والمظاهرة على من حاول ظلمه أو بغاه سوءً. وهذا قول قتادة [١٠].

الرابع: عهود الدين كلها، وهذا قول الحسن[١١].

والخامس: أنها العقود التي يتعاقدها الناس بينهم من بيع، أو نكاح، أو يعقدها المرء على نفسه من نذر، أو يمين، وهذا قول عبدالله بن عبيدة[١٢]، ومحمد بن كعب القرظي[١]، وابن زيد[٢].

---

[١] أحكام القرآن:٢٨٦/٣.

[٢] الكشاف:٦٠١/١.

[٣]ديوانه: ٦، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٤٥، اللسان (كرب) (عنج) ، من قصيدته التي قالها في الزبرقان بن بن بدر، وبغيض بن عامرٍ من بني أنف الناقة، فمدح بغيضًا وقومه فقال: قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ، وَالأَذْنَابُ غَيْرهُمُ، ... وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا!

قَوْمٌ يَبِيتُ قَرِيرَ العَيْنِ جَارُهُمُ ... إذَا لَوَى بِقُوَى أَطْنَابِهِمْ طُنُبَا

قَوْمٌ إذَا عَقَدُوا........ ... .

هذا مثل ضربه يقول: إذا عقدوا للجار عقدًا وذمامًا، أحكموا على أنفسهم العقد، حتى يكون أقر عينًا بنصرتهم له، وحمايتهم لعرضه وماله. وضرب المثل بالدلو، التي يستقي بها وينتفع. و"العناج": خيط يشد في أسفل الدلو، ثم يشد في عروتها، أو في أحد آذانها، فإذا انقطع حبل الدلو، أمسك العناج الدلو أن تقع في البئر. و"الكرب" الحبل الذي يشد على الدلو بعد"المنين" وهو الحبل الأول، فإذا انقطع المنين بقي الكرب. فهذا هو المثل، استوثقوا له بالعهد، كما استوثقوا لدلوه بالحبل بعد الحبل حتى تكون بمأمن من القطع.

[٤] انظر: تفسير الطبري:٤٥١/٩-٤٥٢، ومعاني القرآن للزجاج:١٣٩/٢-١٤٠.

[٥] تفسير الطبري:٤٥٥/٩.

[٦] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٧):ص٤٥٢/٩.

[٧] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٨):ص٤٥٢/٩-٤٥٣.

[٨] انظر:تفسير الطبري(١٠٩١٣):ص٤٥٤/٩.

[٩] أخرجه الطبري(١٠٩١٤):٤٥٤/٩.

[١٠] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٥)، و(١٠٩٠٦):ص٤٥٢/٩.

[١١] انظر: النكت والعيون:٦/٢، وتفسير القرطبي:٣٢/٦.

[١٢] انظر:تفسير الطبري(١٠٩٠٩):ص٤٥٣/٩.

والسادس: يعني: بالعهود التي بينكم وبين المشركين. وهذا قول مقاتل[٣].

والظاهر-والله أعلم- هو القول الأول، وأن معناه: "أوفوا، يا أيها الذين آمنوا، بعقود الله التي أوجبَهَا عليكم، وعقدها فيما أحلَّ لكم وحرم عليكم، وألزمكم فرضه، وبيَّن لكم حدوده، لأن الله جل وعز أتبع ذلك البيانَ عما أحل لعباده وحرم عليهم، وما أوجب عليهم من فرائضه. فكان معلومًا بذلك أن قوله:{أوفوا بالعقود}، أمرٌ منه عبادَه بالعمل بما ألزمهم من فرائضه وعقوده عقيب ذلك، ونَهْيٌ منه لهم عن نقض ما عقده عليهم منه، مع أن قوله:{أوفوا بالعقود}، أمرٌ منه بالوفاء بكل عقد أذن فيه، فغير جائز أن يخصَّ منه شيء حتى تقوم حجة بخصوص شيء منه يجب التسليم لها. فإذْ كان الأمر في ذلك كما وصفنا، فلا معنى لقول من وجَّه ذلك إلى معنى الأمر بالوفاء ببعض العقود التي أمرَ الله بالوفاء بها دون بعض"[٤].

قال السعدي:" هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.
والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: {إنما المؤمنون إخوة} بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع، فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها"[٥].

قوله تعالى:{أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ} [المائدة: ١]، أي:" وقد أحَلَّ الله لكم البهيمة من الأنعام، وهي الإبلُ والبقر والغنم"[٦].

قال الزجاج:اي:" أي: أحلت لكم الإبل والبقر والغنم والوحش"[٧].

قال مقاتل:" يعني: أحل لكم أكل لحوم الأنعام الإبل والبقر والغنم والصيد كله"[٨].

قال الزمخشري:" البهيمة:"كل ذات أربع في البر والبحر، وإضافتها إلى {الأنعام} للبيان، وهي الإضافة التي بمعنى «من» كخاتم فضة. ومعناه: البهيمة من الأنعام"[٩].

قال السعدي:" {أحلت لكم}،أي: لأجلكم، رحمة بكم {بهيمة الأنعام} من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحمر الوحش، ونحوها من الصيود"[١٠].

واختلف في معنى قوله تعالى:{بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ} [المائدة: ١]، على ثلاثة أقوال:
أحدها: أن المراد: الأنعام كلها. وهذا قول الحسن[١١]، وقتادة[١٢]، والضحاك[١٣]، والربيع بن انس[١٤]، والسدي[١٥].

---

(١) انظر:تفسير الطبري(١٠٩١٠):ص٤٥٣/٩.
(٢) انظر:تفسير الطبري(١٠٩١١)، و(١٠٩١٢):ص٤٥٣/٩.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.
(٤) تفسير الطبري:٤٥٤/٩.
(٥) تفسير السعدي:٢١٨.
(٦) التفسير الميسر:١٠٦.
(٧) معاني القرآن:١٤٠/٢.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.
(٩) الكشاف:٦٠١/١.
(١٠) تفسير السعدي:٢١٨.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٠٩١٥):ص٤٥٥/٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٠٩١٦):ص٤٥٥/٩.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٢٠):ص٤٥٥/٩-٤٥٦
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٠٩١٨):ص٤٥٥/٩.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٠٩١٧):ص٤٥٥/٩.

والثاني: أنها أجنة الأنعام التي توجد في بطون أمهاتها -إذا نحرت أو ذبحت- ميتةً. وهذا قول ابن عباس[١]، و ابن عمر[٢].
والثالث: أنها وحشيُّها، كالظباء وبقر الوحش والحُمُر. وهذا قول الفراء[٣].
والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، أي: "الأنعام كلها: أجنَّتها وسِخَالها وكبارها، لأن العرب لا تمتنع من تسمية جميع ذلك«بهيمة وبهائم»، ولم يخصص الله منها شيئًا دون شيء، فذلك على عمومه وظاهره، حتى تأتي حجة بخصوصه يجب التسليم لها"[٤].
و«النعم» عند العرب، اسم للإبل والبقر والغنم خاصة، كما قال جل ثناؤه: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}[النحل: ٥]، ثم قال: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً} [النحل: ٨]، ففصل جنس النعم من غيرها من أجناس الحيوان[٥].
وأما«بهائم الأنعام»، فإنها أولادها، فيلزم الكبار منها اسم«بهيمة»، كما يلزم الصغار، لأن معنى قول القائل:«بهيمة الأنعام»، نظير قوله:«ولد الأنعام»، فلما كان لا يسقط معنى الولادة عنه بعد الكبر، فكذلك لا يسقط عنه اسم البهيمة بعد الكبر[٦].
قوله تعالى:{إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [المائدة: ١]، أي:" إلا ما بيَّنه لكم من تحريم الميتة والدم وغير ذلك"[٧].
قال ابن كثير:" أي: إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال"[٨].
قال الزمخشري:أي:" إلا محرم ما يتلى عليكم من القرآن"[٩].
قال مقاتل:" يعني: غير ما نهى الله- عز وجل- عن أكله مما حرم الله- عز وجل- من الميتة والدم ولحم الخنزير والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة"[١٠].
واختلف في قوله تعالى:{إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ} [المائدة: ١]، على قولين
أحدهما: معناه: إلا ما بيَّن الله لكم فيما يتلى عليكم بقوله: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ)، الآية [سورة المائدة: ٣]. وهذا قول ابن عباس[١١]، ومجاهد[١٢]، وقتادة[١٣]، والسدي[١٤].
قال ابن كثير:" والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ } فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض"[١٥].
والثاني: أن الذي استثنى الله بقوله:{إلا ما يتلى عليكم}، الخنزير. وهذا قول ابن عباس-في رواية أخرى-[١٦]، والضحاك[١٧].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٢٣)-(١٠٩٢٦):ص٤٥٦/٩.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٢١)، و(١٠٩٢٢):ص٤٥٦/٩.
[٣] انظر: معاني القرآن:٢٩٨/١.
[٤] تفسير الطبري:٤٥٧/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٤٥٧/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٤٥٧/٩.
[٧] التفسير الميسر:١٠٦.
[٨] تفسير ابن كثير:٨/٢.
[٩] الكشاف:٦٠١/١.
[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣١)، و(١٠٩٣٢):ص٤٥٨/٩.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٢٧):ص٤٥٧/٩-٤٥٨.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٢٨)، و(١٠٩٢٩):ص٤٥٨/٩.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٠):ص٤٥٨/٩.
[١٥] تفسير ابن كثير:٨/٢.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٣):ص٤٥٨/٩.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٤):ص٤٥٨/٩.

والراجح-والله أعلم- هو القول الأول، "لأن الله عز وجل استثنى مما أباح لعباده من بهيمة الأنعام، ما حرَّم عليهم منها. والذي حرّم عليهم منها، ما بيّنه في قوله: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزيرِ} [المائدة: ٣]، وإن كان حرَّمه الله علينا، فليس من بهيمة الأنعام فيستثنى منها. فاستثناء ما حرَّم علينا مما دخل في جملة ما قبل الاستثناء، أشبهُ من استثناء ما حرَّم مما لم يدخل في جملة ما قبل الاستثناء"[١].

قوله تعالى:{غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: ١]، أي:"ومن تحريم الصيد وأنتم محرمون"[٢].

قال مقاتل:" يقول: من غير أن تستحلوا الصيد {وأنتم حرم}، يقول: إذا كنت محرما بحج أو عمرة فالصيد عليك حرام كله غير صيد البحر فإنه حلال لك"[٣].

قال الواحدي:" يعني: إلاَّ أن تحلُّوا الصَّيد في حال الإحرام فإنَّه لا يحلُّ لكم"[٤].

قال السعدي:" أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير محلي الصيد وأنتم حرم، أي: متجرئون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدا، كالظباء ونحوه، والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش"[٥].

واختلف في قوله تعالى:{ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: ١]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من المؤخر الذي معناه التقديم، والتقدير: {يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود} {غير محلي الصيد وأنتم حرم} {أحلت لكم بهيمة الأنعام}[٦].

والمعنى: أوفوا، أيها المؤمنون، بعقود الله التي عقدها عليكم في كتابه، لا محلّين الصيد وأنتم حرم[٧].

والثاني: ان المعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام الوحشية من الظباء والبقر والحمر{غير محلي الصيد}، غير مستحِلِّي اصطيادها، وأنتم حرم إلا ما يتلى عليكم[٨].

والثالث: أن المعنى: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها {إلا ما يتلى عليكم}، إلا ما كان منها وحشيًّا، فإنه صيد، فلا يحل لكم وأنتم حرم. وهذا قول الربيع بن انس[٩].

والراجح من التفسير أن يقال:" يا أيها الذين آمنوا أوفوا بعقود الله التي عقد عليكم مما حرّم وأحلّ، لا محلين الصيد في حرمكم، ففيما أحلَّ لكم من بهيمة الأنعام المذكَّاة دون ميتتها، متَّسع لكم ومستغنًى عن الصيد في حال إحرامكم"[١٠]. -والله أعلم-.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: ١]، أي:"إن الله يحكم ما يشاء وَفْق حكمته وعدله"[١١].

قال قتادة:" إن الله يحكم ما أراد في خلقه، وبيّن لعباده، وفرض فرائضه، وحدَّ حدوده، وأمر بطاعته، ونهى عن معصيته"[١٢].

قال مقاتل:" فحكم أن جعل ما شاء من الحلال حراما، وجعل ما شاء مما حرم في الإحرام من الصيد حلالا"[١٣].

---

[١] تفسير الطبري:٤٥٩/٩.
[٢] التفسير الميسر:١٠٦.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.
[٤] الوجيز:٣٠٦.
[٥] تفسير السعدي:٢١٨.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٤٥٩/٩.
[٧] انظر: تفسير الطبري:٤٥٩/٩.
[٨] انظر: معاني القرآن للفراء ١: ٢٩٨، وتفسير الطبري:٤٦٠/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٥)، و(١٠٩٣٦):ص٤٦٠/٩.
[١٠] تفسير الطبري:٤٦١/٩.
[١١] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٢] أخرجه الطبري(١٠٩٣٧):ص٤٦٢/٩.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٤٨/١.

قال الزجاج:" أي الخلق له عز وجل، يحل منه ما يشاء لمن يشاء، ويحرم ما يريد"(١).

قال ابن الجوزي:" أي: الخلق له يحل ما يشاء لمن يشاء، ويحرم ما يريد على من يريد"(٢).

قال الطبري:أي:" إن الله يقضي في خلقه ما يشاء من تحليل ما أراد تحليله، وتحريم ما أراد تحريمه، وإيجاب ما شاء إيجابه عليهم، وغير ذلك من أحكامه وقضاياه = فأوفوا، أيها المؤمنون، له بما عقدَ عليكم من تحليل ما أحل لكم وتحريم ما حرّم عليكم، وغير ذلك من عقوده، فلا تنكثوها ولا تنقضوها"(٣).

قال السعدي:" أي: فمهما أراده تعالى حكم به حكما موافقا لحكمته، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم، وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صونا لكم واحتراما، ومن صيد الإحرام احتراما للإحرام وإعظاما"(٤).

الفوائد:

١-وجوب الوفاء بالعهود التي بين الله تعالى وبين العبد والمحافظة على العقود التي بين العبد وأخيه العبد لشمول الآية ذلك.

٢-إباحة أكل لحوم الإبل والبقر والغنم إلا الميتة منها.

٣-تحريم الصيد في حال الإحرام وحليته بعد التحلل من الإحرام وهو صيد البر لا البحر.

٤-استدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢)} [المائدة: ٢]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تتعدَّوا حدود الله ومعالمه، ولا تستحِلُّوا القتال في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكان ذلك في صدر الإسلام، ولا تستحِلُّوا حرمة الهَدْي، ولا ما قُلِّدَ منه؛ إذ كانوا يضعون القلائد، وهي ضفائر من صوف أو وَبَر في الرقاب علامةً على أن البهيمة هَدْيٌ وأن الرجل يريد الحج، ولا تَسْتَحِلُّوا قتال قاصدي البيت الحرام الذين يبتغون من فضل الله ما يصلح معايشهم ويرضي ربهم. وإذا حللتم من إحرامكم حلَّ لكم الصيد، ولا يحمِلَنَّكم بُغْض قوم من أجل أن منعوكم من الوصول إلى المسجد الحرام -كما حدث عام «الحديبية» - على ترك العدل فيهم. وتعاونوا -أيها المؤمنون فيما بينكم- على فِعْل الخير، وتقوى الله، ولا تعاونوا على ما فيه إثم ومعصية وتجاوز لحدود الله، واحذروا مخالفة أمر الله فإنه شديد العقاب.

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في شريح بن ضبيعة. وهذا قول ابن عباس(٥)، والسدي(٦)، وعكرمة(١)، وابن وابن جريج(٢).

---

(١) معاني القرىن:١٤٢/٢.

(٢) زاد المسير:٥٠٦/١.

(٣) تفسير الطبري٤٦٢/٩.

(٤) تفسير السعدي:٢١٨.

(٥) انظرك اسباب النزول للواحدي:١٨٩.

(٦) انظر: الطبري(١٠٩٥٨):ص٤٧٢/٩-٤٧٣.

قال السدي: أقبل الحُطم بن هند البكري، ثم أحد بني قيس بن ثعلبة [3] حتى أتى النبي ﷺ وحده، وخَلَّف خيله خارجة من المدينة. فدعاه، فقال: إلام تدعو؟ فأخبره، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة، يتكلم بلسان شيطان!، فلما أخبره النبي ﷺ قال: انظر، ولعلّي أسلم ولي من أشاوره، فخرج من عنده، فقال رسول الله ﷺ، لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعَقِب غادرٍ! فمرَّ بسَرْح من سَرْح المدينة فساقه، فانطلق به وهو يرتجز [4]:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلا غَنَم

وَلا بِجَزَّارٍ على ظَهْرِ الوَضَمْ بَاتُوا نِيَامًا وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنَمْ

بَاتَ يُقَاسِيهَا غُلامٌ كَالزَّلَمْ خَدَلَّجُ السَّاقَيْنِ مَمْسُوحُ القَدَمْ

ثم أقبل من عام قابلٍ حاجًّا قد قلَّد وأهدى، فأراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه، فنزلت هذه الآية، حتى بلغ:"ولا آمين البيت الحرام". قال له ناس من أصحابه: يا رسول الله، خلِّ بيننا وبينه، فإنه صاحبنا! قال: إنه قد قلَّد! قالوا: إنما هو شيء كنا نصنعه في الجاهلية! فأبى عليهم، فنزلت هذه الآية"[5]. [ضعيف جدا][6].

والثاني: أن ناسا من المشركين جاءوا يؤمون البيت يوم الفتح مهلين بعمرة، فقال المسلمون: لا ندع هؤلاء بل نغير عليهم، فنزل قوله تعالى ولا آمين البيت الحرام[7]. وهذا قول ابن عباس أيضا[8]، وقتادة[9]، وابن زيد[10].

قال ابن عباس:" كان المشركون يحجون البيت الحرام، ويهدون الهدايا، ويعظمون حرمة المشاعر، ويتجرون في حجهم، فأراد المسلمون أن يَغِيرُوا عليهم؛ فقال الله -عزّ وجلّ-: {لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ}[11]. [حسن].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥٩):٤٧٣/٩-٤٧٤، وتفسير عبدالرزاق:١٠/٢، وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ١٠) وزاد نسبته لابن المنذر. [سنده ضعيف].

[2] انظر: تفسير الطبري:٤٧٤/٩.

[3] الحطم" لقب، واسمه: "شريح بن ضبيعة بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، من بكر بن وائل" (جمهرة الأنساب: ٣٠١) ، وهذا"الحطم"، خرج في الردة، في السنة الحادية عشرة، فيمن تبعه من بكر بن وائل، ومن تأشب إليه من غير المرتدين ممن لم يزل كافرًا، فخرج بهم حتى نزل القطيف وهجر، واستغوى الخط، ومن فيها من الزط والسيابجة. وحاصر المسلمين حصارًا شديدًا. فتجمع المسلمون جميعًا إلى العلاء بن الحضرمي، وتجمع المشركون كلهم إلى الحطم. ثم بيتهم المسلمون وقتلوا الحطم ومن معه في خبر طويل .[انظر :تاريخ الطبري ٣/ ٢٥٤-٢٦٠].

[4] اختلفوا في نسبة هذا الشعر اختلافًا كثيرًا ، فنقل التبريزي في شرح الحماسة (١ : ١٨٥) خبر رشيد بن رميض العنزي (بفتح العين ، وسكون النون) من بني عنز بن وائل ، بلا شك عندي في ذلك. قال التبريري : " قالها في غارة الحطم ، وهو شريح بن شرحبيل بن عمرو بن مرثد ، أغار على اليمن ، فقتل وليعة بن معد يكرب ، أخا قيس ، وسبى بنت قيس بن معد يكرب ، أخت الأشعث بن قيس ، فبعث الأشعث يعرض عليه في فدائها ، بكل قرن من قرونها (ضفائرها) مئة من الإبل. فلم يفعل الحطم ، وماتت عنده عطشًا. (وانظر غير ذلك في الأغاني ١٤ : ٤٤).
ونسبت أيضًا للأغلب العجلي ، وللأخنس بن شهاب ، ولجابر بن حني التغلبي. وانظر ذلك في تحقيق أستاذنا الراجكوتي ، سمط اللآلئ : ٧٢٩. ولعل " الحطم " أنشده مدحًا لنفسه فيما فعل من سوق السرح.

[5] أخرجه الطبري(١٠٩٥٨):ص٤٧٢/٩-٤٧٣.

[6] أخرجه الطبري من طريق أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر عن السدي به. قلنا: وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط.

[7] انظر: زاد المسير:٥٠٧/١.

[8] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤١):ص٤٦٣/٩.

[9] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧٦):ص٤٧٨/٩، تفسير عبدالرزاق:١٨٢/١/١، ووالناسخ والمنسوخ للنحاس:١١١، ونسبه السيوطي في الدر المنثور:٨/٣، لعبد بن حميد.

[10] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٦٠):٤٧٤/٩.

[11] أخرجه الطبري(١٠٩٤١):ص٤٦٣/٩، وابن أبي حاتم؛ كما في "الدر المنثور" :٣/ ٥، والنحاس في "ناسخه" :١١١. وزاد السيوطي نسبته في "الدر المنثور" لابن المنذر.

والثالث: أن قوله تعالى: **{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا}[المائدة:٢]**، نزلت في النهي عن الطلب بذُحول الجاهلية. وهذا قول مجاهد[١].

أخرج الطبري عن مجاهد في قول الله: " {أن تعتدوا}، رجل مؤمن من حلفاء محمد، قتل حليفًا لأبي سفيان من هذيل يوم الفتح بعرفة، لأنه كان يقتل حلفاء محمد، فقال محمد ﷺ: لعن الله من قتل بذَحْل الجاهلية"[٢].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ٢]،أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[٣].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٤].

قوله تعالى:{لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ} [المائدة: ٢]، أي:" لا تستحلوا حُرمات الله ولا تعتدوا حدوده"[٥].

قال الطبري:أي:" لا تستحلوا، أيها الذين آمنوا، معالم الله فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج"[٦].

قال الماوردي:" أي: معالم الله، مأخوذ من الإشعار وهو الإعلام"[٧].

الحرام"[٨].

وفي «شعائر الله»، خمسة تأويلات:

أحدها: أنها مناسك الحج، وهو قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠]، ومقاتل[١١]، والإمام الشافعي[١٢].

الشافعي[١٢].

والثاني: أنها ما حرمه الله فى حال الإحرام، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً[١٣].

والثالث: أنها حرم الله، وهو قول السدي[١٤].

والرابع: أنها حدود الله فيما أحل وحرَّم وأباح وحظَّر، وهو قول عطاء[١٥]، واختيار الطبري[١٦].

والخامس: هي دين الله كله، وهو قول الحسن[١٧]، كقوله تعالى:{ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَآئِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٢٢]، أي:"دين الله"[١٨].

والراجح-والله اعلم- هو قول عطاء، والمعنى:" لا تحلوا حرمات الله ولا تضيعوا فرائضه، لأن «الشعائر» جمع: شعيرة، من قول القائل: قد شعر فلان بهذا الأمر، إذا علم به، فـ«الشعائر»، المعالم، من ذلك"[١٩].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٧)، و(١٠٩٩٨):ص٩،٤٨٩

[٢]أخرجه الطبري(١٠٩٩٧):ص٩،٤٨٩

[٣] التفسير الميسر:١٠٦.

[٤] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١/١٩٦.

[٥] صفوة التفاسير:٣٠١.

[٦] تفسير الطبري:٩/٤٦٤.

[٧] النكت والعيون:٢/٦.

[٨] معاني القرآن:٢/١٤٢.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٠)، و(١٠٩٤١):ص٩/٤٦٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٢)، و(١٠٩٤٣):ص٩/٤٦٣-٤٦٤.

[١١] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٥١.

[١٢] تفسير الإمام الشافعي:٢/٦٩٥.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٤):ص٩/٤٦٤.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٩):ص٩/٤٦٣.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٣٨):ص٩/٤٦٢.

[١٦] انظر: تفسير الطبري:٩/٤٦٤.

[١٧] انظر: النكت والعيون:٢/٦.

[١٨]النكت والعيون:٢/٦.

[١٩] تفسير الطبري:٩/٤٦٤.

قال الزجاج:" الشعائر: واحدتها شعيرة، ومعناه ما أشعر، أي: أعلم ليهدى إلى بيت الله"[١].

قال الزمخشري:" وإحلال هذه الأشياء أن يتهاون بحرمة الشعائر وأن يحال بينها وبين المتنسكين بها، وأن يحدثوا في أشهر الحج ما يصدون به الناس عن الحج، وأن يتعرض للهدى بالغصب أو بالمنع من بلوغ محله"[٢].

قال الجصاص:" فقوله تعالى:{لا تحلوا شعائر الله}، قد انتظم جميع معالم دين الله وهو ما أعلمناه الله تعالى وحده من فرائض دينه وعلاماتها بأن لا يتجاوزوا حدوده ولا يقصروا دونها ولا يضيعوها فينتظم ذلك جميع المعاني التي رويت عن السلف من تأويلها فاقتضى ذلك حظر دخول الحرم إلا محرما وحظر استحلاله بالقتال فيه وحظر قتل من لجأ إليه ويدل أيضا على وجوب السعي بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله على ما روي عن مجاهد[٣]، لأن الطواف بهما كان من شريعة إبراهيم عليه السلام وقد طاف النبي ﷺ بهما فثبت أنهما من شعائر الله"[٤].

قوله تعالى:{وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ} [المائدة: ٢]، أي:" ولا تستحلوا الشهر الحرام بالقتال فيه"[٥].

قال ابن عباس:" يعني: لا تستحلوا قتالا فيه"[٦].

قال قتادة:" كان المشرك يومئذ لا يُصَدُّ عن البيت، فأمروا أن لا يقاتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت"[٧].

وفي تفسير «الشَّهْر الْحَرَام» ثلاثة اقاويل:

أحدها: أنه رَجَبُ مُضَر. اختاره الطبري[٨].

والثاني: أنه ذو العقدة، وهو قول عكرمة[٩].

والثالث: أنها الأشهر الحرم، وهو قول قتادة[١٠].

قوله تعالى:{وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ} [المائدة: ٢]، أي:"ولا تستحلوا ما أُهدي إلى البيت أو قُلّد بقلادة -ليعرف أنه هدي- بالتعرض له ولأصحابه"[١١].

الهدي:" فهو ما أهداه المرء من بعيرٍ أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، إلى بيت الله، تقرُّبا به إلى الله، وطلبَ ثوابه"[١٢].

وأما «الهدي»، ففيه قولان:

أحدهما: أنه كل ما أهداه من شيء إلى بيت الله تعالى[١٣].

والثاني: أنه ما لم يقلّد من النعم، وقد جعل على نفسه، أن يُهديه ويقلده، وهو قول ابن عباس[١٤].

وأما «القلائد»، ففيها ثلاثة أقاويل:

أحدها:أنها قلائد الهدْي، وهو قول ابن عباس[١].

---

(١) معاني القرآن:١٤٢/٢.

(٢) الكشاف:٦٠٢/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٢)، و(١٠٩٤٣):ص٤٦٣/٩-٤٦٤.

(٤) أحكام القرآن:٢٩١/٣.

(٥) صفوة التفاسير:٣٠١.

(٦) أخرجه الطبري(١٠٩٤٥):ص٤٦٥/٩.

(٧) أخرجه الطبري(١٠٩٤٦):ص٤٦٥/٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٤٦٦/٩.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٧):ص٤٦٦/٩.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٦٧):ص٤٧٦/٩.

(١١) صفوة التفاسير:٣٠١.

(١٢) تفسير الطبري:٤٦٦/٩.

(١٣) انظر: تفسير الطبري:٤٦٦/٩.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٨):ص٤٦٧/٩.

قال ابن عباس:" القلائد، مقلَّدات الهدي. وإذا قلَّد الرجل هديه فقد أحرم. فإن فعل ذلك وعليه قميصه، فليخلَعْه[2].

والثاني: أنها قلائد من لحاء الشجر، كان المشركون إذا أرادوا الحج قلدوها فى ذهابهم إلى مكة، وعَوْدهم ليأمنوا، وهذا قول قتادة[3].

والثالث: أن المشركين كانوا يأخذون لحاء الشجر من الحرم إذا أرادوا الخروج منه، فيتقلدونه ليأمنوا، فَنُهوا أن ينزعوا شجر الحرم فيتقلدوه، وهذا قول عطاء[4]، ومجاهد[5]، والسدي[6]، وابن زيد[7].

قال قال عطاء:" كان المشركون يأخذون من شجر مكة، من لحاء السَّمُر، فيتقلدونها، فيأمنون بها من الناس. فنهى الله أن ينزع شجرها فَيُتَقَلَّد"[8].

قال مُطرِّف بن الشخير:" كان المشركون يأخذون من شجر مكة، من لِحاء السمر، فيتقلدون، فيأمنون بها في الناس. فنهى الله عز ذكره أن يُنزع شجرها فيتقلَّد"[9].

قال الزجاج: كانوا يقلدون بلحاء الشجر ويعتصمون بذلك وهذا كله كان للمشركين، وكان قد أمر المسلمون بأن لا يحلوا هذه الأشياء التي يتقرب بها المشركون إلى الله"[10].

قال الطبري:" والذي هو أولى بتأويل قوله: " ولا القلائد " إذ كانت معطوفة على أول الكلام، ولم يكن في الكلام ما يدلّ على انقطاعها عن أوله، ولا أنه عنى بها النهي عن التقلد أو اتخاذ القلائد من شيء أن يكون معناه: ولا تُحِلّوا القلائد، فإذا كان ذلك بتأويله أولى، فمعلوم أنه نَهْيٌ من الله جل ذكره عن استحلال حرمة المقلَّد، هديًا كان ذلك أو إنسانًا، دون حرمة القلادة. وإن الله عز ذكره، إنما دلّ بتحريمه حرمة القلادة، على ما ذكرنا من حرمة المقلَّد، فاجتزأ بذكره «القلائد» من ذكر « المقلد»، إذ كان مفهومًا عند المخاطبين بذلك معنى ما أريد به.

وقد ذكر بعض الشعراء في شعره ما ذكرنا عمن تأوَّل " القلائد " أنها قلائد لحاء شجر الحرم الذي كان أهل الجاهلية يتقلَّدونه، فقال وهو يعيب رجلين قتلا رجلين كانا تقلَّدا ذلك[11]:

أَلَمْ تَقْتُلا الْحِرْجَيْنِ إذْ أَعْوَراكُمَا[12] ... يُمِرَّانِ بِالأيْدِي اللِّحَاءَ الْمُضَفَّرَا

---

(1) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٤٩):ص٤٦٧/٩.

(2) أخرجه الطبري (١٠٩٤٩):ص٤٦٧/٩.

(3) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥٠):ص٤٦٨/٩.

(4) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥١):ص٤٦٨/٩.

(5) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥٢)، و(١٠٩٥٣):ص٤٦٨/٩.

(6) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥٤):ص٤٦٨/٩.

(7) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٥٥):ص٤٦٩/٩.

(8) أخرجه الطبري(١٠٩٥٦):ص٤٦٩/٩.

(9) أخرجه الطبري(١٠٩٥٧):ص٤٦٩/٩.

(10) معاني القرآن:١٤٢/٢.

(11) أشعار الهذليين ٣ : ١٩ ، والمعاني الكبير : ١١٢٠ ، واللسان (حرج). و " الحرج " (بكسر الحاء وسكون الراء) : الودعة ، قالوا : عنى بالحرجين : رجلين أبيضين كالودعة ، فإما أن يكون البياض لونهما ، وإما أن يكون كنى بذلك عن شرفهما. وقال شارح ديوانه : " ويكون أيضًا الحرجان ، رجلين يقال لهما : الحرجان " . و " أمر الحبل يمره " : فتله. و " اللحاء " ، قشر الشجر. و " المضفر " الذي جدل ضفائر. هذا وقد ذكر أبو جعفر أن الشعر في رجلين قتلا رجلين ، وروى " ألم تقتلا " ، والذي في المراجع " ألم تقتلوا " ، وهو الذي يدل عليه سياق الشعر ، فإن أوله قبل البيت : ألا أبْلِغَا جُلَّ السَّوَارِي وَجابرًا ... وَأَبْلِغْ بَنِي ذِي السَّهْم عَنِّي وَيَعْمَرَا

وَقُولا لَهُمْ عَنِّي مَقَالَةَ شَاعِرٍ ... أَلَمّ بقَوْلٍ ، لَمْ يُحَاوِلْ لِيَفْخَرَا

لَعَلَّكُمْ لَمَّا قَتَلْتُمْ ذَكَرْتُمُ ... وَلَنْ تَتْرُكُوا أَنْ تَقْتُلُوا ، مَنْ تَعَمَّرَا

فالشعر كله بضمير الجمع. وسببه أن جندبًا ، أخو البريق بن عياض اللحياني ، قتل قيسًا وسالمًا ابني عامر بن عريب الكنانيين ، وقتل سالم جندبًا ، اختلفا ضربتين.

(12) رواية أبي جعفر كما شرحها " أعوراكما " ، ورواية الديوان " أعورا لكم " ، وهي في سياق لمشعر ، ورواية اللسان : " أعرضا لكم " ، ويروي " عورا لكم " بتشديد الواو. هذا على أن هذه الرواية : " أعور "

و «الحرجان»، المقتولان كذلك. ومعنى قوله: «أعوراكما»، أمكناكما من عورتهما"[١].
قوله تعالى:{وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [المائدة: ٢]، أي:" ولا تَسْتَحِلُّوا قتال قاصدي البيت الحرام"[٢].
قال ابن عباس:" يقول: من توجَّه حاجًّا"[٣].
قال الضحاك:" يعني: الحاج"[٤].
قال مطرِّف بن الشخِّير:" الذين يريدون البيت"[٥].
قال ابن جريج:": ينهى عن الحجاج أن تُقطع سبلهم"[٦].
قال الطبري:أي:" ولا تحلُّوا قاصدي البيت الحرام العامدية"[٧].
قال ابن كثير:" أي: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذي من دخله كان آمنا"[٨].
قال الزمخشري:"آموا المسجد الحرام: قاصدوه، وهم الحجاج والعمار"[٩].
يقال: أممت كذا، إذا قصدته وعمدته، وبعضهم يقول: يَمَمْته، كما قال الشاعر[١٠]:
إنِّي كَذَاكَ إذَا مَا سَاءَنِي بَلَدٌ يَمَمْتُ صَدْرَ بَعِيرِي غَيْرَهُ بَلَدَا
و{البيت الحرام}، بيت الله الذي بمكة[١١].
قال الطبري:" وفي إجماع الجميع على أن حكم الله في أهل الحرب من المشركين قتلُهم، أمُّوا البيت الحرام أو البيت المقدس، في أشهر الحرم وغيرها ما يُعلم أن المنع من قتلهم إذا أموا البيت الحرام منسوخٌ "[١٢].
قال ابن كثير:" فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [التوبة: ٢٨] ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمَّر الصديق على الحجيج - علِيّا، وأمره أن ينادي على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، وألا يحج بعد العام مُشْرِك، ولا يطوفن بالبيت عُرْيان[١٣]"[١٤].
قوله تعالى:{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} [المائدة: ٢]، أي:"الذين يبتغون من فضل الله ما يصلح معايشهم ويرضي ربهم"[١٥].
قال ابن كثير:" أي: وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغبا في رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه"[١٦].

متعديًا ، والذي كتب في اللغة " أعور لك الشيء فهو معور ".
[١] تفسير الطبري:٤٦٩/٩-٤٧٠.
[٢] التفسير الميسر:١٠٦.
[٣] أخرجه الطبري(١٠٩٦١):ص٤٧٤/٩-٤٧٥.
[٤] أخرجه الطبري(١٠٩٦٢):ص٤٧٥/٩.
[٥] أخرجه الطبري(١٠٩٦٣):ص٤٧٥/٩.
[٦] تفسير الطبري:٤٧٤/٩.
[٧] تفسير الطبري:٤٧١/٩.
[٨] تفسير ابن كثير:١٠/٣.
[٩] الكشاف:٦٠١/١..
[١٠] لم أتعرف على قائله، وانظر البيت في: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٤٦، وتفسير الطبري:٤٧١/٩.
[١١] انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٤٦، وتفسير الطبري:٤٧١/٩.
[١٢] تفسير الطبري:٤٧٩/٩.
[١٣]رواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٧٧) من حديث أبي بكر ، رضي الله عنه.
[١٤] تفسير ابن كثير:١١/٢.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٦] تفسير ابن كثير:١٠/٣.

قال الطبري:أي:" يلتمسون أرباحًا في تجاراتهم من الله، وأن يرضى الله عنهم بنسكهم"[١].

قال ابن عباس:" يعني: أنهم يترضَّون الله بحجهم"[٢].

قال قتادة:" هم المشركون، يلتمسون فضل الله ورضوانه فيما يصلح لهم دُنياهم"[٣].

وفي رواية اخرى عنه:" والفضل والرضوان اللذان يبتغون: أن يصلح معايشهم في الدنيا، وأن لا يعجَّل لهم العقوبة فيها"[٤].

وعن أبي أميمة قال:" قال ابن عمر في الرجل يحج ويحمل معه متاعًا، قال: لا بأس به وتلا هذه الآية: {يبتغون فضلا من ربهم ورضوانًا}"[٥].

وفي تفسير قوله تعالى:{يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا} [المائدة: ٢]، قولان:
أحدهما: الربح في التجارة، وهو قول ابن عمر[٦]، ومطرّف بن الشِّخِّير[٧].
والثاني: الأجر والتجارة، وهو قول مجاهد[٨].

وقرأ حميد بن قيس والأعرج: «تبتغون»، بالتاء على خطاب المؤمنين[٩].

قوله تعالى:{وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [المائدة: ٢]، أي:" وإذا تحللتم من الإحرام فقد أُبيح لكم الصيد"[١٠].

قال الماوردي:" وهذا وإن خرج مخرج الأمر، فهو بعد حظر، فاقتضى إباحة الاصطياد بعد الإحلال دون الوجوب"[١١].

قال الزمخشري:" {فاصطادوا}، إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم، كأنه قيل: وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا"[١٢].

قال الشافعي:" فأخبر أنَّه أباح شيئاً كان حرَّمه، ولم يوجب الصيد عند الإحلال"[١٣].

. وقرئ: «وإذا أحللتم»، يقال: حل المحرم وأحل. وقرئ: «فاصطادوا»، بكسر الفاء. وقيل: هو بدل من كسر الهمزة عند الابتداء[١٤].

قوله تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا} [المائدة: ٢]، أي:" ولا يحملنكم بغضُ قوم كانوا قد صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم"[١٥].

قال ابن كثير:" أي: لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الحديبية، على أن تعتدوا في حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلمًا وعدوانًا، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في كل أحد، وهذه الآية كما سيأتي من قوله تعالى: { وَلَا

---

[١] تفسير الطبري:٤٧١/٩.
[٢] أخرجه الطبري(١٠٩٨١):ص٤٨١/٩.
[٣] أخرجه الطبري(١٠٩٧٩):ص٤٨٠/٩.
[٤] أخرجه الطبري(١٠٩٨٠):ص٤٨٠/٩.
[٥] أخرجه الطبري(١٠٩٨٣):ص٤٨١/٩.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٨٣):ص٤٨١/٩.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٨٢):ص٤٨١/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٨٤):ص٤٨١/٩.
[٩] انظر: الكشاف:٦٠٢/١.
[١٠] صفوة التفاسير:٣٠١.
[١١] النكت والعيون:٨/٢.
[١٢] الكشاف:٦٠٢/١.
[١٣] تفسير الإمام الشافعي:٦٩٥/٢.
[١٤] انظر: الكشاف:٦٠٢/١.
[١٥] صفوة التفاسير:٣٠١.

يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى } [المائدة: ٨] أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، في كل أحد في كل حال"(١).

وقال بعض السلف: "ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض(٢).

وفي قوله تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ} [المائدة: ٢]، ثلاثة اقوال .

أحدها: لا يحملنكم، وهو قول ابن عباس(٣)، وقتادة(٤)، والكسائي(٥)، وأبي العباس المبرد(٦)، والطبري(٧)، يقال: جرمني فلان على بغضك، أى حملني، قال الشاعر(٨):

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً ... جَرَمَتْ فَزارَةُ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا

والثاني: ولا يكسبنكم، يقال جرمت على أهلي، أي كسبت لهم، قاله الفراء(٩)، وأبو علي الفارسي(١٠)، وهو قول أكثر أهل اللغة والمعاني كما قاله الواحدي(١١)، ومنه قول أبي خراش الهذلي(١٢):

جريمة ناهض في رأس نيق ... ترى لعظام ما جمعت صليبا

قوله «جريمة»: أي كاسبة.

والثالث: لا يُحِقَّنَّ لَكُمْ. لأَنَّ قَوْلَهُ {لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ} انما هو حَقٌّ أَنَّ لَهُمْ النّارَ. وهذا قول الأخفش(١٣).

والاقوال الثلاثة متقاربة المعنى، لأنه من حمل رجلا على بغض رجل، فقد أكسبه بغضه، ومن أكسبه بغضه، فقد أحقَّه له، فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أحسن في الإبانة عن معنى الحرف، ما قاله ابن عباس وقتادة، وذلك توجيههما معنى قوله: {ولا يجرمنكم شنآن قوم}، ولا يحملنكم شنآن قومٍ على العدوان(١٤).

وفي قوله تعالى:{ شَنَئَانُ قَوْمٍ} [المائدة: ٢]، تأويلان:

أحدهما: معناه بغض قوم، وهذا قول ابن عباس(١٥) وقتادة(١٦)، وابن زيد(١٧).

---

(١) تفسير ابن كثير:١١/٢.

(٢) تفسير ابن كثير:١٢/٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٠):ص٤٨٣/٩.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩١):ص٤٨٣/٩.

(٥) انظر: النكت والعيون:٨/٢.

(٦) انظر: تهذيب اللغة" ١/ ٥٨٨ (جرم)، والنكت ولاعيون:٨/٢، والتفسير البسيط للواحدي:٢٣٢/٧.

(٧) انظر: تفسير الطبري٤٨٢/٩.

(٨) البيت لأبي أبو أسماء بن الضّريبة. ويقال : هو لعطية بن عفيف ، ونسبه سيبويه للفزاري مجهلا، انظر: الكتاب لسيبويه ١/ ٤٦٩ ، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ /١٤٧ ، مشكل القرآن : ٤١٨ ، والفاخر : ٢٠٠ ، الجواليقي : ١٦٣ ، البطليوسي : ٣١٣ ، الخزانة ٤ /٣١٠ ، اللسان (جرم). وسبب الشعر أن كرزًا العقيلي ، قتل أبا عيينة حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري يوم حاجر ، فلما قتل كرز ، قال الشاعر يرثيه ويخاطبه :

يَا كُرزُ ، إنَّكَ قَدْ قُتِلْتَ بِفَارِسٍ ... بَطَلٍ إذَا هَابَ الكُمَاةُ وَجَبَّبُوا

يقال: " جبب الرجل تجبيبًا " : إذا فر ومضى مسرعًا. وروى البكري في معجم ما استعجم أنه قال : يَا كُرْزُ إنَّكَ قد فَتَكْتَ بِفَارِسٍ ... بَطَلٍ إذَا هَابَ الكُمَاةُ مُجَرَّبِ

وكأنه شعر غير هذا الشعر.

(٩) انظر: معاني القرآن:٢٩٩/١.

(١٠) انظر: الحجة للقرا السبعة:١٩٦/٣.

(١١) انظر: التفسير البسيط:٢٣٢/٧.

(١٢)"ديوان الهذليين" ٢/ ١٣٣، و"الحجة" ٣/ ١٩٦، و"تهذيب اللغة" ١/ ٥٨٩ (جرم).

الناهض: فرخ العقاب، والنيق: أرفع موضع في الجبل. والصليب: ودك العظاء.

(١٣) انظر: معاني القرآن:٢٧١/١. واستشهد بالبيت الذي ذكره الفراء في القول السابق.

(١٤) انظر: تفسير الطبري:٤٨٤/٩.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٣)، و(١٠٩٩٤):ص٤٨٧/٩.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٥):ص٤٨٧/٩.

(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٦):ص٤٨٧/٩.

والثاني: عداوة قوم، وهو قول قتادة أيضا[1].
وقرأ: يحيى بين وثّاب، والأعمش:«وَلا يُجْرِمَنَّكُمْ»، برفع «الياء»، من:أجرمته أجرمه، وهو يُجْرِمني[2].
وقراءة القرآن بأفصح اللغات، أولى وأحق منها بغير ذلك، ومن لغة من قال " جَرَمْتُ "، قول الشاعر [3]:
يَا أَيُّهَا المُشْتَكِي عُكْلا وَمَا جَرَمَتْ إلى القَبَائِلِ مِنْ قَتْلٍ، وإبْآسُ[4]
وقرئ: «شَنْآنُ قَوْمٍ»، بتسكين «النون»، وفتح «الشين»، بمعنى: الاسم [5].
والفصيح من كلام العرب فيما جاء من المصادر« شَنَئَانُ» على «الفَعلان»، بفتح:«الفاء»، تحريك ثانيه دون تسكينه، من: شنئته أشنَؤُه شنآنًا، ومن العرب من يقول: «شَنَانٌ»،على تقدير«فعال»، ولم يقرأ ذلك كذلك، ومن ذلك قول الأحوص بن محمد الأنصاري[6]: الأنصاري[6]:
وَمَا العَيْشُ إلا مَا تَلَذُّ وتَشْتَهِي وَإنْ لامَ فِيهِ ذُو الشَّنَانِ وَفَنَّدَا
وهذا في لغة من ترك الهمز من «الشنآن»، فصار على تقدير: «فعال»، وهو في الأصل:«فَعَلان» [7].
قراءة عبد الله:« إن صدوكم»، بكسر « الألف»[8].
قوله تعالى:{وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى} [المائدة: ٢]، أي:" وتعاونوا -أيها المؤمنون فيما بينكم- على فِعْل الخير، وتقوى الله"[9].
قال ابن كثير:" يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى[10].
قال الزمخشري: أي:"على العفو والإغضاء،، ويجوز أن يراد العموم لكل بر"[11].
قال ابن عباس:"« البر»: ما أمرت به، و«التقوى»: ما نهيت عنه"[12]. وروي عن أبي العالية مثل ذلك[13].
قال ابن خويز منداد في أحكامه: "والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة «المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم

---

[1] انظر: النكت والعيون:٨/٢.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٢):ص٤٨٥/٩.
[3] البيت ينسب للفرزدق ، وليس في ديوان، مجالس ثعلب : ٤٩ ، ٥٠ ، والأضداد لابن الأنباري : ٨٥ ، والبيت مرفوع القافية وبعد البيت : إنّا كَذَاكَ ، إذَا كانَتْ هَمَرَّجَةٌ ... نَسْبِي ونَقْتُلُ حَتَّى يُسْلِمَ النَّاسُ " همرجة " : اختلاط وفتنة. وروى ثعلب هذين البيتين. ثم قال ، ولم يبين لمن كان هذا الخبر : " قلت له (يعني : للفرزدق) : لم قلت : من قتل ، وإبآس ؟ قال : كيف أصنع وقد قلت : حتى يسلم الناس ؟ قال قلت : فيم رفعته ؟ قال : بما يسوءك وينوءك! " .
ثم قال أبو العباس ثعلب : " وإنما رفعه ، لأن الفعل لم يظهر بعده ، كما تقول : ضربت زيدًا وعمرو لم يظهر الفعل فرفعت ، وكما تقول : ضربت زيدًا وعمرو مضروب " .
[4] انظر:تفسير الطبري:٤٨٥/٩.
[5] انظر:تفسير الطبري:٤٨٦/٩.
[6]طبقات فحول الشعراء : ٥٣٩ ، الأغاني ١٣ : ١٥١ - ١٥٣ ، مصارع العشاق : ٦٢ ، ٧٥ ، والشعر والشعراء : ٥٠١ ، واللسان (شنأ) ، وقلما يخلو منه كتاب بعد.
[7] انظر: تفسير الطبري:٤٨٦/٩-٤٨٧.
[8] انظر: تفسير الطبري:٤٨٨/٩، والكشاف:٦٠٣/١.
[9] التفسير الميسر:١٠٦.
[10] تفسير ابن كثير:١٢/٢.
[11] الكشاف:٦٠٣/١.
[12] أخرجه الطبري(١١٠٠٠):ص٤٩١/٩.
[13] انظر: تفسير الطبري(١١٠٠١):ص٤٩١/٩.

وهم يد على من سواهم»[1]، ويجب الإعراض عن المتعدي وترك النصرة له ورده عما هو عليه"[2].

قوله تعالى:{وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة: ٢]، أي:" ولا تعاونوا على ما فيه إثم ومعصية وتجاوز لحدود الله "[3].

قال الزمخشري: أي:"على الانتقام والتشفي، ويجوز أن يراد به تقوى وكل إثم وعدوان"[4].

قال القرطبي:{الإثم:}"وهو الحكم اللاحق عن الجرائم، وعن{العدوان}: وهو ظلم الناس"[5].

قال الطبري:"يعني: ولا يعن بعضكم بعضًا على ترك ما أمركم الله بفعله، ولا على أن تتجاوزوا ما حدَّ الله لكم في دينكم، وفرض لكم في أنفسكم وفي غيركم"[6].

قال ابن كثير:"ينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم"[7].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢]، أي:" واحذروا مخالفة أمر الله فإنه شديد العقاب"[8].

قال الطبري: يعني: واحذروا الله، أيها المؤمنون، أن تلقوه في معادكم وقد اعتديتم حدَّه فيما حدَّ لكم، وخالفتم أمره فيما أمركم به، أو نهيه فيما نهاكم عنه، فتستوجبوا عقابه، وتستحقوا أليم عذابه. ثم وصف عقابه بالشدة فقال عز ذكره: إن الله شديدٌ عقابه لمن عاقبه من خلقه، لأنها نار لا يطفأ حَرُّها، ولا يخمد جمرها، ولا يسكن لهبها، نعوذ بالله منها ومن عمل يقرّبنا منها"[9].
منها"[9].

قال القرطبي:" ثم أمر بالتقوى وتوعد توعدا مجملا فقال: {واتقوا الله إن الله شديد العقاب}"[10].

واختلفوا فيما نسخ من هذه الآية بعد إجماعهم على أن منها منسوخاً على ثلاثة أقاويل:
أحدهما: ان جميعها منسوخ، وهذا قول الشعبي[11]، والضحاك[12]، وقتادة-في إحدى الروايات-[13]، وابن زيد[14]، واختيار الزجاج[15].

قال الشعبي:"لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية"[16].

---

(1) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٢٢، وأخرجه أبو داود في السنن ٤/ ٦٦٦ - ٦٦٩، كتاب الديات (٣٣)، باب إيقاد المسلم. . . (١١)، الحديث (٤٥٣٠)، وأخرجه النسائي في المجتبى من السنن ٨/ ٢٤، كتاب القسامة (٤٥)، باب سقوط القَوَد من المسلم للكافر (١٣ - ١٤).
ونص الحديث: عن علي رضي اللَّهُ عنه، عن النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وسلم أنّه قال: "المسلمونَ تَتكافأُ دماؤهم، ويَسعَى بذِمَّتِهِم أَدناهم، ويَرُدُّ عليهم أَقْصاهم، وهُم يَدٌ على مَنْ سِواهم، ولا يُقتَلُ مسلمٌ بكافرٍ، ولا ذُو عهدٍ في عهدِه".

(2) نقلا عن تفسير القرطبي:٤٧/٦.

(3) التفسير الميسر:١٠٦.

(4) الكشاف:٦٠٣/١.

(5) تفسير القرطبي:٤٧/٦.

(6) تفسير الطبري:٤٩٠/٩.

(7) تفسير ابن كثير:١٢/٢.

(8) التفسير الميسر:١٠٦.

(9) تفسير الطبري:٤٩٢/٩.

(10) تفسير القرطبي:٤٧/٦.

(11) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٦٤)، و(١٠٩٦٦):ص٤٧٥/٩-٤٧٦.

(12) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٦٨)، و(١٠٩٦٩):ص٤٧٦/٩.

(13) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٦٧):ص٤٧٦/٩.

(14) انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧١):ص٤٧٦/٩.

(15) انظر: معاني القرآن:١٤٢/٢.

(16) أخرجه الطبري(١٠٩٦٦):ص٤٧٥/٩-٤٧٦، وانظر:(١٠٩٦٤):ص٤٧٥/٩.

والثاني: أن الذى نسخ منها:{وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ ءَآمِّينَ الْبَيتَ الْحَرَامَ}، وهذا قول ابن عباس[١]، وقتادة[٢]، والسدي[٣].
والثالث: أن الذي نسخ منها ما كانت الجاهلية تتقلده من لحاء الشجر، وهذا قول مجاهد[٤].
والرابع:أن أن الذى نسخ منها:{ولا يجرمنكم شنآن قوم أن تعتدوا}، وهذا قول ابن زيد أيضا[٥].
واعترض الطبري فقال:" غير منسوخ، لاحتماله: أن تعتدوا الحقَّ فيما أمرتكم به. وإذا احتمل ذلك، لم يجز أن يقال: هو منسوخ، إلا بحجة يجب التسليم لها"[٦].
والراجح من الاقوال هو القول الثاني، "قول من قال:نسخ الله من هذه الآية قوله:{ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام}، لإجماع الجميع على أن الله قد أحلّ قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة كلها، وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قَلَّد عنقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أمانًا من القتل، إذا لم يكن تقدَّم له عقد ذمة من المسلمين"[٧].
الفوائد:
١-وجوب احترام شعائر الدين كلها أداء لما وجب أداؤه، وتركاً لما وجب تركه.
٢- حرمة الاعتداء مطلقاً على الكافر.
٣- وجوب التعاون بين المؤمنين على إقامة الدين، ورحمة تعاونهم على المساس به.
القرآن
{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣)} [المائدة: ٣]
التفسير:
حرَّم الله عليكم الميتة، وهي الحيوان الذي تفارقه الحياة بدون ذكاة، وحرَّم عليكم الدم السائل المُراق، ولحم الخنزير، وما ذُكِر عليه غير اسم الله عند الذبح، والمنخنقة التي حُبِس نَفَسُها حتى ماتت، والموقوذة وهي التي ضُربت بعصا أو حجر حتى ماتت، والمُتَرَدِّية وهي التي سقطت من مكان عال أو هَوَت في بئر فماتت، والنطيحة وهي التي ضَرَبَتْها أخرى بقرنها فماتت، وحرَّم الله عليكم البهيمة التي أكلها السبُع، كالأسد والنمر والذئب، ونحو ذلك. واستثنى -سبحانه- مما حرَّمه من المنخنقة وما بعدها ما أدركتم ذكاته قبل أن يموت فهو حلال لكم، وحرَّم الله عليكم ما ذُبِح لغير الله على ما يُنصب للعبادة من حجر أو غيره، وحرَّم الله عليكم أن تطلبوا عِلْم ما قُسِم لكم أو لم يقسم بالأزلام، وهي القداح التي كانوا يستقسمون بها إذا أرادوا أمرًا قبل أن يقدموا عليه. ذلكم المذكور في الآية من المحرمات -إذا ارتُكبت- خروج عن أمر الله وطاعته إلى معصيته. الآن انقطع طمع الكفار من دينكم أن ترتدوا عنه إلى الشرك بعد أن نصَرْتُكم عليهم، فلا تخافوهم وخافوني. اليوم أكملت لكم دينكم دين الإسلام بتحقيق النصر وإتمام الشريعة، وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان، ورضيت لكم الإسلام دينًا فالزموه، ولا تفارقوه. فمن اضطرَّ في مجاعة إلى أكل الميتة، وكان غير مائل عمدًا لإثم، فله تناوله، فإن الله غفور له، رحيم به.

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧٥):ص٩/٤٧٧-٤٧٨.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧٢)، و(١٠٩٧٣):ص٩/٤٧٧، و(١٠٩٧٦):ص٩/٤٧٨.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧٤):ص٩/٤٧٧.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٧٧)، و(١٠٩٧٨):ص٩/٤٧٨-٤٧٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١٠٩٩٩):ص٩/٤٩٠.
[٦] تفسير الطبري:٩/٤٩٠.
[٧] تفسير الطبري:٩/٤٧٩.

قوله تعالى:{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة: ٣]، أي:" حُرّم عليكم -أيها المؤمنون- أكل الميتة: وهي ما مات حتف أنفه من غير ذكاة، والدم والمسفوح ولحم الخنزير"[١].

قال مقاتل:" يعني:أكل الميتة والدم ولحم الخنزير"[٢].

قال الطبري:" فالميتة والدم مخرجهما في الظاهر مخرج عموم، والمراد منهما الخصوص. وأما لحم الخنزير، فإن ظاهره كباطنه، وباطنه كظاهره، حرام جميعه، لم يخصص منه شيء"[٣].

وفي قوله تعالى:{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [المائدة: ٣]، وجهان[٤]:

أحدهما: أنه كل ما له نفس سائلة من دواب البر وطيره.

والثاني، أنه كل ما فارقته الحياة من دواب البر وطيره بغير ذكاة .

وفي تفسير {وَالدَّمُ} [المائدة: ٣]، قولان[٥]:

أحدهما: أن الحرام منه ما كان مسفوحاً، كقوله تعالى{أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً} [الأنعام: ١٤٥].

الثاني: أنه كل دم مسفوح وغير مسفوح، إلا ما خصته اسنة من الكبد والطحال.

قال الماتريدي:"فعلى القول الأول لا يحرم السمك، وعلى الثاني يحرم .

قال الطبري:" فإنه الدم المسفوح، دون ما كان منه غير مسفوح، لأن الله جل ثناؤه قال: {قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزير} [سورة الأنعام: ١٤٥]، فأما ما كان قد صار في معنى اللحم، كالكبد والطحال، وما كان في اللحم غير"[٦].

وفي قوله تعالى:{ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة: ٣]، وجهان:

أحدهما: أن التحريم يختص بلحم الخنزير دون شحمه، وهذا قول داود[٧].

والثاني: أنه يعم اللحم وما خالطه من شحم وغيره.

قال الماوردي: [والثاني] هو قول الجمهور، ولا فرق بين الأهلي منه والوحشي[٨].

قال الطبري:" يعني: وحُرِّم عليكم لحم الخنزير، أهليُّه وبَرِّيّه"[٩].

قوله تعالى:{وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} [المائدة: ٣]، أي:" وما ذُكِر عليه غير اسم الله عند الذبح"[١٠].

قال مقاتل:" يعني: الذي ذبح لأصنام المشركين ولغيرهم هذا حرام البتة، إن أدركت ذكاته أو لم تدرك ذكاته فإنه حرام البتة، لأنهم جعلوه لغير الله- عز وجل-"[١١].

قال ابن عثيمين: "المراد: ما ذكر عليه اسم غير الله عند ذبحه مثل أن يقول: «باسم المسيح»، أو «باسم جبريل»، أو «باسم اللات»، ونحو ذلك"[١٢].

قال الزجاج:" أي: ما رفع فيه الصوت بتسمية غير الله عليه وهذا موجود في اللغة، ومنه الإهلال بالحج إنما هو رفع الصوت بالتلبية"[١٣].

---

[١] صفوة التفاسير:٣٠١.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[٣] تفسير الطبري:٤٩٣/٩.
[٤] انظر: تفسير الطبري:٤٩٢/٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٤٩٣/٩، والنكت والعيون:١٠/٢.
[٦] تفسير الطبري:٤٩٣/٩.
[٧] انظر: النكت والعيون:١٠/٢.
[٨]النكت والعيون:١٠/٢.
[٩] تفسير الطبري:٤٩٣/٩.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٧.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[١٢] تفسير ابن عثيمين:٤٩٩/٣.
[١٣] معاني القرآن:٢٤٣/١.

قال أبو عبيدة:أي:" وما ذكر غير اسم الله عليه إذا ذبح أو نحر، وهى من استهلال الكلام"[١].

و«الإهلال»، هو رفع الصوت [٢].

قال الأصمعي: "الإهلال: أصله رفع الصوت، فكل رافع صوته فهو مهل، قال ابن أحمر [٣]:

يهل بالفرقد ركبانها   كما يهل الراكب المعتمر

هذا معنى الإهلال في اللغة، ثم قيل للمحرم: مهل، لرفعه الصوت بالتلبية، يقال: أهل فلان بحجة أو عمرة، أي: أحرم بها؛ وذلك لأنه يرفع الصوت بالتلبية عند الإحرام، والذابح مهل، وذلك لأنه كان يسمي الأوثان عند الذبح، ويرفع صوته بذكرها"[٤].

ومنه الحديث: "إذا استهل المولود ورث"[١].

قال الطبري: قيل أن العرب كانوا إذا أرادوا ذبح ما قرَّبوه لآلهتهم، سموا اسم آلهتهم التي قربوا ذلك لها، وجَهروا بذلك أصْواتَهم، فجرى ذلك من أمرهم على ذلك، حتى قيل لكل ذابح، سمَّى أو لم يُسمِّ، جهر بالتسمية أو لم يجهر: (مُهِلٌّ)، فرفعهم أصواتهم بذلك هو (الإهلال) الذي ذكره الله تعالى فقال:{وما أهِلَّ به لغير الله}، ومن ذلك قيل للملبِّي في حَجة أو عمرة «مُهِلّ»، لرفعه صوته بالتلبية، واستهلال المطر، وهو صوت وُقوعه على الأرض، كما قال الشاعر[٥]:

ظَلَمَ البِطَاحَ لَهُ انْهِلالُ حَرِيصَةٍ   فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَعِ[٦]

وفي تفسير قوله تعالى: {وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ} [المائدة: ٣]، وجهان:

أحدهما: أنه يعني: ما ذبح لغير الله. وهذا قول ابن عباس[٧]، وقتادة[٨]، ومجاهد[٩]، والضحاك[١٠]، وعطاء[١١].

---

[١] مجاز القرآن:١٤٩/١.

[٢] انظر: معاني القرآن للزجاج:٢٤٣/١.

[٣]البيت في "ديوانه" ص ٦٦، "مجاز القرآن" ١/ ١٥٠، "غريب الحديث" لأبي عبيد ١/ ١٧٣، "تفسير السمعاني" ٢/ ١٣٠، الثعلبي ١/ ١٣٤٦، "لسان العرب" ٣/ ١٥٩٥، و ١٧١٤، ٥/ ٣١٠٢.

واسمه عمرو بن أحمر بن العمرو بن تميم بن ربيعة الباهلي، أبو الخطاب، أدرك الإسلام فأسلم، وغزا مغازي الروم، وأصيبت إحدى عينيه هناك، ونزل الشام، وتوفي على عهد عثمان، وهو صحيح الكلام، كثير الغرائب. ينظر: "طبقات فحول الشعراء" ٢/ ٥٧١، و ٥٨٠، و"الشعر والشعراء" ص ٢٢٣.

[٤] التفسير البسيط: ٤٩٩/٣، وانظر: في الإهلال: تفسير الطبري" ٣/ ٣١٩، والثعلبي:٤٤/٢، والمفردات" ص ص ٥٢٢، واللسان" ٨/ ٤٦٨٩.

[١] أخرجه أبو داود ص١٤٤١، كتاب الفرائض، باب ١٨: في المولود يستهل ثم يموت، حديث رقم ٢٩٢٠، وأخرجه بطريق آخر ابن ماجة ص٢٦٤٢، كتاب الفرائض، باب ١٧: إذا استهل لمولود ورث، حديث رقم ٢٧٥١؛ وقال الألباني في الإرواء: سنده صحيح (١٤٩/٦)؛ فالحديث صحيح بشواهده [راجع الإرواء ١٤٧/٦ – ١٥٠، حديث رقم ١٢٠٧ والسلسلة الصحيحة للألباني ٢٣٣/١ – ٢٣٥، أحاديث رقم ١٥١، ١٥٢، ١٥٣].

[٥] البيت الحادرة الذبياني ، انظر: ديوانه: قصيدة : ٤ ، البيت رقم : ٧ ، وشرح المفضليات : ٥٤ . والبطاح جمع بطحاء وأبطح : وهو بطن الوادي . وأنهل المطر انهلالا : اشتد صوبه ووقعه . والحريصة والحارصة : السحابة التي تحرص مطرتها وجه الأرض ، أي تقشره من شدة وقعها . والنطاف جمع نطفة : وهي الماء القليل يبقى في الدلو وغيره . وقوله : " بعيد المقلع " : أي بعد أن أقلعت هذه السحابة . ورواية المفضليات : " ظلم البطاح له " وقوله : " له " : أي من أجله .

[٦] انظر: تفسير الطبري: ٣١٩/٣-٣٢٠.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧١):ص٣٢٠/٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٢٤٦٨):ص٣٢٠/٣.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٠):ص٣٢٠/٣.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٢):ص٣٢٠/٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٤):ص٣٢٠/٣.

والثاني:أن معنى ذلك: ما ذكر عليه غير اسم الله. وهذا قول الربيع بن أنس[١]، وابن زيد[٢]، وعقبة بن مسلم التُّجيبي[٣]، وقيس بن رافع الأشجعي [٤].

قوله تعالى:{وَالْمُنْخَنِقَةُ} [المائدة: ٣]، أي:" وما ذُكِر عليه غير اسم الله عند الذبح"[٥].

قال مقاتل:" يعني: وحرم المنخنقة: الشاة والإبل والبقر التي تنخنق أو غيره حتى تموت"[٦].

قوله تعالى:{وَالْمَوْقُوذَةُ} [المائدة: ٣]،أي:"والتي ضُربت بعصا أو حجر حتى ماتت"[٧].

قال مقاتل:" يعني: التي تضرب بالخشب حتى تموت"[٨].

قال ابن كثير:" هي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هي التي تضرب بالخَشَب حتى تُوقَذَ بها فتموت"[٩].

وفي الصحيح: أن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمي بالمِعراض الصيد فأصيب. قال: "إذا رميت بالمعراض فخَزَق فَكُلْه، وإن أصابه بعَرْضِه فإنما هو وَقِيذ فلا تأكله"[١٠].

قال ابن كثير:"ففرق بين ما أصابه بالسهم، أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيذا فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم هاهنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحةُ الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله: أحدهما: أنه لا يحل، كما في السهم، والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ. والثاني: أنه يحل ؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه ؛ لأنه قد دخل في العموم"[١١].

قوله تعالى:{وَالْمُتَرَدِّيَةُ} [المائدة: ٣]، أي:" والتي سقطت من مكان عال أو هَوَت في بئر فماتت"[١٢].

قال مقاتل:" يعني: التي تردى من الجبل فتقع منه أو تقع في بئر فتموت"[١٣].

قال ابن كثير:" فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل"[١٤].

قوله تعالى:{وَالنَّطِيحَةُ} [المائدة: ٣]، أي:" والتي ضَرَبَتْها بهيمة أخرى بقرنها فماتت"[١٥].

قال مقاتل:" يعني: الشاة تنطح صاحبتها فتموت"[١٦].

قال ابن كثير:" هي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها"[١٧].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٥):ص٣٢١/٣.
[٢] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٦):ص٣٢١/٣.
[٣] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٧):ص٣٢١/٣.
[٤] انظر: تفسير الطبري(٢٤٧٧):ص٣٢١/٣.
[٥] التفسير الميسر:١٠٧.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[٧] التفسير الميسر:١٠٧.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[٩] تفسير ابن كثير:١٨/٣.
[١٠]رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٤٧٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٩٢٩) .
[١١] تفسير ابن كثير:١٨/٣.
[١٢] التفسير الميسر:١٠٧.
[١٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[١٤] تفسير ابن كثير:٢١/٢.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٧.
[١٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.
[١٧] تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

قوله تعالى:{وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ} [المائدة: ٣]، أي:" وحرَّم الله عليكم البهيمة التي أكلها السبُع"[١].

قال مقاتل:"من الأنعام والصيد، يعني: فريسة السبع"[٢].

قال ابن كثير:" أي: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين"[٣].

قوله تعالى:{إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ} [المائدة: ٣]، أي:" إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت"[٤].

قال مقاتل:" يعني: إلا ما أدركتم ذكاته من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ...حلال "[٥].

قال الزجاج:أي:" ما أذكيتم ذبحة على التمام"[٦].

قال الطبري:أي:" إلا ما طهرتموه بالذبح الذي جعله الله طهورًا"[٧].

وفي قوله تعالى:{إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ} [المائدة: ٣]، وجوه:

أحدهما: يعني: من المنخنقة وما بعدها، وأنه من قبيل الإستثناء المتصل، وهذا قول علي رضي الله عنه[٨]، وابن عباس[٩]، وقتادة[١٠]، والحسن[١١]، والضحاك[١٢]، وإبراهيم[١٣]، وطاوس[١٤]، وطاوس[١٤]، وعبيد بن عمير[١٥]، وابن زيد[١٦]، وواختيار الطبري[١٧] والجمهور[١٨].

قال ابن كثير:" قوله: { إلا مَا ذَكَّيْتُمْ } عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: { وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ }"[١٩].

والثاني: أنه من الإستثناء المنقطع، وأنه عائد إلى ما أكل السبع خاصة، وهو محكي عن الظاهرية[٢٠] .

والراجح –والله أعلم- هو القول الاول، وهو اختيار الجمهور من الفقهاء، وبهذا الاعتبار يكون الاستثناء من قبيل الاستثناء المتصل،{ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ }[سورة المائدة:٣]، يعني: مما أدركتم فيه الحياة من هذه المذكورات، كالتي سقطت في بئر، أو التي سقطت من السطح، أو التي

---

(١) التفسير الميسر:١٠٧.

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥١/١.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٢/٢.

(٤) صفوة التفاسير:٣٠١.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.

(٦) معاني القرآن:١٤٦/٢.

(٧) تفسير الطبري:٥٠٢/٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٦)، و(١١٠٣٨):ص٥٠٣/٩.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٢):ص٥٠٢/٩.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٤)، و(١١٠٣٥):ص٥٠٣/٩.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٣):ص٥٠٢/٩.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١١٠٤٣):ص٥٠٤/٩.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٧):ص٥٠٣/٩.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١١٠٣٩):ص٥٠٤/٩.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١١٠٤٢):ص٥٠٤/٩.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١١٠٤٤):ص٥٠٤/٩.

(١٧) انظر: تفسير الطبري:٥٠٥/٩.

(١٨) انظر: النكت والعيون:١١/٢.

(١٩) تفسير ابن كثير:٢٤/٢.

(٢٠) انظر:تفسير الطبري: ٥٠٥/٩، و النكت والعيون:١١/٢، وزاد المسير:٢٣٦/٢.

صدمتها السيارة أو التي أصابها حجر أو نحو هذا فأدركتم فيها حياة، أي فيه رمق بأن تتحرك رجل أو يد أو نحو هذا وإن كانت في حال الاحتضار فإنها إذا ذكيت جاز أكلها، وإن كانت قد خرجت نفسها فلا يجوز أكلها، هذا الذي عليه عامة أهل العلم وهم الجمهور .

وفي الصحيحين عن رافع بن خَدِيج أنه قال: "قلت: يا رسول الله، إنا لاقوا العدو غدًا وليس معنا مُدى، أفنذبح بالقصب؟ فقال :ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنَّ والظفر، وسأحدثكم عن ذلك، أما السنُّ فعظم، وأما الظفر فمُدَى الحبشة"[1].

و«المُدَى»:جمع مُدْية،وهي السكين، وهذا مما يستدل به على أن متروك التسمية ولو نسيانًا لا يحل وإن ذبح لله قصدًا؛ لأنه ذكر هنا شرطين:

- الشرط الأول لا بد منه، وهو ما أنهر الدم بقطع الأوداج، ولذلك الذي يقطع في الذبيحة أربعة أشياء: الودجان، وهما عرقان محيطان بالعنق، والحلقوم، وكذلك القصبة الهوائية، والمريء، فإذا قطعت الأوداج حلت الذبيحة، والأكمل في التذكية قطع الأربعة، ويليه قطع ثلاثة.
- والثاني:ذكر اسم الله، وهو قوله:« بسم الله».

فالحاصل أنه قال :ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، «ليس السن والظفر»، يعني: سوى السن والظفر.

قال الرسول-ﷺ-:«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[2].

وعن أبي واقد الليثي قال: قال رسول الله ﷺ: "ما قطع من البهيمة وهي حية، فهو ميتة"[3].

ميتة"[3].

وقال عاصم عن عكرمة: "إن رجلا أضجع شاته وجعل يحد شفرته ليذبحها، فقال له النبي ﷺ: «تريد أن تميتها موتات قبل أن تذبحها!»"[4].

وفى مأكولة السبع التي تحل بالذكاة قولان[5]:

أحدهما: أن تكون لها عين تطرف أو ذنب يتحرك .

والثاني: أن تكون فيها حركة قوية لا كحركة المذبوح، وهو قول الشافعي[6]، ومالك[7].

قوله تعالى:{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ} [المائدة: ٣]، أي:" وحرَّم الله عليكم ما ذُبِح لغير الله على ما يُنصب للعبادة من حجر أو غيره"[8].

قال مقاتل:" يعني: وحرم ما ذبح على النصب وهي الحجارة التي كانوا ينصبونها في الجاهلية فيعبدونها فهو حرام البتة، وكان خزان الكعبة يذبحون لها وإن شاءوا بدلوا تلك الحجارة بحجارة أخرى وألقوا الأولى"[9].

قال ابن عباس:" و {النصب}، أنصاب كانوا يذبحون ويُهِلُّون عليها"[10].

عن مجاهد:"{وما ذبح على النصب}، قال: حجارة كان يذبح عليها أهل الجاهلية"[11].

---

١. [1]أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها (٦٩٦٢) (ج ٦ / ص ٢٦٩٢) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩)(.

[2]صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

[3]المسند (٢١٨/٥) وسنن أبي داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذي برقم (١٤٨٠) .

[4]المستدرك للحاكم: ٤/ ٢٣١، وتفسير الثعلبي:١٤/٤.

[5] انظر: النكت والعيون:١١/٢.

[6] انظر: النكت والعيون:١١/٢.

[7] انظر: النكت والعيون:١١/٢.

[8] التفسير الميسر:١٠٧.

[9] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.

[10] أخرجه الطبري(١١٠٥٤):ص٥٠٩/٩.

[11] أخرجه الطبري(١١٠٤٩):ص٥٠٨/٩.

قال قتادة:" ورالنصب}: حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها، ويذبحون لها، فنهى الله عن ذلك"[١].

قال ابن جريج:" قال ابن جريج:" {النصب}، ليست بأصنام، «الصنم» يصوَّر وينقش، وهذه حجارة تنصب، ثلثمئة وستون حجرًا منهم من يقول ثلثمئة منها لخزاعة، فكانوا إذا ذبحوا نضحوا الدم على ما أقبل من البيت وشرَّحوا اللحم وجعلوه على الحجارة، فقال المسلمون: يا رسول الله، كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم، فنحن أحقُّ أن نعظمه! فكأن النبي -ﷺ- لم يكره ذلك، فأنزل الله:{لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا} [سورة الحج: ٣٧]"[٢].

وقال ابن زيد:" {ما ذبح على النصب}، و {ما أهل لغير الله به}، وهو واحد"[٣].

قوله تعالى:{وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ} [المائدة: ٣]، أي:" وحرَّم الله عليكم أن تطلبوا عِلْم ما قُسِم لكم أو لم يقسم بالأزلام"[٤].

قال مقاتل:" يعنى: وأن تستقسموا الأمور بالأزلام والأزلام قد حان في بيت أصنامهم، فإذا أرادوا أن يركبوا أمرا أتوا بيت أصنامهم فضربوا بالقدحين، فما خرج من شيء عملوا به، وكان كتب على أحدهما أمرني ربي، وعلى الآخر نهاني ربي، فإذا أرادوا سفرا أتوا ذلك البيت فغطوا عليه ثوبا ثم يضربون بالقدحين فإن خرج السهم الذي فيه أمرني ربي خرج في سفره، وإن خرج السهم الذي فيه نهاني ربي لم يسافر فهذه الأزلام "[٥].

قال الماوردي:" معناه أن تطلبوا علم ما قُسِّمَ أو لم يُقَسَّم من رزق أو حاجة بالأزلام، وهي قداح ثلاثة مكتوبة على أحدها: أمرني ربي، والآخر: نهاني ربي، والثالث: غفل لا شيء عليه، فكانوا إذا أرادوا سفراً، أو غزواً، ضربوا بها واستسقسموا، فإن خرج أمرني ربي فعلوه، وإن خرج نهاني ربي تركوه، وإن خرج الأبيض أعادوه، فنهى الله عنه، فَسُمِّي ذلك استقساماً، لأنهم طلبوا به علم ما قُسِمَ لهم"[٦].

وقال أبو العباس المبرد: "بل هو مشتق من قَسَم اليمين، لأنهم التزموا ما يلتزمونه، باليمين"[٧].

عن مجاهد:"{وأن تستقسموا بالأزلام}، حجارة كانوا يكتبون عليها، يسمونها: القِداح"[٨].
القِداح"[٨].

عن سعيد بن جبير:"{وأن تستقسموا بالأزلام}، قال: القداح، كانوا إذا أرادوا أن يخرجوا في سفر جعلوا قداحًا للجلوس والخروج. فإن وقع الخروج خرجوا، وإن وقع الجلوس جلسوا"[٩].

قال الحسن:" كانوا إذا أرادوا أمرًا أو سفرًا، يعمَدون إلى قداح ثلاثة، على واحد منها مكتوب:أؤمرني، وعلى الآخر: انهني، ويتركون الآخر محلَّلا بينهما ليس عليه شيء. ثم يجيلونها، فإن خرج الذي عليه: أؤمرني، مضوا لأمرهم. وإن خرج الذي عليه: انهني، كفُّوا، وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعادوها"[١٠].

قال قتادة:" كان الرجل إذا أراد أن يخرج مسافرًا، كتب في قدح: هذا يأمرني بالمكث، وهذا يأمرني بالخروج، وجعل معهما منيحة[١١]، شيء لم يكتب فيه شيئًا، ثم استقسم بها حين

---

[١] أخرجه الطبري(١١٠٥٢):ص٥٠٩/٩.
[٢] أخرجه الطبري(١١٠٤٨):ص٥٠٨/٩.
[٣] أخرجه الطبري(١١٠٥٧):ص٥٠٩/٩.
[٤] التفسير الميسر:١٠٧.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.
[٦] النكت والعيون:١١/٢-١٢.
[٧] النكت والعيون:١١/٢-١٢.
[٨] أخرجه الطبري(١١٠٦١):ص٥١١/٩.
[٩] أخرجه الطبري(١١٠٥٨):ص٥١١/٩.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٠٦٠):ص٥١١/٩.
[١١]هي الناقة أو الشاة المعارة، فسمى هذا الشيء الذي لا أمر له في الاستقسام " منيحة " ، كما سموا شبيهه في

يريد أن يخرج. فإن خرج الذي يأمر بالمكث مكث، وإن خرج الذي يأمر بالخروج خرج، وإن خرج الآخر أجالها ثانية حتى يخرج أحد القِدْحين"[١].

قال السدي:" {الأزلام}، قداح كانت في الجاهلية عند الكهنة، فإذا أراد الرجل أن يسافر، أو يتزوج، أو يحدث أمرًا، أتى الكاهن فأعطاه شيئًا، فضرب له بها. فإن خرج منها شيء يعجبه، أمره ففعل. وإن خرج منها شيء يكرهه، نهاه فانتهى، كما ضرب عبد المطلب على زمزم، وعلى عبد الله والإبل"[٢].

وقال إبن إسحاق:" كانت هُبَل أعظم أصنام قريش بمكة، وكانت على بئر في جوف الكعبة، وكانت تلك البئْر هي التي يجمع فيها ما يُهدي للكعبة. وكانت عند هبل سبعة أقْدُح كل قِدْح منها فيه كتاب. قدح فيه: العقل، إذا اختلفوا في العقل من يحمله منهم، ضربوا بالقداح السبعة، فإن خرج العقل، فعلى من خرج حمله وقدح فيه: نعم للأمر إذا أرادوه، يضرب به، فإن خرج قدح نعم عملوا به. وقدح فيه: لا ، فإذا أرادوا أمرًا ضربوا به في القداح، فإذا خرج ذلك القدح، لم يفعلوا ذلك الأمر. وقِدْح فيه: منكم . وقدح فيه: مُلْصَق . وقدح فيه: من غيركم . وقدح فيه: المياه ، إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلامًا أو أن ينكحوا مَنكحًا، أو أن يدفنوا ميتًا، أو شكوا في نسب واحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمئة درهم، وبجَزور، فأعطوها صاحب القداح الذي يضربها، ثم قرّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون، ثم قالوا: يا إلهنا، هذا فلان بن فلان، قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب ، فيضرب، فإن خرج عليه منكم كان وسيطًا، وإن خرج عليه:من غيركم ، كان حليفًا وإن خرج ملصق كان على منزلته منهم، لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شيء سوى هذا مما يعملون به نعم ، عملوا به. وإن خرج لا ، أخّروه عامهم ذلك حتى يأتوا به مرة أخرى. ينتهون في أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح"[٣].

وقال الطبري:" قال لنا سفيان بن وكيع:هو الشطرنج"[٤].

قوله تعالى:{ذَلِكُمْ فِسْقٌ} [المائدة: ٣]، أي:" ذلكم المذكور في الآية من المحرمات -إذا ارتُكبت- خروج عن أمر الله وطاعته إلى معصيته"[٥].

قال ابن عباس:"، يعني: من أكل من ذلك كله فهو فسق"[٦].

قال مقاتل:" يعني معصية حراما"[٧].

قال الطبري:يعني:" هذه الأمور التي ذكرها، وذلك: أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذكر في هذه الآية مما حرم أكله، والاستقسام بالأزلام، فسق ، يعني: خروج عن أمر الله عز ذكره وطاعته، إلى ما نهى عنه وزجر، إلى معصيته"[٨].

قوله تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ} [المائدة: ٣]، أي:"الآن انقطع طمع الكفار من دينكم أن ترتدوا عنه إلى الشرك بعد أن نصَرْتُكم عليهم"[٩].

قال ابن زيد:"هذا يوم عرفة"[١٠].

الميسر " منيحًا " وهو المستعار.

[١] أخرجه الطبري(١١٠٦٦):ص٥١٢/٩.

[٢] أخرجه الطبري(١١٠٧٠):ص٥١٣/٩.

[٣] أخرجه الطبري(١١٠٧٢):ص٥١٣/٩-٥١٤.

[٤] تفسير الطبري:٥١١/٩.

[٥] التفسير الميسر:١٠٧.

[٦] أخرجه الطبري(١١٠٧٤):ص٥١٤/٩.

[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.

[٨] تفسير الطبري:٥١٤/٩.

[٩] التفسير الميسر:١٠٧.

[١٠] أخرجه الطبري(١١٠٧٨):ص٥١٧/٩.

وقال الزجاج:" {اليوم}، منصوب على الظرف، وليس يراد به - والله أعلم - يوما بعينه"[1].

وفي قوله تعالى:{الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ} [المائدة: ٣]، وجهان:
أحدهما: أن ترتدوا عنه راجعين إلى دينهم . وهذا قول ابن عباس[2]، والسدي[3].
والثاني: أن يقدروا على إبطاله ويقدحوا فى صحته[4].

قوله تعالى:{فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: ٣]، أي:"، فلا تخافوهم وخافوني"[5].

قال ابن جريج:" فلا تخشوهم أن يظهروا عليكم"[6].

قال الماوردي:أي:" أى لا تخشوهم أن يظهروا عليكم، واخشونِ، أن تخالفوا أمري"[7].

قوله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣]، أي:"اليوم أكملت لكم دينكم دين الإسلام بتحقيق النصر وإتمام الشريعة"[8].

قال مقاتل:" يعنى: شرائع دينكم: أمر حلالكم وحرامكم "[9].

وفي قوله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: ٣]، وجهان:
أحدهما: أنه يوم عرفة فى حجة الوداع ولم يعش [الرسول -ﷺ-] بعد ذلك إلاَّ إحدى وثمانين ليلة، وهذا قول ابن عباس، والسدي .
والثاني: أنه زمان النبي -ﷺ- كله إلى أنْ نَزَل ذلك عليه يوم عرفة، وهذا قول الحسن .
وفي إكمال الدين قولان:
أحدهما: يعني أكملت فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي، ولم ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- من الفرائض من تحليل ولا تحريم، وهذا قول ابن عباس[10]، والسدي[11].

قال ابن جريج:" مكث النبي ﷺ بعد ما نزلت هذه الآية، إحدى وثمانين ليلة، قوله: اليوم أكملت لكم دينكم"[12].

عن هارون بن عنترة، عن أبيه قال: "لما نزلت: اليوم أكملت لكم دينكم ، وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: ما يبكيك ؟ قال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل، فإنه لم يكمل شيء إلا نقص! فقال: صدقت"[13].
والثاني: يعني اليوم أكملت لكم حجتكم، أن تحجوا البيت الحرام، ولا يحج معكم مشرك، وهذا قول قتادة[14]، وسعيد ابن جبير[15]، والحكم[16].

والراجح من القول: أن الله عز وجل أخبر نبيه ﷺ والمؤمنين به، أنه أكمل لهم يوم أنزل هذه الآية على نبيه دينَهم، بإفرادهم بالبلدَ الحرام وإجلائه عنه المشركين، حتى حجَّه المسلمون

---

[1] معاني القرآن:١٤٧/٢.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١٠٧٥):ص٥١٥/٩.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٠٧٦):ص٥١٥/٩.
[4] انظرك النكت والعيون:١٢/٢.
[5] التفسير الميسر:١٠٧.
[6] أخرجه الطبري(١١٠٧٩):ص٥١٧/٩.
[7] النكت والعيون:١٢/٢.
[8] التفسير الميسر:١٠٧.
[9] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.
[10] انظر: تفسير الطبري(١١٠٨٠):ص٥١٨/٩.
[11] انظر: تفسير الطبري(١١٠٨١):ص٥١٨/٩.
[12] أخرجه البري(١١٠٨٢):ص٥١٨/٩-٥١٩.
[13] أخرجه البري(١١٠٨٣):ص٥١٩/٩.
[14] انظر: تفسير الطبري(١١٠٨٦):ص٥٢٠/٩.
[15] انظر: تفسير الطبري(١١٠٨٧):ص٥٢٠/٩.
[16] انظر: تفسير الطبري(١١٠٨٥):ص٥١٩/٩.

دونهم لا يخالطهم المشركون، فأما الفرائض والأحكام، فإنه قد اختلف فيها: هل كانت أكملت ذلك اليوم، أم لا ؟ فروي عن ابن عباس والسدّي ما ذكرنا عنهما قبل.

وروي عن البراء بن عازب:" آخر آية نزلت من القرآن: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ}"[1].

ولا يدفع ذو علم أن الوحي لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أن قُبِض، بل كان الوحي قبل وفاته أكثر ما كان تتابعًا. فإذ كان ذلك كذلك وكان قوله:{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ} آخرَها نزولا وكان ذلك من الأحكام والفرائض كان معلومًا أن معنى قوله: {اليوم أكملت لكم دينكم}، على خلاف الوجه الذي من تأوَّله بكمال العبادات والأحكام والفرائض [2].

عن قبيصة قال، قال كعب: "لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية[3]، لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم، فاتخذوه عيدًا يجتمعون فيه! فقال عمر: أيُّ آية يا كعب؟ فقال:"اليوم أكملت لكم دينكم". فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت فيه، والمكان الذي أنزلت فيه: يوم جمعة، ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيدٌ"[4].

قوله تعالى:{وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي} [المائدة: ٣]،أي:"وأتممت عليكم نعمتي بإخراجكم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان"[5].

قال مقاتل:" يعني:الإسلام إذ حججتم وليس معكم مشرك "[6].

قوله تعالى:{وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، أي:"ورضيت لكم الإسلام دينًا فالزموه، ولا تفارقوه"[7].

قال مقاتل:" يعني: واخترت لكم الإسلام دينا فليس دين أرضى عند الله- عز وجل- من الإسلام قال سبحانه: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[8]"[9].

قال الماوردي:" أي: رضيت لكم الاستسلام لأمري ديناً، اي طاعة"[10].

قوله تعالى:{فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣]، أي:" فمن اضطرَّ في مجاعة إلى أكل الميتة، وكان غير مائل عمدًا لإثم، فله تناوله، فإن الله غفور له، رحيم به"[11].

قال مقاتل:" يعني: مجاعة وجهد شديد أصابه من الجوع، {غير متجانف لإثم}: غير متعمد لمعصية، {فإن الله غفور رحيم}، إذ رخص له في أكل الميتة ولحم الخنزير حين أصابه الجوع الشديد والجهد، وهو على غير المضطر حرام"[12].

قال الطبري:" فإن الله لمن أكل ما حرمت عليه بهذه الآية أكله، في مخمصة، غير متجانف لإثم غفور رحيم ، يقول: يستر له عن أكله ما أكل من ذلك، بعفوه عن مؤاخذته إياه، وصفحه عنه وعن عقوبته عليه رحيم ، يقول: وهو به رفيق. ومن رحمته ورفقه به أباح له

---

(١) أخرجه الطبري(١٠٨٧١):ص٤٣٤/٩.

(٢) انظر: تفسير الطبري:٥٢٠/٩-٥٢١.

(٣) يقصد قوله تعالى:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة : ٣].

(٤) أخرجه الطبري(١١١٠٠):ص٥٢٦/٩.

(٥) التفسير الميسر:١٠٧.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.

(٧) التفسير الميسر:١٠٧.

(٨) [سورة آل عمران : ٨٥].

(٩) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١.

(١٠) النكت والعيون:١٢/٢.

(١١) التفسير الميسر:١٠٧.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٢/١-٤٥٣

أكل ما أباح له أكله من الميتة وسائر ما ذكر معها في هذه الآية، في حال خوفه على نفسه من كَلَب الجوع وضُرِّ الحاجة العارضة ببدنه"[١].

قال ابن كثير:" أي: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له ؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبَّان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رُخْصته كما يكره أن تؤتى مَعْصِيته»، لفظ ابن حبان[٢]. وفي لفظ لأحمد:«من لم يقبل رُخْصَة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة»[٣]".
عرفة»[٣]".

ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجبًا في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على مهجته التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوبا، وقد يكون مباحا بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرَّمَق، أو له أن يشبع، أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيدًا وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك الطعام ويضمن بدله ؟ على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضي عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاما، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له"[٤].

قال مسروق: "من اضطُرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة"[٥].

قال أبو واقد الليثي: "قلنا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا فيها مخمصة، فما يصلح لنا من الميتة ؟ قال: إذا لم تصطبحوا، أو تغتبقوا، أو تحتفئوا بقلا فشأنَكم بها"[٦].

وعن الحسن: "أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فقال: إلى متى يحلُّ لي الحرام ؟ قال فقال: إلى أن يروَى أهلك من اللبن، أو تجيء مِيرَتُهم "[٧].

وعن عروة بن الزبير، عمن حدثه: "أن رجلا من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذي حرّم الله عليه، والذي أحل له، فقال النبي ﷺ: تحل لك الطيبات، وتحرُم عليك الخبائث، إلا أن تفتقر إلى طعام لا يحل لك، فتأكل منه حتى تستغني عنه. فقال الرجل: وما فقري الذي يُحِلّ لي ؟ وما غناي الذي يغنيني عن ذلك ؟ فقال النبي ﷺ: إذا كنت ترجو نتاجًا، فتبلَّغ بلحوم ماشيتك إلى نِتاجك، أو كنت ترجو غنًى تطلبه، فتبلَّغ من ذلك شيئًا، فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغني عنه. فقال الأعرابي: ما غِناي الذي أدعه إذا وجدته ؟ فقال النبي ﷺ: إذا أرويت أهلك غَبُوقًا من الليل، فاجتنب ما حرَّم الله عليك من طعام، وأمّا مالُك فإنه ميسور كله، ليس فيه حرام"[٨].

وفي قوله تعالى:{غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ} [المائدة: ٣]، قولان:

أحدهما: غير متعمد لإثم، وهذا قول ابن عباس[٩]، والحسن، وقتادة[١٠]، ومجاهد[١١]، والسدي[١٢]، وابن زيد[١٣].

---

[١] تفسير الطبري:٥٣٧/٩.

[٢] صحيح ابن حبان برقم (٥٤٥) "موارد" وقال الهيثمي في المجمع (١٦٢/٣) : "رجاله رجال الصحيح".

[٣] المسند (١٠٨/٢).

[٤] تفسير ابن كثير:٢٩/٣.

[٥] تفسير ابن كثير: ٤٨٢/١.

[٦] أخرجه الطبري(١١١٢٥):ص٥٣٨/٩.

[٧] أخرجه الطبري(١١١٢٦):ص٥٣٩/٩. و الميرة (بكسر الميم) : هو جلب الطعام.

[٨] أخرجه الطبري(١١١٢٩):ص٥٤٠/٩-٥٤١.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١١١١٩):ص٥٣٦/٩.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١١٢١)، و(١١١٢٢):ص٥٣٦/٩.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١١١٢٠):ص٥٣٦/٩.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١١٢٣):ص٥٣٦/٩.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١١٢٤):ص٥٣٧/٩.

والثاني: غير مائل إلى إثم، والمتجانف لإثم، هو: المتمايل له، وأصله من:جنف القوم، إذا مالوا، وكل أعوج عند العرب أجنف. وهذا قول الطبري[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: والله سبحانه وتعالى أباح لنا الميتة بثلاثة شروط[2]:

١- الضرورة.

٢- أن لا يكون مبتغياً – أي طاباً لها -.

٣- أن لا يكون متجاوزاً للحد الذي تندفع به الضرورة.

وبناءً على هذا ليس له أن يأكل حتى يشبع إلا إذا كان يغلب على ظنه أنه لا يجد سواها عن قرب؛ وهذا هو الصحيح؛ ولو قيل: بأنه في هذه الحال يأكل ما يسد رمقه، ويأخذ شيئاً منها يحمله معه - إن اضطر إليه أكل، وإلا تركه - لكان قولاً جيداً.

الفوائد:

١- من فوائد الآية: تحريم الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله.

٢- ومنها: أن التحريم والتحليل إلى الله؛ لقوله تعالى: { إنما حرم عليكم }.

٣-ومن فوائد الآية: تحريم جميع الميتات؛ لقوله تعالى: { والميتة }؛ و «أل» هذه للعموم إلا أنه يستثنى من ذلك السمك، والجراد - يعني ميتة البحر، والجراد -؛ للأحاديث الواردة في ذلك؛ والمحرم هنا هو الأكل؛ لقول النبي ﷺ في الميتة: «إنما حرم أكلها»[4]؛ ويؤيده أن الله سبحانه وتعالى قال هنا: {كلوا من طيبات ما رزقناكم} [البقرة: ٥٧]، ثم قال تعالى: { إنما حرم عليكم الميتة }؛ لأن السياق في الأكل؛ ويدخل في تحريم أكل الميتة جميع أجزائها.

٤-ومن فوائد الآية: تحريم الدم المسفوح؛ لقوله تعالى: { والدم }.

٥-ومنها: تحريم لحم الخنزير؛ لقوله تعالى: { ولحم الخنزير }؛ وهو شامل لشحمه، وجميع أجزائه؛ لأن اللحم المضاف للحيوان يشمل جميع أجزائه؛ لا يختص به جزء دون جزء؛ اللهم إلا إذا قُرن بغيره، مثل أن يقال: «اللحم، والكبد»، أو «اللحم، والأمعاء»، فيخرج منه ما خصص.

٦-ومنها :تحريم ما ذكر اسم غير الله عليه؛ لقوله تعالى: { وما أهل به لغير الله }، وهو أنواع:

النوع الأول: أن يهل بها لغير الله فقط، مثل أن يقول: باسم جبريل، أو محمد، أو غيرهما؛ فالذبيحة حرام بنص القرآن - ولو ذبحها لله -.

النوع الثاني: أن يهل بها لله، ولغيره، مثل أن يقول: «باسم الله واسم محمد»؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لأنه اجتمع مبيح، وحاظر؛ فغلب جانب الحظر.

النوع الثالث: أن يهل بها باسم الله، وينوي به التقرب، والتعظيم لغيره؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لأنه شرك.

وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلالاً بها لغير الله؟

الجواب: إن قصد بها إكرام الضيف فلا يدخل بلا شك، كما لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوها، وإن قصد بذلك التقرب إليه، وتعظيمه تعظيم عبادة فإنه شرك، كالمذبوح على النصب تماماً، فلا يحل أكلها؛ وقد كان بعض الناس - والعياذ بالله - إذا قدم رئيسهم أو كبيرهم يذبحون بين يديه القرابين تعظيماً له - لا ليأكلها، ثم تترك للناس -؛ وهذا يكون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله - ولو ذكر اسم الله عليه -.

---

[1] تفسير الطبري:٥٣٥/٩.

[2] انظر: تفسير ابن عثيمين: ١٠٦/٢.

[4] أخرجه البخاري ص٤٧٥، كتاب الذبائح والصيد، باب ٢٨: لحوم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٥٢٧؛ ومسلم ص١٠٢٤، كتاب الصيد والذبائح...، باب ٥: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، حديث رقم ٥٠٠٧ [٢٣] ١٩٣٦.

النوع الرابع: أن لا يهل لأحد - أي لم يذكر عليها اسم الله، ولا غيره؛ فالذبيحة حرام أيضاً؛ لقوله تعالى: {ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه} [الأنعام: ١٢١]، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا"(١).

٧-ومنها: تحريم ما ذبح لغير الله - ولو ذكر اسم الله عليه -، مثل أن يقول: «بسم الله والله أكبر؛ اللهم هذا للصنم الفلاني»؛ لأنه أهل به لغير الله.

٨-ومنها: أن الشرك قد يؤثر الخبثَ في الأعيان - وإن كانت نجاسته معنوية -؛ هذه البهيمة التي أَهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمل خطر الشرك، وأنه يتعدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كذلك؛ لهذا قال الله عز وجل:{إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا} [التوبة: ٢٨] مع أن بدن المشرك ليس بنجس؛ لكن لقوة خبثه المعنوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثراً حتى في الأمور المحسوسة.

٩-ومن فوائد الآية: فضيلة الإخلاص لله.

١٠-ومنها: أن الضرورة تبيح المحظور؛ لقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}؛ ولكن هذه الضرورة تبيح المحرم بشرطين:

الشرط الأول: صدق الضرورة بحيث لا يندفع الضرر إلا بتناول المحرم.

الشرط الثاني: زوال الضرورة به حيث يندفع الضرر.

فإن كان يمكن دفع الضرورة بغيره لم يكن حلالاً، كما لو كان عنده ميتة ومذكاة، فإن الميتة لا تحل حينئذ؛ لأن الضرورة تزول بأكل المذكاة؛ ولو كان عطشان، وعنده كأس من خمر لم يحل له شربها؛ لأن ضرورته لا تزول بذلك؛ إذا لا يزيده شرب الخمر إلا عطشاً؛ ولهذا لو غص بلقمة، وليس عنده ما يدفعها به إلا كأس خمر كان شربها لدفع اللقمة حلالاً.

١١-ومن فوائد الآية: إثبات رحمة الله عز وجل؛ لأن من رحمة الله أن أباح المحَرَّمَ للعبد لدفع ضرورته.

١٢-ومنها: أن الأعيان الخبيثة تنقلب طيبة حين يحكم الشرع بإباحتها على أحد الاحتمالين؛ فإن حل الميتة للمضطر يحتمل حالين:

الأولى: أن نقول: إن الله على كل شيء قدير؛ فالذي جعلها خبيثة بالموت بعد أن كانت طيبة حال الحياة قادر على أن يجعلها عند الضرورة إليها طيبة، مثل ما كانت الحمير طيبة تؤكل حال حلها، ثم أصبحت بعد تحريمها خبيثة لا تؤكل؛ فالله سبحانه وتعالى هو خالق الأشياء، وخالق صفاتها، ومغيرها كيف يشاء؛ فهو قادر على أن يجعلها إذا اضطر عبده إليها طيبة.

الحال الثانية: أنها ما زالت على كونها خبيثة؛ لكنه عند الضرورة إليها يباح هذا الخبيث للضرورة؛ وتكون الضرورة واقية من مضرتها؛ فتناولها للضرورة مباح؛ وضررها المتوقع تكون الضرورة واقية منه.

والحالان بينهما فرق؛ لأنه على الحال الأولى انقلبت من الرجس إلى الطهارة؛ وعلى الحال الثانية هي على رجسيتها لكن هناك ما يقي مضرتها - وهو الضرورة -؛ وهذه الحال أقرب؛ لأنه لو كان عند الضرورة يزول خبثها لكانت طيبة تحل للمضطر، وغيره؛ ويؤيده الحس: فإن النفس كلما كانت أشد طلباً للشيء كان هضمه سريعاً، بحيث لا يتضرر به الجسم؛ وانظر إلى نفسك إذا أكلت طعاماً على طعام يتأخر هضم الأول، والثاني - مع ما يحصل فيه من الضرر -؛ لكن إذا أكلت طعاماً وأنت جائع فإنه ينهضم بسرعة؛ ويشهد لهذا ما يروى عن صهيب الرومي أنه كان في عينيه رمد؛ فجيء إلى النبي ﷺ بتمر وهو حاضر؛ فأكل منه النبي ﷺ، فأراد صهيب أن يأكل منه، فقال له النبي ﷺ: «تأكل تمراً وبك رمد» - لأن المعروف أن التمر يزيد في وجع

---

(١) أخرجه البخاري ص١٩٧، كتاب الشركة، باب ١٦: من عدل عشرة من الغنم بجزور في القسم، حديث رقم ٢٥٠٧، وأخرجه مسلم ص١٠٢٩، كتاب الأضاحي، باب ٤: جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائل العظام، حديث رقم ٥٠٩٢ [٢٠] ١٩٦٨.

العين - فقال: «إني أمضَغ من ناحية أخرى»[1]،أي: إذا كانت اليمنى هي المريضة بالرمد أمضغه على الجانب الأيسر؛ فضحك النبي ﷺ، ومكنه من أكله؛ قال ابن القيم - رحمه الله -: «إن الحكمة في أن الرسول مكنه - مع أن العادة أن هذا ضرر -؛ لأن قوة طلب نفسه له يزول بها الضرر: ينهضم سريعاً، ويتفاعل مع الجسم، ويذهب ضرره»[1].

١٣-ومن فوائد الآية: أن من تناول المحرم بدون عذر فهو آثم؛ لقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ }؛ فعُلم منها أن من كان غير مضطر فعليه إثم.

١٤-ومن فوائد الآية: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما «الغفور» و «الرحيم»، وما تضمناه من صفة.

١٥-ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر - وهو الحكم -؛ لأنه لكونه: غفوراً رحيماً، غفر لمن تناول هذه الميتة لضرورته، ورحمه بحلها؛ فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدل على «الذات» الذي هو المسمى؛ و«الصفة»؛ و«الحكم»، كما قال بذلك أهل العلم - رحمهم الله -.

القرآن

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤)} [المائدة: ٤]

التفسير:

يسألك أصحابك -أيها النبي-: ماذا أُحِلَّ لهم أَكْلُه؟ قل لهم: أُحِلَّ لكم الطيبات وصيدُ ما دَرَّبتموه من ذوات المخالب والأنياب من الكلاب والفهود والصقور ونحوها مما يُعَلَّم، تعلمونهن طلب الصيد لكم، مما علمكم الله، فكلوا مما أمسكن لكم، واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد، وخافوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه. إن الله سريع الحساب.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: أنه لما أمر النبي ﷺ بقتل الكلاب، قالوا: يا رسول الله، فماذا يحل لنا من هذه الأمة؟ فنزلت:"يسألونك ماذا أحل لهم"، الآية. وهذا قول أبي رافع[2]، وعكرمة[3]، ومحمد بن كعب القرظي[4].

قال أبو رافع:" جاء جبريل إلى النبي -ﷺ- يستأذن عليه، فأذن له فقال: قد أذنَّا لك يا رسول الله! قال: أجل، ولكنا لا ندخل بيتًا فيه كلب! قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة، فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته. فجاؤوا فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، فأنزل الله:{يسألونك ماذا أحِل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علَّمتم من الجوارح مكلبين}"[5].[ضعيف].

---

[1] أخرجه ابن ماجة ص٢٦٨٤، كتاب الطب، باب ٣: الحمية، حديث رقم ٣٤٤٣، وقال الألباني في صحيح ابن ماجة ٣٥٣/٢، حديث رقم ٢٧٧٦: "حسن".

[1] نقلا عن تفسير ابن عثيمين:٢٥٨/٢.

[2] انظر: تفسير الطبري(١١١٣٤):٥٤٥/٩.

[3] انظر: تفسير الطبري(١١١٣٥):ص٥٤٦/٩.

[4] انظر: تفسير الطبري(١١١٣٦):ص٥٤٦/٩.

[5] أخرجه الطبري(١١١٣٤):٥٤٥/٩، إسناد هذا الخبر ضعيف، فيه موسى بن عبيدة الربذي، ضعيف، قال أحمد: "منكر الحديث، لا تحل الرواية عنه". ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤: ٤٢، ٤٣، وقال: "رواه الطبراني في الكبير، وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف".

والثاني: أخرج الطبري عن عامر: "أن عدي بن حاتم الطائي قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله عن صيد الكلاب، فلم يدر ما يقول له، حتى نزلت هذه الآية: {تعلمونهن مما علمكم الله "[١].[ضعيف].

وفي السياق نفسه قال سعيد بن جبير: "نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائيين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله - ﷺ - "زيد الخير"، وذلك أنهما جاءا إلى رسول الله - ﷺ - فقالا: يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، وإن كلاب آل ذريح وآل أبي جويرية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب، فمنه ما يدرك ذكاته ومنه ما يقتل فلا يدرك ذكاته وقد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: {يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات} يعني الذبائح {وما علمتم من الجوارح} يعني: وصيد ما علمتم من الجوارح، وهي الكواسب من الكلاب وسباع الطير"[٢].[ضعيف ومنقطع]

قوله تعالى:{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ} [المائدة: ٤]، أي:" يسألك أصحابك -أيها النبي-: ماذا أُحِلَّ لهم أَكْلُه؟"[٣].

قال الطبري:أي:" يسألك، يا محمد، أصحابك: ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل؟"[٤].

قال الزمخشري:" معناه: ماذا أحل لهم من المطاعم، كأنهم حين تلا عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل سألوا عما أحل لهم منها"[٥].

قال ابن كثير:" لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها، إما في بَدَنِه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: { وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ } [الأنعام: ١١٩] قال بعدها: { يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ } كما قال في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ: أنه { يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ } [الآية: ١٥٧]"[٦].

قوله تعالى:{قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة: ٤]، أي:" قل لهم: أُحِلَّ لكم الطيبات"[٧].

قال الطبري:اي:" فقل لهم: أحِل لكم منها الطيبات ، وهي الحلال الذي أذن لكم ربكم في أكله من الذبائح"[٨].

قال الزمخشري:" الطيبات، أى: ما ليس بخبيث منها، وهو كل ما لم يأت تحريمه في كتاب أو سنة أو قياس مجتهد"[٩].

قال سعيد بن جبير:" يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم"[١٠].

ورواه البيهقي في السنن ٩/ ٢٣٥، والحاكم في المستدرك ٢/ ٣١١، مختصرًا من طريق معلى بن منصور، عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن إسحق، عن أبان بن صالح، وهو أصح من إسناد أبي جعفر وابن أبي حاتم. وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وقد روي حديث أبي رافع، بغير هذا اللفظ، من طرق. انظر الهيثمي في مجمع الزوائد ٤: ٤٢، ٤٣، ومسند أحمد(٣٩١):ص ٦/ ٨-١٠.

[١] تفسير الطبري(١١١٥٨):٥٥٣/٩.

[٢] اسباب النزول للواحدي:١٩٢، أسنده ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير: ١٥/٢) عن سعيد به، وإسناده ضعيف ومنقطع ،انظر: تهذيب التهذيب(٣٨٢):ص ١٩٨/٧.

[٣] التفسير الميسر:١٠٧.

[٤] تفسير الطبري:٥٤٣/٩.

[٥] الكشاف:٦٠٦/١.

[٦] تفسير ابن كثير:٣٢/٣.

[٧] التفسير الميسر:١٠٧.

[٨] تفسير الطبري:٥٤٣/٩.

[٩] الكشاف:٦٠٦/١.

[١٠] تفسير ابن كثير:٣٢/٣.

قال مقاتل بن حيان:"فـ{الطيبات}، ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق. وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوي فقال: ليس هو من الطيبات"[١].

وقال ابن وَهْبٍ: "سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس. فقال: ليس هو من الطيبات"[٢].

قوله تعالى:{وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ} [المائدة: ٤]، أي:" وصيدُ ما دَرَّبتموه من ذوات المخالب والأنياب من الكلاب والفهود والصقور ونحوها مما يُعَلَّم"[٣].

قال الطبري:أي:" وأحل لكم أيضًا مع ذلك، صيدُ ما علّمتم من الجوارح ، وهن الكَواسب من سباع البهائم"[٤].

و«الطير»: سميت جوارح، لجرحها لأربابها، وكسبها إيّاهم أقواتَهم من الصيد. يقال منه: جرح فلان لأهله خيرًا ، إذا أكسبهم خيرًا، و فلان جارِحَة أهله ، يعني بذلك: كاسبهم، ولا جارحة لفلانة ، إذا لم يكن لها كاسب، ومنه قول أعشى بني ثعلبة[٥]:

ذاتَ حَدٍّ مُنْضِجٍ مِيسَمُهَا تُذْكِرَ الجَارِحَ مَا كَانَ اجْتَرَحْ

يعني: اكتسب[٦].

واختلف في الجوارح التي عنى الله تعالى بقوله:{وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ } [المائدة: ٤]، على ثلاثة أقاويل:

أحدها: يعني من الكلاب دون غيرها من السباع، وأنه لا يحل إلا صيد الكلاب وحدها، وهذا قول ابن عمر[٧]، والضحاك[٨]، والسدي[٩].

والثاني: أن التكليب من صفات الجوارح من كلب وغيره، ومعناه مُضْرِين على الصيد كما تَضْرِي الكلاب، وهو قول ابن عباس[١٠]، وعلي بن الحسين[١١]، وعبيد بن عمير[١٢]، والحسن[١٣]، ومجاهد[١٤]، و خيثمة بن عبد الرحمن[١٥]، وطاوس[١٦].

والثالث: أن معنى التكليب من صفات الجارح: التعليم[١٧].

والراجح-والله اعلم- انه يشمل "كل ما صاد من الطير والسباع فمن الجوارح، وأنّ صيد جميع ذلك حلال إذا صادَ بعد التعليم ، لأن الله جل ثناؤه عم بقوله: وما علمتم من الجوارح مكلبين ، كلَّ جارحة، ولم يخصص منها شيئًا. فكل جارحة ، كانت بالصفة التي وصف الله من كل طائر وسبع، فحلال أكل صيدها"[١٨].

---

[١]سنن أبي داود برقم (٢٨١٧)، وتفسير ابن كثير:٣٢/٣.
[٢] تفسير ابن كثير:٣٢/٣.
[٣] التفسير الميسر:١٠٧.
[٤] تفسير الطبري:٥٤٣/٩.
[٥]) ديوانه : ١٦٤ ، وهي من قصيدة له طويلة ، مجد فيها إياس بن قبيصة الطائي ، ملك الحيرة.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٥٤٣/٩-٥٤٤.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٥):ص٥٤٩/٩.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٣):ص٥٤٩/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٤):ص٥٤٩/٩.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١١٤٩):ص٥٤٨/٩، و(١١١٥١):ص٥٤٩/٩.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١١٤٧):ص٥٤٨/٩.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٢):ص٥٤٩/٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١١٣٧)، و(١١١٣٨):ص٥٤٦/٩.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١١٣٩)-(١١١٤٤):ص٥٤٧/٩.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١١٤٥)، و(١١١٤٦):ص٥٤٨/٩.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٠):ص٥٤٨/٩.
[١٧] انظر: النكت والعيون:١٥/٢.
[١٨] تفسير الطبري:٥٤٩/٩-٥٥٠.

قال ابن كثير:" والمحكي عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب؛ لأنها تَكْلَبُ الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب، فلا فرق. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم"[١].

قال عدي بن حاتم قال: "سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي، فقال: ما أمسك عليك فَكُل"[٢].

واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود ؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه ؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: "يَقْطَع الصلاةَ الحمارُ والمرأةُ والكلبُ الأسودُ" فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: "الكلب الأسود شيطان" وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال: "ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كل أسود بَهِيم"[٣][٤].

وقرئ:«مكلبين»، بالتخفيف[٥].

قوله تعالى:{تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ} [المائدة: ٤]، أي:" تعلمونهن طلب الصيد لكم، مما علمكم الله"[٦].

قال السدي:" يقول: تعلمونهن من الطَّلب كما علمكم الله"[٧].

قال الطبري: أي:" تؤدِّبون الجوارح فتعلمونهن طلب الصيد لكم مما علمكم الله ، يعني بذلك: من التأديب الذي أدَّبكم الله، والعلم الذي علمكم"[٨].

قال الماوردي:" أي: تعلمونهن من طلب الصيد لكم مما علمكم الله من التأديب الذي أدبكم وصفات التعليم التي بيَّن حكمها لكم، فأما صفة التعليم، فهو أن يُشلَى إذا أُشلي، ويجيب إذا دعي ويمسك إذا أخذ"[٩].

قال ابن كثير:" وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسكه لنفسه"[١٠].

وهل يكون إمساكه عن الأكل شرطاً فى صحة التعليم أم لا ؟ على ثلاثة أقاويل:
أحدها: أنه شرط في كل الجوارح، فإن أكلت لم تؤكل، وهذا قول ابن عباس[١١]، وعطاء[١٢].
والثاني: أنه ليس بشرط فى كل الجوارح ويؤكل وإن أكلت، وهذا قول ابن عمر[١٣]، وسعد بن أبي وقاص[١٤]، وأبي هريرة[١٥]، وسلمان[١٦].
والثالث: أنه شرط في جوارح البهائم فلا يؤكل ما أكلت، وليس بشرط في جوارح الطير، فيؤكل وإن أكلت، وهذا قول الشعبي[١٧]، وإبراهيم النخعي[١٨]، والسدي[١]، وحماد[٢].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣٢/٣.
[٢] أخرجه الطبري(١١١٥٦):ص٥٥٠/٩.
[٣] صحيح مسلم برقم (١٥٧٣) وسنن أبي داود برقم (٧٤) وسنن النسائي (١٧٧/١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٥).
[٤] انظر: تفسير ابن كثير:٣٣/٣.
[٥] انظر: الكشاف:٦٠٧/١.
[٦] التفسير الميسر:١٠٧.
[٧] أخرجه الطبري(١١١٥٧):ص٥٥٢/٩.
[٨] تفسير الطبري:٥٥٢/٩.
[٩] النكت والعيون:١٥/٢.
[١٠] تفسير ابن كثير:٣٤/٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١١٦٠)-(١١١٦٧):ص٥٥٤/٩-٥٥٥.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١١٥٩):ص٥٥٤/٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٢٠٢)-(١١٢٠٦):ص٥٦٣/٩.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١١٩٥)-(١١١٩٧):ص٥٦١/٩-٥٦٢.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١١٩٨)-(١١٢٠٠):ص٥٦٢/٩.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١١٨٧)-(١١١٩٤):ص٥٦٠/٩-٥٦١.
[١٧] انظر:تفسير الطبري(١١١٧٦)، و(١١١٧٨):ص٥٥٧/٩-٥٥٨.
[١٨] انظر:تفسير الطبري(١١١٧٧)، و(١١١٧٩)، و(١١١٨٠):ص٥٥٧/٩-٥٥٨.

والظاهر –والله أعلم- "أن التعليم الذي ذكره الله في هذه الآية للجوارح، إنما هو أن يعلِّم الرجل جارحَه الاستشلاء إذا أُشلي على الصيد وطلبه إياه إذا أغرى، أو إمساكه عليه، إذا أخذه من غير أن يأكل منه شيئًا، وألا يفرّ منه إذا أراده، وأن يجيبه إذا دعاه. فذلك، هو تعليم جميع الجوارح، طيرها وبهائمها. فإن أكل من الصيد جارحةُ صائد فجارحه حينئذ غير معلَّم، فإن أدرك صيده صاحبُه حيًّا فذكّاه، حلَّ له أكله. وإن أدركه ميتًا، لم يحلَّ له أكله، لأنه مما أكله السَّبُع الذي حرمه الله تعالى بقوله: {وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}، ولم يدرك ذكاته، [وذلك] لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ ...عن عدي بن حاتم: أنه سأل النبي ﷺ عن الصيد فقال: «إذا أرسلتَ كلبك فاذكر اسم الله عليه، فإن أدركته وقد قتل وأكل منه فلا تأكل منه شيئًا، فإنما أمسكَ على نفسه»[3]"[4].

قوله تعالى:{فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ٤]، أي:" فكلوا مما أمسكن لكم من الصيد"[5].

قال الطبري:أي:" فكلوا مما أمسكن عليكم ، فكلوا، أيها الناس، مما أمسكت عليكم جوارحكم"[6].

قال ابن كثير:" فمتى كان الجارحة معلما وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع"[7].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ٤]، علة قولين[8]:

أحدهما: ذلك على الظاهر والعموم كما عممه الله، حلال أكل كلِّ ما أمسكت علينا الكلاب والجوارح المعلَّمة من الصيد الحلال أكله، أكل منه الجارح والكلاب أو لم يأكل منه، أدركتْ ذكاته فذُكِّي أو لم تدرَك ذكاته حتى قتلته الجوارح بجرحها إياه أو بغير جَرْح.

وهذا قول الذين قالوا: تعليم الجوارح الذي يحلّ به صيدها أن تعلَّم الاستشلاء على الصيد، وطلبه إذا أشْليت عليه، وأخذه، وترك الهرب من صاحبها، دون ترك الأكل من صيدها إذا صادته

والثاني: ذلك على الخصوص دون العموم. قالوا: ومعناه: فكلوا مما أمسكن عليكم من الصيد جميعه دون بعضه. قالوا: فإن أكلت الجوارح منه بعضًا وأمسكت بعضًا، فالذي أمسكت منه غير جائز أكلُه وقد أكلت بعضه، لأنها إنما أمسكت ما أمسكت من ذلك الصيد بعد الذي أكلت منه، على أنفسها لا علينا، والله تعالى ذكره إنما أباح لنا كلَ ما أمسكته جوارحنا المعلمة علينا بقوله: فكلوا مما أمسكن عليكم ، دون ما أمسكته على أنفسها.

وهذا قول من قال: تعليم الجوارح الذي يحلُّ به صيدها: أن تَستشلى للصيد إذا أشليت، فتطلبه وتأخذه، فتمسكه على صاحبها فلا تأكل منه شيئًا، ولا تفر من صاحبها .

قوله تعالى:{وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ} [المائدة: ٤]، أي:" واذكروا اسم الله عند إرسالها للصيد"[9].

قال ابن عباس:" يقول: إذا أرسلت جوارحك فقل: بسم الله ، وإن نسيت فلا حَرَج"[10].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١١٢١٤):ص٥٦٨/٩.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١١٨١):ص٥٥٨/٩.
[3] أخرجه الطبري(١١٢٠٩):ص٥٦٤/٩.
[4] تفسير الطبري:٥٦٤/٩.
[5] صفوة التفاسير:٣٠٢.
[6] تفسير الطبري:٥٦٦/٩.
[7] تفسير ابن كثير:٣٤/٣.
[8] انظر: تفسير الطبري:٥٦٦/٩-٥٦٧.
[9] التفسير الميسر:١٠٧.
[10] أخرجه الطبري(١١٢١٨):ص٥٧١/٩.

قال السدي:": إذا أرسلته فسَمِّ عليه حين ترسله على الصيد"[1].
قال القرطبي:" قيل: المراد بالتسمية هنا التسمية عند الأكل، وهو الأظهر"[2].
قال ابن كثير:" وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله ﷺ عَلَّم رَبِيبه عمر بن أبي سلمة فقال: «سَمِّ الله، وكُل بيمينك، وكل مما يليك»[3]، وفي صحيح البخاري: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوما يأتوننا -حديث عهدهم بكفر - بلُحْمانٍ لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال: «سَمّوا الله أنتم وكلوا»[4]"[5].

وعن عائشة-رضي الله عنها- ؛ أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين، فقال النبي ﷺ: «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره»[6].
وفي رواية اخرى عن عائشة: "أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاما في ستة من أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين، فقال: «أما إنه لو ذكر اسم اللّه لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله فليقل: باسم الله أوله وآخره»"[7].
قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة: ٤]، أي:" وخافوا الله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه"[8].

قال الطبري:أي:" واتقوا الله، أيها الناس، فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، فاحذروه في ذلك أن تقدموا على خلافه، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلَّمة، أو مما لم تمسك عليكم من صيدها وأمسكته على أنفسها، أو تطعَمُوا ما لم يسمَّ الله عليه من الصيد والذبائح مما صادَه أهل الأوثان وعبدة الأصنام ومن لم يوحِّد الله من خلقه، أو ذبحوه، فإن الله قد حرَّم ذلك عليكم فاجتنبوه"[9].
قال القرطبي:" أمر بالتقوى على الجملة، والإشارة القريبة هي ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر"[10].
قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [المائدة: ٤]، أي:"فإن الله سريع المجازاة للعباد"[11].

قال الطبري:" ثم خوَّفهم إن هم فعلوا ما نهاهم عنه من ذلك ومن غيره. فقال: اعلموا أن الله سريعٌ حسابه لمن حاسبه على نِعَمه عليه منكم وشكرِ الشاكر منكم ربَّه على ما أنعم به عليه بطاعته إياه فيما أمر ونهى، لأنه حافظ لجميع ذلك فيكم، فيحيط به، لا يخفى عليه منه شيء، فيجازي المطيعَ منكم بطاعته، والعاصيَ بمعصيته، وقد بيَّن لكم جزاء الفريقين"[12].
قال السعدي:" حذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: {واتقوا الله إن الله سريع الحساب}"[13].

---

[1] أخرجه الطبري(١١٢١٩):ص٥٧١/٩.
[2] تفسير القرطبي:٧٤/٦.
[3] صحيح البخاري برقم (٥٣٧٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٢٢).
[4] تفسير ابن كثير:٣٧/٣.
[5] صحيح البخاري برقم (٥٥٠٧).
[6] المسند (١٤٣/٦) وسنن ابن ماجه برقم (٣٢٦٤).
[7] المسند (٢٦٥/٦) ، (٢٤٦/٦) وسنن أبي داود برقم (٣٧٦٧) وسنن الترمذي برقم (١٨٥٨) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠١١٢).
[8] التفسير الميسر:١٠٧.
[9] تفسير الطبري:٥٧٢/٩.
[10] تفسير القرطبي:٧٥/٦.
[11] صفوة التفاسير:٣٠٢.
[12] تفسير الطبري:٥٧٢/٩.
[13] تفسير السعدي:٢٢١.

قال القرطبي:" وسرعة الحساب هي من حيث كونه تعالى قد أحاط بكل شي علما وأحصى كل شي عددا، فلا يحتاج إلى محاولة عد ولا عقد كما يفعله الحساب، ولهذا قال:{وكفى بنا حاسبين} [الأنبياء: ٤٧]، فهو سبحانه يحاسب الخلائق دفعة واحدة. ويحتمل أن يكون وعيدا بيوم القيامة كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه، إذ يوم القيامة قريب، ويحتمل أن يريد بالحساب المجازاة، فكأنه توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا الله"[١].

الفوائد:

١- مشروعية سؤال من لا يعلم عما ينبغي له أن يعلمه.

٢- حلية الصيد إن توفرت شروطه، وهي: أن يكون الجارح معلماً وأن يذكر اسم الله تعالى عند إرساله وأن لا يأكل منه الجارح، ويجوز أكل ما صيد برصاص أو بآلة حادة١ بشرط ذكر اسم الله عند رميه ولو وجد ميتاً فلم يذك.

٣-قال السعدي: " دلت هذه الآية على أمور:

أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكوه مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليما، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: {تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم} أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: {من الجوارح} مع ما تقدم من تحريم المنخنقة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنيابها أو مخالبها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواسب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم-] (١) .

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلا فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم -بسبب العلم- يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموما، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدا، لم يبح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها[٢].

القرآن

{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ

---

[١] تفسير القرطبي:٧٥/٦.

[٢] تفسير السعدي:٢٢١.

مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)} [المائدة: ٥]

التفسير:

ومن تمام نعمة الله عليكم اليوم -أيها المؤمنون- أن أَحَلَّ لكم الحلال الطيب، وذبائحُ اليهود والنصارى -إن ذكَّوها حَسَبَ شرعهم- حلال لكم وذبائحكم حلال لهم. وأَحَلَّ لكم -أيها المؤمنون- نكاح المحصنات، وهُنَّ الحرائر من النساء المؤمنات، العفيفات عن الزنى، وكذلك نكاحَ الحرائر العفيفات من اليهود والنصارى إذا أعطيتموهُنَّ مهورهن، وكنتم أعِفَّاء غير مرتكبين للزنى، ولا متخذي عشيقات، وأمِنتم من التأثر بدينهن. ومن يجحد شرائع الإيمان فقد بطل عمله، وهو يوم القيامة من الخاسرين.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: قال قتادة:" ذكر لنا أن ناسًا من المسلمين قالوا: كيف نتزوّج نساءهم يعني: نساء أهل الكتاب وهم على غير ديننا ؟ فأنزل الله عز ذكره:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، فأحل الله تزويجهن على علم"[١].

والثاني: وقال مقاتل:" فلما أحل الله- عز وجل- نساء أهل الكتاب، قال المسلمون: كيف تتزوجوهن وهن على غير ديننا!، وقالت نساء أهل الكتاب: ما أحل الله تزويجنا للمسلمين إلا وقد رضي أعمالنا! فأنزل الله- عز وجل- {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ}، يعني: من نساء أهل الكتاب بتوحيد الله، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، يعنى: من الكافرين"[٢].

قال السمرقندي: قيل:"لما نزلت هذه الآية قلن نساء أهل الكتاب: لولا إن الله تعالى قد رضي بديننا لم يبح للمسلمين نكاحنا، فنزل:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}"[٣].

والثالث: لما "نزل قوله {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} [المائدة: ٣]، ثم رخص من حالة الاضطرار، فقال بعضهم: لا نأخذ الرخصة من الاضطرار فنزل: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ}"[٤].

قوله تعالى:{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ} [المائدة: ٥]، أي:" ومن تمام نعمة الله عليكم اليوم -أيها المؤمنون- أن أبيح لكم المستلذات من الذبائح وغيرها"[٥].

قال مقاتل: "أى: الذبائح من الصيد"[٦].

قال التستري:" الطيبات: الحلال من الرزق"[٧].

قوله تعالى:{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ} [المائدة: ٥]، أي:"، وذبائحُ اليهود والنصارى -إن ذكَّوها حَسَبَ شرعهم- حلال لكم"[٨].

قال الماوردي:" يعني: ذبائحهم"[٩].

قوله تعالى:{وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ} [المائدة: ٥]، أي:" وذبائحكم حلالٌ لهم فلا حرج أن تُطعموهم وتبيعوه لهم"[١٠].

قال الماوردي:" يعني: ذبائحنا"[١١].

قوله تعالى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ} [المائدة: ٥]، أي:" وأُبيح لكم أيها المؤمنون زواج الحرائر العفيفات من المؤمنات"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١١٢٩٠):ص٥٩٢/٩.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٥/١.
[٣] بحر العلوم للسمرقندي:٣٧١/١.
[٤] بحر العلوم للسمرقندي:٣٧١/١.
[٥] صفوة التفاسير:٣٠٣، والتفسير الميسر:١٠٧
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٤/١.
[٧] تفسير التستري:٥٨.
[٨] التفسير الميسر:١٠٧.
[٩] النكت والعيون:١٧/٢.
[١٠] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[١١] النكت والعيون:١٧/٢.

قال الطبري:أي:" أحل لكم، أيها المؤمنون، المحصنات من المؤمنات وهن الحرائر منهن أن تنكحوهن"[٢].

قوله تعالى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة: ٥]، أي:" أي وزواج الحرائر من من اليهود والنصارى"[٣].

قال مقاتل:" يعني: وأحل تزويج العفائف من حرائر نساء اليهود والنصارى، نكاحهن حلال للمسلمين[٤].

وفي قوله تعالى:{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة: ٥]، ثلاثة أقوال[٥]:

أحدها: المعاهدات دون الحربيات، وهذا قول ابن عباس[٦].

والثاني: عنى بذلك نكاحَ بني إسرائيل الكتابياتِ منهن خاصة، دون سائر أجناس الأمم الذين دانوا باليهودية والنصرانية. وذلك قول الشافعي ومن قال بقوله[٧].

والثالث: عامة أهل الكتاب من معاهدات وحربيات، وهذا قول سعي بن المسيب[٨]، والحسن[٩]، والفقهاء وجمهور السلف[١٠].

والراجح-والله أعلم- أن نكاح عامة أهل الكتاب من معاهدات وحربيات جائز ذميةً كانت أو حربيّةً، بعد أن تكون بموضع لا يخافُ الناكح فيه على ولده أن يُجْبر على الكفر[١١].

وفي قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة: ٥]، وجهان:

أحدهما: أنهن الحرائر من الفريقين، سواء كن عفيفات أو فاجرات، فعلى هذا، لا يجوز نكاح إمائهن، وهذا قول مجاهد[١٢]، والشعبي[١٣]، وبه قال الشافعي[١٤].

قال عامر:" أتى رجل عمر فقال: إن ابنةً لي كانت وُئِدت في الجاهلية، فاستخرجتها قبل أن تموت، فأدركت الإسلام، فلما أسلمت أصابت حدًّا من حدود الله، فعمدتْ إلى الشفرة لتذبح بها نفسها، فأدركتها وقد قطعت بعض أوداجها، فداويتها حتى برئت، ثم إنها أقبلت بتوبة حسنة، فهي تخطب إلَيّ يا أمير المؤمنين، فأخبر من شأنها بالذي كان ؟ فقال عمر: أتخبر بشأنها ؟ تعمد إلى ما ستره الله فتبديه! والله لئن أخبرت بشأنها أحدًا من الناس لأجعلنك نَكالا لأهل الأمصار، بل أنكحها بنكاحِ العفيفة المسلمة"[١٥].

والثاني: أنهن العفائف، سواءٌ كن حرائر أم إماءً، فعلى هذا، يجوز نكاح إمائِهن، وهذا قول مجاهد[١٦]، والشعبي[١٧] أيضاً، وبه قال أبو حنيفة[١٨].

---

[١] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[٢] تفسير الطبري:٥٨١/٩.
[٣] صفوة التفاسير:٣٠٣، والتفسير الميسر:١٠٧
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٥/١.
[٥] .
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٢٨٥):ص٥٨٨/٩.
[٧]انظر الأم: ٥ / ٦.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٢٨٤):ص٥٨٧/٩.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٢٨٤):ص٥٨٧/٩.
[١٠] انظر: النكت والعيون:١٧/٢.
[١١] انظرك تفسير الطبري:٥٨٩/٩.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٢٥٦):ص٥٨٢/٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٢٥٩):ص٥٨٢/٩.
[١٤] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٧٠٢/٢-٧٠٣.
[١٥] أخرجه الطبري(١١٢٦٤):ص٥٨٣/٩-٥٨٤.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١٢٦٨)،(١١٢٦٩):ص٥٨٥/٩.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١١٢٧٠)-(١١٢٧٤):ص٥٨٥/٩.
[١٨] انظر: النكت والعيون:١٧/٢.

قوله تعالى:{إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [المائدة: ٥]، أي:" إذا دفعتم لهن مهورهن"[١].

قال مقاتل:" يعني إذا أعطيتموهن مهورهن"[٢].

قوله تعالى:{مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} [المائدة: ٥]، أي:" حال كونكم أعفاء بالنكاح غير مجاهرين بالزنى"[٣].

قال الماوردي:" يعني: أَعفّاء غير زُناة"[٤].

قال ابن عباس:"يعني: ينكحوهن بالمهر والبينة غير مسافحين متعالنين بالزنا ولا متخذي أخدان ، يعني: يسرُّون بالزنا"[٥].

عن سليمان بن المغيرة، عن الحسن قال:"سأله رجل: أيتزوّج الرجل المرأة من أهل الكتاب ؟ قال: ما له ولأهل الكتاب، وقد أكثر الله المسلمات! فإن كان لا بد فاعلا فليعمد إليها حَصانًا غير مسافحة. قال الرجل: وما المسافحة ؟ قال: هي التي إذا لَمَح الرجل، إليها بعينه اتّبعته"[٦].

قوله تعالى:{وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ} [المائدة: ٥]، أي:" وغير متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن سرا"[٧].

قال مقاتل:" يعني: لا تتخذ الخليل في السر فيأتيها"[٨].

قال الزجاج:" وهن الصديقات والأصدقاء، فحرم الله عز وجل الجماع على جهة السفاح، أو على جهة اتخاذ الصديقة، وأحلة على جهة الإحصان، وهو التزويج، على ما عليه جماعة العلماء"[٩].

قال السمرقندي:" يقول: لا تتخذوا خدنا فتزنوا بها سرا، وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يعيرون من يزني في العلانية ولا يعيرون من يزني سرا، فحرم الله زنى السر والعلانية"[١٠].

قوله تعالى:{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ} [المائدة: ٥]، أي:" ومن يجحد شرائع الإيمان فقد بطل عمله"[١١].

قال مجاهد:" من يكفر بالله"[١٢].

قال عطاء:" الإيمان، التوحيد"[١٣].

قال اللبي:" أي: بما أنزل على محمد ﷺ"[١٤].

قال ابن عباس:" أخبر الله سبحانه أن الإيمان هو العروة الوثقى، وأنه لا يقبل عملا إلا به، ولا يحرِّم الجنة إلا على من تركه"[١٥].

قال الطبري:اي:" ومن يأبَ الإيمان بالله، ويمتنع من توحيده والطاعة له فيما أمره به ونهاه عنه، فقد حبط عمله، لأن «الكفر»: هو الجحود في كلام العرب، و«الإيمان»: التصديق والإقرار، ومن أبى التصديق بتوحيد الله والإقرار به "[١].

---

[١] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٥/١.
[٣] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[٤] النكت والعيون:١٧/٢.
[٥] أخرجه الطبري(١١٢٨٧):ص٥٩١/٩.
[٦] أخرجه الطبري(١١٢٨٩):ص٥٩١/٩.
[٧] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٥/١.
[٩] معاني القرآن:١٥٢/٢.
[١٠] بحر العلوم:٣٧١/١.
[١١] التفسير الميسر:١٠٧.
[١٢] أخرجه الطبري(١١٢٩٦):ص٥٩٣/٩.
[١٣] أخرجه الطبري(١١٢٩٢):ص٥٩٣/٩.
[١٤] تفسير الثعلبي:٢٣/٤.
[١٥] أخرجه الطبري(١١٢٩٩):ص٥٩٣/٩.

قال مقاتل بن حيان: "يقول: ليس إحصان المسلمين إياهن بالذي يخرجهن من الكفر أو يغني عنهن شيئا وهي للناس عامة"[٢].

وقرأ الحسن: « حَبِطَ عَمَلُهُ»، بفتح الباء[٣].

قوله تعالى:{وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٥]، أي:" وهو يوم القيامة من الهالكين"[٤].

قال مقاتل:"يعني: من الكافرين"[٥].

قال السمرقندي:" يعني: من المغبونين في العقوبة، ولهذا قال أصحابنا رحمهم الله: إن الرجل إذا صلى ثم ارتد ثم أسلم في وقت تلك الصلاة، وجب عليه إعادة تلك الصلاة، ولو كان حج حجة الإسلام فعليه أن يعيد الحج، لأنه قد بطل ما فعل قبل ارتداده"[٦].

الفوائد:

١- إباحة طعام وذبائح أهل الكتاب.

٢- إباحة نكاح الكتابيات بشرط أن تكون حرة عفيفة، وأن يعقد عليها العقد الشرعي وهو القائم على الولي والشهود والمهر، والصيغة بأن يقول الخاطب لمن يخطبه من ولي ووكيل: زوجني فلانة. فيقول له: قد زوجتكها.

٣- حرمة نكاح المتعة ونكاح الخلة والصحبة الخاصة.

٤- المعاصي قد تقود إلى الكفر.

٥- المرتد عن الإسلام يحبط عمله فلو راجع الإسلام لا يثاب على ما فعله قبل الردة وإن مات قبل العودة إلى الإسلام خسر نفسه وأهله يوم القيامة وذلك هو الخسران المبين.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)} [المائدة: ٦]

التفسير:

يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم مع المرافق [والمِرْفَق: المِفْصَل الذي بين الذراع والعَضُد] وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين [وهما: العظمان البارزان عند ملتقى الساق بالقدم]، وإن أصابكم الحدث الأكبر فتطهروا بالاغتسال منه قبل الصلاة. فإن كنتم مرضى، أو على سفر في حال الصحة، أو قضى أحدكم حاجته، أو جامع زوجته فلم تجدوا ماء فاضربوا بأيديكم وجه الأرض، وامسحوا وجوهكم وأيديكم منه. ما يريد الله في أمر الطهارة أن يُضَيِّق عليكم، بل أباح التيمم توسعةً عليكم، ورحمة بكم، إذ جعله بديلا للماء في الطهارة، فكانت رخصة التيمُّم من تمام النعم التي تقتضي شكر المنعم؛ بطاعته فيما أمر وفيما نهى.

في سبب نزول الآية قولان:

احدهما: عن علقمة بن وقاص الليثي؛ قال: "كان رسول الله - ﷺ - إذا أراق البول نكلمه؛ فلا يكلمنا، ونسلم عليه؛ فلا يرد علينا، حتى يأتي منزله فيتوضأ كوضوئه للصلاة، فقلنا: يا رسول

---

[١] تفسير الطبري:٥٩٤/٩.

[٢] تفسير الثعلبي:٢٣/٤، وتفسير البغوي:١٩/٣.

[٣] انظر: تفسير الثعلبي:٢٣/٤.

[٤] صفوة التفاسير:٣٠٣.

[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٥/١.

[٦] بحر العلوم:٣٧١/١-٣٧٢.

الله نكلمك فلا تكلمنا، ونسلم عليك فلا ترد علينا، قال: حتى نزلت آية الرخصة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} الآية"(١). [ضعيف جداً]

والثاني: عن عائشة: "أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فبعث رسول الله - ﷺ - رجلًا فوجدها، فأدركتهم الصلاة وليس معهم ماء، فصلّوا، فشكوا ذلك إلى رسول الله؛ فأنزل الله - تعالى- آية التيمم، فقال أسيد بن حضير لعائشة: جزاك الله خيراً؛ فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله ذلك لك والمسلمين فيه خيراً"(٢). [صحيح]

وفي السياق نفسه روي عن عمار بن ياسر: "أن رسول الله - ﷺ - عرَّس بأولاتِ الجيش ومعه عائشة، فانقطع عقد لها من جَزْعِ ظِفَار؛ فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك، حتى أضاء الفجر وليس مع الناس ماء؛ فتغيظ عليها أبو بكر، وقال: حبست الناس وليس معهم ماء؛ فأنزل الله -تعالى- على رسوله - ﷺ - رخصة التطهر بالصعيد الطيب. فقام المسلمون مع رسول الله - ﷺ - فضربوا بأيديهم إلى الأرض ثم رفعوا أيديهم ولم يقبضوا من التراب شيئاً فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط"(٣). [ضعيف]

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ٦]، أي:"يا أيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله"(٤).

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"(٥).

وعن خيثمة قال: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"(٦).

كما أن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"(٧).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(٢).

---

(١) أخرجه الطبري(١١٣٣٩):٢٢/١٠، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٤٦/٣، الطبراني في المعجم الكبير (٦/١٨). وقال الهيثمي في المجمع (٢٧٦/١) : "فيه جابر الجعفي وهو ضعيف"، علقمة بن وقاص؛ ثقة ثبت، أخطأ من زعم أن له صحبة، فهو مرسل، ومما يدلل على ضعف الحديث: أن الحفاظ والمحققين قالوا: ليس له صحبة، وهنا في هذا الحديث أثبت له لقاء النبي، ولا شك أن هذا غير صحيح، والخطأ من جابر.

قال الحافظ ابن كثير: "وهو حديث غريب جداً؛ وجابر هذا هو ابن يزيد [في الأصل زيد وهو خطأ] الجعفي ضعفوه".

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦): "وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم بسند ضعيف".

(٢)أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٣٤، ٣٣٦، ٣٦٧٢، ٣٧٧٣، ٤٥٨٣، ٤٦٠٧، ٤٦٠٨، ٥١٦٤، ٥٢٥٠، ٥٨٨٢، ٦٨٤٤، ٦٨٤٥)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٣٦٧).

(٣)أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤، ٣٢٠، ٣٢١)، وأبو داود (١/ ٨٦، ٨٧ رقم ٣٢٠)، وابن ماجه (١/ ١٨٧ رقم ٥٦٦ - مختصراً) من طريق الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن عمار به.

وأخرجه ابن ماجه (١/ ١٨٧ رقم ٥٦٥) من طريق الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن عمار، وهو منقطع فيما بين عبيد الله وعمار.

قلنا: والحديث معلّ بالاضطراب؛ كما ذكر الشيخ العلامة الألباني -رحمه الله- في "إرواء الغليل" (١/ ١٨٥، ١٨٦)، وانظر: "ضعيف سنن أبي داود" (٦٧/ ٣١٩).

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣١) وزاد نسبته لعبد الرزاق وعبد بن حميد.

(٤) تفسير المراغي: ٤٣/١١، وانظر: صفوة التفاسير: ٤٨٧/٢.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١، و(٥٠٢٥):ص٩٠٢/٣

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.

(٧) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣

قوله تعالى:{إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ} [المائدة: ٦]، أي:" إذا أردتم القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة"[١].

وللعلماء في المراد بقوله تعالى: { إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } [المائدة:٦] أقوال:

أحدها: إذا قمتم إلى الصلاة محدثين، فاغسلوا، فصار الحدث مُضْمَراً . وفي وجوب الوضوء شرطاً، وهو قول عبد الله بن عباس[٢]، وسعد بن أبي وقاص[٣]، وأبي موسى الأشعري[٤]، والفقهاء[٥].

والثاني: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة . وهذا قول زيد بن اسلم[٦]، والسدي[٧].

قال ابن كثير:"وكلاهما قريب[اي: القول الاول والثاني]"[٨].

والثالث: أن الكلام على إطلاقه من غير إضمار، فيجب الوضوء على كل من يريد الصلاة، محدثا كان، أو غير محدث، ولا يجوز أن يجمع بوضوء واحد بين فرضين، وهذا مروي عن علي -رضي الله عنه-[٩]، وعمر[١٠]، وعكرمة[١١]، وابن سيرين[١٢].

والرابع: أن الآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن هو في حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفي حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب[١٣].

والخامس: أنه كان واجباً على كل قائمٍ إلى الصلاة، ثم نسخ إلاَّ على المحدث.

روى سليمان بن بريدة عن أبيه:" كان رسول الله -ﷺ- يتوضأ لكل صلاة، فلما كان عام الفتح، صلى الصلوات كلها بوضوء واحد، ومسح على خفيه، فقال عمر: إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله، قال:«عمدا فعلته يا عمر»"[١٤].

والصواب-والله أعلم- أن الله تعالى فرض غسل ما أمر الله بغسله القائمَ إلى صلاته، بعد حَدَثٍ كان منه ناقضٍ طهارتَه، وقبل إحداث الوضوء منه وأمر ندب لمن كان على طهر قد تقدم منه، ولم يكن منه بعده حدث ينقض طهارته. ولذلك كان عليه السلام يتوضأ لكل صلاة قبل فتح مكة، ثم صلىّ يومئذ الصلوات كلها بوضوء واحد، ليعلّم أمته أن ما كان يفعل عليه السلام من تجديد الطهر لكل صلاة، إنما كان منه أخذا بالفضل، وإيثارا منه لأحب الأمرين إلى الله، ومسارعةً منه إلى ما ندبه إليه ربّه لا على أن ذلك كان عليه فرضًا واجبًا[١٥].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ظاهر الآية يوجب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة محدث وغير محدث، فما وجهه؟

قلت: يحتمل أن يكون الأمر للوجوب، فيكون الخطاب للمحدثين خاصة، وأن يكون للندب. وعن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده، أنهم كانوا يتوضئون لكل صلاة"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٨.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٣٠٠):ص١٠/٧.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١١٣٠١)، و(١١٣٠٢):ص١٠/٧-٨

[٤] انظرك تفسير الطبري(١١٣٠٤)، و(١١٣٠٥):ص١٠/٨.

[٥] انظر: النكت والعيون:٢/١٨، وزاد المسير:١/٥٢٠.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٣١٩)، و(١١٣٢٠):ص١٠/١١-١٢.

[٧]انظر: تفسير الطبري(١١٣٢١):ص١٠/١٢.

[٨] تفسير ابن كثير:٣/٤٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٣٢٢)-(١١٣٢٣)، و(١١٣٢٦)، و(١١٣٢٧):ص١٠/١٢، ١٣-١٤.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٣٢٤)، و(١١٣٢٥):ص١٠/١٣.

[١١] انظر: تفسير الطبري(١١٣٢٢):ص١٠/١٢.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٣٢٤):ص١٠/١٢.

[١٣] انظر: تفسير ابن كثير:٣/٤٣.

[١٤]صحيح. أخرجه مسلم ٢٧٧ وأبو داود ١٧٢ والترمذي ٦١ والنسائي ١/ ١٦ والدارمي ١/ ١٦٩ وأحمد ٥/ ٣٥٠- ٣٥١- ٣٥٨ وأبو عوانة ١/ ٢٣٧ والطحاوي في «المعاني» ١/ ٤١ وابن حبان ١٧٠٦ و ١٧٠٧ و ١٧٠٨ والبيهقي ١/ ١٦٢ من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه.

[١٥] انظر: تفسير الطبري:١٠/١٩.

[١٦] الكشاف:١/٦٠٩.

أخرج الطبري عن محمد بن يحيى بن حبان الأنصاري نه قال لعبيد الله بن عبد الله بن عمر: "أخبرني عن وضوء عبد الله لكل صلاة، طاهرا كان أو غير طاهر، عمَّن هو ؟ قال: حدثتنيه أسماء ابنة زيد بن الخطاب: أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر، الغسيل حدَّثها: أن النبي ﷺ أُمِرَ بالوضوء عند كل صلاة، فشق ذلك عليه، فأمِر بالسواك، ورفع عنه الوضوء إلا من حدّث. فكان عبد الله يرى أنّ به قوة عليه، فكان يتوضأ"[(١)].

وعن ابن عمر: "أن رسول الله ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بوضوء واحد"[(٢)].

وعن ابن عمر أيضا، قال،" قال رسول الله ﷺ: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات»"[(٣)].

و عن عمرو بن عامر،عن أنس: "أن النبي ﷺ أتي بقَعْبٍ صغير فتوضأ. قال: قلت لأنس: أكان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ؟ قال: نعم! قلت: فأنتم ؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد"[(٤)].

وعن أبي غطيف، قال: "صليت مع ابن عمر الظهر، فأتى مجلسا في داره فجلس وجلست معه. فلما نُودي بالعصر دعا بوضوء فتوضأ، ثم خرج إلى الصلاة، ثم رجع إلى مجلسه. فلما نودي بالمغرب دعا بوضوء فتوضأ، فقلت: أسنة ما أراك تَصنع ؟ قال، لا وإن كان وَضوئي لصلاة الصبح كافيًّ للصلوات كلها ما لم أحدِث، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من توضأ على طهرٍ كتب له عشر حسنات،، فأنا رغبت في ذلك"[(٥)].

قوله تعالى:{فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [المائدة: ٦]، أي:" فاغسلوا الوجوه والأيدي مع المرافق"[(٦)].

قال السمرقندي:" يعني: مع المرافق"[(٧)].

قال المبرد: "إذا مد الشيء إلى جنسه تدخل فيه الغاية، وإذا مد إلى خلاف جنسه، لا تدخل فيه الغاية، فقوله: {إلى المرافق} مد إلى جنسه، فتدخل فيه الغاية، وأما قوله: {ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ} [البقرة: ١٨٧] مد إلى خلاف جنسه، فلا تدخل فيه الغاية. والمرفق سمى بذلك؛ لارتفاق الإنسان به بالاتكاء عليه"[(٨)].

قال الطبري:" قال الشافعي: لم أعلم مخالفا في أن المرافق فيما يغسل، كأنه يذهب إلى أن معناها: فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى أن تُغْسَل المرافق حدثنا بذلك عنه الربيع"[(٩)].

قوله تعالى:{وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} [المائدة: ٦]، أي:" وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم مع الكعبين"[(١٠)].

قال السمرقندي:" يعني: مع الكعبين"[(١١)].

قال الواحدي:" وهما النَّاشزان من جانبي القدم"[(١٢)].

---

(١) تفسير الطبري(١١٣٢٨):١٠/١٤.
(٢) اخرجه الطبري(١١٣٣٥):١٠/١٨.
(٣) أخرجه الطبري(١١٣٣٨):ص١٠/٢٢.
(٤) اخرجه الطبري(١١٣٣٦):١٠/٢٠.
(٥) اخرجه الطبري(١١٣٣٧):١٠/٢١.
(٦) صفوة التفاسير:٣٠٣.
(٧) بحر العلوم:١/٣٧٢.
(٨) تفسير السمعاني:٢/١٦.
(٩) تفسير الطبري:١٠/٤٧، والام:١/٢٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٠٨.
(١١) بحر العلوم:١/٣٧٢.
(١٢) الوجيز:٣١٠.

واختلف العلماء في وجوب غسل الرجل، والأصح-والله أعلم- "أنه يجب الغسل، وقد دلت السنة عليه، إذ روى عن جابر بن عبد الله قال: رأى النبيّ ﷺ في رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله، فقال: ويل للأعقاب من النار"[1][2].

قال ابن كثير:" وقوله: { وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ } اختلفوا في هذه "الباء" هل هي للإلصاق، وهو الأظهر أو للتبعيض ؟ وفيه نظر، على قولين.

ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة[3]، وقد ثبت في الصحيحين الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه، أن رجلا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: «هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثا، وغسل وجهه ثلاثا، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه»[4].

وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا، وروى أبو داود، عن معاوية والمقدام بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله[5].

ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس، وهو مقدار الناصية.

وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحدٍّ، بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه.

واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: "هل معك ماء ؟" فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه... وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح مسلم، وغيره[6].

فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة"[7].

وقُرئ:{ وَأَرْجُلَكُمْ }، بالنصب عطفا على:{ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ }[8].

أخرج ابن ابي حاتم عن عِكَرِمة، عن ابن عباس ؛ "أنه قرأها: {وَأَرْجُلَكُمْ } يقول: رجعت إلى الغسل"[9]. وروي عن عبد الله بن مسعود، وعُرْوَة، وعطاء، وعكرمة، والحسن،

---

[1]أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣/ ٣٩٠.

وأخرجه أبو داود في: الطهارة، ٦٦- باب تفريق الوضوء، حديث ١٧٥، عن خالد عن بعض أصحاب النبيّ ﷺ، أخرجه ابن ماجة في: الطهارة وسننها، ٥٥- باب غسل العراقيب، حديث ٤٥٤، والطبري في تفسيره(١١٥١٣):ص٧٠/١٠.

[2] انظر: تفسير السمعاني:١٦/٢-١٧.

[3] انظر: صحيح مسلم برقم (٢٤٦).

[4] انظر: صحيح البخاري برقم (١٨٥ ، ١٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥)..

[5]حديث علي رواه أبو دواد في سننه برقم (١١١) وكذا حديث المقدام برقم (١٢١) وحديث معاوية برقم (١٢٤).

[6]) صحيح مسلم برقم (٢٧٤).

[7] تفسير ابن كثير:٤٩/٣-٥٠.

[8] انظر:تفسير ابن كثير:٥١/٣.

[9] كما في تفسير ابن كثير:٥١/٣.

ومجاهد، وإبراهيم، والضحاك، والسُّدِّي، ومُقاتل بن حيان، والزهري، وإبراهيم التيمي، نحو ذلك(١).

قال ابن كثير:" وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب كما هو مذهب الجمهور، خلافا لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب"(٢).

قوله تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا} [المائدة: ٦]، أي:" وإن أصابكم الحدث الأكبر فتطهروا بالاغتسال منه قبل الصلاة"(٣).

قال الطبري:أي:" وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها="فاطَّهَّروا"، يقول: فتطهّروا بالاغتسال منها قبل دخولكم في صلاتكم التي قمتم إليها"(٤).

قوله تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى} [المائدة: ٦]، أي:" وإن كنتم في حال مرض لا تقدرون معه على استعمال الماء"(٥).

قال الطبري:أي:" إن كنتم جرحى أو مُجَدَّرين(٦) وأنتم جنب"(٧).

قال ابن مسعود:" المريض: الذي قد أُرخص له في التيمم، هو الكسير والجريح. فإذا أصابت الجنابة الكسيرَ اغتسل، والجريح لا يحل جراحته، إلا جراحة لا يخشى عليها"(٨).

قال أبو مالك:" هي للمريض الذي به الجراحةُ التي يخاف منها أن يغتسل، فلا يغتسل. فرُخِّص له في التيمم"(٩).

قال مجاهد:" والمرض: أن يصيب الرجل الجرح والقرح والجدريّ، فيخاف على نفسه من برد الماء وأذاه، يتيمم بالصعيد كما يتيمم المسافر الذي لا يجد الماء"(١٠).

قال السدي:" و المرض: هو الجراح. والجراحة التي يتخوّف عليه من الماء، إن أصابه ضرَّ صاحبه، فذلك يتيمم صعيدًا طيبًا"(١١).

قال سعيد بن جبير:" إذا كان به جروح أو قُروح يتيمم"(١٢).

وقال إبراهيم:" من القروح تكون في الذراعين"(١٣).

قال الضحاك:" صاحب الجراحة التي يتخوّف عليه منها، يتيمم"(١٤).

وروي عن عاصم يعني الأحول عن الشعبي: "أنه سئل عن [قوله]: المجدور تُصيبه الجنابة ؟ قال: ذهب فرسان هذه الآية"(١٥).

---

(١) انظر:تفسير ابن كثير:٥١/٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٥١/٣.
(٣) التفسير الميسر:١٠٨.
(٤) تفسير الطبري:٨٢/١٠.
(٥) التفسير الميسر:٨٥.
(٦)يقال، "جدر الرجل، جدرا" (بالبناء للمجهول، بضم أوله وكسر ثانيه) "فهو جدير". و"جدر" (بالبناء للمجهول مشدد الدال) "فهو مجدر"، إذا أصابه الجدري.
(٧) تفسير الطبري:٨٢/١٠-٨٣.
(٨) أخرجه الطبري(٩٥٧٠):ص٣٨٦/٨.
(٩) أخرجه الطبري(٩٥٧١):ص٣٨٦/٨.
(١٠) أخرجه الطبري(٩٥٧٧):ص٣٨٧/٨.
(١١) أخرجه الطبري(٩٥٧٢):ص٣٨٦/٨.
(١٢) أخرجه الطبري(٩٥٧٣):ص٣٨٦/٨.
(١٣) أخرجه الطبري(٩٥٧٤):ص٣٨٦/٨.
(١٤) أخرجه الطبري(٩٥٧٦):ص٣٨٧/٨.
(١٥) أخرجه الطبري(٩٥٧٩):ص٣٨٧/٨.
قال السيد المحقق:" هكذا في المخطوطة : " عن قوله : المجدور... " فأثبتها بين القوسين ، لأني في شك منها. وأما قوله : " ذهب فرسان هذه الآية " ، فإنه مما أشكل على معناه ، وربما رجحت أنه أراد أن الآية نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد ، تصيبهم الجنابة ولا ماء عندهم ، فيريدون الماء ولا يجدون ممرًا إلا في المسجد ، كما مضى في الأثر رقم : ٩٥٦٧. فيكون قوله : " ذهب فرسان هذه الآية " ،

وقال ابن زيد:" المريضُ الذي لا يجد أحدًا يأتيه بالماء، ولا يقدر عليه، وليس له خادم ولا عون، فإذا لم يستطع أن يتناول الماء، وليس عنده من يأتيه به، ولا يحبو إليه، تيمم وصلَّى إذا حلَّت الصلاة قال: هذا كله قولُ أبي إذا كان لا يستطيع أن يتناول الماء وليس عنده من يأتيه به، لا يترك الصلاة، وهو أعذَرُ من المسافر"[1].

وفي قوله تعالى:{وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى} [المائدة:٦] ثلاثة أقاويل[2]:

أحدها:ما انطلق عليه اسم المرض من مستضرٍّ بالماء وغير مستضرٍّ، وهذا قول داود بن علي[3].

الثاني:ما استضر فيه باستعمال الماء دون ما لم يستضر، وهذا قول مالك[4]، وأحد قولي الشافعي[5].

والثالث ما خيف من استعمال الماء فيه التلف دن ما لم يُخفْ، وهو القول الثاني من قولي الشافعي[6].

قوله تعالى:{أَوْ عَلَى سَفَرٍ} [المائدة: ٦]، أي:" أو كنتم على سفر في حال الصحة"[7].

قال الطبري:أي:" أو[كنتم] مسافرين وأنتم جنب"[8].

وفي قوله تعالى:{أَوْ عَلَى سَفَرٍ}[المائدة: ٦]، ثلاثة أقاويل[9]:

أحدها: ما انطلق عليه اسم السفر من قليل وكثير، وهو قول داود .

والثاني: مسافة يوم وليلة فصاعداً، وهو قول مالك، والشافعي رحمهما الله .

والثالث: مسافة ثلاثة أيام، وهو مذهب أبي حنيفة .

قوله تعالى:{أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ} [المائدة: ٦]، أي:" أو قضى أحدكم حاجته"[10].

قال الطبري:" يقول: أو جاء أحدكم وقد قضى حاجته فيه وهو مسافر. وإنما عنى بذكر مجيئه منه قضاء حاجته فيه"[11].

قال ابن كثير:" الغائط: هو المكان المطمئن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر"[12].

قال مجاهد:" الغائط، الوادي"[13].

قوله تعالى:{أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} [المائدة: ٦]، أي:" أو جامع زوجته"[14].

قال الطبري:" يقول: أو جامعتم النساء وأنتم مسافرون"[15].

وفي هذه الملامسة قولان:

عن ذلك الشطر من الآية " ولا جنبًا إلا عابري سبيل " ، وأنهم هم الأنصار من أصحاب رسول الله ، الذين كانت أبوابهم في المسجد ، وقد مضوا ، لم يبق اليوم منهم أحد. هذا غاية اجتهادي ، وفوق كل ذي علم عليم".
قلت: ربما أراد سفيان أن السياق كان خاصا بهؤلاء الفرسان، وأما الحكم فباق. والله تعالى أعلم.

[1] اخرجه الطبري(٩٥٧٩):ص٨/٣٨٧-٣٨٨.

[2] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٠.

[3] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٠.

[4] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٠.

[5] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٠.

[6] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٢/٧١٥-٧١٦.

[7] التفسير الميسر:١٠٨.

[8] تفسير الطبري:١٠/٨٢-٨٣.

[9] انظر: النكت والعيون:١/٤٩٠.

[10] التفسير الميسر:١٠٨.

[11] تفسير الطبري:١٠/٨٣.

[12] تفسير ابن كثير:٢/٣١٤.

[13] تفسير الطبري(٩٥٨٠):٨/٣٨٨.

[14] التفسير الميسر:١٠٨.

[15] تفسير الطبري:١٠/٨٣.

أحدهما: أنها كناية عن الجماع، لقوله { وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ } [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا } [الأحزاب: ٤٩]. وهو قول عليّ [١]، وابن عباس[٢]، والحسن [٣] وقتادة[٤]، ومجاهد[٥].

والثاني: أن الملامسة باليد والإفضاء ببعض الجسد، وهو قول ابن مسعود[٦]، وابن عمر[٧]، وعبيدة[٨]، والنخعي[٩]، والشعبي[١٠]، وعطاء[١١]، وابن سيرين [١٢]، والحكم[١٣]، وحماد[١٤]، وبه قال الشافعي[١٥].

والراجح أن أنّ " اللمس " في هذا الموضع،لمس الجماع، لا جميع معاني اللمس، لصحة الخبر عن رسول الله-ﷺ- أنه قَبّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ [١٦]، وكما قال الشاعر[١٧]:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا   إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

يعني بذلك: ننك لماسًا[١٨] [١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٢):ص٨/٣٩٢.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٩٥٨١)-(٩٦٠١):ص٨/٣٨٩-٣٩٢.

[٣] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٣)، و(٩٦٠٥):ص٨/٣٩٢.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٥):ص٨/٣٩٢.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٤):ص٨/٣٩٢.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٦)-(٩٦١٣):ص٨/٣٩٣.

[٧] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٧):ص٨/٣٩٤.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٣)، و(٩٦١٦):ص٨/٣٩٣-٣٩٤.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٩):ص٨/٣٩٥.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٨):ص٨/٣٩٥.

[١١] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢١):ص٨/٣٩٥.

[١٢] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٦):ص٨/٣٩٥.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٨/٣٩٥.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٨/٣٩٥.

[١٥] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٢/٧٠٨. قال الشافعي:" فأشبه أن يكون أوجب الوضوء من الغائط، وأوجبه من الملامسة، وإنما ذكرها موصولة بالغائط، بعد ذكر الجنابة، فأشبهت الملامسة، أن تكون: اللمس باليد، والقُبْلة غير الجنابة".

[١٦] انظر: تفسير الطبري:٨/٣٩٨،

[١٧]البيت ذكره الفراء في: "معاني القرآن" ٢/ ١٩٢، وقال: تمثل به ابن عباس، وذكره الحربي في "غريب الحديث" ولم ينسبه ٣/ ١١١، وانظر: البيت في "الكشف والبيان" ٣/ ٢٥ أ، "النكت والعيون" ٣/ ٤٢٧، "الجامع لأحكام القرآن" ١١/ ٢٤٧، "مجمع البيان" ٧/ ٤٩، "روح المعاني" ١٦/ ١٦٤، "تهذيب اللغة" (همس) ٤/ ٣٧٩٣، "لسان العرب" (همس) ٨/ ٤٧٠٠.

وقال شاكر في تعليقه على "تفسير الطبري" ٤/ ١٢٦: لم أعرف قائله وهو رجز كثير الدوران في الكتب. والهمس، والهميس: صوت نقل أخفاف الإبل، والصوت الخفي الذي لا غور له في الكلام، والوطء والأكل وغيرها، ولميس: اسم صاحبته، ويريد بقوله: إن تصدق الطير: أنه زجر الطير فتيامن بمرها، ودلته على قرب اجتماعه بأصحابه وأهله.

والبيت مما أنشده ابن عباس، وقد نقله عنه السيوطي في الإتقان وكثير من المفسرين، ومنهم المؤلف، ونقل صاحب (اللسان: همس) شطره الأول. وهو * وهن يمشين بنا هميسا *

قال: وهو صوت نقل أخفاف الإبل. أهـ. وقال في أول المادة: الهمس: الخفي من الصوت والوطء والأكل. وفي التنزيل: " فلا تسمع إلا همسا ". وفي التهذيب: يعني به والله أعلم: خفق الأقدام على الأرض. وقال الفراء: يقال إنه نقل الأقدام إلى المحشر. ويقال: الصوت الخفي. وروي عن ابن عباس تمثل فأنشده * وهن يمشين بنا هميسا *.

[١٨]قوله: "لماسًا" أي، ملامسة. وكأنه جعل"اللميس" مصدرًا من"اللمس"، مثل"المسيس" مصدرًا من"المس". وهو قول غريب للطبري. بل أكثرهم يقول: "لميس: اسم امرأة"، ومعنى"امرأة لميس": هي المرأة اللينة الملمس

أخرج الطبري عن عروة، عن عائشة قالت: "كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلِّي ولا يتوضأ"[٢]. وفي رواية أخرى:" أن النبي ﷺ قبَّل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. قلت: من هي إلا أنت ؟ فضحكت[٣].

قوله تعالى:{فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} [المائدة: ٦]، أي:" أي ولم تجدوا الماء بعد طلبه فاقصدوا التراب الطاهر للتيمم به"[٤].

و«التيمم»، في اللغة هو: "القصد. تقول العرب: تيممك الله بحفظه، أي: قصدك. ومنه قول امرئ القيس[٥]:

وَلَمَّا رَأتْ أنَّ المَنِيةِ ورِدُها ... وأن الحصَى من تحت أقدامها دَامِ

تيممت العين التي عند ضارج[٦] ... يفيء عليها الفيء عَرْمَضها طام[٧]

وفي الصعيد أربعة أقاويل:

أحدها: أنها الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا غِراس، وهو قول قتادة [٨].

والثاني: أنها الأرض المستوية، وهو قول ابن زيد[٩].

والثالث: هو التراب، وهو قول عليّ، وابن مسعود، وعمرو بن قيس الملائي[١٠]، والشافعي، وأحمد بن حنبل وأصحابهما[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري:٣٩٨/٨،

[٢] تفسير الطبري(٩٦٢٩):ص٣٩٦/٨.

[٣] تفسير الطبري(٩٦٣٠):ص٣٩٦/٨.

قال السيد أحمد محمد شاكر محقق تفسير الطبري:" الحديثان : ٩٦٣٩ - ٩٦٣٠ - عروة ، في هذين الإسنادين : هو عروة بن الزبير ، ابن أخت عائشة ، على اليقين ، خلافًا لمن زعم أنه " عروة المزني " ، من اجل كلمة قالها الثوري : " ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزني " ! فإنه إن لم يحدثه عن عروة بن الزبير ، فقد حدث غيره عنه.

والحديث رواه أحمد في المسند ٦ : ٢١٠ (حلبي) ، عن وكيع - بالإسناد الثاني هنا - وفيه صراحة " عن عروة بن الزبير " . وكذلك جاء التصريح بأنه " عروة بن الزبير " ، في رواية ابن ماجه : ٥٠٢ ، من طريق وكيع. فارتفع كل شك وكل إشكال.

وكلمة الثوري رواها أبو داود في سننه ، عقب الحديث : ١٨٠ ، بصيغة التمريض : " روى عن الثوري " . ثم نقضها هو نفسه ، فقال : " وقد روى حمزة الزيات ، عن حبيب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - حديثًا صحيحًا " .

والحديث رواه أيضًا أبو داود : ١٧٩ ، والترمذي : ٨٦ (بشرحنا) - كلاهما من طريق وكيع ، به. وفيهما " عن عروة " فقط ، كما هنا.

وقد أطال العلماء الكلام في تعليل هذا الحديث ، وخالفهم آخرون ، فأثبتوا صحته " عن عروة بن الزبير " . وهو الصواب. وفصلنا القول فيه في شرحنا للترمذي ١ : ١٣٣ - ١٤٢. وأثبتنا صحته ، وترجيح القول بأن " الملامسة " في هذه الآية هي الجماع ، وأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء. ولم نر حاجة لتكرار ذلك والإطالة به هنا. وانظر السنن الكبرى للبيهقي ، ورد ابن التركماني عليه ١ : ١٢٣ - ١٢٧ ، وابن كثير ٢ : ٤٦٥ - ٤٦٦ .

[٤] صفوة التفاسير:٣٠٣.

[٥]رواية البيتين في ديوانه ص ٤٧٥:

ولما رأت أن الشريعة همها ... وأن البياض من فرائصها دام

تيممت العين التي عند ضارج ... يفيء عليها الطلح عرمضها طام

وهما في لسان العرب (ضرج، عرمض) ومقاييس اللغة ٣/ ٢٦٢ و ٤/ ٤٣٥ وتاج العروس (ضرج) .

[٦]ضارج: اسم موضع في بلاد بنى عبس. والعرمض: الطحلب. وقيل: الخضرة على الماء، والطحلب: الذي يكون كأنه نسخ العنكبوت. وطامي: مرتفع..

[٧] انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٤):ص٤٠٨/٨.

[٩] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٥):ص٤٠٨/٨.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٦):ص٤٠٨/٨.

واحتجوا بقوله تعالى: { فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا } [الكهف: ٤٠] أي: ترابا أملس طيبا، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجعلت تربتها لنا طهورا إذا لم نجد الماء»(٢)، وفي لفظ: "وجعل ترابها لنا طهورا إذا لم نجد الماء". قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه(٣).

والرابع: أنه وجه الأرض ذات التراب والغبار(٤)، وهذا قول أبي عبيدة(٥)، ومنه قول ذي الرُّمة (٦):

كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَرْمِي الصَّعِيدَ بِهِ دَبَّابَةٌ في عِظَامِ الرَّأسِ خُرْطُومُ

يعني: تضرب به وجه الأرض(٧).

وفي قوله تعالى:{طَيِّبًا} [النساء: ٤٣]، أربعة أقاويل:

أحدها: حلالاً، وهو قول سفيان(٨)، واختاره ابن كثير(٩).

والثاني: أن الطيب: ما أتت عليه الأمطار وطهرته، و{طيبا}، أي: طاهرا. وهذا قول سعيد بن بشر(١٠)، والطبري(١١)، والزجاج(١٢).

عن أبي ذر قال: "قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب طهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجده، فليمسه بَشرته، فإن ذلك خير له»"(١٣).

والثالث: تراب الحرث، وهو قول ابن عباس(١٤).

والرابع: أنه مكان حَدِرٌ غير بَطِحٍ، وهو قول ابن جريج(١٥).

قال ابن كثير:" استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد تطلبه، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، كما هو مقرر في موضعه، كما هو في الصحيحين، من حديث عِمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا معتزلا لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم ؟ ألست برجل مسلم ؟ قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال: عليك بالصعيد، فإنه يكفيك»(١٦)"(١٧).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

(٢)صحيح مسلم برقم (٥٢٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري:٤٠٨/٨. نسبه الطبري إلى البعض.

(٥) انظر: تفسير ابن المنذر(١٨٢٤):ص٧٢٨/٢ ولفظه:"وجه الأرض".

(٦)ديوانه: ٥٧١، من قصيدته المحكمة المشهورة. والبيت من أبياته في ذكر ظبية أودعت ولدها الصغير بين أشجار، فإذا ارتفعت شمس الضحى نال منه التعب، فانطرح على الأرض، كأنه سكران أثقله النعاس. وقوله: "دبابة": تدب في أوصال شاربها، يعني الخمر..

(٧) انظر: تفسير الطبري:٤٠٩/٨.

(٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٧٦):ص٩٦٣/٣.

(٩) انظر: تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٥٣٧٧):ص٩٦٣/٣.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ٣ / ٣٠١، و ٥ / ٥٥٥ ، و٧ / ٤٢٤، و٨/٤٠٩-٤١٠.

(١٢) انظر: معاني القرىن:٥٦/٢.

(١٣)المسند (١٨٠/٥) وسنن أبي داود برقم (٣٣٢) وسنن الترمذي برقم (١٢٤) وسنن النسائي (١٧١/١).

(١٤) انظر: النكت والعيون:٤٩١/١، قال ابن كثير:٢٨٠/٢:" رواه ابن أبي حاتم، ورفعه ابن مردويه في تفسيره".

(١٥) انظر: النكت والعيون:٤٩٢/١.

(١٦)صحيح البخاري برقم (٣٤٨) وصحيح مسلم برقم (٦٨٢).

(١٧) تفسير ابن كثير:٣١٨/٢.

قوله تعالى:{فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ} [المائدة: ٦]، أي:" أي امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب"(١).

قال الطبري:" المسح منه بالوجه، أن يضرب المتيمم بيديه على وجه الأرض الطاهر، أو ما قام مقامه، فيمسَح بما علق من الغُبار وجهه. فإن كان الذي علق به من الغُبار كثيرًا فنفخ عن يديه أو نفضه، فهو جائز. وإن لم يعلَق بيديه من الغبار شيء وقد ضرب بيديه أو إحداهما الصعيد، ثم مسح بهما أو بها وجهه، أجزأه ذلك، لإجماع جميع الحجَّة على أن المتيمم لو ضرب بيديه الصعيد وهو أرض رمل فلم يعلق بيديه منها شيء فتيمم به، أن ذلك مجزئَه، لم يخالف ذلك من يجوز أن يُعْتَدّ خلافًا، فلما كان ذلك إجماعًا منهم، كان معلومًا أن الذي يراد به من ضَرْب الصعيد باليدين، مباشرةُ الصعيد بهما، بالمعنى الذي أمرَ الله بمباشرته بهما، لا لأخْذِ ترابٍ منه"(٢).

واختلفوا في المسح باليدين على أقوال:

أحدها: أن حدّ ذلك الكفّان إلى الزَّندين، وليس على المتيمم مسح ما وراء ذلك من الساعدين. وهذا مروي عن عمار(٣)، والشعبي والشعبي في أحد قوليه(٤)، وعكرمة(٥)، ومكحول(٦)،وبه قال قال مالك في أحد قوليه(٧)، والشافعي في القديم (٨).

وقالوا: أمر الله في التيمم بمسح الوجه واليدين، فما مسح من وجهه ويديه في التيمم أجزأه، إلا أن يمنع من ذلك ما يجب التسليم له من أصل أو قياس(٩).

وقد روي عن عمار بن ياسر: "أنه سأل رسول الله ﷺ عن التيمم، فقال: «مرة للكفين والوجه»، وفي حديث ابن بشر: أن عمارًا سأل النبيّ ﷺ عن التيمم"(١٠).

و عن ابن أبزى، قال: "جاء رجل إلى عمر فقال: إنّي أجنبت فلم أجد الماء! فقال عمر: لا تصل. فقال له عمار: أما تذكر أنّا في مسيرٍ على عهد رسول الله ﷺ، فأجنبت أنا وأنت، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعَّكت في التراب وصلَّيت، فأتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: إنما كان يكفيك ، وضرَب كفّيه الأرض، ونفخ فيهما، ومسح وجهه وكفيه مرة واحدة ؟"(١١).

والثاني:ان حدُّ المسح الذي أمر الله به في التيمم، أن يمسح جميع الوجه واليدين إلى المرفقين. وهذا مروي عن ابن عمر(١٢)،والحسن(١٣)، وعامر الشعبي(١٤)، وسالم بن عبدالله(١٥)، والشافعي في الجديد(١٦).

وقالوا:" لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السرقة: { فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا }

---

(١) صفوة التفاسير:٣٠٣.
(٢) تفسير الطبري:٤١٠/٩.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٩٦٤٩):ص٤١١/٩.
(٤)انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٠):ص٤١١/٩.
(٥)انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٢):ص٤١١/٩.
(٦)انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٣):ص٤١١/٩.
(٧) انظر: النكت والعيون:٤٩٢/١.
(٨) انظر: تفسير ابن كثير:٣٢٠/٢.
(٩)انظرك تفسير الطبري:٤١٤/٩
(١٠) أخرجه الطبري(٩٦٥٦):ص٤١٢/٩.
(١١) أخرجه الطبري(٩٦٥٧):ص٤١٣/٩.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٩٦٥٨)-(٩٦٦١):ص٤١٤/٨-٤١٥.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٢)، و(٩٦٦٧):ص٤١٥/٩، ٤١٦.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٣)، و(٩٦٦٣):ص٤١٥/٩.
(١٥) انظرك تفسير الطبري(٩٦٦٦):ص٤١٦/٨.
(١٦) انظر: الأم:٤٢/١، واحتج الشافعي بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبي الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية ، عن الأعرج ، عن ابن الصَّمَّة : "أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه".

[المائدة: ٣٨] قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية"[١].

وذكر بعضهم ما رواه الدارقطني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين"[٢].

واعتلوا من الأثر بما عن أبي جهيم قال: "رأيت رسول الله ﷺ يبول، فسلَّمت عليه، فلم يرد عليَّ. فلما فرغ قام إلى حائط فضرب بيديه عليه، فمسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه إلى الحائط فمسح بهما يديه إلى المرفقين، ثم ردَّ عليَّ السلام"[٣].

والثالث:أن الحدّ الذي أمر الله أن يبلغ بالتراب إليه في التيمم: الآباط. وهذا قول الزهري[٤]،[٥]، الزهري[٤]،[٥]، وحكي نحوه عن أبي بكر[٦] .

وعلة من قال ذلك: أن الله أمر بمسح اليد في التيمم، كما أمر بمسح الوجه. وقد أجمعوا أن عليه أن يمسح جميع الوجه، فكذلك عليه جميع اليد، ومن طرف الكفّ إلى الإبط يدٌ[٧].

واعتلوا من الخبر بما روي عن أبي اليقظان قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهلك عقد لعائشة، فأقام رسول الله ﷺ حتى أضاء الصبح، فتغيَّظ أبو بكر على عائشة، فنزلت عليه الرخصة، المسح بالصعيد. فدخل أبو بكر فقال لها: إنك لمباركة! نزل فيك رخصة! فضربنا بأيدينا: ضربة لوجوهنا، وضربة بأيدينا إلى المناكب والآباط"[٨].

والراجح-والله أعلم- "أن الحدّ الذي لا يجزئ المتيمم أن يقصِّر عنه في مسحه بالتراب من يديه: الكفان إلى الزّندين، لإجماع الجميع على أن التقصير عن ذلك غير جائز. ثم هو فيما جاوز ذلك مخيّر، إن شاء بلغ بمسحه المرفقين، وإن شاء الآباط. والعلة التي من أجلها جعلناه مخيرًا فيما جاوز الكفين: أن الله لم يحدَّ في مسح ذلك بالتراب في التيمم حدًّا لا يجوز التقصير عنه. فما مسح المتيمم من يديه أجزأه، إلا ما أُجمع عليه، أو قامت الحجة بأنه لا يجزئه التقصير عنه. وقد أجمع الجميعُ على أن التقصير عن الكفين غير مجزئ، فخرج ذلك بالسنة، وما عدا ذلك فمختلف فيه. وإذا كان مختلفًا فيه، وكان الماسح بكفيه داخلا في عموم الآية كان خارجًا مما لزمه من فرض ذلك"[٩].

واختلف أهل العلم في الجنب، هل هو ممن دخل في رخصة التيمم إذا لم يجد الماء أم لا ؟، وفيه قولان[١٠]:

أحدهما: أنه يجوز، وأن حكم الجنب فيما لزمه من التيمم إذا لم يجد الماء، حكم من جاء من الغائط وسائر من أحدَث ممن جُعل التيمم له طهورًا لصلاته. وهو قول الجمهور [١١].

وذلك أن للجنب التيمم إذا لم يجد الماء في سفره، بإجماع الحجة على ذلك نقلا عن نبيها ﷺ، الذي يقطع العذر ويزيل الشك.

وقائلوا هذا المقال: تاوّلوا {أو لامستم النساء}، أو جامعتموهن [١٢]، وممن تأول الملامسة بالجماع:الإمام عليّ-رضي الله عنه- [١]، وابن عباس[٢]، والحسن [٣] وقتادة[٤]، ومجاهد[٥].

---

[١] تفسير ابن كثير:٣١٩/٢.

[٢]سنن الدارقطني (١٨٠/١). قال ابن كثير:٣١٩/٢:" لا يصح ؛ لأن في أسانيده ضعفاء لا يثبت الحديث بهم".

[٣] أخرجه الطبري(٩٦٦٨):ص٤١٦/٩.

[٤] انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٩):ص٤١٨/٩.

[٥] انظر: تفسير الطبري(٩٦٦٩):ص٤١٨/٨.

[٦] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٠):ص٤١٨/٨.

[٧] انظر: تفسير الطبري:٤١٨/٩.

[٨] أخرجه الطبري(٩٦٧٠):٤١٨/٩.

[٩] تفسير الطبري:٤١٩/٩-٤١٠.

[١٠] انظر: تفسير الطبري:٤٢٠/٩-٤٢١.

[١١] انظر: تفسير الطبري: ٤٢٠/٨، والنكت والعيون:٤٩٢/١.

[١٢] انظرك تفسير الطبري:٤٢٠/٩.

والثاني: أنه لايجوز، ولا يجزئ الجنب غيرُ الاغتسال بالماء، وليس له أن يصلي بالتيمم، والتيمم لا يطهره. وهذا مروي عن عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-[6].وعبدالله بن مسعود[7]، وإبراهيم النخعي[8].

وعلى هذا القول: إنما جعل التيمم رخصة لغير الجنب. وتأولوا قول الله: {ولا جنبًا إلا عابري سبيل}، قالوا: وقد نهى الله الجنب أن يقرب مصَلَّى المسلمين إلا مجتازًا فيه حتى يغتسل، ولم يرخِّص له بالتيمم.

قالوا:وتأويل قوله:{أو لامستم النساء}، أو لامستموهن باليد، دون الفرج، ودون الجماع، وومن تأول الملامسة في الآية بالملامسة باليد: ابن مسعود[9]، وابن عمر[10]، وعبيدة[11]، والنخعي[12]، والشعبي[13]، وعطاء[14]، وابن سيرين [15]، والحكم[16]، وحماد[17]، وبه قال الشافعي[18].

والراجح-والله أعلم- هو قول الجمهور، بأن الجنب ممن أمره الله بالتيمم للصلاة إذا لم يجد الماء، لأن الملامسة، في هذا الموضع: لمس الجماع[19]، لا جميع معاني اللمس[20]، كما سبق بيان ذلك.

أخرج الطبري عن عروة، عن عائشة قالت: "كان النبي ﷺ يتوضأ ثم يقبل، ثم يصلِّي ولا يتوضأ"[21].

وفي رواية أخرى:" أن النبي ﷺ قبَّل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ. قلت: من هي إلا أنت ؟ فضحكت[22].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٢):ص٣٩٢/٨.
[2] انظر: تفسير الطبري(٩٥٨١)-(٩٦٠١):ص٣٨٩/٨-٣٩٢.
[3] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٣)، و(٩٦٠٥):ص٣٩٢/٨.
[4] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٥):ص٣٩٢/٨.
[5] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٤):ص٣٩٢/٨.
[6] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٢):ص٤٢٢/٩-٤٢٢.
[7] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧١):ص٤٢٠/٩-٤٢١.
[8] انظر: تفسير الطبري(٩٦٧٣):٤٢٢/٩.
[9] انظر: تفسير الطبري(٩٦٠٦)-(٩٦١٣):ص٣٩٣/٨.
[10] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٧):ص٣٩٤/٨.
[11] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٣)، و(٩٦١٦):ص٣٩٣/٨-٣٩٤.
[12] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٩):ص٣٩٥/٨.
[13] انظر: تفسير الطبري(٩٦١٨):ص٣٩٥/٨.
[14] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢١):ص٣٩٥/٨.
[15] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٦):ص٣٩٥/٨.
[16] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٣٩٥/٨.
[17] انظر: تفسير الطبري(٩٦٢٠):ص٣٩٥/٨.
[18] انظر: تفسير الغمام الشافعي:٧٠٨/٢. قال الشافعي:" فأشبه أن يكون أوجب الوضوء من الغائط، وأوجبه من الملامسة، وإنما ذكرها موصولة بالغائط، بعد ذكر الجنابة، فأشبهت الملامسة، أن تكون: اللمس باليد، والقُبْلة غير الجنابة".
[19] انظر: تفسير الطبري:٤٢٢/٩.
[20] انظر: تفسير الطبري:٤٢٢/٩.
[21] تفسير الطبري(٩٦٢٩):ص٣٩٦/٨.
[22] تفسير الطبري(٩٦٣٠):ص٣٩٦/٨.
قال السيد أحمد محمد شاكر محقق تفسير الطبري:" الحديثان : ٩٦٣٩ - ٩٦٣٠ - عروة ، في هذين الإسنادين : هو عروة بن الزبير ، ابن أخت عائشة ، على اليقين ، خلافًا لمن زعم أنه " عروة المزني " ، من اجل كلمة قالها الثوري : " ما حدثنا حبيب إلا عن عروة المزني " ! فإنه إن لم يحدثه عن عروة بن الزبير ، فقد حدث غيره عنه.
والحديث رواه أحمد في المسند ٦ : ٢١٠ (حلبي) ، عن وكيع - بالإسناد الثاني هنا - وفيه صراحة " عن عروة

قوله تعالى:{مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} [المائدة: ٦]، أي:" ما يريد الله في أمر الطهارة أن يُضَيِّق عليكم"[١].

قال مجاهد:": {من حرج}، من ضيق"[٢]. وروي عن عكرمة مثل ذلك[٣].

قال القرطبي:" أي: من ضيق في الدين، دليله قوله تعالى: { وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ } [الحج: ٧٨]"[٤].

قال الطبري:أي:" ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ما يريد الله بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى صلاتكم، والغُسل من جنابتكم والتيمم صعيدا طيبا عند عدمكم الماء ليجعل عليكم من حرج ليلزمكم في دينكم من ضيق، ولا ليعنتكم فيه"[٥].

قال ابن كثير:" أي: فلهذا سهل عليكم ويسَّر ولم يعسِّر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله في حق من شرع الله يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه"[٦].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ} [المائدة: ٦]، أي:" بل يريد ليطهركم من الذنوب وأدناس الخطايا بالوضوء والتيمم"[٧].

قال القرطبي:" أي: من الذنوب كما ذكرنا من حديث أبي هريرة[٨]، والصنابحي[٩]. وقيل: من الحدث والجنابة. وقيل: لتستحقوا الوصف بالطهارة التي يوصف بها أهل الطاعة"[١٠].

قال الطبري:أي:" ولكن الله يريد أن يطهّركم بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث والغسلِ من الجنابة، والتيمم عند عدم الماء، فتنظفوا وتطهّروا بذلك أجسامكم من الذنوب"[١١].

بن الزبير " . وكذلك جاء التصريح بأنه " عروة بن الزبير " ، في رواية ابن ماجه : ٥٠٢ ، من طريق وكيع. فارتفع كل شك وكل إشكال.

وكلمة الثوري رواها أبو داود في سننه ، عقب الحديث : ١٨٠ ، بصيغة التمريض : " روى عن الثوري " . ثم نقضها هو نفسه ، فقال : " وقد روى حمزة الزيات ، عن حبيب ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - حديثًا صحيحًا " .

والحديث رواه أيضًا أبو داود : ١٧٩ ، والترمذي : ٨٦ (بشرحنا) - كلاهما من طريق وكيع ، به. وفيهما " عن عروة " فقط ، كما هنا.

وقد أطال العلماء الكلام في تعليل هذا الحديث ، وخالفهم آخرون ، فأثبتوا صحته " عن عروة بن الزبير " . وهو الصواب. وفصلنا القول فيه في شرحنا للترمذي ١ : ١٣٣ - ١٤٢. وأثبتنا صحته ، وترجيح القول بأن " الملامسة " في هذه الآية هي الجماع ، وأن لمس المرأة لا ينقض الوضوء. ولم نر حاجة لتكرار ذلك والإطالة به هنا. وانظر السنن الكبرى للبيهقي ، ورد ابن التركماني عليه ١ : ١٢٣ - ١٢٧ ، وابن كثير ٢ : ٤٦٥ - ٤٦٦.

[١] التفسير الميسر:١٠٨.

[٢] أخرجه الطبري(١١٥٤١):ص١٠/٨٥.

[٣] انظرك تفسير الطبري(١١٥٤٠):ص١٠/٨٥.

[٤] تفسير القرطبي:٦/١٠٨.

[٥] تفسير الطبري:١٠/٨٤-٨٥.

[٦] تفسير ابن كثير:٣/٦٠.

[٧] صفوة التفاسير:٣٠٣.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٥٤٨):ص١٠/٨٩. وسوف يأتي.

[٩]عن عبد الله الصنابحي، أن رسول الله ﷺ، قال: "إذا توضأ العبد المؤمن فمضمض خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفار يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه، حتى تخرج من تحت أظفار رجليه قال: ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له". الحديث أخرجه مالك في "الموطأ"(٧٤):ص١/٣٣.

[١٠] تفسير القرطبي:٦/١٠٨.

[١١] تفسير الطبري١٠/٨٥.

عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة: "أنّ رسول الله ﷺ قال: إن الوضوء يكفّر ما قبله، ثم تصير الصلاة نافلة. قال قلت: أنت سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم، غيرَ مرة، ولا مرتين، ولا ثلاث، ولا أربع، ولا خمس"[١].

وفي رواية أخرى عن أبي إمامة قال، "قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه»"[٢].

وعن كعب بن مرة قال، "قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه أو: ذراعيه إلا خرجت خطاياه منهما، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه، وإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه»"[٣].

و عن عمرو بن عبسة: أنه قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول:«إذا غسل المؤمن كفّيه انتثرت الخطايا من كفَّيه، وإذا تمضمض واستنشق خرجت خطاياه من فيه ومنخريه، وإذا غسل وجهه خرجت من وجهه حتى تخرج من أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت من يديه، فإذا مسح رأسه وأذنيه خرجت من رأسه وأذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت حتى تخرج من أظفار قدميه، فإذا انتهى إلى ذلك من وضوئه كان ذلك حظّه منه، فإذ قام فصلى ركعتين مقبلا فيهما بوجهه وقلبه على ربه، كان من خطاياه كيوم ولدته أمّه»"[٤].

و عن أبي هريرة: "أن رسول الله ﷺ، قال:« إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرجت من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطرة من الماء، أو نحو هذا. وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة بطشت بها يداه مع الماء، أو مع آخر قطرة من الماء، حتى يخرج نقيًّا من الذنوب»"[٥].

و، عن حمران مولى عثمان قال:"أتيت عثمان بن عفان بوضوء وهو قاعد، فتوضأ ثلاثا ثلاثا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ كوضوئي هذا. ثم قال: من توضأ وضوئي هذا كان من ذنوبه كيوم ولدته أمّه، وكانت خُطاه إلى المساجد نافلة"[٦].

قوله تعالى:{وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ٦]، أي:" وليتم نعمته عليكم ببيان شرائع الإسلام"[٧].

قال الطبري:أي:يريد" أن يتم نعمته عليكم بإباحته لكم التيمم، وتصييره لكم الصعيد الطيب طهورا، رخصة منه لكم في ذلك مع سائر نِعَمه التي أنعم بها عليكم، أيها المؤمنون"[٨].

قال القرطبي:" أي بالترخيص في التيمم عند المرض والسفر. وقيل: بتبيان الشرائع. وقيل: بغفران الذنوب، وفي الخبر «تمام النعمة دخول الجنة والنجاة من النار»[٩]"[١٠].

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٦]، أي:" لتشكروه على نعمه"[١١].

---

[١] أخرجه الطبري(١١٥٤٣):ص١٠/٨٥-٨٦.

[٢] أخرجه الطبري(١١٥٤٥):ص١٠/٨٦.

[٣] أخرجه الطبري(١١٥٤٦):ص١٠/٨٧.

[٤] أخرجه الطبري(١١٥٤٧):ص١٠/٨٨.

[٥] أخرجه الطبري(١١٥٤٨):ص١٠/٨٩.

[٦] أخرجه الطبري(١١٥٤٩):ص١٠/٨٩-٩٠.

[٧] صفوة التفاسير:٣٠٣.

[٨] تفسير الطبري:١٠/٩٠.

[٩]أخرج الترمذي عن معاذ بن جبل قال: سمع النبي - ﷺ - رجلاً يدعو يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة. فقال: فقال: "أي شيء تمام النعمة؟ " قال: دعوة دعوت بها أرجو بها الخير. قال: "فإن من تمام النعمة دخول الجنة، والفوز من النار" الحديث.

أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) كتاب الدعوات، باب (٩٩): ٥/ ٥٤١، وقال: هذا حديث حسن. وانظر: "الدر المنثور" ٢/ ٤٦٨.

وعن على رضى الله عنه :«تمام النعمة الموت على الإسلام».[انظر: الكشاف:١/٦٠٢].

[١٠] تفسير القرطبي:٦/١٠٨.

[١١] صفوة التفاسير:٣٠٣.

قال القرطبي:" أي: لتشكروا نعمته فتقبلوا على طاعته"[١].

قال الطبري:" يقول:لكي تشكروا الله على نعمه التي أنعمها عليكم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم"[٢].

قال ابن كثير:" أي: لعلكم تشكرون نعمَه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة"[٣].

وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين في امتثال هذه الآية الكريمة[٤]، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقبة بن بن عامر قال: "كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نَوْبَتي فَرَوَّحتها بعَشِيّ، فأدركت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس، فأدركت من قوله: "ما من مسلم يتوضأ فيحسن وُضُوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين مُقْبلا عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة". قال: قلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، رضي الله عنه، فقال: إني قد رأيتك جئت آنفا قال: "ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء"[٥].

عن أبي مالك الأشعري ؛ أن رسول الله ﷺ قال: "الطُّهور شَطْر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة بُرهان، والصبر ضياء، والقرآن حُجَّة لك أو عليك، كل الناس يَغْدُو، فبائع نفسه فَمعتِقهَا، أو مُوبِقُهَا"[٦].

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور"[٧].

الفوائد:

١- الأمر بالطهارة وبيان كيفية الوضوء وكيفية الغسل، وكيفية التيمم.

٢- بيان الأعذار الناقلة للمؤمن من الوضوء إلى التيمم.

٣- بيان موجبات الوضوء والغسل.

٤- الشكر هو علة الإنعام.

٥-أن هذه الآية الكريمة اشتملت على جملة من الاحكام[٨]:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله {يأيها الذين آمنوا} إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: {إذا قمتم إلى الصلاة} .

الثالث: الأمر بالنية للصلاة، لقوله: {إذا قمتم إلى الصلاة} أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الفرض والنفل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنازة، تشترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

---

[١] تفسير القرطبي:١٠٨/٦.

[٢] تفسير الطبري:٩٠/١٠.

[٣] تفسير ابن كثير:٦٠/٣.

[٤] انظر: تفسير ابن كثير:٦٠/٣.

[٥]المسند (١٥٣/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٤) وسنن أبي داود برقم (١٦٩) وسنن النسائي (٩٥/١).

[٦]صحيح مسلم برقم (٢٢٣).

[٧]صحيح مسلم برقم (٢٢٤).

[٨] انظر: تفسير السعدي:٢٢٢.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو: ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولا. ومن الأذن إلى الأذن عرضا.
ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق، بالسنة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إيصال الماء إلى البشرة، وإن كانت كثيفة اكتفي بظاهرها.
الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين و"إلى" كما قال جمهور المفسرين بمعنى "مع" كقوله تعالى: {ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم} ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.
التاسع: الأمر بمسح الرأس.
العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.
الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.
الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.
الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.
الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب، وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.
الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة الجر في {وأرجلكم} .
وتكون كل من القراءتين، محمولة على معنى، فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين، وعلى قراءة الجر فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.
السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة.
ولأنه أدخل ممسوحا -وهو الرأس- بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.
السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية.
وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب، بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه، وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين، وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.
الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة المأمور به.
التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.
العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصصه بشيء دون شيء.
الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.
الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.
الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على من أنزل المني يقظة أو مناما، أو جامع ولو لم ينزل.
الرابع والعشرون: أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غسل عليه، لأنه لم تتحقق منه الجنابة.
الخامس والعشرون: ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم.
السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.
السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء، فالمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به، وباقيها يجوزه العدم للماء ولو كان في الحضر.
الثامن والعشرون: أن الخارج من السبيلين من بول وغائط، ينقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدل بها من قال: لا ينقض الوضوء إلا هذان الأمران، فلا ينتقض بلمس الفرج ولا بغيره.
الثلاثون: استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به لقوله تعالى: {أو جاء أحد منكم من الغائط} .
الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء.
الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.
الثالث والثلاثون: أن مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.
الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه، لأنه لا يقال "لم يجد" لمن لم يطلب.
الخامس والثلاثون: أن من وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.
السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطاهرات، مقدم على التيمم، أي: يكون طهورا، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: {فلم تجدوا ماء} .
السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: {فتيمموا} أي: اقصدوا.
الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض من تراب وغيره. فيكون على هذا، قوله: {فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه} إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه ويعلق بالوجه واليدين، وإما أن يكون إرشادا للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.
التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيبا بل خبيثا.
الأربعون: أنه يمسح في التيمم الوجه واليدان فقط، دون بقية الأعضاء.
الحادي والأربعون: أن قوله: {بوجوهكم} شامل لجميع الوجه وأنه يعممه بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.
الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.
فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.
الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلا عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد [وقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء].
الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.
الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذا من عموم الآية وإطلاقها.
السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال {فامسحوا} ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.
السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.
الثامن والأربعون: أن الله تعالى -فيما شرعه لنا من الأحكام- لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم.
وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.
الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلما، ويزداد شكرا لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

القرآن

{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧)} [المائدة: ٧]

التفسير:

واذكروا نعمة الله عليكم فيما شَرَعه لكم، واذكروا عهده الذي أخذه تعالى عليكم من الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، والسمع والطاعة لهما، واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه. إن الله عليمٌ بما تُسِرُّونه في نفوسكم.

قوله تعالى:{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ٧]، أي:" واذكروا نعمة الله عليكم فيما شَرَعه لكم"[١].

قال مجاهد:"، النعم: آلاءُ الله"[٢].

قال مقاتل:" يعني: بالإسلام"[٣].

قال الزمخشري:" وهي نعمة الإسلام"[٤].

قال أبو علي:" أي: تلقّوها بالشكر"[٥].

قال ابن الجوزي:" يعني النعم كلها. وفي هذا حث على الشكر"[٦].

قوله تعالى:{وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ} [المائدة: ٧]، أي:" واذكروا عهده الذي أخذه تعالى عليكم من الإيمان بالله ورسوله محمد -ﷺ-"[٧].

قال الزمخشري:" أى: عاقدكم به عقدا وثيقا هو الميثاق الذي أخذه على المسلمين حين بايعهم رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في حال اليسر والعسر والمنشط والمكره، وقيل: هو الميثاق ليلة العقبة وفي بيعة الرضوان"[٨].

قال مقاتل:"يوم أخذ ميثاقكم على المعرفة بالله- عز وجل- والربوبية"[٩].

قال ابن أبي زمنين:" وهو الميثاق الذي أخذ عليهم في صلب آدم"[١٠].

قال السعدي:أي:"واذكروا عهده الذي أخذه عليكم، وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما"[١١].

واختلف أهل التأويل في الميثاق الذي ذكر الله في هذه الآية على أقوال:

أحدها: أنه ميثاقَ الله الذي واثقَ به المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ، حين بايعوا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة له فيما أحبّو وكرهوا، والعمل بكل ما أمرهم الله به ورسوله. وهذا قول ابن عباس[١٢]، والسدي[١٣].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٨.
[٢] أخرجه الطبري(١١٥٥٠)، و(١١٥٥١):٩١/١٠.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٦/١.
[٤] الكشاف:٦١٢/١.
[٥] الحجة للقرا السبعة:٤٣٢/٣.
[٦] زاد المسير:٥٢٤/١.
[٧] التفسير الميسر:١٠٨.
[٨] الكشاف:٦١٢/١.
[٩] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٦/١.
[١٠] تفسير ابن أبي زمنين:١٣/٢.
[١١] تفسير السعدي:٢٢٤.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٢):ص٩٢/١٠.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٣):ص٩٢/١٠.

والثاني: أن المراد: ميثاقه الذي أخذ على عباده حين أخرجهم من صُلب آدم ﷺ، وأشهدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم ؟ فقالوا: بلى شهدنا. رواه أبو صالح عن ابن عباس[١]، وبه قال مجاهد[٢]، مجاهد[٢]، وابن زيد[٣].

والثالث: أنه الميثاق الذي أخذ من الصحابة على السمع والطاعة في بيعة العقبة، وبيعة الرضوان، ذكره بعض المفسرين[٤].

والرابع: أنه إقرار كل مؤمن بما آمن به. ذكره ابن الجوزي[٥].

والراجح –والله أعلم- هو قول ابن عباس، وأن معناه: "واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعمها عليكم بهدايته إياكم للإسلام وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمدا ﷺ على السمع والطاعة له في المنشَط والمكرَه، والعُسر واليُسر، وذلك لأن الله جل ثناؤه ذكرَ بعقب تذكرة المؤمنين ميثاقَه الذي واثقهم به، ميثاقَه الذي واثق به أهل التوراة بعد ما أنزل كتابه على نبيه موسى ﷺ فيما أمرهم به ونهاهم فيها، فقال: {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا}، الآيات بعدها [سور المائدة: ١٢] مُنبِّهًا بذلك أصحاب رسول الله -ﷺ- محمد على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه ومعرِّفَهم سوء عاقبة أهل الكتاب في تضييعهم ما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه، وتعزير أنبيائه ورسله زاجرًا لهم عن نكث عهودهم، فيُحلّ بهم ما أحلَّ بالناكثين عهوده من أهل الكتاب قبلهم"[٦].

وقال الراغب:" الميثاق: العهد المستوثق منه وميثاق الله تعالى: المأخوذ من عباده على أضرب:

الأول: ما أخذه عليهم بالفطرة: وهو ما ركزه فيهم من المعارف.

الثاني: ما أخذه عليهم بما أفادهم من العلوم المكتسبة.

الثالث: ما أخذه عليهم ببعثة الأنبياء وإلزامهم بالشرائع.

الرابع: ما يلزم بعضهم عن بعض بما يجب عليهم
الوفاء به، وقد حمل الآية على كل ذلك"[٧].

قوله تعالى:{إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [المائدة: ٧]، أي:" إذ قلتم:سمعنا ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق وأطعناك فيما أمرتنا به ونهيتنا عنه "[٨].

قال الزمخشري:" فقبلوا وقالوا: سمعنا وأطعنا"[٩].

قال الصابوني: أي:"حين بايعتموه على السمع والطاعة"[١٠].

قال الطبري:أي:" وأنعم عليكم أيضا بتوفيقكم لقبول ذلك منه بقولكم له: سمعنا وأطعنا ، يقول: ففُوا لله، أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به، ونعمته التي أنعم عليكم في ذلك بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، يَفِ لكم بما ضمن لكم الوفاءَ به إذا أنتم وفيتم له بميثاقه، من إتمام نعمته عليكم، وبإدخالكم جنته وإنعامكم بالخلود في دار كرامته، وإنقاذكم من عقابه وأليم عذابه"[١١].

قال السعدي:" أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين

---

[١] انظر: زاد المسير:٥٢٤/١.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٤)، و(١١٥٥٥):ص٩٢/١٠-٩٣.
[٣] انظر: زاد المسير:٥٢٤/١.
[٤] انظر: الكشاف:٦١٢/١، وزاد المسير:٥٢٤/١.
[٥] انظر: زاد المسير:٥٢٤/١.
[٦] تفسير الطبري:٩٣/١٠-٩٤.
[٧] تفسير الراغب الاصفهاني:٢٩٠/٤.
[٨] تفسير الطبري:٩٣/١٠.
[٩] الكشاف:٦١٢/١.
[١٠] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[١١] تفسير الطبري:٩٣/١٠.

الظاهرة والباطنة، وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملا غير ناقص"[١].

قال أبوبكر الجزائري:" وأما قوله: {إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}، قد قالها الصحابة بلسان الحال عندما بايعوا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وقد قالها كل مسلم بلسان الحال لما شهد لله بالوحدانية وللنبي بالرسالة"[٢].

قال مقاتل:" ذلك أن الله- عز وجل- أخذ الميثاق الأول على العباد حين خلقهم من صلب آدم- عليه السلام- فذلك قوله- عز وجل-: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}[٣]، على أنفسنا فمن بلغ منهم العمل وأقر لله- لله- عز وجل- بالإيمان به وبآياته وكتبه ورسله والكتاب والملائكة والجنة والنار والحلال والحرام والأمر والنهي أن يعمل بما أمر وينتهي عما نهى. فإذا أوفى الله تعالى بهذا، أوفى الله له بالجنة، فهذان ميثاقان: ميثاق بالإيمان بالله وميثاق بالعمل. فذلك قوله- سبحانه-: في البقرة: { سَمِعْنا وَأَطَعْنا}[٤]، سمعنا بالقرآن الذي جاء من عند الله وأطعنا الله- عز وجل- فيه، وذلك قوله- سبحانه- في التغابن: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا}[٥]، يقول: اسمعوا القرآن الذي جاء به محمد- ﷺ- من عند الله- عز وجل- وأطيعوا الله فيما أمركم فمن بلغ الحلم والعمل ولم يؤمن بالله- عز وجل- ولا بالرسول والكتاب فقد نقض الميثاق الأول بالإيمان بالله- عز وجل- وبما أخذ الله- تعالى- عليه حين خلقه وصار من الكافرين.

ومن أخذ الله- عز وجل- عليه الميثاق الأول ولم يبلغ الحلم فإن الله- عز وجل- أعلم به. قال: وسئل عبد الله بن عباس عن أطفال المشركين فقال: لقد أخذ الله- عز وجل- الميثاق الأول عليهم فلم يدركوا أجلا ولم يأخذوا رزقا ولم يعملوا سيئة { وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى} [٦] وماتوا على الميثاق الأول فالله أعلم بهم"[٧].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة: ٧]، أي:" واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه"[٨].

قال السعدي: أي: "في جميع أحوالكم"[٩].

قال ابن عثيمين: " أي: اجعلوا لكم وقاية من عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه"[١٠].

قال مقاتل:" وَلا تنقضوا ذَلِكَ الميثاق"[١١].

قال ابوبكر الجزائري:" أمر بالتقوى التي هي لزوم الشريعة والقيام بها عقيدة وعبادة وقضاء وأدبا"[١٢].

قال الطبري:أي:"واتقوا الله، أيها المؤمنون، فخافوه أن تبدِّلوا عهده وتنقضوا ميثاقه الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضمنتم له بقولكم: سمعنا وأطعنا ، بأن تضمروا له غير الوفاء بذلك في أنفسكم، وهذا وعيد من الله جل اسمه للمؤمنين كانوا برسوله ﷺ من أصحابه وتهدُّدًا لهم أن ينقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به في رسول وعهدهم الذي عاهدوه فيه بأن يضمروا له خِلاف ما أبدوا له بألسنتهم "[١٣].

---

[١] تفسير السعدي:٢٢٤.
[٢] أيسر التفاسير:٦٠١/١.
[٣][سورة الأعراف : ١٧٢].
[٤] [سورة البقرة: ٢٨٥].
[٥][سورة التغابن : ١٦].
[٦][سورة الإسراء: ١٥].
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٦/١-٤٥٧.
[٨] التفسير الميسر:١٠٨.
[٩] تفسير السعدي:٢٢٤.
[١٠] تفسير ابن عثيمين: ٣٧٠/٢.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٧/١.
[١٢] أيسر التفاسير:٦٠١/١.
[١٣] تفسير الطبري:٩٤/١٠.

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة: ٧]، أي:" إن الله عليمٌ بما تُسِرُّونه في نفوسكم"[١].

قال مقاتل:" يعني: بما فِي قلوبهم من الْإِيمَان والشك"[٢].

قال الطبري:اي:" فإن الله مطلع على ضمائر صدوركم وعالم بما تخفيه نفوسكم لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيُحّل بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به، كالذي حلَّ بمن قبلكم من اليهود من المسخ وصنوف النّقم، وتصيروا في معادِكم إلى سخط الله وأليم عقابه"[٣].

قال السعدي:" أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم"[٤].

قال ابو بكر الجزائري:" يذكرهم بعلم الله تعالى بخفايا أمورهم حتى يراقبوه ويخشوه في السر والعلن، وهذا من باب تربية الله تعالى لعباده المؤمنين لإكمالهم وإسعادهم فله الحمد وله المنة"[٥].

الفوائد:

١-ذكر العهود يساعد على التزامها والمحافظة عليها.

٢- أن الله تعالى أمر عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم، فإن في استدامة ذكرها داعيا لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه. وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه[٦].

٣-ومنها: وجوب تقوى الله؛ لقوله تعالى: { واتقوا الله }.

٤- ومن أسمائه «العليم»، والْعِلْمُ صفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ،، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٧].

قال الخطابي:" العليم: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٨].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨)} [المائدة: ٨]

التفسير:

---

[١] التفسير الميسر:١٠٨.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٧/١.

[٣] تفسير الطبري:٩٤/١٠.

[٤] تفسير السعدي:٢٢٤.

[٥] أيسر التفاسير:٦٠١/١.

[٦] انظر: تفسير السعدي:٢٢٤.

[٧] انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١٨٨/١.

[٨] شأن الدعاء:٥٧.

يا أيها الذين آمَنوا بالله ورسوله محمد ﷺ كونوا قوَّامين بالحق، ابتغاء وجه الله، شُهداء بالعدل، ولا يحملنكم بُغْضُ قوم على ألا تعدلوا، اعدِلوا بين الأعداء والأحباب على درجة سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله، واحذروا أن تجوروا. إن الله خبير بما تعملون، وسيجازيكم به.

في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت من أجل كفار قريش أيضا، وقد تقدم ذكرهم في قوله تعالى: { وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } [المائدة: ٢]، روى نحو هذا أبو صالح، عن ابن عباس[١]، وبه قال مقاتل[٢].

والثاني: أنها "نزلت في قريش لما صدوا المسلمين عن المسجد الحرام". وهذا قول الحسن[٣][٤].

الحسن[٣][٤].

قال الجصاص:" قد ذكر الله تعالى هذا المعنى في هذه السورة في قوله: {ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا} [المائدة: ٢]، فحمله الحسن على معنى الآية الأولى، والأولى أن تكون نزلت في غيرهم وأن لا تكون تكرارا"[٥].

والثالث: أن النبي ﷺ ذهب إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية، فهموا بقتله، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد[٦]، وقتادة[٧]، وعبدالله بن كثير[٨].

أخرج الطبري عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير: "{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، نزلت في يهود خيبر، أرادوا قتل النبيّ -ﷺ-،وقال ابن جريج، قال عبد الله بن كثير: ذهب رسول الله ﷺ إلى يهود يستعينهم في دية، فهمُّوا أن يقتلوه، فذلك قوله: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ...}، الآية"[٩]. [ضيف جداً]

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ٨]، أي:" يا أيها الذين آمَنوا بالله ورسوله محمد -ﷺ-"[١٠].

أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[١١].

قال الطبري:أي:" يا أيها الذين أقرّوا بوحدانية الله، وأذعنوا له بالعبودية، وسلموا له الألوهة وصدَّقوا رسوله محمدًا ﷺ في نبوته وفيما جاءهم به من عند ربهم من شرائع دينه"[١٢].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[١٣].

قال سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله"[١٤].

قال ابن عثيمين:"إن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[١].

---

[١] انظر: زاد المسير:٥٢٤/١.
[٢] انظر: تفسير مقالت بن سليمان:٤٥٧/١.
[٣] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٩٦/٢.
[٤] وفي زاد المسير٥٢٤/١: " أن قريشا بعثت رجلا ليقتل رسول الله ﷺ، فأطلع الله نبيه على ذلك، ونزلت هذه الآية، والتي بعدها، هذا قول الحسن".
[٥] أحكام القرآن:٤٩٦/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:١٩/٢، وزاد المسير:٥٢٤/١.
[٧] انظر: النكت والعيون:١٩/٢، وزاد المسير:٥٢٤/١.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٦):ص٩٦/١٠.
[٩] وأخرجه الطبري(١١٥٥٦):ص٩٦/١٠.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٨.
[١١] التفسير الميسر:١٠٦.
[١٢] جامع البيان:٤٤٧/٩.
[١٣] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٤):ص١٠٩٠/٤.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"(٢).

قال خيثمة: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"(٢).

قوله تعالى:{كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ} [المائدة: ٨]، أي:"كونوا مبالغين في الإستقامة بشهادتكم لله"(٣).

قال مقاتل:" يعني: قوّالين بالعدل"(٤).

قال السمعاني:" أي: كونوا قوامين بالعدل"(٥).

قال الجصاص:" معناه: كونوا قوامين لله بالحق في كل ما يلزمكم القيام به من الأمر بالمعروف والعمل به والنهي عن المنكر واجتنابه، فهذا هو القيام لله بالحق"(٦).

قال الراغب:" أي خلفاءه شهداء بالعدالة، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ} [النساء: ١٣٥]"(٧).

قال المراغي:" أي: ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ما تعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق بدون اعتداء على أحد، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله"(٨).

قوله تعالى:{شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ} [المائدة: ٨]، أي:" شُهداء بالعدل"(٩).

قال السمعاني:" أي: قوالين، للصدق"(١٠).

قال المراغي:" الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به، أو إظهاره هو له بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه، لأجل قرابة أو مال أو جاه، ولا تركه لفقر أو مسكنة.

فالعدل هو ميزان الحقوق، إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس وانتشرت المفاسد، وتقطعت روابط المجتمع، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغابرها، ولكن الناس لا يعتبرون"(١١).

وفى هذه الشهادة ثلاثة أربعة أقوال:

أحدها: أنها الشهادة بحقوق الناس، وهذا قول الحسن(١٢).

والثاني: الشهادة بما يكون من معاصي العباد، وهذا قول بعض البصريين(١٣). وهو كقوله تعالى: {لتكونوا شهداء على الناس} [البقرة: ١٤٣] فكان معناه: أن كونوا من أهل العدالة الذين حكم الله بأن مثلهم يكونون شهداء على الناس يوم القيامة(١٤).

---

(١) انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٣٠٣.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٧/١.
(٥) تفسير السمعاني:١٩/٢.
(٦) أحكام القرآن:٤٩٦/٢.
(٧) تفسير الراغب الاصفهاني:٢٩٢/٤.
(٨) تفسير المراغي:٦٨/٦.
(٩) التفسير الميسر:١٠٨.
(١٠) تفسير السمعاني:١٩/٢.
(١١) تفسير المراغي:٦٨/٦.
(١٢) انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٩٦/٢، والنكت والعيون:١٩/٢.
(١٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٩٦/٢، والنكت والعيون:١٩/٢.
(١٤) انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٩٦/٢.

الثالث: الشهادة لأمر الله تعالى بأنه حق[١].
والرابع: أي: تبيّنون عن دين الله، لأن الشاهد يبين ما يشهد عليه. وهذا قول الزجاج[٢].
قال الجصاص:" وجائز أن تكون هذه المعاني كلها[٣] مرادة لاحتمال اللفظ لها"[٤].
قوله تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا} [المائدة: ٨]، أي:" ولا يحملنكم شدة بغضكم للأعداء على ترك العدل فيهم والاعتداء عليهم"[٥].
قال مقاتل:" يَقُولُ: لا تحملنكم عداوة المشركين، يعني: كفار مكة، {عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا} عَلَى حُجّاج رَبِيعَة وتستحلوا منهم محرما"[٦].
قال الزمخشري:" المعنى: لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك"[٧].
قال السعدي: أي:" كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافرا أو مبتدعا، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق"[٨].
وقرئ:«شنآن»، بالسكون[٩].
قوله تعالى:{اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: ٨]، أي:" اعدِلوا بين الأعداء والأحباب على درجة سواء، فذلك العدل أقرب لخشية الله"[١٠].
قال مقاتل:"فاعدلوا فَإِن العدل أقرب للتقوى، يعني: لخوف اللَّه- عَزَّ وَجَلّ-"[١١].
قال الطبري:أي:" اعدلوا أيها المؤمنون، على كل أحد من الناس وليًّا لكم كان أو عدوًّا، فاحملوهم على ما أمرتكم أن تحملوهم عليه من أحكامي، ولا تجوروا بأحد منهم عنه، والعدلُ عليهم أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، وإنما وصف جل ثناؤه العَدْل بما وصفه به من أنه أقرب للتقوى من الجور، لأن من كان عادلا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعا، كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرا كان لله عاصيا، ومن كان لله عاصيا، كان بعيدًا من تقواه"[١٢].
قال المراغي:"هذه الجملة توكيد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل وأنه فريضة لا هوادة فيها، لأنه أقرب لتقوى الله والبعد عن سخطه. وتركه من أكبر المعاصي، لما ينشأ عنه من المفاسد التي تقوض نظم المجتمعات، وتقطع الروابط بين الأفراد، وتجعل بأسهم بينهم شديدا"[١٣].
قال السعدي:" أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى"[١٤].

---

[١] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٩٦/٢، والنكت والعيون:١٩/٢.
[٢] انظر: معاني القرآن:١٥٦/٢.
[٣] يقصد الاقوال الثلاثة الأولى..
[٤] أحكام القرآن:٤٩٦/٢.
[٥] صفوة التفاسير:٣٠٣.
[٦] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٧/١.
[٧] الكشاف:٦١٢/١.
[٨] تفسير السعدي:٢٢٤.
[٩] انظر: الكشاف:٦١٢/١.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٨.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٧/١.
[١٢] تفسير الطبري:٩٦/١٠-٩٧.[بتصرف]
[١٣] تفسير المراغي:٦٩/٦.
[١٤] تفسير السعدي:٢٢٤.

قال الزمخشري:" نهاهم أولا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل، ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل تأكيدا وتشديدا، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله: {هو أقرب للتقوى}، أى: العدل أقرب إلى التقوى، وأدخل في مناسبتها، أو أقرب إلى التقوى لكونه لطفا فيها. وفيه تنبيه عظيم على أن وجود العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه؟"[1].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة: ٨]،أي:" واخشوا الله بما أمركم به"[2].

قال الماتريدي:أي: واتقوا الله "في ترك ما أمركم به، وارتكاب ما نهاكم عنه"[3].

قال المراغي:" أي: واتقوا سخطه وعقابه"[4].

قال الطبري:أي:" واحذروا أيها المؤمنون، أن تجوروا في عباده فتجاوزوا فيهم حكمه وقضاءَه الذين بيّن لكم، فيحلّ بكم عقوبته، وتستوجبوا منه أليم نكاله"[5].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، أي:" إن الله مطلع على أعمالكم، وسيجازيكم به"[6].

قال السمرقندي: أي:"من الطاعة وغيره"[7].

قال مقاتل:" يعظهم ويحذرهم"[8].

قال الثعلبي:أي:" عالم بما تعملون مجازيكم به"[9].

قال ابن كثير:" أي: وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر"[10].

قال الطبري:أي:" إن الله ذو خبرة وعلم بما تعملون أيها المؤمنون فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، من عمل به أو خلافٍ له، مُحْصٍ ذلكم عليكم كلّه، حتى يجازيكم به جزاءَكم، المحسنَ منكم بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، فاتقوا أن تسيئوا"[11].

قال المراغي: لأن الله "لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ظاهرها وباطنها، واحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم للعدل، وقد مضت سنته فى خلقه بأن يجعل جزاء ترك العدل فى الدنيا الذلة والمهانة للأمم والأفراد، وفى الآخرة الخزي يوم الحساب"[12].

الفوائد:

١- وجوب القيام بحق الله تعالى على العبد، وهو ذكره وشكره بطاعته.

٢- وجوب العدل في الحكم والقول والشهادة والفعل ومع الولي والعدو سواء.

٣- تأكيد الأمر بتقوى الله عز وجل.

القرآن

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)} [المائدة: ٩]

التفسير:

---

[1] الكشاف:١/٦١٢-٦١٣.
[2] بحر العلوم:١/٣٧٣.
[3] تفسير الماتريدي:٣/٥٧٦.
[4] تفسير المراغي:٦/٦٩.
[5] تفسير الطبري:١٠/٩٧.
[6] انظر: صفوة التفاسير:٣٠٣، والتفسير الميسر:١٠٨.
[7] بحر العلوم:١/٣٧٣.
[8] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٥٧.
[9] تفسير الثعلبي:٤/٣٤.
[10] تفسير ابن كثير:٣/٦٢.
[11] تفسير الطبري:١٠/٩٧.
[12] تفسير المراغي:٦/٦٩.

وعد الله الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يثيبهم على ذلك الجنة، والله لا يخلف وعده.
سبب النزول:
قال السمرقندي:" يقال:إن أهل مكة قالوا بعد ما أسلموا: ما لنا في الآخرة وقد أخرجناك وأصحابك!. فقالوا: {وعد الله الذين آمنوا} بالله وبمحمد -ﷺ-، {وعملوا الصالحات}، بعد الإسلام، {لهم مغفرة}، لما فعلوا في حال الشرك، {وأجر عظيم}، في الآخرة"(١).
قوله تعالى:{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [المائدة: ٩]، أي:" وعد الله الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات"(٢).
قال مقاتل:" {وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ}، يعني: وأدوا الفرائض"(٣).
قال السمرقندي:" {وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ}، يعني: الطاعات"(٤).
قوله تعالى:{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} [المائدة: ٩]، أي:" أن يغفر لهم ذنوبهم"(٥).
قال الزجاج:"أي: تغطية على ذنوبهم"(٦).
قال ابن كثير:" {مَغْفِرَةٌ }، أي: لذنوبهم "(٧).
قال الطبري:أي:" لهؤلاء الذين وفوا بالعقود والميثاق الذي واثقهم به ربهم{مغفرة}، وهي ستر ذنوبهم السالفة منهم عليهم وتغطيتها بعفوه لهم عنها، وتركه عقوبتهم عليها وفضيحتهم بها"(٨).
قال الثعلبي:" تقديرها: وقال لهم مغفرة، لأن الوعد قول، فلذلك جمع الكلام"(٩).
قوله تعالى:{وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٩]، أي:" وأن يثيبهم على ذلك الجنة"(١٠).
قال مقاتل:"يعني: جزاء حسنا وَهُوَ الجنة"(١١).
قال الزجاج:أي:" جزاء على إيمانهم"(١٢).
قال ابن كثير:"{وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}، وهو: الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسبابًا إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة "(١٣).
قال الطبري:"يقول: ولهم مع عفوه لهم عن ذنوبهم السالفة منهم، جزاءً على أعمالهم التي عملوها ووفائهم بالعقود التي عاقدوا ربهم عليها، {أجر عظيم}، و«العظيم» من خيره غير محدود مبلغه، ولا يعرف منتهاه غيره تعالى ذكره"(١٤).
قال الزمخشري: قوله تعالى:{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}،" بيان للوعد بعد تمام الكلام قبله، كأنه قال: قدم لهم وعدا فقيل: أى شيء وعده لهم؟ فقيل: لهم مغفرة وأجر عظيم، وهذا القول

---

(١) بحر العلوم:٣٧٣/١.
(٢) التفسير الميسر:١٠٨.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٨/١.
(٤) بحر العلوم:٣٧٣/١.
(٥) التفسير الميسر:١٠٨.
(٦) معاني القرآن:١٥٦/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٦٢/٣-٦٣.
(٨) تفسير الطبري:٩٨/١٠.
(٩) تفسير الثعلبي:٣٤/٤.
(١٠) التفسير الميسر:١٠٨.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٨/١.
(١٢) معاني القرآن:١٥٦/٢.
(١٣) تفسير ابن كثير:٦٢/٣-٦٣.
(١٤) تفسير الطبري:٩٨/١٠.

يتلقون به عند الموت ويوم القيامة، فيسرون به ويستروحون إليه ويهون عليهم السكرات والأهوال قبل الوصول إلى الثواب"[1].

علّق أبو حيان على كلام الزمخشري قائلا:" هي تقادير محتملة، والأول أوجهها"[2].

قال القرطبي: في معنى قوله{ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}:، "أي: لا تعرف كنهه أفهام الخلق، كما قال: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ} [السجدة: ١٧]، وإذا قال الله تعالى:{أجر عظيم}، و{أجر كريم}[يس: ١١]، و{أجر كبير}[هود: ١١]، فمن ذا الذي يقدر قدره؟"[3].

وذكر ابن الجوزي في تفسير هذه الآية قولين[4]:

أحدهما: أن المعنى: وعدهم الله أن يغفر لهم ويأجرهم، فاكتفى بما ذكر عن هذا المعنى.

والثاني: أن المعنى: وعدهم فقال: لهم مغفرة.

الفوائد:

١-الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد.

٢-قال ابن عطية:" هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب عليهم وبالجنة فهي الأجر العظيم"[5].

القرآن

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠)} [المائدة: ١٠]

التفسير:

والذين جحدوا وحدانية الله الدالة على الحق المبين، وكذَّبوا بأدلته التي جاءت بها الرسل، هم أهل النار الملازمون لها.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَفَرُوا} [المائدة: ١٠]، أي:" والذين جحدوا وحدانية الله الدالة على الحق المبين"[6].

قال المراغي:" الكفر هنا هو الكفر بالله ورسله، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض"[7].

قوله تعالى:{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [المائدة: ١٠]، أي:" وكذَّبوا بأدلته التي جاءت بها الرسل"[8].

قال السعدي:الآيات " الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعد ما أبانت الحقائق"[9].

قال المراغي:" وآيات الله قسمان:

- آياته المنزلة على رسله.
- وآياتها التي أقامها فى الأنفس والآفاق للدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه"[10].

قوله تعالى:{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [المائدة: ١٠]، أي:" أهل النار الملازمون لها"[11].

قال النسفي:" أى: لا يفارقونها"[12].

---

[1] الكشاف:٦١٣/١.
[2] البحر المحيط:١٩٧/٤.
[3] تفسير القرطبي:١١٠/٦.
[4] انظر: زاد المسير:٥٢٥/١.
[5] المحرر الوجيز:١٦٦/٢.
[6] التفسير الميسر:١٠٩.
[7] تفسير المراغي:٦٩/٦.
[8] التفسير الميسر:١٠٩.
[9] تفسير السعدي:٢٢٤.
[10] تفسير المراغي:٦٩/٦.
[11] التفسير الميسر:١٠٩.
[12] تفسير النسفي:٤٣٢/١.

قال السعدي:أي:" الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه"[١].

قال ابن كثير:" وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحُكْمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحَكَمُ العدل الحكيم القدير"[٢].

قال المراغي:" الجحيم النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} [الصافات: ٩٧]"[٣].

قال الشيخ ابن عثيمين: والجحيم هي النار، وسميت بذلك لبعد قعرها وظلمة مرءاها"[٤].
مرءاها"[٤].

قال الشربيني:{ الجحيم}" أي: النار التي اشتدّ توقدها فاشتدّ احمرارها فلا يراها أحد إلا أحجم عنها فيلقون فيها ثم يلازمونها فلا ينفكون عنها كما هو شأن الصاحب وهذا من عادة الله سبحانه وتعالى إنه يتبع حال أحد الفريقين حال الفريق الآخر وفاء بحق الدعوة وفيه مزيد وعد للمؤمنين وتطييب لقلوبهم"[٥].

قال الزجاج:" الجحيم: النار الشديدة الوقود، وقد جحم فلان النار إذا شدد وقودها، - ويقال لعين الأسد جحمة لشدة توقدها، ويقال لوقود الحرب، وهو شدة القتال فيها: جاحم.
قال الشاعر[٦]:

والخيل لا يبقى لجاحمها التخيل والمراح
إلا الفتى الصبار في النجدات والفرس الوقاح"[٧].

قال أبو حيان:" في «المؤمنين»[٨] جاءت الجملة فعلية متضمنة الوعد بالماضي الذي هو دليل على الوقوع، فأنفسهم متشوقة لما وعدوا به، متشوفة إليه مبتهجة طول الحياة بهذا الوعد الصادق.

وفي «الكافرين» جاءت الجملة اسمية دالة على ثبوت هذا الحكم لهم، وأنهم أصحاب النار، فهم دائمون في عذاب، إذ حتم لهم أنهم أصحاب الجحيم، ولم يأت بصورة الوعيد، فكان يكون الرجاء لهم في ذلك"[٩].

الفوائد:

١-الترغيب والترهيب بذكر الوعد والوعيد.

٢-أن هؤلاء الكافرين نفوسهم قد فسدت، وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم، فأصبحوا صما عميا لا يبصرون، لذلك استحقوا العذاب فى نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته.

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)} [المائدة: ١١]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه اذكروا ما أنعم الله به عليكم من نعمة الأمنِ، وإلقاءِ الرعب في قلوب أعدائكم الذين أرادوا أن يبطشوا بكم، فصرفهم الله عنكم، وحال بينهم

---

[١] تفسير السعدي:٢٢٤.

[٢] تفسير ابن كثير:٦٣/٣.

[٣] تفسير المراغي:٦٩/٦.

[٤] تفسير جزء عم لابن عثيمين:٧٣.

[٥] السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير:٣٦٠/١.

[٦] البيتان لسعد بن مالك بن ضبيعة، وكان شاعراً جاهلياً مجيداً وفارساً من سادات بكر بن وائل، انظر الحماسة بشرح التبريزي: (١/ ١٩٢).

[٧] معاني القرآن:٢٠٠/٢-٢٠١.

[٨] في الآية السابقة: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩)} [المائدة : ٩].

[٩] البحر المحيط:١٩٧/٤.

وبين ما أرادوه بكم، واتقوا الله واحذروه، وتوكلوا على الله وحده في أموركم الدينية والدنيوية، وثِقوا بعونه ونصره.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها: أن النبي خرج إلى يهود بني النضير، يستعين بهم في دية، فهمّوا أن يقتلوه، فنزل ذلك فيه، وهذا قول قتادة[١]، وأبي مالك[٢]، ومجاهد[٣]، وعبدالله بن كثير[٤]، ويزيد بن أبي زياد[٥]، زياد[٥]، وعكرمة[٦]، وذكره مقاتل[٧].

وأخرج الطبري عن ابن عباس:" أن قوما من اليهود صَنَعوا لرسول الله وأصحابه طعاما ليقتلوه إذا أتى الطعام، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأتِ الطعام، وأمرَ أصحابه فلم يأتوه"[٨].

قال ابن عطية:" أدخل الطبري تحت هذه الترجمة عن ابن عباس خلاف ما ترجم به من أن قوما من اليهود صنعوا للنبي ﷺ وأصحابه طعاما ليقتلوه إذا أتى الطعام، فيشبه أن ابن عباس إنما وصف قصة بني النضير المتقدمة"[٩].

والثاني: روي عن قتادة قوله: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسُطوا إليكم أيديهم .....}الآية، ذكر لنا أنها نزلت على رسول الله ﷺ وهو ببَطْنِ نخل في الغَزْوة السابعة، فأراد بنو ثعلبة وبنو محارب أن يفتِكوا، فأطلعه الله على ذلك. ذكر لنا أن رجلا انتدب لقتله، فأتى نبيَّ الله ﷺ وسيفُه موضوع، فقال: آخذه، يا نبي الله ؟ قال: خذه! قال: أستلُّه ؟ قال: نعم! فسلَّه، فقال، من يمنعك منِّي ؟ قال: الله يمنعُني منك!. فهدّده أصحاب رسول الله ﷺ وأغلظوا له القول، فشامَ السَّيف وأمر نبيُّ الله ﷺ أصحابَه بالرحيل، فأنزلت عليه صلاة الخوف عند ذلك "[١٠].[ضعيف]

وروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري: "أن رجلا من محارب يقال له غورث بن الحارث قال لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمدا؟ قالوا: نعم، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قال فأقبل إلى رسول الله - ﷺ - وهو جالس وسيفه في حجره، فقال: يا محمد أنظر إلى سيفك هذا؟ قال: «نعم»، فأخذه فاستله، ثم جعل يهزه ويهم به، فكبته الله - عز وجل - ثم قال: يا محمد ما تخافني؟ قال: «لا»، قال: ألا تخافني وفي يدي السيف؟ قال: «يمنعني الله منك»، ثم أغمد السيف ورده إلى رسول الله - ﷺ - فأنزل الله تعالى: {اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم}"[١١].[ضعيف]

وفي السياق نفسه قال الضحاك: "كان سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة إلى البقيع إلى قبور الشهداء وحده، فأتاه رجل من اليهود شديد محارب،

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٧):ص١٠١/١٠.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٥٦٣):ص١٠٤/١٠.
[٣] انظر: تفسير الطبري(١١٥٥٨)، و(١١٥٥٩):ص١٠٢/١٠.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٥٦١):ص١٠٣/١٠.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٥٦٠):ص١٠٢/١٠-١٠٣.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٥٦٢):ص١٠٣/١٠-١٠٤.
[٧] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٥٩/١-٤٦٠.
[٨] أخرجه الطبري(١١٥٦٤):ص١٠٥/١٠.
[٩] المحرر الوجيز:١٦٧/٢.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٥٦٥):ص١٠٥/١٠، وهذا مرسل صحيح الإسناد.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٨) وزاد نسبته لعبد بن حميد.
[١١] أخرجه الواحدي في اسباب النزول:١٩٣، وأخرجه أبو نعيم (دلائل النبوة: ٦١/١) من طريق ابن إسحاق به، وإسناده ضعيف لعنعنة ابن إسحاق، وضعف عمرو بن عبيد فإنه مبتدع داعية (علوم الحديث لابن الصلاح: ١٠٣) (الباعث الحثيث: ٨٣) (تقريب التهذيب: ٧٤/٢ - رقم: ٦٣٠) .
وأصل الحديث فصحيح. أخرجه البخاري ٤١٣٥ و ٤١٣٦ ومسلم ٨٤٣ ، والبيهقي ٦/ ٣١٩، والطبري(١١٥٦٦):ص١٠٦/١٠.

فقال: إن كنت نبيا كما تزعم فأعطني سيفك هذا، فإن الأنبياء لا يبخلون، فأعطاه سيفه فشهر اليهودي السيف وهزه ليضربه به. فلم يجترئ للرعب الذي قذفه الله تعالى في قلبه، ثم رد عليه السيف فنزل: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم}"[١].

قال القرطبي:" وذكر الواقدي وابن أبي حاتم أنه أسلم. وذكر قوم أنه ضرب برأسه في ساق شجرة حتى مات"[٢].

قال ابن كثير:" وقصة هذا الأعرابي - وهو غَوْرَث بن الحارث - ثابتة في الصحيح"[٣].
الصحيح"[٣].

والثالث: أنها نزلت في حق اليهود حين ظاهروا المشركين على رسول الله ﷺ، هذا قول ابن زيد[٤].

والرابع: وحكى ابن فورك عن الحسن بن أبي الحسن: "أن الآية نزلت بسبب أن قريشا بعثت إلى النبي ﷺ رجلا ليغتاله ويقتله، فأطلعه الله تعالى على ذلك وكفاه شره"[٥].

قال ابن عطية:" ويحسن على هذا القول أن تكون الآية نزلت عقب غزوة الخندق وحين هزم الله الأحزاب"[٦].

والخامس: أنها نزلت في معنى: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم}[المائدة:٣]، أي قد أعطيتم الظفر عليهم، فقال:{يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم}. قاله الزجاج[٧].

قال أبو حيان:" وقد طولوا بذكر أسباب أخر. وملخص ما ذكروه أن قريشا، أو بني النضير، أو قريظة، أو غورثا، هموا بالقتل بالرسول، أو المشركين هموا بالقتل بالمسلمين، أو نزلت في معنى: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم}[المائدة:٣]، قاله الزجاج[٨]، أو عقيب الخندق الخندق حين هزم الله الأحزاب:{وكفى الله المؤمنين القتال}[الأحزاب:٢٥]، والذي تقتضيه الآية أن الله تعالى ذكر المؤمنين بنعمه إذ أراد قوم من الكفار لم يعينهم الله بل أبهمهم أن ينالوا المسلمين بشر، فمنعهم الله، ثم أمرهم بالتقوى والتوكل عليه"[٩].

قال الطبري:" وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك، قولُ من قال: عنى الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية، نعمتَه على المؤمنين به وبرسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيّهم محمدا ﷺ مما كانت يهود بني النضير همت به من قتله وقتل من معه يومَ سار إليهم نبيّ الله ﷺ في الدية التي كان تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أمية، وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك لأن الله جل ثناؤه عقَّب ذكر ذلك برمي اليهود بصنائعها وقبيح أفعالها، وخيانتها ربَّها وأنبياءها. ثم أمر نبيَّه ﷺ بالعفو عنهم، والصفح عن عظيم جهلهم، فكان معلوما بذلك أنه ﷺ لم يؤمر بالعفو عنهم والصفح عَقِيب قوله: {إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم} وغيرُهم كان يبسط الأيدي إليهم، لأنه لو كان الذين همُّوا ببسط الأيدي إليهم غيرَهم لكان حريًّا أن يكون الأمر بالعفو والصفح عنهم، لا عمَّن لم يجر لهم بذلك ذكر ولكان الوصف بالخيانة في وصفهم في هذا الموضع، لا في وصف من لم يجر لخيانته ذكر، ففي ذلك ما ينبئ عن صحة ما قضينا له بالصحة من التأويلات في ذلك، دون ما خالف "[١٠].

---

[١] بحر العلوم:٣٧٤/١.
[٢] تفسير القرطبي:١١١/٦.
[٣] تفسير ابن كثير:٦٣/٣.
[٤] انظر: زاد المسير:٥٢٦/١.
[٥] المحرر الوجيز:١٦٧/٢.
[٦] المحرر الوجيز:١٦٧/٢.
[٧] انظر: معاني القرآن:١٥٧/٢.
[٨] انظر: معاني القرآن:١٥٧/٢.
[٩] البحر المحيط:١٩٨/٤.
[١٠] تفسير الطبري:١٠٧/١٠-١٠٨.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ١١]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه"[١].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[٢].

قال سعيد بن جبير:"قوله: {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله"[٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ١١]، أي:" اذكروا فضل الله عليكم بحفظه إياكم من أعدائكم"[٤].

قوله تعالى:{إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} [المائدة: ١١]، أي:" إذ أراد قوم أن يبطشوا بكم بالقتل والإهلاك"[٥].

قال مجاهد:" هم يهود"[٦].

قال السمرقندي:أي:" أرادوا وتمنوا أن يمدوا أيديهم إليكم بالقتل"[٧].

قال البيضاوي:أي:" بالقتل والإهلاك، يقال بسط إليه يده إذا بطش به وبسط إليه لسانه إذا شتمه"[٨].

قال الزمخشري:" معنى:«بسط اليد» مدها إلى المبطوش به"[٩].

قوله تعالى:{فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ} [المائدة: ١١]، أي:" فصرفهم الله عنكم، وحال بينهم وبين ما أرادوه بكم"[١٠].

قال السمرقندي:أي:" فكف أيديهم عنكم بالمنع"[١١].

قا البيضاوي:أي:" منعها أن تمد إليكم ورد مضرتها عنكم"[١٢].

قوله تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة: ١١]، أي:" واتقوا الله واحذروه"[١٣].

قال المراغي:" أي: واتقوا الله الذي أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم"[١٤].

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [المائدة: ١١]، أي:" وتوكلوا على الله وحده في أموركم الدينية والدنيوية، وثِقوا بعونه ونصره"[١٥].

قال السمرقندي:" يعني: على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويثقوا بالنصر لهم"[١٦].

قال البيضاوي:أي:" فإنه الكافي لإيصال الخير ودفع الشر"[١٧].

---

[١] التفسير الميسر:١٠٩.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦١٠٤):ص١٠٩٠/٤.
[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣
[٤] صفوة التفاسير:٣٠٦.
[٥] صفوة التفاسير:٣٠٦.[بتصرف].
[٦] تفسير مجاهد:٣٠٢.
[٧] بحر العلوم:٣٧٤/١.
[٨] تفسير البيضاوي:١١٨/٢.
[٩] الكشاف:٦١٤/١.
[١٠] التفسير الميسر:١٠٩.
[١١] بحر العلوم:٣٧٤/١.
[١٢] تفسير البيضاوي:١١٨/٢.
[١٣] التفسير الميسر:١٠٩.
[١٤] تفسير المراغي:٧١/٦.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٩.
[١٦] بحر العلوم:٣٧٤/١.
[١٧] تفسير البيضاوي:١١٨/٢.

قال السعدي:" أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها"[١].

قال المراغي:أي:" وتوكلوا عليه وحده فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه بعد مراعاة سننه والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضره وتسوء عاقبته، لا على أوليائكم وحلفائكم، لأن الأولياء قد تنقطع بهم الأسباب ويجيبون داعي اليأس إذا اشتد البأس، والحلفاء قد يغدرون كما غدر بنو النضير وغيرهم، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين أيام ضعفهم وقلتهم وفقرهم وتألب الناس كلهم عليهم"[٢].

قال ابو حيان:" وجاء الأمر بالتوكل أمر غائب لأجل الفاصلة، وإشعارا بالغلبة، وإفادة لعموم وصف الإيمان، أي: لأجل تصديقه بالله ورسوله يؤمر بالتوكل كل مؤمن، ولابتداء الآية بمؤمنين على جهة الاختصاص وختمها بمؤمنين على جهة التقريب"[٣].

الفوائد:

١-وجوب ذكر النعمة حتى يؤدى شكرها.

٢- وجوب التوكل على الله تعالى والمضي في أداء ما أوجب الله تعالى.

٣-قال السعدي:" يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم -كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة - فليعدوا أيضا إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء، قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه.

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية"[٤].

القرآن

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢)} [المائدة: ١٢]

التفسير:

ولقد أخذ الله العهد المؤكَّد على بني إسرائيل أن يخلصوا له العبادة وحده، وأمر الله موسى أن يجعل عليهم اثني عشر عريفًا بعدد فروعهم، يأخذون عليهم العهد بالسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقال الله لبني إسرائيل: إني معكم بحفظي ونصري، لئن أقمتم الصلاة، وأعطيتم الزكاة المفروضة مستحقيها، وصدَّقتم برسلي فيما أخبروكم به ونصرتموهم، وأنفقتم في سبيلي، لأكفِّرنَّ عنكم سيئاتكم، ولأدْخِلَنَّكُم جناتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، فمن جحد هذا الميثاق منكم فقد عدل عن طريق الحق إلى طريق الضلال.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [المائدة: ١٢]، أي:" ولقد أخذ الله العهد المؤكَّد على بني إسرائيل أن يخلصوا له العبادة وحده"[٥].

قال الحسن:": اليهود من أهل الكتاب"[١].

---

[١] تفسير السعدي:٢٢٤.

[٢] تفسير المراغي:٧١/٦.

[٣] البحر المحيط:١٩٨/٤.

[٤] تفسير السعدي:٢٢٤.

[٥] التفسير الميسر:١٠٩.

قال ابو العالية:" أخذ الله مواثيقهم أن يخلصوا له، ولا يعبدُوا غيره"[٢].

قال الطبري:": وهذه الآية أنزلتْ إعلامًا من الله جلّ ثناؤه نبيَّه ﷺ والمؤمنين به، أخلاقَ الذين همُّوا ببسط أيديهم إليهم من اليهود، وأن الذي هموا به من الغدر ونقض العهد الذي بينهم وبينه، من صفاتهم وصفات أوائلهم وأخلاقِهم وأخلاقِ أسلافهم قديما واحتجاجا لنبيه ﷺ على اليهود، بإطلاعه إيَّاه على ما كان علمه عندَهم دون العرب من خفيّ أمورهم ومكنون علومهم وتوبيخا لليهود في تمادِيهم في الغيّ، وإصرارهم على الكفر، مع علمهم بخطأ ما هم عليه مقيمون، يقول الله لنبيه ﷺ: لا تستعظموا أمرَ الذين همُّوا ببسط أيديهم إليكم من هؤلاء اليهود بما همُّوا به لكم، ولا أمرَ الغدر الذي حاولوه وأرادوه بكم، فإن ذلك من أخلاق أوائلهم وأسْلافهم، لا يَعْدُون أن يكونوا على منهاج أوَّلهم وطريق سَلَفِهم"[٣].

قوله تعالى:{وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا} [المائدة: ١٢]، أي:" وأمر الله موسى أن يجعل عليهم اثني عشر عريفًا بعدد فروعهم، يأخذون عليهم العهد بالسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه"[٤].

قال أبو عبيدة:" أي: ضامنا ينقب عليهم وهو الأمين والكفيل على القوم"[٥].

قال الطبري:أي:" وبعثنا منهم اثنى عشر كفيلا كفلوا عليهم بالوفاء لله بما واثقوه عليه من العهود فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه"[٦].

قال ابن عطية:" ونحو هذا كان النقباء ليلة بيعة العقبة مع محمد ﷺ، وهي العقبة الثالثة بايع فيها سبعون رجلا وامرأتان فاختار رسول الله ﷺ من السبعين اثني عشر رجلا وسماهم النقباء"[٧].

وفي معنى «النقيب» هنا ثلاثة اقوال:

أحدها: أنه الضمين، وهو قول الحسن[٨].

الثاني: الأمين، وهو قول الربيع[٩].

والثالث: الشاهد على قومه، وهو قول قتادة[١٠].

وأصل«النقيب» فى اللغة: الواسع، فنقيب القوم هو الذي ينقب أحوالهم[١١].

والنقيب في كلام العرب، كالعَرِيف على القوم، غير أنه فوق العريف . يقال منه: نَقَب فلان على بني فلان فهو ينقُبُ نَقْبًا، فإذا أريد أنه لم يكن نقيبا فصار نقيبا، قيل: قد نَقُبَ فهو ينقُب نَقَابة ومن العريف: عَرُف عليهم يَعْرُف عِرَافَةً . فأما المناكب فإنهم كالأعوان يكونون مع العُرفاء، واحدهم مَنْكِب [١٢].

وفيما بعث فيه هؤلاء النقباء قولان:

أحدهما: أنهم بُعِثُوا إلى الجبارين، ليقفوا على أحوالهم ورجعوا بذلك إلى موسى، فرجعوا عن قتالهم، لمَّا رأوا من شدة بأسهم، وعظم خلقهم، إلا اثنين منهم، وهذا قول مجاهد[١٣]،

---

[١] أخرجه الطبري(١١٥٦٧):ص١٠٩/١٠.

[٢] أخرجه الطبري(١١٥٦٨):ص١١٠/١٠.

[٣] تفسير الطبري:١٠٩/١٠.

[٤] التفسير الميسر:١٠٩.

[٥] مجاز القرآن:١٥٦/١.

[٦] تفسير الطبري:١١٠/١٠.

[٧] المحرر الوجيز:١٦٨/٢.

[٨] انظر: النكت والعيون:٢٠/٢.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٥٧٠)، و(١١٥٧١):ص١١١/١٠.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٥٦٩):ص١١١/١٠.

[١١] انظر: النكت والعيون:٢٠/٢.

[١٢] انظر: تفسير الطبري:١١٠/١٠.

[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٥٧٣):ص١١٢/١٠-١١٣.

والسدي[١].

والثاني: أنهم بعثوا لقومهم بما أخذ به ميثاقهم منهم، وهذا قول الحسن[٢].

قال أبو حيان: "ذكر محمد بن حبيب في «المحبر»[٣] أسماء هؤلاء النقباء الذين اختارهم موسى في هذه القصة، بألفاظ لا تنضبط حروفها ولا شكلها، وذكرها غيره مخالفة في أكثرها لما ذكره ابن حبيب لا تنضبط أيضا[٤].

وفي هامش الطبري: وقع تحريف واختلاف بين كتب التاريخ في أسماء الأسباط والنقباء منهم فلتحرر[٥].

وأما نقباء ليلة العقبة فمذكورون في سيرة ابن إسحاق فلينظروا هناك[٦].

قوله تعالى:{وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ} [المائدة: ١٢]، أي:" وقال الله لبني إسرائيل: إني معكم بحفظي ونصري"[٧].

قال ابن كثير:" أي: بحفظي وكَلاءتي ونصري"[٨].

قال ابن عطية:" معناه بنصري وحياطتي وتأييدي"[٩].

قال أبو السعود:" أي: بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فإن تنبيههم على علمه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملوته مما يحمله على الجد في الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل إني معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك"[١٠].

قوله تعالى:{لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ} [المائدة: ١٢]، أي:" لئن أقمتم الصلاة، وأعطيتم الزكاة المفروضة مستحقيها"[١١].

قال السعدي:أي:{أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ }:" ظاهرا وباطنا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك، { وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}، لمستحقيها"[١٢].

قال ابن عطية:" وإقامة الصلاة توفية شروطها، والزكاة هنا شيء من المال كان مفروضا فيما قال بعض المفسرين ويحتمل أن يكون المعنى وأعطيتم من أنفسكم كل ما فيه زكاة لكم حسبما ندبتم إليه وقدم هذه على الإيمان تشريفا للصلاة والزكاة وإذ قد علم وتقرر أنه لا ينفع عمل إلا بإيما"[١٣].

---

[١] انظر تفسير الطبري(١١٥٧٢):ص١١١/١٠-١١٢.

[٢] انظر: النكت والعيون:٢٠/٢.

[٣] والاسماء:" فقال: من سبط روبيل شموع بن ركوب، ومن سبط شمعون شوقوط بن حوري، ومن سبط يهوذا يهوذا كالب بن يوقنا، ومن سبط الساحر يوغول بن يوسف، ومن سبط أفراثيم ابن يوسف يوشع بن النون، ومن سبط بنيامين يلظى بن روقو، ومن سبط ربالون كرابيل ابن سودا ومن سبط منشا بن يوسف كدي بن سوشا، ومن سبط دان عمائيل بن كسل، ومن سبط شير ستور بن ميخائيل، ومن سبط نفتال يوحنا بن وقوشا، ومن سبط كاذكوال ابن موخى، فالمؤمنان منهم يوشع وكالب، ودعا موسى عليه السلام على الآخرين فهلكوا مسخوطا عليهم".

[٤] البحر المحيط:٢٠٢/٤، وانظر: تفسير القرطبي:١١٣/٦.

[٥] انظر: تفسير الطبري:١١٣/١٠-١١٧[الهامش].

[٦] انظر: سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٧.

[٧] التفسير الميسر:١٠٩.

[٨] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.

[٩] المحرر الوجيز:١٦٨/٢.

[١٠] تفسير ابي السعود:١٥/٣.

[١١] التفسير الميسر:١٠٩.

[١٢] تفسير السعدي:٢٢٥.

[١٣] المحرر الوجيز:١٦٨/٢.

قال الربيع بن أنس: "أنّ موسى ﷺ قال للنقباء الاثنى عشر: سيروا إليهم يعني: إلى الجبارين فحدثوني حديثهم، وما أمْرهم، ولا تخافوا إن الله معكم ما أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسنًا"[1].

قوله تعالى:{وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي} [المائدة: ١٢]، أي:" وصدَّقتم برسلي فيما أخبروكم به"[2].

قال ابو السعود:" أي: بجميعهم"[3].

قال السعدي:أي:" جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد -ﷺ-"[4].

قال ابن كثير:" أي: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي"[5].

وقرأ الحسن بن أبي الحسن:«برسْلي» ساكنة السين، في كل القرآن[6].

قوله تعالى:{وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} [المائدة: ١٢]، أي:"ونصرتموهم"[7].

قال ابن عطية:" معناه:وقرتموهم وعظمتموهم ونصرتموهم"[8].

قال أبو السعود:" أي: نصرتموهم وقويتموهم"[9].

قال السعدي: أي: "عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة"[10].

قال ابن كثير:" أي: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق"[11].

واختلف في معنى قوله تعالى:{وَعَزَّرْتُمُوهُمْ} [المائدة: ١٢]، على وجوه:

أحدها: ونصرتموهم. وهذا قول مجاهد[12]، والسدي[13].

والثاني: أنه الطاعة والنصرة. وهذا قول عبدالرحمن بن زيد[14].

والثالث:معناه: أثنيتم عليهم. وهذا قول يونس الحرمري[15].

والرابع: معناه: نصرتموهم وأعنتموهم ووقّرتموهم وأيّدتموهم، وهذا قول ابي عبيدة[16]، وأنشد قول الشاعر[17]:

وَكَمْ مِنْ مَاجِدٍ لَهُمُ كَرِيمٍ ... وَمِنْ لَيْثٍ يُعَزَّرُ في النَّدِيّ

والراجح –والله أعلم- ان معناه:" نصرتموهم . وذلك أن الله جل ثناؤه قال في سورة الفتح:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ}[سورة الفتح: ٨، ٩] فـ التوقير هو التعظيم. وإذْ كان ذلك كذلك كان القول في ذلك إنما هو بعضُ ما ذكرنا من الأقوال التي حكيناها عمن حكينا عنه. وإذا فسد أن يكون معناه: التعظيم وكان النصر قد يكون باليد واللسان، فأما باليد فالذبُّ بها عنه بالسيف وغيره، وأما باللسان فحُسْن الثناء، والذبّ عن العرض صحَّ أنه النصر، إذ كان النصر يحوي معنى كلِّ قائلٍ قال فيه قولا مما حكينا عنه"[18].

---

[1] أخرجه الطبري(١١٥٧٨).:ص١٠/١١٩.

[2] التفسير الميسر:١٠٩.

[3] تفسير ابي السعود:٣/١٥.

[4] تفسير السعدي:٢٢٥.

[5] تفسير ابن كثير:٣/٦٦.

[6] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٦٨.

[7] التفسير الميسر:١٠٩.

[8] المحرر الوجيز:٢/١٦٨.

[9] تفسير ابي السعود:٣/١٥.

[10] تفسير السعدي:٢٢٥.

[11] تفسير ابن كثير:٣/٦٦.

[12] انظر: تفسير الطبري(١١٥٧٩)، (١١٥٨٠):ص١٠/١١٩-١٢٠.

[13] انظر: تفسير الطبري(١١٥٨١):ص١٠/١٢٠.

[14] انظر: تفسير الطبري(١١٥٨٢):ص١٠/١٢٠.

[15] انظر: تفسير الطبري(١١٥٨٣):ص١٠/١٢٠.

[16] انظر: مجاز القرآن:١/١٥٦-١٥٧.

[17] لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد مجاز القرآن:١/١٥٧، وتفسير الطبري:١٠/١٢٠.

[18] تفسير الطبري:١٠/١٢١.

وقرأ عاصم الجحدري:«وعزرتموهم»، خفيفة الزاي حيث وقع، وقرأ في سورة الفتح «وتعزوه»[الفتح:٩]، بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي[١].

قوله تعالى:{وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [المائدة: ١٢]، أي:" وأنفقتم في سبيلي"[٢].

قال ابن كثير:" وهو: الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته"[٣].

قال السعدي:"وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب"[٤].

قال الطبري:أي:" وأنفقتم في سبيل الله، وذلك في جهاد عدوه وعدوكم قرضا حسنًا يقول: وأنفقتم ما أنفقتم في سبيله، فأصبتم الحق في إنفاقكم ما أنفقتم في ذلك، ولم تتعدوا فيه حدودَ الله وما ندبكم إليه وحثَّكم عليه إلى غيره"[٥].

قال القرطبي:" ثم قيل: {حسنا}، أي: طيبة بها نفوسكم. وقيل: يبتغون بها وجه الله. وقيل: حلالا. وقيل: (قرضا) اسم لا مصدر"[٦].

قال القرطبي:" أي: بعد الميثاق"[٧].

قوله تعالى:{لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [المائدة: ١٢]، أي:" أي لأمحونَّ عنكم ذنوبكم"[٨].

قال الطبري:أي:" لأغطين بعفوي عنكم - وصفحي عن عقوبتكم، على سالف أجرامكم التي أجرمتموها فيما بيني وبينكم على ذنوبكم التي سلفت منكم من عبادة العجل وغيرها من موبقات ذنوبكم"[٩].

قال ابن كثير:" أي: ذنوبكم أمحوها وأسترها، ولا أؤاخذكم بها"[١٠].

قال ابن عطية:" تكفير السيئات تغطيتها بالمحو والإذهاب فهي استعارة"[١١].

و«الكفر» معناه الجحود، والتغطية، والستر، ومنه سمي الليل كافرًا لأنه يستر ويغطي بظلمته فلق النهار، ومنه قول ابن صُعَير المازني[١٢]:

فَتَذَكَّرَا ثَقَلًا رثِيدًا بَعْدَما ... أَلْقَتْ ذُكَاءُ يمِينَهَا في كافِرِ

وكما قال لبيد [١٣]:

يعلو طريقة متنها متواترٌ ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

يعني: غطاها ، فـ التكفير التفعيل من الكَفْر[١٤].

قوله تعالى:{وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [المائدة: ١٢]، أي:" ولأدْخِلَنَّكُم جناتٍ تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار"[١٥].

قال الطبري:أي:" ولأدخلنكم مع تغطيتي على ذلك منكم بفضلي يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار"[١٦].

---

[١] انظر: المحرر الوجيز:١٦٨/٢.
[٢] التفسير الميسر:١٠٩.
[٣] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.
[٤] تفسير السعدي:٢٢٥.
[٥] تفسير الطبري:١٢١/١٠.
[٦] تفسير القرطبي:١١٤/٦.
[٧] تفسير القرطبي:١١٤/٦.
[٨] صفوة التفاسير:٣٠٧.
[٩] تفسير الطبري:١٢٣/١٠.
[١٠] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.
[١١] المحرر الوجيز:١٦٨/٢.
[١٢] انظر: المفضليات ص ١٣٠، واللسان، مادة: "رثد - ذكو"، والدر المصون :١/ ١٠٦.
[١٣]شرح القصائد المشهورات :١/ ١٥٢.
[١٤] انظر: تفسير الطبري:١٢٣/١٠.
[١٥] التفسير الميسر:١٠٩.
[١٦] تفسير الطبري:١٢٣/١٠.

قال ابن كثير:" أي: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود "[1].

قال السعدي:" فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات"[2].

قوله تعالى:{فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ} [المائدة: ١٢]، أي:" فمن جحد هذا الميثاق منكم"[3].

قال السعدي:" العهد والميثاق المؤكد بالأيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه"[4].

قال الطبري:اي:" فمن جحد منكم، يا معشر بني إسرائيل، شيئا مما أمرته به فتركه، أو ركب ما نهيته عنه فعمله بعد أخذي الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي واجتناب معصيتي"[5].

قال ابن كثير:" أي: فمن خالف هذا الميثاق بعد عَقْده وتوكيده وشدَه، وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه"[6].

قوله تعالى:{فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة: ١٢]، أي:" فقد عدل عن طريق الحق إلى طريق الضلال"[7].

قال القرطبي:" أي: أخطأ قصد الطريق"[8].

قال الطبري:أي:"فقد أخطأ قصدَ الطريق الواضح، وزلَّ عن منهج السبيل القاصد"[9].

قال ابن كثير:" أي: فقد أخطأ الطريق الحق، وعدل عن الهدى إلى الضلال"[10].

قال أبو السعود:" أي: وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لا غذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك إذ ربما يمكن ان يكون له شبهة ويتوهم له معذرة"[11].

قال ابن عطية:" سواء السبيل وسطه ومنه سواء الجحيم [الصافات: ٥٥]، ومنه قول الأعرابي: قد انقطع سوائي، وأوساط الطرق هي المعظم اللاحب منها"[12].

قال السعدي:" أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب"[13].

الفوائد:

١- الحث على الوفاء بالالتزامات الشرعية.

٢- إبطال استغراب واستعظام من يستغرب من اليهود مكرهم ونقضهم وخبثهم ويستعظم ذلك منهم.

٣- إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله تعبد الله بها من قبل هذه الأمة.

٤- وجوب تعظيم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرته في أمته ودينه.

٥-في الآية دليل على قبول خبر الواحد فيما يفتقر إليه المرء، ويحتاج إلى اطلاعه من حاجاته الدينية والدنيوية، فتركب عليه الأحكام، ويرتبط به الحلال والحرام، وقد جاء أيضا [مثله في الإسلام، قال ﷺ لهوازن: "ارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم"[1][2].

---

[1] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.

[2] تفسير السعدي:٢٢٥.

[3] التفسير الميسر:١٠٩.

[4] تفسير السعدي:٢٢٥.

[5] تفسير الطبري:١٢٤/١٠.

[6] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.

[7] التفسير الميسر:١٠٩.

[8] تفسير القرطبي:١١٤/٦.

[9] تفسير الطبري:١٢٤/١٠.

[10] تفسير ابن كثير:٦٦/٣.

[11] تفسير ابي السعود:١٥/٣-١٦.

[12] المحرر الوجيز:١٦٨/٢.

[13] تفسير السعدي:٢٢٥.

٦-قال القرطبي:"وفيها أيضا دليل على اتخاذ الجاسوس. والتجسس: التبحث. وقد بعث رسول الله ﷺ بسبسة عينا[3]"[4].

القرآن

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)} [المائدة: ١٣]

التفسير:

فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكَّدة طردناهم من رحمتنا، وجعلنا قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان، يبدلون كلام الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراة، وتركوا نصيبًا مما ذُكِّروا به، فلم يعملوا به. ولا تزال -أيها الرسول- تجد من اليهود خيانةً وغدرًا، فهم على منهاج أسلافهم إلا قليلا منهم، فاعف عن سوء معاملتهم لك، واصفح عنهم، فإن الله يحب مَن أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه.

قوله تعالى:{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ} [المائدة: ١٣]، أي:" فبسبب نقض هؤلاء اليهود لعهودهم المؤكَّدة طردناهم من رحمتنا"[5].

قال الزجاج:" أي: باعدناهم من الرحمة"[6].

وفي المراد بهذه «اللعنة»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها التعذيب بالجزية، قاله ابن عباس[7].

والثاني: التعذيب بالمسخ، قاله الحسن[8]، ومقاتل[9].

والثالث: الإبعاد من الرحمة، قاله عطاء[10]، والزجاج[11]، والسمرقندي[12].

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً} [المائدة: ١٣]، أي:" وجعلنا قلوبهم غليظة لا تلين للإيمان"[13].

قال أبو عبيدة:" أي: يابسة صلبة من الخير"[14].

قال النحاس:أي:" ليست بخالصة الايمان، أي: فيها نفاق"[15].

قال السمرقندي:" يعني يابسة، ويقال: خالية عن حلاوة الإيمان"[16].

قال مقاتل:" يعني: قست قلوبهم عن الإيمان بمحمد- ﷺ-"[1].

---

[1] أخرجه احمد(١٨٩١٤):ص٢٣١/٣١، والبخاري (٢٣٠٧) و (٢٣٠٨) و (٢٥٣٩) و (٢٥٤٠) و (٢٥٨٣) و (٢٥٨٤) و (٢٦٠٧) و (٢٦٠٨) و (٣١٣١) و (٣١٣٢) و (٤٣١٨) (٤٣١٩) ، وأبو داود (٢٦٩٣) ، والبيهقي في "السنن" ٣٦٠/٦، وفي "الدلائل" ١٩٠/٥-١٩١ من طريق عقيل بن خالد، والبخاري (٧١٧٦) (٧١٧٧) ، والنسائي في "الكبرى" (٨٨٧٦) ، والبيهقي ٣٦٠/٦ وفي "الدلائل" ١٩٢/٥.

[2] انظر: تفسير القرطبي:١١٣/٦.

[3]كان ذلك في غزوة بدر قيل: هو ابن عمرو الأنصاري أرسله النبي ﷺ لتقصى أنباء عير أبي سفيان.

[4]تفسير القرطبي:١١٣/٦.

[5] التفسير الميسر:١٠٩.

[6] معاني القرآن:١٥٩/٢.

[7] انظر: زاد المسير:٥٢٧/١.

[8] انظر: زاد المسير:٥٢٧/١.

[9] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦١/١.

[10] انظر: زاد المسير:٥٢٧/١.

[11] انظر: معاني القرآن:١٥٩/٢.

[12] انظر: بحر العلوم:٣٧٦/١.

[13] التفسير الميسر:١٠٩.

[14] مجاز القرآن:١٥٨/١.

[15] معاني القرآن:٢٨١/٢.

[16] بحر العلوم:٣٧٦/١.

و«القاسية»: اسم فاعل، من قسوة القلب، من قول القائل: قَسَا قلبه، فهو يقسُو وهو قاسٍ، وذلك إذا غلظ واشتدّ وصار يابسًا صلبًا[2]، كما قال الراجز[3]:

وَقَدْ قَسَوْتُ وَقَسَتْ لِدَاتِي

قال الزجاج:" أي: يابسة، يقال للرجل الرحيم: لين القلب، وللرجل غير الرحيم: قاسي القلب ويابس القلب، والقاسي في اللغة، والقاسح - بالحاء -: الشديد الصلابة"[4].

وقرأ حمزة والكسائي«قَسِيّةً»[5]، وفيه تأويلان:

أحدهما: أنها أبلغ من قاسية. اختاره الطبري[6]، والنحاس[7].

قال أبو جعفر النحاس: " وهذا قول حسن، لأنه يقال درهم قسي إذا كان مغشوشا بنحاس أو غيره قال أبو جعفر وأولى ما فيه أن تكون «قسية» بمعنى: قاسية، مثل زكية وزاكية، الا أن «فعيلة» أبلغ من «فاعلة»، فالمعنى جعلنا قلوبهم غليظة نابية عن الايمان والتوفيق لطاعتي لان القوم لم يوصفوا بشئ من الايمان فتكون قلوبهم موصوفة فان ايمانها خالطه كفر كالدراهم القسية التي خالطها غش "[8]. كما قال أبو زُبَيْد الطائي[9]:

لَهَا صَوَاهِلُ فِي صُمِّ السِّلامِ كَمَا   صَاحَ القَسِيَّاتُ فِي أَيْدِي الصَّيارِيفِ

يصف بذلك وقع مَسَاحي الذين حفروا قبر عثمان على الصخور، وهي السِّلام [10].

قال الطبري:" وأعجبُ القراءتين إليّ في ذلك، قراءة من قرأ: {وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَّةً} على فعيلة ، لأنها أبلغ في ذم القوم من: قاسية، وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوله: فعيلة من القسوة ، كما قيل: نفس زكيّة و زاكية ، و امرأة شاهدة و شهيدة ، لأن الله

---

[1] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦١/١.

[2] انظر: تفسير الطبري:١٢٦/١٠-١٢٧، ومعاني القرآن للنحاس:٢٨١/٢.

[3] انظر: تفسير الطبري:٢٣٣/٢، و١٢٦/١٠، ومجاز القرآن:١٥٨/١.

[4] معاني القرآن:١٦٠/٢.

[5] انظر: السبعة في القراءات:٢٤٢، والحجة للقراء السبعة:٢١٦/٣.

[6] انظر: تفسير الطبري:١٢٨/١٠.

[7] انظر: معاني القرآن:٢٨١/٢.

[8] معاني القرآن:٢٨١/٢.

[9] المعاني الكبير : ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، وأمالي القالى ١ : ٢٨ ، وسمط اللآلئ : ١٢٨ ، ٩٣١ ، واللسان (أمر) (صهل) من قصيدته في رثاء أمير المؤمنين المقتول ظلمًا ، ذي النورين عثمان بن عفان ، يقول فيها : يَا لَهْفَ نَفْسِي إنْ كَانَ الَّذِي زَعَمُوا ... حَقًّا ، وَمَاذَا يَرُدُّ الْيَومَ تَلْهِيفِي!!
إنْ كَانَ عُثْمَانُ أَمْسَى فَوْقَهُ أَمَرٌ ... كَرَاقِبِ العُونِ فَوْقَ القُنَّةِ المُوفِي
الأمر (بفتحتين) : الحجارة. و العون جمع عانة ، وهي حمر الوحش. وراقب العون : الفحل الذي يحوطها ويحرسها على مربأة عالية ، ينتظر مغيب الشمس فيرد بها الماء.
ثم يقول بعد ذلك : يَا بُؤْسَ لْلأرْضِ ، مَا غَالَتْ غَوَائِلُهَا ... مِنْ حُكْمِ عَدْلٍ وَجُودٍ غَيْرِ مَكْفُوفِ!!
على جَنَابَيْهِ مِنْ مَظْلُومَةٍ قِيَمٌ ... تَعَاوَرَتْهَا مَسَاحٍ كَالْمَنَاسِيفِ
لَهَا صَوَاهَلُ فِي صُمِّ السِّلامِ ، كَمَا ... صَاحَ القَسِيَّاتُ فِي أَيْدِي الصَّيَارِيفِ
كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَوْمِ فِي كَبَدٍ ... طَيْرٌ تَكَشفُ عَنْ جُونٍ مَزَاحِيفِ
قوله : جنابيه أي : جانبيه. مظلومة : حفرت ولم تكن حفرت من قبل ، يعني أرض لحده. قيم جمع قامة : يعني ما ارتفع من ركام تراب القبر. و المساحي جمع مسحاة : وهي المجرفة من الحديد. و المناسيف جمع منسفة ، وهي آلة يقلع بها البناء وينسف ، أصلب وأشد من المسحاة. و الصواهل جمع صاهلة مصدر على فاعلة ، بمعنى الصهيل : وهو صوت الخيل الشديد ، وكل صوت يشبهه. و الصم جمع أصم ، يعني أنها حجارة صلبة تصهل منها المساحي. و السلام (بكسر السين) الصخور. و الصياريف هم الصيارف ، وزاد الياء للإشباع. و الكبد : الشدة. و الجون : السود. و مزاحيف ، تزحف من الإعياء ، يعني إبلا قد هلكت من الإعياء. شبه المساحي بأيدي القوم وهم يحفرون قبره ، بنسور تقع على الإبل المعيية ، ثم تنهض ، ثم تعود فتسقط عليها. وكان قبر عثمان في حرة المدينة ذات الحجارة السود ، فلذلك قال : عن جون مزاحيف [هامش تفسير الطبري:١٢٧/١٠].

[10] انظر: تفسير الطبري:١٢٧/١٠-١٢٨.

جل ثناؤه وصف القوم بنقضهم ميثاقَهم وكفرِهم به، ولم يصفهم بشيء من الإيمان، فتكون قلوبهم موصوفة بأنّ إيمانها يخالطه كفر، كالدراهم القَسِيَّة التي يخالط فضَّتها غشٌ"[١].

والثاني: أنها بمعنى قاسية. قاله السمرقندي[٢]. وآخرون.

قوله تعالى:{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: ١٣]، أي:" يبدلون كلام الله الذي أنزله على موسى، وهو التوراة"[٣].

قال الثعلبي: أي"يغيرون ما فيه من الأحكام"[٤].

قال ابن كثير: " أي: يتأولونه على غير تأويله "[٥].

قال البيضاوي:" كنعت محمد صلّى الله عليه وسلّم، وآية الرجم، أو تأويله، فيفسرونه بما يشتهون"[٦].

وتحريف الشيء: "إحالته من حال إلى حال"[٧].

وفي تحريفهم «الكلم»، أقوال[٨]:

أحدها: تغيير حدود التوراة، قاله ابن عباس[٩].

والثاني: تغيير صفة محمد ﷺ، قاله مقاتل[١٠]، والسمرقندي[١١].

والثالث: تفسيره على غير ما أنزل، قاله الزجاج[١٢].

والرابع: أنهم بدلوا ألفاظا من تلقائهم. وهذا قول الجمهور[١٣].

والخامس: أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل، ولفظ التوراة باق. قاله ابن عباس أيضا[١٤].

قال مجاهد[١٥] والسدي[١٦]، وابن زيد[١٧]: أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتاعاً لأهوائهم وإعانة لراشيهم.

قال القرطبي:" وهذا توبيخ لهم"[١٨].

قال ابن عطية: "وأن ذلك[التحريف] ممكن في التوراة، لأنهم استحفظوها، وغير ممكن في القرآن، لأن الله تعالى ضمن حفظه"[١٩].

قوله تعالى:{وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣]، أي:" وتركوا نصيبًا مما ذُكِّروا به، فلم يعملوا به"[٢٠].

قال السدي:" تركوا نصيبًا"[٢١].

---

[١] تفسير الطبري:١٢٨/١٠.
[٢] انظر: بحر العلوم:٣٧٦/١.
[٣] التفسير الميسر:١٠٩.
[٤] تفسير الثعلبي: ٢٢٢/١. (بتصرف بسيط).
[٥] تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١.
[٦] تفسير البيضاوي: ٨٩/١.
[٧] المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
[٨] انظر: زاد المسير:٥٢٨/١.
[٩] انظر: زاد المسير:٥٢٨/١.
[١٠] انظر:ك تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦١/١.
[١١] انظر: بحر العلوم:٣٧٦/١.
[١٢] انظر: معاني القرآن:١٦٠/٢.
[١٣] انظر: البحر المحيط: ٢٣٢/١.
[١٤] انظر: المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٣٢٨):ص٢٤٥/٢.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠):ص٢٤٦/٢.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠):ص٢٤٦/٢.
[١٨] تفسير القرطبي:٣/٢.
[١٩] المحرر الوجيز: ١٦٨/١.
[٢٠] التفسير الميسر:١٠٩.
[٢١] أخرجه الطبري(١١٥٨٧):ص١٣٠/١٠.

قال الزجاج:" تركوا نصيبا مما ذكروا به"[١].

قال الحسن:" تركوا عُرَى دينهم، ووظائفَ الله جل ثناؤه التي لا تُقْبل الأعمال إلا بها"[٢].

قال الطبري:أي:" ونسوا حظًّا وتركوا نصيبا، وهو كقوله:{نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [سورة التوبة: ٦٧] أي: تركوا أمر الله فتركهم الله"[٣].

قال السمرقندي:" يعني: تركوا نصيبا مما أمروا به في كتابهم"[٤].

قال ابن الجوزي:" «النسيان» هاهنا: الترك عن عمد. و«الحظ»: النصيب، وفي معنى ذكروا به قولان: أحدهما: أمروا. والثاني: أوصوا"[٥].

قوله تعالى:{وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة: ١٣]، أي:" ولا تزال -أيها الرسول- تجد من اليهود خيانةً وغَدرًا، فهم على منهاج أسلافهم إلا قليلا منهم"[٦].

قال قتادة:"على خيانة وكذب وفجور"[٧].

قال الزجاج:" {خائنة}، في معنى: خيانة، المعنى: لا تزال تطلع على خيانة منهم... ويجوز أن يكون - والله أعلم - على خائنة أن على فرقة خائنة"[٨].

قال مجاهد:" هم يهودُ مِثْلُ الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل حائطهم"[٩].

قال السمرقندي:" يعني: لا يزال يظهر لك منهم الخيانة ونقض العهد"[١٠].

قال ابن قتيبة:" والخيانة والخائنة واحد"[١١]، "أي: غدر ونكث، ويقال لعاصي المسلمين: خائن، لأنّه مؤتمن على دينه. قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ [الأنفال: ٢٧] . يريد المعاصي، وقال الله تعالى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ [البقرة: ١٨٧] أي:رتخونونها بالمعصية"[١٢].

قال أبو حيان:" أي: هذه عادتهم وديدنهم معك، وهم على مكان أسلافهم من خيانة الرسل وقتلهم الأنبياء. فهم لا يزالون يخوفونك وينكثون عهودك، ويظاهرون عليك أعداءك، ويهمون بالقتل بك، وأن يسموك"[١٣].

وقال أبو عبيدة:"{عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ}، أي: على خائن منهم، والعرب تزيد الهاء فى المذكّر كقولهم: هو راوية للشعر، ورجل علّامة، وقال الكلابىّ[١٤]:

---

[١] معاني القرآن:١٦٠/٢.

[٢] أخرجه الطبري(١١٥٨٨):ص١٣٠/١٠.

[٣] تفسير الطبري:١٢٩/١٠.

[٤] بحر العلوم:٣٧٦/١.

[٥] زاد المسير:٥٢٨/١.

[٦] التفسير الميسر:١٠٩.

[٧] أخرجه الطبري(١١٥٨٩):ص١٣١/١٠.

[٨] معاني القرآن:١٦٠/٢-١٦١.

[٩] أخرجه الطبري(١١٥٩٠):ص١٣١/١٠.

[١٠] بحر العلوم:٣٧٦/١.

[١١] غريب القرآن:٣٨٦.

[١٢] تاويل مشكل القرآن:٢٦٢.

[١٣] البحر المحيط:٢٠٦/٤.

[١٤]الكامل للمبرد ١ / ٢١١ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٥٨ ،ةتفسير الطبري:١٣٢/١٠، وإصلاح المنطق / ٢٩٥ ، واللسان (صبع) (غلل) (خون). وهذا من شعر له خبر. وذلك أن هذا الشاعر لما ورد اليمامة كان معه أخ له جميل ، فنزل جارا لعمير بن سلمى ، فقال قرين أخو عمير للكلابي : لا تردن أبياتنا بأخيك هذا ، مخافة جماله ، فرآه قرين بين أبياتهم بعد ، وأخوه عمير غائب ، فقتله. فجاء الكلابي قبر سلمى (أبي عمير ، وقرين) فاستجار به وقال : وَإِذَا اسْتَجَرْتَ مِنَ الْيَمَامَةِ فَاسْتَجِرْ ... زَيْدَ بن يَرْبُوعٍ وَآلَ مُجَمِّعِ
وَأَتَيْتُ سُلْمِيًّا فَعُذْتُ بِقَبْرِهِ ... وَأَخُو الزَّمَانَةِ عَائِذٌ بِالأَمْنَعِ
أَقَرِينُ إِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ فَوَارِسِي ... بِعَمَايَتَيْنَ إِلَى جَوَانِبِ ضَلْفَعِ
حَدَّثْتَ نَفْسَكَ ....

حَدَّثْتَ نَفْسَكَ بِالوَفَاءِ ولَمْ تَكُنْ   لِلغَدْرِ خَائِنَةً مُغِلَّ الإِصْبَعِ

وقد قال قوم بل {خائنة منهم}، هاهنا الخيانة، والعرب قد تضع لفظ «فاعلة» في موضع المصدر كقولهم للخوان مائدة... "[١].

وقرأ الأعمش:«على خيانة منهم»[٢].

وفي الاستثناء في قوله تعالى: {إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة: ١٣]، وجوه:

أحدها: أن الاستثناء في الاشخاص، والمستثنون: عبد الله بن سلام وأصحابه. قاله: ابن عباس.

والثاني: أن الاستثنا في الأفعال أي: إلا فعلا قليلا منهم، فلا تطلع فيه على خيانة. وهذا قول ابن عطية.

والثالث:وقيل: الاستثناء من قوله: {وجعلنا قلوبهم قاسية}[المائدة:١٣]، والمراد به المؤمنون، فإن القسوة زالت عن قلوبهم، قال أبو حيان:"وهذا فيه بعد"[٣].

والظاهر في الاستثناء في قوله تعالى:{إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ} [المائدة: ١٣]،"أنه من الأشخاص في هذه الجملة، والمستثنون عبد الله بن سلام وأصحابه"[٤].

قوله تعالى:{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائدة: ١٣]، أي:" فاعف عن سوء معاملتهم لك، واصفح عنهم"[٥].

وفي نسخ قوله تعالى:{إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ} [المائدة: ١٣]، قولان[٦]:

أحدهما: أن حكمها ثابت في الصفح والعفو إذا رآه، لأنها نزلت في قوم كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، فغدروا، وأرادوا قتل النبي ﷺ فأظهره الله عليهم، ثم أنزل الله هذه الآية، ولم تنسخ.

والثاني: أنه منسوخ، قاله الجمهور [٧]، وفي الذي نسخه ثلاثة أقوال[٨]:

أحدها:آية السيف.

والثاني: قوله تعالى:{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ}[التوبة: ٢٩] وهذا قول قتادة[٩].

والثالث: قوله تعالى:{ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيهِم عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: ٥٨] .

قال الطبري: يجوز أن يعفى عنهم في غدرة فعلوها، ما لم ينصبوا حربا، ولم يمتنعوا من أداء الجزية والإقرار بالصغار، فلا يتوجه النسخ [١٠].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ١٣]، أي:" فإن الله يحب مَن أحسن العفو والصفح إلى من أساء إليه"[١١].

الفوائد:

فلجأ قرين إلى وجوه بني حنيفة (وهم زيد بن يربوع ، وآل مجمع) ، فحملوا إلى الكلابي ديات مضاعفة ، فأبى أن يقبلها. فلما قدم عمير ، فقالت له أمه : لا تقتل أخاك ، وسق إلى الكلابي جميع ماله ، فأبى الكلابي أن يقبل. فأخذ عمير أخاه قرينًا فقتله ، وقال : قَتَلْنَا أَخَانَا لِلْوَفَاءِ بِجَارِنَا ... وَكَانَ أَبُونَا قَدْ تُجِيرُ مَقَابِرُهْ

وقالت أم عمير لعمير : تَعُدُّ مَعَاذِرًا لا عُذْرَ فِيهَا ... وَمَنْ يَقْتُلْ أَخَاهُ فَقَدْ أَلاَمَا

وقوله : أخو الزمانة ، هي العاهة ، يريد ضعفه عن درك ثأره. و عمايتان و ضلفع مواضع من بلاد هذا الكلابي. وقوله مغل الإصبع ، كناية عن الخيانة والسرقة. أغل يغل : خان الأمانة خلسة. ويقول بعضهم : مغل الإصبع ، منصوب على النداء.[من هامش تفسير الطبري:١٣٢/١٠].

[١] مجاز القرآن١٥٨/١.

[٢] زاد المسير:٥٢٨/١.

[٣] البحر المحيط:٢٠٦/٤.

[٤] البحر المحيط:٢٠٦/٤.

[٥] التفسير الميسر:١٠٩.

[٦] انظر: النكت والعيون:٢١/٢، وزاد المسير:٥٢٨/١.

[٧] انظر: النكت والعيون:٢١/٢، وزاد المسير:٥٢٨/١.

[٨] انظر: النكت والعيون:٢١/٢، وزاد المسير:٥٢٨/١.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٥٩٤)، و(١١٥٩٤):١٣٤/١٠-١٣٥.

[١٠] انظر: تفسير الطبري:١٣٥/١٠.[بتصرف].

[١١] التفسير الميسر:١٠٩.

١- حرمة نقض المواثيق ونكث العهود ولا سيما ما كان بين العبد وربه.
٢- الخيانة وصف لازم لأكثر اليهود فقل من سلم منهم من هذا الوصف.
٣- استحباب العفو عند القدرة، وهو من خلال الصالحين.
٤-ومنها: أن أهل الزيغ هكذا يجدون سبيلا إلى مقاصدهم السيئة بتحريف كلام الله وتأويله على غير وجهه، فإن عجَزوا عن التحريف والتأويل تركوا ما لا يتفق مع أهوائهم مِن شرع الله الذي لا يثبت عليه إلا القليل ممن عصمه الله منهم.
٥-أن الحقيقة التي لا شك فيها هي أن اليهود أضاعوا التوراة وتركوا العمل بها فضلوا عن سبيل الله القويم وصراطه المستقيم، وذهبوا يحرفون الكلم عن مواضعه.
٦-أنه لايسلم للْيَهُود صِحَة كتبهمْ المقدسة لديهم وَمَا احْتَجُّوا بهَا من نُصُوص، فقد أثبت الْقُرْآن الْكَرِيم أَنهم تجرؤا على كتب الله الْمنزلَة على أَنْبيَاء بني إِسْرَائِيل بالتحريف والتزوير والتغيير قَالَ تَعَالَى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ أَنه لايسلم للْيَهُود صِحَة كتبهمْ المقدسة لديهم وَمَا احْتَجُّوا بهَا من نُصُوص، فقد أثبت الْقُرْآن الْكَرِيم أَنهم تجرؤا على كتب الله الْمنزلَة على أَنْبيَاء بني إِسْرَائِيل بالتحريف والتزوير والتغيير قَالَ تَعَالَى: { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}.

القرآن

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)} [المائدة: ١٤]

التفسير:

وأخذنا على الذين ادَّعوا أنهم أتباع المسيح عيسى -وليسوا كذلك- العهد المؤكد الذي أخذناه على بني إسرائيل: بأن يُتابعوا رسولهم وينصروه ويؤازروه، فبدَّلوا دينهم، وتركوا نصيبًا مما ذكروا به، فلم يعملوا به، كما صنع اليهود، فألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون يوم الحساب، وسيعاقبهم على صنيعهم.

قوله تعالى:{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ} [المائدة: ١٤]، أي:" وأخذنا على الذين ادَّعوا أنهم أتباع المسيح عيسى -وليسوا كذلك- العهد المؤكد الذي أخذناه على بني إسرائيل: بأن يُتابعوا رسولهم وينصروه ويؤازروه"[١].

قال القرطبي:" أي: في التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ، إذ هو مكتوب في الإنجيل"[٢].

قال ابن كثير:" أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود"[٣].

وفي قولهم: {إنا نصارى}، ولم يقل «من النصارى»، دليل على أنهم ابتدعوا النصرانية وتسموا بها، روي معناه عن الحسن[٤].

قال ابن عطية:" علق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم، من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصر دين الله، وسموا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءت هذه العبارة موبخة لهم مزحزحة عن طريق نصر دين الله وأنبيائه"[٥].

قوله تعالى:{فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٤]، أي:" فبدَّلوا دينهم، وتركوا نصيبًا مما ذكروا به، فلم يعملوا به، كما صنع اليهود"[٦].

---

[١] التفسير الميسر:١١٠.
[٢] تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[٣] تفسير ابن كثير:٦٧/٣.
[٤] انظر: تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[٥] المحرر الوجيز:١٧٠/٢.
[٦] التفسير الميسر:١١٠.

قال النحاس:" أي تركوا حظا من الكتاب الذي وعظوا به وذكروا به، وجعلوا ذلك الترك والتحريف سببا للكفر بمحمد -ﷺ-"[1].

قال القرطبي:" وهو الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، أي: لم يعملوا بما أمروا به وجعلوا ذلك الهوى والتحريف سببا للكفر بمحمد -ﷺ-"[2].

قوله تعالى:{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [المائدة: ١٤]، أي:" فألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة"[3].

قال الطبري:أي:" حرّشنا بينهم وألقينا، كما تغري الشيء بالشيء"[4].

قال الزجاج:"صاروا فرقا يكفر بعضهم بعضا، منهم النسطورية، واليعقوبية والملكانية، وهم الروم، فكل فرقة منهم تعادي الأخرى"[5].

قال السمعاني:" معناه: ألصقنا بهم العداوة حتى صاروا فرقا، وأحزابا، منهم اليعقوبية والملكائية، والنسطورية"[6].

وفي قوله تعالى:{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} [المائدة: ١٤]، وجوه[7]:

أحدها: أي: هيجنا. قاله القرطبي[8].

والثاني: ألصقنا بهم، مأخوذ من الغراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه، وهذا قول الاصمعي[9]، واختيار الزجاج[10]، والزمخشري[11]، وابن عطية[12].

والثالث: أن الإغراء: تسليط بعضهم على بعض.حكاه الرماني[13].

والرابع: أن الإغراء: التحريش، وأصله اللصوق، قال كثير[14]:

إذا قيل مهلا قالت العين بالبكا　　　غراء ومدتها حوافل نهل

قال ابن كثير:" أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا ؛ فكل فرقة تُحَرم الأخرى ولا تدعها تَلجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد"[15].

و اختلف أهل التأويل في صفة إغراء الله عز ذكره بينهم العداوة، والبغضاء، وفيه قولان:

أحدهما: كان إغراؤه بينهم بالأهواء التي حَدَثت بينهم. وهذا قول إبراهيم النخعي[16]، واختيار الطبري[17].

---

[1] إعراب القرآن:٢٦١/١.
[2] تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[3] التفسير الميسر:١١٠.
[4] تفسير الطبري:١٣٦/١٠.
[5] معاني القرآن:١٦١/٢.
[6] تفسير السمعاني:٢٣/٢.
[7] انظر: تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[8] انظر: تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[9] انظر: معاني القرآن للزجاج:١٦١/٢.
[10] انظر: معاني القرآن:١٦١/٢.
[11] انظر: الكشاف:٦١٧/١.
[12] انظر: المحرر الوجيز:١٧٠/٢.
[13] انظر: تفسير القرطبي:١١٧/٦.
[14] انظر: تفسير القرطبي:١١٧/٦، واللسان:١٥٧/١١، و١٢١/١٥، وفيه:" إذا إذا قُلْتُ أَسْلُو، غارَتِ العينُ بالبُكا ... غِرَاءً، ومَدَّتْها مَدامعُ حُفَّلُ".
[15] تفسير ابن كثير:٦٧/٣.
[16] انظر: تفسير الطبري(١١٥٩٨)-(١١٦٠٠):ص١٣٧/١٠.
[17] انظر: تفسير الطبري:١٣٧/١٠-١٣٨.

والثاني: أن ذلك هو العداوة التي بينهم والبغضاء. وهذا قول قتادة[١]، واختيار النحاس[٢]، والسمرقندي[٣].

قال النحاس:" وأحسن ما قيل في معنى فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء أن الله تعالى أمر بعداوة الكفار وإبغاضهم فكل فرقة مأمورة بعداوة صاحبتها وإبغاضها لأنهم كفار"[٤].

والراجح-والله أعلم-: أنه "أغرى بينهم بالأهواء التي حدثت بينهم ، كما قال إبراهيم النخعي، لأن عداوة النصارى بينَهم، إنما هي باختلافهم في قولهم في المسيح، وذلك أهواءٌ، لا وحيٌ من الله"[٥].

قال السمرقندي:"يقال: ألقى بينهم العداوة بالجدال والخصومات في الدين، وذلك يحبط الأعمال. وقال معاوية بن قرة: إياكم وهذه الخصومات في الدين، فإنها تحبط الأعمال"[٦].

واختلف أهل التفسير في المعنيِّ بـ «الهاء والميم» اللتين في قوله تعالى:{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ} [المائدة: ١٤]، وفيه وجهان:

أحدهما: عني بذلك اليهود والنصارى. فمعنى الكلام على قولِهم وتأويلهم: فأغرينا بين اليهود والنصارى، لنسيانهم حظًّا مما ذكّروا به. وهذا قول مجاهد[٧]، وقتادة[١]، والسدي[٢]، وابن زيد[٣].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠١):ص١٣٧/١٠.

[٢] انظر: إعراب القرآن:٢٦١/١-٢٦٢.

[٣] انظر: بحر العلوم:٢٧٦/١. ذكر السمرقندي في صفة تلك العداوة:" يقال: إن أصل العداوة التي كانت بينهم ألقاها إنسان يقال له «بولس» ، كان بينه وبين النصارى قتال، وكان يهوديا فقتل منهم خلقا كثيرا، فأراد أن يحتال بحيلة يلقي بينهم القتال ليقتل بعضهم بعضا، فجاء إلى النصارى، وجعل نفسه، أعور وقال لهم: أتعرفوني؟ فقالوا: أنت الذي قتلت منا وفعلت ما فعلت، فقال: قد فعلت ذلك كله وأنا تائب، لأني رأيت عيسى ابن مريم في المنام نزل من السماء، فلطم وجهي لطمة وفقأ عيني. فقال: أي شيء تريد من قومي؟ فتبت على يده، وإنما جئتكم لأكون بين ظهرانيكم، وأعلمكم شرائع دينكم، كما علمني عيسى في المنام فاتخذوا له غرفة، فصعد تلك الغرفة وفتح كوة إلى الناس في الحائط، وكان يتعبد في الغرفة، وربما كانوا يجتمعون إليه ويسألونه ويجيبهم من تلك الكوة، وربما يأمرهم حتى يجتمعوا ويناديهم من تلك الكوة، ويقول لهم بقول كان في الظاهر منكرا وينكرون عليه، فكان يفسر ذلك القول بتفسير يعجبهم ذلك، فانقادوا كلهم له وكانوا يقبلون قوله بما يأمرهم به. فقال لهم يوما من الأيام: اجتمعوا قد حضرني علم، فاجتمعوا، فقال لهم: أليس قد خلق الله تعالى هذه الأشياء في الدنيا كلها لمنفعة بني آدم؟ قالوا: نعم، فقال لم تحرمون على أنفسكم هذه الأشياء؟ يعني الخمر والخنزير وقد خلق لكم ما فى الارض جميعا، فأخذوا بقوله واستحلوا الخمر والخنزير، فلما مضى على ذلك أيام دعاهم وقال: حضرني علم. فاجتمعوا وقال لهم: من أي ناحية تطلع الشمس؟ فقالوا: من قبل المشرق. فقال: ومن أي ناحية يطلع القمر والنجوم؟ فقالوا: من قبل المشرق. فقال: ومن يرسلهم من قبل المشرق؟ قالوا: الله تعالى: فقال: فاعلموا أنه من قبل المشرق فإن صليتم له فصلوا إليه، فحول صلاتهم إلى المشرق، فلما مضى على ذلك أيام دعا طائفة منهم وأمرهم بأن يدخلوا عليه في الغرفة. وقال لهم: إني أريد أن أجعل نفسي الليلة قربانا لأجل عيسى، وقد حضرني علم وأريد أن أخبركم في السر لتحفظوا عني وتدعوا الناس إلى ذلك. ويقال أيضا إنه أصبح يوما وفتح عينه الأخرى ثم دعاهم وقال لهم: جاءني عيسى الليلة، وقال: قد رضيت عنك، فمسح يده على عيني فبرئت، فالآن أريد أن أجعل نفسي قربانا. ثم قال لهم: هل يستطيع أحد أن يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا. فقال: إن عيسى قد فعل هذه الأشياء، فاعلموا بأنه هو الله. فخرجوا من عنده. ثم دعا طائفة أخرى فأخبرهم بذلك أيضا، وقال: إنه كان ابنه ثم دعا بطائفة ثالثة وأخبرهم بأنه ثالث ثلاثة، وأخبرهم بأنه يريد أن يجعل نفسه الليلة قربانا، فلما كان في بعض الليل خرج من بين ظهرانيهم، فأصبحوا وجعلوا كل فريق منهم يقول: قد علمني كذا وكذا. وقال الفريق الآخر: أنت كاذب بل علمني كذا وكذا، فوقع بينهم القتال فاقتتلوا وقتلوا خلقا كثيرا وبقيت العداوة بينهم إلى يوم القيامة وهم ثلاث فرق، فرقة بينهم النسطورية قالوا المسيح ابن الله.

وصنف منهم يقال: لهم المار يعقوبية قالوا: إن الله هو المسيح. وصنف يقال لهم: الملكانية، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة المسيح وأمه والله. فأغرى بينهم العداوة والبغضآء إلى يوم القيامة".[بحر العلوم:٢٧٦/١-٢٧٧].

[٤] إعراب القرآن:٢٦١/٢-٢٦٢.

[٥] تفسير الطبري:١٣٧/١٠-١٣٨.

[٦] بحر العلوم:٣٧٧/١.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠٤):ص١٣٨/١٠.

والثاني: عني الله بذلك النصارَى وحدَها. وقالوا: معنى ذلك: فأغرينا بين النصارى، عقوبةً لها بنسيانها حظًّا مما ذكرت به. قالوا: وعليها عادت الهاء والميم في بينهم ، دون اليهود. وهذا قول الربيع[4]، والطبري[5]، والزجاج[6]، والنحاس[7].

قال النحاس:" والأولى أن يكون للنصارى، لأنهم أقرب"[8].

قال الإمام الطبري:": وأولى التأولين بالآية عندي ما قاله الربيع بن أنس، وهو أنّ المعنيّ بالإغراء بينهم، النصارى، في هذه الآية خاصة وأنّ الهاء والميم عائدتان على النصارى دون اليهود، لأن ذكر الإغراء في خبر الله عن النصارى، بعد تقضّي خبره عن اليهود، وبعد ابتدائه خبَره عن النصارى، فلأنْ يكون ذلك معنيًّا به النصارى خاصَّة، أولى من أن يكون معنيًّا به الحزبان جميعًا، لما ذكرنا"[9].

قوله تعالى:{وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [المائدة: ١٤]، أي:" وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون يوم الحساب، وسيعاقبهم على صنيعهم"[10].

قال الواحدي:" وعيدٌ لهم"[11].

قال الطبري:أي:" وسينبئهم الله عند ورودهم عليه في معادهم، بما كانوا في الدنيا يصنعون، من نقضهم ميثاقه، ونكثهم عهده، وتبديلهم كتابه، وتحريفهم أمره ونهيه، فيعاقبهم على ذلك حسب استحقاقهم"[12].

قال مقاتل:" يعني: بما يقولون من الجحود والتكذيب وذلك أن النسطورية قالوا: إن عيسى ابن الله. وقالت: المار يعقوبية إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالت عبادة الملك: إن الله- عز وجل- ثالث ثلاثة- هو إله وعيسى إله، ومريم إله، افتراء على الله- تبارك وتعالى- وإنما الله إله واحد وعيسى عبد الله ونبيه- ﷺ- كما وصف الله- سبحانه- نفسه «أحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»[13]"[14].

قال ابن كثير:"وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب، عز وجل، وتعالى وتقدس عن قولهم علوًا كبيرًا، من جعلهم له صاحبة وولدا، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفوًا أحد"[15].

قال ابن عطية:" توعدهم الله تعالى بعقاب الآخرة إذ أنباؤهم بصنعهم إنما هو تقرير وتوبيخ للعذاب، إذ صنعهم كفر يوجب الخلود في النار"[16].

الفوائد:

١-ذم النصارى بنقض الميثاق، كما ذم اليهود وجعل عقوبتهم إيقاع العداوة والبغضاء بينهم.

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠٦):ص١٠/١٣٨.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠٢):ص١٠/١٣٨.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠٣):ص١٠/١٣٨.
[4] انظر: تفسير الطبري(١١٦٠٧):ص١٠/١٣٩.
[5] انظر: تفسير الطبري:١٠/١٣٩.
[6] انظر: معاني القرآن:٢/١٦١.
[7] انظر: إعراب القرآن:١/٢٦١.
[8] إعراب القرآن:١/٢٦١.
[9] تفسير الطبري:١٠/١٣٩.
[10] التفسير الميسر:١١٠.
[11] الوجيز:٣١٢.
[12] تفسير الطبري:١٠/١٣٩.
[13] سورة الإخلاص.
[14] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٦٣.
[15] تفسير ابن كثير:٣/٦٧.
[16] المحرر الوجيز:٢/١٧٠.

٢-أن حال النصارى لا تختلف كثيراً عن حال اليهود كأنهم شربوا من ماء واحد. وعليه فلا يستغرب منهم الشر ولا يؤمنون على سر، فهم على عداوة الإسلام والحرب عليه متعاونون متواصون.
٣-ويستفاد من هذه الآية الكريمة: أن من سننه تعالى في خلقه أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء إذا تركوا شيئا من شرعه ولم يعملوا به، فقال سبحانه وتعالى عن النصارى: {ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون} [المائدة: ١٤].

وقد اختلفت هذه الأمة كما اختلف من قبلها من الأمم؛ مصداقا لقوله - ﷺ -: "لتتبعن سنن من كان قبلكم"[١]، وظهرت فيها الفرق التي أخبر عنها النبي - ﷺ - في حديث الافتراق، وادعت كل فرقة أنها على الحق وما عداها على الباطل.

ولكن مع وجود هذا الاختلاف والتفرق، فلا يزال في الأمة طائفة منصورة قائمة بالحق، داعية إليه، لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، إلى أن يأتي أمر الله وهم على ذلك.
ولذلك اهتم سلف هذه الأمة بالدعوة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة، والتحذير من البدع والأهواء، وكثرت أقوالهم ومؤلفاتهم في هذه المسألة.

فكتبت كتب كثيرة في السنة وبيان منهج السلف الصالح، وفي الرد على أهل الأهواء والبدع.

ومن هذه الكتب الكثيرة، كتاب الإمام أحمد رحمه الله تعالى في "الرد على الجهمية"، وكتاب "السنة" لعبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل، وكتاب "خلق أفعال العباد" للبخاري، وكتاب "السنة" لابن أبي عاصم، وكتاب "السنة" لمحمد بن نصر المروزي، وكتاب "الشريعة" للآجري، و"شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" للالكائي، وغير ذلك من كتب السلف رضوان الله عليهم[٢].

وبعض هذه الكتب، عني فيها مؤلفوها بالكتابة في التحذير من الأهواء والبدع، فألف ابن وضاح القرطبي كتابه "البدع والنهي عنها"، وألف أبو بكر الطرطوشي كتابه "الحوادث والبدع"، وألف أبو شامة كتاب "الباعث على إنكار البدع والحوادث"، ولكن اقتصرت هذه الكتب -في الغالب- على النقل المجرد للنصوص الواردة في التحذير من البدع والنهي عنها، دون تحليل لمعانيها، وتحقيق مسائلها، مما جعل الإمام الشاطبي يقوم بتصنيف كتابه الفذ "الاعتصام"، الذي أشار رحمه الله تعالى فيه إلى هذه الكتب السابقة، ومأخذه عليها، فقال: "وإذا استقام هذا الأصل -أي كتب العلم لحفظ الدين- فاحمل عليه كتب العلم من السنن وغيرها إذا خيف عليها الاندراس، زيادة على ما جاء في الأحاديث؛ من الأمر بكتب العلم، وأنا أرجو أن يكون كتب هذا الكتاب الذي وضعت يدي فيه من هذا القبيل؛ لأني رأيت باب البدع في كلام العلماء مغفلا جدا إلا من النقل الجلي؛ كما نقل ابن وضاح، أو يؤتى بأطراف من الكلام لا يشفي الغليل بالتفقه فيه كما ينبغي، ولم أجده على شدة بحثي عنه، إلا ما وضع فيه أبو بكر الطرطوشي، وهو يسير في جنب ما يحتاج إليه فيه، وإلا ما وضع الناس في الفرق الثنتين والسبعين، وهو فصل من فصول الباب وجزء من أجزائه، فأخذت نفسي بالعناء فيه، عسى أن ينتفع واضعه، وقارئه، وناشره، وكاتبه، والمنتفع به، وجميع المسلمين"[٣].

القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)} [المائدة: ١٥]

---

[١] أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد.
[٢] انظر: الإعتصام للشاطبي:٧-٩.
[٣] الاعتصام:١٦/٣.

التفسير:
يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ يبيّن لكم كثيرًا مما كنتم تُخْفونه عن الناس مما في التوراة والإنجيل، ويترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين: وهو القرآن الكريم.
سبب النزول:
قال عكرمة: "إنّ نبيّ الله أتاه اليهود يسألونه عن الرجم، واجتمعوا في بيتٍ، قال: أيُّكم أعلم ؟ فأشاروا إلى ابن صُوريا، فقال: أنت أعلمهم ؟ قال، سل عما شئت، قال، أنت أعلمهم ؟ قال: إنهم ليزعمون ذلك! قال: فناشده بالذي أنزل التوراة على موسى، والذي رفع الطُّور، وناشده بالمواثيق التي أُخذت عليهم، حتى أخذه أفْكَل، فقال: إن نساءنا نساء حسان، فكثر فينا القتل، فاختصرنا أُخصورةً، فجلدنا مئة، وحلقنا الرءوس، وخالفنا بين الرءوس إلى الدواب أحسبه قال: الإبل قال:فحكم عليهم بالرجم، فأنزل الله فيهم: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ }، الآية وهذه الآية: {وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}[سورة البقرة: ٧٦]"[١].[ضعيف]
وقال ابن جريج: "لما أخبر الأعور سمويل بن صوريا الذي صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - على الرجم أنه في كتابهم، وقال: لكنا نخفيه؛ فنزلت: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} وهو شاب أبيض طويل من أهل فدك"[٢].[ضعيف]
قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} [المائدة: ١٥]، أي:" يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى"[٣].
قال الزمخشري:" خطاب لليهود والنصارى"[٤].
قال السمعاني:" المراد به: أهل الكتابين: التوراة، والإنجيل، لكن ذكر الكتاب، وهو اسم الجنس، فينصرف إلى الفريقين"[٥].
قال البيضاوي:" يعني: اليهود والنصارى، ووحد الكتاب لأنه للجنس"[٦].
وقيل: أن المراد: اليهود خاصة[٧].
قال القرطبي:" الكتاب: اسم جنس بمعنى الكتب، فجميعهم مخاطبون"[٨].
قوله تعالى:{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} [المائدة: ١٥]، أي:" قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ يبيّن لكم كثيرًا مما كنتم تُخْفونه عن الناس مما في التوراة والإنجيل"[٩].
عن قتادة:"{يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا}، وهو محمد-ﷺ-"[١٠].
قال الطبري:" يقول: يبين لكم محمّد رسولنا، كثيرًا مما كنتم تكتمونه الناسَ ولا تُبينونه لهم ممّا في كتابكم. وكان مما يخفونه من كتابهم فبيَّنه رسولُ الله ﷺ للناس: رَجْمُ الزَّانيين المحصنين"[١١].

---

[١] أخرجه الطبري(١١٦١١):١٤٢/١٠-١٤٣. وهذا مرسل صحيح الإسناد.
[٢]ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٤٣) ونسبه لابن المنذر.
قلنا: وهو معضل.
[٣] التفسير الميسر:١١٠.
[٤] الكشاف:٦١٧/١.
[٥] تفسير السمعاني:٢١/٢.
[٦] تفسير البيضاوي:١١٩/٢.
[٧] انظر: زاد المسير:٥٢٩/١.
[٨] تفسير القرطبي:١١٨/٦.
[٩] التفسير الميسر:١١٠.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٦٠٨):ص١٤١/١٠.
[١١] تفسير الطبري:١٤١/١٠.

قال القرطبي:" يعني محمد ﷺ. {يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب}، أي: من كتبكم، من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قردة، فإنهم كانوا يخفونها"(١).

قال السمعاني:" يعني: اللذين أخفوا من نعت محمد وآية الرجم، ونحو ذلك"(٢).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيّهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل.. يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه "(٣).

قال ابن عباس:" من كفر بالرجم، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب. قوله: {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسوُلنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب}، فكان الرجمُ مما أخفوا"(٤).

وقرأ الحسن:« قد جاءكم رسولنا يبين لكم»، أدغم النون في اللام لقربها منها(٥).

قوله تعالى:{وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [المائدة: ١٥]، أي:" ويترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة"(٦).

قال ابن كثير:" ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه"(٧).

قال القرطبي:" أي: يتركه ولا يبينه،وإنما يبين ما فيه حجة على نبوته، ودلالة على صدقه وشهادة برسالته، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه"(٨).

قال السمعاني:" يعني: يعرض عن كثير مما أخفوا، فلا يتعرض له"(٩).

قال الراغب: " أي: يتجافى من إظهار كثير مما يخفونه"(١٠).

قال ابن الجوزي:أي:" يتجاوز، فلا يخبرهم بكتمانه"(١١).

قا البغوي:" أي: يعرض عن كثير مما أخفيتم فلا يتعرض له ولا يؤاخذكم به"(١٢).

قال الزمخشري:" {ويعفو عن كثير} مما تخفونه، لا يبينه إذا لم تضطر إليه مصلحة دينية، ولم يكن فيه فائدة إلا اقتضاء حكم وصفته مما لا بد من بيانه، وكذلك الرجم وما فيه إحياء شريعة وإماتة بدعة"(١٣).

قال القرطبي:" يعني: يتجاوز عن كثير فلا يخبركم به. وذكر أن رجلا من أحبارهم جاء إلى النبي ﷺ فسأله فقال: يا هذا عفوت عنا؟ فأعرض عنه رسول الله عليه وسلم ولم يبين، وإنما أراد اليهودي أن يظهر مناقضة كلامه، فلما لم يبين له رسول الله ﷺ قام من عنده فذهب وقال لأصحابه: أرى أنه صادق فيما يقول: لأنه كان وجد في كتابه أنه لا يبين له ما سأله عنه"(١٤).

قال الشوكاني:" {ويعفوا عن كثير} مما تخفونه، فيترك بيانه لعدم اشتماله على ما يجب بيانه عليه من الأحكام الشرعية، فإن ما لم يكن كذلك لا فائدة تتعلق ببيانه إلا مجرد افتضاحكم

---

(١) تفسير القرطبي:١١٨/٦.
(٢) تفسير السمعاني:٢١/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٦٧/٣.
(٤) أخرجه الطبري(١١٦٠٩):ص١٤١/١٠.
(٥) انظر: إعراب القرآن للنحاس:٢٦٢/١.
(٦) التفسير الميسر:١١٠.
(٧) تفسير ابن كثير:٦٧/٣.
(٨) تفسير القرطبي:١١٨/٦.
(٩) تفسير السمعاني:٢١/٢.
(١٠) تفسير الراغب الأصفهاني:٣٠٣/٤.
(١١) زاد المسير:٥٢٩/١.
(١٢) تفسير البغوي:٣٢/٣.
(١٣) الكشاف:٦١٧/١.
(١٤) تفسير القرطبي:١١٨/٦.

وقيل المعنى: إنه يعفو عن كثير فيتجاوزه ولا يخبركم به وقيل: يعفو عن كثير منكم فلا يؤاخذهم بما يصدر منهم"[1].

فان قيل: كيف كان له أن يمسك عن حق كتموه فلا يبينه؟

فعن ذلك جوابان،ذكرهما ابن الجوزي[2]:

أحدهما: أنه كان متلقيا ما يؤمر به، فإذا أمر باظهار شيء من أمرهم، أظهره، وأخذهم به، وإلا سكت.

والثاني: أن عقد الذمة إنما كان على أن يقروا على دينهم، فلما كتموا كثيرا مما أمروا به، واتخذوا غيره دينا، أظهر عليهم ما كتموه من صفته وعلامة نبوته، لتتحقق معجزته عندهم، واحتكموا إليه في الرجم، فأظهر ما كتموا مما يوافق شريعته، وسكت عن أشياء ليتحقق إقرارهم على دينهم.

قوله تعالى:{قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: ١٥]، أي:" قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين: وهو القرآن الكريم"[3].

قال الزمخشري:" يريد القرآن، لكشفه ظلمات الشرك والشك، ولإبانته ما كان خافيا عن الناس من الحق. أو لأنه ظاهر الإعجاز من اتبع رضوانه من آمن به سبل السلام طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله"[4].

قال ابن عطية:" قوله عز وجل: {نور وكتاب مبين }،يحتمل: أن يريد محمدا صلى الله عليه وسلم والقرآن، وهذا هو ظاهر الألفاظ، ويحتمل: أن يريد موسى عليه السلام والتوراة، أي ولو اتبعتموها حق الاتباع لآمنتم بمحمد، إذ هي آمرة بذلك مبشرة به"[5].

وفى «النور»، ثلاثة أقوال:

أحدها: محمد -ﷺ-، وهو قول الزجاج[6]، والبغوي[7].

قال الزجاج:" النور هو: محمد - ﷺ - والهدى أو النور هو الذي يبين الأشياء، ويرى الأبصار حقيقتها، فمثل ما أتى به النبي - ﷺ - في القلوب في بيانه وكشفه الظلمات كمثل النور"[8].

الثاني: القرآن. وهو قول بعض المتأخرين [9].

والثالث: الإسلام، وسمي نور، لأنه يهتدى به كما يهتدي بالنور. حكاه السمعاني[10].

الفوائد:

١-عموم رسالته - ﷺ - لجميع الأمم.

٢-إن هذه الآية من أعظم الأدلة على صحة رسالة محمد - ﷺ - حيث جاء بالدين القويم والصراط المستقيم.

٣-أن القرآن الكريم مهيمن على الكتب السابقة، فاضح لما حرفه اليهود والنصارى، ولما كتموه من الحق.

٤-أن نور القرآن والسنة لا يهتدي به إلا المؤمن الذي يتعلمهما، ليعمل بهما.

---

[1] فتح القدير:٢٨/٢.
[2] انظر: زاد المسير:٥٢٩/١.
[3] التفسير الميسر:١١٠.
[4] الكشاف:٦١٧/١.
[5] المحرر الوجيز:١٧١/٢.
[6] انظر: معاني القرآن:١٦١/٢.
[7] انظر: تفسير البغوي:٣٢/٣.
[8]معاني القرآن:١٦١/٢.
[9] انظر: النكت والعيون:٢٢/٢.
[10] انظر: تفسير السمعاني:٢٣/٢.

٥-الاعتقاد الجازم بنسخ جميع الكتب والصحف التي أنزلها الله على رسله، بالقرآن الكريم، وأنه لا يسع أحدًا من الإنس أو الجن، لا من أصحاب الكتب السابقة، ولا من غيرهم، أن يعبدوا الله بعد نزول القرآن بغير ما جاء فيه أو يتحاكموا إلى غيره.

٦-قال الراغب:" هذه الآية النعم الثلاث التي خص بها العباد وهي: - النبوة والعقل والكتاب"(١).
والكتاب"(١).

القرآن

{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)} [المائدة: ١٦]

التفسير:

يهدي الله بهذا الكتاب المبين من اتبع رضا الله تعالى، طرق الأمن والسلامة، ويخرجهم بإذنه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويوفقهم إلى دينه القويم.

قوله تعالى:{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} [المائدة: ١٦]، أي:" يهدي الله بهذا الكتاب المبين من اتبع رضا الله تعالى، طرق الأمن والسلامة"(٢).

قال السمعاني:" أي: يهدي به الله سبل السلام من اتبع رضوانه"(٣).

قال الزمخشري:{ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ }، أي:" من آمن به، {سبل السلام}، طرق السلامة والنجاة من عذاب الله أو سبل الله"(٤).

قال ابن عطية:" {واتبع رضوانه}، معناه: بالتكسب والنية والإقبال عليه، و«السبل» الطرق"(٥).

قال القرطبي:" {من اتبع رضوانه}، أي: ما رضيه الله، {سبل السلام}، طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة، والمؤمنة من كل مخافة، وهي الجنة"(٦).

قال السعدي:" أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسنا -سبل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالا وتفصيلا"(٧).

قال الزجاج:" السبل: الطرق، فجائز أن يكون - والله أعلم – طرق السلام أي طرق السلامة التي من ملكها سلم في دينه، وجائز أن يكون - والله أعلم - سبل السلام، طرق الله، والسلام اسم من أسماء الله"(٨).

قال أبو علي:" { سُبُلَ السَّلامِ}، أي: سبل دار السلام، بدلالة قوله: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ [الأنعام: ١٢٧]، وتكون إضافة الدار إلى السلام على أحد وجهين: إمّا أن يراد به الإضافة إلى السلام الذي هو اسم من أسماء الله على وجه التعظيم لها والرفع منها، كما قيل للكعبة: بيت الله، وللخليفة: عبد الله. وإمّا أن يراد بالسلام جمع سلامة، كأنّه: دار السلامة التي لا يلقون في حلولها عنتا ولا تعذيبا، كما قال:{الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ} [فاطر: ٣٥]."(٩).

---

(١) تفسير الراغب الاصفهاني:٣٠٣/٤.
(٢) التفسير الميسر:١١٠.
(٣) تفسير السمعاني:٢٣/٢.
(٤) .
(٥) المحرر الوجيز:١٧١/٢.
(٦) تفسير القرطبي:١١٨/٦.
(٧) تفسير السعدي:٢٢٦.
(٨) معاني القرآن:١٦١/٢.
(٩) الحجة للقراء السبعة:١٨٤/١.

عن السدي:"{من اتبع رضوانه سبل السلام}، سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه، وابتعث به رسله، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملا إلا به، لا اليهودية، ولا النصرانية، ولا المجوسية"[1].

وإن قلتَ: "كيف قال ذلكَ، مع أن العبد ما لم يهده الله لا يتَّبع رضوانه فيلزم الدَّورُ؟

قلتُ: فيه إِضْمارٌ تقديرُه: يهدي به اللَّهُ منْ علِم أنه يريد أن يتَّبع رضوانه، كما قال: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩]، أي: والّذين أرادوا سبيل المجاهدة لنهدينهم سبيل مجاهدتنا"[2].

قال ابن عاشور:" و«سبل السلام»: طرق السلامة التي لا خوف على السائر فيها، وللعرب طرق معروفة بالأمن وطرق معروفة بالمخافة، مثل وادي السباع، الذي قال فيه سحيم بن وثيل الرياحي[3]:

مررتُ على وادى السِبّاعِ ولا أَرى ... كوادى السِّباع حين يُظلمُ وادِياَ

أقلَّ به ركْبٌ أتَوْه تَئيّةً ... وأخوفَ، إلاّ ما وَقى اللهُ، سارياَ

فسبيل السلام استعارة لطرق الحق"[4].

قال الحازمي:" طرق مرضاته يجمعها سبيله الواحد يعني {سُبُلَ السَّلاَمِ}، المراد به أنواع العبادات الصلاة، والصيام، والزكاة هذه متعددة، لكنها تجمع قدرًا مشتركًا وهو عبادة الله تعالى وحده"[5].

وقرأ عبيد بن عمير والزهري وسلام وحميد ومسلم بن جندب:«به الله»، بضم الهاء حيث وقع مثله[6].

قوله تعالى:{وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ} [المائدة: ١٦]، أي:" ويخرجهم بإذنه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان"[7].

قال الطبري:" يعني: من ظلمات الكفر والشرك، إلى نور الإسلام وضيائه، بإذن الله جل وعز"[8].

قال القرطبي:" أي: من ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات، بتوفيقه وإرادته"[9].

قال ابن كثير:" أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة"[10].

قال السعدي:أي من:" ظلمات الكفر والبدعة والمعصية، والجهل والغفلة، إلى نور الإيمان والسنة والطاعة والعلم، والذكر. وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن"[11].

قوله تعالى:{وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٦]، أي:" ويوفقهم إلى دينه القويم"[1].
القويم"[1].

---

[1] أخرج الطبري(١١٦١٢):ص١٠/١٤٥.
[2] فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، زكريا الانصاري:١/١٣٤.
[3] الكتاب، لسبويه:٢/٣٢-٣٣، و الخزانة ٣/ ٥٢١، يقول: وافيت هذا الوادي ليلا- وهو واد بعينه- فأوحشني لكثرة سباعه، فرحلت عنه ولم أمكث فيه لوحشته- والتئيّة: التلبث والمكث.
[4] التحرير والتنوير:٦/١٥١.
[5] شرح العقيدة الواسطية للحازمي رقم الدرس(٩)/٢٣.[تسجيل صوتي].
[6] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٧١.
[7] التفسير الميسر:١١٠.
[8] تفسير الطبري:١٠/١٤٥.
[9] تفسير القرطبي:٦/١١٩.
[10] تفسير ابن كثير:٣/٦٨.
[11] تفسير السعدي:٢٢٦.

قال الطبري:أي:" ويرشدهم ويسددهم إلى طريق مستقيم، وهو دين الله القويم الذي لا اعوجاج فيه"[٢].

قال ابن كثير: أي: "ويرشدهم إلى أقوم حالة"[٣].

قال المحاسبي:" فضمن الله عز وَجل لمتبعه: الْهَدْي لطريق السَّلامَة، والسلوك للطريق الْمُسْتَقيم"[٤].

قال ابن عاشور:"«الصراط المستقيم» مستعار للإيمان"[٥].

وفي قوله تعالى:{وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٦]، وجهان:

أحدهما: طريق الحق وهو دين الله، وهذا قول الحسن[٦].

والثاني: طريق الجنة فى الآخرة، وهو قول بعض المتكلمين[٧].

الفوائد:

١- أن الهداية والصلاح والفلاح لمن اتبع القرآن والسنة وتمسك بذلك، وأن اتباع السنة المحمدية يهدي صاحبه إلى سعادته وكماله.

٢- القرآن حجة على الناس كافة لبيانه الحق في كل شيء.

٣- طالب رضا الله بصدق يفوز بكل خبر وينجو من كل ضير.

٤- لقد تميزت الرسالة الخاتمة بالشمول لجميع متطلبات البشر، والعموم لجميع أجناسهم في كل مكان وزمان، فهي تحمل التعريف الصحيح بالله وحقه والكون والحياة، وعن مبدأ الإنسان ودوره في الحياة، ومصيره بعد الممات.

كما تضمنت النظام الكامل السديد لعلاقة البشر مع خالقهم ومع بعضهم البعض

٥-وذكر سبحانه للكتاب ثلاث فوائد:

احدها: إن المتبع لما يرضى الله بالإيمان بهذا الكتاب- يهديه إلى الطرق التي يسلم بها فى الدنيا والآخرة من كل ما يبعده عن الشقاء والهلاك، فيقوم فى الدنيا بحقوق الله

والحقوق الواجبة عليه لنفسه (روحية كانت أو جسدية) وللناس، ويكون فى الآخرة منعما نعيما روحيا وجسديا.

وخلاصة ذلك: إنه يتبع دينا يجد فيه ما يوصله إلى السلامة من الشقاء فى الدنيا والآخرة، لأنه دين الإخلاص والعدل والمساواة.

والثاني: إنه يخرج معتنقيه من ظلمات الوثنية والأوهام والخرافات التي أفسد بها الرؤساء جميع الأديان- إلى نور التوحيد الخالص الذي يجعل صاحبه حرا كريما بين يدى الخلق خاضعا للخاللق وحده.

والثالث: إنه يهدى إلى الطريق الموصل إلى المقصد والغاية من الدين إذا اعتصم به من اتبعه على الوجه الصحيح الذي أنزل لأجله، كما عمل بذلك أهل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. أفاده المراغي[٨].

القرآن

---

[١] التفسير الميسر:١١٠.

[٢] تفسير الطبري:١٤٦/١٠.

[٣] تفسير ابن كثير:٦٨/٣.

[٤] فهم القرآن:٢٧٦.

[٥] المحرر الوجيز:١٥١/٦.

[٦] انظر: النكت والعيون:٢٢/٢.

[٧] انظر: النكت والعيون:٢٢/٢.

[٨] انظر: تفسير المراغي:٨٠/٦-٨١.

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)} [المائدة: ١٧]

التفسير:

لقد كفر النصارى القائلون بأن الله هو المسيح بن مريم، قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجهلة من النصارى: لو كان المسيح إلهًا كما يدَّعون لقَدرَ أن يدفع قضاء الله إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أُمِّه ومَن في الأرض جميعًا، وقد ماتت أم عيسى فلم يدفع عنها الموت، كذلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه؛ لأنهما عبدان من عباد الله لا يقدران على دفع الهلاك عنهما، فهذا دليلٌ على أنه بشر كسائر بني آدم. وجميع الموجودات في السماوات والأرض ملك لله، يخلق ما يشاء ويوجده، وهو على كل شيء قدير.

سبب النزول:

قال مقاتل:" نزلت فى نصارى نجران المار يعقوبيين منهم السيد والعاقب وغيرهما"[١].

أخرج الطبري[٢]، وابن المنذر عن ابن جريج[٣]، في قوله جل وعز: " {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم} قال: بلغنا أن نصارى نجران قدم وفدهم على النبي ﷺ بالمدينة منهم السيد، والعاقب، وأخبرت أن معهما عبد المسيح، وهما يومئذ سيدا أهل نجران، فقالوا: يا محمد فيم تشتم صاحبنا؟ قال: " ومن صاحبكم "، قالوا: عيسى بن مريم، تزعم أنه عبد، قال النبي ﷺ: " أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم "، فغضبوا، وقالوا: إن كنت صادقا فأرنا عبدا يحيي الموتى يبرئ الأكمه، والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، ولكنه الله، فسكت النبي ﷺ حتى جاءه جبريل عليهما السلام، فقال: يا محمد {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم} هذه الآية قال النبي ﷺ: " إنهم قد سألوني أن أخبرهم مثل عيسى "، قال جبريل: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون إلى قوله: فمن حاجك فيه}"[٤].

قوله تعالى:{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} [المائدة: ١٧]، أي:" لقد كفر النصارى القائلون بأن الله هو المسيح بن مريم"[٥].

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه: أقسم، لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، و«كفرهم»في ذلك، تغطيتهم الحقّ في تركهم نفي الولد عن الله جل وعز، وادِّعائهم أن المسيح هو الله، فرية وكذبًا عليه، [و]هذا ذمٌّ من الله عز ذكره للنصارى والنصرانية، الذين ضلُّوا عن سبل السلام واحتجاجٌ منه لنبيه محمد ﷺ في فِرْيتهم عليه بادّعائهم له ولدًا"[٦].

قال عبدالقاهر الجرجاني:" دخل في [الآية] كل نصراني اعتقد أن المسيح أو شيء فيه حادث غير محدث، أو ادعى ثلاث أقنومات أو أقنومين"[٧].

قال الزمخشري:" قولهم:{إن الله هو المسيح}، معناه بت القول، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير، قيل: كان في النصارى قوم يقولون ذلك. وقيل: ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدى إليه، حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيى ويميت ويدبر أمر العالم"[٨].

قال البيضاوي:" هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل: لم يصرح به أحد منهم ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتا وقالوا لا إله إلا الله واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم توضيحا لجهلهم وتفضيحا لمعتقدهم"[١].

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان١/٤٦٣.

[٢] انظر: تفسير الطبري(٧١٦٤):ص٦/٤٧٠.

[٣] انظر:تفسير ابن المنذر(٥٣٨):ص١/٢٢٤-٢٢٥.واللفظ له.

[٤] تفسير ابن المنذر(٥٣٨):ص١/٢٢٤-٢٢٥.

[٥] التفسير الميسر:١١٠.

[٦] تفسير الطبري١٠/١٤٦.

[٧] درج الدرر في تفسير الآي والسور:٢/٦٥٩.

[٨] الكشاف:١/٦١٧.

وفي تسميته بالمسيح أقوال:
أحدها: أنه سمّي بذلك لكثرة سياحته. حكاه ابن كثير عن بعض السلف[٢].
والثاني:لأنه مُسِحَ بالبركة، وهذا قول الحسن[٣] وسعيد[٤].
والثالث:أنه مُسِحَ بالتطهر من الذنوب. وأن المسيح: الصدّيق. قاله إبراهيم[٥] وهو اختيار الإمام الطبري[٦].
والرابع: وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أَخْمَص لهما[٧].
والخامس: وقيل: المسيح بمعنى الماسح، لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى، فيمسح عين الأعمى والأعور فيبصر[٨] .
والسادس. ان المسيح: الملك. قاله الكلبي[٩]، وأبو عمرو بن علاء[١٠].
والسابع: وقيل: لأنه خرج من بطن أمه ممسوحا بالدهن. قاله أبو سليمان الدمشقي[١١].
والثامن: أن المسيح ضد المسيخ، يقال: مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا، ومسخه أي خلقه خلقا ملعونا قبيحا. قاله أبو الهيثم[١٢].
والتاسع: وقيل: أن المسيح أصله بالعبرانية "مشيحا" بالشين، فعرّب كما عرّب: موشى بموسى. قاله أبو عبيدة[١٣].
والقول الأول أشهر، وعليه الأكثر، فـ"سمي به، لأنه يسيح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبئت المقدس، فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول[١٤]. ومنه قول الشاعر[١٥]:
إنَّ الْمَسِيحَ يَقْتُلُ الْمَسِيحَا
قوله تعالى:{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [المائدة: ١٧]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء الجهلة من النصارى: لو كان المسيح إلهًا كما يدَّعون لقَدرَ أن يدفع قضاء الله إذا جاءه بإهلاكه وإهلاك أُمِّه ومَن في الأرض جميعًا"[١٦].
قال مقاتل:" قل لهم يا محمد: فمن يقدر أن يمتنع من الله شيئا من شيء من عذابه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا بعذاب أو بموت فمن الذي يحول بينه وبين ذلك"[١٧].

---

[١] تفسير البيضاوي:١٢٠/٢.
[٢] تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
[٣] انظر: تفسير الطبري(٧٠٦٤)، و(٧٠٦٥):ص٤١٤/٦.
[٤] انظر: تفسير الطبري(٧٠٦٦):ص٤١٤/٦.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٩٤/١.
[٦] انظر: تفسير الطبري:٤١٤/٦.
[٧] تفسير ابن كثير:٤٣/٢.
[٨] انظر: تفسير ابن كثير:٤٣/٢، وتفسير الماتريدي:٣٧١/٢، وتفسير السمرقندي:٣١٢/١.
[٩] انظر: تفسير السمرقندي:٣١٢/١.
[١٠] انظر: تفسير الثعلبي:٦٨/٣.
[١١] انظر: زاد المسير:٣٣١/١، وتفسير الثعلبي:٦٨/٣. لم ينسبه الثعلبي.
[١٢] انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.
[١٣] انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.
[١٤] انظر: تفسير القرطبي:٨٩/٤.
[١٥] البيت من شواهد الثعلبي في تفسيره:٦٩/٣، والقرطبي في تفسيره:٨٩/٤، ولم أتعرف على قائله فيما توفرت لديّ من المصادر.
[١٦] التفسير الميسر:١١٠.
[١٧] تفسير مقاتل بن سليمان٤٦٣/١.

قال الثعلبي:" أي: من يطيق أن يدفع من أمر الله شيئا فيرده إذا أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا"(١).

قال الزمخشري:أي:" فمن يمنع من قدرته ومشيئته شيئا إن أراد أن يهلك من دعوه إلها من المسيح وأمه دلالة على أن المسيح عبد مخلوق كسائر العباد، وأراد بعطف {من في الأرض} على: {المسيح ابن مريم وأمه} أنهما من جنسهم لا تفاوت بينهما وبينهم في البشرية"(٢).

قال القرطبي:" أي: فمن يقدر أن يمنع من ذلك شيئا؟ فأعلم الله تعالى أن المسيح لو كان إلها لقدر على دفع ما ينزل به أو بغيره، وقد أمات أمه ولم يتمكن من دفع الموت عنها، فلو أهلكه هو أيضا فمن يدفعه عن ذلك أو يرده"(٣).

قال ابن عطية:" أي: لا مالك ولا راد لإرادة الله تعالى في المسيح ولا في غيره فهذا مما تقضي العقول معه أن من تنفذ الإرادة فيه ليس بإله"(٤).

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [المائدة: ١٧]، أي:" وجميع الموجودات في السماوات والأرض ملك لله"(٥).

قال الطبري:أي:" والله له تصريف ما في السموات والأرض وما بينهما"(٦).

قال مقاتل:" يقول: إليه سلطان السموات والأرض وما بينهما من الخلق، {يخلق ما يشاء}، يعني: عيسى شاء أن يخلقه من غير بشر"(٧).

قال القرطبي: أي: "والمسيح وأمه بينهما مخلوقان محدودان محصوران، وما أحاط به الحد والنهاية لا يصلح للإلهية"(٨).

قال ابن عطية:" ثم قرر تعالى ملكه في السموات والأرض وما بينهما فحصل المسيح عليه السلام أقل أجزاء ملك الله تعالى"(٩).

قال عبدالقاهر الجرجاني:" وإنما خصّ[السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ]، لاستيعاب غاية جهات فوق و غاية جهات تحت {وَمَا بَيْنَهُمَا} من الحيوان والنبات وغيرهما"(١٠).

قال السمعاني:" فيه إشارة إلى أن المستحق للألوهية من له ملك السموات، ومن له هذه القدرة فإياه فاعبدوا"(١١).

وقد ذكر{السموات} بلفظ الجمع، ولم يقل:"وما بينهن"، لأن المعنى: وما بين هذين النوعين من الأشياء، كما قال الراعي(١٢):

---

(١) تفسير الثعلبي:٣٩/٤ -٤٠.
(٢) الكشاف:٦١٧/١.
(٣) تفسير القرطبي:١١٩/٦.
(٤) المحرر الوجيز:١٧١/٢.
(٥) التفسير الميسر:١١٠.
(٦) تفسير الطبري:١٤٨/١٠.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان٤٦٣/١.
(٨) تفسير القرطبي:١١٩/٦.
(٩) المحرر الوجيز:١٧١/٢.
(١٠) درج الدرر:٦٦٠/٢.
(١١) تفسير السمعاني:٢٤/٢.
(١٢)من قصيدته في جمهرة أشعار العرب: ١٧٣، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١١٨، ١٦٠، يقول لابنته خليدة:
لَمَّا رَأَتْ أَرَقِي وَطُولَ تَلَدُّدِي ... ذَاتَ الْعِشَاءِ وَلَيْلِي الْمَوْصُولا
قَالَتْ خُلَيْدَةُ: مَا عَرَاكَ، وَلَمْ تَكُنْ ... أَبَدًا إِذَا عَرَتِ الشُّئُونُ سَؤُولا
أَخُلَيْدَ، إِنَّ أَبَاكِ ضَافَ وِسَادَهُ ... هَمَّان باتَا جَنْبَةً وَدَخِيلا
طَرَقًا، فَتِلْكَ هَمَا هِي.... ... .
"الهماهم": الهموم. و"قلص" جمع"قلوص": الفتية من الإبل."لواقح": حوامل، جمع"لاقح". و"الحول"، جمع"حائل"، وهي الناقة التي لم تحمل سنة أو سنتين أو سنوات، وكذلك كل حامل ينقطع عنها الحمل. يقول: أجعل قرى هذه الهموم، نوقًا هذه صفاتها، كأنها قسى موترة من طول أسفارها، فأضرب بها الفيافي.

طَرَقًا، فَتِلْكَ هَمَاهِمِي، أَقْرِيهِمَا   قُلُصًا لَوَاقِحَ كَالقِسِيِّ وَحُولا
فقال:"طرقا"، مخبِرًا عن شيئين، ثم قال:"فتلك هَمَاهمي"، فرجع إلى معنى الكلام(١).
قوله تعالى:{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} [المائدة: ١٧]، أي:" يخلق ما يشاء ويوجده"(٢).
قال مقاتل:" من خلق عيسى من غير بشر وغيره من الخلق"(٣).
قال الزمخشري:أي:" أى يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم. أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك. فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده"(٤).
قال الطبري:أي:" وينشئ ما يشاء ويوجده، ويخرجُه من حال العدم إلى حال الوجود، ولن يقدر على ذلك غير الله الواحد القهَّار. وإنما يعني بذلك، أنّ له تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفناءه وإعدامه، وإيجادَ ما يشاء مما هو غير موجود ولا مُنْشأ. يقول: فليس ذلك لأحد سواي، فكيف زعمتم، أيها الكذبة، أنّ المسيح إله، وهو لا يطيق شيئا من ذلك، بل لا يقدر على دفع الضرَر عن نفسه ولا عن أمه، ولا اجتلابِ نفع إليها إلا بإذني؟"(٥).
قال ابن عطية:" قوله تعالى: {يخلق ما يشاء}- إشارة إلى خلقه المسيح في رحم مريم من غير والد. بل اختراعا كآدم عليه السلام"(٦).
قال السمرقندي:" ثم قال:{يخلق ما يشاء}، لأن نصارى أهل نجران كانوا يقولون: لو كان عيسى بشرا كان له أب، فأخبر الله تعالى على أنه قادر على أن يخلق خلقا بغير أب"(٧).
قال عبدالقاهر الجرجاني:قوله::{يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} " يدل على أنه يخلق اختيارًا واقتدارًا من غير احتياج واضطرار"(٨).
قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]، أي:" وَاللَّه عَلَى كُلّ شيْء قَدِيرٌ فلا يعجزه شيء"(٩).
قال ابن عطية:" عموم معناه الخصوص في ما عدا الذات والصفات والمحالات، و«الشيء» في اللغة هو الموجود"(١٠).
قال الطبري:أي:" الله المعبودُ، هو القادر على كل شيء، والمالك كلَّ شيء، الذي لا يعجزُه شيء أراده، ولا يغلبه شيء طلبه، المقتدرُ على هلاك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا، لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضُرّ نزل به من الله، ولا منْعِ أمّه من الهلاك"(١١).
قال الرازي:" في الآية سؤال، وهو أن أحدا من النصارى لا يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به.
وجوابه: أن كثيرا من الحلولية يقولون: إن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين، أو في روحه، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال: إن قوما من النصارى ذهبوا إلى هذا القول، بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون: أن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام،

---

(١) انظر: تفسيرالطبري:١٠/١٤٨-١٤٩.
(٢) التفسير الميسر:١١٠.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان١/٤٦٣.
(٤) الكشاف:١/٦١٨.
(٥) تفسير الطبري:١٠/١٤٩.
(٦) المحرر الوجيز:٢/١٧١.
(٧) بحر العلوم:١/٣٧٩.
(٨) درج الدرر:٢/٦٦٠.
(٩) التفسير الميسر:١١٠، وصفوة التفاسير:٣٠٨.
(١٠) المحرر الوجيز:٢/١٧١.
(١١) تفسير الطبري:١٠/١٤٩.

فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتا أو صفة، فإن كان ذاتا فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول"(١).

الفوائد:

١- مواجهة القرآن الكريم للوثنيات التي تسربت إلى المسيحية، وهي ثنيات تتشابه وتتشابك في الشكل والموضوع، فسجل كفر النصارى وقولهم إن المسيح هو الله.

٢-كفر من ينسب إلى الله تعالى ما هو منزه عنه من سائر النقائص، وفي الآية الرد على شبه النصارى وأكاذيبهم.

٣- أن كل ما سوى الله فقير إليه لذاته وكل من في السموات والأرض عبيد له مقهورون لقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته والهيته مثقال ذرة.

٤-إن حقيقة التوحيد توجب تفرُّد الله تعالى بصفات الربوبية والألوهية، فلا يشاركه أحد من خلقه في ذلك، وكثيرًا ما يقع الناس في الشرك والضلال بغلوهم في الأنبياء والصالحين، كما غلا النصارى في المسيح، فالكون كله لله، والخلق بيده وحده، وما يظهر من خوارق وآيات مَرَدُّه إلى الله. يخلق سبحانه ما يشاء، ويفعل ما يريد.

٢-ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"(٢).

القرآن

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)} [المائدة: ١٨]

التفسير:

وزعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، قل لهم -أيها الرسول-: فَلأيِّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، فالله لا يحب إلا من أطاعه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، إن أحسنتُم جوزيتم بإحسانكم خيرا، وإن أسَأْتُم جوزيتم بإساءتكم شرًّا، فالله يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو مالك الملك، يُصَرِّفه كما يشاء، وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلا بما يستحق.

سبب النزول:

قال ابن عباس-رضي الله عنهما-:"أتى رسول الله - ﷺ - نعمان بن أُحي وبحري بن عمرو وشاس بن عدي، فكلموه؛ فكلمهم رسول الله - ﷺ - ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى؛ فأنزل الله -جل وعزّ- فيهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} إلى آخر الآية"(٣). [ضعيف]

قوله تعالى:{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة: ١٨]، أي:" وزعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه"(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب:١١/٣٢٧-٣٢٨.

(٢) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.

(٣)أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان(١١٦١٣):ص١٠/١٥٠، وابن أبي حاتم وابن المنذر؛ كما في تفسير ابن كثير:٣/٦٩، و"الدر المنثور" ٣/ ٤٤، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة"(٥٤١٢)٤ص/ ٢١٥٧، والبيهقي في "الدلائل" (٢/ ٥٣٥ - ضمن حديث طويل) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق؛ كما قال الحافظان الذهبي والعسقلاني.

(٤) التفسير الميسر:١/١١١.

قال النسفي:" أي أعزة عليه كالابن على الأب أو أشياع ابني الله عزير والمسيح كما قيل لأشباع أبي خبيب وهو عبد الله بن الزبير الخبيبيون كما كان يقول رهط مسيلمة نحن أبناء الله ويقول أقرباء الملك وحشمه نحن أبناءالملوك أو نحن أبناء رسل الله"(١).

قال السدي:" أما أبناء الله ، فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدًا من ولدك، أدخلهم النار، فيكونون فيها أربعين يومًا حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ: أن أخرجوا كل مختون من ولدِ إسرائيل، فأخرجهم. فذلك قوله: {لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}[سورة آل عمران: ٢٤]. وأما النصارى، فإن فريقًا منهم قال للمسيح: ابن الله"(٢).

وعن السدي ايضا:" أما قولهم: { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك - بكرك من الولد - فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم يناد مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل. فأخرجوهم، فذلك قولهم: { لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ } [آل عمران: ٢٤]"(٣).

قال السعدي:" والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح"(٤).

والعرب قد تخرج الخبرَ، إذا افتخرت، مخرجَ الخبر عن الجماعة، وإن كان ما افتخرت به من فعل واحد منهم، فتقول: نحن الأجواد الكرام ، وإنما الجواد فيهم واحدٌ منهم، وغير المتكلِّم الفاعلُ ذلك، كما قال جرير(٥):

نَدَسْنَا أَبَا مَنْدُوسَةَ القَيْنَ بِالقَنَا وَمَارَ دَمٌ مِنْ جَارِ بَيْبَةَ نَاقِعُ

فقال: نَدَسْنَا ، وإنما النادس رجل من قوم جريرٍ غيرُه، فأخرج الخبر مخرج الخبر عن جماعة هو أحدهم. فكذا أخبر الله عزّ ذكره عن النصارى أنها قالت ذلك، على هذا الوجه(٦).

قوله تعالى:{قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} [المائدة: ١٨]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: فَلأيِّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، فالله لا يحب إلا من أطاعه"(٧).

قال السعدي:أي:" فلو كنتم أحبابه ما عذبكم لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه"(٨).

قال النسفي:" أي: فإن صح أنكم أبناء الله وأحباؤه فلم تعذبون بذنوبكم بالمسخ والنار أياماً معدودة على زعمكم وهل يمسخ الأب ولده وهل يعذب الوالد ولده بالنار"(٩).

قال أبو السعود:" أي: إن صح ما زعمتم فلأي شيء يعذبكم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ وقد عرفتم بأنه تعالى سيعذبكم في الآخرة بالنار أياما بعدد أيام عبادتكم العجل ولو كان الأمر كما زعمتم لما صدر عنكم ما صدر ولما وقع عليكم"(١٠).

قوله تعالى:{بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ} [المائدة: ١٨]، أي:" وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم"(١١).

---

(١) تفسير النسفي:٤٣٧/١.

(٢) أخرجه الطبري(١١٦١٤):ص١٥١/١٠.

(٣)رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، كما في تفسير ابن كثير:٦٩/٣-٧٠.

(٤) تفسير السعدي:٢٢٧.

(٥) . ديوانه : ٣٧٢ ، والنقائض : ٦٩٣ ، واللسان (بيب) (مور) (ندس). و ندس : طعن طعنًا خفيفًا. و أبو مندوسة ، هو مرة بن سفيان بن مجاشع ، جد الفرزذق. قتلته بنو يربوع - قوم جرير - في يوم الكلاب الأول. و القين لقب لرهط الفرزدق ، يهجون به. و جاربيبة ، هو الصمة بن الحارث الجشمي ، قتله ثعلبة بن حصبة ، وهو في جوار الحارث بن بيبة بن قرط بن سفيان بن مجاشع ، من رهط الفرزدق. و مار الدم على وجه الأرض : جرى وتحرك فجاء وذهب. و دم ناقع ، أي : طري لم ييبس.

(٦) انظر: تفسير الطبري:١٥١/١٠-١٥٢.

(٧) التفسير الميسر:١١١/١.

(٨) تفسير السعدي:٢٢٧.

(٩) تفسير النسفي:٤٣٧/١.

(١٠) تفسير أبي السعود:٢١/٣.

(١١) التفسير الميسر:١١١/١.

قال النسفي:" أي: أنتم خلق من خلقه لا بنوه"[١].
قال أبو السعود:" أي: لستم كذلك بل أنتم بشر من جنس من خلقه الله تعالى من غير مزية لكم عليهم"[٢].
قال ابن كثير:" أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالى هو الحاكم في جميع عباده"[٣].
قال الطبري:أي:" قل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه بل أنتم بشر ممن خلق ، يقول: خلق من بني آدم، خلقكم الله مثل سائر بني آدم، إن أحسنتم جُوزيتم بإحسانكم ، كما سائر بني آدم مجزيُّون بإحسانهم، وإن أسأتم جوزيتم بإساءتكم، كما غيركم مجزيٌّ بها، ليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه، فإنه يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان به ذنوبَه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها"[٤].
قال السعدي:اي:" تجري عليكم أحكام العدل والفضل"[٥].
قال القرطبي:" فرد عليهم قولهم فقال: {فلم يعذبكم بذنوبكم}، فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين:

- إما أن يقولوا: هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذا أبناءه وأحباءه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرون بعذابه، فذلك دليل على كذبكم- وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف- .
- أو يقولوا: لا يعذبنا، فيكذبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم، ويبيحوا المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم.

وقيل: معنى{يعذبكم} عذبكم، فهو بمعنى المضي، أي فلم مسخكم قردة وخنازير؟ ولم عذب من قبلكم من اليهود والنصارى بأنواع العذاب وهم أمثالكم؟ لأن الله سبحانه لا يحتج عليهم بشيء لم يكن بعد، لأنهم ربما يقولون لا نعذب غدا، بل يحتج عليهم بما عرفوه"[٦].
قوله تعالى:{يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [المائدة: ١٨]، أي:" فالله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء"[٧].
قال السدي:" يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذِّبه"[٨].
قال السعدي:اي:" إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب"[٩].
قال الطبري:أي:" يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان به ذنوبَه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته، فلا يعاقبه بها، ويعدل على من يشاء من خلقه فيعاقبه على ذنوبه، ويفضَحه بها على رءوس الأشهاد فلا يسترها عليه"[١٠].
قال أبو السعود: "{يغفر لمن يشاء} أن يغفر له من أولئك المخلوقين وهم الذين آمنوا به تعالى وبرسله {ويعذب من يشاء} أن يعذبه منهم وهم الذين كفروا به وبرسله مثلكم"[١١].
قال ابن كثير:" أي: هو فعال لما يريد، لا مُعَقِّب لحكمه وهو سريع الحساب "[١٢].

---

[١] تفسير النسفي:٤٣٧/١.
[٢] تفسير أبي السعود:٢١/٣.
[٣] تفسير ابن كثير:٦٩/٣.
[٤] تفسير الطبري:١٥٢/١٠-١٥٣.
[٥] تفسير السعدي:٢٢٧.
[٦] تفسير القرطبي:١٢٠/٦-١٢١.
[٧] التفسير الميسر:١١١/١.
[٨] أخرجه الطبري(١١٦١٥):ص١٥٤/١٠.
[٩] تفسير السعدي:٢٢٧.
[١٠] تفسير الطبري:١٥٣/١٠.
[١١] تفسير أبي السعود:٢١/٣.
[١٢] تفسير ابن كثير:٦٩/٣.

قوله تعالى:{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [المائدة: ١٨]، أي:" وجميع الموجودات في السماوات والأرض ملك لله"[١].

قال النسفي:" فيه تنبيه على عبودية المسيح لأن الملك والنبوة متنافيان"[٢].

قال الطبري:أي:" لله تدبيرُ ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وتصريفُه، وبيده أمره، وله ملكه، يصرفه كيف يشاء، ويدبره كيف أحبّ، لا شريك له في شيء منه، ولا لأحدٍ معهُ فيه ملك"[٣].

قال ابن كثير:" أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه"[٤].

قال السعدي:" أي: فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة المماليك"[٥].

قال أبو السعود: أي:"من الموجودات لا ينتمي إليه سبحانه شيء منها إلا بالملوكية والعبودية والمقهورية تحت ملكوته يتصرف فيهم كيف يشاء إيجادا وإعداما وإحياء وايماتة وايثابة وتعذيبا فأنى لهم ادعاء ما زعموا"[٦].

قوله تعالى:{وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]، أي:" وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلا بما يستحق"[٧].

قال القرطبي:" أي: يئول أمر العباد إليه في الآخرة"[٨].

قال ابن كثير:" أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور"[٩].

قال الطبري:أي:" وإليه مصير كل شيء ومرجعه. فاتَّقوا أيها المفترون، عقابَه إياكم على ذنوبكم بعد مرجعكم إليه، ولا تغتروا بالأمانيّ وفضائل الآباء والأسلاف"[١٠].

قال أبو السعود: أي:" في الآخرة خاصة لا إلى غيره استقلال أو اشتراكا فيجازي كلا من المحسن والمسيء بما يستدعيه عمله من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه"[١١].

قال السعدي:أي: وانتم "من جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم"[١٢].

قال الحسن البصري: " ابن آدم! لا يغرنك أن تقول: المرء مع من أحب؛ فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، وإن اليهود والنصارى ليحبون أنبياءهم، ولا والله؛ ما يحشرون معهم، ولا يدخلون في زمرتهم، وإنهم لحطب جهنم هم لها واردون "[١٣].

الفوائد:

١- بطلان دعوى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه بالدليل العقلي.

٢- نسبة المخلوقات لله تعالى لا تتجاوز كونها مخلوقة له مملوكة يتصرف فيها كما شاء ويحكم فيها بما يريد.

٣- تحريف اليهود والنصارى لمفهوم علاقة البشرية بالله إلى بنوة-والعياذ بالله-

٤-يستفاد من الآية: أن المحبة نوعان:

---

[١] التفسير الميسر:١١٠.
[٢] تفسير النسفي:٤٣٧/١.
[٣] تفسير الطبري:١٥٤/١٠.
[٤] تفسير ابن كثير:٦٩/٣.
[٥] تفسير السعدي:٢٢٧.
[٦] تفسير أبي السعود:٢١/٣.
[٧] التفسير الميسر:١١١/١.
[٨] تفسير القرطبي:١٢١/٦.
[٩] تفسير ابن كثير:٦٩/٣.
[١٠] تفسير الطبري:١٥٤/١٠.
[١١] تفسير أبي السعود:٢١/٣.
[١٢] تفسير السعدي:٢٢٧.
[١٣]نقله ابن الجوزي في " رسالته " :٣٢.

أحدهما: المحبة الشكرية: وهي كل محبة تغر في الدين وتبعث على الاكتفاء بها دون الجد في الصالحات وتحري المشروع منها، ولا تثمر ربط القلوب وصلتها بعضها ببعض إذا اتحدت على الشهادتين، ولا توجب النفور من كل من يحاول هدم تعاليم الإسلام، ولا تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا تعود صاحبها على استعذاب العذاب في خدمة المبدإ الحق المجمل في الشهادتين، وهذه المحبة الشركية هي التي ردها الله على مشركي قريش وضلال اليهود والنصارى بآية آل عمران المتقدمة، وبقوله في المائدة: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} [المائدة: ١٨].

والثاني: المحبة الشرعية: وهي المبنية على الإيمان والعمل الصالح، وأنها النجاة من العذاب، وأفاد حديث " الصحيحين " عن أنس رضي الله عنه؛ أنه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» [١].

وقد نقل في " كشف الخفاء " عن بعض العلماء بعدما أورد حديث «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ» ورواياته أنه: " مشروط بشرط، وعنى - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أنه إذا أحبهم عمل بمثل أعمالهم "[٢].

وفي هذا المعنى قال عبدالله بن المبارك[٣]:

تعصي الإلهَ وأنت تزعُمُ حُبَّه هذا لعَمْرِي في القياسِ شَنيعُ
لو كانَ حُبُّك صادقًا لأطعتَه إنَّ المُحِبَّ لمن يُحبُّ مطيعُ

قال السمرقندي:" والحب لله أن يطيعوه في أمره وينتهوا عن نهيه، فكل من كان أطوع لله فهو أشد حبا له"[٤].

وحكى عن البيهقي، "أن رجلًا من أهل بغداد سأل أبا عثمان الواعظ: متى يكون الرجل صادقاً في حب مولاه؛ فقال: إذا خلا من خلافه كان صادقاً في حبه، فوضع الرجل التراب على رأسه وصاح وقال: كيف أدعي حبه ولم أخل طرفة عين من خلافه؟! فبكى أبو عثمان وأهل المجلس، وصار أبو عثمان يقول في بكائه: صادق في حبه، مقصر في حقه"[٥].

القرآن

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)} [المائدة: ١٩]

التفسير:

يا أيها اليهود والنصارى قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ، يُبيِّن لكم الحق والهدى بعد مُدَّة من الزمن بين إرساله بإرسال عيسى ابن مريم؛ لئلا تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فلا عُذرَ لكم بعد إرساله إليكم، فقد جاءكم من الله رسولٌ يبشِّر مَن آمن به، ويُنذِر مَن عصاه. والله على كل شيء قدير من عقاب العاصي وثواب المطيع.

سبب النزول:

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "قال معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب لليهود: يا معشر اليهود اتقوا الله؛ فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهودا: ما قلنا هذا لكم، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيراً ولا نذيراً بعده؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ- في قولهما:

---

[١] رواه البخاري (١٠/ ٥٥٧/ ٦١٦٨ و٦١٦٩ و٦١٧٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٤/ ٢٦٤٠ و٢٦٤١).
[٢] كشف الخفاء:٢٠٣/٢.
[٣] تهذيب الكمال: ٦/ ٣٦٠، وتاريخ دمشق: ٣٢/ ٤٦٩.
[٤] بحر العلوم:١١١/١.
[٥] كشف الخفاء:٢٠٣/٢.

{يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(1). [ضعيف]

قوله تعالى:{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} [المائدة: ١٩]، أي:" يا أيها اليهود والنصارى"(2).

قال ابن عطية:" خطاب لليهود والنصارى"(3).

قوله تعالى:{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ} [المائدة: ١٩]، أي:" قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ، يُبيِّن لكم الحق والهدى بعد مُدَّة من الزمن بين إرساله بإرسال عيسى ابن مريم "(4).

قال السمعاني:" أي: على انقطاع من الرسل"(5).

قال الزمخشري:" أى: جاءكم على حين فتور من إرسال الرسل وانقطاع من الوحى"(6).

قال الزجاج:" {على فترة من الرسل}، أي: على انقطاع، لأن النبي - ﷺ - بعث بعد انقطاع الرسل لأن الرسل كانت إلى وقت رفع عيسى تترى، أي متواترة، يجيء بعضها في إثر بعض"(7).

قال القرطبي:{ عَلَى فَتْرَةٍ }:"أي سكون، يقال فتر الشيء سكن.

وقيل:{على فترة} على انقطاع ما بين النبيين، عن أبي علي وجماعة أهل العلم، حكاه الرماني، قال: والأصل فيها انقطاع العمل عما كان عليه من الجد فيه، من قولهم: فتر عن عمله وفترته عنه، ومنه فتر الماء إذا انقطع عما كان من السخونة إلى البرد، وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر، وفتور البدن كفتور الماء، والفتر ما بين السبابة والإبهام إذا فتحتهما، والمعنى، أي: مضت للرسل مدة قبله"(8).

والمشهور أن:{ على فترة}، أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى بن مريم، وقد اختلفوا في مقدار هذه المدة، على أقوال:

أحدها: أنها كانت ستمائة سنة. وهذا قول أبو عثمان النَّهْديّ(9)، وقتادة - في رواية عنه-(10).

والثاني:أنها كانت خمسمائة وستون سنة. وهذا مروي عن سلمان الفارسي، وقتادة أيضا(11).

والثالث: أنها خمسمائة وأربعون سنة. وهذا قول معمر عن بعض اصحابه(12).

والرابع:أنها كانت أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. قاله الضحاك(13).

والخامس: وذكر ابن عساكر في ترجمة عيسى، -عليه السلام- عن الشعبي أنه قال: "ومنْ رفع المسيح إلى هجرة النبي ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة"(14).

---

(1)أخرجه ابن إسحاق في المغازي -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١١٦١٦):ص١٥٥/١٠، وابن أبي حاتم وابن المنذر؛ كما في "الدر المنثور" (٣/ ٤٥)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٥٣٥)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٤/ ٢١٥٧ رقم ٥٤١٢) -: ثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وسنده ضعيف، لجهالة شيخ ابن إسحاق؛ كما قال الحافظان الذهبي والعسقلاني.

(2) التفسير الميسر:١١١.

(3) المحرر الوجيز:١٧٢/٢.

(4) التفسير الميسر:١١١.

(5) تفسير السمعاني:٢٤/٢.

(6) الكشاف:٦١٩/١.

(7) معاني القرآن:١٦٢/٢.

(8) تفسير القرطبي:١٢١/٦.

(9) انظر: تفسير ابن كثير:٧٠/٣، و تفسير السمعاني:٢٤/٢.

(10) انظر: تفسير ابن كثير:٧٠/٣.

(11) انظر: تفسير الطبري(١١٦١٨):ص١٥٦/١.

(12) انظر: تفسير الطبري(١١٦٢٠):ص١٥٧/١.

(13) انظر: تفسير الطبري(١١٦٢١):ص١٥٧/١.

(14)) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠/١٤ القسم المخطوط)، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٨٦/٢٠).

والسادس: قال الكلبي: "كان بين موسى وعيسى ألف وسبعمائة سنة وألف نبى وبين عيسى ومحمد صلوات الله عليهم أربعة أنبياء، ثلاث من بنى إسرائيل، وواحد من العرب: خالد بن سنان العبسي[1]"[2].

وأشهر الأقوال أنها ستمائة سنة[3]. والله أعلم.

قوله تعالى:{أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} [المائدة: ١٩]، أي:" ؛ لئلا تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فلا عُذرَ لكم بعد إرساله إليكم"[4].

قال البيضاوي:أي:" كراهة أن تقولوا ذلك وتعتذروا به"[5].

قال القرطبي:" أي لئلا أو كراهية أن تقولوا،{ما جاءنا من بشير}، أي: مبشر، {ولا نذير}، أي: منذر"[6].

قال الطبري:" يقول: قد جاءكم رسولنا يبين لكم الحق والهدى، على انقطاع من الرسل"[7].

قال المراغي:" أي إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين"[8].

قال الزمخشري:" أى: لا تعتذروا فقد جاءكم... والمعنى: الامتنان عليهم، وأن الرسول بعث إليهم حين انطمست آثار الوحى أحوج ما يكون إليه، ليهشوا إليه ويعدوه أعظم نعمة من الله، وفتح باب إلى الرحمة، وتلزمهم الحجة فلا يعتلوا غدا بأنه لم يرسل إليهم من ينبههم عن غفلتهم"[9].

قال الكوفيون: "معناه: أن لا تقولوا: وقال البصريون معناه: كراهة أن تقولوا"[10].

قال الزجاج:" قال بعضهم: معناه: أن لا تقولوا ما جاءنا من بشير، أي بعث الله النبي - ﷺ - لئلا تقولوا ما جاءنا من بشير، ومثله قوله عز وجل: { يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦]، معناه: أن لا تضلوا.

وقال بعضهم: أن تقولوا: معناه كراهة أن تقولوا، وحذفت كراهة، كما قال جل وعز: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢]، معناه: سل أهل القرية"[11].

قوله تعالى:{فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ} [المائدة: ١٩]، أي:" فقد جاءكم من الله رسولٌ يبشِّر مَن آمن به، ويُنذِر مَن عصاه"[12].

قال البيضاوي: "أي: لا تعتذروا بـ{ما جاءنا}، فقد جاءكم"[13].

---

[1] يروى من حديث عن ابن عباس: أنه جاءت بنت خالد بن سنان إلى النبي عليه السّلام، فبسط لها ثوبه، وقال: «بنت نبي ضيّعه قومه». ينظر: مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٤١٣، والطبقات الكبرى ١/ ٢٩٦ والمعجم الكبير للطبراني (١٢٢٥٠)، ومعجم السفر، وانظر: البدء والتاريخ ٣/ ٦، والكامل ١/ ٢٩١.

وإسناده ضعيف، لضعف قيس بن الربيع.

وهو معارض بحديث «أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياء أبناء علات، وليس بيني وبين عيسى نبي» .

- أخرجه البخاري ٣٤٤٣ ومسلم ٢٣٦٥ وأحمد ٢/ ٣١٩ وغيرهم من حديث أبي هريرة.

- فهذا يرد الحديث المتقدم، بل ولا يصح ثبوت نبوة رجل بخبر ضعيف.

[2] الكشاف:٦١٩/١.

[3] انظر: تفسير ابن كثير:٧٠/٣.

[4] التفسير الميسر:١١١.

[5] تفسير البيضاوي:١٢١/٢.

[6] تفسير القرطبي:١٢٢/٦.

[7] تفسير الطبري:١٥٦/١٠.

[8] تفسير المراغي:٨٦/٦.

[9] الكشاف:٦١٩/١.

[10] تفسير السمعاني:٢٤/٢.

[11] معاني القرآن:١٦٢/٢.

[12] التفسير الميسر:١١١.

[13] تفسير البيضاوي:١٢١/٢.

قال المراغي:أي:" يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية، وأنها منوطة بالإيمان والأعمال، وأن الله لا يحابى أحدا"[١].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٩]، أي:" والله على كل شيء قدير من عقاب العاصي وثواب المطيع"[٢].

قال القرطبي:" أي: على إرسال من شاء من خلقه. وقيل: قدير على إنجاز ما بشر به وأنذر منه"[٣].

قال البيضاوي:" وفي الآية امتنان عليهم بأن بعث إليهم حين انطمست آثار الوحي وكانوا أحوج ما يكونون إليه"[٤].

قال المراغي:" ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ وإعلاء كلمته فى الدنيا، وفى ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى الأحلام إلى ما يكون له من المنزلة فى الدار الآخرة"[٥].

الفوائد:

١-أن الله تعالى قد أرسل رسوله محمدا صلّى الله عليه وسلم إلى اليهود والنصارى وغيرهم من العرب والعجم فكان خاتم النبيين المعقب لهم.

٢-قطع عذر أهل الكتاب بإرسال الرسول محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حين فترة من الرسل.

٣-ومن الفوئاد: أنه لن يدخل أحداً النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، فخاطب -سبحانه- أهل الكتاب من اليهود والنصارى في هذه الآية بأنه بعث إليهم رسوله محمدا -ﷺ- على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم، والحاجة إليه أعم.

٤-ومنها: أن النبوة قد ختمت، وفيه الرد على الإمامية الذين يعتقدون أنه لا يخلو زمان من نبي أو وصي قائم مقامه، وهو يعلمون أن بعث النبي أو نصب الوصي واجب عليه تعالى، ولا يعتقد أهل السنة وجوب شيء على البارى تعالى.

وعقيدة الشيعة هذه مخالفة للكتاب والعترة، أما الكتاب فلأن كثيرا من آياته تدل على وجود زمن الفترة وخلوه عن النبوة وآثارها، كما قال الله تعالى: {يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترةٍ من الرسل} وغيرها من الآيات. وأيضا تدل آيات كثيرة بالصراحة على ختم النبوة كقوله تعالى {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } [الأحزاب: ٤٠].

وأما أخبار الأئمة في هذا الباب فأزيد من الحد والإحصاء، وقد تواتر عن الإمام علي-رضي الله عنه- في صفة الصلاة على النبي في كتب الإمامية هذه العبارة « اللَّهُمَّ داحي المدحوات وبارىء المسموكات وجبار الْقُلُوب على فطراتها شقيها وسعيدها اجْعَل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفة تحننك على مُحَمَّد عَبدك وَرَسُولك الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق »[٦].

وأيضا ورد في بعض خطب الإمام علي-رضي الله عنه-المتواترة عند الشيعة هذه العبارة «أرسله على فترة من الرسل، وطول هجعه بين الأمم»[٧]، إلى أن قال «وأمين وحيه وخاتم وبشير رحمته ونذير نقمته»[٨]، وهذه الخطبة كما تدل على ختم النبوة كذلك تدل على وقوع الفترة أيضا[٩].

---

[١] تفسير المراغي:٨٧/٦.
[٢] التفسير الميسر:١١١.
[٣] تفسير القرطبي:١٢٢/٦.
[٤] تفسير البيضاوي:١٢١/٢.
[٥] تفسير المراغي:٨٧/٦.
[٦] غريب الحديث لابن قتيبة:١٤٣/٢، ومختصر التحفة الاثنى عشرية للدهلوي:١٠٠/١.
[٧]الكافي: ١/ ٦٠..
[٨]نهج البلاغة، نقلا عن مختصر التحفة الاثنى عشرية للدهلوي:١٠٠/١.
[٩] انظر: مختصر التحفة الاثنى عشرية، عبدالعزيز الدهلوي:١٠٠/١.

٥-ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[١].

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"[٢].

القرآن

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)} [المائدة: ٢٠]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- إذ قال موسى عليه السلام لقومه: يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم، إذ جعل فيكم أنبياء، وجعلكم ملوكًا تملكون أمركم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه، وقد منحكم من نعمه صنوفًا لم يمنحها أحدًا من عالَمي زمانكم.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} [المائدة: ٢٠]، أي:" واذكر -أيها الرسول- إذ قال موسى عليه السلام لقومه"[٣].

قوله تعالى:{يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [المائدة: ٢٠]، أي:" يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم"[٤].

قال ابن عباس:" يقول: عافية الله عز وجل"[٥].

قال ابن عيينة:" أيادي الله عندكم وأيَّامه"[٦].

قال المراغي:" أي: واذكر أيها الرسول الكريم لبنى إسرائيل وسائر من تبلغهم دعوتك حين قول موسى لقومه بعد أن أنقذهم من ظلم فرعون وقومه وأخرجهم من ذلك البلد الظالم أهله يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم واشكروه على ذلك بالطاعة له، لأن ذلك يوجب مزيدها كما قال تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم: ٧]، وتركها يوجب المؤاخذة والعذاب الشديد كما قال تعالى: {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيد} [إبراهيم: ٧]"[٧].

قال الطبري:و"الله لم يخصص من النعم شيئًا، بل عمَّ ذلك بذكر النعم، فذلك على العافية وغيرها"[٨].

قال السعدي:" {اذكروا نعمة الله عليكم}، بقلوبكم وألسنتكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة"[٩].

قوله تعالى:{إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ} [المائدة: ٢٠]، أي:" إذ جعل فيكم أنبياء"[١٠].

قال ابن كثير:" أي: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أبيكم إبراهيم وإلى من بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى، عليه السلام، ثم أوحى الله تعالى إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم، عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم -ﷺ-"[١١].

---

[١] شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
[٢] الاسما والصفات:١١١/٢.
[٣] التفسير الميسر:١١١.
[٤] التفسير الميسر:١١١.
[٥] أخرجه الطبري(١١٦٢٣):ص١٥٩/١٠.
[٦] أخرجه الطبري(١١٦٢٢):ص١٥٩/١٠.
[٧] تفسير المراغي:٨٨/٦-٨٩.
[٨] تفسير الطبري:١٦٠/١٠.
[٩] تفسير السعدي:٢٢٧.
[١٠] التفسير الميسر:١١١.
[١١] تفسير ابن كثير:٧٢/٣.

وفي قوله تعالى:{إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ} [المائدة: ٢٠]، وجهان[١]:
أحدهما: أنهم الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى .
والثاني: أنهم السبعون الذين اختارهم موسى .
قوله تعالى:{وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} [المائدة: ٢٠]، أي:" وجعلكم ملوكًا تملكون أمركم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه"[٢].
قال قتادة:" كنا نحدَّثُ أنهم أول من سُخِّر لهم الخدَم من بني آدم ومَلَكوا"[٣].
وقال ابن شَوْذَب: "كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم، واستؤذن عليه، فهو ملك"[٤].
وفي قوله تعالى:{وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا} [المائدة: ٢٠]، أقوال:
أحدها: لأنهم مَلَكوا أنفسهم بأن خلصهم من استعباد القبط لهم، وهذا قول الحسن[٥].
والثاني: لأن كل واحد ملك نفسه وأهله وماله، وهذا قول السدي[٦].
والثالث: لأنهم كانوا أول من ملك الخدم من بني آدم، وهو قول قتادة[٧].
والرابع: أنهم جُعِلُوا ملوكاً بالمَنِّ والسَّلْوَى والحَجَر، وهذا قول ابن عباس[٨].
والخامس: وقيل: المعنى: جعلكم ذوي منازل لا يُدْخَلُ عليكم فيها إلا بإذن[٩].
والسادس: أن الملك مركب وخادم ودار. وهذا قول الحسن أيضا[١٠].
والسابع:أن كل من ملك داراً وزوجة وخادماً، وفهو ملك من سائر الناس، وهذا قول عبد الله بن عمرو بن العاص[١١]، وابن عباس-في ر رواية عنه-[١٢]، والحسن[١٣]، ومجاهد[١٤]، وزيد بن أسلم[١٥].
وقد روى زيد بن أسلم قال: قال رسول الله -ﷺ-: "من كان له بيت يأوي إليه وزوجة وخادم، فهو ملك"[١٦].
قال ابن كثير:" هذا مرسل غريب. وقال مالك: بيت وخادم وزوجة"[١٧].
وعن أبو عبد الرحمن الحبلي قال: "سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم! قال ألك مسكن تسكُنُه؟ قال: نعم! قال: فأنت من الأغنياء! فقال: إنّ لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك"[١٨].
وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: "كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة، كُتِب ملكا"[١٩].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢٤/٢.
[٢] التفسير الميسر:١١١.
[٣] أخرجه الطبري(١١٦٢٤):ص١٦٠/١٠-١٦١.
[٤] تفسير ابن كثير:٧٣/٣.
[٥] انظر: النكت والعيون:٢٤/٢.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٦):ص١٦٣/١٠.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٤):ص١٦٣/١٠.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢٤/٢.
[٩] انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي:١٦٥٨/٣.
[١٠] انظر: تفسير ابن كثير:٧٣/٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١٦٢٥):ص١٦٠/١٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٣):ص١٦٣/١٠.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٦٢٧):ص١٦٠/١٠-١٦١.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٥):ص١٦٣/١٠.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١٦٢٦):ص١٦٠/١٠.
[١٦] أخرجه الطبري(١١٦٢٦):ص١٦١/١٠.
[١٧] تفسير ابن كثير:٧٣/٣.
[١٨] أخرجه الطبري(١١٦٢٥):ص١٦١/١٠.
[١٩] أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٧٣/٣. وفي إسناده ابن لهيعة ودراج ضعيفان ورواية دراج

قوله تعالى:{وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]، أي:" وقد منحكم من نعمه صنوفًا لم يمنحها أحدًا من عالَمي زمانكم"[١].

قال ابن كثير:" يعني عالمي زمانكم، فكأنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم، من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال: { وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الجاثية: ١٦]،وقال تعالى إخبارًا عن موسى لما قالوا: { اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠]"[٢].

واختلفوا في الذي آتاهمُ الله ما لم يؤت أحدًا من العالمين على ثلاثة أقوال:

أحدها: المن والسلوى والغمام والحجر، وهو قول مجاهد[٣].

الثاني: أنه الدَّار والخادِم والزوجة. وهذا قول ابن عباس[٤].

والثالث: كثرة الأنبياء فيهم والآيات التي جاءتهم [٥].

والصواب-والله أعلم- هو قولُ من قال:"{وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين}، في سياق قوله:{اذكروا نعمة الله عليكم}، ومعطوفٌ عليه، ولا دلالة في الكلام تدلّ على أن قوله:"وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين" مصروف عن خطاب الذين ابتدئَ بخطابهم في أوّل الآية. فإذ كان ذلك كذلك، فأنْ يكون خطابًا لهم، أولى من أن يقال: هو مصروف عنهم إلى غيرهم"[٦].

واختلف فيمن عنوا بالخطاب في وفي قوله تعالى:{وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]، على قولين:

أحدهما: عني به أمة محمد -ﷺ-. وهذا قول أبي مالك[٧]، وسعيد بن جبير[٨].

والثاني: عُنِي به قوم موسى -ﷺ-. وهذا قول ابن عباس[٩]، ومجاهد[١٠].

والراجح-والله أعلم- انه خطاب من موسى ﷺ لقومه يومئذٍ، وعنى بذلك عالمي زمانه، لا عالمي كل زمان. ولم يكن أوتي في ذلك الزمان من نِعَم الله وكرامته، ما أوتي قومُه صلى الله عليه وسلم، أحد من العالمين[١١].

قال ابن كثير:" الجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه وهو محمول على عالمي زمانهم، والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجا، وأكرم نبيا، وأعظم ملكا، وأغزر أرزاقا، وأكثر أموالا وأولادا، وأوسع مملكة، وأدوم عزا، قال الله -عز وجل-: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } [آل عمران: ١١٠]، وقال { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ } [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله عز وجل: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } من سورة آل عمران"[١٢].

ويمكن القول بأن المقصود بالتفضيل الوارد في هذه الآية الكريمة ثلاثة وجوه، وهي:

عن أبي الهيثم ضعيفة.

[١] التفسير الميسر:١١١.

[٢] تفسير ابن كثير:٧٤/٣.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٠)، و(١١٦٤١):ص١٦٤/١٠.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٢)، و(١١٦٤٣):ص١٦٤/١٠.

[٥] انظر: النكت والعيون:٢٥/٢.

[٦] تفسير الطبري:١٦٦/١٠.

[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٧):ص١٦٤/١٠.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٧):ص١٦٤/١٠.

[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٩):ص١٦٤/١٠.

[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٦٣٨):ص١٦٤/١٠.

[١١] انظر: تفسير الطبري:١٦٦/١٠.

[١٢] تفسير ابن كثير:٧٤/٣.

أحدها: إنّ المقصود بالعالم في الآية الجمع الكثير من الناس، وعلى هذا يكون تفضيل بني إسرائيل على مجموعةٍ من الناس لا على جميع البشر، والدليل على ذلك مأخوذٌ من قولِ الله سُبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]، فالمُراد بالعَالمين الواردة في الآية لا يشمل جَميع الناس، إنّما هو مَخصوصٌ بفئةٍ مُعيّنة من الخلق، وكذلك الأمر بالنسبة للأرض لا يُراد بها كلّ بقاعها وإنّما إشارة إلى أرض مُعيّنة ومخصوصة.

والثاني: المقصود بالتفضيل هنا أي بما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من النعم دون غيرهم، والتي خصَّهم بها عن الناس، بالإضافة إلى جعل النبوة والملك في أسلافهم، وذلك باعتبار أنّ الخطاب كان موجهاً لهم وقت نزول القرآن الكريم، ودليل ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠].

والثالث: المقصود بالتفضيل الوارد في الآية هو فقط في زمانهم، والدليل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى: {وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الدخان: ٣٢]. وبه قال قتادة[١]، ومجاهد[٢]، وابن زيد[٣]،وأبو العالية[٤]. وهذا مذهب الجمهور[٥].

الفوائد:

١- أن شعب بني إسرائيل تفضّل الله عليهم بكثير من النعم، وبعث فيهم كثيراً من الأنبياء والرسل لدعوتهم إلى الخير، وتحذيرهم من الشر والفساد.

٢- من فوائد الآية: أنه يجب على بني إسرائيل أن يذكروا نعمة الله عليهم، فيقوموا بشكرها؛ ومن شكرها أن يتبعوا محمداً ﷺ.

٣-ومنها: إظهار أن هذه النعمة لم تأت بكسبهم، ولا بكدِّهم، ولا بإرث عن آبائهم؛ وإنما هي بنعمة الله عليهم؛ لقوله تعالى: {اذكروا نعمة الله عليكم}.

٤-وقد بين لهم موسى أصناف هذه النعم التي منحها لهم مولاهم وحصرها فى ثلاثة أشياء:

أحدها: -وهو أرفعها قدرا وأعلاها ذكرا-، أنه جعل كثيرا منهم أنبياء كموسى وهرون ومن كان قبلهما، وقد حكى ابن جرير أن السبعين الذين اختارهم موسى ليصعدوا معه الجبل حين يصعده لمناجاة ربه صاروا كلهم أنبياء، والمعروف أن النبوة عند أهل الكتاب المراد منها الإخبار ببعض الأمور الغيبية التي تقع فى المستقبل بوحي أو إلهام من الله عز وجل، وقد كان جميع أنبيائهم من بعد موسى يحكمون بما فى التوراة ويعملون بها حتى المسيح عليه السلام.

والثاني: أنه جعلهم ملوكا، والمراد من الملك هنا الحرية فى تدبير أمورهم وأمور أسرهم بأنفسهم، وفى هذا من تعظيم هذه النعمة ما لا يخفى.

لا شك أن من كان متمتعا بمثل هذا كان متمتعا بنحو ما يتمتع به الملوك من الراحة والحرية فى التصرف فى سياسة بيته، والناس يقولون إلى الآن لمن كان مخدوما مع عشيرته هانئا فى معيشته مالكا لمسكنه "هذا ملك- أو ملك زمانه" يريدون أنه يعيش عيشة الملوك.

والثالث: أنه آتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين، أي عالمى زمانهم وشعوبه التي كانت مستعبدة للطغاة من الملوك فقد خصهم بأنواع عظيمة من الإكرام، فقد فلق البحر لهم وأهلك عدوهم، وأورثهم أموالهم، وأنزل عليهم المن والسلوى، وأظل فوقهم الغمام.

٥- ومن فوائد الآية: أن الله تعالى إذا فضل أحداً بعلم، أو مال، أو جاه فإن ذلك من النعم العظيمة؛ لقوله تعالى: { وأني فضلتكم على العالمين }، خصها بالذكر لأهميتها.

---

[١] أخرجه الطبري(٨٦٨):ص٢٤/٢.
[٢] أخرجه الطبري(٨٧٠):ص٢٤/٢.
[٣] أخرجه الطبري(٨٧٢):ص٢٤/٢.
[٤] أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.
[٥] انظر: تفسير ابن كثير:٧٤/٣.

٦- ومنها: تفاضل الناس، وأن الناس درجات؛ وهذا أمر معلوم . حتى الرسل يفضل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض} [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض} [الإسراء: ٥٥].

القرآن

{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١)} [المائدة: ٢١]

التفسير:

يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة -أي المطهرة، وهي «بيت المقدس» وما حولها- التي وعد الله أن تدخلوها وتقاتلوا مَن فيها من الكفار، ولا ترجعوا عن قتال الجبارين، فتخسروا خير الدنيا وخير الآخرة.

قوله تعالى:{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: ٢١]، أي:" يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة -أي المطهرة، وهي «بيت المقدس» وما حولها"[١].

قال ابن كثير:" أي: المطهرة"[٢].

قال المراغي:" {المقدسة}، المطهرة من الوثنية، لما بعث الله فيها من الأنبياء الدعاة إلى التوحيد"[٣].

قال الزجاج:" وإنما سمي بالمقدس لأن المقدس: المكان الذي يتطهر فيه. فتأويله البيت الذي يطهر الإنسان من العيوب، ومن هذا قيل: القدس، أي: الذي يتطهر منه، كما قيل: مطهرة لما يتوضأ منه، إنما هي مفعلة من الطهر"[٤].

أخرج الطبري عن مجاهد: "{الأرض المقدسة}، قال: المباركة"[٥].

وفي قوله تعالى:{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ} [المائدة: ٢١]، وجوه:

أحدها: أرض بيت المقدس(أرض اريحا)، وهذا قول ابن عباس[٦]، والسدي[٧]، وابن زيد[٨].

قال القاسمي:" يعني: أرض بيت المقدس التي كانت مقدسة بمساكنة من مضى من الأنبياء. ثم تلوّثت بمساكنة الأعداء من جبابرة الكنعانيين، فأراد تطهيرها بإخراجهم وإسكان قومه"[٩].

والثاني:طور وما حوله. وهذا قول مجاهد[١٠].

والثالث: هي الشام، وهذا قول قتادة[١١].

والرابع: دمشق وفلسطين وبعض الأردن، ذكره الطبري[١٢]، والزجاج[١٣].

قال الإمام الطبري:": وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: هي الأرض المقدّسة، كما قال نبي الله موسى صلى الله عليه، لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض، لا تُدرك حقيقةُ صحته إلا بالخبر، ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به. غير أنها لن تخرج من أن تكون من

---

[١] التفسير الميسر:١١١.
[٢] تفسير ابن كثير:٧٥/٣.
[٣] تفسير المراغي:٩٠/٦.
[٤] معاني القرآن:١٦٣/٢.
[٥] تفسير الطبري(١١٦٥١):ص١٦٨/١٠.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٦٥٠):ص١٦٨/١٠.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٩):ص١٦٨/١٠.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٨):ص١٦٨/١٠.
[٩] محاسن التأويل:١٠١/٤.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٤)-(١١٦٤٦):ص١٦٧/١٠.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١٦٤٧):ص١٦٧/١٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري:١٦٨/١٠.
[١٣] انظر: معاني القرآن:١٦٣/٢.

الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر، لإجماع جميع أهل التأويل والسِّير والعلماء بالأخبار على ذلك"[١].

قوله تعالى:{الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: ٢١]، أي:" - التي وعد الله أن تدخلوها وتقاتلوا مَن فيها من الكفار"[٢].

قال ابن كثير:" أي: التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثة من آمن منكم"[٣].

قال الزمخشري:أي:" قسمها لكم وسماها، أو خط في اللوح المحفوظ أنها لكم"[٤].

قال القاسمي:أي:" التي وعدكموها على لسان أبيكم إبراهيم، بأن تكون ميراثا لولده بعد أن جعلها مهاجره"[٥].

أخرج الطبري عن محمد بن إسحاق، "{التي كتب الله لكم}، التي وهب الله لكم"[٦].

وعن السدي:"{ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}، التي أمركم الله بها"[٧].

قال السعدي:" أخبرهم خبرا تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم"[٨].

قال السمرقندي:" {التي كتب الله لكم}، يعني: التي أمركم الله أن تدخلوها، ويقال: التي وعد لإبراهيم أن يكون ذلك له ولذريته، وذلك أن الله وعد لإبراهيم أن يكون له مقدار ما يمد بصره فصار ذلك ميراثا منه حين خرج إبراهيم- عليه السلام- فقال له جبريل: انظر يا إبراهيم. فنظر فقال: يعطي الله تعالى لك ولذريتك مقدار مد بصرك من الملك[٩]. وهي: أرض فلسطين وأردن وما حولهما. فقال موسى لقومه: ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم يعني التي جعل لأبيكم إبراهيم- عليه السلام- ولكم ميراث منه"[١٠].

وقال القتبي: "أصل «الكتاب»: ما كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ، ثم يتفرع منه المعاني.

ويقال: «كتب»،يعني: قضى، كما قال: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا } [التوبة: ٥١].

ويقال: «كتب»، أي: فرض كما قال: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: ١٨٣]، أي فرض.

ويقال: {كتب عليكم}، أي: جعل، كما قال: { فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٥٣].

ويقال: «كتب»،أي: أمر. كما قال: {ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم}، يعني: أمر الله لكم بدخولها. قال: ويقال كتب هاهنا بمعنى جعل"[١١].

قوله تعالى:{وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ} [المائدة: ٢١]، أي:" ولا ترجعوا عن قتال الجبارين"[١٢].

قال السعدي:" أي: لا ترجعوا"[١٣].

---

[١] تفسير الطبري:١٦٨/١٠.

[٢] التفسير الميسر:١١١.

[٣] تفسير ابن كثير:٧٥/٣.

[٤] الكشاف:٦٢٠/١.

[٥] محاسن التأويل:١٠١/٤.

[٦] تفسير الطبري(١١٦٥٣):ص١٦٩/١٠.

[٧] أخرجه الطبري(١١٦٥٤):ص١٦٩/١٠.

[٨] تفسير السعدي:٢٢٧.

[٩] وذكره الزمخشري في الكشاف:٦٢٠/١، فقال:" وقيل: سماها الله لإبراهيم ميراثا لولده حين رفع على الجبل، فقيل له. انظر، فلك ما أدرك بصرك". ولم أقف عليه فيما توفر عندي من المصادر.

[١٠] بحر العلوم:٣٨١/١.

[١١] بحر العلوم:٣٨١/١.

[١٢] التفسير الميسر:١١١.

[١٣] تفسير السعدي:٢٢٧.

قال السمرقندي:" يعني: لا ترجعوا عما أمرتم به من الدخول"[١].
قال ابن كثير:" أي: ولا تنكلوا عن الجهاد"[٢].
قال القاسمي:" أي: لا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبنا وهلعا"[٣].
قال المراغي:" أي: لا نرجعوا عما جئتكم به من التوحيد والعدل والهدى والرشاد إلى الوثنية والفساد فى الأرض، بالظلم والبغي واتباع الأهواء"[٤].
قال الطبري:أي:" امضُوا، أيها القوم، لأمر الله الذي أمركم به من دخول الأرض المقدسة ولا ترتدوا يقول: لا ترجعوا القهقرى مرتدّين على أدباركم يعني: إلى ورائكم، ولكن امضوا قُدُمًا لأمر الله الذي أمركم به، من الدخول على القوم الذين أمركم الله بقتالهم والهجوم عليهم في أرضهم، وأنّ الله عز ذكره قد كتبها لكم مسكنًا وقرارًا"[٥].
قال الزمخشري:أي:" ولا تنكصوا على أعقابكم مدبرين من خوف الجبابرة جبنا وهلعا، وقيل: لما حدثهم النقباء بحال الجبابرة رفعوا أصواتهم بالبكاء وقالوا: ليتنا متنا بمصر. وقالوا: تعالوا نجعل علينا رأسا ينصرف بنا إلى مصر. ويجوز أن يراد: لا ترتدوا على أدباركم في دينكم بمخالفتكم أمر ربكم وعصيانكم نبيكم"[٦].
قال قتادة:" أمروا بها، كما أمروا بالصلاة والزكاة والحجّ والعُمْرة"[٧].
وفي قوله تعالى:{وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ} [المائدة: ٢١]، وجهان[٨]:
أحدهما: لا ترجعوا عن طاعة الله إلى معصيته .
والثاني: لا ترجعوا عن الأرض التي أمرتم بدخولها .
قوله تعالى:{فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [المائدة: ٢١]، أي:"، فتخسروا خير الدنيا وخير الآخرة"[٩]. الآخرة"[٩].
قال القاسمي:" أي: فترجعوا مغبونين بالعقوبة"[١٠].
قال السمرقندي:أي:" فتصيروا خاسرين بفوات الدرجات ووجوب الدركات، أي مغبونين في العقوبة"[١١].
قال السعدي: أي: "قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وآخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتم -بمعصيتكم- من العقاب"[١٢].
قال المراغي:" أي: فإن فى هذا الرجوع خسرانا لكم، إذ تخسرون فيه هذه النعم، ومنها الأرض المقدسة التي ستعطونها جزاء شكركم، فتحرمون من خيراتها وبركاتها"[١٣].

الفوائد:

١- أن موسى -عليه السلام- أُمر بالجهاد لنشر التّوحيد ومحاربة الشرك والكفر بالله وتخليص الأماكن المقدَّسة من قبضة الوثنيِّن، وهذا من أغراض الجهاد في سبيل الله.
٢-بيان فضل الشام.

القرآن

---

[١] بحر العلوم:٣٨١/١.
[٢] تفسير ابن كثير:٧٥/٣.
[٣] محاسن التأويل:١٠١/٤.
[٤] تفسير المراغي:٩٠/٦.
[٥] تفسير الطبري:١٧٠/١٠.
[٦] الكشاف:٦٢٠/١.
[٧] أخرجه الطبري(١١٦٥٥):ص١٧١/١٠.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢٥/٢.
[٩] التفسير الميسر:١١١.
[١٠] محاسن التأويل:١٠١/٤.
[١١] بحر العلوم:٣٨١/١.
[١٢] تفسير السعدي:٢٢٧.
[١٣] تفسير المراغي:٩٠/٦.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)} [المائدة: ٢٢]

التفسير:

قالوا: يا موسى، إن فيها قومًا أشداء أقوياء، لا طاقة لنا بحربهم، وإنَّا لن نستطيع دخولها وهم فيها، فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون.

قوله تعالى:{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ} [المائدة: ٢٢]، أي:" قالوا: يا موسى، إن فيها قومًا أشداء أقوياء، لا طاقة لنا بحربهم"[١].

قال مقاتل:" يعني: قتالين أشداء يقتل الرجل منهم العصابة منا"[٢].

قال قتادة:" ذكر لنا أنهم كانت لهم أجسام وخِلَقٌ ليست لغيرهم "[٣].

وعن الضحاك: "{إن فيها قومًا جبارين}، قال: سِفْلة لا خَلاقَ لهم"[٤].

قال ابن كثير:" أي: اعتذروا بأن في هذه البلدة - التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها - قوما جبارين، أي: ذوي خلَقٍ هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مُصَاولتهم"[٥].

قال الطبري:" سموهم جبّارين ، لأنهم كانوا لشدة بطشهم وعظيم خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قهروا سائر الأمم غيرهم"[٦].

قال الزجاج:" تأويل «الجبار»من الآدميين: العاتي الذي يجبر الناس على ما يريد، والله- عز وجل - الجبار العزيز، وهو الممتنع من أن يزل، والله عز وجل يأمر بما أراد، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وإنما وصفوهم بالقدرة والتكبر، والمنعة"[٧].

قال القرطبي:{ جبارين}،" أي: عظام الأجسام طوال، وقد تقدم، يقال: نخلة جبارة أي طويلة. والجبار المتعظم الممتنع من الذل والفقر... وقيل: هو مأخوذ من جبر العظم، فأصل الجبار على هذا المصلح أمر نفسه، ثم استعمل في كل من جر لنفسه نفعا بحق أو باطل. وقيل: إن جبر العظم راجع إلى معنى الإكراه"[٨].

وأصل «الجبار»، المصلح أمر نفسه وأمر غيره، ثم استعمل في كل من اجترَّ نفعا إلى نفسه بحق أو باطل طلبَ الإصلاح لها، حتى قيل للمتعدِّي إلى ما ليس له بغيًا على الناس، وقهرًا لهم، وعتوًّا على ربه جبار ، وإنما هو فعّال من قولهم: جبر فلان هذا الكسر ، إذا أصلحه ولأمه، ومنه قول العجاج [٩]:

قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلهُ فَجَبَرْ وَعَوَّرَ الرَّحمنُ مَنْ وَلَّي العَوَرْ

يريد: قد أصلح الدين الإله فصلح. ومن أسماء الله تعالى ذكره الجبار ، لأنه المصلحُ أمرَ عباده، القاهرُ لهم بقدرته[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:١١١.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/١.

[٣] أخرجه الطبري(١١٦٥٨):ص١٧٣/١٠.

[٤] أخرجه الطبري(١١٦٦٢):ص١٧٣/١٠-١٧٤.

[٥] تفسير ابن كثير:٧٥/٣.

[٦] تفسير الطبري:١٧١/١٠.

[٧] معاني القرآن:١٦٣/٢.

[٨] تفسير القرطبي:١٢٦/٦.

[٩]ديوانه : ١٥ ، واللسان (جبر) (عور) ، وهو أول أرجوزته التي مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ، ، وقد مضت منها أبيات ، وذكرنا خبرها فيما سلف ، انظر ١ : ٢/١٩٠ : ٣/١٥٧ : ٤/٢٢٩ : ٣٢١. وقوله : قد جبر الدين الإله ، من قولهم : جبرت العظم متعديًا ، فجبر ، لازمًا ، أي : انجبر العظم نفسه. و العور في هذا الشعر هو قبح الأمر وفساده ، وترك الحق فيه ، وليس من عور العين. و عور الشيء قبحه. يدعو فيقول : قبح الله من اتبع الفساد واستقبله بوجهه. من قولهم ولي الشيء وتولاه ، أي اتبعه وفي التنزيل : ولكل وجهة هو موليها ، أي مستقبلها ومتبعه.

[١٠]انظر: تفسير الطبري:١٧٢/١٠.

قال ابن عباس:" أمر موسى أن يدخل مدينة الجبَّارين. قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريبًا من المدينة وهي أريحاء فبعث إليهم اثنى عشر عينًا، من كل سبطٍ منهم عينًا، ليأتوه بخبر القوم. قال: فدخلوا المدينة، فرأوا أمرًا عظيمًا من هيئتهم وجثثهم وعظمهم، فدخلوا حائطًا لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتني الثمار من حائطه، فجعل يجتني الثمار وينظر إلى آثارهم، وتتبعهم. فكلما أصاب واحدًا منهم أخذه فجعله في كمه مع الفاكهة، وذهب إلى ملكهم فنثرهم بين يديه، فقال الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، اذهبوا فأخبروا صاحبكم. قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عايَنُوا من أمرهم"(١).

قال ابن كثير:" وفي هذا الإسناد نظر"(٢).

وقال الربيع:" إن موسى عليه السلام قال لقومه: إني سأبعث رجالا يأتونني بخبرهم وإنه أخذ من كل سبط رجلا فكانوا اثنى عشر نقيبًا، فقال: سيروا إليهم وحدِّثوني حديثهم وما أمرهم، ولا تخافوا، إن الله معكم ما أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برُسله، وعزرتموهم، وأقرضُتم الله قرضًا حسنًا وإنّ القوم ساروا حتى هجموا عليهم، فرأوا أقوامًا لهم أجسام عجبٌ عظمًا وقوة، وإنه فيما ذكر أبصرهم أحد الجبَارين، وهم لا يألون أن يخفُوا أنفسهم حين رأوا العجب. فأخذ ذلك الجبّار منهم رجالا فأتى رئيسَهم، فألقاهم قدّامه، فعجبوا وضحكوا منهم. فقال قائل منهم: فإنّ هؤلاء زعموا أنهم أرادوا غزوكم !! وأنه لولا ما دفع الله عنهم لقُتلوا، وأنهم رجعوا إلى موسى عليه السلام فحدّثوه العجب"(٣).

وقرأ ابن السميفع: «قالوا يا موسى فيها قوم جبارون»(٤).

قوله تعالى:{وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا} [المائدة: ٢٢]، أي:" وإنَّا لن نستطيع دخولها وهم فيها"(٥).

قال النسفي:أي:" بالقتال"(٦).

قال الطبري:أي:" فقالوا:إنا لن ندخلها حتى يخرج من الأرض المقدسة الجبارون الذين فيها، جبنًا منهم، وجزعًا من قتالهم"(٧).

قال ابن كثير:أي:" ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها"(٨).

قال القرطبي:" أي: حتى يسلموها لنا من غير قتال. وقيل: قالوا ذلك خوفا من الجبارين ولم يقصدوا العصيان، فإنهم قالوا:{فإن يخرجوا منها فإنا داخلون}"(٩).

قال أبو حيان:" هذا تصريح بالامتناع التام من أن يقاتلوا الجبابرة، ولذلك كان النفي بلن. ومعنى حتى يخرجوا منها: بقتال غيرنا، أو بسبب يخرجهم الله به فيخرجون"(١٠).

قوله تعالى:{فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢]، أي:" فإن خرجوا منها هؤلاء الجبارون دخلناها"(١١).

قال النسفي:أي:" بغير قتال،{ فإنا داخلون} بلادهم حينئذ"(١٢).

قال ابن كثير:أي:" فإن يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم"(١٣).

---

(١) أخرجه الطبري(١١٦٥٧):ص١٧٣/١٠.
(٢) تفسير ابن كثير:٧٥/٣.
(٣) أخرجه الطبري(١١٦٥٩):ص١٧٣/١٠-١٧٤.
(٤) انظر: البحر المحيط:٢١٨/٤.
(٥) التفسير الميسر:١١١.
(٦) تفسير النسفي:٤٣٩/١.
(٧) تفسير الطبري:١٧٥/١٠.
(٨) تفسير ابن كثير:٧٥/٣.
(٩) تفسير القرطبي:١٢٧/٦.
(١٠) البحر المحيط:٢١٨/٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٧٥/١٠.
(١٢) تفسير النسفي:٤٣٩/١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٧٥/٣.

قال أبو حيان:"قال أكثر المفسرين: لم يشكوا فيما وعدهم الله به، ولكن كان نكوصهم عن القتال من خور الطبيعة والجبن الذي ركبه الله فيهم، ولا يملك ذلك إلا من عصمه الله وقال تعالى: {ا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ } [البقرة: ٢٤٦].

وقيل: قالوا ذلك على سبيل الاستبعاد أن يقع خروج الجبارين منها كقوله تعالى: {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]"[١].

أخرج الطبري عن ابن إسحاق، "أن كالب بن يافنا، أسكت الشعْبَ عن موسى صلى الله عليه وسلم فقال لهم: إنا سنعلو الأرض ونرثُها، وإن لنا بهم قوّة! وأما الذين كانوا معه فقالوا: لا نستطيع أن نصل إلى ذلك الشعب، من أجل أنهم أجرأ منا! ثم إن أولئك الجواسيس أخبروا بني إسرائيل الخبر، وقالوا: إنّا مررنا في أرض وحسسناها، فإذا هي تأكل ساكنها، ورأينا رجالهَا جسامًا، ورأينا الجبابرة بني الجبابرة، وكنا في أعينهم مثل الجراد! فأرجفت الجماعة من بني إسرائيل، فرفعوا أصواتهم بالبكاء. فبكى الشعب تلك الليلة، ووسوسُوا على موسى وهارون، فقالوا لهما: يا ليتنا مِتنا في أرض مصر! وليتنا نموت في هذه البرية، ولم يدخلنا الله هذه الأرض لنقع في الحرب، فتكون نساؤنا وأبناؤنا وأثقالنا غنيمَّة! ولو كنا قعودًا في أرض مصر، كان خيرًا لنا وجعل الرجل يقول لأصحابه: تعالوا نجعل علينا رأسًا وننصرف إلى مصر"[٢].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:" لما نزل موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلا - وهم النقباء الذين ذكر الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا، فلقيهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم ؟ قالوا: نحن قوم موسى، بعثنا نأتيه بخبركم. فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدروا قَدْر فاكهتهم فلما أتوهم قالوا: يا موسى، { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون }"[٣].

وعن يحيى بن عبد الرحمن قال: "رأيت أنس بن مالك أخذ عصا، فذرع فيها بشيء، لا أدري كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمسا وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق"[٤].

وقال مقاتل:" طول كل رجل منهم سبعة أذرع ونصف من بقايا قوم عاد وكان عوج بن عناق بنت آدم فيهم"[٥].

وقال الكلبي: "طول كل رجل منهم ثمانون ذراعا"[٦].

وقد ذكر القرطبي من الإسرائيليات التي لايعول عليها، فقال:" قيل: كان هؤلاء من بقايا عاد. وقيل: هم من ولد عيصو بن إسحاق، وكانوا من الروم، وكان معهم عوج الأعنق، وكان طوله ثلاثة آلاف «٢» ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا، قاله ابن عمر، وكان يحتجن السحاب أي يجذبه بمحجنه ويشرب منه، ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله. وحضر طوفان نوح عليه السلام ولم يجاوز ركبتيه وكان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة، وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى ليرضخهم بها، فبعث الله طائرا فنقرها ووقعت في عنقه فصرعته. وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله. وقيل: بل ضربه في العرق الذي تحت كعبه فصرعه فمات ووقع على نيل مصر فجسرهم [٧] سنة. ذكر هذا المعنى

---

[١] البحر المحيط:٢١٨/٤.
[٢] تفسير الطبري(١١٦٦٣):ص١٧٥/١٠.
[٣]رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير:٧٦/٣.
[٤]رواه ابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير:٧٦/٣.
[٥] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٦/١.
[٦] بحر العلوم:٣٨٢/١.
[٧]ي صار لهم جسرا يعبرون عليه!.

باختلاف ألفاظ محمد بن إسحاق والطبري ومكي وغيرهم. وقال الكلبي: عوج من ولد هاروت وماروت حيث وقعا بالمرأة فحملت"[1].

قال ابن كثير:"وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخبارًا من وضع بني إسرائيل، في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم عوج بن عنق، بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث ذراع، تحرير الحساب! وهذا شيء يستحي من ذكره. ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله تعالى خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن"[2].

ثم قد ذكروا أن هذا الرجل كان كافرا، وأنه كان ولد زِنْية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال: { رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: { فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ } (١٤) [الشعراء: ١١٩ - ١٢٠] وقال تعالى: قَالَ{ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ } [هود: ٤٣] وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق، وهو كافر وولد زنية ؟! هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له:«عوج بن عنق» نظر، والله أعلم"[3].

الفوائد:

١- فضح اليهود بكشف الآيات عن مخازيهم مع أنبيائهم.

٢- أن بني اسرائيل خذلوا أنبياءهم ولم يقوموا بنصرهم.

٣-أن بني إسرائيل كانوا قوماً جبناء:{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ}، وقالوا: {وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا}، وهذا منتهى المهانة ومنتهى السُّخرية، لأن الكفار ليسوا بخارجين إلاَّ بالجهاد والجلاد والاستشهاد في سبيل الله.

القرآن

{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣)} [المائدة: ٢٣]

التفسير:

قال رجلان من الذين يخشون الله تعالى، أنعم الله عليهما بطاعته وطاعة نبيّه، لبني إسرائيل: ادخلوا على هؤلاء الجبارين باب مدينتهم، أخْذًا بالأسباب، فإذا دخلتم الباب غلبتموهم، وعلى الله وحده فتوكَّلوا، إن كنتم مُصدِّقين رسوله فيما جاءكم به، عاملين بشرعه.

قوله تعالى:{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} [المائدة: ٢٣]، أي:" قال رجلان من الذين يخشون الله تعالى، أنعم الله عليهما بطاعته وطاعة نبيّه، لبني إسرائيل"[4].

قال السمرقندي:" يعني: يوشع بن نون وكالب من الذين يخافون الله تعالى أنعم الله عليهما بالإسلام"[5].

قال الزمخشري:" هما كالب ويوشع من الذين يخافون من الذين يخافون الله ويخشونه، كأنه قيل: رجلان من المتقين"[6].

قال ابن عباس:" والرجلان اللذان أنعم الله عليهما من بني إسرائيل: يوشع بن النون، وكالوب بن يوفنة"[1]. وروي عن قتادة مثل ذلك[2].

---

[1] تفسير القرطبي:١٢٧/٦.

[2]رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٣٢٦) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه.

[3] تفسير ابن كثير:٧٦/٣.

[4] التفسير الميسر:١١١.

[5] بحر العلوم:٣٨٢/١.

[6] الكشاف:٦٢٠/١.

قال عطاء:" كالوب، ويوشع بن النون فتى موسى"[٣].
قال مجاهد:": كلاب بن يافنا، ويوشع بن نون"[٤]. " وهما من النقباء"[٥].
قال السدي:" وهما اللذان كتماهم: يوشع بن نون فتى موسى، وكالوب بن يوفنة خَتَنُ موسى"[٦].

وعن مجاهد أيضا في قصة ذكرها، قال: "فرجع النقباء، كلُّهم ينهى سِبْطه عن قتالهم، إلا يوشع بن نون، وكلاب بن يافنة، يأمران الأسباط بقتال الجبارين ومجاهدتهم، فعصوهما، وأطاعوا الآخرين، فهما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما"[٧].

وأخرج الطبري عن ابن عباس في قصة ذكرها. قال: "فرجعوا يعني النقباء الاثنى عشر إلى موسى، فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، فقال لهم موسى: اكتموا شأنهم، ولا تخبروا به أحدًا من أهل العسكر، فإنكم إن أخبرتموهم بهذا الخبر فَشِلوا ولم يدخلوا المدينة، قال: فذهب كل رجل منهم فأخبر قريبه وابنَ عمه، إلا هذين الرجلين يوشع بن نون، وكلاب بن يوفنة فإنهما كتما ولم يخبرا به أحدًا، وهما اللذان قال الله عز وجل: {قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما}، إلى قوله: {وبين القوم الفاسقين}"[٨].

وروي عن ابن عباس ايضا، قوله:{ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين}، قال:"هي مدينةُ الجبارين. لما نزل بها موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلا وهم النقباء الذين ذكر بعثهم ليأتوه بخبرهم. فساروا، فلقيهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا: من أنتم ؟ فقالوا: نحن قوم موسى، بعثَنا إليكم لنأتيه بخبركم! فأعطوهم حبَّة من عِنب بوِقْر الرجل، فقالوا لهم: اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم: اقدُروا قَدْر فاكهتهم! فلما أتوهم قالوا لموسى: اذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ! قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، وكانا من أهل المدينة أسلَما واتّبعا موسى وهارون، فقالا لموسى: {ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين}"[٩].

روي عن الربيع: "أن موسى قال للنقباء لمَّا رجعوا فحدثوه العجبَ: لا تحدثوا أحدًا بما رأيتم، إن الله سيفتحها لكم ويظهركم عليها من بعد ما رأيتم وإن القوم أفشوا الحديث في بني إسرائيل، فقام رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما، كان أحدهما، فيما سمعنا، يوشع بن نون وهو فتى موسى، والآخر كالب ـ فقالا {ادخلوا عليهم الباب}، إلى {إن كنتم مؤمنين}"[١٠].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله عز ذكره عن الرجلين الصَّالحين من قوم موسى: يوشع بن نون و كالب بن يافنا ، أنهما وفَيا لموسى بما عهد إليهما من ترك إعلام قومِه بني إسرائيل الذين أمرَهم بدخول الأرض المقدسة على الجبابرة من الكنعانيين بما رأيا وعاينا من شدّة بطش الجبابرة وعِظَم خلقهم، ووصفهما الله عز وجل بأنهما ممن يخاف الله ويراقبه في أمره ونهيه... وأما قوله: أنعم الله عليهما ، فإنه يعني: أنعم الله عليهم بطاعة الله في طاعة نبيه موسى صلى الله عليه، وانتهائهم إلى أمره، والانزجار عما زجرهما عنه ﷺ، من إفشاء ما عاينا من عجيب أمر

---

[١] أخرجه الطبري(١١٦٧١):ص١٠/١٧٧-١٧٨.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٢):ص١٠/١٧٨.
[٣] أخرجه الطبري(١١٦٧٠):ص١٠/١٧٧.
[٤] أخرجه الطبري(١١٦٦٤):ص١٠/١٧٦.
[٥] أخرجه الطبري(١١٦٦٥):ص١٠/١٧٦.
[٦] أخرجه الطبري(١١٦٦٩):ص١٠/١٧٧.
[٧] أخرجه الطبري(١١٦٦٦):ص١٠/١٧٦.
[٨] تفسير الطبري(١١٦٦٨):ص١٠/١٧٧.
[٩]أخرجه الطبري(١١٦٧٦):ص١٠/١٨٠.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٦٧٣):ص١٠/١٧٨.

الجبارين إلى بني إسرائيل، الذي حدّث عنه أصحابهما الآخرون الذين كانوا معهما من النقباء، وقد قيل إن معنى ذلك: أنعم الله عليهما بالخوف"[1].

وفي تفسير قوله تعالى:{قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ} [المائدة: ٢٣]، ثلاثة وجوه

أحدهم: يخافون الله، ويسنده قراءة قتادة:« يَخَافُونَ اللهَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا»[2].وهو الصحيح.

الثاني: يخافهم بنو إسرائيل، ويشهد له قراءة سعيد بن جبير« يُخَافُونَ»، بضم الياء[3]، وكذلك، قوله: {أنعم الله عليهما}، كأنه قيل: من الخوفين[4].

قال الطبري:" وكأن سعيدًا ذهب في قراءته هذه إلى أن الرجلين اللذين أخبر الله عنهما أنهما قالا لبني إسرائيل: {ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون}، كانا من رهط الجبابرة، وكانا أسلما واتَّبعا موسى، فهما من أولاد الجبابرة الذين يخافهم بنو إسرائيل، وإن كانوا لهم في الدين مخالفين"[5].

والثالث: يخافون ضعف بني إسرائيل وجبنهم. ذكره القرطبي[6].

والرابع: يخافون الجبارين، أنعم الله عليهما فلم يخافا وصدقا في مقالتهما، ولم يمنعهم خوفهم من قول الحق[7]. اختاره القرطبي[8].

والخامس: وقال الضحاك: "هما رجلان كانا في مدينة الجبارين على دين موسى"[9]، فمعنى {يخافون}، على هذا، أي: من العمالقة من حيث الطبع لئلا يطلعوا على إيمانهم فيفتنوهم ولكن وثقا بالله[10].

والسادس"وقيل: هو من الإخافة، ومعناه من الذين يخوفون من الله بالتذكرة والموعظة. أو يخوفهم وعيد الله بالعقاب. أفاده الزمخشري[11].

قال أبو السعود:" أي: يخافون الله تعالى دون العدو ويتقونه في مخالفة أمره ونهيه، وبه قرأ ابن مسعود وفيه تعريض بأن من عداهما لا يخافونه تعالى بل يخافون العدو"[12].

وفي قوله تعالى:{أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا} [المائدة: ٢٣]، وجوه:

أحدهما: بالتوفيق للطاعة[13].

والثاني: بالإسلام، وهو قول الحسن[14]. وقال الزجاج:" بالإيمان"[15].

والثالث: بالخوف، قاله سهل بن علي [16].

والرابع: بالهدى فهداهما، فكانا على دين موسى، وكانا في مدينة الجبّارين. وهذا قول الضحاك[17].

---

[1] تفسير الطبري:١٠/١٧٦- ١٨١.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٤):ص١٠/١٧٩.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٥):ص١٠/١٧٩.
[4] انظر: الكشاف:١/٦٢٠.
[5] تفسير الطبري:١٠/١٧٩.
[6] انظر: تفسير القرطبي:٦/١٢٧.
[7] انظر: بحر العلوم:١/٣٨٢، والنكت والعيون:٢/٢٦.
[8] انظر: تفسير القرطبي:٦/١٢٧.
[9] تفسير القرطبي:٦/١٢.
[10] انظر: تفسير القرطبي:٦/١٢٧.
[11] انظر: الكشاف:١/٦٢٠.
[12] تفسير أبي السعود:٣/٢٤.
[13] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦.
[14] انظر: النكت والعيون:٢/٢٦.
[15] انظر: معاني القرآن:٢/١٦٣.
[16] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٧):ص١٠/١٨١.
[17] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٩):ص١٠/١٨٢.

قال أبو السعود: " {أنعم الله عليهما}، أي: بالتثبيت وربط الجأش والوقوف على شؤونه تعالى والثقة بوعده أو بالإيمان وهو صفة ثانية لرجلان أو اعتراض [١].

قال سهل:" أنعم الله عليهما بالخوف والمراقبة، إذ الخوف والهم والحزن يزيد في الحسنات، والأشر والبطر يزيد في السيئات"[٢].

وفي هذين الرجلين قولان:

أحدهما: أنهما من النقباء يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وهذا قول ابن عابس[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، والسدي[٦].

والثاني: أنهما رجلان، كانا من أهل مدينة الجبارين أنعم الله عليهما بالإسلام، واتّبعا موسى وهارون. وهذا مروي عن ابن عباس[٧].

قوله تعالى:{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [المائدة: ٢٣]، أي:" ادخلوا على هؤلاء الجبارين باب مدينتهم، أَخْذًا بالأسباب، فإذا دخلتم الباب غلبتموهم"[٨].

قال السمرقندي:" يعني: أن القوم إذا رأوا كثرتكم انكسرت قلوبهم وانقطعت ظهورهم، فتكونوا غالبين"[٩].

قال القرطبي:" قالا لبني إسرائيل: لا يهولنكم عظم أجسامهم فقلوبهم ملئت رعبا منكم، فأجسامهم عظيمة وقلوبهم ضعيفة، وكانوا قد علموا أنهم إذا دخلوا من ذلك الباب كان لهم الغلب. ويحتمل أن يكونا قالا ذلك ثقة بوعد الله"[١٠].

قال الزجاج:" فكأنهما علما أن ذلك الباب إذا دخل منه وقع الغلب"[١١].

قال الطبري:أي:" فقالا لهم: ادخلوا عليهم، أيها القوم بابَ مدينتهم، فإن الله معكم، وهو ناصركم، وإنكم إذا دخلتم الباب غلبتموهم"[١٢].

قال الزمخشري:" قالا لهم: إن العمالقة أجسام لا قلوب فيها، فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم، يشجعانهم على قتالهم"[١٣].

قال ابن عطية:" المعنى: اجتهدوا وكافحوا حتى تدخلوا الباب، وقوله: {فإنكم غالبون} ظن منهما ورجاء وقياس أي إنكم بذلك تفتون في أعضادهم ويقع الرعب في قلوبهم فتغلبونهم"[١٤].

عن مجاهد في قول الله: "{عليهم الباب}، قرية الجبَّارين"[١٥].

قال أبو السعود:" أي: قالوا: مخاطبين لهم ومشجعين:{ادخلوا عليهم الباب} أي باب بلدهم وتقديم الجار والمجرور عليه للاهتمام به لأن المقصود إنما هو دخول الباب وهم في بلدهم أي باغتوهم وضاغضوهم في المضيق وامنعوهم في البروز إلى الصحراء لئلا يجدوا للحرب مجالا {فإذا دخلتموه} أي بلدهم وهم فيه {فإنكم غالبون} من غير حاجة إلى القتال فان قد رأيناهم وشاهدنا أن قلوبهم ضعيفة وإن كانت أجسادهم عظيمة فلا تخشوهم واهجموا عليهم في المضايق

---

[١]تفسير ابي السعود:"٢٤/٣.
[٢] تفسير التستري:٥٨.
[٣]انظر: تفسير الطبري(١١٦٧١):ص١٧٧/١٠-١٧٨.
[٤]انظر: تفسير الطبري(١١٦٦٥):ص١٧٦/١٠.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٢):ص١٧٨/١٠.
[٦]انظر: تفسير الطبري(١١٦٦٩):ص١٧٧/١٠.
[٧]انظر: تفسير الطبري(١١٦٧٦):ص١٨٠/١٠.
[٨] التفسير الميسر:١١١.
[٩] بحر العلوم:٣٨٢/١.
[١٠] تفسير القرطبي:١٢٧/٦.
[١١] انظر: معاني القرآن:١٦٣/٢.
[١٢] تفسير الطبري:١٨٢/١٠.
[١٣] الكشاف:٦٢٠/١.
[١٤] المحرر الوجيز:١٧٥/٢.
[١٥] أخرجه الطبري(١١٦٨١):ص١٨٣/١٠.

فإنهم لا يقدرون فيها على الكر والفر وقيل إنما حكما بالغلبة لما علماها من جهة موسى عليه السلام ومن قوله تعالى كتب الله لكم أو لما علما من سنته تعالى في نصره رسله وما عهدا من صنعه تعالى لموسى عليه السلام من طهر أعدائه والأول أنسب بتعليق الغلبة بالدخول"(١).

وفي قوله تعالى:{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ} [المائدة: ٢٣]، وجهان:

أحدهما: إنما قالوه لعلمهم بأن الله كتبها لهم، لقوله تعالى: {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: ٢١](٢).

والثاني: علما أنهم غالبون، من جهة إخبار موسى بذلك. أفاده الزمخشري(٣).

والثالث: انهما علما بذلك، من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله في نصرة رسله، وما عهدا من صنع الله لموسى في قهر أعدائه، وما عرفا من حال الجبابرة. ذكره الزمخشري(٤).

والرابع: لعلمهم بأن الله ينصرهم على أعادئه، ولم يمنعهم خوفهم من القول الحق، وقد قال النبي -ﷺ-:" ألا لا يمنعن أحدكم مخافة الناس أن يقول الحق إذا رآه"(٥).

قال قتادة:": ذكر لنا أنهم بعثوا اثنى عشر رجلا من كل سبط رجلا عيونًا لهم، وليأتوهم بأخبار القوم. فأمَّا عشرة فجبَّنُوا قومهم وكرَّهوا إليهم الدخول عليهم. وأما الرجلان فأمرا قومهما أن يدخلوها، وأن يتبعوا أمر الله، ورغَّبا في ذلك، وأخبرا قومهما أنهم غالبون إذا فعلوا ذلك"(٦).

ذلك"(٦).

أخرج الطبري عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأوَّل، قال: لما هم بنو إسرائيل بالانصراف إلى مصر، حين أخبرهم النقباء بما أخبروهم من أمر الجبابرة، خرَّ موسى وهارون على وجوههما سجودًا قدّام جماعة بني إسرائيل، وخرَّق يوشع بن نون وكالب بن يافنا ثيابهما، وكانا من جواسيس الأرض، وقالا لجماعة بني إسرائيل: إن الأرض مررنا بها وحسِبْناها صالحًة، رضيها ربُّنا لنا فوهبها لنا، وإنها.. تفيض لبنًا وعسلا ولكن افعلوا واحدة: لا تعصُوا الله، ولا تخشوا الشعب الذين بها، فإنهم خُبْزُنا، ومُدَقَّعون في أيدينا، إن كبرياءهم ذهبت منهم، وإن الله معنا فلا تخشوهم. فأراد جماعة من بني إسرائيل أن يرجموهما بالحجارة "(٧).

وفي قراءة ابن مسعود:«عليهما ويلكم ادخلوا»(٨).

قوله تعالى:{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } [المائدة: ٢٣]، أي:" وعلى الله وحده فتوكَّلوا، إن كنتم مُصدِّقين رسوله فيما جاءكم به، عاملين بشرعه"(٩).

قال القرطبي:أي:" مصدقين به، فإنه ينصركم"(١٠).

قال السمرقندي:" يعني: فثقوا بأنه ناصركم إن كنتم مصدقين بوعد الله تعالى"(١١).

قال أبو السعود:أي:" {وعلى الله} تعالى خاصة{فتوكلوا} بعد ترتيب الأسباب ولا تعتمدوا عليها فإنها بمعزل من التأثير وإنما التأثير من عند الله العزيز القدير {إن كنتم مؤمنين} أي مؤمنين به تعالى مصدقين لوعده فإن ذلك مما يوجب التوكل عليه حتما"(١٢).

قال ابن عطية:" قولهما: {وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين}، يقتضي أنهما استرابا بإيمانهم حين رأياهم يعصون الرسول ويجبنون مع وعد الله تعالى لهم بالنصر"(١).

---

(١) تفسير أبي السعود:٢٤/٣.
(٢) انظر: الكشاف:٦٢١/١، والنكت والعيون:٢٦/٢.
(٣) انظر: الكشاف:٦٢١/١.
(٤) انظر: الكشاف:٦٢١/١.
(٥) أخرجه أحمد(١١٨٣١):ص٣٤٦/١٨[صحيح].
(٦) أخرجه الطبري(١١٦٨٠):ص١٨٣/١٠.
(٧) تفسير الطبري(١١٦٧٩):ص١٨٢/١٠-١٨٣.
(٨) انظر: المحرر الوجيز:١٧٥/٢.
(٩) التفسير الميسر:١١١.
(١٠) تفسير القرطبي:١٢٧/٦.
(١١) بحر العلوم:٣٨٢/١.
(١٢) تفسير أبي السعود:٢٤/٣.

الفوائد:

١- بيان سنة الله تعالى من أنه لا يخلو زمان ولا مكان من عبد صالح تقوم به الحجة على الناس.

٢- فائدة عنصر المباغتة في الحرب وأنه عنصر فعال في كسب الانتصار.

٣-الإعتماد على الله في تحقيق النصر، وعدم الإغترار بقوة الأعداء؛ فإن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، وقد وعد به المؤمنين والله لا يخلف الميعاد.

٤-فضيلة التوكل على الله، وهو اعتماد القلب على الله إيمانا بكفايته سبحانه لعبده.

قال البيهقي:"وجملة التوكل تفويض الأمر إلى الله عز وجل والثقة بحسن النظر فيما أمر به وأباحه، واحده من وكل يكل، إلا أنه يقال: وكل الأمر إلى فلان وقد توكل على الله. لأن المعنى يحمل ذلك ويكله اعتمادًا على الله جل ثناؤه وهو من باب الاختصار.

واختلف أهل المصائر في ذلك:

- فقال قائلون: التوكل الصحيح ما كان من قطع الأسباب، فإذا جاء السبب إلى المراد ارتفع التوكل.
- وقال آخرون: كل أمر بين الله تعالى لعباده فيه طريقًا ليسلكوه إذا عرض لهم والتوكل يقع منهم في سلوك تلك السبيل والتسبب به إلى المراد، فإن فعلوا ذلك متوكلين على الله في أن ينجح سعيهم ويبلغهم مرادهم كانوا آتين الأمر من بابه، ومن جرد التوكل عن السبب بما جعله الله سببًا، فلم يفعل ما أمر به ولم يأت الأمر من بابه"[٢].

ويكفي في فضيلة التوكل على الله، ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون"[٣].

القرآن

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)} [المائدة: ٢٤]

التفسير:

قال قوم موسى له: إنا لن ندخل المدينة أبدًا ما دام الجبارون فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلاهم، أما نحن فقاعدون هاهنا ولن نقاتلهم. وهذا إصرارٌ منهم على مخالفة موسى عليه السلام.

قوله تعالى:{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا} [المائدة: ٢٤]، أي:" قال قوم موسى له: إنا لن ندخل المدينة أبدًا ما دام الجبارون فيها"[٤].

قال الزجاج:" أي: لسنا نقبل مشورة في دخولها، ولا أمرا، وفيها هؤلاء الجبارون، فأعلم الله جل ثناؤه أن أهل الكتاب هؤلاء غير قابلين من الأنبياء قبل النبي - ﷺ -، وأن الخلاف شأنهم، وفي هذا الإعلام دليل على تصحيح نبوة النبي - ﷺ - لأنه أعلمهم ما لا يعلم إلا من قراءة كتاب أو إخبار، أو وحي، والنبي - ﷺ - منشؤه معروف بالخلو من ذكر أقاصيص بني إسرائيل، وبحيث لا يقرأ كتبهم، فلم يبق في علم ذلك إلا الوحي"[٥].

---

[١] المحرر الوجيز:١٧٥/٢.

[٢] المنهاج في شعب الإيمان:٥/٢.

[٣]أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتوي، برقم (٥٧٠٤)، ومسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بدون حساب ولا عذاب برقم (٢١٨).من حديث عمران بن حصين الأزدي..

[٤] التفسير الميسر:١١٢.

[٥] معاني القرآن:١٦٣/٢.

قال الزمخشري:" {لن ندخلها}، نفى لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد المؤيس، و{أبدا}: تعليق للنفي المؤكد بالدهر المتطاول، و{ما داموا فيها}: بيان للأبد"[١].

قال الراغب:" إن قيل: ما فائدة الجمع بين قوله: {أبدا}، وقوله: {ما داموا فيها}؟

قيل: إن امتناعهم من دخولها لكون هؤلاء فيها، وإن اعتبار ذلك ليس في وقت دون وقت بل كل وقت، ما يدخلونها من كونهم فيها"[٢].

قوله تعالى:{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} [المائدة: ٢٤]، أي:" فاذهب أنت وربك فقاتلاهم"[٣].

قال مقاتل:" ينصرك عليهم فقاتلا"[٤].

قال الطبري:أي:" لا نجيء معك يا موسى إن ذهبت إليهم لقتالهم، ولكن نتركك تذهب أنت وحدك وربُّك فتقاتلانهم"[٥].

وقوله تعالى:{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا} [المائدة: ٢٤]، وجوه[٦]:

أحدها: أنهم قالوه على وجه المجاز، بمعنى: اذهب أنت فقاتل وليعنك ربك، أو وربك معين لك.وهذا قول أبي عبيدة[٧]، وابن عطية[٨].

قال ابن عطية:المعنى: "يعينك الله ويقاتل معك ملائكته ونصره، فعسى أن بني إسرائيل أرادت ذلك، أي: اذهب أنت ويخرجهم الله بنصره وقدرته من المدينة وحينئذ ندخلها، لكن قبحت عبارتهم لاقتران النكول بها"[٩].

والثاني: معناه: أن نصرة ربك لك أحق من نصرتنا، وقتاله معك- إن كنت رسوله- أولى من قتالنا.

قال القرطبي:"فعلى هذا يكون ذلك منهم كفر، لأنهم شكوا في رسالته"[١٠].

والثالث: أنهم أرادوا: الذهاب الذي هو النقلة.

قال الجصاص:"وهذا تشبيه وكفر من قائله وهو أولى بمعنى الكلام، لأن الكلام خرج مخرج الإنكار عليهم والتعجب من جهلهم، وقد يقال على المجا:ز قاتله الله، بمعنى: أن عداوته لهم كعداوة المقاتل المستعلي عليهم بالاقتدار وعظم السلطان"[١١].

قال القرطبي:" وصفوه بالذهاب والانتقال، والله متعال عن ذلك. وهذا يدل على أنهم كانوا مشبهة، وهو معنى قول الحسن، لأنه قال: هو كفر منهم بالله، وهو الأظهر في معنى الكلام"[١٢].

قال أبو حيان:" ظاهر الذهاب الانتقال، وهذا يدل على أنهم كانوا مشبهة"[١٣].

والرابع: أرادوا بالـ«ربّ»، هارون.

ذكر بعض المفسرين:" أن المراد بالـ«ربّ»، هنا:هارون، لأنه كان اسن من «موسى»، وكان أكبر من موسى وكان موسى يطيعه، وكان معظما في بني إسرائيل محببا لسعة خلقه ورحب صدره، فكأنهم قالوا: اذهب أنت وكبيرك"[١].

---

[١] الكشاف:٦٢١/١.
[٢] تفسير الراغب الاصفهاني:٣١٧/٤.
[٣] التفسير الميسر:١١٢.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٧/١.
[٥] تفسير الطبري:١٨٥/١٠.
[٦] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٤٣/٤،و تفسير القرطبي:١٢٨/٦، والمحرر الوجيز:١٧٥/٢.
[٧] انظر: مجاز القرآن:١٦٠/١.
[٨] انظر: المحرر الوجيز:١٧٦/٢.
[٩] المحرر الوجيز:١٧٦/٢.
[١٠] تفسير القرطبي:١٢٨/٦.
[١١]أحكام القرآن للجصاص:٤٣/٤.
[١٢] تفسير القرطبي:١٢٨/٦.
[١٣] البحر المحيط:٢٢٠/٤.

قال ابن عطية:"وهذا تأويل بعيد، وهارون إنما كان وزيرا لموسى وتابعا له في معنى الرسالة، ولكنه تأويل يخلص بني إسرائيل من الكفر"[٢].

قلت: وأن تمثيل الصحابي الجليل مقداد بن الأسود بالآية-كما سيأتي- يقتضي أن قوله«ربك»، إنما أريد به الله تعالى. والله أعلم.

قال القرطبي:" وبالجملة فقد فسقوا بقولهم، لقوله تعالى:{فلا تأس على القوم الفاسقين}، أي: لا تحزن عليهم"[٣].

قال الراغب:" ذكر جهلهم وقلة معرفتهم بالله، وأنهم ما قدروا الله حق قدره حيث أمروه أن يستصحبه إلى الجواب استصحاب الأشخاص وبكتهم بامتناعهم من الدخول إما جبنا وإما قصدا إلى العصيان، وأيهما كان فمذموم"[٤].

قال الزمخشري:"والظاهر أنهم قالوا ذلك استهانة بالله ورسوله وقلة مبالاة بهما واستهزاء، وقصدوا ذهابهما حقيقة بجهلهم وجفاهم وقسوة قلوبهم التي عبدوا بها العجل وسألوا بها رؤية الله عز وجل جهرة. والدليل عليه مقابلة ذهابهما بقعودهم ويحكى أن موسى وهرون عليهما السلام خرا لوجوههما قدامهم لشدة ما ورد عليهما، فهموا برجمهما. ولأمر ما قرن الله اليهود بالمشركين وقدمهم عليهم في قوله تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} [المائدة: ٨٢]"[٥].

قوله تعالى:{إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]، أي:" أما نحن فقاعدون هاهنا ولن نقاتلهم"[٦].

قال مقاتل:"يعني: مكاننا، فإننا لا نستطيع قتال الجبابرة"[٧].

قال القرطبي:" أي: لا نبرح ولا نقاتل"[٨].

قال النسفي:أي:" ماكثون لا نقاتلهم لنصرة دينكم"[٩].

قال الشوكاني:" أي: لا نبرح هاهنا، لا نتقدم معك ولا نتأخر عن هذا الموضع، وقيل: أرادوا بذلك عدم التقدم لا عدم التأخر"[١٠].

قال الإمام ابن كثير:" وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال: إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى بلادهم، سجد موسى وهارون، عليهما السلام، قُدام ملأ من بني إسرائيل، إعظاما لما هموا به، وشَق "يوشع بن نون" و "كالب بن يوفنا" ثيابهما ولاما قومهما على ذلك، فيقال: إنهم رجموهما. وجرى أمر عظيم وخطر جليل.

وما أحسن ما أجاب به الصحابة، رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، في العُدة والبَيْض واليَلب، فتكلم أبو بكر، رضي الله عنه، فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول: "أشيروا عليَّ أيها المسلمون". وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار ؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: كأنك تُعرض بنا يا رسول

---

[١] ذكره ابن عطية عن النقاش عن بعض المفسرين، انظر: المحرر الوجيز:١٧٥/٢.
[٢] المحرر الوجيز:١٧٥/٢.
[٣] تفسير القرطبي:١٢٨/٦.
[٤] تفسير الراغب الاصفهاني:٣١٧/٤.
[٥] الكشاف:٦٢١/١.
[٦] التفسير الميسر:١١٢.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٧/١.
[٨] تفسير القرطبي:١٢٨/٦.
[٩] تفسير النسفي:٤٤٠/١.
(١٠)فتح القدير:٣٣/٢.

الله، فوالذي بعثك بالحق لو استَعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك، وما تخلَّف منا رجل واحد، وما نَكْرَه أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصُبُر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونَشَّطه ذلك"[1].

وروي عن حميد عن أنس: "أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذًا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } والذي بعثك بالحق لو ضَرَبْت أكبادها إلى بَرْك الغمَاد لاتبعناك"[2].

وعن عتبة بن عبد السلمي قال: "قال النبي ﷺ لأصحابه: "ألا تقاتلون ؟" قالوا: نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: { فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ } ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"[3].

أخرج الطبري عن قتادة قال: "ذكر لنا أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية، حين صَدّ المشركون الهَدْيَ وحيل بينهم وبين مناسكهم:«إني ذاهب بالهَدْيِ فناحِرُه عند البيت!»، فقال له المقداد بن الأسود: أمَا والله لا نكون كالملأ من بني إسرائيل إذْ قالوا لنبيهم:«اذهب أنت وربك فقاتِلا إنا ههنا قاعدون»، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتِلا إنّا معكم مقاتلون! فلما سمعها أصحابُ نبيِّ الله ﷺ تتابعوا على ذلك"[4].

روي عن عن طارق بن شهاب، قال: "سمعت ابن مسعود، يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك وخلفك «فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره» يعني: قوله"[5].

وقول المقداد "وإن كان محفوظا يوم الحديبية، فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بَدْر"[6].

قال الضحاك:" أمر الله جل وعزّ بني إسرائيل أن يسيروا إلى الأرض المقدسة مع نبيهِّم موسى عليه السلام، فلما كانوا قريبًا من المدينة قال لهم موسى:"ادخلوها"، فأبوا وجبُنوا، وبعثوا اثنى عشر نقيبًا لينظروا إليهم، فانطلقوا فنظروا فجاءوا بحبة فاكهة من فاكهتهم بوِقْر الرجل، فقالوا: اقدُروا قوّة قوم وبأسُهم هذه فاكهتهم! فعند ذلك قالوا لموسى:{اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون}"[7]. وروي عن ابن عباس نحو ذلك[8].

الفوائد:

١- بيان جبن اليهود وسوء أدبهم مع ربهم وأنبيائهم.

٢-نكال اليهود عن قتال الجبابرة.

٣- مع غلو اليهود في أنبيائهم، إلا أنهم خذلوهم وتركوا نصرتهم في أصعب المواقف وفي وقت كانوا في أمس الحاجة لمؤازرتهم ، فقد خذل اليهود موسى عليه السلام وذلك عندما أمرهم بالقتال ودخول الأرض المقدسة بعد أن أخرجهم من مصر وحررهم من ذل العبودية لفرعون ، فكان جوابهم -أي اليهود- له كما أخبر الله تعالى عنهم:{ قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ [المائدة:٢٤].

---

[1] تفسير ابن كثير:٧٧/٣، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام :٦١٥/١.

[2]المسند (١٠٥/٣)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١١٤١)، وابن مردوية كما في تفسير ابن كثير:٧٧/٣، ومسند أبي يعلى الموصلي (٤٠٧/٦)..

[3]ورواه أحمد في مسنده (١٨٣/٤) من طريق الحسن بن أيوب، وابن مردوية كما في تفسير ابن كثير: ٧٨/٣.

[4] تفسير الطبري(١١٦٨٣):ص١٨٦/١٠.

[5] صحيح البحاري(٣٩٥٢):ص٧٣/٥.

[6] تفسير ابن كثير:٧٩/٣.

[7] أخرجه الطبري(١١٦٨٤):ص١٨٦/١٠-١٨٧.

[8] انظر تفسير الطبري(١١٦٨٥):ص١٨٧/١٠.

القرآن
{قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥)} [المائدة: ٢٥]
التفسير:
توجَّه موسى إلى ربه داعيًا: إني لا أقدر إلا على نفسي وأخي، فاحكم بيننا وبين القوم الفاسقين.
قوله تعالى:{قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} [المائدة: ٢٥]، أي:" توجَّه موسى إلى ربه داعيًا: إني لا أقدر إلا على نفسي وأخي"[١].
قال الطبري:أي:" لا أقدر على أحد أن أحمله على ما أحب وأريد من طاعتك واتّباع أمرك ونهيك، إلا على نفسي وعلى أخي"[٢].
قال المراغي:" أي: قال موسى باثا شكواه إلى ربه، معتذرا من فسق قومه عن أمره الذي يبلغه عنه- إنى لا أملك أمر أحد أحمله على طاعتك إلا أمر نفسى وأمر أخى ولا أثق بغيرنا أن يطيعك فى اليسر والعسر والمنشط والمكره"[٣].
قال القرطبي:أي:" لأنه كان يطيعه. وقيل المعنى: إني لا أملك إلا نفسي، ثم ابتدأ فقال:{وأخي}، أي: وأخي أيضا لا يملك إلا نفسه، وإن شئت عطفت على اسم إن وهي الياء، أي إني وأخي لا نملك إلا أنفسنا. وإن شئت عطفت على المضمر في أملك كأنه قال: لا أملك أنا وأخي إلا أنفسنا"[٤].
قال الزمخشري:" لما عصوه وتمردوا عليه وخالفوه وقالوا ما قالوا من كلمة الكفر ولم يبق معه مطيع موافق يثق به إلا هرون قال رب إني لا أملك لنصرة دينك إلا نفسي وأخي، وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة ورقة القلب التي بمثلها تستجلب الرحمة وتستنزل النصرة، ونحوه قول يعقوب -عليه السلام- { إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ} [يوسف: ٨٦].
وعن على رضى الله عنه أنه كان يدعو الناس على منبر الكوفة إلى قتال البغاة، فما أجابه إلا رجلان فتنفس الصعداء[٥]، ودعا لهما وقال: أين تقعان مما أريد؟"[٦].
قوله تعالى:{فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٥]، أي:" فاحكم بيننا وبين القوم الفاسقين"[٧].
قال ابن عباس:"، يقول: اقض بيني وبينهم"[٨].
قال الضحاك:" يقول: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم كلّ هذا يقول الرجل: اقض بيننا"[٩].
قال الطبري:أي:" افصل بيننا وبينهم بقضاء منك تقضيه فينا وفيهم فتبعِدُهم منّا"[١٠].
قال المراغي:أي:" أي: فافصل بيننا -يريد نفسه وأخاه-، وبين القوم الفاسقين عن طاعتك بقضاء تقضيه بيننا، فتحكم لنا بما نستحق، وعليهم بما يستحقون، فقد صرنا خصما لهم وصاروا خصما لنا، وقيل إن المعنى: إنك إذا أخذتهم بالعقاب على قسوتهم فلا تعاقبنا معهم فى الدنيا"[١١].
و{الفاسقين}: أي:" الخارجين عن الإيمان بالله وبه إلى الكفر بالله وبه"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١١٢.
[٢] تفسير الطبري:١٨٧/١٠.
[٣] تفسير المراغي:٩٣/٦.
[٤] تفسير القرطبي:١٢٨/٦.
[٥]قوله «فتنفس الصعداء» في الصحاح: الصعداء بالضم والمد تنفس ممدود.
[٦] الكشاف:٦٢١/١-٦٢٢.
[٧] تفسير المراغي:٩٣/٦.
[٨] أخرجه الطبري(١١٦٨٦):ص١٨٨/١٠-١٨٩.
[٩] أخرجه الطبري(١١٦٨٩):ص١٨٩/١٠.
[١٠] تفسير الطبري:١٨٧/١٠.
[١١] تفسير المراغي:٩٣/٦.
[١٢] تفسير الطبري:١٨٩/١٠.

قال أبو عبيدة:" {فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ}، أي باعد وافصل وميّز... {الفاسقين}، هاهنا: الكافرين"[١].

و«الفرق»: الفصل، يقال: فَرَقت بين هذين الشيئين ، بمعنى: فصلت بينهما، من قول الراجز[٢]:

يَا رَبِّ فافْرُقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي أَشَدَّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ اثْنَيْنَ[٣]

قال السدي:" غضب موسى ﷺ حين قال له القوم: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ، فدعا عليهم فقال: {رب إنّي لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين}، وكانت عَجْلَةً من موسى عِجلها"[٤].

وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير أنه قرأ:« فافرِق»، بكسر الراء[٥].

قال الزمخشري:" إن قلت: أما كان معه الرجلان المذكوران؟

قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما، لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره.

ويجوز أن يقول ذلك لفرط ضجره عند ما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه.

ويجوز أن يريد: ومن يؤاخينى على دينى {فافرق}: فافصل بيننا وبينهم بأن تحكم لنا بما نستحق، وتحكم عليهم بما يستحقون، وهو في معنى الدعاء عليهم"[٦].

وقال القرطبي:" وإن قيل: بأي وجه سأله الفرق بينه وبين هؤلاء القوم؟ ففيه أجوبة:

الأول: بما يدل على بعدهم عن الحق، وذهابهم عن الصواب فيما ارتكبوا من العصيان، ولذلك ألقوا في التيه.

الثاني- بطلب التمييز، أي: ميزنا عن جماعتهم وجملتهم ولا تلحقنا بهم في العقاب.

والثالث:وقيل المعنى: فاقض بيننا وبينهم بعصمتك إيانا من العصيان الذي ابتليتهم به، ومنه قول تعالى: {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [الدخان: ٤]، أي: يقضى، وقد فعل لما أماتهم في التيه.

والرابع: وقيل: إنما أراد في الآخرة، أي: اجعلنا في الجنة ولا تجعلنا معهم في النار، والشاهد على الفرق الذي يدل على المباعدة في الأحوال قول الشاعر[٧]:

يَا رَبِّ فافْرُقْ بَيْنَهُ وَبَيْنِي أَشَدَّ مَا فَرَّقْتَ بَيْنَ اثْنَيْنَ"[٨]

الفوائد:

١-وجوب البراءة من أهل الفسق ببغض عملهم وتركهم لنقمة الله تعالى تنزل بهم.

٢- حرمة الحزن والتأسف على الفاسقين والظالمين إذا حلت بهم العقوبة الإلهية جزاء فسقهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم.

٣- أن الاختلاف على الأنبياء سبب الفتن والهلاك، فعندما دعى نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلام قومه لأمر الله أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فاختلفوا عليه، وَقَالُوا: إن فيها قوماً جبارين، إِلَى أن آل به الحال أن يقول عَلَيْهِ السَّلام:{رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي} [المائدة:٢٥] .

---

[١] .نجاز القرآن:١٦٠/١

[٢]انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٦٠، وتفسير الطبري:١٨٨/١٠، وتفسير القرطبي:١٢٨/٦

[٣] انظر: تفسير الطبري:١٨٨/١٠. قال محقق تفسير الطبري السيد احمد محمد شاكر:" البيت لعله لحبينة بن طريف العكلي".

[٤] أخرجه الطبري(١١٦٨٨):ص١٨٩/١٠.

[٥] انظر: تفسير القرطبي:١٢٩/٦.

[٦] الكشاف:٦٢٢/١.

[٧] سبق تخريجه.

[٨]تفسير القرطبي:١٢٨/٦.

٤-ومنها: أن الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، إذ كانت تجمع بين موسى وبين قومه رابطة القومية الإسرائيلية، أما وقد كفروا بالله وتمردوا على سلطانه وأمره، تبرئ موسى منهم وقال:{ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين}.
٤-ومن الفوائد: أن جميع الأنبياء عليهم السلام لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فضلا عن أن يملكوا لغيرهم، وأنهم عباد محتاجون فقراء إلى الله تعالى، وأنهم كانوا يدعونه لدفع المضرات وجلب الخيرات، وأنهم كانوا يخافون ربهم، ولا يملكون التصرف في الكون.

القرآن
{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)} [المائدة: ٢٦]
التفسير:
قال الله لنبيه موسى عليه السلام: إن الأرض المقدَّسة محرَّم على هؤلاء اليهود دخولها أربعين سنة، يتيهون في الأرض حائرين، فلا تأسف -يا موسى- على القوم الخارجين عن طاعتي.
قوله تعالى:{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: ٢٦]، أي:" قال الله لنبيه موسى عليه السلام: إن الأرض المقدَّسة محرَّم على هؤلاء اليهود دخولها أربعين سنة، يتيهون في الأرض حائرين"[١].
قال ابن الجوزي:" الإشارة إلى:«الأرض المقدسة»، ومعنى تحريمها عليهم: منعهم منها"[٢].
قال مقاتل:" فأوحى الله- عز وجل- إلى موسى- عليه السلام- أما إذ سميتهم فاسقين فالحق أقول لا يدخلونها أبدا، وذلك قوله- عز وجل- {قال فإنها محرمة عليهم}، دخولها البتة أبدا. {أربعين سنة}، فيها تقديم {يتيهون في الأرض}، في البرية"[٣].
قال الزجاج:" قيل: عذبهم الله بأن مكثوا في التيه أربعين سنة سيارة لا يقرهم قرار إلى أن مات البالغون الذين عصوا الله ونشأ الصغار وولد من لم يدخل في جملتهم في المعصية.
وقيل: إن موسى وهارون كانا معهم في التيه.
قال بعضهم: لم يكن موسى وهارون في التيه لأن التيه عذاب، والأنبياء لا يعذبون.
وجائز أن يكون كانا في التيه وأن الله جل اسمه سهل عليهما ذلك كما سهل على إبراهيم الناررفجعلها عليه بردا وسلاما وشأنها الإحراق"[٤].
قال ابن كثير:" لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكَلُوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدرًا مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائمًا لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغَمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجري لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك أنزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام، وعملت قبة العهد، ويقال لها: قبة الزمان"[٥].
وفي مسافة أرض التيه قولان:
أحدهما: تسعة فراسخ، قاله ابن عباس[٦]. قال مقاتل: " فتاه القوم في تسع فراسخ عرض وثلاثين وثلاثين فرسخا طول"[١].

---

[١] التفسير الميسر:٣١٠.
[٢] زاد المسير:٥٣٥/١.
[٣] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٧/١.
[٤] معاني القرآن:١٦٥/٢-١٦٦.
[٥] تفسير ابن كثير:٧٩/٣.
[٦] انظر: زاد المسير:٥٣٥/١.

والثاني: ستة فراسخ في طول اثني عشر فرسخا، حكاه مقاتل أيضا[٢].

قال القرطبي:"ويقال: كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسيروا في فراسخ يسيرة فلا يهتدوا للخروج منها؟

فالجواب- قال أبو علي: قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التي هم عليها إذا ناموا فيردهم إلى المكان الذي ابتدءوا منه. وقد يكون بغير ذلك من الاشتباه والأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المعجزة الخارجة عن العادة"[٣].

قال أبو عبيدة، وأبوبكر السجستاني:" {يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ}، أي: يحورن ويحارون ويضلون"[٤].

قال الطبري:" معنى:{يتيهون في الأرض}، يحارون فيها ويضلُّون ومن ذلك قيل للرجل الضال عن سبيل الحق: تائه . وكان تيههم ذلك: أنهم كانوا يصبحون أربعين سنة كل يوم جادِّين في قدر ستة فراسخ للخروج منه، فيمسون في الموضع الذي ابتدأوا السير منه"[٥].

قال مجاهد:" تاهت بنو إسرائيل أربعين سنة، يصبحون حيث أمسوا، ويمسون حيث أصبحوا في تيههم"[٦].

قال القرطبي:" استجاب الله دعاءه وعاقبهم في التيه أربعين سنة. وأصل «التيه» في اللغة: الحيرة، يقال منه: تاه يتيه تيها وتوها إذا تحير. وتيهته وتوهته بالياء والواو، والياء أكثر. والأرض التيهاء التي لا يهتدى فيها، وأرض تيه وتيهاء ومنها قال[٧]:

تيهٍ أتاويةَ على السُّقَّاطِ

وقال آخر[٨]:

بتيهاءَ قَفْرٍ والمَطِيَّ كأَنَّها قَطَا الحَزْنِ قد كانت فِرَاخًا بُيُوضُها

فكانوا يسيرون في فراسخ قليلة- قيل: في قدر ستة فراسخ- يومهم وليلتهم فيصبحون حيث أمسوا ويمسون حيث أصبحوا، فكانوا سيارة لا قرار لهم"[٩].

واختلف هل كان معهم موسى وهرون في التيه؟ وفيه قولان[١٠]:

أحدهما: لم يكن معهم موسى وهارون-عليهما السلام-، لأن التيه عقوبة. وقد قال:{فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين}.

والثاني: وقيل: كانا معهم لكن سهل الله الأمر عليهما كما جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم.

واختلف في نوع التحريم في قوله تعالى:{ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ}[المائدة:٢٦]، على قولين[١١]:

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٧/١.

[٢] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٦٧/١.

[٣] تفسير القرطبي:١٢٩/٦-١٣٠.

[٤] مجاز القرآن:١٦٠/١، وغريب القرآن لأبي بكر السجستاني:١٩٤.

[٥] تفسير الطبري:١٩٩/١٠.

[٦] أخرده الطبري(١١٧٠١):ص١٩٩/١٠-٢٠٠.

[٧]الشعر للعجاج في ديوانه ٢٤٧. يصف أرضا مجهولة ليس بها علامات يهتدي بها، وأتاويه أفاعيل من تيه. والسقاط كل من سقط عليه، وهم الذين لا يصبرون ولا يجدون الواحد ساقط: وصدر البيت:
وبسطه بسعة البساط

والبساط المكان الواسع من الأرض. وقيل هذا البيت:
وبلدة بعيدة النياط ... مجهولة تغتال خطو الخاطي.

[٨]البيت لعمرو بن أحمر الباهلي في "ديوانه" ص١١٩، "الحجة" ٢/ ٤٣٦، و"شرح الكافية" للرضي ٤/ ١٨٩، و"لسان العرب" ٥/ ٢٨٩٧ (مادة: عرض)، ٧/ ٣٩٦١،مادة: "كون".

[٩] تفسير القرطبي:١٢٩/٦.

[١٠] انظر: تفسير القرطبي:١٢٩/٦.

[١١] انظر: تفسير القرطبي:١٢٩/٦.

أحدهما:أنه تحريم منع، أي أنهم ممنوعون من دخولها، كما يقال: حرم الله وجهك على النار، وحرمت عليك دخول الدار. وهذا القول حكاه الجصاص والقرطبي عن اكثر المفسرين[1].
ومنه قول امرئ القيس[2]:
جالت لتصرعني فقلت لها اقصري   إني امرؤ صرعي عليك حرام
يخاطب فرسه: أي: أنا فارس فلا يمكنك صرعي[3].
قال الجصاص:" فهذا هو أصل التحريم ثم أجرى تحريم التعبد عليه لأن الله تعالى قد منعه بذلك حكما وصار المحرم بمنزلة الممنوع إذ كان من حكم الله فيه أن لا يقع كما لا يقع الممنوع منه وقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ} [المائدة: ٣]، ونحوهما تحريم حكم وتعبد لا تحريم منع في الحقيقة، ويستحيل اجتماع تحريم المنع وتحريم التعبد في شيء واحد، لأن الممنوع لا يجوز حظره ولا إباحته إذ هو غير مقدور عليه، والحظر والإباحة يتعلق بأفعالنا ولا يكون فعل لنا إلا وقد كان قبل وقوعه منا مقدورا لنا"[4].
والثاني: أنه يجوز أن يكون تحريم التعبد، أجازه أبو علي[5]، لأن التحريم أصله المنع قال الله تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} [القصص: ١٢]، قال الجصاص:"يعني: به المنع"[6].
قال الشنقيطي:" ومن إطلاق التحريم بمعناه اللغوي في القرآن: قوله في بني إسرائيل وهم في التيه، قال: {فإنها محرمة عليهم أربعين سنة} [المائدة: آية ٢٦]، فإنه تحريم كوني قدري؛ لأن الله منعهم إياه، لا تحريم شرعي على التحقيق"[7].
واختلف في قوله تعالى:{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: ٢٦]، على قولين:
أحدهما: أنها محرمة عليهم أبدا، وأن قوله:{ أَرْبَعِينَ سَنَةً} منصوب بقوله{ يَتِيهُونَ}. وهذا قول عكرمة[8]، وقتادة[9]،والسدي[10]، واختيار الزجاج[11].
قال الزجاج:" أما نصبه بـ{محرمة} فخطأ، لأن التفسير جاء بأنها محرمة عليهم أبدا"[12].
والثاني: أنها حرمت عليهم أربعين سنة، ثم أمروا بالسير إليها، وعليه فإن قوله:{ أَرْبَعِينَ سَنَةً} منصوب بقوله{ مُحَرَّمَةٌ}. وهذا قول الربيع[13]،واختيار ابن جرير الطبري[14].
قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: إن «الأربعين» منصوبة بـ «التحريم»، وإنّ قوله: {محرمة عليهم أربعين سنة}، معنيٌّ به جميع قوم موسى، لا بعض دون بعض منهم. لأن الله عز ذكره عمَّ بذلك القوم، ولم يخصص منهم بعضًا دون بعض. وقد وفَى الله جل ثناؤه بما وعدهم به من العقوبة، فتيَّههم أربعين سنة، وحرَّم على جميعهم، في الأربعين سنة التي مكثوا فيها تائهين، دخولَ الأرض المقدَّسة، فلم يدخلها منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا صالح ولا طالح، حتى انقضت السنون التي حرَّم الله عز وجَل عليهم فيها دخولها.

---

[1] انظر: أحكام القرآن للجصاص: ٤٤/٤، وتفسير القرطبي:١٢٩/٦.
[2]ديوانه:١٥٧.
[3] انظر: أحكام القرآن للجصاص: ٤٤/٤، والوجوه والنظائر، لأبي هلال العسكري:٢٠٠، وتفسير القرطبي:١٢٩/٦.
[4] أحكام القرآن:٤٤/٤.
[5] انظر: تفسير القرطبي:١٢٩/٦.
[6] أحكام القرآن:٤٤/٤.
[7] العذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير:٤٤٩/٢.
[8] انظر: تفسير الطبري(١١٦٩٣):ص١٩١/١٠-١٩٢.
[9] انظر: تفسير الطبري(١١٦٩١)، و(١١٦٩٢):ض١٩١/١٠.
[10] انظر: تفسير الطبري(١١٦٩٤):ص١٩٢/١٠-١٩٣.
[11] انظر: معاني القرآن:١٦٥/٢.
[12] معاني القرآن:١٦٥/٢.
[13] انظر: تفسير الطبري(١١٦٩٠):ض١٩٠/١٠-١٩١.
[14] انظر: تفسير الطبري:١٩٧/١٠.

ثم أذن لمن بقي منهم وذراريهم بدخُولها مع نبي الله موسى والرجلين اللذين أنعمَ الله عليهما، وافتتح قرية الجبارين، إن شاء الله، نبيُّ الله موسى ﷺ، وعلى مقدّمته يوشع، وذلك لإجماع أهل العلم بأخبار الأوَّلين أن عوج بن عناق قتلَه موسى ﷺ. فلو كان قتلُه إياه قبل مصيره في التيه، وهو من أعظم الجبارين خلقًا، لم تكن بنو إسرائيل تجزَع من الجبارين الجزعَ الذي ظهر منها. ولكن ذلك كان، إن شاء الله، بعد فناء الأمة التي جزعت وعصت ربها، وأبت الدخول على الجبارين مدينَتهم.

وبعدُ: فإن أهل العلم بأخبار الأوّلين مجمعون على أن بلعم بن باعور، كان ممن أعان الجبارين بالدعاء على موسى. ومحالٌ أن يكون ذلك كان وقوم موسى ممتنعون من حربهم وجهادهم، لأن المعونة إنما يحتاج إليها من كان مطلوبًا، فأما ولا طالب، فلا وجه للحاجة إليها"[١].

وفيما يأتي نسرد بعض الاخبار التي وردت في القولين:

قال الربيع:" لما قال لهم القوم ما قالوا، ودعا موسى عليهم، أوحى الله إلى موسى: إنها محرمة عليهم أربعين سنَة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ، وهم يومئذ، فيما ذكر، ستمائة ألف مقاتل. فجعلهم فاسقين بما عصوا. فلبثوا أربعين سنة في فراسخ ستّة، أو دون ذلك، يسيرون كل يوم جادِّين لكي يخرجوا منها، حتى سئموا ونزلوا، فإذا هم في الدار التي منها ارتحلوا وإنهم اشتكوا إلى موسى ما فُعِل بهم، فأنزل عليهم المنّ والسلوى، وأعطوا من الكسوة ما هي قائمة لهم، وينشأ الناشئ فتكون معه على هيئته. وسأل موسى ربه أن يسقيهم، فأتى بحجر الطور، وهو حجر أبيض، إذا ما نزل القوم ضربه بعصاه، فيخرج منه اثنتا عشرة عينًا، لكل سبط منهم عَيْنٌ، قد علم كل أناس مشربهم. حتى إذا خَلَت أربعون سنة، وكانت عذابًا بما اعتدوا وعصوا، أوحى إلى موسى: أنْ مُرْهم أن يسيروا إلى الأرض المقدسة، فإن الله قد كفاهم عدوَّهم، وقل لهم إذا أتوا المسجد: أن يأتوا الباب، ويسجدوا إذا دخلوا، ويقولوا: حطة وإنما قولهم: حطة ، أن يحطَّ عنهم خطاياهم فأبى عامة القوم وعصوا، وسجدوا على خدِّهم، وقالوا: حنطة ، فقال الله جل ثناؤه: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ إِلَى بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [سورة البقرة: ٥٩]"[٢].

وعن عكرمة عن ابن عباس:" قال الله جل وعز: لما دعا موسى:{فإنها محرّمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض}، قال: فدخلوا التيه، فكلُّ من دخل التيه ممن جاوز العشرين سنَة مات في التيه، قال: فمات موسى في التيه، ومات هارون قبله. قال: فلبثوا في تيههم أربعين سنة، فناهض يوشع بمن بقي معه مدينةَ الجبارين، فافتتح يوشع المدينة"[٣].

وعن قتادة، "قال الله جل وعزّ: {إنها محرّمة عليهم أربعين سنة}، حرمت عليهم القُرَى، فكانوا لا يهبطون قرية ولا يقدرون على ذلك، إنما يتبعون الأطواء أربعين سنة، وذكر لنا أن موسى ﷺ مات في الأربعين سنة، وأنه لم يدخل بيت المقدس منهم إلا أبناؤهم والرجلان اللذان قالا ما قالا"[٤].

وأخرج الطبري عن ابن إسحاق، قال: "حدثني بعض أهل العلم بالكتاب الأوّل قال: لما فعلت بنو إسرائيل ما فعلت من معصيتهم نبيّهم، وهّمهم بكالب ويوشع، إذْ أمرَاهم بدخول مدينة الجبارين، وقالا لهم ما قالا ظهرت عظمة الله بالغمام على باب قُبّة الزُّمَرِ على كل بني إسرائيل، فقال جل ثناؤه لموسى: إلى متى يعصيني هذا الشعب ؟ وإلى متى لا يصدّقون بالآيات كلِّها التي وضَعتُ بينهم ؟ أضربهم بالموت فأهلكهم، وأجعل لك شعبًا أشد وأكبر منهم. فقال موسى: يسمع أهلُ المصر الذين أخرجتَ هذا الشعب بقوّتك من بينهم، ويقول ساكن هذه البلاد الذين قد سمعوا أنك أنت الله في هذا الشعب، فلو أنك قتلت هذا الشعب كلهم كرجل واحد، لقالت الأمم الذين

---

[١] تفسير الطبري:١٩٧/١٠.

[٢] أخرجه الطبري(١١٦٩٠):ص١٩٠/١٠-١٩١.

[٣] تفسير الطبري(١١٦٩٥):ص١٩٣/١٠.

[٤] أخرجه الطبري(١١٦٩٦):ص١٩٣/١٠.

سمعوا باسمك: إنما قتل هذا الشعب من أجل الذين لا يستطيع أن يدخلهم الأرض التي خلق لهم، فقتلهم في البّرية ، ولكن لترتفع أياديك ويعظم جزاؤك، يا رَبِّ، كما كنت تكلَّمت وقلتَ لهم، فإنه طويلٌ صبرك، كثيرة نعمك، وأنت تغفر الذنوب فلا توبق، وإنك تحفظ ذنب الآباء على الأبناء وأبناء الأبناء إلى ثلاثة أحقاب وأربعة. فاغفر، أيْ ربِّ، آثام هذا الشعب بكثرة نعمك، وكما غفرت لهم منذ أخرجتهم من أرض مصر إلى الآن. فقال الله جل ثناؤه لموسى صلى الله عليه: قد غفرت لهم بكَلمتك، ولكن حيٌّ أنا، وقد ملأت الأرض محمدتي كلها، لا يرى القوم الذين قد رأوا محمدتي وآياتي التي فعلت في أرض مصر وفي القفار، وابتلوني عشر مرات ولم يطيعوني، لا يرون الأرض التي حلفت لآبائهم، ولا يراها من أغضبني، فأما عبدي كالب الذي كان روحه معي واتبع هواي، فإني مدخله الأرض التي دخلها، ويراها خَلَفه.

وكان العماليق والكنْعانيون جلوسًا في الجبال، ثم غدوا فارتحلوا إلى القفار في طريق بحر سوف، وكلم الله عز وجل موسى وهارون، وقال لهما: إلى متى توسوس عليّ هذه الجماعة جماعة السوء ؟ قد سمعتُ وسوسة بني إسرائيل. وقال، لأفعلن بكم كما قلت لكم، ولتلقينَّ جِيَفكم في هذه القفار، وكحسابكم، من بني عشرين سنة فما فوق ذلك، من أجل أنكم وسوستم عليّ، فلا تدخلوا الأرض التي رفعت يدي إليها، ولا ينزل فيها أحد منكم غير كالب بن يوفنا ويوشع بن نون، وتكون أثقالكم كما كنتم الغنيمة، وأما بنُوكم اليوم الذين لم يعلموا ما بين الخير والشر، فإنهم يدخلون الأرض، وإني بهم عارف، لهم الأرض التي أردت لهم، وتسقط جيفكم في هذه القفار، وتتيهون في هذه القفار على حساب الأيَّام التي حَسَستم الأرض أربعين يومًا، مكان كل يوم سنةً وتقتلون بخطاياكم أربعين سنة، وتعلمون أنكم وسوستم قُدَّامي. إني أنا الله فاعل بهذه الجماعة جماعة بني إسرائيل الذين وعدوا قدامي بأن يتيهوا في القفار، فيها يموتون.

فأما الرهط الذين كان موسى بعثهم ليتحسسوا الأرض، ثم حرَّشوا الجماعة، فأفشوا فيهم خبرَ الشرّ، فماتوا كلهم بغتَة، وعاش يوشع وكالب بن يوفنا من الرهط الذين انطلقوا يتحسسون الأرض.

فلما قال موسى عليه السلام هذا الكلام كلَّه لبني إسرائيل، حزن الشعب حزنًا شديدًا، وغدوا فارتفعوا، إلى رأس الجبل، وقالوا: نرتقي الأرض التي قال جل ثناؤه، من أجل أنا قد أخطأنا. فقال لهم موسى: لم تعتدون في كلام الله ؟ من أجل ذلك لا يصلح لكم عمل، ولا تصعدوا من أجل أنَّ الله ليس معكم، فالآن تنكسرون من قدّام أعدائكم، من أجل العمالقة والكنعانيين أمامكم، فلا تقعوا في الحرب من أجل أنكم انقلبتم على الله، فلم يكن الله معكم . فأخذوا يَرْقَوْنَ في الجبل، ولم يبرح التابوت الذي فيه مواثيق الله جل ذكره وموسى من المحلة يعني من الخيمة حتى هبط العماليق والكنعانيون في ذلك الحائط، فحرقوهم وطردوهم وقتلوهم. فتيّهم الله عز ذكره في التيه أربعين سنَة بالمعصية، حتى هلك من كان استوجب المعصية من الله في ذلك. قال: فلما شَبّ النواشئ من ذراريهم وهلك آباؤهم، وانقضت الأربعون سنة التي تُيِّهوا فيها، وسار بهم موسى ومعه يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، وكان - فيما يزعمون - على مريم ابنة عمران أخت موسى وهارون، وكان لهما صهرًا، قدَّم يوشع بن نون إلى أريحا، في بني إسرائيل، فدخلها بهم، وقتل بها الجبابرة الذين كانوا فيها، ثم دخلها موسى ببني إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله أن يُقيم، ثم قبضه الله إليه، لا يعلم قبره أحد من الخلائق"[١].

قوله تعالى:{فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٦]، أي:" فلا تأسف -يا موسى- على القوم الخارجين عن طاعتي"[٢].

قال ابن عباس:" يقول: فلا تحزن"[٣].

قال مقاتل:" يعني: لا تحزن على قوم أنت سميتهم فاسقين أن تاهوا"[٤].

---

[١] تفسير الطبري(١١٦٩٧):ص١٠/١٩٣-١٩٧.

[٢] التفسير الميسر:٣١٠.

[٣] أخرجه الطبري(١١٧٠٢):ص١٠/٢٠٠.

[٤] تفسير مقاتل بن سليما:٤٦٨/١.

قال السدي:": لما ضُرب عليهم التّيه، ندم موسى ﷺ، فلما نَدِم أوحى الله إليه: {فلا تأس على القوم الفاسقين}، لا تحزن على القوم الذين سمَّيتهم فاسقين ، فلم يحزن"[(١)].

قال الزجاج:" جائز أن يكون هذا خطابا لموسى، وجائز أن يكون خطابا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أي لا تحزن على قوم لم يزل شأنهم المعاصي ومخالفة الرسل"[(٢)].

قال ابو عبيدة:"{فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ}، لا تحزن، يقال: أسيت عليه، قال العجّاج[(٣)]:

وَانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى "[(٤)]

قال ابن كثير:" وقوله تعالى:{ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ }، تسلية لموسى، عليه السلام، عنهم، أي: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فمهما حكمت عليهم، به فإنهم يستحقون ذلك"[(٥)].

الفوائد:

١-قدرة الله تعالى يليق بمسلم أن يشك في الأخبار الصحيحة، أو يتوقف فيها، أو يظن فيها الظنون بناء على أقاويل قوم كفار، أو بناء على النظريات والمكتشفات الحديثة؛ فإنَّ الله قادر على كل شيء، وهو قادر سبحانه على أن يُعجز الناس عن الوقوف على مكانهم، كما قال سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ}[فاطر:٤٤].

وإذا أراد المسلم عبرة في هذا الباب فليقرأ قصة بني إسرائيل عندما قضى الله عز وجل عليهم أن يتيهوا في الأرض، فتاهوا في أرض سيناء أربعين سنة. قال تعالى: {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة:٢٦]، وإذا نظرت إلى الخريطة تجدها منطقة صغيرة، فهي الزاوية التي في رأس البحر الأحمر، فلولا أنَّ الله عز وجل أعمى قلوبهم وصرفهم عن الاهتداء لما ضاعوا في مثل هذا المكان الصغير هذه المدة الطويلة. فلله الأمر من قبل ومن بعد، وهو على كلِّ شيء قدير.

٢- أن التحريم نوعان[(٦)]:

أحدهما:- التحريم الكوني: ويطلق على منع الشيء، فكل شيء منعته بالقوة فقد حرمته[(٧)]، ومن ذلك قوله تعالى: {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ} [القصص:١٢]، يعني: حرم الله على سيدنا موسى، الإرضاع من غير أمه، وهذا تحريم كوني.

والثاني:- والتحريم الديني: يطلق في الشرع على ما حرمه الله؛ أي: منعه على لسان نبيه، وتوعد مرتكبه بالعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ} [النساء:٢٣].

وقد تناولناهما في تفسير الآية بشيء من التفصيل.

٣-قال ابن كثير:" هذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم، ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما، فيما أمرهم به من الجهاد، فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه في ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا وقد شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده في اليم، وهم ينظرون لتَقَرَّ به أعينهم وما بالعهد من قدم، ثم

---

(١) أخرجه الطبري(١١٧٠٣):ص١٠/٢٠٠.

(٢) معاني القرآن:١٦٦/٢.

(٣)ديوانه ٢٠، والكامل ١: ٣٥٢، واللسان (حلب) (كرس) ، وهو من رجزه المشهور، مضى أوله في هذا التفسير ١: ٥٠٩، يقول:

يَا صَاحِ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ ... قَالَ: نَعَمْ! أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا

وَانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الأَسَى.

(٤) مجاز القرآن:١٦١/١.

(٥) تفسير ابن كثير:٨١/٣.

(٦) انظرك الكليات:٤٠٠، والعذب المنير من مجالس الشنقيطي في التفسير:٤٤٨/٢-٤٤٩.

(٧)انظر: المقاييس في اللغة (كتاب الحاء، باب الحاء والراء وما يثلثهما) ص (٢٥٦)، المصباح المنير (مادة: حرم) ٥١.

ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازي عشر المعشار في عدّة أهلها وعُدَدهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الذيل، هذا وهم في جهلهم يعمهون، وفي غَيِّهم يترددون، وهم البُغَضَاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: { نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } [المائدة: ١٨] فقبح الله وجوههم التي مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضي لهم فيها بتأبيد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود"[١].

القرآن

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)} [المائدة: ٢٧]

التفسير:

واقصص -أيها الرسول- على بني إسرائيل خَبَر ابنَيْ آدم قابيل وهابيل، وهو خبرٌ حقٌ: حين قَدَّم كلٌّ منهما قربانًا -وهو ما يُتَقرَّب به إلى الله تعالى- فتقبَّل الله قُربان هابيل؛ لأنه كان تقيًّا، ولم يتقبَّل قُربان قابيل؛ لأنه لم يكن تقيًّا، فحسد قابيلُ أخاه، وقال: لأقتلنَّك، فَردَّ هابيل: إنما يتقبل الله ممن يخشونه.

قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا} [المائدة: ٢٧]، أي:" واقصص -أيها الرسول- على بني إسرائيل خَبَر ابنَيْ آدم قابيل وهابيل، وهو خبرٌ حقٌ: حين قَدَّم كلٌّ منهما قربانًا"[٢].

قال الطبري:أي:"واتلُ على هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطُوا أيديهم إليكم، وعلى أصحابك معك وعرِّفهم مكروهَ عاقبة الظلم والمكر، وسوء مغبَّة الخَتْر ونقض العهد، وما جزاء الناكثِ وثوابُ الوافي خبرَ ابني آدم، هابيل وقابيل، وما آل إليه أمر المطيع منهما ربَّه الوافي بعهده، وما إليه صار أمر العاصي منهما ربَّه الخاتِر الناقضِ عهده، فلتعرف بذلك اليهود وخَامِة غِبِّ غَدْرهم ونقضهم ميثاقَهم بينك وبينهم، وهمَّهم بما همُّوا به من بسط أيديهم إليك وإلى أصحابك، فإن لك ولهم في حسن ثوابي وعِظَم جزائي على الوفاء بالعهد الذي جازيت المقتولَ الوافِيَ بعهده من ابني آدم، وعاقبتُ به القاتل الناكثَ عهده عزاءً جميلا"[٣].

قال السعدي:" أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقا لا كذبا، وجدا لا لعبا، أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال المذكورة، إذ أخرج كل منهما شيئا من ماله لقصد التقرب إلى الله"[٤].

قال ابن عطية:" {اتل}، معناه: اسرد وأسمعهم إياه، وهذه من علوم الكتب الأول التي لا تعلق لمحمد ﷺ بها إلا من طريق الوحي، فهو من دلائل نبوته"[٥].

والضمير في قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٢٧]، ظاهر أمره أنه يراد به بنو إسرائيل لوجهين[٦]:

أحدهما أن المحاورة فيما تقدم إنما هي في شأنهم وإقامة الحجج عليهم بسبب همهم ببسط اليد إلى محمد -ﷺ-.

والثاني: أن علم نبأ ابني آدم إنما هو عندهم وفي غامض كتبهم، وعليهم تقوم الحجة في إيراده والنبأ الخبر.

---

[١] تفسير ابن كثير:٨١/٣.
[٢] التفسير الميسر:١١٢.
[٣] تفسير الطبري:٢٠١/١٠-٢٠٢.
[٤] تفسير السعدي:٢٢٨.
[٥] المحرر الوجيز:١٧٨/٢.
[٦] انظر: المحرر الوجيز:١٧٨/٢.

أخرج الطبري عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم بالكتاب الأوَّل: "أن آدم أمر ابنه قابيل أن يُنكِح أختَه تُؤْمَهُ هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته تُؤْمَه قابيل، فسلم لذلك هابيل ورضي، وأبى قابيل ذلك وكره، تكرمًا عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل، وقال: نحنَ وِلادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي! ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قابيل من أحسن الناس، فضن بها عن أخيه وأرادها لنفسه. فالله أعلم أيّ ذلك كان فقال له أبوه: يا بني إنها لا تحلُّ لك! فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه، فقال له أبوه: يا بني فقرّب قربانًا، ويقرّب أخوك هابيل قربانًا، فأيُّكما قَبِل الله قربَانه فهو أحق بها. وكان قابيل على بَذْر الأرض، وكان هابيل على رِعاية الماشية، فقرب قابيل قمحًا وقرّب هابيل أبْكارًا من أبكار غنمه وبعضهم يقول: قرب بقرة فأرسل الله جل وعز نارًا بيضاء فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، وبذلك كان يُقْبَل القُربان إذا قبله"[1].

قال مقاتل:" يقول: اتل -يا محمد- على أهل مكة نبأ ابني آدم بالحق ليعرفوا نبوتك، يقول: اتل عليهم حديث ابني آدم هابيل وقابيل، وذلك أن حواء ولدت في بطن واحد غلاما وجارية قابيل وإقليما، ثم ولدت في البطن الآخر غلاما وجارية، هابيل وليوذا، وكانت أخت قابيل أحسن من أخت هابيل، فلما أدركا قال آدم- عليه السلام- ليتزوج كل واحد منهما أخت الآخر قال قابيل لكن يتزوج كل واحد منهما أخته التي ولدت معه، قال آدم- عليه السلام-: قربا قربانا فأيما تقبل قربانه كان أحق بهذه الجارية وخرج آدم- عليه السلام- إلى مكة فعمد قابيل وكان صاحب زرع فقرب أخبث زرعه البر المأكول فيه الزوان، وكان هابيل صاحب ماشية فعمد فقرب خير غنمه مع زبد ولبن ثم وضعا القربان على الجبل وقاما يدعوان الله- عز وجل- فنزلت نار من السماء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، فحسده قابيل، فقال لهابيل: لأقتلنك. قال هابيل: يا أخي لا تلطخ يدك بدم بريء فترتكب أمرا عظيما، إنما طلبت رضا والدي ورضاك فلا تفعل فإنك إن فعلت أخزاك الله بقتلك إياي بغير ذنب ولا جرم فتعيش في الدنيا أيام حياتك في شقوة ومخافة في الأرض حتى تكون من الخوف والحزن أدق من شعر رأسك ويجعلك إلهي ملعونا. فلم يزل يحاوره حتى انتصف النهار، وكان في آخر مقالة هابيل لقابيل: إن أنت قتلتني كنت أول من كتب عليه الشقاء، وأول من يساق إلى النار من ذرية والدي، وكنت أنا أول شهيد يدخل الجنة، فغضب قابيل فقال: لا عشت في الدنيا. ويقال قد تقبل قربانه ولم يتقبل قرباني، فقال له هابيل: فتشقى آخر الأبد، فغضب عند ذلك قابيل فقتله بحجر دق رأسه وذلك بأرض الهند عشية وآدم- عليه السلام- بمكة "[2].

واختلف في قوله تعالى:{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا} [المائدة: ٢٧]، على قولين:

أحدهما: أنهما من بني إسرائيل، وهذا قول الحسن[3].

والثاني: أنهما ابنا آدم لصلبه، وهما هابيل وقابيل، وهو قول ابن عباس[4]، وابن عمر[5]، ومجاهد[6]، وقتادة[7]، وعطية[8]، واختيار الطبري[9]، والزمخشري[10]، وابن عطية[11]، وهو وهو قول الجمهور[1].

---

[1] تفسير الطبري(١١٧١٤):ص١٠/٢٠٥-٢٠٦.

[2] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٦٨-٤٧٠.

[3] انظر:تفسير الطبري(١١٧١٩):ص١٠/٢٠٨، و النكت والعيون:٢/٢٨.

[4] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٦):ص١٠/٢٠٣.

[5] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٥):ص١٠/٢٠٢-٢٠٣.

[6] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٧)-(١١٧١٠):ص١٠/٢٠٤-٢٠٥.

[7] انظر: تفسير الطبري(١١٧١٦)، و(١١٧١٧):ص١٠/٢٠٧-٢٠٨.

[8] انظر: تفسير الطبري(١١٧١٣):ص١٠/٢٠٥.

[9] انظر: تفسير الطبري:١٠/٢٠٨-٢٠٩.

[10] انظر: الكشاف:١/٦٢٤.

[11] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٧٨.

والقول الثاني هو الصحيح، وذلك لوجهين:
أحدهما: لقوله تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: ٣١]، إذ ولو كان من بني إسرائيل، لكان قد عرف الدفن.
والثاني: ولأن النبي ﷺ قال عنه: «إنه أول من سن القتل»[٢].
قال ابن عطية:" و{ابنا آدم} هما في قول جمهور المفسرين لصلبه. وهما قابيل وهابيل، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: «ابنا آدم» ليسا لصلبه ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل.
قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب، والصحيح قول الجمهور"[٣].
قال السعدي:"والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين"[٤].
قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، أن اللذين قرّبا القربان كانا ابني آدم لصلبه، لا من ذرّيته من بني إسرائيل. وذلك أن الله عز وجل يتعالى عن أن يخاطب عبادَه بما لا يفيدهم به فائدة، والمخاطبون بهذه الآية كانوا عالمين أن تقريبَ القربان لله لم يكن إلا في ولد آدم، دون الملائكة والشياطين وسائرِ الخلق غيرهم. فإذْ كان معلومًا ذلك عندهم، فمعقول أنه لو لم يكن معنيًّا بِ ابني آدم اللذين ذكرهما الله في كتابه، ابناهُ لصلبه، لم يفدْهم بذكره ﷻ إياهما فائدة لم تكن عندهم. وإذْ كان غيرَ جائز أن يخاطبهم خطابًا لا يفيدهم به معنًى، فمعلوم أنه عَنى بـ {ابني آدم}، ابني آدم لصلبه، لا بَنِي بنيه الذين بَعُد منه نسبهم، مع إجماع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل، على أنهما كانا ابني آدم لصلبه، وفي عهد آدم وزمانه، وكفى بذلك شاهدا"[٥].
و قوله تعالى:{بِالْحَقِّ} [المائدة: ٢٧]، يحتمل وجوها[٦]:
أحدها: تلاوة ملتبسة بالحق والصحة.
والثاني: اتله نبأ ملتبسا بالصدق موافقا لما في كتب الأولين.
والثالث: بالغرض الصحيح وهو تقبيح الحسد، لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله ﷺ ويبغون عليه.
والرابع: اتل عليهم وأنت محق صادق.
قال الراغب:"«القربان»:اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى، وكثر استعماله في النسيكة"[٧].
قال الزمخشري:" و«القربان»: اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيكة أو صدقة، كما أن الحلوان اسم ما يحلى أى يعطى، يقال: قرب صدقة وتقرب بها، لأن تقرب مطاوع قرب: قال الأصمعى: تقربوا قرف القمع[٨] فيعدى بالباء حتى يكون بمعنى قرب"[٩].
قوله تعالى:{فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ} [المائدة: ٢٧]، أي:" فتقبَّل الله قُربان هابيل؛ لأنه كان تقيًّا، ولم يتقبَّل قُربان قابيل؛ لأنه لم يكن تقيًّا"[١٠].

---

[١] انظر: المحرر الوجيز:١٧٨/٢.
[٢]حديث صحيح، أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٣، والديات باب ٢، والاعتصام باب ١٥، ومسلم في القسامة حديث ٢٧، والترمذي في العلم باب ١٤، والنسائي في التحريم باب ١، وابن ماجة في الديات باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٣، ٤٣٠، ٤٣٣، وقال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٣٠: "وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود، من طرق عن الأعمش، به". وأخرجه الطري في تفسيره(١١٧٣٨):ص٢١٨/١٠، وتاريخه ٧٢/١.
[٣] المحرر الوجيز:١٧٨/٢.
[٤] تفسير السعدي:٢٢٨.
[٥] تفسير الطبري:٢٠٨/١٠-٢٠٩.
[٦] انظر: الكشاف:٦٢٤/١.
[٧]تفسير الراغب الأصفهاني:١٠٢١/٣.
[٨]في الصحاح: القرف القشر. والقمعة رأس السنام، والجمع قمع. والقمع أيضا: بثرة تخرج في شفر العين.
[٩] الكشاف:٦٢٤/١.
[١٠] التفسير الميسر:١١٢.

قال السعدي:" بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله لقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه"(١).

قال قتادة:" هما هابيل وقابيل، كان أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب ماشية، فجاء أحدهما بخيرِ ماله، وجاء الآخر بشر ماله. فجاءت النار فأكلت قربان أحدهما، وهو هابيل، وتركت قربان الآخر..."(٢).

قال مجاهد:" قرّب هذا زرعًا، وذَا عناقًا، فتركت النارُ الزرعَ وأكلتِ العَناق"(٣).

اختلف في السبب الذي قربا لأجله قرباناً على قولين:

أحدهما: أنهما فعلاه لغير سبب(٤).

قال ابن عطية:" وروي أن تقريبهما للقربان إنما كان تحنثا وتطوعا"(٥).

والثاني: أن ذلك لسبب،- وهو أشهر القولين- وهو أن حواء كانت تضع في كل عام غلاماً وجارية، فكان الغلام يتزوج من أحد البطنين بالجارية من البطن الآخر، وكان لكل واحد من ابني آدم هابيل وقابيل توأمة، فأراد هابيل أن يتزوج بتوأمة قابيل فمنعه، وقال أنا أحق بها منك. وهذا قول ابن مسعود(٦).

واختلف في سبب منعه على قولين (٧):

أحدهما: أن قابيل قال لهابيل: أنا أحق بتوأمتي منك، لأننا من ولادة الجنة وأنت من ولادة الأرض. ذكره ابن إسحاق(٨).

الثاني: أنه منعه منها لأن توأمته كانت أحسن من هابيل ومن توأمته، فقربا قرباناً وكان قابيل حراثاً، وهابيل راعياً، فقرب هابيل سخلة سمينة من خيار ماله، وقرب قابيل حزمة سنبل من شر ماله، فنزلت نار بيضاء فرفعت قربان هابيل وتركت قربان قابيل، وكان ذلك علامة القبول ولم يكن فيهم مسكين يتقرب بالصدقة عليه وإنما كانت قُرَبُهُم هكذا. وهذا معنى قول ابن مسعود(٩).

أخرج الطبري عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي-ﷺ-: "وكان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوّج غلام هذا البطن، جاريةَ هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن، غلامَ هذا البطن الآخر. حتى ولد له ابنان يقال لهما: قابيل، وهابيل. وكان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضَرْع. وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل. وإن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه وقال: هي أختي، ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوَّجها! فأمره أبوه أن يزوِّجها هابيل، فأبى. وإنهما قربا قربانًا إلى الله أيُّهما أحق بالجارية، كان آدم يومئذ قد غاب عنهما إلى مكة ينظر إليها، قال الله عز ذكره لآدم: يا آدمُ، هل تعلم أن لي بيتًا في الأرض ؟ قال: اللهم لا! قال: فإن لي بيتًا بمكة فأتِه. فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة ، فأبت. وقال للأرض، فأبت. وقال للجبال فأبت. وقال لقابيل، فقال: نعم، تذهب وترجع وتجدُ أهلك كما يسرُّكَ. فلما انطلق آدم، قربا قربانًا، وكان قابيل يفخَر عليه فقال: أنا أحق بها منك، هي أختي، وأنا أكبر منك، وأنا وصيُّ والدي! فلما قرَّبا، قرب هابيل جَذَعة سمينة، وقرّب قابيل حُزمة سنبل، فوجد فيها سنبلةً عظيمة، ففرَكَها فأكلها. فنزلت

---

(١) تفسير السعدي:٢٢٨.

(٢) أخرجه الطبري(١١٧١٧):ص١٠/٢٠٧-٢٠٨.

(٣) أخرجه الطبري(١١٧١٨):ص١٠/٢٠٨.

(٤) انظر: النكت والعيون:٢/٢٧.

(٥) المحرر الوجيز:٢/١٧٨.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١١٧١٥):ص١٠/٢٠٦-٢٠٧.

(٧) انظر: النكت والعيون:٢/٢٨.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١١٧١٤):١٠/٢٠٥-٢٠٦.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١١٧١٥):١٠/٢٠٦-٢٠٧. وسوف يأتي.

النار فأكلت قربانَ هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وقال: لأقتلنك حتى لا تنكح أختي! فقال هابيل: إنما يتقبَّل الله من المتقين"[1].

واختلف في سبب قبول قربان هابيل على وجهين:

أحدهما: لأنه كان أتقى لله من قابيل، لقوله:{إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، والتقوى ها هنا الصلاة على ما ذكره المفسرون[2].

الثاني: لأن هابيل تقرب بخيار ماله فَتُقُبِّل منه، وقابيل تقرب بشر ماله، فلم يُتَقَبَّل منه، وهذا قول عبد الله بن عمر[3]، واسماعيل بن رافع[4]، وأكثر المفسرون[5].

قال عبدالله بن عمر:" إنّ ابني آدم اللذين قرّبا قربانًا فتقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حَرْثٍ، والآخر صاحب غنم. وأنهما أُمرا أن يقرّبا قربانًا وإن صاحب الغَنَم قرب أكرم غنمه وأسمَنَها وأحسَنَها طيّبَة بها نفسه وإن صاحبَ الحرث قرّب شَرّ حرثه، [الكوزن] والزُّوان، غير طيبةٍ بها نفسه وإن الله تقبّل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قُربان صاحب الحرث. وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه. وقال: أيمُ الله، إنْ كان المقتول لأشدّ الرجلين، ولكن منعه التحرُّجُ أن يبسطَ يده إلى أخيه"[6].

قال اسماعيل بن رافع:" بلغني أن ابني آدم لمّا أُمِرَا بالقربان، كان أحدهما صاحب غَنَم، وكان أُنْتِجَ له حَمَلٌ في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مالٌ أحبَّ إليه منه. فلما أُمِر بالقربان قرّبه لله فقبله الله منه، فما زال يَرْتَع في الجنة حتى فُدِي به ابن إبراهيم صلى الله عليهما"[7].

واختلف في قربانهما هل كان بأمر، أو من قبل أنفسهما على قولين:

أحدهما: أنهما أُمرا أن يقرّبا قربانًا وذلك حين اختصما إلى أبيهما آدم. وهذا قول عبدالله بن عمر[8]، واسماعيل بن رافع[9]، وذكره ابن إسحاق[10]، واختيار والزمخشري[11].

والثاني: أنهما قربا من قِبَل أنفسهما. وهذا معنى قول ابن عباس[12]، ومجاهد[13]، وعطية[14].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف كان قوله إنما يتقبل الله من المتقين جوابا لقوله: {لأقتلنك}؟

قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعده بالقتل قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟

ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما أنعاه على أكثر العاملين أعمالهم"[15].

---

[1] تفسير الطبري(١١٧١٥):١٠/٢٠٦-٢٠٧.

[2] انظر: النكت والعيون:٢/٢٨.

[3] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٥):ص١٠/٢٠٢-٢٠٣. وسوف يأتي.

[4] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٥):ص١٠/٢٠٢-٢٠٣. وسوف يأتي.

[5] انظر: النكت والعيون:٢/٢٨.

[6] أخرجه الطبري(١١٧٠٥):ص١٠/٢٠٢-٢٠٣.

[7] أخرجه الطبري(١١٧٠٤):ص١٠/٢٠٢.

[8] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٥):ص١٠/٢٠٢.

[9] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٤):ص١٠/٢٠٢.

[10] انظرك تفسير الطبري(١١٧١٤):ص١٠/٢٠٥-٢٠٦.

[11] انظر: الكشاف:١/٦٢٤.

[12] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٦):ص١٠/٢٠٣ قال ابن عباس:" فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لو قربنا قربانًا ...". وانظر: تفسير الطبري(١١٧١١)، و(١١٧١٢):ص١٠/٢٠٥.

[13] انظر: تفسير الطبري(١١٧٠٧)-(١١٧١٠):ص١٠/٢٠٤-٢٠٥.

[14] انظر: تفسير الطبري(١١٧١٣):ص١٠/٢٠٥.

[15] الكشاف:١/٦٢٤.

قوله تعالى:{قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ} [المائدة: ٢٧]، أي:" فحسد قابيلُ أخاه، وقال: لأقتلنَّك"[١].

قال الطبري:أي:" قال الذي لم يُتَقَبَّل منه قربانه، للذي تُقُبّل منه قربانه: لأقتلنك"[٢].

قال قتادة:"...فحسده فقال: لأقتلنك!"[٣].

وروى زيد عن يعقوب: «لأقتلنك»، بسكون النون وتخفيفها[٤].

قال ابن الجوزي:" القائل: هو الذي لم يتقبل منه. قال الفراء: إنما حذف ذكره، لأن المعنى يدل عليه، ومثل ذلك في الكلام أن تقول: إذا رأيت الظالم والمظلوم أعنت، وإذا اجتمع السفيه والحليم حمد، وإنما كان ذلك، لأن المعنى لا يشكل، فلو قلت: مر بي رجل وامرأة، فأعنت، وأنت تريد أحدهما، لم يجز، لأنه ليس هناك علامة تدل على مرادك"[٥].

قوله تعالى:{قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]، أي:" فَردَّ هابيل: إنما يتقبل الله ممن يخشونه"[٦].

عن ابن عباس:"قال لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبي ؟ إنما يتقبل الله من المتقين"[٧].

قال ابن زيد:" يقول: إنك لو اتقيت الله في قربانك تُقُبل منك، جئت بقربانٍ مغشوش بأشرِّ ما عندك، وجئت أنا بقربان طيِّب بخير ما عندي. قال: وكان قال: يتقبل الله منك ولا يتقبل مني! "[٨].

وفي المراد بـ«الْمُتَّقِينَ» قولان:

أحدهما: أنهم الذين يتقون المعاصي، قاله ابن عباس[٩].

والثاني: أنهم الذين يتقون الشرك، قاله الضحاك[١٠].

قال السعدي:" وأصح الأقوال في تفسير {المتقين} هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله -ﷺ-"[١١].

قال ابن عطية:" وإجماع أهل السنة في معنى [التقوى]، أنها اتقاء الشرك، فمن اتقاه وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها نيته مقبولة، وأما المتقي للشرك والمعاصي فله الدرجة العليا من القبول والحتم بالرحمة، علم ذلك بأخبار الله تعالى، لا أن ذلك يجب على الله تعالى عقلا، وقال عدي بن ثابت وغيره: «قربان متقي هذه الأمة الصلاة»[١٢]"[١٣].

قال الطبري:" ويعني بقوله:{من المتقين}، من الذين اتقوا الله وخافوه، بأداء ما كلفهم من فرائضه، واجتناب ما نهاهم عنه من معصيته"[١٤].

قال ابن عطية:" كلام قبله محذوف تقديره: ولم تقتلني وأنا لم أجن شيئا ولا ذنب لي في قبول الله قرباني؟ أما إني اتقيته وكنت على لا حب الحق. وإنما يتقبل الله من المتقين"[١٥].

واختلف في قابيل هل كان عند قتل أخيه كافراً أو فاسقاً ؟ فقال قوم: كان كافراً، وقال آخرون: بل كان رجل سوء فاسقاً[١] .

---

[١] التفسير الميسر:١١٢.
[٢] تفسير الطبري:٢١٠/١٠.
[٣] أخرجه الطبري(١١٧١٧):ص٢٠٧/١٠-٢٠٨.
[٤] انظر: زاد المسير:٥٣٧/١.
[٥] زاد المسير:٥٣٧/١.
[٦] التفسير الميسر:١١٢.
[٧] أخرجه الطبري(١١٧٢٢):ص٢١٠/١٠.
[٨] أخرجه الطبري(١١٧٢٣):ص٢١١/١٠.
[٩] انظر: زاد المسير:٥٣٧/١.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٧٢٤):ص٢١١/١٠.
[١١] تفسير السعدي:٢٢٨.
[١٢] أخرجه الطبري(١١٧٢٦):ص٢١٢/١٠. وفيه:" كان قربان المتّقين، الصلاة".
[١٣] المحرر الوجيز:١٧٨/٢-١٧٩.
[١٤] تفسير الطبري:٢١١/١٠.
[١٥] المحرر الوجيز:١٧٨/٢.

قال ابن جريج: " أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم، قال: أقبلت مع سعيد بن جبير أرمي الجَمْرة، وهو متقنّع متوكئٌ على يدي، حتى إذا وازينا بمنزل سَمُرَةَ الصوّاف، وقف يحدثني عن ابن عباس قال: نهى أن ينكح المرأة أخوها تُوْمها، وينكحها غيره من إخوتها. وكان يولد في كل بطن رجلٌ وامرأة. فوُلدت امرأةٌ وسيمةٌ، وولدت امرأة دميمة قبيحة. فقال أخو الدّميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي. قال: لا أنا أحق بأختي. فقرّبا قربانًا، فتقبل من صاحب الكبش، ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. فلم يزل ذلك الكبش محبوسًا عند الله عز وجل حتى أخرجه في فداء إسحاق، فذبحه على هذا الصَّفا في ثَبِير، عند منزل سمرة الصواف، وهو على يمينك حين ترمي الجمار.

قال ابن جريج، وقال آخرون بمثل هذه القصة. قال: فلم يزل بنو آدم على ذلك حتى مضى أربعة آباء، فنكح ابنةَ عمه، وذهب نكاح الأخوات"[٢].

الفوائد:

١- مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يجب أن يتقرب به إليه تعالى.

٢- عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة.

٣- قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها لله تعالى.

٤- بيان أول من سن جريمة القتل، وهو قابيل.

٥- أن من قتل واحدا فقد سن لغيره أن يقتدي به، فكل من يقتل يأخذ بحظه من إثم، وكذلك من أحيا مثله في الأجر، ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال: «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها»[٣]؛ لأنه أول من سن القتل[٤].

القرآن

{لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)} [المائدة: ٢٨]

التفسير:

وقال هابيلُ واعظًا أخاه: لَئنْ مَدَدْتَ إليَّ يدكَ لتقتُلني لا تَجِدُ مني مثل فعْلك، وإني أخشى الله ربَّ الخلائق أجمعين.

قوله تعالى:{لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي} [المائدة: ٢٨]، أي:" قال هابيلُ واعظًا أخاه: لَئنْ مَدَدْتَ إليَّ يدكَ لتقتُلني"[٥].

قال القرطبي: أي: لئن قصدت قتلي"[٦].

قال الطبري:"وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن المقتول من ابني آدم أنه قال لأخيه لما قال له أخوه القاتل:لأقتلنك: والله لئن مددت إليَّ يدك لتقتلني"[٧].

قوله تعالى:{مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ} [المائدة: ٢٨]، أي:" لا تَجِدُ مني مثل فعْلك"[٨].

قال الطبري:" يقول: ما أنا بمادٍّ يدي إليك لأقتلك"[١].

---

[١] انظر: النكت والعيون:٢٩/٢.

[٢] أخرجه الطبري(١١٧٥١):ص١٠/٢٢٣.

[٣]حديث صحيح، أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٣، والديات باب ٢، والاعتصام باب ١٥، ومسلم في القسامة حديث ٢٧، والترمذي في العلم باب ١٤، والنسائي في التحريم باب ١، وابن ماجة في الديات باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٣، ٤٣٠، ٤٣٣، وقال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٣٠: "وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود، من طرق عن الأعمش، به". وأخرجه الطري في تفسيره(١١٧٣٨):ص١٠/٢١٨، وتاريخه ٧٢/١.

(٤)انظر: أحكام القرآن لابن العربي:٩٠/٢.

[٥] التفسير الميسر:١١٢.

[٦] تفسير القرطبي:١٣٦/٦.

[٧] تفسير الطبري:٢١٣/١٠.

[٨] التفسير الميسر:١١٢.

قال ابن عباس:" ما أنا بمنتصر، ولأمسكنَّ يدي عنك"[2].
قال ابن كثير:" يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه:{ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ}، أي:لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة"[3].
قال القرطبي: أي:" فأنا لا أقصد قتلك، فهذا استسلام منه... وقيل: المعنى: لا أقصد قتلك بل أقصد الدفع عن نفسي، وعلى هذا قيل: كان نائما فجاء قابيل ورضخ رأسه بحجر على ما يأتي ومدافعة الإنسان عمن يريد ظلمه جائزة وإن أتى على نفس العادي"[4].
قال الزمخشري:" قيل: كان أقوى من القاتل وأبطش منه، ولكنه تخرج عن قتل أخيه واستسلم له خوفا من الله لأن الدفع لم يكن مباحا في ذلك الوقت"[5].
وإن قيل: لم جاء الشرط بلفظ الفعل والجزاء بلفظ اسم الفاعل وهو قوله: {لئن بسطت.....} {ما أنا بباسط}؟
الجواب: ليفيد أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع. ولذلك أكده بالباء المؤكدة للنفي[6].
وفي قوله تعالى:{مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ} [المائدة: ٢٨]، قولان:
أحدهما: أما أنا بمنتصر لنفسي، قاله ابن عباس[7].
والثاني: ما كنت لأبتدئك، قاله عكرمة[8].
وفي سبب امتناعه من دفعه عنه قولان:
أحدهما: أنه منعه التحرج مع قدرته على الدفع وجوازه له، قاله ابن عمر[9]، وابن عباس[10]، وجمهور الناس[11].
قال ابن عمر:" وايم الله، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التحرُّج أن يبسُط إلى أخيه"[12].
والثاني: أن دفع الانسان عن نفسه لم يكن في ذلك الوقت جائزا، قاله الحسن[13]، ومجاهد[14].
قال ابن عطية:" والقول الأول هو الأظهر، ومن هنا يقوى أن قابيل إنما هو عاص لا كافر، لأنه لو كان كافرا لم يكن للتحرج وجه، وإنما وجه التحرج في هذا أن المتحرج يأبى أن يقاتل موحدا ويرضى بأن يظلم ليجازى في الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه"[15].
وقال الإمام الطبري:" وأولى القولين في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز ذكره قد كان حرَّم عليهم قتل نفسٍ بغير نفس ظلمًا، وأن المقتول قال لأخيه: ما أنا بباسط يدي إليك إن بسطت إليّ يدك ، لأنه كان حرامًا عليه من قتل أخيه مثلُ الذي كان حرامًا على أخيه القاتل من

---

(1) تفسير الطبري:٢١٣/١٠.
(2) أخرجه الطبري(١١٧٢٨):٢١٣/١٠.
(3) تفسير ابن كثير:٨٥/٣.
(4) تفسير القرطبي:١٣٦/٦.
(5) الكشاف:٦٢٤/١.
(6) انظر: الكشاف:٦٢٥/١-٦٢٦.
(7) انظر: تفسير الطبري(١١٧٢٨):٢١٣/١٠.
(8) انظر: زاد المسير:٥٣٧/١.
(9) انظر: تفسير الطبري(١١٧٢٧):٢١٣/١٠.
(10) انظر: تفسير الطبري(١١٧٢٨):٢١٣/١٠.
(11) انظر: المحرر الوجيز:١٧٩/٢.
(12) أخرجه الطبري(١١٧٢٧):٢١٣/١٠.
(13) انظر: زاد المسير:٥٣٧/١.
(14) انظر: تفسير الطبري(١١٧٢٩):٢١٣/١٠.
(15) المحرر الوجيز:١٧٩/٢.

قتله. فأما الامتناع من قتله حين أراد قتله، فلا دلالة على أن القاتلَ حين أراد قتله وعزم عليه، كان المقتول عالمًا بما هو عليه عازمٌ منه ومحاولٌ من قتله، فترك دفعَه عن نفسه. بل قد ذكر جماعة من أهل العلم أنه قتله غِيلةً، اغتاله وهو نائم، فشدَخ رأسه بصخرةٍ[١]، فإذْ كان ذلك ممكنًا، ولم يكن في الآيةِ دلالة على أنه كان مأمورًا بترك منع أخيه من قتله، يكون جائزًا ادعاءُ ما ليس في الآية، إلا ببرهان يجب تسليمُه"[٢].

وقال القرطبي:" قال مجاهد: كان الفرض عليهم حينئذ ألا يستل أحد سيفا، وألا يمتنع ممن يريد قتله، قال علماؤنا: وذلك مما يجوز ورود التعبد به، إلا أن في شرعنا يجوز دفعه إجماعا. وفي وجوب ذلك عليه خلاف، والأصح وجوب ذلك، لما فيه من النهي عن المنكر. وفي الحشوية قوم لا يجوزون للمصول عليه الدفع، واحتجوا بحديث أبي ذر[٣]، وحمله العلماء على ترك القتال في الفتنة، وكف اليد عند الشبهة"[٤].

قوله تعالى:{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٨]، أي:" إني أخشى الله ربَّ الخلائق أجمعين"[٥].

قال الطبري:أي:" إنّي أخاف الله في بسط يدي إليك إن بسطتها لقتلك، {رب العالمين}، يعني: مالك الخلائق كلها أن يعاقبني على بسط يدي إليك"[٦].

قال ابن كثير:" أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب"[٧].

قال السعدي:أي:" وليس ذلك جبنا مني ولا عجزا. وإنما ذلك لأني {أخاف الله رب العالمين} والخائف لله لا يقدم على الذنوب، خصوصا الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه"[٨].

ثبت في الصحيحين، عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار". قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: "إنه كان حريصا على قتل صاحبه"[٩].

قال الجصاص:" فإنما أراد بذلك إذا قصد كل واحد منهما صاحبه ظلما على نحو ما يفعله أصحاب العصبية والفتنة"[١٠].

وعن بُسْر بن سعيد ؛ أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: "أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «"إنها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي». قال: أفرأيت إن دخل عليّ بيتي فبسط يده إليَّ ليقتلني قال: «كن كابن آدم»"[١١].

قال أيوب السَّخْتَياني: "إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: { لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ } لَعُثْمان بن عفان رضي الله عنه"[١٢].

عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر قال: «ركب النبي ﷺ حمارا وأردفني خلفه، وقال: "يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى

---

[١] وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن جريج، انظر: تسير الطبري(١١٧٤٦)- (١١٧٤٩):ص٢٢١/١٠.
[٢] تفسير الطبري:٢١٤/١٠.
[٣] سوف يأتي. وانظر: الحديث في المسند (١٤٩/٥)، و صحيح مسلم برقم (٦٤٨) وسنن أبي داود برقم (٤٣١) وسنن الترمذي برقم (١٧٦) وسنن ابن ماجة برقم (١٢٥٦).
[٤] تفسير القرطبي:١٣٦/٦.
[٥] التفسير الميسر:١١٢.
[٦] تفسير الطبري:٢١٤/١٠.
[٧] تفسير ابن كثير:٨٥/٣.
[٨] تفسير السعدي:٢٢٨.
[٩] صحيح البخاري برقم (٣١) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٨) من حديث أبي بكرة ، رضي الله عنه.
[١٠] أحكام القرآن:٤٧/٤.
[١١]المسند (١٨٥/١) وسنن الترمذي برقم (٣١٩٤).
[١٢] أخرجه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٨٦/٣.

مسجدك، كيف تصنع ؟". قال: قال الله ورسوله أعلم. قال: "تعفف" قال: "يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديد، ويكون البيت فيه بالعبد، يعني القبر، كيف تصنع ؟" قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "اصبر". قال: "يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع ؟". قال: الله ورسوله أعلم. قال: "اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك". قال: فإن لم أُتْرَك ؟ قال: "فأت من أنت منهم، فكن فيهم قال: فآخذ سلاحي ؟ قال: "إذًا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فألق طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك"»[1].

عن رِبْعِيّ قال: "كنا في جنازة حُذَيفة، فسمعت رجلا يقول: سمعت هذا يقول في ناس: مما سمعت من رسول الله ﷺ: "لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت في داري، فلألجنَّه، فلئن دخل عَلَيّ فلان لأقولن: ها بؤ بإثمي وإثمك، فأكون كخير ابني آدم"[2].

الفوائد:

١- لا يجوز في دين الله قتل النفس المسلمة إلا بإحدى ثلاث كما في الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين، التارك للجماعة "[3].

وفي صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً ". قال ابن: " إن من ورطات الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله " [4].

وقد حذر الرسول - ﷺ - المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً، وأخبر أن القاتل والمقتول في النار، فعن أبي بكرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: " إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار" قال: فقلت، أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: " إنه كان حريصاً على قتل صاحبه "[5].

ولذا فإن العبد الصالح أبى أن يقاتل أخاه، خشية أن يكون من أهل النار، فباء القاتل بإثمه وإثم أخي.

٢- أنه ما عبد الله بمثل الخوف من الله، وطريق الخوف والحزن والشفقات والحياء من الله تبارك وتعالى[6]، قال:{إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٨].

٣-أن الخوف من الله تعالى إيمان، فمن خاف غيره فإنما صرف إليه حقا من حقوق ربه، فأما من أخلص للخوف له، فإنه جل جلاه مدحه وأثنى عليه ووعده إلا من يوم الفزع، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} [الملك: ١٢].

وقال: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور: ٥٢].

وقال: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى(٤٠) **فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** } [النازعات: ٤٠-٤١]

وقال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ (٣)وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٢-٤]

---

[1] المسند (١٤٩/٥)، وصحيح مسلم برقم (٦٤٨) وسنن أبي داود برقم (٤٣١) وسنن الترمذي برقم (١٧٦) وسنن ابن ماجة برقم (١٢٥٦).

[2] تفسير ابن كثير:٨٧/٣.

[3] أخرجه البخاري برفم: ٦٨٧٨. ومسلم برقم: ١٦٧٦..

[4] رواه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: [ومن يقتل مؤمنا متعمد] ، فتح الباري: (١٨٧/١٢) .

[5] رواه مسلم، كتاب الفتن، باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما: (٢٢١٣/٤) .

(٦)انظر: شرح السنة للبربهاري:١٠٦

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يلج النار حتى يكتب من خشية الله حتى يعود اللبن إلى الضرع"[1][2].

وقد جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه عبارة تصور موقف علي من مقتل عثمان أحسن تصوير قال سعيد الخزاعي: "لقيت عليًّا بعد الجمل، فقلت له: إني سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غدًا إن شاء الله، قال: سل عما بدا لك، قلت: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟ قال: إن عثمان كان إمامًا وأنه نهى عن القتال، وقال: من سلَّ سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصيناه، قال: فأي منزلة وسعت عثمان إذا استسلم؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم إذ قال لأخيه: {لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}"[3].

وما أروع ما قاله محمد بن سيرين في هذا الموضوع: "ما علمت أن عليًّا اتُّهِم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس، وذلك أمر مركوز في الطبائع"[4].

القرآن

{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩)} [المائدة: ٢٩]

التفسير:

إني أريد أن ترجع حاملا إثم قَتْلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك، فتكون من أهل النار وملازميها، وذلك جزاء المعتدين.

قوله تعالى:{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [المائدة: ٢٩]، أي:" إني أريد أن ترجع حاملا إثم قَتْلي، وإثمك الذي عليك قبل ذلك"[5].

قال الواحدي:أي:" أن تحمل إثم قتلي وإثم الذي كان منك قبل قتلي"[6].

قال السمرقندي:" يعني: إني أريد أن ترجع بإثمي، يعني: بقتلك إياي، وبإثمك الذي عملت قبل قتلي، وهي الخيانة في القربان وغيره"[7].

قال الزجاج:" أي: أن ترجع إلى الله بإثمي وإثمك"[8].

قال السمعاني:" فكأنه مريد لقتله مجازا وإن لم يكن مريدا حقيقة"[9].

قال الزمخشري:" المراد بالإثم وبال القتل وما يجره من استحقاق العقاب"[10].

قال المراغي:" أي: إنى أريد بالابتعاد من مقابلة الجريمة بمثلها أن ترجع إن فعلتها ملتبسا بإثمى وإثمك أي بإثم قتلك إياى، وإثمك الخاص بك الذي كان من آثاره عدم قبول قربانك"[11].

قال ابن عطية:" قوله:{إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك} الآية، ليست هذه بإرادة محبة وشهوة، وإنما هو تخير في شرين، كما تقول العرب في الشر خيار، فالمعنى إن قتلتني وسبق بذلك قدر فاختياري أن أكون مظلوما سيستنصر الله لي في الآخرة، و{تبوء}، معناه: تمضي

---

[1] المنهاج في شعب الإيمان للبيهقي:٥١٥/١.
[2] انظر: المنهاج في شعب الإيمان:٥١٥/١.
[3] العقد الفريد:٥٢/٥-٥٣.
[4] مصنف ابن ابي شيبة(٣٠٧١٠):ص٢٠٧/٦.
[5] التفسير الميسر:١١٢.
[6] الوجيز:٣١٦.
[7] بحر العلوم:٣٨٤/١.
[8] معاني القرآن:١٦٧/٢.
[9] تفسير السمعاني:٣١/٢.
[10] الكشاف:٦٢٦/١.
[11] تفسير المراغي:٩٩/٦.

متحملا. وقوله: {بإثمي وإثمك}، قيل معناه: بإثم قتلي وسائر آثامك التي أوجبت أن لا يتقبل منك"[1].

قال الراغب:" قوله: {إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك}، [المائدة: ٢٩] أي: تقيم بهذه الحالة. قال[2]:

أنكرت باطلها وبؤت بحقها

وأصل البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف النبو الذي هو منافاة الأجزاء. يقال: مكان بواء: إذا لم يكن نابيا بنازله، وبوأت له مكانا: سويته فتبوأ، وباء فلان بدم فلان يبوء به أي: ساواه، قال تعالى: {وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً [يونس: ٨٧]، وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ}[يونس: ٩٣]، تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ [آل عمران/ ١٢١]، يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ [يوسف: ٥٦].

وروي أنه: «كان عليه السلام يتبوّأ لبوله كما يتبوّأ لمنزله»[3].

وبَوَّأْتُ الرمح: هيأت له مكانا، ثم قصدت الطعن به، وقال عليه السلام: «من كذب عليّ متعمّدا فليتبوأ مقعده من النّار»[4]، وقال الراعي في صفة إبل[5]:

لها أمرها حتى إذا ما تبوّأت بأخفافها مأوى تبوّأ مضجعا

أي: يتركها الراعي حتى إذا وجدت مكانا موافقا للرعي طلب الراعي لنفسه متبوّأ لمضجعه.

ويقال: تَبَوَّأَ فلان كناية عن التزوّج، كما يعبّر عنه بالبناء فيقال: بنى بأهله.

ويستعمل البَوَاء في مراعاة التكافؤ في المصاهرة والقصاص، فيقال: فلان بواء لفلان إذا ساواه، وقوله عزّ وجلّ: {باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ}[الأنفال:١٦]، أي: حلّ مبّوأ ومعه غضب الله، أي: عقوبته، وقوله: {بِغَضَبٍ} في موضع حال، كخرج بسيفه، أي: رجع، لا مفعول نحو: مرّ بزيد. واستعمال (باء) تنبيها على أنّ مكانه الموافق يلزمه فيه غضب الله، فكيف غيره من الأمكنة؟ وذلك على حدّ ما ذكر في قوله:{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران:٢١]..."[6].

وفي قوله تعالى:{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ} [المائدة: ٢٩]، وجوه:

أحدها: أن تبوء بإثم قتلي وإثمك الذي عليك من معاصيك وذنوبك، وهذا قول ابن عباس[7]، وابن وابن مسعود[8]، والضحاك[9]، وقتادة[10]، ومجاهد-في أحدى الروايات-[11].

---

[1] المحرر الوجيز:١٧٩/٢.

[2] الشطر للبيد، وعجزه:

عندي ولم يفخر علي كرامها

وهو في ديوانه ص ١٧٨، شرح المعلقات ١/ ١٧٠، والعباب الفاخر (بوء) ١/ ٥٦.

(٢) قال الصاغاني: ويقال: باء بحقه، أي: أقر، وذا يكون أبدا بما عليه لا له. انظر العباب: (بوء) ، واللسان (بوء) ، والمجمل (بوء) .

[3]) الحديث عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يتبوّأ لبوله كما يتبوأ لمنزله» أخرجه الطبراني في الأوسط، وهو من رواية يحيى بن عبيد بن دجي عن أبيه. قال الهيثمي: ولم أر من ذكرهما، وبقية رجاله موثقون. انظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٠٩. وأخرجه الحارث بن أبي أسامة، وانظر: المطالب العالية ١/ ١٥.

[4] الحديث صحيح متفق على صحته وهو في فتح الباري ٣/ ١٣٠ في الجنائز، ومسلم رقم ١٤١ في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله. وقال جعفر الكتاني: لا يعرف حديث رواه أكثر من ستين صحابيا إلا هذا، ولا حديث اجتمع على روايته العشرة المبشرة إلا هو. انظر: نظم المتناثر ص ٢٣، وشرح السنة ١/ ٢٥٣.

[5] البيت في ديوانه ص ١٦٤، وغريب الحديث ٤/ ٤٤٤، والجمهرة ٢/ ٣٤٧، والفائق ١/ ٦٥٥.

[6] المفردات في غريب القرآن:١٥٨-١٥٩.

[7] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣٠):ص١٠/٢١٥.

[8] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣٠):ص١٠/٢١٥.

[9] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣٥):ص١٠/٢١٦.

[10] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣١)، و(١١٧٣٢):ص١٠/٢١٥.

[11] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣٣)، (١١٧٣٤):ص١٠/٢١٥-٢١٦.

والثاني: وقيل: كأنه كان يمنعه عن القتل، وأراد ترك القتل؛ كيلا يبوء بالإثم. ذكره السمعاني[١]. السمعاني[١].

والثالث: وقيل {بإثمي}، أي: بإثم قتلى، {وإثمك}، أي: الذي من أجله لم يتقبل قربانك. قاله الزجاج[٢].

والرابع: وقيل: {بإثمي}: أن تقتلني، {وإثمك}: ما أضمرت في نفسك من الحسد والعداوة. حكاه الماتريدي عن القتبي[٣].

والخامس: وقال الحسن: "ترجع {بإثمي} بقتلك إياي، {وإثمك}، يعني: الكفر الذي كان عليه"[٤]؛ لأنه يقول: كان أحدهما كافرا فقتل صاحبه؛ فيرجع بالكفر[٥].

والسادس: وقيل المعنى: {بإثمي}، إن لو قاتلتك وقتلتك، وإثم نفسك في قتالي وقتلي. حكاه ابن عطية، وقال:" وهذا هو الإثم الذي يقتضيه قول النبي ﷺ «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه»[٦]، فكأن هابيل أراد: أني لست بحريص على قتلك، فالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك في قتلي"[٧].

والسابع: يعني: أن تبوء بإثمي فى خطاياي، وإثمك بقتلك لي، فتبوء بهما جميعاً، وهذا قول مجاهد[٨].

قال ابن كثير:" وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثا لا أصل له: ما ترك القاتل على المقتول من ذنب....عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصَّبْر لا يمر بذنب إلا محاه»[٩].

وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العَرَصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطُرِحَت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدها"[١٠].

والراجح-والله أعلم- أن يقال في تفسير قوله تعالى::{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ}:" إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي، وذلك هو معنى قوله:{إني أريد أن تبوء بإثمي}، وأما معنى:{وإثمك}، فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته الله جل ثناؤه في أعمالٍ سِوَاه، وذلك لإجماع أهل التأويل عليه. لأن الله عز ذكره قد أخبرنا أن كل عامل فجزاءُ عمله له أو عليه. وإذا كان ذلك حكمه في خلقه، فغير جائز أن يكون آثام المقتول مأخوذًا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثامِ معاصيه التي ارتكبها بنفسه، دون ما ركبَه قتيلُه"[١١].

قال ابن كثير:" وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر"[١٢].

---

[١] انظر: تفسير السمعاني:٣١/٢.

[٢] انظر: معاني القرآن:١٦٧/٢، وذكره الزمخشري في الكشاف:٦٢٥/١.

[٣] انظر: تفسير الماتريدي:٤٩٩/٣.

[٤] تفسير الماتريدي:٤٩٩/٣.

[٥] انظر: تفسير الماتريدي:٤٩٩/٣.

[٦]صحيح البخاري (إيمان باب ٢٢ وفتن باب ١٠) وصحيح مسلم (فتن حديث ١٤ و ١٥) وسنن ابن ماجة (فتن (فتن باب ١١) .

[٧] المحرر الوجيز:١٧٩/٢.

[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٧٣٦):ص٢١٦/١٠.

[٩]مسند البزار برقم (١٥٤٥) "كشف الأستار" وقال البزار : "لا نعلمه يروي عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه ، ولا نعلم أسنده إلا يعقوب".

[١٠] تفسير ابن كثير:٨٧/٣-٨٨.

[١١] تفسير الطبري:٢١٦/١٠-٢١٧.

[١٢] تفسير ابن كثير:٨٨/٣.

قوله تعالى:{فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [المائدة: ٢٩]، أي:" فتكون من أهل النار وملازميها"[١].

قال الطبري:أي:" فتكون بقتلك إياي من سكان الجحيم، ووقود النار المخلدين فيها"[٢].

قال المراغي:" أي: فتكون بما حملت من الإثمين من أهل النار فى الآخرة جزاء ظلمك"[٣].

قال القرطبي:قوله: {فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}،" دليل على أنهم كانوا في ذلك الوقت مكلفين قد لحقهم الوعد والوعيد. وقد استدل بقول هابيل لأخيه قابيل:{فتكون من أصحاب النار} على أنه كان كافرا، لأن لفظ أصحاب النار إنما ورد في الكفار حيث وقع في القرآن، وهذا مردود هنا بما ذكرناه عن أهل العلم في تأويل الآية[٤]، ومعنى:{من أصحاب النار}، مدة كونك فيها "[٥].

قوله تعالى:{وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٢٩]، أي:" وذلك جزاء المعتدين"[٦].

قال الطبري:أي:" والنار ثوابُ التاركين طريق الحق، الزائلين عن قصد السبيل، المتعدِّين ما جُعِل لهم إلى ما لم يجعل لهم"[٧].

قال المراغي:أي:" والنار جزاء كل ظالم"[٨].

قال ابن عطية:" يحتمل أن يكون من قول هابيل لأخيه، ويحتمل أن يكون إخبارا من الله تعالى لمحمد -ﷺ-"[٩].

قال عبد الله بن عمرو: "وإنا لنجد ابنَ آدم القاتلَ يقاسِم أهل النار قسمَّة صحيحًة العذابَ، عليه شطرُ عذابهم"[١٠].

وروى الأعمش، عند عبد الله بن مرة، عن عبد الله بن مسعود قال:" قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأوَّلَ كفلٌ منها، ذلك بأنه أول من سَنَّ القتل"[١١].

وقال إبراهيم النخعي:" ما من مقتول يقتل ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفلٌ منه"[١٢].

وعن حكيم بن حكيم، أنه حُدِّث عن عبد الله بن عمرو: أنه كان يقول: إن أشقى الناس رجلا لابْنُ آدم الذي قتل أخاه، ما سُفِك دم في الأرض منذ قَتَل أخاه إلى يوم القيامة، إلا لحق به منه شيء، وذلك أنه أوَّل من سنَّ القتل"[١٣].

الفوائد:

---

[١] التفسير الميسر:١١٢.

[٢] تفسير الطبري:٢١٧/١٠.

[٣] تفسير المراغي:٩٩/٦.

[٤] انظر: المحرر الوجيز:١٧٩/٢.

[٥] تفسير القرطبي:١٣٨/٦.

[٦] التفسير الميسر:١١٢.

[٧] تفسير الطبري:٢١٧/١٠-٢١٨.

[٨] تفسير المراغي:٩٩/٦.

[٩] المحرر الوجيز:١٧٩/٢.

[١٠] أخرجه الطبري(١١٧٣٧):٢١٨/١٠.

[١١]حديث صحيح، أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣٣، والديات باب ٢، والاعتصام باب ١٥، ومسلم في القسامة حديث ٢٧، والترمذي في العلم باب ١٤، والنسائي في التحريم باب ١، وابن ماجة في الديات باب ١، وأحمد في المسند ١/ ٣٨٣، ٤٣٠، ٤٣٣، وقال ابن كثير في تفسيره ٣/ ١٣٠: "وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود، من طرق عن الأعمش، به". وأخرجه الطري في تفسيره(١١٧٣٨):ص٢١٨/١٠، وتاريخه ٧٢/١.

[١٢] أخرجه الطبري(١١٧٤٠):٢١٩/١٠.

[١٣] أخرجه الطبري(١١٧٤١):ص٢١٩/١٠.

١- أن فيما قصه علينا الوحي من قتل قابيل لأخيه هابيل بيان لما في استعداد البشر من التنازع بين غرائز الفطرة بالتعارض بين عاطفة وشيجة الرحم، وحب العلو والرجحان، والامتياز على الأقران في رغائب النفس ومنافعها، وما قد يلد من الحسد، وما قد يتبع الحسد من البغي والعدوان. فضرب الله لنا مثلا لبيان هاتين الحقيقتين ؛ ليرتب عليه بيان كون غريزة الدين بل هدايته هي المهذبة للفطرة البشرية بترجيح الحق على الباطل والخير على الشر، فكان قابيل مثلا لمن غلبت عليه النزعة الثانية، وهابيل مثلا لمن غلبت عليه الأولى بترجيح هداية الدين.
٢-أن مثوى الظالمين هو عذاب النار.

القرآن
{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠)} [المائدة: ٣٠]
التفسير:
فَزَيَّنت لقابيلَ نفسُه أن يقتل أخاه، فقتله، فأصبح من الخاسرين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم.
قوله تعالى:{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ} [المائدة: ٣٠]، أي:" فَزَيَّنت لقابيلَ نفسُه أن يقتل أخاه، فقتله"[١].
قال الزجاج:أي:" تابعته"[٢].
قال الواحدي:أي:" سهَّلته وزيَّنت له ذلك"[٣].
قال السمرقندي:" يعني: تابعت له نفسه على قتل أخيه"[٤].
قال ابن كثير:" أي: فحسنت وسوّلت له نفسه، وشجعته على قتل أخيه فقتله، أي: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر"[٥].
قال الزمخشري:أي:" فوسعته له ويسرته، من طاع له المرتع: إذا اتسع. وقرأ الحسن: فطاوعت"[٦].
وفي قوله تعالى:{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ} [المائدة: ٣٠]، اقوال:
أحدها: يعنى شجعت له نفسه قتل أخيه، وهو قول مجاهد[٧].
والثاني: يعني: زيَّنَت له، وهو قول قتادة[٨].
والثالث: يعني فساعدته[٩].
والرابع: يعني: فغلت، من الطوع. حكاه الزجاج عن المبرد[١٠].
قال الجصاص:" والمعنى في جميع ذلك أنه فعله طوعا من نفسه غير متكره له ويقال إن العرب تقول طاع لهذه الظبية أصول الشجر وطاع فلان كذا أي أتاه طوعا ويقال انطاع بمعنى انقاد ويقال طوعت له نفسه ولا يقال أطاعته نفسه على هذا المعنى لأن قولهم أطاع يقتضي قصد أمنه لموافقة معنى الأمر وذلك غير موجود في نفسه وليس كذلك الطوع لأنه لا يقتضي أمرا ولا يجوز أن يكون آمر لنفسه ولا ناهيا لها إذ كان موضوع الأمر والنهي ممن هو أعلى لمن دونه وقد يجوز أن يوصف بفعل يتناوله ولا يتعدى إلى غيره كقولك حرك غيره وقتل نفسه كما يقال حرك غيره وقتل غيره"[١١].

---

[١] التفسير الميسر:١١٢.
[٢] معاني القرآن:١٦٧/٢.
[٣] الوجيز:٣١٦.
[٤] بحر العلوم:٣٨٤/١.
[٥] تفسير ابن كثير:٨٨/٣.
[٦] الكشاف:٦٢٦/١.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٧٤٢)-(١١٧٤٤):ص٢٢١/١٠.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٧٤٥):ص٢٢١/١٠.
[٩] انظر: النكت والعيون:٣٠/٢.
[١٠] انظر: معاني القرآن:١٦٧/٢.
[١١] أحكام القرآن:٤٨/٤.

قال الرازي:" قال المفسرون: سهلت له نفسه قتل أخيه. ومنهم من قال شجعته، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة، فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلا عليه، فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه"[١].

ثم اختلفوا في صفة قتله إياه، كيف كانت، والسبب الذي من أجله قتله، وفيه وجوه:

أحدها:أنه وجده نائمًا فشدَخ رأسه بصَخرة. وهذا القول رواه السدي عن عبد الله بن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ [٢].

والثاني: أنه لم يدر كيف يقتله، فتمثَّل إبليس له في هيئة طير، فأخذ طيرًا فقطع رأسه، ثم وضعه بين حجرين فشدَخ رأسه، فعلَّمه القتل. وهذا قول مجاهد[٣]، وابن جريج[٤].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عز ذكره قد أخبر عن القاتل أنه قتل أخاه، ولا خبر عندنا يقطع العذر بصفة قتله إياه. وجائزٌ أن يكون على نحو ما قد ذكر السديّ في خبره وجائزٌ أن يكون كان على ما ذكره مجاهد، والله أعلم أيُّ ذلك كان. غير أن القتل قد كان لا شك فيه"[٥].

قوله تعالى:{فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٣٠]، أي:" فأصبح من الخاسرين الذين باعوا آخرتهم بدنياهم"[٦].

قال النحاس:" أي ممن خسر حسناته و«الخسران»: النقصان"[٧].

قال السمرقندي:" يعني: فصار من المغبونين في العقوبة"[٨].

قال الواحدي:أي:" خسر دنياه بإسخاط والديه وآخرته بسخط الله عليه"[٩].

قال الطبري:أي:" فأصبح القاتل أخاه من ابني آدم، من حزب الخاسرين، وهم الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، بإيثارهم إياها عليها، فوُكسوا في بيعهم، وغبنوا فيه، وخابوا في صفقتهم"[١٠].

قال الزجاج:أي:" ممن خسر حسناته، وكان حين قتله سلبه ثيابه وتركه عاريا بالأرض القفار"[١١].

قال الجصاص:" يعني: خسر نفسه بإهلاكه إياها لقوله تعالى إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ولا دلالة في قوله فأصبح من الخاسرين على أن القتل كان ليلا وإنما المراد به وقت مبهم جائز أن يكون ليلا وجائز أن يكون نهارا وهو كقول الشاعر[١٢]:

أصبحت عاذلتي معتله

وليس المراد النهار دون الليل، وكقول الآخر[١٣]:

---

[١] مفاتيح الغيب:٣٤٠/١١.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٧٤٦):ص٢٢١/١٠-٢٢٢.

[٣] انظر تفسير الطبري(١١٧٤٩):ص٢٢٢/١٠.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٧٤٧)، و(١١٧٤٨):ص٢٢٢/١٠.

[٥] تفسير الطبري:٢٢٣/١٠-٢٢٤.

[٦] التفسير الميسر:١١٢.

[٧] معاني القرآن:٢٩٧/٢.

[٨] بحر العلوم:٣٨٤/١.

[٩] الوجيز:٣١٦.

[١٠] تفسير الطبري:٢٢٤/١٠.

[١١] معاني القرآن:١٦٧/٢.

[١٢] البيت لمسكين بن عامر الحنظلي، كما في المعاني الكبير في أبيات المعاني:١٢٣٧/٣، والزهرة للبغدادي:٢٢٩[مرقم آليا]، وأمالي القالي:١٣٨/١، والبيت تمامه:" قرمتْ بل هي وحمى للصخبْ.

[١٣]ديوانه ص ٦٦، وتخريجه فيه، وزد عليه: غريب أبى عبيد، وغريب الحديث لابن قتيبة ١/ ٥٣٧، والجمل المنسوب للخليل ص ١٣٣، والأصول ٢/ ٣٨٣، والبغداديات ص ٤٢٩، والأزهية ص ٢٦٧، ورصف المبانى ص ١١٩، وفهارسه، والجنى الدانى ص ٣٩٩، وشرح أبيات المغنى ١/ ١٨٨. ويأتى هذا الشعر فى المعاجم،

بكرت عليّ عواذلي   يلحينني وألومهنّه

ولم يرد بذلك أول النهار دون آخره وهذا عادة العرب في إطلاق مثله والمراد به الوقت المبهم"[1].

قال الرازي:" قيل: إن قابيل لما قتل أخاه هرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليس وقال: إنما أكلت النار قربان هابيل لأنه كان يخدم النار ويعبدها، فإن عبدت النار أيضا حصل مقصودك، فبنى بيت نار وهو أول من عبد النار.

وروي أن هابيل قتل وهو ابن عشرين سنة، وكان قتله عند عقبة حراء، وقيل بالبصرة في موضع المسجد الأعظم، وروي أنه لما قتله اسود جسده وكان أبيض، فسأله آدم عن أخيه، فقال ما كنت عليه وكيلا، فقال بل قتلته، ولذلك اسود جسدك، ومكث آدم بعده مائة سنة لم يضحك قط"[2].

الفوائد:

١-أن قوله {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ} يدل، على أنه كان يهاب قتل أخيه، وتجبن فطرته دونه، فما زالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة.

٢- قالت المعتزلة: لو كان خالق الكل هو الله تعالى لكان ذلك التزيين والتطويع مضافا إلى الله تعالى لا إلى النفس.

وجوابه: أنه لما أسندت الأفعال إلى الدواعي، وكان فاعل تلك الدواعي هو الله تعالى فكان فاعل الأفعال كلها هو الله تعالى[3].

القرآن

{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١)} [المائدة: ٣١]

التفسير:

لما قتل قابيلُ أخاه لم يعرف ما يصنع بجسده، فأرسل الله غرابًا يحفر حفرةً في الأرض ليدفن فيها غرابًا مَيِّتًا؛ ليدل قابيل كيف يدفن جُثمان أخيه؟ فتعجَّب قابيل، وقال: أعجزتُ أن أصنع مثل صنيع هذا الغراب فأستُرَ عورة أخي؟ فدَفَنَ قابيل أخاه، فعاقبه الله بالندامة بعد أن رجع بالخسران.

قوله تعالى:{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: ٣١]، أي:" فأرسل الله غرابًا يحفر حفرةً في الأرض ليدفن فيها غرابًا مَيِّتًا"[4].

قال الطبري:أي:" فأثار الله للقاتل إذ لم يدر ما يصنع بأخيه المقتول، غرابًا يحفر في الأرض، فيثير ترابها"[5].

قال عطية:" لما قتله ندم، فضَّمه إليه حتى أروح[6]، وعكفت عليه الطير والسباع تنتظر متى يَرْمي به فتأكله"[7].

في مادة (أنن)، وفي كتب التفسير وإعراب القرآن، في الكلام على قوله تعالى: إنْ هذانِ لَساحِرانِ الآية (٦٣) من سورة طه. انظر مثلا معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/ ٣٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٤، وتفسير القرطبي ٦/ ١١،٢٤٧/ ٢١٨.

[1] أحكام القرآن:٤/٤٨-٤٩.

[2] مفاتيح الغيب:٢٤١/١١. وسوف يأتي ذكر تلك النصوص في تفسير الآية التالية.

[3] مفاتيح الغيب:٢٤٠/١١-٢٤١.

[4] التفسير الميسر:١١٢.

[5] تفسير الطبري:٢٢٩/١٠.

[6] أروح اللحم ، وأراح . أنتن.

[7] أخرجه الطبري(١١٧٥٩):ص٢٢٦/١٠.

قال قتادة:" قتل غرابٌ غرابًا، فجعل يحثُو عليه"[1].

قال مجاهد:" وارى الغراب الغراب. قال: كان يحمله على عاتقه مائة سنة لا يدري ما يصنع به، يحمله ويضعه إلى الأرض، حتى رأى الغراب يدفن الغرابَ"[2].

قال السدي بإسناده إلى الصحابة:" لما مات الغلام تَركه بالعراء، ولا يعلم كيف يَدْفن. فبعث الله جل وعزّ غرابين أخوين، فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حَثا عليه. فلما رآه قال: يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ، فهو قول الله: فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه "[3].

قال ابن عطية:" معناه يفتش التراب بمنقاره ويثيره، ومن هذا سميت سورة براءة البحوث لأنها فتشت عن المنافقين ومن ذلك قول الشاعر[4]:

إن الناس غطوني تغطيت عنهم وإن بحثوني كان فيهم مباحث

وفي مثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة"[5].

وقال الشاعر[6]:

فكانت كعنز السوء قامت برجلها إلى مدية مدفونة تستثيرها

قوله تعالى:{لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: ٣١]، أي:" ليدل قابيل كيف يدفن جُثمان أخيه"[7].

قال الطبري:أي:" ليريه كيف يواري جيفةَ أخيه"[8].

قال الرازي:" {ليريه}، فيه وجهان: الأول: ليريه الله، أو ليريه الغراب، أي ليعلمه، لأنه لما كان سبب تعلمه فكأنه قصد تعليمه على سبيل المجاز"[9].

قال ابن عطية:" والضمير في قوله: {سوأة أخيه}، يحتمل أن يعود على قابيل ويراد بالأخ هابيل، ويحتمل أن يعود على الغراب الباحث ويراد بالأخ الغراب الميت، والأول أشهر في التأويل"[10].

وفي معنى قوله تعالى:{ سَوْءَةَ أَخِيهِ} [المائدة: ٣١]، وجوه[11]:

أحدها: يعني: عورة أخيه. ذكره السمرقندي[12].

قال الرازي:" {سوأة أخيه}: عورة أخيه، وهو ما لا يجوز أن ينكشف من جسده، والسوأة الفضيحة لقبحها"[13].

قال ابن عطية:" السوأة: العورة، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأن سترها أوكد"[14].

والثاني: جيفة أخيه لأنه تركه حتى أنتن، فقيل لجيفته سوأة[15]. وهذا اختيار الإمام الطبري[16].

---

[1] أخرجه الطبري(١١٧٦١):ص١٠/٢٢٧.

[2] أخرجه الطبري(١١٧٦٢):ص١٠/٢٢٧.

[3] أخرجه الطبري(١١٧٥٤):ص١٠/٢٢٥.

[4] انظر: المحرر الوجيز:١٨١/٢، وذكره القرطبي: ١٤٣/٦.

[5] المحرر الوجيز:١٨١/٢، وذكره القرطبي: ١٤٣/٦ بتمامه.

[6] تفسير القرطبي:١٤٣/٦.

[7] التفسير الميسر:١١٢.

[8] تفسير الطبري:٢٢٩/١٠.

[9] مفاتيح الغيب:٣٤١/١١.

[10] المحرر الوجيز:١٨١/٢.

[11] انظر: النكت والعيون:٣٠/٢.

[12] انظر: بحر العلوم:٣٨٤/١.

[13] مفاتيح الغيب:٣٤١/١١.

[14] المحرر الوجيز:١٨١/٢.

[15] انظر: النكت والعيون:٣١/٢.

[16] انظر: تفسير الطبري:٢٢٩/١٠.

والثالث: يعني: جسده الميت، فإنه مما يستقبح أن يرى. أفاده البيضاوي(١).
والرابع: ويحتمل أن يراد «بالسوأة» هذه الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة لا على جهة الغض منه بل الغض حق للقاتل وهو الذي أتى «بالسوأة». أفاده ابن عطية(٢).
وفي الغراب المبعوث قولان:
أحدهما: أنه كان ملكاً على صورة الغراب، فبحث الأرض على سوأة أخيه حتى عرف كيف يدفنه. ذكره الماوردي(٣).
والثاني: أنه كان غراباً، بحث الأرض على غراب آخر. وفيه وجوه(٤):
أحدها: أن قابيل لم يدر كيف يفعل بهابيل حتى بعث الله الغرابين، فتنازعا فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فبحث الأرض عليه.
قال ابن عباس:" مكث يحمل أخاه في جِرابٍ على رقبته سنَة، حتى بعث الله جل وعز الغُرَابين، فرآهما يبحثان، فقال: أعجزتُ أن أكون مثل هذا الغراب ؟ فدفن أخاه"(٥).
قال مجاهد:": بعث الله غرابًا حتى حفر لآخر إلى جنبه ميت وابن آدم القاتل ينظر إليه ثم بحث عليه حتى غيَّبه"(٦).
الثاني: أن الغراب إنما بعث ليري ابن آدم كيفية المواراة لهابيل خاصة.
والثالث: وقيل: إن الغراب بحث الأرض على طعمه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه، لأنه من عادة الغراب فعل ذلك، فتنبه قابيل ذلك على مواراة أخيه. وهذا قول أبي مسلم(٧)، وذكره القرطبي(٨).
قال أبو مسلم: "عادة الغراب دفن الأشياء فجاء غراب فدفن شيئا فتعلم ذلك منه"(٩).
قال القرطبي:" وظاهر الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم، ولذلك جهلت سنة المواراة"(١٠).
قوله تعالى:{قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي} [المائدة: ٣١]، أي:" فتعجَّب قابيل، وقال: أعجزتُ أن أصنع مثل صنيع هذا الغراب فأستُرَ عورة أخي؟"(١١).
قال السمرقندي:" يعني: أضعفت في الحيلة أن أكون مثل هذا الغراب، فأغطي عورة أخي"(١٢).
قال قتادة:" أنه بعثه الله عز ذكره يبحثُ في الأرض، ذكر لنا أنهما غرابان اقتَتَلا فقتل أحدهما صاحبه، وذلك يعني ابن آدم ينظر، وجعل الحيّ يَحْثِي على الميت الترابَ، فعند ذلك قال ما قال:{يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} الآية، إلى قوله: {من النادمين}"(١٣).

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي:١٢٤/٢.
(٢) انظر: المحرر الوجيز:٢/!٨١.
(٣) انظر: النكت والعيون:٣١/٢.
(٤) انظر: أحكام القرآن لان العربي:٨٦/٢.
(٥) أخرجه الطبري(١١٧٥٢):ص٢٢٥/١٠.
(٦) أخرجه الطبري(١١٧٥٥):ص٢٢٥/١٠-٢٢٦.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب:٣٤١/١١.
(٨) انظر: تفسير القرطبي:١٤١/٦.
(٩)مفاتيح الغيب:٣٤١/١١. .
(١٠) تفسير القرطبي:١٤٢/٦.
(١١) التفسير الميسر:١١٢.
(١٢) بحر العلوم:٣٨٤/١.
(١٣) أخرجه الطبري(١١٧٦٠):ص٢٢٧/١٠.

قال الضحاك:" بعث الله غرابًا حيًّا إلى غراب ميّت، فجعل الغراب الحيُّ يواري سوأة الغراب الميت، فقال ابن آدم الذي قتل أخاه: {يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب}، الآية"[1].

قال الرازي:" قوله:{يا ويلتى}، اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء، كأن الويل غير حاضر له فناداه ليحضره، أي أيها الويل احضر، فهذا أوان حضورك، وذكر «يا» زيادة بيان كما في قوله: {يا ويلتى أألد} [هود: ٧٢]"[2].

وقرأ الجمهور: «يا ويلتى» والأصل «يا ويلتي» لكن من العرب من يبدل من الياء ألفا ويفتح الياء لذلك فيقولون «يا ويلتى» ويا غلاما ويقف بعضهم على هاء السكت فيقول يا ويلتاه. وقرأ الحسن بن أبي الحسن «يا ويلتى» ونداء الويلة هو على معنى احضري فهذا أوانك، وهذا هو الباب في قوله:{يا حسرة} [يس: ٣٠] وفي قوله: يا عجبا وما جرى مجراه من نداء هذه الأمور التي لا تعقل وهي معان[3].

وقرأ الجمهور: «أعجزت» بفتح الجيم. وقرأ ابن مسعود والحسن والفياض وطلحة بن سليمان:«أعجزت» بكسر الجيم، وهي لغة[4].

وقرأ طلحة بن مصرف والفياض بن غزوان: «فأواري» بسكون الياء، وهي لغة لتوالي الحركات[5].

قوله تعالى:{فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة: ٣١]، أي:" فعاقبه الله بالندامة بعد أن رجع بالخسران"[6].

قال الحسن البصري: "علاه الله بندامة بعد خسران"[7].

قال السمرقندي:أي: على حمله حيث لم يدفنه حين قتله"[8].

قال الطبري:أي:" على ما فرط منه، من معصية الله عز ذكره في قتله أخاه"[9].

أخرج الطبري عن ابن إسحاق، فيما يذكر عن بعض أهل العلم بالكتاب الأوّل، قال: لما قتله سُقِط في يديه، ولم يَدْر كيف يواريه. وذلك أنه كان، فيما يزعمون، أوَّل قتيل من بني آدم وأوّل ميت قال:{يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي} الآية، إلى قوله:{ثم إن كثيًرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون}، قال: ويزعم أهل التوراة أن قابيل حين قتل أخاه هابيل قال له جل ثناؤه: يا قابيل، أين أخوك هابيل ؟ قال: ما أدري، ما كنت عليه رقيبًا! فقال الله جل وعز له: إنّ صوت دم أخيك ليناديني من الأرض، الآن أنت ملعون من الأرضِ التي فتحت فاها فبلعت دم أخيك من يدك. فإذا أنت عملت في الأرض، فإنها لا تعود تعطيك حرثَها حتى تكون فزعًا تائهًا في الأرض. قال قابيل: عظمت خطيئتي من أن تغفرها! قد أخرجتني اليوم عن وجه الأرض، وأتوارى من قُدَّامك، وأكون فزعًا تائهًا في الأرض، وكل من لقيني قتلني! فقال الله جل وعز: ليس ذلك كذلك، ولا يكون كل من قتل قتيلا يجزى بواحدٍ سبعة، ولكن من قتل قابيل يجزي سبعة، وجعل الله في قابيل آية لئلا يقتله كل من وجده، وخرج قابيل من قدام الله عز وجل من شرقي عدن الجنة"[10].

---

[1] أخرجه الطبري(١١٧٦٤):ص١٠/٢٢٧.
[2] مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.
[3] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٨١.
[4] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٨١.
[5] انظر: المحرر الوجيز:٢/١٨١.
[6] التفسير الميسر:١١٢.
[7] تفسير ابن كثير:٣/٩٠.
[8] بحر العلوم:١/٣٨٤.
[9] تفسير الطبري:١٠/٢٢٩.
[10] تفسير الطبري(١١٧٦٥):ص١٠/٢٢٨. هذا الذي رواه ابن إسحق من قول أهل التوراة ، تجده في كتاب القوم في سفر التكوين ، في الإصحاح الرابع ، وهو ترجمة أخرى لهذه الفقرة من هذا الإصحاح.

وعن خيثمة قال:"لما قتل ابن آدم أخاه نَشِفت الأرض دمه، فلُعِنت فلم تَنْشَف الأرض دمًا بعد"[١].

فان قيل: أليس الندم توبة، فلم لم يقبل منه؟ فعنه خمسة أجوبة:

أحدها: أنه يجوز أن لا يكون الندم توبة لمن تقدمنا، ويكون توبة لهذه الأمة، لأنها خصت بخصائص لم تشارك فيها، قاله الحسن بن الفضل[٢].

والثاني: أنه ندم على حمله لا على قتله[٣].

قال الرازي:" لما لم يعلم الدفن إلا من الغراب صار من النادمين على حمله على ظهره سنة"[٤].

والثالث:أنه ندم إذ لم يواره حين قتله[٥].

قال الرازي:" أنه كان عالما منه بكيفية دفنه، فإنه يبعد في الإنسان أن لا يهتدي إلى هذا القدر من العمل، إلا أنه لما قتله تركه بالعراء استخفافا به، ولما رأى الغراب يدفن الغراب الآخر رق قلبه وقال: إن هذا الغراب لما قتل ذلك الآخر فبعد أن قتله أخفاه تحت الأرض، أفأكون أقل شفقة من هذا الغراب"[٦].

والرابع: أنه ندم على فوات أخيه، لا على ركوب الذنب[٧].

والخامس: أنه ندم ولم يستمر ندمه[٨].

والسادس: أنه ندم عندما رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه.

قال القرطبي:" وقال قوم: كان قابيل يعلم الدفن، ولكن ترك أخاه بالعراء استخفافا به، فبعث الله غرابا يبحث التراب على هابيل ليدفنه، فقال عند ذلك:{يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين}، حيث رأى إكرام الله لهابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه، ولم يكن ذلك ندم توبة"[٩].

والسابع: أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، فلما تعلم ذلك من الغراب علم أن الغراب أكثر علما منه وعلم أنه إنما أقدم على قتل أخيه بسبب جهله وقلة معرفته، فندم وتلهف وتحسر على فعله. أفاده الرازي[١٠].

قال الرازي:" أن ندمه كان لأجل أنه تركه بالعراء استخفافا به بعد قتله، فلما رأى أن الغراب دفنه ندم على قساوة قلبه وقال: هذا أخي وشقيقي ولحمه مختلط بلحمي ودمه مختلط بدمي، فإذا ظهرت الشفقة من الغراب على الغراب ولم تظهر مني على أخي كنت دون الغراب في الرحمة والأخلاق الحميدة فكان ندمه لهذه الأسباب، لا لأجل الخوف من الله تعالى فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم"[١١].

والثامن: أنه صار من النادمين على قتل أخيه، لأنه لم ينتفع بقتله، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، فكان ندمه لأجل هذه الأسباب لا لكونه معصية[١٢].

قال ابن العربي:" كل من ندم فقد سلم، لكن الندم له شروط، فكل من جاء بشروطه قبل منه، ومن أخل بها أو بشيء منها لم يقبل"[١].

---

[١] أخرجه الطبري(١١٧٦٦):ص١٠/٢٢٩.
[٢] انظر: زاد المسير:١/٥٣٩.
[٣] انظر: زاد المسير:١/٥٣٩.
[٤] مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.
[٥] انظر: زاد المسير:١/٥٣٩.
[٦] مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.
[٧] انظر: زاد المسير:١/٥٣٩، وتفسير القرطبي:٦/١٤٢
[٨] انظر: تفسير القرطبي:٦/١٤٢.
[٩] تفسير القرطبي:٦/١٤٢.
[١٠] مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.
[١١] مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.
[١٢] انظر: مفاتيح الغيب:١١/٣٤٢.

قال ابن عطية:" لما رأى قابيل فعل الغراب تنبه على ما يجب أن يصنع بأخيه، ورأى قصور نفسه وجهل البشر بالأمور، فقال:{يا ويلتى أعجزت} الآية، واحتقر نفسه ولذلك ندم... ثم إن قابيل وارى أخاه وندم على ما كان منه من معصية الله في قتله حيث لا ينفعه الندم، واختلف العلماء في قابيل هل هو من الكفار أو من العصاة، والظاهر أنه من العصاة"(٢).

وقال أبو الليث عن ابن عباس: "لو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه"(٣).

وإن قيل: أنه ومن الغريب أنّ الله أخبر عنه أنّه ندم وأنّه في النّار، وقال النّبيّ - صلّى الله عليه وسلم -: "النَّدِمُ تَوبَةٌ"(٤).

فقال علماؤنا عنه ثلاثة أَوْجُهٍ (٥):

أحدها: أنّ الحديث لم يصحّ، ولكن المعنى صحيحٌ، وكلٌّ من ندم سَلِمَ، لكن النَدم له شروطٌ، من جاء بها قُبِلَ منه، ومن أَخَلَّ بها ولم يأت بها لم يُقْبل منه.

الثّاني - قيل: معناه نَدِمَ ولم يَستَمرّ نَدَمُه، وإنّما يُقْبَلُ النَّدَمُ إذا اسْتَمَرَّ.

والثالث: قال علماؤنا: النَّدَمُ على المعاصي إنّما يقعُ بشرطِ العَزْمِ ألَّا يعود ولا يفعل في المستقبل.

قال ابن كثير:"والظاهر أن قابيل عُوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد بن جَبْر أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلا به. وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من ذنب أجدر أن يُعَجِّل الله عقوبته في الدنيا مع ما يَدَّخر لصاحبه في الآخرة، من البَغْي وقطيعة الرحم»(٦). وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون"(٧).

وقال المقدم:" فالظاهر أن الله سبحانه وتعالى لم يعف عنه؛ لأنه لم يتب مما فعل بأخيه، فيلزم أن يفسر قوله تعالى: {فأصبح من النادمين}، يعني: على حيرته حيث لم يهتد إلى ما اهتدى إليه الغراب الأعجم، فكان أخس وأقل من الغراب الأعجم، ولو كان نادماً على قتل أخيه لكانت الندامة توبة، لكنه لم يتب.

وظاهر الآيات أنه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، وأنه تعلم ذلك من الغراب، ولا مانع من ذلك؛ إذ مثله مما يجوز خفاؤه على الإنسان، لاسيما والعالم في أول طور النشأة، وكان هابيل أول قتيل من بني آدم، فيكون أول ميت، فيحتمل أنه لم يكن يعرف ما ويصنع بالميت إذا مات أو بالقتيل إذا قتل"(٨).

قال الطبري:" وكل ما ذكر الله عز وجلّ في هذه الآيات، مثلٌ ضربه الله عز ذكره لبني آدم، وحرَّض به المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ على استعمال العفوِ والصفح عن اليهود الذين كانوا هموا بقتل النبي ﷺ وقتلهم من بني النضير، إذ أتوهم يستعينونهم في دية قتيلي عمرو بن أمية الضمري، وعرَّفهم جل وعز رداءة سجيَّة أوائلهم، وسوء استقامتهم على منهج الحق، مع كثرة أياديه وآلائه عندهم. وضرب مثلهم في غَدْرهم، ومثل المؤمنين في الوفاء لهم والعفو عنهم، بابني آدم المقرِّبَين قرابينهما، اللذين ذكرهما الله في هذه الآيات. ثم ذلك مثلٌ لهم على التأسِّي بالفاضل منهما دون الطالح، وبذلك جاء الخبر عن رسول الله -ﷺ"(٩).

---

(١) أحكام القرآن:٨٨/٢.

(٢) المحرر الوجيز:١٨١/٢.

(٣) انظر: بحر العلوم:٣٨٤/١، وتفسير القرطبي:١٤٢/٦، ومحاسن التأويل:١١١/٤.

(٤)أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٤٤)، والحمدي (١٠٥)، وأحمد: ١/ ٣٧٦، وابن ماجه (٤٢٥٢)، وأبو يعلى (٤٩٦٩)، وابن حبّان (٦١٢) من حديث ابن مسعود.

(٥) المسالك في شرح موطأ مالك: ٥٥٤/٣-٥٥٥.

(٦) رواه أبو داود في سننه برقم (٤٩٠٢) وابن ماجة في سننه برقم (٤٢١١) من حديث أبي بكرة ، رضي الله عنه.

(٧) تفسير ابن كثير:٩٢/٣.

(٨) تفسير القران الكريم: دروس صوتية:٢/٤١.

(٩) تفسير الطبري:٢٢٩/١٠-٢٣٠.

وروي عن الحسن، عن النبي -ﷺ-، أنه قال: "إن ابني آدم ضُرِبا مثلا لهذه الأمة، فخذوا بالخير منهما"[١].

قال السمرقندي:" يقال: إن آدم وحواء أتيا قبره وبكيا أياما عليه، ثم إن قابيل كان على ذروة جبل، فنطحه ثور فوقع على السفح فتفرقت عروقه، ويقال: دعا عليه آدم فانخسفت به"[٢].

به"[٢].

ومن الإسرائيليات ما رواه الطبري، وابن كثير في تفسيرهما كذلك ذكره السيوطي في "الدر": من أن آدم لما قتل أحد ابنيه الآخر مكث مائة عام لا يضحك حزنًا عليه؛ فأتى على رأس المائة فقيل له: حياك الله وبياك، وبُشر بغلام؛ فعند ذلك ضحك، وكذلك ما ذكره من أن آدم -عليه السلام- رثى ابنه بشعر.

أخرج الطبري عن سالم بن أبي الجعد قال: لما قتل ابن آدم أخاه، مكث آدم مائة سنة حزينًا لا يضحك، ثم أتي فقيل له: حيّاك الله وبيّاك! فقال: بياك ، أضحكك"[٣].

وأخرج الطبري عن علي بن أبي طالب: "لما قتل ابن آدم أخاه، بكاه آدم فقال:

تَغيَّرت البلاد ومَنْ عَلَيها فَلَوْنُ الأرض مُغْبر قَبيح

تغيَّر كل ذي لون وطعم وقلَّ بَشَاشَة الوجْه المليح

فأجيب آدم -عليه السلام-:

أبَا هَابيل قَدْ قُتلا جَميعًا وصار الحي كالميْت الذبيح

وجَاء بشرةٍ قد كان مِنْها عَلى خَوف فجاء بها يَصيح"[٤]

وذكره ابن كثير في تفسيره[٥].

وقد طعن في نسبة هذه الأشعار إلى نبي الله آدم الإمام الذهبي في كتابه: "ميزان الاعتدال"، وقال: فالآفة المخرمي أو شيخه"[٦].

قال الزمخشري:" وروى أن آدم مكث بعد قتله مائة سنة لا يضحك» وأنه رثاه بشعر، وهو كذب بحت، وما الشعر إلا منحول ملحون. وقد صح أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الشعر"[٧].

قال الشيخ محمد أبو شهبة:"وما الشعر الذي ذكروه إلا منحول مختلق، والأنبياء لا يقولون الشعر... قال الله تبارك وتعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [يس: ٦٩]، والحق: أنه شعر في غاية الركاكة، والأشبه أن يكون هذا الشعر اختلاق إسرائيلي ليس له من العربية إلا حظ قليل، أو قصاص يريد أن يستولي على قلوب الناس بمثل هذا الهراء"[٨].

---

(١) أخرجه الطبري(١١٧٦٨):ص١٠/٢٣٠.

(٢) بحر العلوم:٣٨٥/١. ولم اقف عليه..

(٣) تفسير الطبري(١١٧٢٠):ص١٠/٢٠٩-٢١٠. في اسناده حسام بن مصك بن ظالم بن شيطان الأزدي . روى عن الحسن. وابن سيرين ، وقتادة ، ونافع مولى ابن عمر. روى عنه أبو داود الطيالسي ، وهشيم ، ويزيد بن هرون ، وغيرهم. ضعفوه ، حتى قال ابن معين : كان كثير الخطأ ، فاحش الوهم ، حتى خرج عن حد الاحتجاج به . مترجم في التهذيب.

(٤) تفسير الطبري(١١٧٢١):ص١٠/٢٠٩-٢١٠. وفي إسناده غياث بن إبراهيم النخعي ، الكوفي ، قال يحيى بن معين : كذاب خبيث . وقال خالد بن الهياج : سمعت أبي يقول : رأيت غياث بن إبراهيم ، ولو طار على رأسه غراب لجاء فيه بحديث! وقال : إنه كان كذابًا يضع الحديث من ذات نفسه . مترجم في الكبير ١٠٩/١/٤ ، وابن أبي حاتم ٥٧/٢/٣ ، وفي لسان الميزان ، وميزان الاعتدال. وفي المخطوطة والمطبوعة ، سقط من الإسناد عن غياث بن إبراهيم ، وزدته من إسناد أبي جعفر في تاريخه ١ : ٧٢ ، وروى الخبر هناك.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير:٩١/٣.

(٦) ميزان الإعتدال:١٥٥/١.

(٧) الكشاف:٦٢٦/١.

(٨)الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير:١٨٣.

قال الألوسي: "وروي عن ميمون بن مهران عن الحبر ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: «من قال: آدم - عليه السلام - قد قال شعرًا فقد كذب، إن محمدًا ﷺ والأنبياء كلهم في النهي عن الشعر سواء، ولكن لما قتل قابيل هابيل بكاه آدم بالسريانية، فلم يزل ينقل، حتى وصل إلى يعرب بن قحطان، وكان يتكلم بالعربية، والسريانية، فقدم فيه وأخر، وجعله شعرًا عربيًا»، وذكر بعض علماء العربية: أن في ذلك لحنًا، وإقواء، وارتكاب ضرورة، والأولى عدم نسبته إلى يعرب ؛ لما فيه من الركاكة الظاهرة"[1].

الفوائد:

١-قال ابن الجوزي:" وفي هذه القصة تحذير من الحسد، لأنه الذي أهلك قابيل"[2].

٢- أن الله تعالى بعث الغراب حكمة، ليرى ابن آدم كيفية المواراة، وهو معنى قوله تعالى:{ ثم أماته فأقبره][عبس: ٢١]، فصار فعل الغراب في المواراة سنة باقية في الخلق، فرضا على جميع الناس على الكفاية، من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين. وأخص الناس به الأقربون الذين يلونه، ثم الجيرة، ثم سائر المسلمين.

وأما الكفار فقد روى أبو داود عن علي قال: " لما مات أبو طالب أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: إن عمك الشيخ الضال قد مات، فقال: " انطلق فواره، ولا تحدثن شيئا حتى تأتيني " قال: فانطلقت فواريته. فأمرني فاغتسلت، ثم دعا لي بدعوات ما أحب أن لي بهن ما عرض من شيء »[3][4].

٣- أن دفن الميت لوجهين[5]:

أحدهما: لستره.

الثاني: لئلا يؤذي الأحياء بجيفته.

روي عن يحيى بن زهدم قال: حدثني أبي عن أبيه عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «امتن الله عز وجل على ابن آدم بثلاث بعد ثلاث، بالريح بعد الروح فلولا إن الريح يقع بعد الروح ما دفن حميم حميما، وبالدودة في الحبة فلولا أن الدودة تقع في الحبة لأكنزها الملوك وكانت حبا من الدنانير والدراهم. وبالموت بعد الكبر، فإن الرجل ليكبر حتى يمل نفسه ويمله أهله وولده وأقرباؤه فكان الموت أيسر له"[6].

٤- ومنها: أن الندم إذا لم يكن لقبح المعصية فليس بتوبة، ففي الآية دلالة على أن الندم إذا لم يكن لقبح المعصية لم يكن توبة، فهو هنا لم يندم على قبح المعصية، أو لم يندم خوفاً من الله تبارك وتعالى، ولذلك لم ينفعه هذا الندم، يقول الرازي: ندم على قساوة قلبه كونه دون الغراب في الرحمة فكان ندمه لذلك، لا لأجل الخوف من الله تعالى، فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم.

٥-قال ابن العربي:" قوله تعالى: {أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب} [المائدة: ٣١]: فيه دليل على قياس الشبه"[7].

القرآن

---

[1] روح المعاني:٢٨٥/٣-٢٨٦.

[2] زاد االمسير:٥٣٩/١.

[3] أخرجه أحمد(١٠٩٢):ص٣٣٢/٢، وأخرجه ابن أبي شيبة ٢٦٩/٣ و٦٧١٢، وابن سعد ١٢٤/١، وأبو داود (٣٢١٤) ، والنسائي ٧٩/٤، وفي "الكبرى" (١٩٥) ، وفي "الخصائص" (١٤٩) ، والدارقطني في "العلل" ١٤٦/٤، والبيهقي في "السنن" ٣٩٨/٣، وفي "دلائل النبوة" ٣٤٨/٢-٣٤٩ .[إسناده ضعيف، ناجية بن كعب: هو الأسدي، وهو مجهول].

[4] انظر: تفسير القرطبي:١٤٣/٦.

[5] أحكام القرآن لابن العربي:٨٦/٢.

[6] تفسير الثعلبي:٥٣/٤، وتفسيرالقرطبي:١٤٢/٦.

[7] أحكام القرآن:٨٧/٢.

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)} [المائدة: ٣٢]

التفسير:

بسبب جناية القتل هذه شَرَعْنا لبني اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، الموجب للقتل كالشرك والمحاربة فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله، وأنه من امتنع عن قَتْل نفس حرَّمها الله فكأنما أحيا الناس جميعًا؛ فالحفاظ على حرمة إنسان واحد حفاظ على حرمات الناس كلهم. ولقد أتت بني إسرائيل رسلُنا بالحجج والدلائل على صحة ما دعَوهم إليه من الإيمان بربهم، وأداء ما فُرِضَ عليهم، ثم إن كثيرًا منهم بعد مجيء الرسل إليهم لمتجاوزون حدود الله بارتكاب محارم الله وترك أوامره.

قوله تعالى:{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ} [المائدة: ٣٢]، أي:" بسبب جناية القتل هذه شَرَعْنا لبني اسرائيل"[1].

قال الضحاك:" يقول: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلمًا"[2].

قال مقاتل:" يعنى: من أجل ابني آدم تعظيما للدم، {كتبنا على بني إسرائيل} في التوراة"[3].

قال الطبري:أي:" من جناية ابن آدم القاتل أخاه ظلمًا حكمنا على بني إسرائيل"[4].

قال ابن كثير:" يقول تعالى: { مِنْ أَجْلِ } قَتْل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانًا، { كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ } أي: شرعنا لهم وأعلمناهم"[5].

قال ابن عطية:" جمهور الناس على أن قوله: من أجل ذلك متعلق بقوله كتبنا أي بسبب هذه النازلة ومن جراها كتبنا، وقال قوم: بل هو متعلق بقوله: {من النادمين} [المائدة: ٣١]، أي ندم من «أجل» ما وقع، والوقف على هذا على ذلك، والناس على أن الوقف من النادمين"[6].

وقوله:{من أجل ذلك}، من: جرّ ذلك وجَريرته وجنايته، قال الشاعر[7]:

وَأَهْلِ خِبَاءٍ صَالِحٍ ذَاتُ بَيْنِهِمْ ... قَدِ احْتَرَبُوا فِي عَاجِلٍ أَنَا آجِلُه

---

[1] التفسير الميسر:١١٣.

[2] أخرجه الطبري(١١٧٧٠):ص١٠/٢٣٢.

[3] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٧١.

[4] تفسير الطبري:١٠/٢٣٢

[5] تفسير ابن كثير:٣/٩٢.

[6] المحرر الوجيز:٢/١٨١.

[7]مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٦٣، وتفسير الطبري:١٠/٢٣١-٢٣٢، وشرح إصلاح المنطق ١ / ١٤ ، وشرح شعر زهير للشنتمري : ٣٣ ، واللسان (أجل) ، وفي رواية لابن برى ، في اللسان:

وَأَهْلِ خِبَاء آمِنِين ، فَجَعْتُهُمْ ... بِشَيْءٍ عَزِيزٍ عَاجِل أَنَا آجِلُهْ

وَأَقْبَلْتُ أَسْعَى أَسْأَلُ الْقَوْمَ مَالَهُمْ ... سُؤَالَكَ بِالشَّيءِ الَّذِي أَنْتَ جَاهِلُهْ

ويروى الشطر الأول ، من البيت الثاني : فَأَقْبَلْتُ فِي السَّاعِينَ أَسْأَلُ عَنْهُمُ

ونسبه أبو عبيدة في مجاز القرآن فقال : قال الخنوت ، وهو توبة بن مضرس ، أحد بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم. وإنما سماه الخنوت ، الأحنف بن قيس. لأن الأحنف كلمه ، فلم يكلمه احتقارًا له ، فقال : إن صاحبكم هذا الخنوت! والخنوت : المتجبر الذاهب بنفسه ، المستصغر للناس .

و الخنوت (بكسر الخاء ، ونون مشددة مفتوحة ، واو ساكنة).

وذكره الآمدي في المؤتلف والمختلف ص : ٦٨ وقال : وقتل أخواه ... فأدرك الأخذ بثأرهما... وجزع على أخويه جزعًا شديدًا ، ... وكان لا يزال يبكي أخويه ، فطلب إليه الأحنف أن يكف ، فأبى ، فسماه : الخنوت وهو الذي يمنعه الغيظ أو البكاء من الكلام .

ونسبه التبريزي في شرح إصلاح المنطق ، والشنتمري في شرح ديوان زهير إلى خوات بن جبير الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ. وهو الذي يذكر في خبر ذات النحيين.

وألحق بشعر زهير بن أبي سلمى ، في ديوانه (شرح الشنتمري).

يعني بقوله: أنا آجله ، أنا الجارُّ ذلك عليه والجانِي[1].

قال ابن عطية:"{كتبنا}، معناه: كتب بأمرنا في كتب منزلة عليهم تضمنت فرض ذلك، وخص الله تعالى: بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أمم كان قتل النفس فيهم محظورا لوجهين:

أحدهما: فيما روي أن بني إسرائيل أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء.

والآخر: لتلوح مذمتهم في أن كتب عليهم هذا وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون بل هموا بقتل النبي ﷺ ظلما، فخصوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم"[2].

وقرئ: «من اجل ذلك»، بحذف الهمزة وفتح النون لإلقاء حركتها عليها، وقرأ أبو جعفر:«من إجل ذلك»، بكسر الهمزة وهي لغة فإذا خفف كسر النون ملقيا لكسرة الهمزة عليها[3].

قوله تعالى:{أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ} [المائدة: ٣٢]، أي:" أنه من قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض بأي نوع من أنواع الفساد، الموجب للقتل كالشرك والمحاربة"[4].

قال مقاتل:" من قتل نفسا بغير نفس عمدا، {أو فساد في الأرض}: أو عمل فيها بالشرك وجبت له النار ولا يعفى عنه حتى يقتل"[5].

قال الزمخشري:أي:" بغير قتل نفس، لا على وجه الاقتصاص، أو بغير فساد في الأرض وهو الشرك، وقيل: قطع الطريق"[6].

قال ابن كثير:" أي:ومن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية"[7].

قال ابن عطية:" قوله تعالى: {بغير نفس}، معناه: بغير أن تقتل نفسا فتستحق القتل، وقد حرم الله تعالى نفس المؤمن إلا بإحدى ثلاث خصال، كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس ظلما وتعديا. وهنا يندرج المحارب، و«الفساد في الأرض» بجميع الزنا والارتداد والحرابة"[8].

قال الطبري:"فسادها في الأرض، إنما يكون بالحرب لله ولرسوله، وإخافة السبيل"[9].

وقرأ الحسن:«أو فسادا في الأرض»، بنصب الفساد على فعل محذوف وتقديره أو أتى فسادا أو أحدث فسادا، وحذف الفعل الناصب لدلالة الكلام عليه[10].

قوله تعالى:{فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]، أي:" فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله"[11].

قال الزجاج:" أي:المؤمنون كلهم خصماء القاتل، وقد وترهم وتر من قصد لقتلهم جميعا"[12].

قال ابن كثير:" لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس"[13].

---

[1] انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٦٣، وتفسير الطبري:٢٣١/١٠-٢٣٢.

[2] المحرر الوجيز:٨٢!/٢.

[3] انظر: الكشاف:٦٢٧/١.

[4] التفسير الميسر:١١٣.

[5] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧١/١.

[6] الكشاف:٦٢٧/١.

[7] تفسير ابن كثير:٩٢/٣.

[8] المحرر الوجيز:٨٢!/٢.

[9] تفسير الطبري:٢٣٢/١٠

[10] انظر: المحرر الوجيز:١٨٢/٢.

[11] التفسير الميسر:١١٣.

[12] معاني القرآن:١٦٩/٢.

[13] تفسير ابن كثير:٩٢/٣.

قال البيضاوي:" من حيث أنه هتك حرمة الدماء وسن القتل، وجرأ الناس عليه، أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء في استجلاب غضب الله سبحانه وتعالى والعذاب العظيم"[1].

قوله تعالى:{وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة: ٣٢]، أي:" أي ومن تسبَّب لبقاء حياتها واستنقذها من الهَلَكة فكأنه أحيا جميع الناس"[2].

قال ابن كثير:" أي: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار"[3].

قال الزمخشري:أي ومن استنقذها من بعض أسباب الهلكة قتل أو غرق أو حرق أو هدم أو غير ذلك"[4].

قال البيضاوي:" أي ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل، أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة فكأنما فعل ذلك بالناس جميعا، والمقصود منه تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيبا عن التعرض لها وترغيبا في المحاماة عليها"[5].

قال الزجاج:" أي: من استنقذها من غرق أو حرق أو هدم، أو ما يميت لا محالة، أو استنقذها من ضلالة، أجره على الله أجر من أحياهم أجمعين، فإن قال قائل، كيف يكون ثوابه ثواب من أحياهم جميعا؟ فالجواب في هذا كالجواب في قوله تعالى {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام: ١٦٠]، فالتأويل: أن الثواب الذي إذا جعل للحسنة كان غاية ما يتمنى يعطى العامل لها عشرة أمثاله"[6].

عن أبي هريرة قال: "دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تَقْتُل الناس جميعًا وإياي معهم ؟ قلت: لا. قال فإنك إن قتلت رجلا واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا، فانْصَرِفْ مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل"[7].

وفي تفسير قوله تعالى:{فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}[المائدة:٣٢]، وجوه:

أحدها: يعني من قتل نبياً أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شد على يد نبى أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً، وهذا قول ابن عباس[8].

قال ابن عطية:" وهذا قول لا تعطيه الألفاظ"[9].

والثاني: معناه فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أحياها فاستنفذها من هلكة، فكأنما أحيا الناس جميعاً عند المستنفذ، وهذا قول ابن مسعود[10].

والثالث: معناه أن قاتل النفس المحرمة يجب عليه من القود والقصاص مثل ما يجب عليه لو قتل الناس جميعاً، ومن أحياها بالعفو عن القاتل، أعطاه الله من الأجر مثل ما لو أحيا الناس جميعاً، وهذا قول ابن زيد[11]، وأبيه[12].

وروي عن الحسن:" في قوله: {ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعًا}، قال: من عفا"[1]. وفي رواية أخرى له:" العفو بعد القدرة"[2].

---

[1] تفسير البيضاوي:١٢٤/٢.
[2] صفوة التفاسير:٣١٣
[3] تفسير ابن كثير:٩٢/٣.
[4] الكشاف:٦٢٧/١.
[5] تفسير البيضاوي:١٢٤/٢.
[6] معاني القرآن:١٦٩/٢.
[7] تفسير ابن كثير:٩٢/٣.
[8] انظر: تفسير الطبري(١١٧٧١)، و(١١٧٧٢):ص٢٣٢/١٠-٢٣٣
[9] المحرر الوجيز:٢!/٨٢.
[10] انظر: تفسير الطبري(١١٧٧٣):ص٢٣٣/١٠.
[11]انظر: تفسير الطبري(١١٧٨٧)، و(١١٧٨٨):ص٢٣٧/١٠.
[12]انظر: تفسير الطبري(١١٧٨٧)، و(١١٧٨٨):ص٢٣٧/١٠.

والرابع: معناه أن قاتل النفس المحرمة يَصْلَى النار كما يَصْلاها لو قتل الناس جيمعاً، ومن أحياها، يعني سلم من قتلها، فكأنما سلم من قتل الناس جميعاً، وهذا قول ابن عباس-في رواية اخرى-[3]، ومجاهد[4]، وذكر مقاتل نحوه[5].

والخامس: أن على جميع الناس جناية القتل كما لو قتلهم جميعاً، ومن أحياها بإنجائها من غرق أو حرق أو هلكة، فعليهم شكره كما لو أحياهم جميعا. وهذا قول مجاهد أيضا[6].

والسادس: أن الله تعالى عظم أجرها ووزرها فإحياؤها يكون بمالك أو عفوك، وهذا قول الحسن[7]، وقتادة[8].

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: تأويل ذلك: أنه من قتل نفسًا مؤمنة بغير نفس قَتَلتها فاستحقت القَوَد بها والقتل قِصاصًا أو بغير فساد في الأرض، بحرب الله ورسوله وحرب المؤمنين فيها فكأنما قتل الناس جميعًا فيما استوجب من عظيم العقوبة من الله جل ثناؤه، كما أوعده ذلك من فعله ربُّه بقوله:{ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا } [سورة النساء: ٩٣].

وأما قوله:{ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعًا}، فأولى التأويلات به، قول من قال: من حرّم قتل من حرّم الله عز ذكره قتله على نفسه، فلم يتقدّم على قتله، فقد حيى الناس منه بسلامتهم منه، وذلك إحياؤه إياها. وذلك نظير خبر الله عز ذكره عمن حاجّ إبراهيم في ربّه إذ قال له إبراهيم: {رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ} [سورة البقرة: ٢٥٨]. فكان معنى الكافر في قيله: أنا أحيي، أنا أترك من قَدَرت على قتله - وفي قوله: وأميت ، قتله من قتله، فكذلك معنى الإحياء في قوله: ومن أحياها ، من سلِمَ الناس من قتله إياهم، إلا فيما أذن الله في قتله منهم فكأنما أحيى الناس جميعًا .

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلات بتأويل الآية، لأنه لا نفسَ يقومُ قتلُها في عاجل الضُّرّ مقام قتل جميع النفوس، ولا إحياؤها مقامَ إحياء جميع النفوس في عاجل النفع. فكان معلومًا بذلك أن معنى الإحياء : سلامة جميع النفوس منه، لأنه من لم يتقدم على نفس واحدة، فقد سلم منه جميع النفوس - وأن الواحدة منها التي يقوم قتلُها مقام جميعها إنما هو في الوِزْر، لأنه لا نفس من نفوس بني آدم يقوم فقدها مقام فقد جميعها، وإن كان فقد بعضها أعمّ ضررًا من فقد بعض"[9].

قال الزمخشري:" فإن قلت: كيف شبه الواحد بالجميع وجعل حكمه كحكمهم؟

قلت:لأن كل إنسان يدلى بما يدلى به الآخر من الكرامة على الله وثبوت الحرمة، فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمته وعلى العكس، فلا فرق إذا بين الواحد والجميع في ذلك.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر ذلك؟

قلت: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ليشمئز الناس عن الجسارة عليها، ويتراغبوا في المحاماة على حرمتها لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا عظم ذلك عليه فثبطه، وكذلك الذي أراد إحياءها"[10].

---

[1] أخرجه الطبري(١١٧٨٩):ص١٠/٢٣٧.
[2] أخرجه الطبري(١١٧٩١):ص١٠/٢٣٧.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٧٧٤):ص١٠/٢٣٤، و(١١٧٨١):ص١٠/٢٣٥.
[4] انظر: تفسير الطبري(١١٧٧٥)-(١١٧٨٠):ص١٠/٢٣٤-٢٣٥، و(١١٨٧٨٢)-(١١٧٨٦):ص١٠/٢٣٦.
[5] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٧٢.
[6] انظر: تفسير الطبري(١١٧٩٢)-(١١٧٩٤):ص١٠/٢٣٨.
[7] انظر: تفسير الطبري(١١٧٩٧)، و(١١٨٠٠)، و(١١٨٠١)، و(١١٨٠٢):ص١٠/٢٣٩، ٢٤٠.
[8] انظر: تفسير الطبري(١١٧٩٨)، و(١١٧٩٩):ص١٠/٢٣٩.
[9] تفسير الطبري:١٠/٢٤٠-٢٤١.
[10] الكشاف:١/٦٢٧.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ} [المائدة: ٣٢]، أي:" ولقد أتت بني إسرائيل رسلُنا بالحجج والدلائل على صحة ما دعَوهم إليه من الإيمان بربهم، وأداء ما فُرِضَ عليهم"[١].
عليهم"[١].

قال مقاتل:" يعني: بالبيان في أمره ونهيه"[٢].

قال ابن كثير:" أي: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة"[٣].

قال الطبري:" وهذا قسم من الله جل ثناؤه أقسم به: أن رسله صلوات الله عليهم قد أتت بني إسرائيل الذين قصَّ الله قَصَصهم وذكر نبأهم في الآيات التي تقدَّمت، من قوله: {يا أيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسُطوا إليكم أيديهم}، إلى هذا الموضع بالبينات، يعني: بالآيات الواضحة والحجج البيِّنة على حقيقة ما أرسلوا به إليهم، وصحة ما دعوهم إليه من الإيمان بهم، وأداء فرائضِ الله عليهم"[٤].

قال ابن عطية:" أخبر الله تعالى عن «بني إسرائيل» أنهم جاءتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه"[٥].

قوله تعالى:{ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: ٣٢]، أي:" ثم إن كثيرًا منهم بعد مجيء الرسل إليهم لمتجاوزون حدود الله بارتكاب محارم الله وترك أوامره"[٦].

قال مقاتل:" ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك البيان {في الأرض لمسرفون}، يعني: إسرافا في سفك الدماء واستحلال المعاصي"[٧].

قال السعدي:أي:" {ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا} من الناس {بعد ذلك} البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض، في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج"[٨].

قال الزمخشري:" {بعد ذلك}، بعد ما كتبنا عليهم وبعد مجيء الرسل بالآيات {لمسرفون}، يعنى: في القتل لا يبالون بعظمته"[٩].

قال الطبري:" يعني:أنهم في الأرض لعاملون بمعاصي الله، ومخالفون أمر الله ونهيه، ومحادُّو الله ورسله، باتباعهم أهواءَهم. وخلافهم على أنبيائهم، وذلك كان إسرافهم في الأرض"[١٠].

قال القرطبي:" ثم أخبر الله عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل بالبينات، وأن أكثرهم مجاوزون الحد، وتاركون أمر الله"[١١].

قال البيضاوي:" أي: بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية، وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحة تأكيدا للأمر وتجديدا للعهد كي يتحاموا عنها وكثير منهم يسرفون في الأرض بالقتل ولا يبالون به، وبهذا اتصلت القصة بما قبلها والإسراف التباعد عن حد الاعتدال في الأمر"[١٢].

---

[١] التفسير الميسر:١١٣.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/١.
[٣] تفسير ابن كثير:٩٤/٢.
[٤] تفسير الطبري:٢٤٢/١٠.
[٥] المحرر الوجيز:١٨٢/٢.
[٦] التفسير الميسر:١١٣.
[٧] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٢/١.
[٨] تفسير رالسعدي٢٢٩.
[٩] الكشاف:٦٢٧/١.
[١٠] تفسير الطبري:٢٤٢/١٠.
[١١] تفسير القرطبي:١٤٧/٦.
[١٢] تفسير البيضاوي:١٢٤/٢.

قال ابن عطية:" ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يسرفون ويتجاوزون الحدود، وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في همهم بقتل النبي ﷺ وغيره إلى سائر ذلك من أعمالهم"[١].

قال ابن كثير:"وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قُرَيْظَة والنَّضير وغيرهم من بني قَيْنُقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه، وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك في سورة البقرة، حيث يقول: { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } [البقرة: ٨٤، ٨٥] "[٢].

قال الواحدي:" {المسرفون} أيْ: مجاوزون حدَّ الحقِّ"[٣].

أخرج ابن سلام من طريق أبو عبيد عن سليمان بن علي الرّبعي عن الحسن أنه قرأ هذه الآية:{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً}، فقلت: يا أبا سعيد[٤] أهي علينا كما كانت على بني إسرائيل؟ فقال: إي إي والذي لا إله إلا هو وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم عليه من دمائنا، قال أبو عبيد: وقد كان بعض أهل العلم يتأول في آية النساء غير هذا المذهب"[٥].

الفوائد:

١- تأديب الرب تعالى لبني إسرائيل، ومع الأسف لم ينتفعوا به.

٢-قال السعدي:" ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين:

أحدهما: إما أن يقتل نفسا بغير حق متعمدا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفا مكافئا، ليس بوالد للمقتول.

والثاني: وإما أن يكون مفسدا في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرهم إلا بالقتل، وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم"[٦].

٣- أن القتل عمداً بغير حق أعظم الذنوب بعد الشرك بالله عز وجل، يقول الله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣]، وفي الحديث: (لزوال الدنيا بأسرها أهون على الله من قتل رجل مسلم).

٤- أن القتل عمداً يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق لأولياء القتيل، فإذا أداها برئت ذمته.

فالحق الأول: حق لأولياء القتيل، فيأتي ويسلم نفسه إليهم، ويصطلح معهم، فإن شاءوا قتلوه قصاصاً وإن شاءوا طلبوا منه الدية أو أكثر من الدية صلحاً، فإذا سلم نفسه إليهم وقتلوه قصاصاً أو اتفقوا معه على نفس الدية أو أكثر منها سقط حقهم، وبقي حق الله وحق القتيل.

والثاني: حق الله: فإذا تاب فيما بينه وبين الله توبةً نصوحاً، بأن أقلع عن هذه المعصية وندم على ما مضى وعزم عزماً جازماً على ألا يعود إليها مرة أخرى تاب الله عليه وسقط حق الله،

---

[١] المحرر الوجيز:١٨٢/٢.

[٢] تفسير ابن كثير:٩٤/٢.

[٣] الوجيز:٣١٧.

[٤] هو الحسن البصري، كنيته أبو سعيد.

[٥] الناسخ والمنسوخ، للقاسم بن سلام:٢٧١/١، وروى نحوه ابن أبي شيبة في المصنف ج ٩، كتاب الديات «باب من قال: ليس لقاتل المؤمن توبة» ص ٣٦٠ تحقيق مختار أحمد الندوي.

[٦] تفسير رالسعدي٢٢٩.

والثالث: حق القتيل يوم القيامة، فإذا أدى الحقين: حق أولياء القتيل وحق الله، فالله تعالى يرضي المقتول عنه يوم القيامة بما يعطيه من الثواب والدرجات في الآخرة، فيصفح عن أخيه فيتوب الله عليه.
والصواب أن القاتل له توبة، وهذا هو الذي عليه الجماهير[١].

القرآن

{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣)} [المائدة: ٣٣]

التفسير:

إنما جزاء الذين يحاربون الله، ويبارزونه بالعداوة، ويعتدون على أحكامه، وعلى أحكام رسوله، ويفسدون في الأرض بقتل الأنفس، وسلب الأموال، أن يُقَتَّلوا، أو يُصَلَّبوا مع القتل (والصلب: أن يُشَدَّ الجاني على خشبة) أو تُقْطَع يدُ المحارب اليمنى ورجله اليسرى، فإن لم يَتُبْ تُقطعْ يدُه اليسرى ورجلُه اليمنى، أو يُنفَوا إلى بلد غير بلدهم، ويُحبسوا في سجن ذلك البلد حتى تَظهر توبتُهم. وهذا الجزاء الذي أعدَّه الله للمحاربين هو ذلّ في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد إن لم يتوبوا.

في سبب نزول الآية بعدها خمسة أقوال:

أحدها: قال أنس:" قدم أناس من عكل أو عرينة فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بلقاح، وأن يشربوا من أبوالها وألبانها، فانطلقوا، فلما صَحّوا قتلوا راعي النبي - صلى الله عليه وسلم -، واستاقوا النعم،فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في آثارهم فلما ارتفع النهار جيء بهم؛ فأمر؛ فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرة يستسقون فلا يسقون.
قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله"[٢].
وروي عن ابن عباس[٣]، وابن عمر[٤]، وسعيد بن جبير[٥]، وسعيد بن المسيب[٦]، والسدي[٧]، وجرير بن عبدالله البجلي[٨]، نحو ذلك.

---

[١] انظر: شرح الاقتصاد في الاعتقاد للراجحي:الدرس:١٠/١٠[دروس صوتية مرقم آليا].

[٢]أخرجه البخاري (رقم ٢٣٣، ٣٠١٨، ٤١٩٣، ٤٦١٠، ٦٨٠٢، ٦٨٠٣، ٦٨٠٥، ٦٨٩٩)، ومسلم (رقم ١٦٧١/ ١٠ - ١٢).[صحيح].

[٣]أخرجه عنه الخرائطي في "مكارم الأخلاق" (٢/ ٩٨٤ رقم ١١١٣) من طريق محمد بن الصلت نا عبد العزيز بن مسلم الشامي عن الضحاك عن ابن عباس به.
قلنا: وسنده ضعيف؛ فالضحاك لم يلق ابن عباس، وعبد العزيز هذا لم نجد .

[٤]أخرجه أبو داود (٤/ ١٣١ رقم ٤٣٦٩) -ومن طريقه البيهقي في "الكبرى" (٨/ ٢٨٢، ٢٨٣) -، والنسائي (٧/ ١٠٠)، والطبري في "جامع البيان" (٦/ ١٣٤)، والطبراني في "الكبير" (١٢/ رقم ١٣٢٤٧) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (١٥/ ٢٥٥) - من طريق سعيد بن أبي هلال عن أبي الزناد عن عبد الله بن عبيد الله عن ابن عمر.
قلنا: وسنده حسن.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٠):ص١٠/٢٤٥-٢٤٦.

[٦]أخرجه النسائي في "المجتبى" (٧/ ٩٨، ٩٩)، و"الكبرى" (٢/ ٢٩٧ رقم ٣٤٩٩) من طريق ابن وهب عن يحيى بن أيوب ومعاوية بن صالح عن يحيى بن سعيد عن سعيد به.
قلنا: وسنده ضعيف؛ لإرساله..

[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٧):١٠/٢٥١.[ضعيف جدا، لإعضاله، وضعف أسباط].

[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٨١١):ص١٠/٢٤٧. وسنده ضعيف، وفي متنه نكارة؛ فموسى بن عبيدة الربذي ضعيف وتركه بعضهم، ووجه النكارة: أنه قال: "فكره الله سمل الأعين؛ فأنزل هذه الآية"؛ فهذا مخالف لما رواه مسلم في "صحيحه" عن أنس: أنه - ﷺ - سمل أعين الرعاء وكان هذا قصاصاً لا جزاء.
وقال ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٥٢): "وفي إسناده الربذي وهو ضعيف"، وأشار إلى النكارة التي وقعت في متنه.

وفي رواية الطبري عن أنس:"أن رهطًا من عُكْلٍ وعُرَينة، أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أهل ضَرْع، ولم نكن أهل ريفٍ، وإنا استوخمنا المدينة، فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بِذَوْدٍ وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيها فيشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا راعيَ رسول الله ﷺ، واستاقُوا الذود، وكفروا بعد إسلامهم. فأتيَ بهم النبي -ﷺ-، فقطع أيديهم وأرجلهم، وَسَمل أعينهم[1]، وتركهم في الحرَّة حتى ماتوا فذُكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم:{إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله}"[2].

وقال السدي[3]، ومحمد بن عجلان[4]: لم يسمُل النبي ﷺ أعين العرنيّين، ولكنه كان أراد أن يسمُل، فأنزل الله جل وعز هذه الآية على نبيه، يعرّفه الحكم فيهم، ونهاه عن سمل أعينهم.

والثاني: قال ابن عباس:"كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي -ﷺ- عهدٌ وميثاق، فنقضوا العهدَ وأفسدوا في الأرض، فخيَّرَ الله رسوله: إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خِلافٍ". رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس[5]، وبه قال الضحاك[6].

والثالث: أن أصحاب أبي بردة الأسلمي قطعوا الطريق على قوم جاءوا يريدون الاسلام، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس[7].

وقال ابن السائب: "كان أبو بردة، واسمه هلال بن عويمر، وادع النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يعينه ولا يعين عليه، ومن أتاه من المسلمين لم يهج، ومن مر بهلال إلى رسول الله ﷺ لم يهج، فمر قوم من بني كنانة يريدون الاسلام بناس من قوم هلال، فنهدوا إليهم، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، ولم يكن هلال حاضرا، فنزلت هذه الآية"[8].[باطل]

والرابع: أنها نزلت في المشركين، رواه عكرمة عن ابن عباس[9]، وبه قال الحسن[10]، وعكرمة[11].

قال القرطبي:" وهذا ضعيف يرده قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} [الأنفال: ٣٨]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «الإسلام يهدم ما قبله»[12]"[13].

والخامس: عن ابن سعد؛ قال: "نزلت هذه الآية في الحرورية[14]: {إِنَّمَا جَزَاءُ. . .}"[1].

---

[1]سمل عينه : فقأها بحديدة محماة ، أو بشوك ، أو ما شابه ذلك. وإنما فعل بهم ذلك ، لأنهم فعلوا بالرعاة مثله ، فجازاهم على صنيعه بمثله.

[2] أخرجه الطبري(١١٨٠٨):ص١٠/٢٤٤-٢٤٥.

[3] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٩):ص١٠/٢٥٣.[وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف أسباط، وفي متنه نكارة]

[4] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٨):ص١٠/٢٥٣.[وهو ضعيف؛ لإعضاله]

[5] انظر: تفسير الطبري(١١٨٠٣):ص١٠/٢٤٣. فيه إرسال، علي لم يسمع من ابن عباس.

[6] انظر: تفسير الطبري(١١٨٠٤):ص١٠/٢٤٣-٢٤٤. مرسل، وفيه جويبر بن سعيد وهو متروك.

[7] زاد المسير:٥٤١/١، عزاه المصنف لأبي صالح عن ابن عباس، وراوية أبي صالح هو الكلبي، وهو متهم بالوضع، فحديثه لا شيء..

[8] زاد المسير:٥٤١/١، عزاه ابن الجوزي لابن السائب وهو الكلبي، واسمه محمد، وهو ساقط متهم، فخبره باطل.

[9] انظر: تفسير الطبري(١١٨٠٦):ص١٠/٢٤٤، أخرجه أبو داود (٤/ ١٣٢ رقم ٤٣٧٢)، والنسائي (٧/ ١٠١).[وسنده حسن]

[10] انظر: تفسير الطبري(١١٨٠٦)، و(١١٨٠٧):ص١٠/٢٤٤.[ضعيف جدا]، أخرجه من طريق ابن حميد، فيه علتان:
الأولى: ابن حميد؛ حافظ متهم.
الثانية: الإرسال.

[11] انظر: تفسير الطبري(١١٨٠٧):ص١٠/٢٤٤.[سنده ضعيف جداً]

[12]أخرجه مسلم في كتاب الإيمان -باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج(١٩٢):ص١/ ١١٢.

[13] تفسير القرطبي:١٤٩/٦.

[14] وهم الخوارج: سموا بذلك لخروجهم على علي - رضي الله عنه - لأنه رضي بتحكيم الحكمين - في زعمهم - فكفروا عليا ومعاوية وعثمان وكل من رضي بالتحكيم، ويقولون بتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليده في النار،

قال ابن كثير:" والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قِلابة"[٢].

قال القرطبي:" فالذي عليه الجمهور أنها نزلت في العرنيين"[٣].

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال: أنزل الله هذه الآية على نبيّه ﷺ، معرِّفَه حكمه على من حارب الله ورسوله، وسعى في الأرض فسادًا، بعد الذي كان من فعل رسول الله ﷺ بالعرنيّين ما فعل.

وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصواب في ذلك، لأن القِصَص التي قصّها الله جل وعزّ قبلَ هذه الآية وبعدَها، من قَصَص بنى إسرائيل وأنبائهم، فأن يكون ذلك متوسِّطًا، من تعريف الحكم فيهم وفي نظرائهم، أولى وأحقّ. وقلنا: كان نزول ذلك بعد الذي كان من فعلِ رسول الله ﷺ بالعرنيّين ما فعل، لتظاهر الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ بذلك"[٤].

قوله تعالى:{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [المائدة: ٣٣]، أي:" إنما جزاء الذين يحاربون الله، ويبارزونه بالعداوة، ويعتدون على أحكامه، وعلى أحكام رسوله"[٥].

قال الواحدي:" أيْ: يعصونهما ولا يطيعونهما يعني: الخارجين على الإمام وعلى الأمَّة بالسَّيف نزلت هذه الآية في قصة العُرَنيين وهي معروفةٌ تعليماً لرسول الله ﷺ عقوبة مَن فعل مثل فعلهم"[٦].

قال ابن كثير:" المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل"[٧].

قال ابن عطية:قوله: "{يحاربون الله}، تغليظ جعل ارتكاب نهيه محاربة، وقيل التقدير يحاربون عباد الله، ففي الكلام حذف مضاف"[٨].

قوله تعالى:{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا} [المائدة: ٣٣]، أي:" ويفسدون في الأرض بقتل الأنفس، وسلب الأموال"[٩].

قال الواحدي:أَيْ: "بالقتل وأخذ الأموال"[١٠].

قال الطبري:" يعني:ويعملون في أرض الله بالمعاصي: من إخافة سُبُل عباده المؤمنين به، أو سُبُل ذمتهم، وقطعِ طرقهم، وأخذ أموالهم ظلمًا وعدوانًا، والتوثُّب على حرمهم فجورًا وفُسُوقًا"[١١].

قال ابن كثير:" الإفساد في الأرض، يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض، وقد قال الله تعالى:{ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ } [البقرة: ٢٠٥]"[١٢].

والخروج على الأئمة بالسيف، ويقال لهم: الحرورية، والشراة. من أشهر فرقهم: النجدات، والأزارقة، والإباضية. انظر: مقالات الإسلاميين (ص ٧٥)، والفرق بين الفرق (ص ٧٣)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

[١] ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٦٦) ونسبه لابن مردويه.

[٢] تفسير ابن كثير:٩٥/٣.

[٣] تفسير القرطبي:١٤٨/٦.

[٤] تفسير الطبري:٢٥١/١٠.

[٥] التفسير الميسر:١١٣.

[٦] الوجيز:٣١٧.

[٧] تفسير ابن كثير:٩٤/٣.

[٨] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.

[٩] التفسير الميسر:١١٣.

[١٠] الوجيز:٣١٧.

[١١] تفسير الطبري:٢٥٧/١٠.

[١٢] تفسير ابن كثير:٩٤/٣.

قال ابن عطية:قوله: "قوله تعالى:{ويسعون في الأرض فسادا}، تبيين للحرابة، أي: ويسعون بحرابتهم، ويحتمل أن يكون المعنى: ويسعون فسادا منضافا إلى الحرابة، والرابط إلى هذه الحدود إنما هو الحرابة"[1].

واختلف في المستحق اسم المحارب لله ورسوله الذي يلزمه حكم هذه الآية على ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه الزنى والسرقة وقتل النفس، وإهلاك الحرث والنسل. وهذا قول مجاهد [2].

والثاني: أنه المجاهر بقطع الطريق والمكابر باللصوصية فى المِصْر وغيره، وهذا قول الشافعي[3]، ومالك[4]، والأوزاعي[5]، والليث بن سعد[6]، وابن لهيعة[7].

والثالث: أنه المجاهر بقطع الطريق دون المكابر فى المِصْر، وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه[8]، وأصحابه[8]، وعطاء الخراساني[9].

والراجح-والله أعلم- أن" المحارب لله ورسوله، من حارب في سابلة المسلمين وذِمَّتهم، والمغير عليهم في أمصارهم وقراهم حِرَابة، لأنه لا خلاف بين الحجة أن من نصب حربًا للمسلمين على الظلم منه لهم، أنه لهم محارب، ولا خلاف فيه. فالذي وصفنا صفته، لا شك فيه أنه لهم نَاصبٌ حربًا ظلمًا. وإذ كان ذلك كذلك، فسواء كان نصبه الحربَ لهم في مصرهم وقُراهم، أو في سُبلهم وطرقهم: في أنه لله ولرسوله محارب، بحربه من نَهَاه الله ورسوله عن حربه"[10].

قوله تعالى:{أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا} [المائدة: ٣٣]، أي:" أن يُقَتَّلوا، أو يُصَلَّبوا مع القتل"[11].

قال الصابوني:أي:" أن يُقتلوا جزاء بغيهم، أو يُقتلوا ويُصلبوا زجراً لغيرهم، والصيغةُ للتكثير"[12].

قال ابن عطية:" وأما قتل المحارب، فبالسيف ضربة العنق، وأما صلبه فجمهور من العلماء على أنه يقتل ثم يصلب نكالا لغيره، وهذا قول الشافعي، وجمهور من العلماء على أنه يصلب حيا ويقتل بالطعن على الخشبة، وروي هذا عن مالك وهو الأظهر من الآية وهو الأنكى في النكال"[13].

قوله تعالى:{أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ} [المائدة: ٣٣]، أي:" أن تُقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى"[14].

قال ابن عطية:"وأما القطع فاليد اليمنى من الرسغ والرجل الشمال من المفصل، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقطع اليد من الأصابع ويبقي الكف والرجل من نصف القدم ويبقي العقب"[15].

---

[1] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٤):ص٢٧٨/١٠.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٥):ص٢٥٥/١٠.
[4] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٢):ص٢٥٥/١٠.
[5] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢١):ص٢٥٤/١٠.
[6] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٣):ص٢٥٥/١٠.
[7] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٣):ص٢٥٥/١٠.
[8] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٦):ص٢٥٦/١٠.
[9] انظر: تفسير الطبري(١١٨٢٠):ص٢٥٤/١٠.
[10] تفسير الطبري:٢٥٦/١٠.
[11] التفسير الميسر:١١٣.
[12] صفوة التفاسير:٣١٣.
[13] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.
[14] صفوة التفاسير:٣١٣.
[15] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.

قال الواحدي:" معنى:{أو} -ها هنا-:الإباحة فللإمام أن يفعل ما أراد من هذه الأشياء"[١].
الأشياء"[١].

وقرأ الحسن ومجاهد وابن محيصن:«يقتلوا، ويصلبوا، تقطع»، بالتخفيف في الأفعال الثلاثة[٢].

قوله تعالى:{أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: ٣٣]، أي:" أو يُنفَوا إلى بلد غير بلدهم، ويُحبسوا في سجن ذلك البلد حتى تَظهر توبتُهم"[٣].

قال السمرقندي:" يعني: يطلب حتى لا يجد قرارا في موضع، ويقال:ينفوا {من الأرض}، يعني: يحبس فينفى من سعة الدنيا إلى ضيقها، فصار كأنه نفي عن الأرض"[٤].

قال الواحدي:" معنى:النَّفي من الأرض الحبسُ في السجن لأن المجون بمنزلة المخرج من الدني"[٥].

واختلف أهل التأويل في معنى النفي الذي ذكر الله في قوله تعالى:{أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ} [المائدة: ٣٣]، على وجوه:

أحدها: أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، وهذا قول ابن عباس[٦]، وأنس بن مالك[٧]، والحسن[٨]، وسعيد بن جبير[٩]، والضحاك[١٠]، وقتادة[١١]، والربيع والربيع بن أنس[١٢]، والزهري[١٣]، والليث بن سعد[١٤]، ومالك بن أنس[١٥]، والسدي[١٦].

والثاني: أن معنى «النفي» في هذا الموضع: أن الإمام إذا قدر عليه نفاه من بلدته إلى بلدةٍ أخرى غيرها. وهذا قول عمر بن عبدالعزيز[١٧]، وسعيد بن جبير-في رواية أخرى-[١٨].

والثالث: أن المراد بالنفي هاهنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه[١٩].

واختار الطبري: أن المراد بالنفي هاهنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه حتى تظهر توبته من فسوقه، ونزوعه عن معصيته ربَّه[٢٠].

قال ابن عطية:" والظاهر أن الأرض في هذه الآية هي أرض النازلة، وقد جنب الناس قديما الأرض التي أصابوا فيها الذنوب ومنه حديث الذي ناء بصدر، نحو الأرض المقدسة، وينبغي للإمام إن كان هذا المحارب المنفي مخوف الجانب يظن أنه يعود إلى حرابة وإفساد أن يسجنه في البلد الذي يغرب إليه، وإن كان غير مخوف الجانب ترك مسرحا، وهذا هو صريح مذهب مالك: أن يغرب ويسجن حيث يغرب، وهذا هو الأغلب في أنه مخوف، ورجحه الطبري

---

[١] الوجيز:٣١٧.
[٢] انظر: المحرر الوجيز:١٨٥/٢.
[٣] التفسير الميسر:١١٣.
[٤] بحر العلوم:٣٨٦/١.
[٥] الوجيز:٣١٧.
[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٨٥٦):ص٢٦٨/١٠.
[٧] انظر: تفسير الطبري(١١٨٥٧):ص٢٦٨/١٠.
[٨] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٣):ص٢٦٩/١٠.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٧):ص٢٧٠/١٠.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦١)، و(١١٨٦٢):ص٢٦٩/١٠.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٦):ص٢٧٠/١٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٤):ص٢٦٩/١٠.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٥):ص٢٦٩/١٠-٢٧٠.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١٨٥٩):ص٢٦٩/١٠.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٠):ص٢٦٩/١٠.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١٨٥٥):ص٢٦٨/١٠.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٩)-(١١٨٧١):ص٢٧٠/١٠-٢٧٣.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١١٨٦٨):ص٢٧٠/١٠.
[١٩] انظر: تفسير الطبري:٢٧٤/١٠.
[٢٠] انظر: تفسير الطبري:٢٧٤/١٠.

وهو الراجح، لأن نفيه من أرض النازلة أو الإسلام هو نص الآية وسجنه بعد بحسب الخوف منه، فإذا تاب وفهم حاله سرح"[١].

ومعنى «النفي»، في كلام العرب، هو الطرد، ومن ذلك قول أوس بن حجر[٢]:

يُنْفَوْنَ عَنْ طُرُقِ الكِرَامِ كَمَا   تَنْفِي المَطَارِقُ مَا بَلِي القَرَدُ

ومنه قيل للدراهم الرديئة وغيرها من كل شيء: النُّفَاية، وأما المصدر من نفيت ، فإنه النفي والنَّفَاية، ويقال: الدلو ينفي الماء ، ويقال لما تطاير من الماء من الدلو: النَّفِيُّ ، ومنه قول الأخيل الطائي[٣]:

كأَنَّ مَتْنَيهِ مِنَ النَّفِيِّ   مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّفِيِّ

ومنه قيل: نَفىَ شَعَرُه ، إذا سقط، يقال: حَال لونُك، ونَفىَ شعرُك[٤].

قوله تعالى:{ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا} [المائدة: ٣٣]، أي:" وهذا الجزاء الذي أعدَّه الله للمحاربين هو ذلّ في الدنيا"[٥].

قال الواحدي:أي:" هوانٌ وفضيحةٌ"[٦].

قال البيضاوي:أي:" ذل وفضيحة"[٧].

قال الطبري:" يعني: لهؤلاء المحاربين خزي في الدنيا ، يقول: هو لهم شرٌّ وعار وذلةٌ، ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة"[٨].

قال ابن كثير:" أي: هذا الذي ذكرته من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خزْي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا "[٩].

---

[١] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.

[٢]شرح المفضليات : ٨٢٧ ، وليس في ديوان أوس ، وهو من شعره ، من القصيدة الخامسة التي أولها : أَبَنِي لُبَيْنَي لَسْتُمُ بِيَدٍ ... إلا يَدٌ لَيْسِتْ لَهَا عَضُدُ
ويهجوهم ، ورواية المفضليات من طرق الكرام . و المطارق جمع مطرقة و مطرق وهو القضيب الذي يضرب به الصوف أو القطن لينتفش ، وينفي منه القرد. و القرد (بفتحتين) : ما تمعط من الوبر والصوف وتلبد وانعقدت أطرافه ، وهو نفاية الصوف ، ثم استعمل فيما سواه من الوبر والشعر والكتان. وقوله : ما يلي القرد ، أي : ما وليه القرد ، من قولهم وليه يليه ، أي : قاربه ودنا منه. يعني : ما قاربه القرد وباشره ولصق به تعقده.

[٣]انظر: جمهرة اللغة ٣/ ١٣٥، والمخصص ١٠/ ٩٠، ومجالس ثعلب: ٢٤٩، والحيوان ٢/ ٣٣٩، والقالي ٢/ ٨، واللسان (صفا) و (نفا) وكلهم رواه"متنيه" إلا ابن دريد فإنه أنشده: كأنّ مَتْنَيَّ من النَّفِيِّ ... مِنْ طُولِ إشْرَافِي على الطَّوِيِّ
والنفي: ما تطاير من دلو المستقى. ومن روى"متني" فكأنه عنى أن الأخيل يصف نفسه. وأما من روى"متنيه"، فإنه عنى غيره. وهو الأصح فيما أرجح، وقد قال الأزهري: "هذا ساق كان أسود الجلدة، استقى من بئر ملح، فكان يبيض نفي الماء على ظهره إذا ترشش. لأنه كان ملحًا". فإذا صح ذلك، كانت رواية البيت الذي يليه"من طول إشراف" بغير ياء الإضافة، ومعنى الشعر أشبه بما قال الأزهري، لتشبيهه في البيت الثالث. و"الطوي" البئر المطوية بالحجارة.

[٤] انظر: تفسير الطبري:١٠/٢٧٥-٢٧٦.
هذا في خبر محمد بن كعب القرظي وعمر بن عبد العزيز لما استخلف فرآه شعثًا قال : ...وكان عهدنا به بالمدينة أميرًا علينا ، حسن الجسم ، ممتلئ البضعة ، فجعلت أنظر إليه نظرًا ، لا أكاد أصرف بصري عنه ، فقال : يا ابن كعب ، مالك تنظر إلي نظرًا ما كنت تنظره إلي قبل ؟ قال فقلت : لعجبي! قال : ومما عجبك ؟ فقلت : لما نحل من جسمك ، ونفى من شعرك ، وتغير من لونك ؟ قال : وكيف لو رأيتني بعد ثلاث في قبري ، حين تقع عيناي على وجنتي ، ويسيل منخري وفمي دودًا وصديدًا ، لكنت لي أشد نكرة منك اليوم! .
نفى الشعر : ثار وذهب وشعث وتساقط.

[٥] التفسير الميسر:١١٣.

[٦] الوجيز:٣١٧.

[٧] تفسير البيضاوي:١٢٥/٢.

[٨] تفسير الطبري:٢٧٦/١٠.

[٩] تفسير ابن كثير:١٠١/٣.

قال ابن عطية:"وقوله تعالى: {ذلك لهم خزي}، إشارة إلى هذه الحدود التي توقع بهم، وغلظ الله الوعيد في ذنب الحرابة بأن أخبر أن لهم في الآخرة عذابا عظيما مع العقوبة في الدنيا، وهذا خارج عن المعاصي الذي في حديث عبادة بن الصامت في قول النبي صلى الله عليه وسلم، «فمن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو له كفارة»[1].

ويحتمل: أن يكون الخزي لمن عوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا، ويجرى هذا الذنب مجرى غيره، وهذا الوعيد مشروط الإنفاذ بالمشيئة، اما أن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعيد وعظم الذنب، والخزي في هذه الآية الفضيحة والذل والمقت"[2].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣]، أي:" ولهم في الآخرة عذاب شديد إن لم يتوبوا"[3].

قال الطبري:أي:" لهؤلاء الذين حاربوا الله ورسولَه وسعوا في الأرض فسادًا، فلم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها عذاب عظيم ، يعني: عذاب جهنم"[4].

قال البيضاوي:[وذلك]:" لعظم ذنوبهم"[5].

قال ابن كثير:أي:" مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن هذه الآية نزلت في المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت في الصحيح عند مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: «أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئًا: ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا يَعْضَه بعضنا بعضًا، فمن وَفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمْرُه إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له»[6]"[7].

قال الواحدي:" وهذا للكفَّار الذين نزلت فيهم الآية لأنَّ العُرنيين ارتدُّوا عن الدِّين والمسلم إذا عوقب في الدُّنيا بجنايته صارت مكفِّرةً عنه"[8].

وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: "من أذنب ذنبًا في الدنيا، فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنبًا في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه"[9].

قال القرطبي:" ولا خلود لمؤمن في النار على ما تقدم، ولكن يعظم عقابه لعظم الذنب، ثم يخرج إما بالشفاعة وإما بالقبضة، ثم إن هذا الوعيد مشروط الإنفاذ بالمشيئة كقوله تعالى:{ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: ١١٦] أما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعيد وكبر المعصية"[10].

قال الزهري[11]، وابن سلام[12]، والمقري[13]، وابن حزم[14]، " قوله تعالى: {إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ

---

[1] صحيح مسلم برقم (١٧٠٩).
[2] المحرر الوجيز:١٨٥/٢.
[3] التفسير الميسر:١١٣.
[4] تفسير الطبري:٢٧٦/١٠-٢٧٧.
[5] تفسير البيضاوي:١٢٥/٢.
[6] صحيح مسلم برقم (١٧٠٩).
[7] تفسير ابن كثير:١٠١/٣.
[8] الوجيز:٣١٧.
[9] المسند (٩٩/١) وسنن الترمذي برقم (٢٦٢٦) وسنن ابن ماجة برقم (٢٦٠٤) والعلل للدارقطني (١٢٩/٣).
[10] تفسير القرطبي:١٥٧/٦-١٥٨.
[11] الناسخ والمنسوخ:٣٦.
[12] انظر: الناسخ والمنسوخ: ٢٩٩.
[13] الناسخ والمنسوخ:٨٠.
[14] الناسخ والمنسوخ: ٣٦.

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}، نسخت بالاستثناء بعدها في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}.

قال الزهري:"يقول: فلا سبيل لكم عليهم بعد التوبة. أراد بذلك الرجل المسلم الذي يكون منه الفساد ثم يتوب من قبل أن يظفر به ربّ الأمر. وأمّا الكفار الذين يفسدون في الأرض وهم في دار الحرب فهؤلاء لا تقبل توبتهم، فإنّهم لو كانت توبتهم صادقة للحقوا ببلاد المسلمين"[١].

وقد اختلف أهل العلم في نسخ حكم النبي -ﷺ- في «العرنيين»، على قولين[٢]:

أحدهما: أن ذلك حكم منسوخ، نسخَه نهيُه عن المثلة وذلك بقوله: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣].

وقالوا: أنزلت هذه الآية عِتابًا لرسول الله ﷺ فيما فعل بالعُرَنيين. وهذا قول محمد بن العجلان[٣]، والليث بن سعد[٤].

والثاني: أن فِعْلُ النبيّ ﷺ بالعرنيين، حكمٌ ثابت أبدًا، ولم ينسخ ولم يبدّل. وقوله: {إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ } الآية، حكمٌ من الله فيمن حارب وسَعى في الأرض فسادًا بالحِرَابة.

والعرنيون ارتدُّوا، وقتلوا، وسرقوا، وحاربوا الله ورسوله، فحكمهم غير حكم المحارب الساعي في الأرض بالفساد من أهل الإسلام أو الذمة.

قال القرطبي: "وهذا قول حسن، وهو معنى ما ذهب إليه مالك والشافعي، ولذلك قال الله تعالى:{إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم}"[٥].

وقدر روي عن السدي:" فبعث رسول الله ﷺ، فأتي بهم يعني العرنيين فأراد أن يسمُل أعينهم، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يقيم فيهم الحدود، كما أنزلها الله عليه"[٦].

الفوائد:

١-بيان حكم الحرابة وحقيقتها: خروج جماعة اثنان فأكثر ويكون بأيديها سلاح ولهم شوكة، خروجهم إلى الصحراء بعيداً عن المدن والقرى، يشنون هجمات على المسلمين فيقتلون ويسلبون ويعتدون على الأعراض، هذه هي الحرابة وأهلها، يقال لهم: المحاربون وحكمهم ما ذكر تعالى في الآية.

٢- أن الإمام مخير في إنزال العقوبة التي يرى أنها مناسبة لاستتباب الأمن، وهذا مذهب الجمهور من الأئمة، وهو أرفق وأصلح وأكثر تمثيلاً للآية وانسجامًا معها.

وهذا إن قلنا {أو} في الآية للتخيير، وإلا فمن قتل وأخذ المال وأخاف الناس قتل وصلب، ومن قتل ولم يأخذ مالاً قتل، ومن قتل وأخذ مالاً قطعت يده ورجله من خلاف فتقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، ومن لم يقتل ولم يأخذ مالاً يُنفى.

ومذهب الجمهور، وهو الحق لا تقطع يد المحارب إلا في مال تقطع فيه يد السارق، وهو زنة: ربع دينار ذهب فأكثر.

وإن تعذر النفي فالسجن يقوم مقامه، إذ هو نفي من ظاهر الأرض إلى باطنها. كما قال بعض المسجونين[٧]:

خرجنا من الدّنيا ونحن من أهلها	فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا جاءنا السّجّان يوما لحاجة	عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدّنيا

---

[١] الناسخ والمنسوخ:٣٦.

[٢] انظر: تفسير الطبري:٢٥٢/١٠-٢٥٣.

[٣] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٨):ص٢٥٣/١٠.

[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٨١٨):ص٢٥٣/١٠.

[٥] تفسير القرطبي:١٥٠/٦.

[٦] أخرجه الطبري(١١٨١٩):ص٢٥٣/١٠.

[٧] . البيتان من الطويل، وهما لصالح بن عبد القدوس في أمالي المرتضى ١/ ١٠١، وبلا نسبة في عيون الأخبار ١/ ٨١- ٨٢، والمحاسن والأضداد ص ٣٨.

قال ابن قتيبة:ولا أرى شيئا اشبه بالنفي من الحبس،"لأنه إذا حبس ومنع من التصرّف والتقلّب في البلاد، فقد نفي منها كلّها وألجئ إلى مكان واحد"[1].

وقال الشافعي:" في قطاع الطريق إذا قتلوا وأخذوا المال: قتلوا وصلبوا. وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال: قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا: قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا هربوا: طلبوا حتى يوجدوا، فتقام عليهم الحدود، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا: نفوا من الأرض"[2].

القرآن

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤)} [المائدة: ٣٤]

التفسير:

لكن مَن أتى من المحاربين من قبل أن تقدروا عليهم وجاء طائعًا نادمًا فإنه يسقط عنه ما كان لله، فاعلموا -أيها المؤمنون- أن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤]، أي:" لكن الذين تابوا من المحاربين وقُطّاع الطريق قبل القدرة على أخذهم وعقوبتهم "[3].

قال ابن شهاب الزهري:" يقول: فلا سبيل لكم عليهم بعد التوبة. أراد بذلك الرجل المسلم الذي يكون منه الفساد ثم يتوب من قبل أن يظفر به ربّ الأمر. وأمّا الكفار الذين يفسدون في الأرض وهم في دار الحرب فهؤلاء لا تقبل توبتهم، فإنّهم لو كانت توبتهم صادقة للحقوا ببلاد المسلمين"[4].

قال مقاتل:" يقول: من جاء منهم مسلما قبل أن يؤخذ فإن الإسلام يهدم ما أصاب في كفره من قتل أو أخذ مال"[5].

قال الإمام الشافعي:" فمن تاب قبل أن يقدر عليه سقط حق الله عنه، وأخذ بحقوق بني آدم"[6].

قال السمرقندي:" يعني:رجعوا عن صنيعهم قبل أن يؤخذوا ويردوا المال"[7].

قال الجصاص:" فاستثنى التائب قبل القدرة عليه من جملة من أوجب عليه الحد المذكور في الآية"[8].

قال الفراء:" المعنى: إلا الذين يتوبون من قبل أن تقدروا عليهم"[9].

قال ابن عطية:" استثنى عز وجل التائب قبل أن يقدر عليه"[10].

قال أبو حيان: ظاهره أنه استثناء من المعاقبين عقاب قاطع الطريق، فإذا تابوا قبل القدرة على أخذهم سقط عنهم ما ترتب على الحرابة، وهذا فعل علي رضي الله عنه بحارثة بن بدر العراني[11]"[12].

قال ابن الجوزي:" هذا الاستثناء في المحاربين المشركين إذا تابوا من شركهم وحربهم وفسادهم، وآمنوا قبل القدرة عليهم، فلا سبيل عليهم فيما أصابوا من مال أو دم، وهذا لا خلاف

---

[1] تاويل مشكل القرآن:٢٢٩.[بتصرف].
[2] تفسير الإمام الشافعي:٧٣٣/٢.
[3] صفوة التفاسير:٣١٤.
[4] الناسخ والمنسوخ وتنزيل القرآن:٣٦.
[5] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١.
[6] تفسير الإمام الشافعي:٧٢٣/٢.
[7] بحر العلوم:٣٨٧/١.
[8] أحكام القرآن:٦٦/١.
[9] معاني القرآن:٢٤٤/١.
[10] المحرر الوجيز:١٨٦/٢.
[11] البحر المحيط:٢٤٢/٤.
[12] سوف يأتي بيان الخبر.

فيه. فأما المحاربون المسلمون، فاختلفوا فيهم، ومذهب أصحابنا: أن حدود الله تسقط عنهم من انحتام القتل والصلب والقطع والنفي. فأما حقوق الآدميين من الجراح والأموال، فلا تسقطها التوبة، وهذا قول الشافعي"[١].

قال السمعاني:" وقوله {من قبل أن تقدروا عليهم} خطاب للأئمة، أي: من قبل الظفر بهم"[٢].

قال الراغب:" الاستثناء [في قوله: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}] راجع إلى كل من تقدم ذكره، وهو في العذاب وفي إقامة الحدود، وقال بعض الفقهاء: كل حق لله مختص بقاطع الطريق فالتوبة قبل القدرة يزيل ما عليه إن كان من حقوق الله، وإن كان من حقوق الآدميين فلا يزول إذا طالب به صاحبه"[٣].

وقوله:{تاب}، يريد به المستقبل، قال الشاعر[٤]:

فإني لاتيكم تشكر ما مضى من الأمر واستيجاب ما كان في غد

يريد به المستقبل: لذلك قال «كان في غد» ولو كان ماضيا لقال: ما كان في أمس، ولم يجز ما كان في غد. وأما قول الكميت[٥]:

ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها فيما مضى أحد إذا لم يعشق

فمن ذلك إنما أراد: لم يذقها فيما مضى ولن يذوقها فيما يستقبل إذا كان لم يعشق[٦].

وقد ذكر أهل التفسير في قوله تعالى:{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤]، ستة وجوه:

أحدها: إلا الذين تابوا من شركهم وسعيهم فى الأرض فساداً بإسلامهم، فأما المسلمون فلا يتسقط التوبة عنهم حداً وجب عليهم، وهذا قول ابن عباس[٧]، والحسن[٨]، وعكرمة[٩]، ومجاهد[١٠]، والضحاك[١١]، وقتادة[١٢]، وعطاء الخراساني[١٣]، واختيار الواحدي[١٤].

الثاني: إلا الذين تابوا من المسلمين المحاربين بأمان من الإمام قبل القدرة عليهم، فأما التائب بغير أمان فلا، وهذا قول عليّ -عليه السلام-[١٥]، والشعبي[١٦]، والسدي[١٧]، ومكحول[١٨].

وروى الشعبي:"كان حارثة بن بدر قد أفسد في الأرض وحارب، ثم تاب. وكُلِّم له عليّ فلم يُؤْمنه. فأتى سعيدَ بن قيس فكلّمه، فانطلق سعيدُ بن قيس إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين، ما

---

(١) زاد المسير:٥٤٣/١.

(٢) تفسير السمعاني:٣٥/٢.

(٣) تفسير الراغب الاصفهاني:٣٣٧/٤-٣٣٨.

(٤)هو الطرماح بن حكيم الطائى. وقبله:

من كان لا يأتيك إلا لحاجة ... يروح بها فيما يروح ويغتدى

وانظر: الديوان ١٤٦.

(٥) انظر: معاني القرآن للفراء:٢٤٤/١.

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء:٢٤٤/١.

(٧) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٥):ص٢٧٨/١٠-٢٧٩.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٢):ص٢٧٧/١٠-٢٧٨.

(٩) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٢):ص٢٧٧/١٠-٢٧٨.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٣)، و(١١٨٧٤):ص٢٧٨/١٠.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٥):ص٢٧٨/١٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٧)، و(١١٨٧٨):ص٢٧٩/١٠.

(١٣) انظر: تفسير الطبري (١١٨٧٨):ص٢٧٩/١٠.

(١٤) انظر: الوجيز:٣١٨.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١١٨٧٩):ص٢٧٩/١٠-٢٨٠.

(١٦) انظر: تفسير الطبري(١١٨٨٠):ص٢٨٠/١٠.

(١٧) انظر: تفسير الطبري(١١٨٨٢):ص٢٨١/١٠-٢٨٢.

(١٨) انظر: تفسير الطبري(١١٨٨٣):ص٢٨٢/١٠.

تقولُ فيمن حارب الله ورسوله ؟ فقرأ الآية كلها، فقال: أرأيت من تابَ من قبل أن تقدِر عليه ؟ قال: أقول كما قال الله. قال: فإنه حارثة بن بدر! قال: فأمَّنه علي، فقال حارثة:

أَلا أَبْلِغَا هَمْدَانَ إِمَّا لَقِيتَها عَلَى النَّأْيِ لا يَسْلَمْ عَدُوٌّ يَعِيبُهَا

لَعَمْرُ أَبِيهَا إِنَّ هَمَدَانَ تَتَّقِي الإلهَ وَيَقْضِي بِالْكِتَابِ خَطِيبُهَا"[١].

والثالث: إلا الذين تابوا بعد أن لحقوا بدار الحرب وإن كان مسلماً ثم جاء تائباً قبل القدرة عليه، وهذا قول عروة بن الزبير[٢] .

وقد روي عن عروة خلاف هذا القول[٣].

والرابع: إن كان في دار الإسلام في منعة وله فئة يلجأ إليها وتاب قبل القدرة عليه قبلت توبته، وإن لم يكن له فئة يمتنع بها وتاب لم تسقط عنه توبته شيئاً من عقوبته، وهذا قول أبو عمرو[٤]، وربيعة[٥]، والحكم بن عيينة[٦].

والخامس: أن توبته قبل القدرة عليه تضع عنه حدود الله تعالى دون حقوق الآدميين، وهذا قول الشافعي[٧].

قال ابن قدامة:" فإن تابوا من قبل أن يقدر عليهم، سقطت عنهم حدود الله تعالى وأخذوا بحقوق الآدميين، من الأنفس والجراح والأموال، إلا أن يعفى لهم عنها» قال الإمام الموفق: لا نعلم في هذا خلافا بين أهل العلم، وبه قال مالك والشافعي وأصحاب الرأي وأبو ثور، والأصل فيه قوله تعالى: إلا الذين تابوا ... فعلى هذا يسقط عنهم تحتم القتل والصلب والقطع والنفي، ويبقى عليهم القصاص في النفس والجراح، وغرامة المال والدية لما لا قصاص فيه، فأما إن تاب بعد القدرة عليه لا يسقط عنه شيء من حدود الله تعالى. وإن فعل المحارب ما يوجب حدا لا يختص المحاربة: كالزنى، والقذف، وشرب الخمر، والسرقة، فذكر القاضي أنها تسقط بالتوبة، لأنها حدود الله تعالى، إلا حد القذف، لأنه حق آدمي، ويحتمل أن لا تسقط اه ملخصا"[٨].

والسادس: أن توبته قبل القدرة عليه تضع عنه سائر الحقوق والحدود إلا الدماء، وهذا مذهب مالك[٩].

قال الإمام الطبري:" وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قولُ من قال: توبة المحارب الممتنع بنفسه أو بجماعة معه قبل القُدرة عليه، تضع عنه تَبِعات الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحِرَابته، من حدود الله، وغُرْم لازم، وقَوَدٍ وقصاص، إلا ما كان قائمًا في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه، فيردّ على أهله لإجماع الجميع على أن ذلك حكم الجماعة الممتنعة المحاربة لله ولرسوله، الساعيةِ في الأرض فسادًا على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حكم كل ممتنع سَعَى في الأرض فسادًا، جماعةً كانوا أو واحدًا.

فأمَّا المستخفي بسرقته، والمتلصّصُ على وجه اغتفال من سرقه، والشاهرُ السلاحَ في خلاء على بعض السابلة، وهو عند الطلب غير قادر على الامتناع، فإن حكم الله عليه تاب أو لم يتب ماضٍ، وبحقوق من أخذ ماله، أو أصاب وليَّه بدم أو خَتْلٍ مأخوذ، وتوبته فيما بينه وبين الله جل وعز قياسًا على إجماع الجميع على أنه لو أصاب شيئًا من ذلك وهو للمسلمين سِلْمٌ، ثم صار

---

[١] أخرجه الطبري(١١٨٨١):٢٨٠/١٠-٢٨١. والبيتان في تاريخ ابن عساكر ٣ / ٤٣٠ ، مع اختلاف يسير في في روايتهما.

[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٨٩٢):٢٨٥/١٠.

[٣] أخرج الطبري(١١٨٩٣):ص٢٨٦/١٠: عن هشام بن عروة ، عن عروة قال: "يقام عليه حدُّ ما فر منه ، ولا ولا يجوز لأحدٍ فيه أمان يعني ، الذي يصيب حدًّا ، ثم يفرُّ فيلحق الكفار ، ثم يجيء تائبًا".

[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٨٩٤)، و(١١٨٩٥):ص٢٨٦/١٠-٢٨٧.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٨٩٦):ص٢٨٧/١٠.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٨٩٧):ص٢٨٧/١٠.

[٧] انظر:تفسير الطبري(١١٨٩٨):ص٢٨٧/١٠، وتفسير الإمام الشافعي:٧٢٣/٢.

[٨]المغني: ١٢/ ٤٨٣.

[٩] انظر: النكت والعيون:٣٤/٢.

لهم حربًا، أن حربه إياهم لن يضعَ عنه حقًّا لله عز ذكره، ولا لآدمي، فكذلك حكمه إذا أصاب ذلك في خلاء أو باستخفاء، وهو غير ممتنع من السلطان بنفسه إن أراده، ولا له فئة يلجأ إليها مانعةٌ منه.

وفي قوله:{إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم}، دليل واضح لمن وُفِّق لفهمه، أنّ الحكم الذي ذكره الله جل وعزّ في المحاربين، يجري في المسلمين والمعاهدين، دون المشركين الذين قد نصبُوا للمسلمين حربًا، وذلك أن ذلك لو كان حكمًا في أهل الحرب من المشركين، دون المسلمين ودون ذمتهم، لوجب أن لا يُسْقِطَ إسلامُهم عنهم إذا أسلموا أو تابوا بعد قدرتنا عليهم ما كان لهم قبل إسلامهم وتوبتهم من القتل، وما للمسلمين في أهل الحرب من المشركين. وفي إجماع المسلمين أنّ إسلام المشرك الحربيِّ يضع عنه، بعد قدرة المسلمين عليه، ما كان واضعَه عنه إسلامه قبل القدرة عليه ما يدلّ على أن الصحيح من القول في ذلك قول من قال: عنى بآية المحاربين في هذا الموضع، حُرَّاب أهل الملة أو الذمة، دون من سواهم من مشرِكي أهل الحرب"[١].

قال ابن عطية:" ورجح الطبري القول الآخر وهو أحوط للمفتي ولدم المحارب، وقول مالك أسد للذريعة وأحفظ للناس والطرق، والمخيف في حكم القاتل ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقوبات استحسانا"[٢].

قوله تعالى:{فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٤]، أي:" فاعلموا -أيها المؤمنون- أن الله غفور لعباده، رحيم بهم"[٣].

قال مقاتل:" {غفور} لما كان منه في كفره، {رحيم} به حين تاب ورجع إلى الإسلام"[٤].
الإسلام"[٤].

قال السمرقندي:أي:" فلا يعاقبون في الدنيا ولا فى الآخرة، ويغفر الله تعالى لهم ذنوبهم"[٥].

قال النسفي:أي:" يغفر لهم بالتوبة ويرحمهم فلا يعذبهم"[٦].

قال ابن عطية:" أخبر بسقوط حقوق الله عنه"[٧].

قال الزجاج:" وجعل توبة المؤمنين من الزنا والقتل والسرقة لا ترفع عنهم إقامة الحدود عليهم، وتدفع عنهم العذاب في الآخرة، لأن في إقامة الحدود الصلاح للمؤمنين، والحياة، قال الله جل ثناؤه: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٧٩]"[٨].

الفوائد:

١-من تاب من المحاربين قبل التمكن منه يعفى عنه إلا أن يكون بيده مال سلبه فإنه يرده على ذنوبه أو يطلب بنفسه إقامة الحد عليه فيجاب لذلك.

٢-عظم عفو الله ورحمته بعباده لمغفرته لمن تاب ورحمته له.

٣- ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء «فعول»: بناء المبالغة في الكثرة[٩].

---

[١] تفسير الطبري:١٠/٢٨٧-٢٨٩.
[٢] المحرر الوجيز:٢/١٨٤.
[٣] التفسير الميسر:١١٣.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٧٣.
[٥] بحر العلوم:١/٣٨٧.
[٦] تفسير النسفي:١/٤٤٥.
[٧] المحرر الوجيز:٢/١٨٧.
[٨] معاني القرآن:٢/١٧١.
[٩] انظر: شأن الدعاء:١/٦٥.

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[١]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[٢].

و«الرحيم»: أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٣].

قال الشيخ ابن عثيمين:" «الرحيم»: أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"[٤]، وهو "صيغة مبالغة، أو صفة مشبهة من الرحمة؛ والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يعذب من يشاء ويرحم من يشاء} [العنكبوت: ٢١]، فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل، وأهل التأويل -والأصح أن نسميهم أهل التحريف- يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المراد برحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة، ولين؛ والرقة، واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين"[٥].

٤-ومنها: إثبات ما ذكره أهل السنة والجماعة من أن أسماء الله سبحانه وتعالى المتعدية يستفاد منها ثبوت تلك الأحكام المأخوذة منها؛ فالأسماء المتعدية تتضمن الاسم، والصفة، والأثر - الذي هو الحكم المترتب عليه -؛ والعلماء يأخذون من مثل هذه الآية ثبوت الأثر - وهو الحكم -؛ لأنه لكونه غفوراً رحيماً غفر لمن تاب من المحاربين قبل التمكن منه فيعفو عنه، فيكون في هذا دليل واضح على أن أسماء الله عز وجل تدل على «الذات» الذي هو المسمى؛ و «الصفة» ؛ و «الحكم»، كما قال بذلك أهل العلم - رحمهم الله -[٦].

القرآن

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)} [المائدة: ٣٥]

التفسير:

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، خافوا الله، وتَقَرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، وجاهدوا في سبيله؛ كي تفوزوا بجناته.

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المائدة: ٣٥]، أي:" يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله"[٧].

قال ابن عباس:" ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يا أيها الذين آمنوا}، إلا كان على شريفها وأميرها"[١].

---

[١]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:١/٥٢-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[٢] شأن الدعاء:١/٦٥.

[٣] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١/١٨٨، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٤] تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:١/٥.

[٥] تفسير ابن عثيمين:الفاتحة والبقرة:٢/٢٥٢-٢٥٣.

[٦] انظر: تسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:٢/٢٥٩.

[٧] التفسير الميسر:١٣.

وعن خيثمة قال: "ما تقرأون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين"[٢].

قال الشيخ ابن عثيمين:" إن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان"[٣].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك[يعني استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه"[٢].

قوله تعالى:{اتَّقُوا اللَّهَ} [المائدة: ٣٥]، أي:" خافوا الله"[٤].

قوله تعالى:{وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ} [المائدة: ٣٥]، أي:" وتَقَرَّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه"[٥].

قال أبو عبيدة:" أي: القربة، أي اطلبوا، واتخذوا ذلك بطاعته"[٦].

قال الزجاج:" معناه: اطلبوا إليه القربة" [٧].

قال الثعلبي:أي:" واطلبوا إليه القربة، وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به"[٨].

قال ابن عطية:" {ابتغوا}، معناه: اطلبوا، و{الوسيلة}، القربة وسبب النجاح في المراد"[٩].

قال مقاتل:" يعني: في طاعته بالعمل الصالح"[١٠].

قال السمرقندي:" يعني: اطلبوا القرابة والفضيلة بالأعمال الصالحة"[١١].

قال البيضاوي:" أي: ما تتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي، من وسل إلى كذا إذا تقرب إليه"[١٢].

وفي معنى: {الْوَسِيلَةَ} [المائدة: ٣٥]، ثلاثة اقوال:

أحدها: أنها القربة، قاله ابن عباس[١٣]، وأبي وائل[١٤]، والحسن[١٥]، وعطاء[١٦]، ومجاهد[١٧]، وقتادة[١٨]، وعبدالله بن كثير[١٩]، والسدي[٢٠]، والفراء[١]، وأبو عبيدة[٢]، والطبري[٣]، والزجاج[٤]، والسمرقندي[٥]، وابن عطية[٦]، والقرطبي[٧].

---

[١] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٥):ص١٩٦/١، و(٥٠٢٥):ص٩٠٢/٣

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(٥٠٢٦):ص٩٠٢/٣.

[٣] انظر: تفسير ابن عثيمين: ٣٣٧/١.

[٢] أخرجه ابن أبي حاتم(١٠٣٧):ص ١٩٦/١، و(٥٠٢٧):ص٩٠٢/٣

[٤] التفسير الميسر:١٣.

[٥] التفسير الميسر:١٣.

[٦] مجاز القرآن:١٦٤/١.

[٧] معاني القرآن:١٧١/٢.

[٨] تفسير الثعلبي:٥٩/٤.

[٩] المحرر الوجيز:١٨٦/٢.

[١٠] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١.

[١١] بحر العلوم:٣٨٧/١.

[١٢] تفسير البيضاوي:١٢٥/٢.

[١٣] انظر: تفسير ابن كثير:١٠٤/٣.

[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١٨٩٩):ص٢٩٠/١٠-٢٩١.

[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٣):ص٢٩١/١٠.

[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٠):ص٢٩١/١٠.

[١٧] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٢):ص٢٩١/١٠.

[١٨] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٢):ص٢٩١/١٠. [أعطاءه السيد المحقق نفس الرقم، لعله تكرار].

[١٩] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٤):ص٢٩١/١٠.

[٢٠] انظر: تفسير الطبري(١١٩٠١):ص٢٩١/١٠.

وقال قتادة: " أي: تقربوا إليه بطاعته والعملِ بما يرضيه"[8].

قال أبو عبيدة: يقال: توسلت إليه تقرّبت"[9]. وأنشد[10]:

إِذَا غَفَلَ الوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالوَسَائِلُ

وقال لبيد[11]:

أرَى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بَلَى كُلّ ذي لبّ إلى الله وَاسِلُ

والثاني: أنها المحبة، يقول: تحببوا إلى الله، هذا قول ابن زيد[12].

والثالث: أنها الحاجة، وهذا قول ابن عباس أيضا، جاء في مسائل نافع[13]، "قال نافع: يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عزّ وجل: {وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}، الحاجة. قال: أو تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة العبسي وهو يقول[14]:

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكِ وَسِيلَةٌ إِنْ يَأْخُذُوكِ، تكَحَّلِي وتَخَضَّبي"[15]

قال الزمحشري:" الوسيلة: كل ما يتوسل به أى يتقرب من قرابة أو صنيعة أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي"[16].

قال ابن كثير:" والوسيلة: هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا: علم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش"[17].

---

(1) كما في زاد المسير:٥٤٣/١، ولم أجده في معاني القرآن.
(2) مجاز القرآن:١٦٤/١.
(3) انظر: تفسير الطبري:٢٩٠/١٠.
(4) انظر: معاني القرآن:١٧١/٢.
(5) انظر: بحر العلوم:٣٨٧/١.
(6) انظر: المحرر الوجيز:١٨٦/٢.
(7) انظر: تفسير القرطبي:١٥٩/٦.
(8) أخرجه الطبري(١١٩٠٢):ص٢٩١/١٠.
(9) مجاز القرآن:١٦٤/١.
(10) لم أتعرف على قائله. والبيت بلا نسبة أيضا في مجاز القرآن: ١٦٤/١، وتفسير الطبري ١٠/ ٢٩٠ وتفسير القرطبي ٦/ ١٥٩.
(11)شرح ديوان لبيد بن ربيعة" ص ٢٥٦، والواسل: الطالب، أي يتوسل إلى الله بالطاعة والعمل الصالح. وقد جاء بعد هذا البيت بيت لبيد المشهور:
ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل.
(12) انظر: تفسير الطبري(١١٩٠٥):ص٢٩١/١٠.
(13) انظر: مسائل نافع بن الأزرق:٢٩.
(14) البيت لعنترة بن الشداد في الديوان: ٣٣، وأشعار الستة الجاهليين: ٣٩٦، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ١٦٥، والخزانة ٣/ ١١، الإتقان: ١/ ١٢٠، والأغاني: ١٠/ ١٨٠، وبلوغ الأرب للآلوسي: ١/ ١٦٧، وغيرها، من أبيات له قالها لامرأته، وكانت لا تزال تذكر خيله، وتلومه في فرس كان يؤثره على سائر خيله ويسقيه ألبان إبله، فقال: لا تَذْكُرِي مُهْرِي وَمَا أَطْعَمْتُهُ ... فَيَكُونَ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ
إِنَّ الْغَبُوقَ لَهُ، وَأَنْتِ مَسُوءَةٌ، ... فَتَأَوَّهِي مَا شِئْتِ ثُمَّ تَحَوَّبِي
كَذَبَ الْعَتِيقُ وَمَاءُ شَنٍّ بَارِدٌ ... إنْ كُنْتِ سَائِلَتِي غَبُوقًا فَاذْهَبِي
إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ. . . . .
وَيَكُونَ مَرْكَبُكِ القَعُودُ وَحِدْجُهُ ... وَابْنُ النَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي!
ينذرها بالطلاق إن هي ألحت عليه بالملامة في فرسه، فإن فرسه هو حصنه وملاذه. أما هي فما تكاد تؤسر في حرب، حتى تتكحل وتتخضب لمن أسرها. يقول: إن أخذوك تكحلت وتخضبت لهم.
(15) مسائل نافع بن الأزرق:٢٩.
(16) الكشاف:٦٢٨/١.
(17) تفسير ابن كثير:١٠٣/٣.

قال ابن عطية:" وأما الوسيلة المطلوبة لمحمد ﷺ فهي أيضا من هذا، لأن الدعاء له بالوسيلة والفضيلة إنما هو أن يؤتاهما في الدنيا ويتصف بهما ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيع في المقام المحمود"(١).

وقد ثبت في صحيح البخاري، من طريق محمد بن المُنكَدِر، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودا الذي وعدته، إلا حَلَّتْ له الشفاعة يوم القيامة"(٢).
القيامة"(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عَليّ، فإنه من صلى عَليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّتْ عليه الشفاعة"(٣).

وعن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا صليتم عَليّ فَسَلُوا لي الوسيلة". قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة ؟ قال: "أعْلَى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رَجُلٌ واحد وأرجو أن أكون أنا هو"(٤).

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو: شفيعًا - يوم القيامة"(٥).

وعن أبي سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: "إن الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسَلُوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه"(٦).

قوله تعالى:{وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ} [المائدة: ٣٥]، أي:" وجاهدوا لإعلاء دينه"(٧).

قال مقاتل:" وجاهدوا العدو {في سبيله}، يعني: في طاعته"(٨).

قال ابن عطية:" خص الجهاد بالذكر لوجهين:

أحدهما: نباهته في أعمال البر وأنه قاعدة الإسلام، وقد دخل بالمعنى في قوله: وابتغوا إليه الوسيلة ولكن خصه تشريفا.

والوجه الآخر: أنها العبادة التي تصلح لكل منهي عن المحاربة وهو معدلها من حاله وسنه وقوته وشره نفسه، فليس بينه وبين أن ينقلب إلى الجهاد إلا توفيق الله تعالى"(٩).

قوله تعالى:{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٣٥]، أي:" كي تفوزوا بجناته"(١٠).

قال مقاتل:" {لعلكم} يعني: لكي، {تفلحون}،يعني: تسعدون، ويقال تفوزون"(١١).

قال الزجاج:" أي: لعلكم تظفرون بعدوكم، والمفلح الفائز بما فيه غاية صلاح حاله"(١٢).

قال ابن كثير:" لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، التاركين للدين القويم، ورغبهم في ذلك

---

(١) المحرر الوجيز:١٨٦/٢.

(٢)أخرجه البخاري في: الأذان، ٨- باب الدعاء عند النداء، حديث ٣٩٢.

(٣)صحيح مسلم برقم (١٣٨٤).

(٤)المسند (٢٦٥/٢) وسنن الترمذي برقم (٣٦١٢).

(٥)المعجم الأوسط للطبراني برقم (٦٣٩) "مجمع البحرين" وقال الهيثمي في المجمع (٣٣٣/١) : "فيه الوليد بن بن عبد الملك الحراني قد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : مستقيم الحديث إذا روي عن الثقات. قلت : وهذا من روايته عن موسى بن أعين وهو ثقة".

(٦)ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٦٤٠ ، ٦٤١) "مجمع البحرين" من طريق عمارة بن غزية به.

(٧) صفوة التفاسير:٣١٤.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١.

(٩) المحرر الوجيز:١٨٧/٢.

(١٠) التفسير الميسر:١٣.

(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١.

(١٢) معاني القرآن:١٧١/٢.

بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تَبِيد ولا تَحُول ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يَنْعَم لا ييأس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه"[١].

قال ابن عطية:" هذه الآية وعظ من الله تعالى بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أبلغ الوعظ لأنه يرد على النفوس وهي خائفة وجلة، وعادة البشر إذا رأى وسمع أمر ممتحن ببشيع المكاره أن يرق ويخشع، فجاء الوعظ في هذه الحال"[٢].

قال السعدي:" فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصا هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره، والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها، فمنها:

- أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حسا، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بأوضارها.
- ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصا الأعمال التي يعملها ليوقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

- ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له"[٣].

الفوائد:

١- وجوب تقوى الله عز وجل وطلب القربة إليه والجهاد في سبيله.

٢- مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالإيمان وصالح الأعمال.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب:" إن المشي إلى الطاعة وسؤاله امتثالاً لأمره عمل طاعة، وذلك من أعظم الوسائل المأمور بها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}، وقد أجمع العلماء أنها القربة ولا قربة أعظم من عمل الطاعة"[٤].

٤-أن التوسل إما بما يناسب المطلوب عقلاً وأذن فيه شرعاً، وإما بغير ذلك، وتفصيله: أن المتوسل إما أن يتوسل بما لله من صفات وأسماء، وإما بما له من اعتقاد صحيح، وإما بما له من عمل صالح، وإما بما لغيره من دعاء أو جاه، وإما بطاعة تعمه وغيره؛ فتلك ستة أنواع فيما ياتي نفصل القول فيها[٥]:

اولا:- التوسل بصفات الله:

النوع الأول: التوسل بصفات الله، وهو مشروع؛ لقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [الأعراف: ١٨٠]، ولما رواه الترمذي وحسَّنه عن عاذ بن جبل رضي الله عنه؛ أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ! فَقَالَ: «قَدِ اسْتُجِيبَ لَكَ؛ فَسَلْ»[٦]، وله أمثلة:

١ - منها ما أخرجه أحمد وأصحاب السنن الأربع أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وصححه ابن حبان والحاكم، عن أنس رضي الله عنه؛ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا

---

[١] تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.

[٢] المحرر الوجيز:١٨٦/٢.

[٣] تفسير السعدي:٢٤٣.

[٤] التوضيح عن توحيد الخلاق:٣١٢.

[٥] انظر: رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الجزائري:٢٩٣-٣٠٩.

[٦]ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٥ - ٢٣٦ - مصورة المكتب)، والبخاري في " الأدب المفرد " (٧٢٦)، والترمذي (٩/ ٥١١ - ٥١٣/ ٣٥٩٥ و٣٥٩٦.

يَدْعُو: "اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ! يَا قَيُّومُ! ". فَقَالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ»[1].

٢ - ومنها ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «اللَّهُمَّ! رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ» [2]؛ فإن إضافة لفظ الرب إلى تلك المخلوقات العظيمة مشعر بعظيم قدرته وكمال حكمته.

٣ - ومنها الأبيات المشهورة المنسوبة لابن القاسم السهيلي، ومطلعها:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ   أَنْتَ الْمُعِدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ

ثانيا:- التوسل بالإيمان:

النوع الثاني: التوسل بالإيمان الصحيح الصادق، وهو مشروع؛ لما فيه من تقوية التوحيد، وله أمثلة:

١ - منها ما حكاه الله عن أولي الألباب: {رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٣].

٢ - ومنها ما رواه الترمذي وحسنه- بل صححه كما في " مدارج السالكين "[3] - وبقية أصحاب السنن الأربع، وصححه ابن حبان والحاكم؛ عن بريدة رضي الله عنه، أن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ رَجُلًا يَدْعُو وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [4].

٣ - ومنها: قول تميم بن المعز بن باديس الأمير الصنهاجي المالكي[5]:

فَكَّرْتُ فِي نَارِ الْجَحِيمِ وَحَرِّهَا   يَا وَيْلَتَاهُ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصِ

فَدَعَوْتُ رَبِّي أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَتِي   يَوْمَ الْمَعَادِ شَهَادَةُ الْإِخْلَاص

ثالثا:- التوسل بالعمل الخاص:

النوع الثالث: توسل الداعي بطاعته وصالح عمله، وهو مشروع لما فيه من تغذية الخشوع المناسب للموضوع، وله أمثلة:

---

[1] صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠ - مصورة المكتب)، وأبو داود (١/ ٢٣٤)، والترمذي (٩/ ٥٢٩/ ٣٦١٢)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وابن حبان (٣/ ١٧٥ - ١٧٦/ ٨٩٣)، والحاكم (١/ ٥٠٣ - ٥٠٤) من طرق عن أنس به.
وقال الحاكم: " صحيح على شرط مسلم "، ووافقه الذهبي.

[2] أخرجه مسلم (١/ ٥٣٤/ ٧٧٠).

[3] انظر: مدارج السالكين: ١/ ١٣.

[4] صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٩ و٣٥٠ و٣٦٠ - مصورة المكتب)، وأبو داود (١/ ٢٣٤)، والترمذي (٩/ ٤٤٥ - ٤٤٦/ ٣٥٤٢)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، وابن حبان (٣/ ١٧٣ و ١٧٤/ برقم: ٨٩١ و٨٩٢)، والحاكم (١/ ٥٠٤) من طرق عن مالك بن مِغْوَل عن عبد الله بن بُريدة عن أبيه به.
وقال الترمذي: " حديث حسن غريب ".
وقال الحاكم: " حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح على شرط مسلم! " ووافقه الذهبي!
وقال المنذري في " مختصر السنن " (٢/ ١٤٥): " قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي: وهو إسناد لا مطعن فيه، ولا أعلم أنه روي في هذا الباب حديث " أجود إسناداً منه ". وقاله في " الترغيب " (٣/ ٢٨٩) أيضاً، وحكاه المباركفوري في " التحفة " (٩/ ٤٤٧) عنه بزيادة: " وهو حديث حسن ".
وللحديث شاهد بنحوه أخرجه أبو داود (١/ ١٥٦)، والنسائي (٣/ ٥٢)، وابن خزيمة في " صحيحه " (١/ ٣٥٨/ ٧٢٤) من طريق عبد الوارث ثنا الحسين المعلم عن عبد الله بن بُريدة عن حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع حدثه قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ ... أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ: فَقَالَ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ (ثَلَاثاً)».

[5] انظر: الوافي بالوفيات:١٠/٢٥٧، وشجرة النور الزكية في طبقات المالكية:٢/٢٢٥.

١ - منها: حديث الصخرة في " الصحيحين "؛ أَنَّهُ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُ ... » ثم ذكر برور الأول بأبويه وانفراج الصخرة قليلاً لدعائه، وعفة الثاني عمن أمكنته من نفسها بعد شوق طويل وانفراج الصخرة له أيضاً، ومبالغة الثالث في حفظ الأمانة وتمام انفراج الصخرة، وأنهم كلهم قالوا في أدعيتهم: «اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ؛ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ»[١].

٢ - ومنها: تقديم الصلاة على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قبل الدعاء، لما رواه أبو داود، والترمذي وصححه، أَنَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَى رَجُلاً يُصَلِّي وَيَدْعُو، وَلَمْ يَحْمَدْ رَبَّهُ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى نَبِيِّهِ، فَقَالَ: «عَجِلَ هَذَا». ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ؛ فَلْيَبْدَأْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ؛ وَلْيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، وَلْيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»[٢].

٣ - ومنها: قول محمد بن عبد الله العبدري المالكي[٣]:

تَوَسَّلْتُ يَا رَبِّي بِأَنِّيَ مُؤْمِنٌ ... وَمَا قُلْتُ إِنِّي سَامِعٌ وَمُطِيعٌ

أَيُصْلَى بِحَرِّ النَّارِ عَاصٍ مُوَحِّدٌ ... وَأَنْتَ كَرِيمٌ وَالرَّسُولُ شَفِيعُ

وهذه الأنواع الثلاثة لتقاربها قد تجتمع أو بعضها في الصيغة الواحدة.

رابعا:- التوسل بالدعاء:

النوع الرابع: تَوسُّل المرء بدعاء غيره، وهو على وجهين:

أحدهما: أن تكتفي عن دعائك بدعاء من سألته الدعاء، وهذا تقدم في فصل الدعاء، وأنه مأذون فيه، ما لم يكن ذريعة إلى منهي عنه؛ كسؤال الدعاء من الميت والغائب؛ لما فيه من مظنة الاعتقاد بعلم الغيب.

قال الشيخ محمد صالح العثيمين:" من الشرك أن يدعو غير الله؛ لأن الدعاء لا يكون إلا مع محبة وتعظيم وافتقار وتذلل، واعتقاد أن المدعو قادر"[٤].

والوجه الثاني: أن تسأل الدعاء من الحي الحاضر، فيدعو لك، وتتوجه أنت إلى الله داعياً متوسلاً بدعائه.

وهو مشروع لحديث الأعمى عند أحمد والنسائي، والترمذي وصححه، وهو أن رجلاً ضريرا جاء إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يسأله الدعاء ليرد الله عليه بصره، فخيره بين الصبر ودعائه له، فأصر على اختيار دعاء رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فأمره بالوضوء وصلاة ركعتين، ثم الدعاء بهذا اللفظ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ، نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى لِي، اللَّهُمَّ! فَشَفِّعْهُ فِيَّ»[٥].

---

[١] رواه البخاري (٦/ ٥٠٥ - ٥٠٦/ ٣٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٩ - ٢١٠٠/ ٢٧٤٣) عن أبن عمر موقوفاً مطولاً، وقد ذكره المؤلف مختصراً بمعناه.

[٢] صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٨)، وعنه أبو داود (١/ ٢٣٣)، والترمذي (٩/ ٤٥٠ - ٤٥١/ ٣٥٤٦)، وابن خزيمة (١/ ٣٥١/ ٧١٠)، وابن حبان (٥/ ٢٩٠/ ١٩٦٠)، والحاكم (١/ ٢٣٠)، وإسماعيل القاضي في " فضل الصلاة على النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " (١٠٦). وقال الترمذي: " حسن صحيح "، وقال الحاكم: " صحيح على شرط مسلم! "، ووافقه الذهبي!

وأخرجه الترمذي (٩/ ٤٤٩/ ٣٥٤٤) عن رشدين بن سعد، والنسائي (٣/ ٤٤ - ٤٥) عن ابن وهب، وكذا ابن خزيمة (١/ ٣٥١/ ٧٠٩)، وابن السني (١١٢) عن حميد بن مالك: ثلاثتهم عن أبي هانئ به، وقال الترمذي: " حديث حسن ".

[٣] انظر: الغحاطة في أخبار غرناطة:٦٢/٣، والذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة:٣٥١/٤.

[٤] القول المفيد : ١/ ٢٦٢.

[٥] صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ١٣٨)، والترمذي (١٠/ ٣٢ - ٣٣/ ٣٦٤٩)، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " (٦٥٨ و٦٥٩ و٦٦٠)، وابن ماجه (١٣٨٥)، وابن خزيمة (٢/ ٢٢٥ - ٢٢٦/ ١٢١٩)، والحاكم (١/ ٣١٣ و٥١٩ و٥٢٦ - ٥٢٧)، والطبراني في " الكبير " (٩/ ١٧ - ١٨/ ٨٣١١)، و " الصغير " (١/ ٣٠٦ - ٣٠٧/ ٥٠٨) عن عثمان بن حُنيف رضي الله عنه.

والتوجه بالنبي معناه التوجه بدعائه، دل على هذا المحذوف اختيار الأعمى لدعاء الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بعد تخييره له بينه وبين الصبر، وأمره للأعمى بالدعاء بعد دعائه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ نظير ما أخرجه مسلم وغيره من قوله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمن سأله مرافقته في الجنة: «أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» [1]؛ فنصح لهما بعبادتي الصلاة والدعاء لمناسبتهما للمطلوب.

ونظير حديث الأعمى ما رواه البخاري في " صحيحه " من استسقاء عمر بالعباس [2] وقوله: " اللَّهُمَّ! إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا، فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا؛ فَاسْقِنَا "؛ ففيه إثبات التوسل بالرسول في حياته، وبأهل الفضل- ولا سيما ذوو قرابته- بعد موته، والمقصود التوسل بدعائهم إذا كانوا معنا في عالمنا، أما من كان في العالم الغيبي؛ فكل شيء منه غائب علينا؛ فلا نعلم هل دعا لنا ولم يرد الشرع بدعائهم لنا، والعباس حاضر وقع منه الدعاء، وأنه قال - كما في " الفتح " -: " اللَّهُمَّ! إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلاءٌ إلا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُكْشَفْ إلا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ، وَهَذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْكَ بِالذُّنُوبِ، وَنَوَاصِينَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ، فَاسْقِنَا الْغَيْثَ"[3].

خامسا:- التوسل بالطاعة المطلقة:

النوع الخامس: التوسل بطاعة تعم المتوسل وغيره.

ومن أمثلته:

١-ما في " كبير الطبراني " من طريق فضال بن جبير المجمع على ضعفه عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: " أَسْأَلُكَ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَبِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَكَ، وَبِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ؛ أَنْ تَقْبَلَنِي فِي هَذِهِ الْغَدَاةِ وَفِي هَذِهِ الْعَشِيَّةِ، وَأَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ بِقُدْرَتِكَ" [4].

٢-ومنها: ما رواه أحمد وابن ماجه عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه: «وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَبِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا وَلَا بَطَرًا، وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَكِنْ خَرَجْت اتِّقَاءَ سَخَطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ، أَسْأَلُكَ أَنْ تُنْقِذَنِي مِنَ النَّارِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»[5].

وقال الترمذي: " حديث حسن صحيح غريب "؛ وقال الحاكم في الموضع الأول: " صحيح على شرط الشيخين "، وفي الموضع الثاني: " صحيح الإسناد "، وفي الأخير: " صحيح على شرط البخاري "، ووافقه الذهبي فيها، وقال الطبراني بعد ذكر طرقه: " والحديث صحيح " قاله في " الصغير "، ونقله عنه المنذري في " الترغيب " (٣/ ٦٧).

وقد صححه أيضاً البيهقي وأبو عبد الله المقدسي وابن تيمية كما في " مجموع الفتاوى " (١/ ٢٦٥ وما بعدها).

[1] أخرجه مسلم (١/ ٣٥٣/ ٤٨٩)..

[2] رواه البخاري (٢/ ٤٩٤/ ١٠١٠) عن أنس.

[3] صحيح: أخرجه الزبير بن بكار في " الأنساب "؛ كما قال الحافظ في " الفتح " (٢/ ٤٩٧)، وسكت عليه، وأشار إلى ثبوته الألباني في " التوسل: أنواعه وأحكامه " [ص:٦٢]، والله أعلم.

[4] ضعيف جداً: أخرجه الطبراني في " المعجم الكبير " (٨/ ٣١٦ - ٣١٧/ رقم: ٨٠٢٧) من طريق هشام .

قال الهيثمي (١٥/ ١١٧): " وفيه فضال بن جبير، وهو ضعيف مجمع على ضعفه"

[5] ضعيف: أخرجه أحمد (٣/ ٢١ - مصورة المكتب)، وابن ماجه (٧٧٨)، وابن السني (٨٥) من طريق فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي به. وسنده ضعيف، وفيه علتان:

الأولى: فضيل بن مرزوق ضعفه جماعة كما في " المجروحين "، و " الميزان "، و " ديوان الضعفاء "، و " التقريب " وغيرها.

والأخرى: عطية العوفي، وقد سبق تضعيفه في الحديث المخرج برقم (٦٥).

وللحديث شاهد أخرجه ابن السني (٨٤) عن بلال رضي الله عنه، وفيه الوازع بن نافع العقيلي " متفق على ضعفه وأنه منكر الحديث "، كما قال النووي في " الأذكار " [ص:٢٥]، فلا يصلح جابراً له ولا يصح الاستشهاد به، كما لا يخفى على طلاب هذا العلم وأهله.

انظر: " ترغيب المنذري " (٣/ ٢٧٢)، و " أذكار النووي "، و " مجموع فتاوى ابن تيمية " (١/ ٢٨٨ و٢٤٠)، و " اقتضاء الصراط المستقيم " [ص:٤١٨] أيضاً، و " ضعيفة الألباني " (٢٤)، و " التوسل " (ص

٣-ومنها: ما رواه محمد بن عوف عن جابر في دعاء الأذان مرفوعاً: «اللَّهُمَّ! إنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ»[١].

وعطية العوفي ضعفوه، وأطال السهسواني في " صيانة الإنسان " القول في تعليل حديثه هذا، ومحمد بن عوف فيه مقال.

فلم تسلم الأحاديث الثلاثة من الطعن.

سادسا:- التوسل بالجاه:

النوع السادس: توسل المرء بحق المخلوق وجاهه، وردت آثار لو صحت ولم تؤول لدلت على جوازه بكل معظم شرعاً، من ميت أو غائب أو حاضر لم يقع منه دعاء للمتوسل، ولنقتصر من الآثار على أحسنها إسناداً أو أشهرها على الألسنة.

ومما ورد في التوسل بالجاه:

١ - روى ابن السني وأبو نعيم وأبو الشيخ الأصبهاني من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن جده؛ أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إني أتعلم القرآن ويتفلت مني. فعلمه - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن يقول: «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّك، وَبِإِبْرَاهِيمَ خَلِيلِك، وَبِمُوسَى نَجِيِّك، وَعِيسَى رُوحِك وَكَلِمَتِك، وَبِتَوْرَاةِ مُوسَى وَإِنْجِيلِ عِيسَى وَزَبُورِ دَاوُد وَفُرْقَانِ مُحَمَّدٍ، وَبِكُلِّ وَحْيٍ أَوْحَيْته وَقَضَاءٍ قَضَيْته ... » الحديث[٢].

---

٩٤ - ١٠١) له أيضاً، والله الموفق.

[١] . شاذ بهذا اللفظ: أخرجه البيهقي في " سننه الكبرى " (١/ ٤١٠)، و " السنن الصغير " (١/ ١٢٤/ ٢٩٦) من طريق محمد بن عوف حدثنا عليّ بن عياش عن شُعيب بن أبي حمزة عن محمد بن المنكدرعن جابر مرفوعاً.

قلتُ: ومحمد بن عوف- وهو ابن سفيان أبو جعفر الطائي الحمصي- وإنْ " وثقه غير واحد وأثنوا على معرفته ونبله " كما في " تذكرة الذهبي " (٢/ ٥٨٣)، بل هو " ثقة حافظ " كما في " تقريب ابن حجر " (٣/ ١٩٧)، فلفظ حديثه شاذ مخالف للفظ المحفوظ «اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ» الذي تتابع عليه جماعة من الحفاظ الثقات الأثبات في روايته عن علي بن عياش، منهم:

١ - الإمام أحمد: في " المسند " و " سنن أبي داود ".

٢ - البخاري: في " صحيحه "، وفي " شرح السنة " للبغوي.

٣ - عمرو بن منصور: في " سنن النسائي "، و " عمل اليوم والليلة " لابن السني.

٤ - محمد بن يحى: عند " ابن ماجه " وابن حبان في " صحيحه ".

٥ و ٦ - العباس بن الوليد الدمشقي، ومحمد بن أبي الحسين، عند ابن ماجه في " سننه " أيضاً.

٧ - موسى بن سهل الرملي: عند ابن خزيمة في " صحيحه ".

٨ و ٩ - محمد بن سهل بن عسكر البغدادي وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني: عند الترمذي.

١٠ - محمد بن مسلم بن وارة: عند ابن أبي عاصم في " السنة " (٨٢٦).

وانظر: " إرواء الغليل " (١/ ٢٦١) للألباني. ٣٠٢.

[٢]موضوع: أخرجه أبو الشيخ ابن حيان في كتاب " الثواب " وغيره من طريق عبد الملك بن هارون بن عنترة الشيباني عن أبيه- زاد بعضهم: عن جدّه -؛ أنّ أبا بكر الصديق أتى النبيّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: إني أتعلّم القرآن فيتفلّت منّي، فقال النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «قل: اللهم إني أسألك بمحمد نبيّك، وإبراهيم خليلك، وموسى نجيّك، وعيسى روحك وكلمتك، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزابور داود، وفرقان محمد، وكل وحي أوحيته أو قضاء قضيته أو شيء أعطيته أو فقير أغنيته أو غني أفقرته أو ضال هديته، وأسألك باسمك الذي أنزلته على موسى، وأسألك باسمك الذي وضعته على الأرض فاستقرت، وأسألك باسمك الذي وضعته على الجبال فأرست، وأسألك باسمك الذي استقل به عرشك، وأسألك باسمك المطهر الطاهر الأحد الصمد الوتر المنزل في كتابك من لدنك من النور المبين، وأسألك باسمك الذي وضعته على النهار فاستنار، وعلى الليل فاظلم، وبعظمتك وكبريائك وبنور وجهك أن ترزقني القرآن والعلم، وتخلطه بلحمي ودمي وسمعي وبصري وتستعمل به جسدي بحولك وقوتك؛ فإنه لا حول ولا قوّة إلا بدَّ».

وهذا حديثٌ مَوْضوعٌ، وآفته عبد الملك بن هارون؛ فإنه " من أضعف الناس، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك، بل كذّاب "، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في " مجموع الفتاوى " (١/ ٢٩٩) ملخصاً كلام أهل الجرح والتعديل فيه، المبثوث في ثنايا " الجرح والتعديل " لابن أبي حاتم، و " المجروحين " لابن حبان، و " الميزان " للذهبي، و " اللسان " لابن حجر، وغيرها.

وفيه علة ثانية- وإن كانت دون الأولى- وهي ضعف أبيه هارون كما قاله الدارقطني وغيره.

٢ - وروى الحاكم في " المستدرك " وصححه من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن جده، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً: " لما اقترف آدم الخطيئة؛ قال: يا رب! أسألك بحق محمد لما غفرت لي. قال: وكيف عرفت محمداً؟ قال: لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. قال: صدقت يا آدم! ولولا محمد ما خلقتك "[١].

٣ - وأخرج الطبراني في " الكبير " و " الأوسط " والحاكم وصححه من طريق روح بن صلاح المصري، عن أنس رضي الله عنه، في قصة وفاة فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ أن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دخل لحدها، واضطجع فيه، ثم قال: «الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اللهم! اغفر لي ولأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، حق نبيك والأنبياء الذين من قبلي؛ فإنك أرحم الراحمين»[٢].

٤- وجاء من طريق عمرو بن ثابت عن ابن عباس رضي الله عنه؛ قال: سألت النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، قال: " سأل بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلا تبت عليَّ، فتيب عليه "[٣].

وعلة ثالثة: وهي الانقطاع بين هارون وأبي بكر، قاله العراقي في " تخريج الإحياء " (١/ ٣١٥). وانظر: " مجموع الفتاوى " (١/ ٢٥٢ - ٢٥٣) أيضاً، و " اللآلئ المصنوعة " (٢/ ٣٥٧) للسيوطي.

وللحديث طرق أخرى عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما بأسانيد مظلمة لا يثبت منها شيء كما في " المجموع " (١/ ٢٥٨ - ٢٥٩)، و " اللآلئ " (٢/ ٣٥٦، ٣٥٧) أيضاً.

[١]موضوع: أخرجه الحاكم (٢/ ٦١٥) وقال: " صحيح الإسناد!! وهو أوَّل حديث ذكرته لعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم في هذا الكتاب ". وتعقبه الحافظ الذهبي في " التلخيص " بقوله: " قلتُ: بل موضوع، وعبد الرحمن واهٍ، وعبد الله بن مسلم الفهري لا أدري من ذا؟ "، وفي " الميزان " (٢/ ٥٠٤) حكم على الحديث بالبطلان، وأقره الحافظ العسقلاني في " اللسان " (٣/ ٣٦٠).

وقال ابن تيمية (١/ ٢٥٤): " ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أُنكر عليه، فإنه نفسه قد قال في كتاب " المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم ": عبد الرحمن بن زيد بن أسلم روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا تخفى على من تأمّلها من أهل الصنعة أن الحمل فيها عليه.

قلتُ: وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً، وضعفه أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم، وقال أبو حاتم بن حبان: كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم، حتى كثر ذلك من روايته من رفع المراسيل وإسناد الموقوف، فاستحق الترك.

وأمّا تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله؛ فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم بالحديث وقالوا: إن الحاكم يصحّح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل المعرفة بالحديث ... ".

وانظر: " الضعيفة " (٢٥)، و " التوسل " (ص ١٠٦ - ١١٨) للألباني.

[٢]ضعيف: أخرجه أبو نعيم في " الحلية " (٣/ ١٢١)؛ قال: حدثنا سليمان بن أحمد- وهو الطبراني- وهذا في (المعجم الكبير " (٢٤/ ٣٥١ - ٣٥٢/ ٨٧١) - و " الأوسط " كما في " المجمع " (٩/ ٢٥٧) - ثنا أحمد بن حماد بن زغبة حدثنا روح بن صلاح أخبرنا سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أنس بن مالك؛ قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أمّ عليّ رضي الله عنهما، دخل عليها رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فجلس عند رأسها، فقال: " رحمكِ اللهُ يا أمّي، كنتِ أمّي بعد أمّي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيّباً وتطعميني، تريد بذلك وجه الله والدار الآخرة "، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور؛ سكبه رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بيده، ثم خلع رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قميصه فألبسها إياه، وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد، حفره رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بيده، وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ؛ دخل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فاضطجع فيه، فقال: ... " فذكره، وزاد: " وكبَّر عليها أربعاً، وأدخلوها اللحد هو والعباس وأبو بكر الصديق رضي الله عنهم".

[٣]منكر: آفته عمرو بن ثابت الذي سيذكر المؤلف قريباً أقوال بعض أهل العلم في تضعيفه جداً، ثم هو مخالف للثابت عن ابن عباس في تفسير الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، فأخرج الحاكم (٢/ ٥٤٥) عنه: " {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}؛ قال: أي ربّ! ألم تخلقني بيدك؛ قال: بلى، قال: أي ربّ! ألم تنفخ في من روحك؛ قال: بلى. قال: أي ربّ! ألم تسكني جنتك؛ قال: بلى. قال: أي رب! ألم تسبق رحمتك غضبك؛ قال: بلى. قال: إن تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنتَ إلى الجنة؛ قال: بلى. قال: فهو قوله: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} ".

وقال الحاكم: " صحيح الإسناد "، ووافقه الذهبي.

٥ - وروي: " إذا كانت لكم إلى الله حاجة؛ فسلوه بجاهي؛ فإن جاهي عند الله عظيم "[١].

٦ - وفي الباب الثالث من القسم الثاني من الشفاء عن محمد بن حميد الرازي، أن مالكاً والخليفة المنصور اجتمعا، فسأل المنصور مالكاً: أيستقبل القبلة ويدعو أو يستقبل رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ فأجابه: " ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامه، بل استقبله واستشفع به؛ يشفعه الله فيك. قال الله تعالى:{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء: ٦٤] "[٢].

قلت: والتوسل بحق الأنبياء، فهذا فيه نزاع، إذ منع التوسل بالذات والقسم على الله تعالى بأحد من خلقه مطلقا وهو الذي يرشح به كلام المجد ابن تيمية ونقله عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأبي يوسف وغيرهما من العلماء الأعلام.

قال أبو حنيفة:" "وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام"[٣].

وقال أيضا:"يكره أن يقول الداعي أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام"[٤].

وقال بشير بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال: قال أبو حنيفة: "لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعاقد العز من عرشك[٥]، أو بحق خلقك"[٦].

وقد ذكر أهل العلم أنه لم يصح في التوسل بجاه النبي-ﷺ- دليل، والأخبار التي ذكرت لم ترد شيء منها من كتب المسلمين التي يعتمد عليها، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث، والتوسل من العبادة، والعبادات لا تثبت إلا بدليل صحيح صريح.

قالوا: بأن جاه النبي صلى الله عليه وسلم عند الله عظيم ولا شك، لكن التوسل به في الدعاء لم يدل عليه دليل صحيح فهو لا يجوز وهو من البدع في الدعاء[٧].

قال ابن باز:" أما التوسل بمخلوقات فلا، جاه النبي، أو بحق النبي أو بجاه فلان، أو شرف فلان، وسيلة باطلة ما تنفع، ليست وسيلة شرعية"[١].

قلتُ: وهو في حكم المرفوع كما لا يخفى، فدلّ على نكارة حديث عمرو بن ثابت، والله أعلم.

[١]باطل لا أصل له: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في " القاعدة الجليلة " المطبوعة ضمن " مجموع الفتاوى " (١/ ٣١٩):

" وهذا الحديث كذب ليس في شيءٍ من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث، ولا ذكره أحدٌ من أهل العلم بالحديث، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ... ".

وانظر: (١/ ٣٤٦ و٢٤/ ٣٣٥ و٢٧/ ١٢٦) منه أيضاً.

[٢] منقطع، ابن حميد هو محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف كثير المناكير غير محتج بروايته، ولم يسمع من مالك شيئاً ولم يلقه،بل روايته عنه منطقة غير متصلة.

[٣]إتحاف السادة المتقين ٢٨٥/٢؛ وشرح العقيدة الطحاوية ص٢٣٤.

[٤]العقيدة الطحاوية ص٢٣٤؛ وإتحاف السادة المتقين ٢٨٥/٢؛ وشرح الفقه الأكبر للقاري ص١٩٨.

[٥]كره الإمام أبو حنيفة ومحمد بن الحسن أن يقول الرجل في دعائه"اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك".

لعدم وجود النص في الإذن به، وأما أبو يوسف فقد جوز لوقوفه على نص من السنة وفيه أن النبي ﷺ كان من دعائه: "اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم وجدِّك الأعلى وكلماتك التامة".

وهذا الحديث أخرجه البيهقي في كتاب الدعوات الكبير كما في البناية ٣٨٢/٩، ونصب الراية ٢٧٢/٤، ٢٧٣.

وفي إسناده ثلاثة أمور قادحة:

١- عدم سماع داود بن أبي عاصم من ابن مسعود.

٢- عبد الملك بن جريج مدلس ويرسل.

٣- عمر بن هارون متهم بالكذب.

من أجل هذا قال ابن الجوزي كما في البناية ٣٨٢/٩ "هذا حديث موضوع بلا شك وإسناده محبط كما ترى".

انظر تهذيب التهذيب ١٨٩/٣، ٤٠٥/٦، ٥٠١/٧؛ وتقريب التهذيب ٥٢٠/١ .

[٦]التوسل والوسيلة ص٨٢؛ وانظر شرح الفقه الأكبر ص١٩٨.

[٧] انظر: مجموع الفتاوى :١٠ / ٣١٨-٣١٩.

قال محمود الآلوسي مفتي الحنفية ببغداد وتبعه ابنه العلامة نعمان الآلوسي- واللفظ للوالد-: "إن معنى «الاستشفاع» به -ﷺ - طلب الدعاء منه، وليس معناه: الإقسام به على الله تعالى ... وعلى هذا لا يصلح «الخبر» [أي خبر التوسل والاستشفاع] ولا ما قبله [في آية الوسيلة]- دليلاً لمن ادعى جواز الإقسام [والتوسل] بذاته ﷺ حياً وميتاً، وكذا بذات غيره من الأرواح المقدسة مطلقاً، قياساً عليه، عليه الصلاة والسلام"[٢].

وقد أجازه بعض العلماء، منهم: الشيخ محمد العز بن عبدالسلام، إذ نقل عنه جواز التوسل في رسول الله-ﷺ- خاصة، فقال: "أما مسألة الدعاء فقد جاء في بعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم بعض الناس الدعاء فقال في أقواله: "قل: اللهم إني أقسم عليك بمحمد ﷺ نبي الرحمة"[٣].

وهذا الحديث إن صح فينبغي أن يكون مقصورا على رسول الله ﷺ، لأنه سيد ولد آدم، وألا يقسم على الله بغيره من الأنبياء والملائكة، لأنهم ليسوا في درجته، وأن يكون هذا مما خُص به تنبيها على درجته ومرتبته"[٤].

قال بعض أهل العلم:" وأما جاه النبي -ﷺ- فورد فيه حديث مشكل، فإذا اجتهد أحد العلماء وأجاز ذلك -لا سيما أنه ورد عن بعض الصحابة أنه كان يجيز ذلك- فيكون هذا من الاجتهاد الذي يعذر فيه صاحبه، لا نبدعه ولا نعصمه في نفس الوقت، وإنما نقول: الصواب هو ترك هذا لضعف حديث الأعمى، ولغموض الاستدلال به[٥].

القرآن

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)} [المائدة: ٣٦]

التفسير:

إن الذين جحدوا وحدانية الله، وشريعته، لو أنهم سلكوا جميع ما في الأرض، وملكوا مثله معه، وأرادوا أن يفتدوا أنفسهم يوم القيامة من عذاب الله بما ملكوا، ما تَقَبَّل الله ذلك منهم، ولهم عذاب مُوجع.

قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا} [المائدة: ٣٦]، أي:" إن الذين جحدوا وحدانية الله، وشريعته"[٦].

قال المراغي:" أي إن الذين جحدوا ربوبية ربهم وعبدوا غيره من عجل أو صنم أو وثن وهلكوا وهم على هذه الحال قبل التوبة"[٧].

---

(١) مجموع فتاوى ابن باز:٥٦/٢٨.

(٢) انظر: تفسير الآلوسي:٢٩٤/٣-وما بعدها.

(٣) .سبق تخريجه.

قال أهل العلم:" وليس في هذا الحديث متمسّك لمن يرى جواز التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه؛ فإن الحديث صريح في أن الغرض من مجيء هذا الرجل، وهو ضرير البصر إلى النبي ﷺ طلب الدعاء منه، وليس التوسل بذاته أو جاهه، ولو أراد غير ذلك لجلس في بيته ودعا بجاه النبي ﷺ يدل على ذلك قوله للنبي ﷺ: "ادع الله أن يعافيني".

ورد الرسول ﷺ بقوله: " إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك ".

فتبين مما سبق أن الحديث ليس فيه ما يستدل به على جواز التوسل بجاه النبي ﷺ أو بذاته إذ قوله: "بنبيك" على تقدير المضاف أي بدعاء نبيك أو بشفاعته". انظر: التوسل والوسيلة ص٢٥٩.

(٤)فتاوى العز بن عبد السلام ص١٢٦. ، وانظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص: ١٤٧) - ط المكتب الإسلامي-، وفتوى العز موجودة في المطبوع من فتاويه (ص: ١٢٦-١٢٧).

(٥) انظر: شرح كتاب التوحيد، عبدالرحيم السلمي:الدرس(٧)/١٩.[دروس صوتية مرقم آليا].

(٦) التفسير الميسر:١١٣.

(٧) تفسير المراغي:١١٢/٦.

قوله تعالى:{لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ} [المائدة: ٣٦]، أي:" لو أنهم سلكوا جميع ما في الأرض، وملكوا مثله معه"(١).

قال السمرقندي:" يقول: إن الكافر إذا عاين العذاب ثم تكون له الدنيا جميعا ومثلها معها"(٢).

قال البيضاوي:أي:" من صنوف الأموال جميعا ومثله معه"(٣).

قال ابن كثير:" أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا، وبمثله"(٤).

قوله تعالى:{لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ} [المائدة: ٣٦]، أي:" وأرادوا أن يفتدوا أنفسهم يوم القيامة من عذاب الله بما ملكوا"(٥).

قال البيضاوي:أي:" ليجعلوه فدية لأنفسهم. من عذاب يوم القيامة"(٦).

قال مقاتل:" أي: فقدروا أن يفتدوا به من عذاب جهنم يوم القيامة"(٧).

قال السمرقندي:أي" فيقدر على أن يفتدي بها، من العذاب لافتدى بها"(٨).

قال الراغب:" أي لو حصل كل واحد ما في الأرض ومثله قاصدا بإحرازه أن يجعل ذلك وقاية لنفسه"(٩).

قال أبو حيان:" المعنى: لو أن ما في الأرض ومثله معه مستقر لهم على سبيل الملك ليجعلوه فدية لهم"(١٠).

قال ابن كثير:أي:" ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به وتيقن وصوله إليه "(١١).

قال الزمخشري:" {ليفتدوا به}، ليجعلوه فدية لأنفسهم"(١٢).

وقد وحّد الضمير في قوله: {ليفتدوا به}، وإن كان قد تقدم شيئان معطوف عليه ومعطوف، وهو {ما في الأرض ومثله معه}، لوجهين (١٣):

أحدهما: لفرض تلازمهما فأجريا مجرى الواحد، كما قالوا: رب يوم وليلة مر بي، قال الشاعر(١٤):

فَمَنْ يَكُ أمْسَى بالمَدِينَةِ رَحْلُهُ فإنّي وَقيار بِهَا لَغَرِيبُ

والثاني: وإما لإجراء الضمير مجرى اسم الإشارة كأنه قال: ليفتدوا بذلك.

قال الزمخشري: "ويجوز أن تكون الواو في: ومثله، بمعنى مع، فيوحد المرجوع إليه"(١٥).

قوله تعالى:{مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ} [المائدة: ٣٦]، أي:" ما تَقبَّل الله ذلك منهم"(١٦).

---

(١) التفسير الميسر:١١٣.
(٢) بحر العلوم:٣٨٧.
(٣) تفسير البيضاوي:١٢٥/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.
(٥) التفسير الميسر:١١٣.
(٦) تفسير البيضاوي:١٢٥/٢.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١.
(٨) بحر العلوم:٣٨٧.
(٩) تفسير الراغب الأصفهاني:٣٣٠/٤.
(١٠) البحر المحيط:٢٤٣/٤.
(١١) تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.
(١٢) الكشاف:٦٢٩/١.
(١٣) انظر: الكشاف:٦٢٩/١-٦٣٠.
(١٤)ن الأبيات التي قالها ضأبى بن الحارث البرجى وهو محبوس بالمدينة فى زمن عثمان بن عفان، فى الأصمعيات ١٦. والبيت فى الكتاب ١/ ٢٩ والكامل ١٨١ والطبري ٦/ ١٢١ والشنتمرى ١/ ٣٨ والقرطبي ٦/ ٢٤٦ وابن يعيش ١/ ١١٣، ٢/ ١١٢٦ والعيني ٢/ ٣١٨ وشواهد المغني ٢٩٣ والخزانة ٤/ ٢٢٣ واللسان والتاج (قير) .
(١٥) الكشاف:٦٢٩/١.
(١٦) التفسير الميسر:١١٣.

قال السعدي:أي:"ما تقبل منهم، ولا أفاد، لأن محل الاقتداء قد فات"(١).
قال السمرقندي:أي:" لو كان ذلك لهم ففعلوه ما تقبل منهم ذلك النداء"(٢).
قال الراغب: أي:" لم ينفعه، وذلك حث على المبادرة بالامتناع عن الآثام وترك الاهتمام بالمال في المعاد"(٣).
قال البغوي:" أخبر أن الكافر لو ملك الدنيا كلها ومثلها معها ثم فدى بذلك نفسه من العذاب لم يقبل منه ذلك الفداء"(٤).
قال الزمخشري:" وهذا تمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة منه بوجه"(٥).
قال ابن كثير:أي:" ما تُقُبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص"(٦).
وقرأ يزيد بن قطيب: «تقبل»، بفتحها على معنى: ما قبل الله(٧).
قوله تعالى:{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٣٦]، أي:" ولهم عذاب مُوجع"(٨).
قال السمرقندي:"أي وجيع"(٩).
قال ابن كثير:" أي: موجع"(١٠).
قال أبو حيان:" لما أرشد المؤمنين إلى معاقد الخير ومفاتح السعادة، وذكر فوزهم في الآخرة وما آلوا إليه من الفلاح، شرح حال الكفار وعاقبة كفرهم، وما أعد لهم من العذاب"(١١).
روى أنس عن النبي ﷺ قال: « يقال للكافر يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، قال: فيقال له: قد سئلت أيسر من ذلك »(١٢).
الفوائد:
١-أن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٩-١٠].
وهذا هو الفارق بين الإسلام وغيره من الأديان فالنصارى يعتقدون أن خلاصهم وسعادتهم يكون بالمسيح فدية لهم يفتديهم بنفسه مهما كانت حالهم، والمسلمون يعتقدون أن العمدة فى النجاة تزكية النفس بالفضائل والأعمال الصالحة.
٢-أن من استحق العذاب ذلك اليوم لا يُقبل منه عدل؛ قال تعالى: {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم}.
٣-أن النار عذابها شديد، وفيها من الأهوال وألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال. وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يؤتي بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب "(١٣).

---

(١) تفسير السعدي:٢٣٠.
(٢) بحر العلوم:٣٨٧.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني:٣٣٠/٤.
(٤) تفسير البغوي:٥١/٣.
(٥) الكشاف:٦٢٩/١.
(٦) تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.
(٧) انظر: المحرر الوجيز:١٨٧/٢.
(٨) التفسير الميسر:١١٣.
(٩) بحر العلوم:٣٨٧.
(١٠) تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.
(١١) البحر المحيط:٢٤٢/٤.
(١٢)مسند أحمد(١٤١٠٧):ص٤٧١/٢١، وأخرجه البخاري(٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥) (٥٢) ، وأبو يعلى (٢٩٢٦) و (٢٩٧٦) و (٣٠٢١) ، وأبو عوانة في القدر كما في "إتحاف المهرة" ٢٥٥/٢، وابن حبان (٧٣٥١) من طرق عن معاذ بن هشام، به. وانظر (١٣٢٨٨) .
(١٣)روه مسلم: ٢٨٠٧.

إنها لحظات قليلة تُنسي أكثر الكفار نعيماً كلّ أوقات السعادة والهناء.
وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يقول الله - تبارك وتعالى - لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك (أحسبه قال:) ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك "(١).
إن شدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه، وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار، وأنى له النجاة: {يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه* وصاحبته وأخيه* وفصيلته التي تؤيه* ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه* كلا إنها لظى * نزاعة للشوى} [المعارج: ١١-١٦] .
وهذا العذاب الهائل المتواصل يجعل حياة هؤلاء المجرمين في تنغيص دائم، وألم مستمر.

القرآن
{يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٧)} [المائدة: ٣٧]
التفسير:
يريد هؤلاء الكافرون الخروج من النار لما يلاقونه من أهوالها، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ولهم عذاب دائم.
قوله تعالى:{يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ} [المائدة: ٣٧]، أي:" يريد هؤلاء الكافرون الخروج من النار لما يلاقونه من أهوالها"(٢).
قال الطبري:أي:" يريد هؤلاء الذين كفروا بربهّم يوم القيامة، أن يخرجوا من النار بعد دخولها"(٣).
قال المراغي:" أي: يتمنون الخروج من النار دار العذاب والشقاء بعد دخولهم فيها"(٤).
قال ابن كثير:أي:" فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه"(٥).
قال الماتريدي:" أي: يطلبون ويسألون الخروج منها من غير عمل الخروج نفسه"(٦).
قال السمرقندي:" وذلك أنهم يريدون أن يخرجوا من الأبواب، فتستقبلهم الملائكة فيضربونهم بمقامع من حديد ويردونهم إليها"(٧).
قال النسفي:" {يريدون} يطلبون أو يتمنون"(٨).
وقرأ أبو واقد:«أن يخرجوا»، بضم الياء، من: أخرج. ويشهد لقراءة العامة قوله: {بخارجين}(٩).
قوله تعالى:{وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا} [المائدة: ٣٧]، أي:" ولا سبيل لهم إلى الخروج من النار"(١٠).
قال ابن كثير:أي:" ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعالي جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردونهم إلى أسفلها"(١١).
قوله تعالى:{وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [المائدة: ٣٧]، أي:" ولهم عذاب دائم"(١٢).

---
(١)رواه البخاري: صحيح البخاري: ٣٣٣٤، ورواه مسلم: ٢٨٠٥. المصابيح: (١٠٢/٣).
(٢) التفسير الميسر:١١٤.
(٣) تفسير الطبري:٢٩٣/١٠.
(٤) تفسير المراغي:١١٣/٦.
(٥) تفسير ابن كثير:١٠٥/٣.
(٦) تفسير الماتريدي:٥١٠/٣.
(٧) بحر العلوم:٣٨٧/١.
(٨) تفسير النسفي:٤٤٥/١.
(٩) انظر: الكشاف:٦٣٠/١.
(١٠) التفسير الميسر:١١٤.
(١١) تفسير ابن كثير:١٠٦/٣.
(١٢) التفسير الميسر:١١٤.

قال السمرقندي:أي:"دائم أبدا "[1].

قال ابن عاشور:" أي: دائم تأكيد لقوله:{ وما هم بخارجين منها}"[2].

قال ابن كثير:" أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها "[3].

قال الطبري:" يقول: لهم عذابٌ دائم ثابت لا يزول عنهم ولا ينتقل أبدًا، كما قال الشاعر[4]:

فَإِنَّ لَكُمْ بِيَوْمِ الشِّعْبِ مِنِّي   عَذَابًا دَائِمًا لَكُمُ مُقِيمَا"[5].

قال المراغي:" «المقيم»: هو الثابت الذي لا يرتحل أبدا"[6].

قال ابن عطية:" أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ليسوا بخارجين من النار بل عذابهم فيها مقيم متأبد"[7].

قال السعدي:" ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبدا، بل هم ماكثون فيه سرمدا"[8].

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي - ﷺ - قال: " يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، خلود "[9].

وروي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار، يا أهل النار خلود لا موت "[10].

وهذا يقال بعد ذبح الموت كما في حديث ابن عمر عند البخاري، قال: قال رسول الله - ﷺ -: " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح، ثم ينادي منادي: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم "[11].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله - ﷺ -: " يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ثم قال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت". قال: ثم قرأ رسول الله - ﷺ -: [وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون} [مريم: ٣٩] "[12].

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري يرفعه قال: " إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيذبح وهم ينظرون، فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة، ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار "[13] قال: حديث حسن صحيح.

عن عكرمة: "أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله: أعمى البصر أعمى القلب، يزْعُم أن قومًا يخرجون من النار، وقد قال الله جل وعز: {وما هم بخارجين منها}؟ فقال ابن عباس: ويحك، أقرأ ما فوقها! هذه للكفّار"[1].

---

[1] بحر العلوم:٣٨٧/١.

[2] التحريري والتنوير:١٨٩/٦.

[3] تفسير ابن كثير:١٠٦/٣.

[4] لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد الطبري:٢٩٣/١٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة:١٦٥/١.

[5] تفسير الطبري:٢٩٣/١٠.

[6] تفسير المراغي:١١٣/٦.

[7] المحرر الوجيز:١٨٧/٢.

[8] تفسير السعدي:٢٣٠.

[9] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (٤٠٦/١١).

[10] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، فتح الباري: (٤٠٦/١١).

[11] صحيح البخاري، كتاب الرقاق: باب صفة الجنة والنار، فتح الباري: (٤١٥/١١) .

[12] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها: (٢١٨٨/٤) .

[13] سنن الترمذي: ٢٥٥٨.

وعن جابر بن عبد الله ؛ أن رسول الله -ﷺ-قال: "«يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: { يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا } قال: اتل أول الآية: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ } الآية، ألا إنهم الذين كفروا"[٢].

عن يزيد الفقير قال:"جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدّث أن أُنَاسًا يخرجون من النار - قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد! تزعمون أن الله يخرج ناسًا من النار، والله يقول: { يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} فانتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ } حتى بلغ: { وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ } أما تقرأ القرآن ؟ قلت: بلى قد جمعته قال: أليس الله يقول: { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } ؟ [الإسراء: ٧٩]، فهو ذلك المقام، فإن الله تعالى يحتبس أقوامًا بخطاياهم في النار ما شاء، لا يكلمهم، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم. قال: فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به"[٣].

وعن طَلْق بن حبيب قال: "كنت من أشد الناس تكذيبًا بالشفاعة، حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله تعالى فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أتُرَاك أَقْرَأُ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله -ﷺ- مني ؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبًا فعذبوا، ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال: صُمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعدما دخلوا». ونحن نقرأ كما قرأت"[٤].

الفوائد:

١- أن الشرك بالله عبادة غير الله معه، وهو أعظمُ ذنب عُصي الله به، وهو الذنب الذي لا يغفره الله، وهو الذنب الذي يُخلِّد صاحبُه في النار أبد الآباد، ولا سبيل له للخروج منها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}.

وفي الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك"[٥]، الحديث.

٢- الرد على الذين نفوا الشفاعة من الخوارج والمعتزلة، وذلك لأنهم يكفرون الناس بالمعاصي، وعندهم أن من دخل النار من أصحاب الذنوب فإنه يخلد فيها، فالخوارج يكفرونه في الدنيا والآخرة، والمعتزلة يفسقونه في الدنيا ويحكمون بتخليده في الآخرة في النار، وينكرون على هذا شفاعة الشافعين، وينكرون أيضاً الأحاديث التي وردت في الشفاعة مع كثرتها، ويستدلون بمثل قول الله تعالى: {وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ} [البقرة:١٢٣]، وقول الله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ} [البقرة:٢٥٤]، فمثل هذه الآيات فيها نفي الشفاعة، فلذلك قالوا: ليس في الآخرة شفاعة، بل من دخل النار فهو مخلد فيها.

وقد يستدلون بقوله تعالى: {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا} [الحج:٢٢]، وقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا} [المائدة:٣٧] على أن من دخل النار فإنه لا يخرج منها، ولا دلالة في الآية، بل الآية فيها نفي الشفاعة التي هي بدون إذن الله، ولأجل ذلك أثبت الله تعالى الشفاعة بشرطين -وعليه قول أهل السنة-:

الشرط الأول: الإذن للشافع.

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع.

---

[١] أخرجه الطبري(١١٩٠٦):ص١٠/٢٩٤.

[٢]المسند (٣/٣٥٥)، وصحيح مسلم برقم (١٩١).

[٣] راه ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير:٣/١٠٦-١٠٧.

[٤] رواه ابن مردويه كما في تفسير ابن كثير:٣/١-٧.

[٥]صحيح البخاري (٤٧٦١) ومسلم (١٤١).

كما في سورة النجم: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم:٢٦] يأذن للشافع ويرضى عن المشفوع، وذكر الرضا في سورة طه وفي سورة الأنبياء، قال تعالى: {وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالى: {يَوْمَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٩]، فهذه الآية ذكر فيها الشرطين: {أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه:١٠٩]، وذكر الإذن في آية الكرسي: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ} [البقرة:٢٥٥]، وفي آية سورة سبأ: {وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ:٢٣]، فكل هذه أدلة على أن هناك شفاعة، ولكنها لا تكون إلا بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له، وعلى هذا فإن العبد لا يطلبها إلا من الله، فيقول: يا رب**!** اجعلني ممن تنفعه شفاعة الشافعين، أسألك أن تُشَفِّع فيّ أنبياءك ورسلك وملائكتك، أسألك عملاً صالحاً أكون به أهلاً أن يشفع فيّ الشافعون، وما أشبه ذلك[١].

٣-ذكر اهل العلم في أبدية النار، آراء كثيرة، وقد أشار شارح الطحاوية في أبدية النار ودوامها ثمانية أقوال، وهي[٢]:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم**!** وهذا قول ابن عربي الطائي[٣].

الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[البقرة:٨٠-٨١].

الرابع: أن أهل النار يخرجون من النار بعد حين، ثم تبقى النار على حالها ليس فيها أحد[٤].

الخامس: أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه**!!** وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادا، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل العلاف (ت - ٢٣٥هـ).

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدا تنتهي إليه[٥].

ونسب هذا القول إلى عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأبي هريرة من الصحابة، وابن تيمية، وابن القيم[٦]، وجماعة[٧].

واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ

---

[١] انظر: اعتقاد أهل السنة، ابن جبرين: الدرس الصوتي(١٠)/٣.[مرقم آليا].

[٢] انظر: شرح الطحاوية:٤٢٧ وما بعدها.

[٣]انظر: فصوص الحكم ١٦٩/١ - ١٧٠.

[٤]ذكر ابن القيم رحمه الله في حادي الأرواح ص٢٤٩ أن شيخ الإسلام حكاه، ولم ينسبه لأحد..

[٥]ممن قال بهذا بعض المعاصرين مثل فيصل عبد الله في أطروحته التي تقدم بها لنيل درجة الماجستير إلى قسم قسم العقيدة في جامعة أم القرى بعنوان (الجنة والنار والآراء فيهما) انظر: ٢٢٨، وعبد الكريم الحميد في القول المختار لبيان فناء النار.

[٦] انظر: حادي الأرواح ص٢٤٨ - ٢٤٩.

وقد ذكر ابن القيم سبعة أقوال، فلم يذكر القول الثامن، ونقلها عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٤٢١/١١ - ٤٢٢ وقال: (جمع بعض المتأخرين في هذه المسألة سبعة أقوال) ثم ذكرها، وزاد عليها ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ٦٢٤/٢ - ٦٢٥ القول الثامن الذي هو قول أهل السنة والجماعة.

[٧] انظر: شرح الطحاوية:٥٢٩، والرد على من قال بفناء الجنة والنار لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق أ. د. محمد بن عبد الله السمهري :(ص ٥٣).

مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)} [الأنعام: ١٢٨]، وقال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٠٧)} هود:[١٠٦ – ١٠٧]، قالوا: استثنى من الخلود في الآيتين بقوله في الآية الأولى {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} وبقوله في الآية الثانية {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} ولم يأتِ بعد الاستثناءين ما يدل على عدم الانقطاع وانتهاء العذاب كما جاء عقب الاستثناء من الخلود في نعيم الجنة، فإن الآية ختمت بقوله تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)}.

وأما الأحاديث والآثار التي يستدل بها القائلون بفناء النار، فهي كالآتي:

١-حديث: «ليأتين على جهنم يوم كأنها زرع هاج، وآخر تخفق أبوابها" [(١)]، وهذا حديث باطل موضوع.

٢-وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، أنه قال: "لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه"[(٢)].

٣-واستدلوا أيضا بالأثر المروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما- قال: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً"[(٣)].

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: {لابثين فيها أحقابا} [النبأ: ٢٣].

---

(١)انظر: الموضوعات لابن الجوزي ٤٣٧/٢ مع اختلاف في اللفظ.
وهذا حديث باطل موضوع، وآفته: جعفر بن الزبير، وأيضاً الراوي عنه: عبد الله بن مسعر بن كدام.
أما جعفر بن الزبير، فقد وضع أربعمائة حديث على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكذبه شعبة بن الحجاج، وقال ابن معين رحمه الله: ليس بثقة. وقال البخاري رحمه الله: تركوه، وقال ابن عدي -رحمه الله-: الضعف على حديثه بيّن، وذكر الذهبي - رحمه الله- هذا الحديث، وقال: إسناده مظلم. [انظر: الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ٥٥٨/٢ - ٥٦٠، ميزان الاعتدال للذهبي ٤٠٦/١ - ٤٠٧] .
وأما عبد الله بن مسعر فهو متروك - أيضاً - وذكر الذهبي (ت - ٧٤٨هـ) رحمه الله حديثه هذا وقال: هذا باطل.[انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٥٠٢/٢].

(٢)ضعيف لأنه من رواية الحسن قال: قال عمر: والحسن لم يدرك عمر رضي الله عنه. وقال ابن القيم في "حادي الأرواح" "٢/ ٧١ طبع الكردي" عقبه. والحسن لم يسمع من عمر. ومع ذلك فقد حاول تقويته بكلام خطابي، لا غناء فيه. "وحسبك بهذا الإسناد جلالة "! " والحسن وإن لم يسمع من عمر فإنما رواه عن بعض التابعين، ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به، وقال: عمر بن الخطاب"!
قلت: وهذا كلام عجيب من مثل ابن القيم رحمه الله، لأن معناه الاحتجاج بحديث التابعي المجهول العين! لأنه إذا كان الحسن قد أخذه من بعض التابعين، فمن هو؟ وما حاله في الحديث حفظا وضبطا؟ أليس منطق ابن القيم هذا يؤدي إلى قلب القواعد الأصولية الحديثية التي تجعل حديث المجهول ضعيفا، والحديث المرسل والمنقطع ضعيفا كذلك، لأنهما يرجعان إلى راو لم يذكر ولم يسم؟! ويؤدي كذلك إلى قبول أحاديث الحسن البصري المعنعنة، فضلا عن المنقطعة والمرسلة، مثل حديثه عن سمرة "لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث، فسمته عبد الحارث، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره".
وهو حديث ضعيف، بل باطل، ولا علة فيه سوى عنعنة الحسن البصري، وقد فسر هو الآية التي يفسرها بعض المفسرين بهذا الحديث، فسرها الحسن نفسه بغير ما دل عليه حديثه، وتبعه على ذلك بعض المحققين، منهم ابن القيم نفسه، انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة" "رقم الحديث ٣٤٢".
ومثل حديثه المرسل في إبطال الوضوء بالقهقهة، وهو ضعيف باتفاق المحدثين!
سامح الله ابن القيم وغفر له، فإنه بتصحيحه لمثل هذا الأثر عن عمر رضي الله عنه يفتح بابا كبيرا لبعض الفرق الضالة يلجون فيه إلى تأييد ضلالهم، كالقاديانية، فإن من خلالهم القول بفناء النار، وانتهاء عذاب الكفار.
وجملة القول: أن هذا الأثر لا يصح عن عمر، كما لا يصح عن غيره مرفوعا، والله ولي التوفيق. وراجع هذا البحث كتاب "رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار". للعلامة الصنعاني.

(٣)وهذا الأثر ضعيف لا يصح لا مرفوعاً ولا موقوفاً، وآفته: أبو أبلج يحيى بن سليم، وهذا الرجل ثقة في نفسه، نفسه، إلا أن تضعيف الحفّاظ له جاء من قبل حفظه، فقال الحافظ ابن حجر (ت - ٨٥٢هـ) رحمه الله عنه: "صدوق ربما أخطأ"[انظر: تقريب التهذيب ٤٠١/٢ – ٤٠٢] ، وقد جعل الإمام الذهبي (ت - ٧٤٨هـ) رحمه الله هذا الحديث من بلاياه، وحكم عليه بأنه منكر.[انظر: ميزان الاعتدال ٣٨٤/٤ – ٣٨٥].

٤-أثر أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- في قوله - تعالى -: {إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [هود: ١٠٧] قال: "هذه الآية قاضية على القرآن كله"(١).

ويجاب على هذا الأثر من وجهين(٢):

أحدهما: أن هذا الأثر وإن كان صحيحاً موقوفاً، إلا أنه لا دلالة فيه على فناء النار، بل كما يقول الإمام الصنعاني -رحمه الله-: "غاية ما فيه أن كل وعيد في القرآن ذكر فيه الخلود لأهل النار، فإن آية الاستثناء حاكمة عليه، وهي عبارة مجملة لا تدل على المدعى بنوع من الدلالات الثلاث"(٣).

والثاني: أن هذا الأثر محمول على عصاة المؤمنين من الموحدين الذي يبقون في النار - ما شاء الله - ثم يخرجون منها بهذه المشيئة الربانية، وعلى هذا يبطل الاستدلال به على فناء النار.

٥-أثر عبد الله بن مسعود-رضي الله عنه- قال: "ليأتين على جهنم زمان ليس فيها أحد".

وهذا الأثر رواه الطبري باسناد تالف(٤)، وذكره البغوي بدون إسناد ثم قال:" ومعناه عند أهل السنة - إن ثبت - أنه لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان، وأما مواضع الكفار فممتلئة أبداً"(٥).

٦-الأثر المروي عن أنس بن مالك -رضي الله عنه-: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها، وما فيها من أمة محمد أحد"(٦). وهو اثر موضوع.

٧-الأثر المروي عن أبي هريرة- رضي الله عنه قوله-: "ما أنا بالذي لا أقول إنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد" .قد ذكره بسنده ابن القيم -رحمه الله- في حادي الأرواح (٧)، وإسناده وإسناده صحيح (٨).

وقد قال أحد رواة الحديث -وهو عبيد الله بن معاذ (٩)- كما في تتمة الأثر: "كان أصحابنا يقولون: يعني به الموحدين"(١٠).

وأجاب الإمام الصنعاني على هذا الأثر بقوله: "فإن قوله: «ليس فيها أحد» دال على بقائها، فإنك إذا قلت: ليس في الدار أحد، فإنه دال على بقاء الدار لا على فنائها"(١١).

---

(١)انظر: جامع البيان للطبري ١١٥/٧ - ١١٦، الأسماء والصفات للبيهقي ٢٦٤/١، الدر المنثور للسيوطي ٣٥٠/٣.

(٢) انظر: دعاوى المناوئين لشيخ الاسلام ابن تيمية:٦٠١.

(٣)رفع الأستار ص٧٩، والدلالات الثلاث هي دلالة: التضمن، المطابقة، الالتزام.

(٤)انظر: جامع البيان للطبري ١١٦/٧.

(٥)معالم التنزيل ٤٠٣/٢.

(٦)انظر: الحكم عليه في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٧١/٢، تخريج الألباني لأحاديث رفع الأستار للصنعاني ص٨٢.

وهذا الأثر موضوع، وآفته: العلاء بن زيدل، فقد كان يضع الحديث كما قال البخاري وغيره: منكر الحديث [انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٩٩/٣] ، وقال أبو حاتم: "هو متروك الحديث، قال ابن حبان: لا يحل ذكره في الكتب إلا على سبيل التعجب"[المجروحين ١٨٠/٢ - ١٨١]، وذكر ابن عدي هذا الحديث في ترجمته وقال: "منكر الحديث"[الكامل في ضعفاء الرجال ١٨٦٢/٥ - ١٨٦٣]، وقال الذهبي: "تالف"، وذكر هذا الحديث[ميزان الاعتدال للذهبي ٩٩/٣ - ١٠٠].

(٧) انظر: حادي الأرواح:٢٥٢، وأورده ابن تيمية في الرد على من قال بفناء الجنة والنار ص٧٠، وانظر: الدر الدر المنثور للسيوطي ٤٧٨/٤..

(٨)انظر: تخريجه في حاشية تحقيق الألباني على رفع الأستار للصنعاني ص٧٥، وتخريج شرح العقيدة الطحاوية للأرناؤوط ٦٢٧/٢.

(٩)عبيد الله بن معاذ: بن نصر بن حسان العنبري. أبو عمرو الأنصاري. ثقة حافظ. (ت٢٣٥هـ) . انظر: الكاشف للذهبي ٢٣١/٢، تقريب التهذيب لابن حجر ٥٣٩/١.

(١٠)انظر: حادي الأرواح لابن القيم ص٢٥٢، الدر المنثور للسيوطي ٤٧٨/٤، وانظر: رفع الأستار للصنعاني ص٧٦.

(١١)رفع الأستار للصنعاني ص٧٦.

٨-واستدلوا بأن النار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال -ﷺ-: «لما قضى الله الخلق، كتب كتابا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي». وفي رواية: «تغلب غضبي»[(١)].

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: {عذاب يوم عظيم}[الأنعام:١٥]، و {أليم}[هود:٢٦]، و {عقيم}[الحج:٥٥]، ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: {عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء} [الأعراف:١٥٦]، وقال تعالى حكاية عن الملائكة: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر: ٧]، فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبهم أبد الآباد عذابا سرمدا لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقا ينعم عليهم ويحسن إليهم نعيما سرمدا - فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام - كله حق مسلم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه[(٢)].

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله.

إذ يرى جمهور السلف: أن النار باقية لا تفنى، ومن دخل بقي مخلدا فيها أبدا إلا من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم يخرجون منها.

واستدلوا على بقائها ومن بها من الكافرين بقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)} [البقرة: ١٦٧]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)} [المائدة: ٣٦]، وقوله: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)} الزخرف: ٧٥، قوله: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦)} [فاطر: ٣٦]، وقوله: قال تعالى: {مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)} [الإسراء: ٩٧]، { إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٥]، أي مقيما لازما. وغيرها من الآيات.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: "لا إله إلا الله"، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما[(٣)].

وقول الجماعة بدوامها وبقاء الكفار فيها، وهو القول الحق الذي تسنده الأدلة-كما تقدم-.

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح بشرحه فتح الباري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى {بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ} {والطور، وكتاب مسطور} حديث ٧٥٥٤، ١٣/ ٥٢٢ من طريق آخر عن أبي هريرة بلفظ: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش".

أخرجه الترمذي في الجامع بشرحه تحفة الأحوذي، كتاب الدعوات باب "١٠٩" حديث ٣٦١١ جـ٩ ص"٥٢٨" قال: حدثنا قتيبة، حدثني الليث بهذا السند، عن أبي هريرة بلفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: شرح الطحاوية:٤٢٩-٤٣٠.

(٣) انظر: شرح الطحاوية:٤٣١.

إلا أن أقبح الأقوال وأشدها شذوذاً ونكراناً: قول الجهم بن صفوان إمام المعطلة، الذي ذهب إلى القول بفناء الجنة والنار جميعاً، وليس له في هذا القول سلف، وأنكر عليه عامة أهل السنة.

القرآن

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨)} [المائدة: ٣٨]

التفسير:

والسارق والسارقة فاقطعوا -يا ولاة الأمر- أيديهما بمقتضى الشرع، مجازاة لهما على أَخْذهما أموال الناس بغير حق، وعقوبةً يمنع الله بها غيرهما أن يصنع مثل صنيعهما. والله عزيز في ملكه، حكيم في أمره ونهيه.

سبب النزول:

نقل الواحدي والماوردي وابن الجوزي عن ابن السائب: أنها "نزلت في طعمة بن أبيرق سارق الدرع وقد مضت قصته"(١).

قلت: وابن السائب هو الكلبي، وهو متهم بالوضع، فخبره باطل، لا أصل له.

قوله تعالى:{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة: ٣٨]، أي:" والسارق والسارقة فاقطعوا -يا ولاة الأمر- أيديهما بمقتضى الشرع"(٢).

قال أبو السعود:" أي: حكمهما"(٣).

قال السدي:" فاقطعوا أيديهما اليمنى"(٤).

قال مقاتل:"يعني: أيمانهما من الكرسوع"(٥).

قال البيضاوي:" السرقة: أخذ مال الغير في خفية"(٦).

قال الزمخشري:" والسارق في الشريعة: من سرق من الحرز: والمقطع: الرسغ، وعند الخوارج: المنكب"(٧).

قال ابن عرفة: "السارق عند العرب هو من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له، فإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس(٨)، فإن تمنع بما في يده فهو غاصب"(٩).

قال السعدي:" السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة"(١٠).

قال ابن الجوزي:" السارق: إنما سمي سارقا، لأنه يأخذ الشيء في خفاء، واسترق السمع: إذا تسمع مستخفيا... وهذه الآية اقتضت وجوب القطع على كل سارق، وبينت السنة أن المراد به السارق لنصاب من حرز مثله"(١).

---

(١) أسباب النزول:١٩٥، وانظر: النكت والعيون:٣٧/٢، وززاد المسير:٥٤٤/١، ومضت قصة طعمة بن أبريق سارق الدرع في سورة النساء، سبب نزول قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ} الْآيَةَ {١٠٥} . إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}.

(٢) التفسير الميسر:١١٤.

(٣) تفسير أبي السعود:٣٤/٣.

(٤) أخرجه الطبري(١١٩٠٩):ص٢٩٥/١٠.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٣/١-٤٧٤.

(٦) تفسير البيضاوي:١٢٦/٢.

(٧) الكشاف:٦٣٢/١.

(٨)المحترس الذي يسرق حريسة الجبل.

(٩) تفسير القرطبي:١٦٧/٦.

(١٠) تفسير السعدي:٢٣٠.

قال الإمام الموفق:"وجملته أن الوالد لا يقطع بالسرقة من مال ولده، وإن سفل وسواء في ذلك الأب والأم، والابن والبنت، والجد والجدة، من قبل الأب والأم وهذا قول عامة أهل العلم منهم: مالك والثوري والشافعي وأصحاب الرأي، وقال أبو ثور وابن المنذر: القطع على كل سارق بظاهر الكتاب...والعبد إذا سرق من مال سيده فلا قطع عليه في قولهم جميعا، ووافقهم أبو ثور، وحكي عن داود أنه يقطع لعموم الآية اه ملخصا"[٢].

واختلفوا في السارق الذي عناه الله عز ذكره في قوله::{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا} [المائدة: ٣٨]، على وجوه[٣]:

أحدها: أنه سارقَ ثلاثة دراهم فصاعدًا. وذلك قول جماعة من أهل المدينة، منهم مالك بن أنس ومن قال بقوله. واحتجّوا لقولهم ذلك، بأنّ رسولَ الله -ﷺ-، قطَع في مِجَنّ قيمته ثلاثةُ دَرَاهم[٤].

والثاني: أنه سارق رُبع دينار أو قيمته. وممن قال ذلك، الأوزاعيّ ومن قال بقوله. واحتجوا لقولهم ذلك بالخبر الذي رُوي عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "القطعُ في ربع دِينارٍ فصاعدًا"[٥].

والثالث: انه سارقَ عشرة دراهم فصاعدًا. وممن قال ذلك أبو حنيفة وأصحابه. واحتجوا في ذلك بالخبر الذي روي عن عبد الله بن عمرو، وابن عباس: "أن النبي -ﷺ قَطَع في مِجَنّ قيمته عَشْرة دراهم"[٦].

والرابع: أنه سارقَ القليل والكثير. واحتجوا في ذلك بأن الآية على الظاهر، وأنْ ليس لأحد أنَ يخُصَّ منها شيئًا، إلا بحجة يجب التسليم لها، وقالوا: لم يصحّ عن رسول الله ﷺ خبرٌ بأن ذلك في خاصّ من السُرَّاق، قالوا: والأخبار فيما قَطَع فيه رسول الله ﷺ مضطربة مختلفة، ولم يروِ عنه أحد أنه أتي بسارق درهمٍ فَخَلَّى عنه، وإنما رووا عنه أنه قطع في مجن قيمته ثلاثة دراهم. قالوا: وممكن أن يكون لو أتى بسارق ما قيمته دانقٌ أن يَقْطع. قالوا: وقد قطع ابن الزبير في دِرْهم.

وروي عن ابن عباس أنه قال: الآيةُ على العموم.

عن نجدة الحنفي قال: "سألت ابن عباس عن قوله: {والسارق والسارقة}، أخاصّ أم عام ؟ فقال: بل عام"[٧].

والخامس: أنه سارق درهم. وهذا قول الحسن[٨]. وفي مواعظه: "احذر من قطع يدك في درهم"[٩].

قال الإمام الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا، قولُ من قال: الآية معنيّ بها خاصٌّ من السراق، وهم سُرَّاق ربع دينار فصاعدًا أو قيمت، لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القطعُ في ربع دينار فصاعدًا»[١]"[٢].

---

[١] زاد المسير:٥٤٤/١.

[٢]المغني: ١٢/ ٤٥٩، في شرح المسألة ١٥٨٩، وانظر : أحكام الجصاص:٤/ ٨٠- ٨١.

[٣] انظر: تفسير الطبري:٢٩٥/١٠-٢٩٦.

[٤] تفسير الطبري(١١٩١١):ص٢٩٥/١٠. رواه بغير إسناد. ورواه مالك ، عن نافع ، عن عبد الله بن عمر في الموطأ : ٨٣١ ، ورواه البخاري من طريق مالك (الفتح ٢ : ٩٣ - ٩٤) ، ورواه مسلم من طريقه أيضًا ، في صحيحه ١١ : ١٨٤ ، ١٨٥.

والمجن : الترس ، لأنه يجن صاحبه ، أي يواريه.

[٥]أخرجه الشافعي في المسند: ٢ / ٨٣ والبخاري في الحدود، باب قول الله تعالى: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما" وفي كم يقطع؟: ١٢ / ٩٦، ومسلم في الحدود، باب حد السرقة ونصابها، برقم (١٦٨٤) : ٣ / ١٣١٢، والمصنف في شرح السنة: ١٠ / ٣١٢، والطبري(١١٩١٢):ص٢٥٩/١٠.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١١٩١٣):ص٢٩٦/١٠، و رواه الطحاوي في معاني الآثار ٢ / ٩٣، وأحمد في المسند برقم : ٦٩٠٠.

[٧] أخرجه الطبري(١١٩١٤):ص٢٩٦/١٠.

[٨] انظر: الكشاف:٦٣٢/١.

[٩] الكشاف:٦٣٢/١.

قال الماوردي:" إنما بدأ الله تعالى في السرقة بالسارق قبل السارقة، وفي الزنى بالزانية قبل الزاني، لأن حب المال على الرجال أغلب، وشهوة الاستمتاع على النساء أغلب، ثم جعل حد السرقة قطع اليد لتناول المال بها، ولم يجعل حد الزنى قطع الذكر مع مواقعة الفاحشة به، لثلاثة معانٍ:
أحدها: أن للسارق مثل يده التي قطعت فإن انزجر بها اعتاض بالثانية، وليس للزاني مثل ذكره إذا قطع فلم يعتض بغيره لو انزجر بقطعه .
والثاني: أن الحد زجر للمحدود وغيره، وقطع اليد في السرقة ظاهر، وقطع الذكر فى الزنى باطن.
والثالث: أن فى قطع الذكر إبطال النسل وليس في قطع اليد إبطاله"[٣].
وقد قطع السارق في الجاهلية، وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد ابن المغيرة، فأمر الله تعالى بقطعه فى الإسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله -ﷺ- في الإسلام الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم، وقال: "لَو كَانَتْ فَاطِمَةُ لَقَطَعْتُ"[٤]، وقطع عمر ابن سمرة أخا عبد الرحمن بن سمرة[٥].
والقطع في السرقة حق الله تعالى لا يجوز العفو عنه بعد علم الإمام به، لقول رسول الله -ﷺ- في سارق رداء صفوان حين أمر بقطعه، فقال صفوان: قد عفوت عنه، فقال النبي -ﷺ-: "هَلاَّ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ ؟"[٦].
وروي:"أن معاوية بن أبي سفيان أُتِيَ بلصوص فقطعهم حتى بقي واحد منهم فقدم ليقطع فقال[٧]:

يميني أمير المؤمنين أعيذها   بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها[٨]
يدي كانت الحسناء لو تم سبرها   ولا تعدمُ الحسناءُ عابا يعيبها
فلا خير في الدنيا وكانت حبيبة   إذا ما شمالي فارقتها يمينها[٩]

فقال معاوية: كيف أصنع وقد قطعت أصحابك، فقالت أم السارق: يا أمير المؤمنين اجعلها من ذنوبك التي تتوب منها، فَخَلَّى سبيله، فكان أول حد ترك في الإسلام"[١٠].
وفي قراءة عبد الله ابن مسعود: «والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهما»[١١].
وقرأ عيسى بن عمر:« السارق والسارقة» بالنصب، وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر، لأن «زيدا فاضربه» أحسن من «زيد فاضربه» [١٢].

---

[١] سبق تحريجه.
[٢] تفسير الطبري:٢٩٦/١٠.
[٣] النكت والعيون:٣٥/٢.
[٤] أخرجه احمد(١٥١٤٩):ص٣٤٦/٢٤، والبخاري(٦٧٨٨)، ومسلم (١٦٨٩) ، والنسائي ٧١/٨، والبيهقي ٢٨١/٨، و الطبراني في "الأوسط" (٧٨٣٢، و
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٦/٢.
[٦]رواه أبو داود (٤٣٩٤)، والنسائي (٤٨٧٩)، وابن ماجه (٢٥٩٥)، من حديث صفوان بن أمية.
[٧]في المستطرف ١: ١٩٣ أنه أعرابي اسمه «حمزة» كان قد سرق وقامت عليه البينة، فهمّ عبد الملك بقطع يده، فكتب إليه حمزة من السجن هذين البيتين، وأن أمه استشفعت له عند الخليفة فعفا عنه. والخبر كذلك في عيون الأخبار ١: ٩٩، والعقد ٢: ١٦٧ والبرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ:٣٧٢، بدون ذكر لاسم الأعرابي.
وفي رواية المصادر غير النكت:" فأبى إلّا قطعها، فدخلت عليه أمّه فقال: يا أمير المؤمنين، واحدي وكاسبي. فقال: بئس الكاسب! هذا حدّ من حدود الله. فقال: اجعله من الذنوب التي تستغفر الله منها. فعفا عنه".
[٨] وفي رواية البرصان للجاحظ::" بك اليوم أن تلقى".
[٩] وفي رواية أنس المسجون صفي الدين الحلبي:١٥٦، " ولا خير في الدّنيا ولا في نعيمها ...إذا ما شمال فارقتها يمينها".
[١٠] النكت والعيون:٣٦/٢، وانظر: البداية والنهاية لابن كثير:١٤٥/٨.
[١١] انظر: النكت والعيون:٣٥/٢.
[١٢] انظر: الكشاف:٦٣١/١.

قوله تعالى:{جَزَاءً بِمَا كَسَبَا} [المائدة: ٣٨]، أي:" مجازاة لهما على أَخْذهما أموال الناس بغير حق"[١].

قال مقاتل:" يقول: القطع جزاء {بما كسبا}، يعنى: سرقا"[٢].

قال الطبري:"يقول:مكافأةً لهما على سرقتهما وعملهما في التلصصّ بمعصية الله"[٣].

قال السعدي "أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس"[٤].

واختلفوا هل يجب مع القطع غُرْم المسروق إذا استهلك على مذهبين:

أحدهما: أنه لا غرم، وهذا قول أبي حنيفة[٥].

والثاني: يجب فيه الغرم، وهو مذهب الشافعي[٦].

قوله تعالى:{نَكَالًا مِنَ اللَّهِ} [المائدة: ٣٨]، أي:" وعقوبةً يمنع الله بها غيرهما أن يصنع مثل صنيعهما"[٧].

قال مقاتل:" يعنى: عقوبة من الله: قطع اليد"[٨].

قال الطبري:"يقول: عقوبة من الله على لُصُوصيتهما"[٩].

قال السعدي:" أي: تنكيلا وترهيبا للسارق ولغيره، ليرتدع السراق -إذا علموا- أنهم سيقطعون إذا سرقوا"[١٠].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨]، أي:" والله عزيز في ملكه، حكيم في أمره ونهيه"[١١].

قال السعدي "أي: عز وحكم فقطع السارق"[١٢].

قال أبو السعود:" {والله عزيز} غالب على أمره يمضيه كيف يشاء من غير ند ينازعه ولا ضد يمانعه {حكيم} في شرائعه لا يحكم إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ولذلك شرع هذه الشرائع المنطوية على فنون الحكم والمصالح"[١٣].

قال الطبري:أي:" والله عزيزٌ في انتقامه من هذا السارق والسارقةِ وغيرهما من أهل معاصيه ، حكيم في حكمه فيهم وقضائه عليهم، يقول: فلا تفرِّطوا أيها المؤمنون، في إقامة حكمي على السرَّاق وغيرهم من أهل الجرائم الذين أوجبت عليهم حدودًا في الدنيا عقوبةً لهم، فإني بحكمتي قضيت ذلك عليهم، وعلمي بصلاح ذلك لهم ولكم"[١٤].

قال قتادة:"لا تَرْثُوا لهم أن تقِيموا فيهم الحدود، فإنه والله ما أمر الله بأمرٍ قَطُّ إلا وهو صلاحٌ، ولا نهى عن أمرٍ قَطُّ إلا وهو فساد"[١٥].

وكان عمر بن الخطاب يقول:"اشتدُّوا على السُّرَّاق، فاقطعوهم يدًا يدًا، ورجلا رجلا"[١٦].

---

[١] التفسير الميسر:١١٤.
[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.
[٣] تفسير الطبري:٢٩٦/١٠.
[٤] تفسير السعدي:٢٣٠.
[٥] انظر: النكت والعيون:٣٧/٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٣٧/٢.
[٧] التفسير الميسر:١١٤.
[٨] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.
[٩] تفسير الطبري:٢٩٦/١٠.
[١٠] تفسير السعدي:٢٣٠.
[١١] التفسير الميسر:١١٤.
[١٢] تفسير السعدي:٢٣٠.
[١٣] تفسير أبي السعود:٣٥/٣.
[١٤] تفسير الطبري:٢٩٨/١٠.
[١٥] أخرجه الطبري(١١٩١٥):ص٢٩٧/١٠.
[١٦] تفسير الطبري:٢٩٨/١٠. ذكره دون إسناد.

قال السيد احمد محمد شاكر:" ولكننا قد أظلنا زمان عطلت فيه الحدود، بزعم الرثاء لمن أصاب حدًا من حدود الله. وطالت ألسنة قوم من أهل الدخل، فاجترأوا على الله بافترائهم، وزعموا أن الذي يدعونه من الرحمة لأهل الحدود هو الصلاح، وأن ما أمر الله به هو الفساد!! فاللهم نجنا من زمان تبجح فيه الأشرار بسلطانهم، وتضاءل فيه أهل الإيمان بمعاصيهم"[1].

الفوائد:

١- بيان حكم حد السرقة، وهو قطع يد السارق والسارقة.

٢-ومنها: إثبات العزة، والحكمة لله؛ لقوله تعالى: { وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } .

٣-ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «العزيز»«الحكيم»، وما تضمناه من مناسبة العزة، والحكمة في سياق الآية.

فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب. والعز في كلام العرب على ثلاثة أوجه. أحدها: بمعنى الغلبة، ومنه قولهم: من عز بز، أي: من غلب سلب، يقال منه: عز يعز -بضم العين- من يعز. ومنه قول الله سبحانه: {وعزني في الخطاب} [ص: ٢٣].

والثاني: بمعنى الشدة والقوة. يقال منه: عز يعز -بفتح العين- من "يعز"، كقول الهذلي -يصف العقاب-[2]:

حتى انتهيت إلى فراش عزيزة ... سوداء روثة أنفها كالمخصف

جعلها عزيزة، لأنها من أقوى جوارح الطير.

والوجة الثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر. يقال منه: عز الشيء يعز -بكسر العين- من يعز، فيتأول معنى العزيز على هذا، أنه الذي لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له، ولا نظير"[3].

و«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء. صرف عن مفعل إلى فعيل، كقولهم: أليم بمعنى: مؤلم، وسميع بمعنى: مسمع؛ كقوله -جل وعز-: {آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم هنا الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل.

ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها. إذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك. هذا في قوله -جل وعز-: {الذي أحسن كل شيء خلقه} [السجدة:٧] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها. كقوله [تعالى]: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان:٢]"[4].

القرآن

{فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)} [المائدة: ٣٩]

---

[1] تفسير الطبري:٢٩٧/١٠[الهامش].

[2]ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١١٠، وشرح أشعارهم للسكري ص ١٠٨٩ آخر قصيدة لأبي كبير الهذلي، أبياتها ٢٣ بيتا، مطلعها:

أزهير هل عن شيبة من مصرف ... أم لا خلود لباذل متكلف

وفي مقاييس اللغة ٢/ ١٨٢ وتهذيب الأزهري ٧/ ١٤٧ برواية: فتخاء، بدل، سوداء، وفي اللسان والقاموس وشرحه (عزز). وفي الديوان، يريد: أن منسرها حديد دقيق كأنه مخصف. والروثة: طرف الأنف، وفراشها: عشها.

والبيت استشهد به الزجاج في تفسير الأسماء ص ٣٤ على معنى "العزيز"..

[3] شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.

[4] شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.

التفسير:
فمن تاب مِن بعد سرقته، وأصلح في كل أعماله، فإن الله يقبل توبته. إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.
سبب النزول:
عن عبد الله بن عمرو قال: "سرقت امرأة حُليًّا، فجاء الذين سرقتهم فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة! فقال رسول الله ﷺ: اقطعوا يدها اليمنى. فقالت المرأة: هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ: أنتِ اليومَ من خطيئتك كيوم ولدتك أمك! قال: فأنزل الله جل وعز: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ}"(١).[ضعيف]
قوله تعالى:{فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ} [المائدة: ٣٩]، أي:" فمن تاب مِن بعد سرقته"(٢).
قال مقاتل:" يقول: من تاب من بعد سرقته"(٣).
قال ابن كثير:" أي: من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله"(٤).
قال ابن عباس:" يقول: الحدُّ"(٥).
قال مجاهد:" يقول: «الحد كفارة عنه»(٦). قال ابن عطية:" وهذا تشديد وقد جعل الله للخروج من الذنوب بابين أحدهما الحد والآخر التوبة"(٧).
وقال الشافعي: إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحاكم بأخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياسا على توبة المحارب"(٨).
وقال السمعاني: "الصحيح أن القطع للجزاء على الجناية، كما قال: {جزاء بما كسبا} فلا بد من التوبة بعده، وتوبته: الندم على ما مضى، والعزم على تركه في المستقبل"(٩).
قال البغوي:" فأما القطع فلا يسقط عنه بالتوبة عند الأكثرين، ولا بد من التوبة بعده، وإذا قطع السارق يجب عليه غرم ما صرف من المال عند أكثر أهل العلم"(١٠).
قال الراغب:" قيل: إن تاب في الدنيا قبل القدرة عليه، وأصلح سقط عنه الحد، ورجى له الغفران، وإن تاب بعد القدرة عليه رجي له الغفران، ولم يسقط عنه الحد"(١١).
قال السمرقندي:" والظلم في هذا الوجه يرجع إلى النقصان؛ لأن السارق ينقص مال المسروق، ويجوز أن يكون سمى الله السارق ظالما لأنه يدخل الضرر على من لا يستحقه، وكل ضرر غير مستحق ولا معقب نفعا ظلم، وقد سمي أيضا ظالما؛ لظلمه لنفسه"(١٢).
قوله تعالى:{وَأَصْلَحَ} [المائدة: ٣٩]، أي:" وأصلح في كل أعماله"(١٣).
قال مقاتل:" وأصلح العمل فيما بقي"(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٧، ١٧٨)، والطبري في "جامع البيان" (١١٩١٧):ص٢٩٩/١٠، كلاهما من طريق موسى بن داود ثنا ابن لهيعة عن حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو به.
قلنا: وهذا إسناد ضعيف؛ ابن لهيعة فيه كلام مشهور، والراوي عنه هنا لم يرو عنه قبل اختلاطه واحتراق كتبه.
قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ٢٧٦): "رواه أحمد؛ وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات".
والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٧٣) وزاد نسبته لابن أبي حاتم..
(٢) التفسير الميسر:١١٤.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.
(٤) تفسير ابن كثير:١١٠/٣.
(٥) تفسير الطبري(١١٩١٦):ص٢٩٩/١٠.
(٦) تفسير مجاهد:٣٠٨، وتفسير الطبري:٢٩٩/١٠.
(٧) المحرر الوجيز:١٩٠/٢.
(٨) المحرر الوجيز:١٩٠/٢.
(٩) تفسير السمعاني:٣٧/٢.
(١٠) تفسير البغوي:٥٠/٢.
(١١) تفسير الراغب الاصفهاني:٣٤٨/٤.
(١٢) تفسير السمرقندي:٣٢٦.
(١٣) التفسير الميسر:١١٤.

قال الزمخشري:" بالتفصى عن التبعات"[2].
قال الراغب:" واشترط إصلاح العمل تنبيها أن التوبة باللفظ غير مغنية ما لم يضامها ما يحققها من الفعل"[3].
قوله تعالى:{فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ} [المائدة: ٣٩]، أي:" فإن الله يقبل توبته"[4].
قال الواحدي:أي:" يعود عليه بالرَّحمة"[5].
قال السعدي "أي: فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب"[6].
قال الثعلبي:" هذا ما بينه وبين الله تعالى فأما القطع فواجب"[7].
قال ابن كثير:" فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: "متى قطع وقد تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها "[8].
قال الزمخشري:أي:"ويسقط عنه عقاب الآخرة. وأما القطع فلا تسقطه التوبة عند ابى حنيفة وأصحابه وعند الشافعي في أحد قوليه تسقطه من يشاء من يجب في الحكمة تعذيبه والمغفرة له من المصرين والتائبين. وقيل: يسقط حد الحربي إذا سرق بالتوبة، ليكون أدعى له إلى الإسلام وأبعد من التنفير عنه، ولا يسقطه عن المسلم، لأن في إقامته الصلاح للمؤمنين والحياة {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: ١٧٩] "[9].
قال ابن عطية:" المعنى عند جمهور أهل العلم أن من تاب من السرقة فندم على ما مضى وأقلع في المستأنف وأصلح برد الظلامة إن أمكنه ذلك وإلا فبإنفاقها في سبيل الله وأصلح أيضا في سائر أعماله وارتفع إلى فوق فإن الله يتوب عليه ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبين الله تعالى، وهو في المشيئة مرجو له الوعد وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا من القطع إن اعترف أو شهد عليه"[10].
عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ أتي بسارق قد سرق شملة فقال: "ما إخَاله سرق"! فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: "اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم ائتوني به". فقطع فأتي به، فقال: "تب إلى الله". فقال: تبت إلى الله. فقال: "تاب الله عليك"[11].
عن عائشة-رضي الله عنها-:"أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت، في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال «أتشفع في حد من حدود الله عز وجل؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي، قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله -ﷺ-"[12].

---

(1) تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.
(2) الكشاف:٦٣٢/١.
(3) تفسير الراغب الاصفهاني:٣٤٨/٤.
(4) التفسير الميسر:١١٤.
(5) والوجيز:٣١٩.
(6) تفسير السعدي:٢٣٠.
(7) تفسير الثعلبي:٦٢/٤.
(8) تفسير ابن كثير:١١٠/٣.
(9) الكشاف:٦٣٢/١.
(10) المحرر الوجيز:١٨٩/٢.
(11)سنن الدارقطني (١٠٢/٣) ورواه الحاكم في المستدرك (٣٨١/٤) من طريق محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان به موصولا وقال : "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه". وسكت عنه الذهبي.
(12)صحيح مسلم (حدود حديث ٩) وصحيح البخاري (حدود باب ١٢) .

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة: ٣٩]، أي:" إن الله غفور لعباده، رحيم بهم"[١].

قال مقاتل:" إن الله غفور لذنبه رحيم به"[٢].

قال الراغب:"جعل علة قبول توبته كونه تعالى غفورا رحيما"[٣].

الفوائد:

١- بيان أن التائب من السراق إذا اصلح يتوب الله عليه، أي: يقبل توبته.

٢-إذا لم يرفع السارق إلى الحاكم تصح توبته ولو لم تقطع يده، وإن رفع فلا توبة له إلا بالقطع، فإذا قطعت يده خرج من ذنبه كأن لم يذنب.

٣- وجوب التسليم لقضاء الله تعالى والرضا بحكمه لأنه عزيز حكيم.

٤- ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة[٤].

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»[٥]، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"[٦].

و«الرحيم»: أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء [٧].

قال الشيخ ابن عثيمين:" «الرحيم»: أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"[٨]،

القرآن

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠)} [المائدة: ٤٠]

التفسير:

ألم تعلم -أيها الرسول- أن الله خالق الكون ومُدبِّره ومالكه، وأنه تعالى الفعَّال لما يريد، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وهو على كل شيء قدير.

قوله تعالى:{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [المائدة: ٤٠]، أي:" ألم تعلم -أيها الرسول- أن الله خالق الكون ومُدبِّره ومالكه"[٩].

قال الصابوني:" أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والملك الباهر وبيده ملكوت السماوات والأرض والاستفهام للتقرير"[١٠].

---

[١] التفسير الميسر:١١٤.

[٢] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.

[٣] تفسير الراغب الاصفهاني:٣٤٨/٤.

[٤] انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

[٥]قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره في عيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

[٦] شأن الدعاء:٦٥/١.

[٧] انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

[٨] تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

[٩] التفسير الميسر:١١٤.

[١٠] صفوة التفاسير:٣١٤.

قال المراغي:" أي: ألم تعلم أيها الرسول أن الله له ملك السموات والأرض يدبر الأمر فيها بحكمته وعدله ورحمته وفضله، ومن حكمته أنه وضع هذا العقاب لكل من يسرق ما يعد به سارقا كما وضع العقاب للمحاربين المفسدين فى الأرض"(١).

قال الطبري:" يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ألم يعلم هؤلاء [يعني القائلين]: لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة ، الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه أن الله مدبِّر ما في السموات وما في الأرض، ومصرفه وخالقه، لا يمتنع شيء مما في واحدة منهما مما أرادَه، لأن كل ذلك ملكه، وإليه أمره، ولا نسب بينه وبين شيء مما فيهما ولا مما في واحدة منهما، فيحابيه بسبب قرابته منه، فينجيه من عذابه، وهو به كافر، ولأمره ونهيه مخالف أو يدخله النار وهو له مطيع لبعد قرابته منه... وخرج قوله: ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض، خطابًا له -صلى الله عليه وسلم-، والمعنيُّ به من ذكرتُ من فرق بني إسرائيل الذين كانوا بمدينة رسول الله ﷺ وما حَوَاليها. وقد بيَّنا استعمال العرب نظيرَ ذلك في كلامها بشواهده فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع"(٢).

قال السمرقندي:" يعني: خزائن السموات والارض، يعني: خزائن السموات المطر، وخزائن الأرض النبات. ويقال: له ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء"(٣).

قوله تعالى:{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} [المائدة: ٤٠]، أي:" وأنه تعالى الفعَّال لما يريد، يعذب من يشاء"(٤).

قال السدي:" يقول: يميت منكم من يشاء على كفره فيعذب"(٥).

قال السمرقندي:" يعذب من يشاء إذا أصر على ذنوبه"(٦).

قال الطبري:أي:" يعذّب من يشاء من خلقه في الدنيا على معصيته بالقتل والخسف والمسخ وغير ذلك من صنوف عذابه"(٧).

قال المراغي:" أي: وأنه يعذب من يشاء تعذيبه من العصاة تربية له وتأمينا لعباده من أذاه وشره "(٨).

وقال الواحدي:" {يعذب مَنْ يشاء}، على الذَّنب الصَّغير"(٩).

وقال الضحاك: "يعذب من يشاء على الصغير إذا قام عليه"(١٠).

قوله تعالى:{وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} [المائدة: ٤٠]، أي:" وأنه تعالى الفعَّال لما يريد، يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء"(١١).

قال السدي:" يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له"(١٢).

قال السمرقندي:" ويغفر لمن يشاء إذا تاب ورجع"(١٣).

قال الطبري:أي:"ويغفر لمن يشاء منهم في الدنيا بالتّوبة عليه من كفره ومعصيته، فينقذه من الهلكة، وينجيه من العقوبة"(١٤).

---

(١) تفسير المراغي:١١٥/٦.
(٢) تفسير الطبري:٣٠٠/١٠-٣٠١.
(٣) بحر العلوم:٣٨٩/١.
(٤) التفسير الميسر:١١٤.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٤٨):ص١١٢٩/٤.
(٦) بحر العلوم:٣٨٩/١.
(٧) تفسير الطبري:٣٠١/١٠.
(٨) تفسير المراغي:١١٥/٦.
(٩) الوجيز:٣١٩.
(١٠) تفسير الثعلبي:٦٣/٤.
(١١) التفسير الميسر:١١٤.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٤٩):ص١١٢٩/٤.
(١٣) بحر العلوم:٣٨٩/١.
(١٤) تفسير الطبري:٣٠١/١٠.

قال المراغي:" أي: وأنه يغفر للتائبين من هؤلاء وهؤلاء ويرحمهم إذا صدقوا في التوبة وأصلحوا عملهم "[١].

وقال الواحدي:" {ويغفر لمن يشاء} الذَّنب العظيم"[٢].

وقال الضحاك:" ويغفر لمن يشاء على الكبير إذا نزع عنه"[٣].

قال الزمخشري:" إن قلت: لم قدم التعذيب على المغفرة[٤] ؟ قلت: لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة"[٥].

وقال الراغب:" وإنما قال يعذب من يشاء فقدم ذكر العقوبة على الغفران، لأن القصد بما تقدم الردع عن ارتكاب ما يقتضى عقوبة الدارين فكان تقديم ما يقتضي ذلك أولى"[٦].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ٤٠]، أي:" وهو القادر على كل شيء الذي لا يعجزه شيء"[٧].

قال محمد بن إسحاق:" إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير"[٨].

قال الطبري:يقول" والله جل وعز على تعذيب من أرَاد تعذيبه من خلقه على معصيته، وغفرانِ ما أراد غفرانه منهم باستنقاذه من الهلكة بالتوبة عليه وغير ذلك من الامور كلها قادرٌ، لأن الخلق خلقُه، والملك ملكه، والعباد عباده"[٩].

قال المراغي:" أي: وهو القادر على كل شيء من التعذيب والرحمة لا يعجزه شيء في تدبير ملكه"[١٠].

وذكر السمرقندي وجها ىخر من التأويل للآية فقال:" ومعناه: أن السارق إذا تاب، ورد المال لا يقطع ويتجاوز عنه، وإن لم يتب قطعت يده، ألا ترى أن الله تعالى قال: {له ملك السماوات والأرض} يعذب إذا لم يتب ويتجاوز إذا تاب، فافعلوا أنتم مثل ذلك، لأن الله تعالى مع قدرته يتجاوز عن عباده، وهو قوله: {والله على كل شيء قدير}، من المغفرة والعذاب"[١١].

الفوائد:

١-أن أن عقاب السراق والعفو عن التائبين جاء وفق الحكمة والعدل والرحمة.

٢-وفي الآية نقض على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الصغيرة مغفورة ليس له أن يعذب عليها، والكبيرة يخلد صاحبها في النار ليس له أن يعفو عنها. فلو كان على ما قالوا لذهب معنى التخيير بقوله - تعالى -: {يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء} إذا ما عفا: عفا ما عليه أن يعفو، وكذلك ما عذب: عذب ما عليه أن يعذب؛ فيذهب فائدة التخيير، وقد أخبر أنه {يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء}[١٢].

---

[١] تفسير المراغي:١١٥/٦.
[٢] الوجيز:٣١٩.
[٣] تفسير الثعلبي:٦٣/٤.
[٤] قال محمود صاحب الحاشية:" فان قلت لم قدم التعذيب على المغفرة ... الخ» قال أحمد: هو مبنى على أن المراد بالمغفور لهم التائبون، وبالمعذبين السراق. ولا يجعل المغفرة تابعة للمشيئة إلا بقيد التوبة، لأن غير التائب على زعمه لا يجوز أن يشاء الله المغفرة له، فلذلك ينزل الإطلاق على المتقدم ذكره. ونحن نعتقد أن المغفرة في حق غير التائب من الموحدين تتبع المشيئة، حتى أن من جملة ما يدخل في عموم قوله: (ويغفر لمن يشاء) السارق الذي لم يتب. وعلى هذا يكون تقديم التعذيب لأن السياق للوعيد فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر والله أعلم".
[٥] الكشاف:٦٣٢/١.
[٦] تفسير الراغب الأصفهاني:٣٥٠/٤.
[٧] صفوة التفاسير:٣١٤.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٤٩):ص١١٢٩/٤.
[٩] تفسير الطبري:٣٠١/١٠.
[١٠] تفسير المراغي:١١٥/٦.
[١١] بحر العلوم:٣٨٩/١.
[١٢] انظر: تفسير الماتريدي:٥١٨/٣.

٣-ومن اسمائه تعالى:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"(١).

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"(٢).

القرآن

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)} [المائدة: ٤١]

التفسير:

يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في جحود نبوتك من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم خالية منه، فإني ناصرك عليهم. ولا يحزنك تسرُّع اليهود إلى إنكار نبوتك، فإنهم قوم يستمعون للكذب، ويقبلون ما يَفْتَريه أحبارُهم، ويستجيبون لقوم آخرين لا يحضرون مجلسك، وهؤلاء الآخرون يُبَدِّلون كلام الله من بعد ما عَقَلوه، ويقولون: إن جاءكم من محمد ما يوافق الذي بدَّلناه وحرَّفناه من أحكام التوراة فاعملوا به، وإن جاءكم منه ما يخالفه فاحذروا قبوله، والعمل به. ومن يشأ الله ضلالته فلن تستطيع -أيها الرسول- دَفْعَ ذلك عنه، ولا تقدر على هدايته. وإنَّ هؤلاء المنافقين واليهود لم يُرِدِ الله أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر، لهم الذلُّ والفضيحة في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

في سبب نزول الآيات[٤١-٤٧] خمسة أقوال:

أحدها: قال البراء بن عازب:" مرَّ النبي ﷺ بيهوديٍّ محمَّم(٣) مجلود، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من علمائهم فقال: أهكذا تجِدُون حدَّ الزاني فيكم ؟ قال: نعم! قال: فأنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدّ الزنى فيكم ؟ قال: لا ولولا أنك نشدتني بهذا لم أحدِّثك، ولكن الرجم، ولكن كثُرُ الزنا في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا نجتمع فنضع شيئًا مكان الرجم، فيكون على الشريف والوضيع، فوضعنا التحميم والجلد مكان الرجم! فقال النبى ﷺ:أنا أوّل من أحيي أمرك إذ أماتوه! فأمر به فرجم، فأنزل الله:{لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر} الآية"(٤).[صحيح]

والثاني: أنها نزلت في ابن صوريا آمن ثم كفر، وهذا المعنى مروي عن أبي هريرة(٥).

والثالث: أنها نزلت في يهودي قتل يهوديا، ثم قال: سلوا محمدا فإن كان بعث بالدية، اختصمنا إليه، وإن كان بعث بالقتل، لم نأته، قاله عامرالشعبي(٦).

---

(١) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.

(٢) الاسما والصفات:١١١/٢.

(٣)في «اللسان» : حمم الرجل: سخم وجهه بالحمم، وهو الفحم. وفي الحديث أنه أمر بيهودي محمم مجلود أي مسود الوجه.

(٤) أخرجه مسلم (١٧٠٠)، وأبو داود (٤٤٤٧) و (٤٤٤٨)، وأحمد :٤/ ٢٨٦، وابن ماجة (٢٥٥٨)، والبيهقي: والبيهقي: ٨/ ٢٤٦، والطبري(١١٩٢٢):ص١٠/٣٠٤-٣٠٥، واللفظ له، والواحدي في أسباب النزول:١٩٥-١٩٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١١٩٢١):ص١٠/٣٠٣-٣٠٤، وسيرة ابن هشام ٢ / ٢١٣ ، ٢١٤،وهذا الخبر رواه أحمد مختصرا. ورواه أبو داود في سننه ٤ / ٢١٦ - ٢١٨ ، رقم : ٤٤٥٠ ، ٤٤٥١ ، بغير هذا اللفظ، ولم يذكر فيه أنه ابن صوريا، والبيهقي في السنن ٨ / ٢٤٦ ، ٢٤٧. وانظر تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١١٩١٩):ص١٠/٣٠٢. [مرسل ضعيف، وهو معارض بحديث البراء، وذاك أصح]. وإسناد ضعيف، فيه راو لم يسم.

والرابع: أنها نزلت في المنافقين، قاله ابن عباس[١]، ومجاهد[٢]، والضحاك[٣]، وعبدالله بن كثير[٤].

والخامس: أن رجلا من الأنصار زعموا أنه أبو أبي لُبابة بن عبد المنذر أشارت إليه بنو قريظة يوم حصارهم: على ماذا ننزل؟ فأشار إليهم: أنه الذبح، قاله السدي[٥]، ومقاتل[٦].

قال مقاتل: "نزلت في أبي لبابة: اسمه مروان بن عبد المنذر الأنصاري من بني عمرو بن عوف. وذلك أنه أشار إلى أهل قريظة إلى حلقه[٧] أن محمدا جاء يحكم فيكم بالموت فلا تنزلوا على حكم سعد بن معاذ وكان حليفا لهم"[٨].

قال ابن عطية:" وهذا ضعيف وأبو لبابة من فضلاء الصحابة وهو وإن كان أشار بتلك الإشارة فإنه قال فو الله ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله ثم جاء إلى مسجد النبي ﷺ في المدينة فربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وأقسم أن لا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه ويرضى رسول الله ﷺ عنه، فإنما كانت تلك الإشارة منه زلة حمله عليها إشفاق ما على قوم كانت بينه وبينهم مودة ومشاركة قديمة رضي الله عنه وعن جميع الصحابة"[٩].

قال ابن عطية:" وهذه النوازل كلها وقعت ووقع غيرها مما يضارعها، ويحسن أن يكون سببها لفضيحة اليهود في تحريفهم الكلم وتمرسهم بالدين، والروايات في هذا كثيرة ومختلفة... وظاهر حديث بيت المدارس[١٠] أنه كان في صدر الهجرة اللهم إلا أن يكون ذلك من النبي ﷺ مع عزة كلمته من حيث أراد أن يخرج حكمهم من أيدي أحبارهم بالحجة عليهم من

---

[١] كما في زاد المسير:٥٤٨/١، ولم أره عن ابن عباس، والخبر ضعيف بكل حال. وقد أخرج ابن ابي حاتم (٦٣٥١):ص١١٣٠/٤: "علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: {لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر}، هم اليهود".

[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٩٢٦):ص٣٠٦/١٠، وتفسير مجاهد:٢٦٢.

[٣] انظر: بحر العلوم:٣٨٩/١، وفيه:" قال الضحاك: نزلت الآية في شأن المنافقين، كانت علانيتهم تصديقا، وسرائرهم تكذيبا".

[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٩٢٥):ص٣٠٦/١٠.

[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٩١٨):ص٣٠٢/١٠.[مرسل، ضعيف جدا، والمرسل من قسم الضعيف، والمتن منكر، معارض بما تقدم عن البراء، ومراسيل السدي مناكير. وانظر :أحكام القرآن: ٧١٧]

[٦] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٤/١.

[٧] وكانت هذه الإشارة معناها أن محمدا-ﷺ- سيحكم فيكم بالقتل والذبح.

[٨] تفسير مقاتل بن سليمان: ٤٧٤/١ ، ومقاتل متروك، وكذبه غير واحد، فخبره لا شيء.

[٩] المحرر الوجيز:١٩١/٢.

[١٠] يقصد رواية ابي هريرة، انظر: تفسير الطبري(١١٩٢١):ص٣٠٣/١٠-٣٠٤. وفيه:" أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المدراس حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقد زنَى رجل منهم بعد إحصانه ، بامرأة من يهود قد أحصنت ، فقالوا ، انطلقوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد ﷺ فاسألوه كيف الحكم فيهما ، وولُّوه الحكم عليهما ، فإن عمل فيهما بعملكم من التجبيه وهو الجلد بحبل من ليف مطليٍّ بقار ، ثم تُسوَّد وجوههما ، ثم يحملان على حمارين ، وتحوَّل وجوههما من قبل دُبُر الحمار فاتبعوه ، فإنما هو ملكٌ. وإن هو حكم فيهما بالرجم ، فاحذروه على ما في أيديكم أن يسلبكموه. فأتوه فقالوا : يا محمد ، هذا الرجل قد زنى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت ، فاحكم فيهما ، فقد وليناك الحكم فيهما. فمشى رسول الله ﷺ حتى أتى أحبارهم إلى بيت المدراس ، فقال : يا معشر اليهود ، أخرجوا إليّ أعلمكم! فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا الأعور وقد روى بعض بني قريظة ، أنهم أخرجوا إليه يومئذ مع ابن صوريا ، أبا ياسر بن أخطب ، ووهب بن يهوذا ، فقالوا : هؤلاء علماؤنا! فسألهم رسول الله ﷺ حتى حصَّل أمرهم ، إلى أن قالوا لابن صوريا : هذا أعلم من بقي بالتوراة فخلا به رسول الله ﷺ ، وكان غلامًا شابًّا من أحدثهم سنًّا ، فألظَّ به رسول الله ﷺ المسألةَ، يقول : يا ابن صوريا ، أنشُدك الله واذكِّرك أياديه عند بني إسرائيل ، هل تعلم أنّ الله حكم فيمن زنىَ بعد إحصانه بالرجم في التوراة ؟ فقال : اللهم نعم! أما والله يا أبا القاسم إنهم ليعلمون أنك نبيٌّ مرسلٌ ، ولكنهم يحسدونك! فخرج رسول الله ﷺ ، فأمر بهما فرجما عند باب مسجده ، في بني غنم بن مالك بن النجار. ثم كفر بعد ذلك ابن صوريا ، فأنزل الله جل وعز : يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ".

كتابهم فلذلك مشى إلى بيت مدراسهم مع قدرته عليهم، وهذا عندي يبعد لأنهم لم يكونوا ذلك الوقت يحزنونه ولا كانت لهم حال يسلى عنها ﷺ"[١].

وقال القرطبي:" وقيل إنها نزلت في زنى اليهوديين وقصة الرجم وهذا أصح الأقوال"[٢].

وقال ابن كثير:" والصحيح أنها نزلت في اليهوديَّيْن اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحْصن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين. فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك"[٣].

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب، أن يقال: عني بقوله:{لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم}، قومٌ من المنافقين. وجائزٌ أن يكون كان ممن دخل في هذه الآية ابنُ صوريا وجائز أن يكون أبو لبابة وجائز أن يكون غيرُهما، غير أن أثبت شيء روي في ذلك، ما ذكرناه من الرواية قبلُ عن أبي هريرة والبراء بن عازب، لأن ذلك عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ. وإذا كان ذلك كذلك، كان الصحيحُ من القول فيه أن يقال: عُنِي به عبد الله بن صوريَا، وإذا صحّ ذلك، كان تأويل الآية: يا أيُّها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في جحود نبوّتك، والتكذيبِ بأنك لي نبي، من الذين قالوا: صدَّقنا بك يا محمد أنك لله رسول مبعوث، وعلمنا بذلك يقينًا، بوجودنا صِفَتك في كتابنا.

وذلك أن في حديث أبي هريرة الذي رواه ابن إسحاق عن الزهري: أن ابن صُوريا قال لرسول الله ﷺ: أما والله يا أبا القاسم، إنهم ليعلمون أنك نبى مُرسْل، ولكنهم يحسدونك، فذلك كان على هذا الخبر من ابن صوريا إيمانًا برسول الله -ﷺ- بفيه، ولم يكن مصدِّقًا لذلك بقلبه، فقال الله جل وعزّ لنبيه محمد ﷺ، مُطْلِعَه على ضمير ابن صوريا وأنه لم يؤمن بقلبه، يقول: ولم يصدِّق قلبه بأنك لله رسول مرسل"[٤].

قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ} [المائدة: ٤١]، أي:" يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في جحود نبوتك"[٥].

قال ابن عباس:"هم اليهود"[٦].

قوله تعالى:{ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ } [المائدة: ٤١]، أي:" من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم خالية منه، فإني ناصرك عليهم "[٧].

قال ابن عباس:" هم المنافقون"[٨].

قال مجاهد:": {آمنا بأفواههم}، يقول: هم المنافقون"[٩].

قال الزمخشري:" المعنى: لا تهتم ولا تبال بمسارعة المنافقين في الكفر أى في إظهاره بما يلوح منهم من آثار الكيد للإسلام ومن موالاة المشركين، فإنى ناصرك عليهم وكافيك شرهم.

---

[١] المحرر الوجيز:٢١٩١.

[٢] تفسير القرطبي:١٧٦/٦.

[٣] تفسير ابن كثير:١١٣/٣.

[٤] تفسير الطبري:٣٠٧/١٠.

[٥] التفسير الميسر:١١٤.

[٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٥١):ص١١٣٠/٤.

[٧] التفسير الميسر:١١٤.

[٨] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٥١):ص١١٣٠/٤.

[٩] اخرجه الطبري(١١٩٢٦):ص٣٠٦/١٠.

يقال: أسرع فيه الشيب، وأسرع فيه الفساد، بمعنى: وقع فيه سريعا، فكذلك مسارعتهم في الكفر ووقوعهم وتهافتهم فيه، أسرع شيء إذا وجدوا فرصة لم يخطؤها"[1].

قال السمرقندي:{ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}" أي: يبادرون ويقعون في الكفر، {مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} يعني: ذلك بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم في السر "[2].

وقرئ «لا يحزنك»، بضم الياء، و«يسرعون»[3].

قوله تعالى:{وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا} [المائدة: ٤١]، أي:" ولا يحزنك تسرُّع اليهود إلى إنكار نبوتك"[4].

قوله تعالى:{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} [المائدة: ٤١]، أي:" فإنهم قوم يستمعون للكذب، ويقبلون ما يَفْتَريه أحبارُهم"[5].

قال جابر بن عبدالله:" يهود المدينة"[6].

قال مقاتل بن حيان:" فهم يهود أهل قريظة والنضير فيهم لبابة بن سعفة وكعب بن الأشرف، وسعيد بن عمرو"[7].

قال السدي:" هم أبو بسرة وأصحابه"[8].

قال الماوردي:" أي: قائلون للكذب عليك"[9].

قال الزمخشري:أي:" قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان. ومنه «سمع الله لمن حمده»"[10].

قوله تعالى:{سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} [المائدة: ٤١]، أي:" ويستجيبون لقوم آخرين لا يحضرون مجلسك"[11].

قال الزمخشري:"يعنى: اليهود الذين لم يصلوا إلى مجلس رسول الله ﷺ وتجافوا عنه لما أفرط فيهم من شدة البغضاء وتبالغ من العداوة قابلون لما يفتريه الأحبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحريف كتابه من قولك الملك يسمع كلام فلان. ومنه «سمع الله لمن حمده»"[12].

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: "{سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين} قال: لقوم آخرين لم يأتوك من أهل الكتاب، هؤلاء سماعون لأولئك القوم الآخرين الذين لم يأتوا، يقولون لهم الكذب محمد كاذب وليس من التوراة، فلا تؤمنوا به وليس يحرفون هؤلاء الذين لم يأتوك"[13].

وفي قوله تعالى:{سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ} [المائدة: ٤١]، وجهان:

احدهما:يعني:{سماعون لقوم آخرين}: أهل فدك.وهذا قول جابر بن عبدالله[14].

وروي عن مجاهد:"انهم هم اليهود"[15].

والثاني: أنهم يهود خيبر، وذلك حين زنت المرأة.وهذا قول مقاتل بن حيان[1].

---

[1] الكشاف:٦٢٢/١-٦٢٣.
[2] تفسير السمرقندي:٣٨٩/١.
[3] انظر: الكشاف:٦٣٢/١.
[4] التفسير الميسر:١١٤.
[5] التفسير الميسر:١١٤.
[6] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٥٤):ص١١٣٠/٤.
[7] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٥٥):ص١١٣٠/٤.
[8] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٥٦):ص١١٣٠/٤.
[9] النكت والعيون:٣٩/٢.
[10] الكشاف:٦٣٣/١.
[11] التفسير الميسر:١١٤.
[12] الكشاف:٦٣٣/١.
[13] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٥٩):ص١١٣١/٤.
[14] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٥٧):ص١١٣٠/٤-١١٣١.
[15] . انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١١٣١/٣. ذكره دون إسناد.

قوله تعالى:{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: ٤١]، أي:" وهؤلاء الآخرون يُبَدِّلون كلام الله من بعد ما عَقَلوه"[٢].

قال ابن زيد:" هؤلاء كلهم يهود بعضهم من بعض"[٣].

قال مقاتل بن حيان:" قوله: {يحرفون الكلم}، يزيدون فيه وينقصونه"[٤].

قال ابن عباس:" {يحرفون الكلم}، يعني: يحرفون حدود الله في التوراة"[٥].

قال السدي:" حرفوا الرجم فجعلوه جلدا"[٦].

وفي قوله تعالى:{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: ٤١]، وجوه:

أحدها: أنهم إذا سمعوا كلام النبي -ﷺ- غيروه بالكذب عليه، وهذا قول الحسن[٧].

والثاني: المراد: تغير حدود الله في التوراة، وهو تغيير حكم الله تعالى في جَلْد الزاني بدلاً من رجمه، وهذا قول ابن عباس[٨]، والسدي[٩].

والثالث: وقيل: في إسقاط القود عند استحقاقه[١٠].

قوله تعالى:{يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ} [المائدة: ٤١]، أي:" ويقولون: إن جاءكم من محمد ما يوافق الذي بدَّلناه وحرَّفناه من أحكام التوراة فاعملوا به"[١١].

قال جابر:" يقولون: إن أوتيتم هذا الجلد فخذوه"[١٢].

قال مجاهد:" إن وافقكم فخذوه، يهود يقوله للمنافقين"[١٣].

قوله تعالى:{وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا} [المائدة: ٤١]، أي:" وإن جاءكم منه ما يخالفه فاحذروا قبوله، والعمل به"[١٤].

قال جابر:" وإن لم تؤتوه فاحذروا الرجم"[١٥].

قال مجاهد:" إن لم يوافقكم فاحذروا، يهود يقوله للمنافقين"[١٦].

وفي قوله تعالى:{يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا} [المائدة: ٤١]، قولان:

أحدهما: أنه يريد بذلك حين زنى رجل منهم بامرأة فأنفذوه إلى النبي -ﷺ- ليحكم بينهم وقالوا: إن حكم عليكم بالجلد فاقبلوه وإن حكم عليكم بالرجم فلا تقبلوه، فقام النبي -ﷺ- إلى مدارس توارتهم وفيها أحبارهم يتلون التوراة، فأتى عبد الله بن صوريا، وكان أعور، وهو من أعلمهم فقال له أسألك بالذي أنزل التوراة بطور سيناء على موسى بن عمران هل فى التوراة الرجم ؟ فأمسك، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر بهما النبي -ﷺ- فَرُجِمَا، قال عبد الله: وكنت فيمن رجمه وأنه ليقيها الأحجار بنفسه حتى ماتت، ثم إن ابن صوريا أنكر وفيه أنزل الله تعالى هذه الآية وهذا

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٥٨):ص٤/١١٣١.
[٢] التفسير الميسر:١١٤.
[٣]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٤):ص٤/١١٣٢.
[٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦١):ص٤/١١٣١.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٢):ص٤/١١٣١.
[٦] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٣):ص٤/١١٣١.
[٧] انظر: النكت والعيون:٣٩/٢.
[٨] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٦٢):ص٤/١١٣١.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٤):ص١٠/٣١٦، و تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٦٣):ص٤/١١٣١.
[١٠] انظر: النكت والعيون:٣٩/٢.
[١١] التفسير الميسر:١١٤.
[١٢]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٧):ص٤/١١٣٢.
[١٣]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٦):ص٤/١١٣٢.
[١٤] التفسير الميسر:١١٤.
[١٥]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٧):ص٤/١١٣٢.
[١٦]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٦٩):ص٤/١١٣٢.

قول ابن عباس[1]، والبراء بن عازب[2]، وجابر[3]، وسعيد بن المسيب[4]، والسدي[5]، وابن وابن زيد[6].
والقول الثاني: أن ذلك في قتيل منهم، وهذا قول قتادة[7]، والكلبي[8].
قال قتادة:" ذكر لنا أن هذا كان في قتيلٍ من بني قريظة، قتلته النضير. فكانت النضير إذا قتلت من بني قريظة لم يُقِيدوهم، إنما يعطونهم الدية لفضلهم عليهم. وكانت قريظة إذا قتلت من النضير قتيلا لم يرضوا إلا بالقَوَد لفضلهم عليهم في أنفسهم تعزُّزًا. فقدم نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم المدينة على تَفِئَةِ قتيلهم هذا، فأرادوا أن يرفعوا ذلك إلى رسول الله -ﷺ-، فقال لهم رجل من المنافقين: إن قتيلكم هذا قتيل عَمْدٍ، متى ما ترفعونه إلى محمد ﷺ أخشى عليكم القَوَد، فإن قبل منكم الدية فخذوه، وإلا فكونوا منه على حَذَرٍ!"[9].
قوله تعالى:{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [المائدة: ٤١]، أي:" ومن يشأ الله ضلالته فلن تستطيع -أيها الرسول- دَفْعَ ذلك عنه، ولا تقدر على هدايته"[10].
قال ابن عباس:" يقول: لن تغير عنه شيئا"[11].
قال الطبري:أي:" ومن يرد الله، يا محمد، مَرْجعه بضلالته عن سبيل الهدى، فلن تملك له من الله استنقاذًا مما أراد الله به من الحيرة والضلالة، فلا تشعر نفسك الحزنَ على ما فاتك من اهتدائه للحق وهذا تسلية من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدًا ﷺ من حزنه على مسارعة الذين قصَّ قصتهم من اليهود والمنافقين في هذه الآية...ومعنى «الفتنة» في هذا الموضع: الضلالة عن قصد السبيل"[12].
وفي قوله تعالى:{وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ} [المائدة: ٤١]، أربعة تاويلات:
أحدها: عذابه، وهذا قول الحسن[13].
والثاني: معنه: من يرد الله ضلالته، وهو قول ابن عباس[14]، والسدي[15].
والثالث: فضيحته، وهو قول الزجاج[16].
والرابع: اختباره بما يظهر به أمره، يقال فتنت الحديد إذا أحميته، وفتنت الرجل إذا أزلته عما كان عليه، ومنه قوله: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الإسراء: ٧٣]، أي: وإن كادوا ليزيلونك. أفاده الزجاج[17].
قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} [المائدة: ٤١]، أي:" وإنَّ هؤلاء المنافقين واليهود لم يُرِدِ الله أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر"[18].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٦):ص١٠/٣١٥.
[2] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٩):ص١٠/٣١٤.
[3] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٥):ص١٠/٣١٦.
[4] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣١):ص١٠/٣١٦.
[5] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٤):ص١٠/٣١٦.
[6] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٨):ص١٠/٣١٦.
[7] انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٧):ص١٠/٣١٥.
[8] انظر: النكت والعيون:٢/٣٩.
[9] أخرجه الطبري(١١٩٣٧):ص١٠/٣١٥-٣١٦.
[10] التفسير الميسر:١١٤.
[11] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٧١):ص٤/١١٣٣.
[12] تفسير الطبري:١٠/٣١٦-٣١٧.
[13] .انظر: النكت والعيون:٢/٣٩
[14] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٧٠):ص٤/١١٣٣.
[15] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٧٠):ص٤/١١٣٣.
[16] انظر: معاني القرآن:٢/١٧٦.
[17] انظر: معاني القرآن:٢/١٧٦.
[18] التفسير الميسر:١١٤.

قال الطبري:أي:" هؤلاء الذين لم يرد الله أن يطهّر من دنس الكفر ووَسخ الشرك قُلوبَهم، بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان، فيتوبوا"[١].

قال الزجاج:" أي: أن يهينهم[٢].

قال ابن عباس:" إنما سمي:«القلب»، لتقلبه"[٣].

وفي قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ} [المائدة: ٤١]، وجهان:

أحدهما: لم يطهرها من الضيق والحرج عقوبة لهم. ذكره الماوردي[٤].

والثاني: لم يطهرها من الكفر. قاله الطبري[٥]، والزجاج[٦].

قوله تعالى:{لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} [المائدة: ٤١]، أي:" لهم الذلُّ والفضيحة في الدنيا"[٧].

قال الطبري:أي:"بل أراد بهم الخزي في الدنيا وذلك الذلّ والهوان"[٨].

قال الزجاج:" قيل لهم في الدنيا فضيحة بما أظهر الله من كذبهم، وقيل لهم في الدنيا خزي بأخذ الجزية منهم، وضرب الذلة والمسكنة عليهم"[٩].

قال عكرمة:" مدينة في الروم تُفْتح فَيُسْبَوْن"[١٠].

قال ابن السدي:" أما خزيهم في الدنيا، إذا قام المهدي فتح القسطنطينية فقتلهم وذلك الخزي"[١١].

وروي عن قتادة قال: "مدينة تفتح بالروم"[١٢].

وفي رواية اخرى عن قتادة:" يعني: ما أنزل الله بأهل قريظة من السبي والقتل، وبأهل النضير من الجلاء"[١٣].

قوله تعالى:{وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٤١]، أي:"ولهم في الآخرة عذاب عظيم وهو الخلود في نار جهنم"[١٤].

قال مقاتل بن حيان: عذاب عظيم يعني: عذابا وافرا"[١٥].

قال الطبري:أي:" وفي الآخرة عذابُ جهنم خالدين فيها أبدًا"[١٦].

الفوائد:

١- استحباب ترك الحزن باجتناب أسبابه ومثيراته.

٢- حرمة سماع الكذب لغير حاجة تدعو إلى ذلك.

٣- حرمة تحريف الكلام وتشويهه للإفساد.

٤- أن الهدى نوعان:

أحدهما:الهدى العام: وهو البيان والدلالة والإرشاد، وقد فعل ذلك - ﷺ - فبين المحجة البيضاء، حتى تركها ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها هالك.

---

[١] تفسير الطبري:٣١٧/١٠-٣١٨.
[٢] معاني القرآن:١٧٦/٢.
[٣]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٧٢):ص١١٣٣/٤.
[٤] انظر: النكت والعيون:٤٠/٢.
[٥] انظر: تفسير الطبري:٣١٧/١٠-٣١٨.
[٦] انظر: معاني القرآن:١٧٦/٢.
[٧] التفسير الميسر:١١٤.
[٨]تفسير الطبري:٣١٨/١٠.
[٩] معاني القرآن:١٧٧/٢.
[١٠] أخرجه الطبري(١١٩٤١):ص٣١٨/١٠.
[١١]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٧٣):ص١١٣٣/٤.
[١٢]تفسير ابن ابي حاتم:ص١١٣٣/٤. ذكره دون إسناد
[١٣]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٧٤):ص١١٣٣/٤.
[١٤] التفسير الميسر:١١٤.
[١٥]أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٧٥):ص١١٣٣/٤.
[١٦]تفسير الطبري:٣١٨/١٠.

والثاني: الهدى الخاص: وهو التفضل بالتوفيق ؛ لأن ذلك بيد الله وحده، وليس بيده - ﷺ - كما قال - تعالى -: {ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم الآية} [المائدة: ٤١] . وقوله - تعالى -: {إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [النحل: ٣٧]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة.

٥-أن هذه الآية منطبقة على عقيدة أهل السنة في أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد، وأراد من كل أحد الايمان وطهارة القلب، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ولكن لم يقع، فحسبهم هذه الآية وأمثالها، لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها.

وقد قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى:{ **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**}: أي:" أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم لأنهم ليسوا من أهلها، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع {إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ} [النحل: ١٠٤]، {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ } [آل عمران: ٨٦]"[(١)].

وما أبشع صرف الزمخشري هذه الآية عن ظاهرها بقوله: لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. وإذا لم تنجع ألطاف الله تعالى ولم تنفع، فلطف من ينفع وإرادة من تنجع؟ وليس وراء الله للمرء مطمع[(٢)].

القرآن

{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢)} [المائدة: ٤٢]

التفسير:

هؤلاء اليهود يجمعون بين استماع الكذب وأكل الحرام، فإن جاؤوك يتحاكمون إليك فاقض بينهم، أو اتركهم، فإن لم تحكم بينهم فلن يقدروا على أن يضروك بشيء، وإن حكمت فاحكم بينهم بالعدل. إن الله يحب العادلين.

قوله تعالى:{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة: ٤٢]، أي:" هؤلاء اليهود يجمعون بين استماع الكذب وأكل الحرام"[(٣)].

قال الحسن:" تلك الحكام، سمعوا كِذْبَةً وأكلوا رِشْوَةً"[(٤)].

قال قتادة:" كان هذا في حكّام اليهودِ بين أيديكم، كانوا يسمعون الكذب ويقبلون الرُّشَى"[(٥)].

قال الطبري:أي:" هؤلاء اليهود الذين وصفتُ لك، يا محمد، صفتَهم، سَمَّاعون لقِيل الباطل والكذب، ومن قيل بعضهم لبعض: محمد كاذب، ليس بنبي ، وقيل بعضهم: إن حكم الزاني المحصن في التوراة الجلد والتحميم ، وغير ذلك من الأباطيل والإفك ويقبلون الرُّشَى فيأكلونها على كذبهم على الله وفريتهم عليه"[(٦)].

قال الواحدي:"يعني:حكَّام اليهود يسمعون الكذب ممَّنْ يأتيهم مُبطلاً ويأخذون الرِّشوة منه فيأكلونها"[(٧)].

---

(١) الكشاف:٦٢٤/١.

(٢) انظر: الكشاف:٦٢٤/١، الحاشية.

(٣) التفسير الميسر:١١٥.

(٤) أخرجه الطبري(١١٩٤٢):ص٣١٨/١٠-٣١٩.

(٥) أخرجه الطبري(١١٩٤٣):ص٣١٩/١٠.

(٦) تفسير الطبري:٣١٨/١٠.

(٧) الوجيز:٣٢٠.

وفي قوله تعالى:{أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ} [المائدة: ٤٢]، وجوه:
أحدها: أن السحت الرشوة، رواه ابن عمرعن النبي -ﷺ- [١].
والثاني: إن مهر البغي وثمن الكلب والسنور وكسب الحجام من السحت. رواه أبو هريرة عن النبي -ﷺ- [٢]
والثالث:أنه الرشوة فى الحكم، وهو قول ابن عباس[٣]، ومجاهد[٤]، والضحاك[٥]، وسعيد بن جبير[٦]، والحسن[٧]، وإبراهيم[٨]، وعكرمة[٩]، وابن زيد[١٠].
والرابع: أنه الرشوة في الدين. قاله عبدالله[١١].
والخامس:أنه مهر البغي، وعسب الفحل، وكسب الحجّام، وثمن الكلب. وهو مروي عن أبي هريرة[١٢].
والسادس:أن للسحت خصال ست: الرشوة في الحكم، وثمن الكلب، وثمن الميتة وثمن الخمر، وكسب البغي، وعسب الفحل. وهذا قول عطاء بن أبي رباح[١٣].
والسابع: أنه: مهرُ البغي، والرشوة في الحكم، وما كان يُعطى الكُهان في الجاهلية. وهذا قول عبد الله بن هبيرة السَّبائي[١٤].
والثامن: أنه في كسب الحجام ومهر البغيّ، وثمن الكلب، والاستجْعَال في القضية، وحلوان الكاهن، وعسب الفحل، والرشوة في الحكم، وثمن الخمر، وثمن الميتة. وهذا مروي عن علي-رضي الله عنه-[١٥].
والتاسع: وقال عبد الله بن شقيق:" هذه الرغف الذي يأخذها المعلمون من السحت. يعني: إذا احتسب بتعليمه فجائز أن يأخذ كرى مثله سمعت أبي يقول: إذا لم يحتسب بالتعليم فله أيأخذ الكرى وإذا احتسب بالتعليم فذاك السحت"[١٦].
قال ابن عطية:" وكل ما ذكر في معنى السحت فهو أمثلة، ومن أعظمها الرشوة في الحكم والأجرة على قتل النفس، وهو لفظ يعم كل كسب لا يحل...والسحت الذي عني أن اليهود يأكلونه هو الرشا في الأحكام والأوقاف التي تؤكل ويرفد أكلها بقول الأباطيل وخدع العامة ونحو هذا"[١٧].
قال الزمخشري:" السحت: كل ما لا يحل كسبه، وكانوا يأخذون الرشا على الأحكام وتحليل الحرام"[١٨].
وروي عن النبي-ﷺ-:" كُلُّ لحم أنبَته السُّحت فالنار أولى به. قيل: يا رسول الله، وما السحت ؟ قال: الرشوة في الحكم "[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١١٩٦٧):ص١٠/٣٢٣، وتفسير ابن أبي حاتم(٦٣٧٩):ص٤/١١٣٤.
[٢] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٤):ص٤/١١٣٥
[٣] انظر: تفسير الطبري(١١٩٦٢):ص١٠/٣٢٢.
[٤] انظر: تفسير الطبري(١١٩٤٤):ص١٠/٣١٩.
[٥] انظر: تفسير الطبري(١١٩٥٧):ص١٠/٣٢١.
[٦] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٧):ص٤/١١٣٥.
[٧] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٧):ص٤/١١٣٥، وتفسير الطبري(١١٩٤٢):ص١٠/٣١٨-٣١٩
[٨] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٧):ص٤/١١٣٥.
[٩] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٧):ص٤/١١٣٥.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١١٩٦٦):ص١٠/٣٢٣.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١١٩٥٢):ص١٠/٣٢٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١١٩٥٦):ص١٠/٣٢٠.
[١٣] انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٦٣٨٥):ص٤/١١٣٥.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١٩٦٤):ص١٠/٣٢٢.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١١٩٦٥):ص١٠/٣٢٢-٣٢٣.
[١٦] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٣٨٦):ص٤/١١٣٥.
[١٧] المحرر الوجيز:٢/١٩٣-١٩٤
[١٨] الكشاف:١/٦٣٤.

وأصل السحت الاستئصال، ومنه قوله تعالى: {فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ } [طه: ٦١]، أي: يستأصلكم، وقال الفرزدق[٢]:

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدَع   مِنَ الْمَالِ إلا مُسْحَتًا أَوْ مُجَلَّفُ

فسمي سحتاً لأنه يسحت الدين والمروءة[٣].

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو جعفر:«السحت» مضمومة الحاء مثقلة، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة:«السحت» ساكنة الحاء خفيفة، وروى خارجة بن مصعب عن نافع: «أكالون للسحت» بفتح السين وجزم الحاء[٤].

قوله تعالى:{فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [المائدة: ٤٢]، أي:" فإن جاؤوك يتحاكمون إليك فاقض بينهم، أو اتركهم"[٥].

قال ابن عطية:" تخيير للنبي ﷺ ولحكام أمته بعده في أن يحكم بينهم إذا تراضوا في نوازلهم"[٦].

قال البيضاوي:" تخيير لرسول الله ﷺ إذا تحاكموا إليه بين الحكم والإعراض ولهذا قيل: لو تحاكم كتابيان إلى القاضي لم يجب عليه الحكم، وهو قول للشافعي والأصح وجوبه إذا كان المترافعان أو أحدهما ذميا لأنا التزمنا الذب عنهم ودفع الظلم منهم، والآية ليست في أهل الذمة، وعند أبي حنيفة يجب مطلقا"[٧].

فيمن أريد بقوله تعالى:{فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ} [المائدة: ٤٢]، وجهان:

أحدهما: اليهوديان اللذان زنيا خيّر رسول الله -ﷺ- أن يحكم بينهما بالرجم أو يدع، وهذا قول ابن عباس[٨]، والحسن[٩]، ومجاهد[١٠]، وابن شهاب الزهري[١١]، وعبدالله بن كثير[١٢].

والثاني: أنها في نفسين من بني قريظة وبني النضير قتل أحدهما صاحبه فخّير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند احتكامهما إليه بين أن يحكم بالقود أو يدع، وهذا قول ابن عباس-في رواية أخرى[١٣]، وقتادة[١٤]، وابن زيد[١٥].

---

(١) أخرجه الطبري(١١٩٦٧):ص٣٢٣/١٠، وأخرجه السيوطي في الدر المنثور ٢ : ٢٨٤ ، ونسبه لعبد بن حميد ، وابن مردويه مرفوعًا من حديث ابن عمر ، عن رسول الله -ﷺ-.
قال الحافظ: رواه ابن جرير مرفوعا ورجاله ثقات ولكنّه مرسل". انظر: ٥/ ٣٦٠ (كتاب الإجارة - باب ما يعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب.

(٢)ديوانه : ٥٥٦ ، والنقائض : ٥٥٦ ، وطبقات فحول الشعراء : ١٩ ، والخزانة ٢ : ٣٤٧ ، واللسان (سحت) (جلف) ، وفي غيرها كثير. والبيت من قصيدته المشهورة ، وقبل البيت :
إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَمَتْ بِنَا ... هُمُومُ الْمُنَى والْهَوْجَلُ الْمُتَعَسَّفُ
الهوجل : البطن الواسع من الأرض. و المتعسف : المسلوك بلا علم ولا دليل ، فهو يسير فيها بالتعسف. ويروى : أو مجرف ، وهو الذي جرفه الدهر ، أي : اجتاح ماله وأفقره. ويروى في إلا مسحت أو مجلف بالرفع فيهما. وقد تجرف النحاة هذا البيت إعرابًا وتأويلا..

(٣) انظر: تفسير الطبري:٣٢٤/١٠، والنكت والعيون:٤٠/٢.

(٤) انظر: زاد المسير:٥٥٠/١.

(٥) التفسير الميسر:١١٥.

(٦) المحرر الوجيز:١٩٤/٢.

(٧) تفسير البيضاوي:١٢٧/٢.

(٨) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧٢):ص٣٢٥/١٠-٣٢٦.

(٩) انظر: النكت والعيون:٤٠/٢.

(١٠) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧٠):ص٣٢٥/١٠.

(١١) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧١):ص٣٢٥/١٠.

(١٢) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧٣):ص٣٢٦/١٠.

(١٣) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧٤):ص٣٢٦/١٠-٣٢٧.

(١٤) انظر: تفسير الطبري(١١٩٣٧):ص٣١٥/١٠-٣١٦، و(١١٩٨٤):ص٣٣٠/١٠.

(١٥) انظر: تفسير الطبري(١١٩٧٦):ص٣٢٧/١٠-٣٢٨.

قوله تعالى:{وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا} [المائدة: ٤٢]، أي:" فإن لم تحكم بينهم فلن يقدروا على أن يضروك بشيء"[١].

قال قتادة:"يقول: إن جاءوك فاحكم بينهم بما أنزل الله، أو أعرض عنهم. فجعل الله له في ذلك رُخْصة، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم"[٢].

روي عن إبراهيم والشعبي، قالا: إذا أتاك المشركون فحكَّموك فيما بينهم، فاحكم بينهم بحكم المسلمين ولا تعدُه إلى غيره، أو أعرض عنهم وخلِّهم وأهلَ دينهم"[٣].

قال ابن عطية:" أمن الله تعالى نبيه ـصـلى الله عليه وسلم من ضررهم إذ أعرض عنهم وحقر في ذلك شأنهم، والمعنى أنك منصور ظاهر الأمر على كل حال، وهذا نحو من قوله تعالى للمؤمنين: {لَنْ يَضُرُّوكُمْ} [آل عمران: ١١١]"[٤].

قال البيضاوي:" بأن يعادوك لإعراضك عنهم فإن الله سبحانه وتعالى يعصمك من الناس"[٥].

قوله تعالى:{وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ } [المائدة: ٤٢]، أي:" وإن حكمت فاحكم بينهم بالعدل"[٦].

قال البيضاوي:" أي: بالعدل الذي أمر الله به"[٧].

قال ابن عطية:" أي: إن اخترت أن تحكم بينهم في نازلة ما {فاحكم بينهم بالقسط}، أي: بالعدل، يقال: أقسط الرجل إذا عدل وحكم بالحق وقسط إذا جار، ومنه قوله: {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} [الجن: ١٥] "[٨].

قوله تعالى:{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: ٤٢]، أي:" إن الله يحب العادلين"[٩].

قال أبو مالك:" يعني: المعدلين في القول والفعل"[١٠].

قال البيضاوي:" فيحفظهم ويعظم شأنهم"[١١].

واختلفوا في التخيير في الحكم بينهم، هل هو ثابت أو منسوخ ؟ على قولين[١٢]:

أحدهما: أن التخيير منسوخ بقوله تَعَالَى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ} [المائدة: ٤٩]، وهذا قول ابن عباس[١٣]، وعمر بن عبدالعزيز[١٤]، والحسن[١٥]، وعكرمة[١٦]، ومجاهد[١٧]، وقتادة[١٨]، والسدي[١٩]، وزيد بن أسلم[٢٠]، وعطاء الخراساني[١]، والزهري[٢].

---

[١] التفسير الميسر:١١٥.
[٢] أخرجه الطبري(١١٩٨٤):ص٣٣٠/١٠.
[٣] أخرجه الطبري(١١٩٨٥):ص٣٣٠/١٠.
[٤] المحرر الوجيز:١٩٥/٢.
[٥] تفسير البيضاوي:١٢٧/٢.
[٦] التفسير الميسر:١١٥.
[٧] تفسير البيضاوي:١٢٧/٢.
[٨] المحرر الوجيز:١٩٥/٢.
[٩] التفسير الميسر:١١٥.
[١٠] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٩٣):ص١١٣٧/٤.
[١١] تفسير البيضاوي:١٢٧/٢.
[١٢] انظر: قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن:٩٩.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١١٩٨٦):ص٣٣٠/١٠، وتفسير ابن ابي حاتم(٦٣٨٨):ص١١٣٥/٤-١١٣٦.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١١٩٩٢):ص٣٣٢/١٠.
[١٥] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١١٣٦/٤، ذكره دون إسناد.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١١٩٨٦)، و(١١٩٨٧)، و(١١٩٨٨):ص٣٣١/١٠،٣٣٠، وتفسير ابن ابي حاتم:١١٣٦/٤، ذكره دون إسناد.
[١٧] انظر: تفسير الطبري(١١٩٨٩):ص٣٣١/١٠.
[١٨] انظر: تفسير الطبري(١١٩٩١):ص٣٣١/١٠.
[١٩] انظر: تفسير الطبري(١١٩٩٥):ص٣٣٢/١٠، وتفسير ابن ابي حاتم:١١٣٦/٤، ذكره دون إسناد.
[٢٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١١٣٦/٤، ذكره دون إسناد.

وعلى هذا القول َيجب أن الحكم بينهم واجب على من تحاكموا إليه من حكام المسلمين.

قال ابن عباس:" آيتان نسختا من هذه الآية السورة- يعني المائدة- آية القلائد. وقوله: {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ}[٣]، وكان النبي -ﷺ- مخير إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم، فردهم إلى أحكامهم، فنزلت {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}[٤]، فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا"[٥].

والثاني:أن التخيير ثابت، وأن كل حاكم من حكام المسلمين مخير في الحكم بين أهل الذمة بين أن يحكم أو يدع وهذا قول عامر الشعبي[٦]، وإبراهيم النخعي[٧].

قال الزجاج:" أجمعت العلماء على أن هذه الآية تدل على أن النبي - ﷺ - مخير بها في الحكم بين أهل الذمة"[٨].

قال ابن عطية:" وقال كثير من العلماء هي محكمة وتخيير الحكام باق، وهذا هو الأظهر إن شاء الله"[٩].

قال الإمام الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قول من قال: إن حكم هذه الآية ثابتٌ لم ينسخ، وأن للحكَّام من الخِيار في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم فاحتكموا، وتركِ الحكم بينهم والنظر، مثلُ الذي جعله الله لرسوله ﷺ من ذلك في هذه الآية. وإنما قلنا ذلك أولاهما بالصواب، لأن القائلين إن حكم هذه الآية منسوخ، زَعموا أنه نسخ بقوله: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ} [سورة المائدة: ٤٩]، والنسخ لا يكون نسخًا، إلا ما كان نفيًا لحكمٍ غَيْرِه بكلِّ معانيه، حتى لا يجوز اجتماع الحكم بالأمرين جميعًا على صِحّته بوجه من الوجوه بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان غير مستحيل في الكلام أن يقال: وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ومعناه: وأن أحكم بينهم بما أنزل الله إذا حكمت بينهم، باختيارك الحكم بينهم، إذا اخترت ذلك، ولم تختر الإعراض عنهم، إذ كان قد تقدَّم إعلام المقول له ذلك من قائِله: إنّ له الخيار في الحكم وترك الحكم كان معلومًا بذلك أن لا دلالة في قوله: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله}، أنه ناسخٌ قوله:{فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئًا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط}، لما وصفنا من احتمال ذلك ما بَيَّنَّا، بل هو دليل على مثل الذي دلَّ عليه قوله: وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط .

وإذْ لم يكن في ظاهر التنزيل دليلٌ على نسخ إحدى الآيتين الأخرى، ولا نفي أحد الأمرين حكم الآخر ولم يكن عن رسول الله ﷺ خبرٌ يصحُّ بأن أحدهما ناسخ صاحبَه ولا من المسلمين على ذلك إجماعٌ صحَّ ما قلنا من أن كلا الأمرين يؤيِّد أحدهما صاحبه، ويوافق حكمُه حكمَه، ولا نسخ في أحدهما للآخر"[١٠].

الفوائد:

١- أن الرشوة سُحْتٌ وحرام وباطل، والآية فيها على أن الرشوة عند اليهود أيضا حرام ولولا حرمته عندهم ما عَيَّرَهم الله بقوله: {أكالون للسحت}، وهو حرام عند جميع أهل الكتاب.

---

[١] انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١١٣٦/٤، ذكره دون إسناد.
[٢] انظر: تفسير الطبري(١١٩٩٤):ص٣٣٢/١٠.
[٣][سورة المائدة : ٤٢].
[٤][سورة المائدة : ٤٩].
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٨٨):ص١١٣٥/٤-١١٣٦.
[٦] انظرك تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٩٠):ص١١٣٦/٤.
[٧] انظرك تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٩٠):ص١١٣٦/٤.
[٨] معاني القرآن:١٧٧/٢.
[٩] المحرر الوجيز:١٩٤/٢.
[١٠] تفسير الطبري:٣٣٣/١٠-٣٣٤.

والرشوة وباء خطير، إذا فشت في المجتمع خرب نظامه، واستطال الأشرار على الأخيار، وأهين الحق، فهي سحت وباطل، وهي من أعظم الحرام- والعياذ بالله-.
٢-ومنها أن الأوضاع الدينية للأقليات يحكمها المبدأ القرآني العام، قال تعالى: { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} [البقرة، آية: ٢٥٦].

والأوضاع المدنية والأحوال الشخصية للأقليات، تحكمها شريعة الإسلام إن هم تحاكموا إلينا، قال تعالى: { فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}[المائدة، آية: ٤٢]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي ـ عندهم ـ لأصل إلهي: كما سياتي في الآية التالية:{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ}[المائدة، آية: ٤٣].
٢-أن الحاكم المسلم مخير في الحكم بين أهل الكتاب، إن شاء حكم بينهم وإن شاء أحالهم على علمائهم.
٢- وجوب العدل في الحكم ولو كان المحكوم عليه غير مسلم.
٣-أن حكم الله أحسن الأحكام، والشرع هو ما أنزل الله، فكل من حكم بما أنزل الله فقد حكم بالعدل، لكن العدل قد يتنوع بتنوع الشرائع والمناهج، فيكون العدل في كل شرعة بحسبها، ولهذا قال تعالى: {وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

القرآن

{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣)} [المائدة: ٤٣]

التفسير:

إنَّ صنيع هؤلاء اليهود عجيب، فهم يحتكمون إليك -أيها الرسول- وهم لا يؤمنون بك، ولا بكتابك، مع أن التوراة التي يؤمنون بها عندهم، فيها حكم الله، ثم يتولَّون مِن بعد حكمك إذا لم يُرضهم، فجمعوا بين الكفر بشرعهم، والإعراض عن حكمك، وليس أولئك المتصفون بتلك الصفات، بالمؤمنين بالله وبك وبما تحكم به.

قوله تعالى:{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ} [المائدة: ٤٣]، أي:" كيف يحكّمك يا محمد هؤلاء اليهود ويرضون بحكمك وعندهم التوراة فيها حكم الله يرونه ولا يعملون به؟"[١].

قال ابن عباس:" يعني: حدود الله، فأخبر الله بحكمه في التوراة"[٢].

قال قتادة:" أي: بيان الله ما تشاجروا فيه من شأن قتيلهم ثم يتولون من بعد ذلك ، الآية"[٣].

قال السدي:" قال -يعني الرب تعالى ذكره- يعيِّرهم: وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، يقول: الرجم"[٤].

قال الزمخشري:" وكيف يحكمونك تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به"[٥].

قال الواحدي:" عجَّب الله نبيه عليه السلام من تحكيم اليهود إيَّاه بعد علمهم بما في التَّوراة من حكم الزَّاني وحدِّه"[٦].

---

[١] .صفوة التفاسير:٣١٨
[٢] أخرجه الطبري(١٢٠٠٣):ص٣٣٧/١٠.
[٣] أخرجه الطبري(١٢٠٠٤):ص٣٣٧/١٠.
[٤] أخرجه الطبري(١٢٠٠٥):ص٣٣٧/١٠.
[٥] الكشاف:٦٣٦/١.
[٦] الوجيز:٣٢٠.

قال عبدالقاهر الجرجاني:" {وكيف}أداة تعجب، وهو استبقاء درجة وجودة تحكيمهم النبي -عليه السلام- وتسليمهم له وهم به منكرون مع مخالفتهم التوراة وهم به مقرُّون"[١].

قال الراغب:" أنكر الله تعالى تحكيمهم للنبي - ﷺ - وهم لا يؤمنون به وعندهم الحكم في التوراة، والمعنى هاتين الحالتين مستنكر بتحكيمهم إياك"[٢].

قال الطبري:أي:"وكيف يحكمك هؤلاء اليهود، يا محمد، بينهم، فيرضون بك حكمًا بينهم وعندهم التوراة التي أنزلتها على موسى، التي يقرُّون بها أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلته إلى نبيي، وأن ما فيه من حكم فمن حكمي، يعلمون ذلك لا يتناكرونه، ولا يتدافعونه، ويعلمون أن حكمي فيها على الزاني المحصن الرجم، وهم مع عملهم بذلك يتولون ، يقول: يتركون الحكم به، بعد العلم بحكمي فيه، جراءة عليّ وعصيانًا لي، وهذا، وإن كان من الله تعالى ذكره خطابًا لنبيه ﷺ، فإنه تقريعٌ منه لليهود الذين نزلت فيهم هذه الآية. يقول لهم تعالى ذكره: كيف تقرّون، أيها اليهود، بحكم نبيّي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حكمي الذي تقرون به أنه حق عليكم واجبٌ، جاءكم به موسى من عند الله ؟ يقول: فإذْ كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرّون بنبوّته في كتابي، فأنتم بترك حكمي الذي يخبركم به نبيِّي محمد أنه حكمي - أحْرَى، مع جحودكم نبوَّته "[٣].

قال الجصاص:" قوله تعالى: {وعندهم التوراة فيها حكم الله} يدل على أن حكم التوراة فيما اختصموا فيه لم يكن منسوخا، وأنه صار بمبعث النبي ﷺ شريعة لنا لم ينسخ؛ لأنه لو نسخ لم يطلق عليه بعد النسخ أنه حكم الله، كما لا يطلق أن حكم الله تحليل الخمر أو تحريم السبت. وهذا يدل على أن شرائع من قبلنا من الأنبياء لازمة لنا ما لم تنسخ، وأنها حكم الله بعد مبعث النبي -ﷺ-"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ} [المائدة: ٤٣]، ثلاثة أقوال[٥]:

أحدها: حكم الله بالرجم، لأنهم اختصموا إليه في حد الزنا. وهذا قول الحسن[٦]، والسدي[٧]، واختيار الواحدي[٨].

والثاني: حكم الله بالقود، لأنهم اختصموا في ذلك. وهذا قول قتادة[٩].

والثالث: حكم الله بالرجم للمحصن والمحصنة، والإيمان بمحمد ﷺ والتصديق له. وهذا قول مقاتل بن حيان[١٠].

قال الجصاص:" وجائز أن يكونوا تحاكموا إليه فيهما جميعا من الرجم والقود... فأخبر تعالى أنهم لم يتحاكموا إليه تصديقا منهم بنبوته، وإنما طلبوا الرخصة؛ ولذلك قال: {وما أولئك بالمؤمنين}، يعني: هم غير مؤمنين بحكمك أنه من عند الله مع جحدهم بنبوتك وعدولهم عما يعتقدونه حكما لله مما في التوراة. ويحتمل أنهم حين طلبوا غير حكم الله ولم يرضوا به فهم كافرون غير مؤمنين "[١١].

---

[١] درج الدرر:٦٧٢/٢.
[٢] تفسير الراغب الأصفهاني:٣٥٨/٤-٣٥٩.
[٣] تفسير الطبري:٣٣٦/١٠-٣٣٧.
[٤] أحكام القرآن:٥٤٧/٢.
[٥] انظر: النكت والعيون:٤١/٢.
[٦] انظر: أحكام القرآن للجصاص:٥٤٧/٢.
[٧] انظر تفسير الطبري(١٢٠٠٥):ص٣٣٧/١٠.
[٨] انظر: الوجيز:٣٢٠.
[٩] انظر: الطبري(١٢٠٠٤):ص٣٣٧/١٠.
[١٠] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٩٥):ص١١٣٧/٤.
[١١] أحكام القرآن:٥٤٧/٢.

قوله تعالى:{ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [المائدة: ٤٣]، أي:"ثم يعرضون عن حكمك الموافق لكتابهم بعد أن وضح لهم الحق وبان"[١].

قال مقاتل بن حيان:" يعني: يتولون عن الحق"[٢]، "بعد البيان"[٣].

قال الزمخشري:أي:" ثم يعرضون من بعد تحكيمك عن حكمك الموافق لما في كتابهم لا يرضون به"[٤].

قال مكي:" أي: [ثم] يتركون حكم التوراة جرأة على الله، وهذا تقريع لليهود، لأنهم تركوا حكم ما في أيديهم من كتابهم، ورجعوا إلى حكم النبي عليه السلام وهم يجحدون نبوته"[٥].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [المائدة: ٤٣]، قولان:

أحدهما:: أن توليهم، ما تركوا من كتاب الله، أي: بعد حكم الله في التوراة . وهذا قول عبدالله بن كثير[٦].

والثاني: بعد تحكيمك. ذكره الماوردي[٧]، واختاره الواحدي[٨].

والثالث: بعد البيان. وهذا قول مقاتل بن حيان[٩].

قوله تعالى:{وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٤٣]، أي:"وليس أولئك المتصفون بتلك الصفات، بالمؤمنين بالله وبك وبما تحكم به"[١٠].

قال مقاتل بن حيان: "يعني: اليهود"[١١].

قال مكي:" أي: ما من فعل هذا بمؤمن"[١٢].

قال الزمخشري:أي:" بكتابهم كما يدعون. أو وما أولئك بالكاملين في الإيمان على سبيل التهكم بهم"[١٣].

قال الراغب:" أي: لا يصدقونك فيما تحكم به، والواو واو حال"[١٤].

قال الطبري:" يقول: ليس من فعل هذا الفعل - أي: من تولّى عن حكم الله، الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه، في خلقه بالذي صدَّق الله ورسوله فأقرّ بتوحيده ونبوّة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأن ذلك ليس من فِعل أهل الإيمان"[١٥].

قال السعدي:" أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم"[١٦].

وأصل التولى عن الشيء، الانصرافُ عنه[١٧].

وفي قوله تعالى:{وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٤٣]، قولان[١٨]:

---

[١] صفوة التفاسير:٣١٨

[٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٩٦):ص١١٣٧/٤.

[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٩٧):ص١١٣٧/٤.

[٤] الكشاف:٦٣٦/١.

[٥] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٧٢٥/٣.

[٦] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٠٢):ص٣٣٧/١٠).

[٧] انظر: النكت والعيون:٤١/٢.

[٨] انظر: الوجيز:٣٢٠.

[٩] انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٣٩٧):ص١١٣٧/٤.

[١٠] التفسير الميسر:١١٥.

[١١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٣٩٨):ص١١٣٧/٤.

[١٢] الهداية إلى بلوغ النهاية:١٧٢٥/٣.

[١٣] الكشاف:٦٣٦/١.

[١٤] تفسير الراغب الأصفهاني:٣٥٩/٤.

[١٥] تفسير الطبري:٣٣٧/١٠.

[١٦] تفسير السعدي:٢٣٢.

[١٧] انظر: تفسير الطبري:٣٣٧/١٠.

[١٨] انظر: النكت والعيون:٤١/٢.

أحدهما: أي فى تحكيمك أنه من عند الله مع جحودهم نبوتك .
والثاني: يعني فى توليهم عن حكم الله غير راضين به .
الفوائد:
١-تقرير كفر اليهود وعدم إيمانهم.
٢- ومن الفوائد: أنه كان حتى عهد الرسول ﷺ نسخ غير محرفة من التوراة والإنجيل بدلالة قوله تعالى: {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فِيهِ} [المائدة: ٤٧] وقوله: {وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ} [المائدة: ٤٣]، وقوله: {لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ} [المائدة: ٦٨] .
فقد كانت هناك نسخ كثيرة محرفة وبعض النسخ لم يصبها التحريف، ولكن اليهود كانوا يخفونها، ولعلّ بعضاً من هذه النسخ لا تزال إلى يومنا يخفيها بعض علماء اليهود والنصارى، ويذكر صاحب كتاب "محمد نبي الإسلام"[1]، نقلاً عن مجلة "أيكونومست" البريطانية أن أول عمل يؤديه المرشح لوظيفة في "الكوريا"، أي: الإدارية المركزية للكنيسة الكاثولوكية هو أن يقسم اليمين المقدسة على كتمان كل شيء يصل إلى علمه أو يقع تحت بصره، من معلومات خصوصاً عن ثروة الكنيسة ومواردها إلى جانب ما يملكه الفاتيكان من تحف وثروة فنية تعتبر من أثمن الثروات في العالم. ولا شك أن عبارة ثروة فنية تشمل مكتبة الفاتيكان الضخمة بما تحويه من كتب في الديانة المسيحية لو تركت للبحث العلمي الحر لألقت أضواءً لامعة على حقبة مجهولة من تاريخ المسيحية في قرونها الأولى المظلمة.

القرآن

{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤)} [المائدة: ٤٤]

التفسير:
إنا أنزلنا التوراة فيها إرشاد من الضلالة، وبيان للأحكام، وقد حكم بها النبيُّون -الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به- بين اليهود، ولم يخرجوا عن حكمها ولم يُحَرِّفوها، وحكم بها عُبَّاد اليهود وفقهاؤهم الذين يربُّون الناس بشرع الله؛ ذلك أن أنبياءهم قد استأمنوهم على تبليغ التوراة، وفِقْه كتاب الله والعمل به، وكان الربانيون والأحبار شهداء على أن أنبياءهم قد قضوا في اليهود بكتاب الله. ويقول تعالى لعلماء اليهود وأحبارهم: فلا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي؛ فإنهم لا يقدرون على نفعكم ولا ضَرّكم، ولكن اخشوني فإني أنا النافع الضار، ولا تأخذوا بترك الحكم بما أنزلتُ عوضًا حقيرًا. الحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، فالذين يبدلون حكم الله الذي أنزله في كتابه، فيكتمونه ويجحدونه ويحكمون بغيره معتقدين حله وجوازه فأولئك هم الكافرون.
قوله تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: ٤٤]، أي:" إنا أنزلنا التوراة على موسى فيها بيانٌ واضح ونور ساطع يكشف ما اشتبه من الأحكام"[2].
قال القرطبي:" أي: بيان وضياء وتعريف أن محمدا ﷺ حق"[3].
قال الماوردي:"يعني بالهدى: الدليل . وبالنور: البيان"[4].
قال المراغي:" أي: إنا أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدى وإرشاد للناس إلى الحق، ونور وضياء يكشف به ما تشابه عليهم وأظلم، وبهذا الهدى خرج بنو إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وبذلك النور أبصروا طريق الاستقلال فى أمر دينهم ودنياهم"[1].

---

[1] .انظر: محمد نبي الله:٤٦.
[2] صفوة التفاسير:٣١٨.
[3] تفسير القرطبي:١٨٨/٦.
[4] النكت والعيون:٤١/٢.

قال السعدي:" {فيها هدى}: يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة، {ونور}: يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ} [الأنبياء: ٤٨]"(٢).

قوله تعالى:{يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة: ٤٤]، أي:" يحكم بالتوراة أنبياء بني إسرائيل الذين انقادوا لحكم الله لليهود، فلا يخرجون عن حكمها ولا يُبدّلونها ولا يُحرّفونها"(٣).

قال ابن كثير:"أي: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها"(٤).

قال المراغي:" أي: أنزلناها قانونا يحكم به النبيون الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين- موسى ومن بعده من أنبياء بنى إسرائيل إلى عيسى عليه السلام، للذين هادوا أي لليهود خاصة، لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولم يكن لداود وسليمان وعيسى شريعة دونها"(٥).

قال الزمخشري:" المعنى: يحكم بأحكام التوراة النبيون بين موسى وعيسى، وكان بينهما ألف نبى وعيسى، للذين هادوا يحملونهم على أحكام التوراة لا يتركونهم أن يعدلوا عنها، كما فعل رسول الله -ﷺ- من حملهم على حكم الرجم وإرغام أنوفهم، وإبائه عليهم ما اشتهوه من الجلد"(٦).

قال السعدي:"{يحكم بها} بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والفتاوى {النبيون الذين أسلموا} لله وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد. فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام قد اقتدوا بها وائتموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود من الاقتداء بها؟ وما الذي أوجب لهم أن ينبذوا أشرف ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر وباطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس، والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال الذين يدعون إلى النار"(٧).

وفي قوله تعالى:{يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا} [المائدة: ٤٤]، وجوه(٨):

أحدها: أنهم جماعة أنبياء منهم محمد -ﷺ- .

والثاني: المراد نبينا محمد -ﷺ- وحده وإن ذكر بلفظ الجمع .

والثالث: وقيل: كل من بعث من بعد موسى بإقامة التوراة.

وفي الذي يحكم به من التوراة قولان(٩):

أحدهما: أنه أراد رجم الزاني المحصن، والقود من القاتل العامد .

والقول الثاني: أنه الحكم بجميع ما فيها من غير تخصيص ما لم يرد به نسخ .

قال الماوردي: وقوله:"{لِلَّذِينَ هَادُوا}، يعني: على الذين هادوا، وهم اليهود"(١٠).

وقد اختلفت آراء اللغويين والمفسرين في أصل الكلمة التي اشتقت منها كلمة «يهود»، وسبب تسمية اليهود بهذا الاسم، وذكروا وجوها (١١):

---

(١) تفسير المراغي:١٢٣/٦.

(٢) تفسير السعدي:٢٣٢.

(٣) صفوة التفاسير:٣١٨.

(٤) التفسير الميسر:١١٧/٣.

(٥) تفسير المراغي:١٢٣/٦.

(٦) الكشاف:٦٣٧/١.

(٧) تفسير السعدي:٢٣٢.

(٨) انظر: النكت والعيون:٤١/٢، وتفسير القرطبي:١٨٨/٦.

(٩) انظر: النكت والعيون:٤٢/٢.

(١٠) النكت والعيون:٤٢/٢.

(١١) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/٢، وتفسير القرطبي:١/ ٤٣٣، والمحرر الوجيز:١/ ١٥٧، والدر المصون :١/ ٤٠٥، واللباب في علوم الكتاب:١٣٣/٢،واللسان، مادة: "هود"،

أحدها: أنها من (هاد) بمعنى رجع، سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل.
والثاني: أنما سميت اليهود (يهود)، من أجل قولهم: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}[سورة الأعراف: ١٥٦]، أي: تبنا، قاله ابن جريج[١]، والهائد[٢]: التائب، قال الشاعر[٣]:

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ حُبِّهِ هَائِدُ

أي تائب، وقال ابن عرفة: "هدنا إليك" أي سكنا إلى أمرك، والهوادة السكون والموادعة. قال: ومنه قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا}، وقرأ أبو السمال: «هادوا»، بفتح الدال[٤].
والثالث: نُسِبُوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب، فقلبت العربُ الذال دالاً، لأن الأعجمية إذا عُرِّبت، غيرت من لفظها .
والرابع: أنها مشتقة من هاد، يهود؛ فالهود:الميل والرجوع؛ لأن اليهود كانوا كلما جاءهم نبي أو رسول هادوا إلى ملكهم ودلوه عليه ليقتلوه.
والخامس: أنه من التهويد، وهو النطق في سكون ووقار ولين، وسموا بذلك لأنهم يتهودون عند قراءة التوراة. حكاه ابن عطية عن الزهراوي[٥]، وأنشد قول الراعي النميري[٦]:

وخودٌ من اللائي تَسَمَّعْنَ بالضُّحَى قريضَ الرُّدَافَى بالغِنَاءِ المُهَوَّدِ

والسادس: أنه من الهوادة، وهي الخضوع، فـ{هدنا إليك}، أي: خضعنا إليك.
والسابع: «هاد يهيد»، أي: تحرك، ومنه سمي اليهود؛ لتحركهم في دراستهم، قاله أبو عمرو بن العلاء[٧].

وأما من حيث نسبة هذا الاسم فقيل: نسبة إلى يهوذا بالذال المعجمة، وهو ابن يعقوب -عليه السلام -، فغيرته العرب من الذال المعجمة إلى الدال المهملة، جريا على عادتها في التلاعب بالأسماء الأعجمية، فعرب ونسب الواحد إليه، فقيل يهودي، ثم حذف الياء في الجمع، فقيل يهود [٨].

وقد ورد بأن اليهود يرجعون إلى بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصّر إلى بابل في القرن السادس (ق.م)، وهؤلاء سموا كذلك نسبة إلى مملكة ومنطقة يهوذا (٦٨٥-١٣٩ ق.م)، ولم تستعمل هذه التسمية إلا في عهد مملكة يهوذا، لذلك فهي تسمية متأخرة ولا صلة لها بيهوذا ويعقوب، اللذين عاشا في القرن السابع عشر قبل الميلاد، ولعل -يهوذا- كانت اسم مدينة في فلسطين منذ عهد الكنعانيين، فبعد أن نزحت جماعة موسى عليه السلام إلى فلسطين تكونت مملكة يهوذا بعد عصر يعقوب وابنه -يهوذا- بحوالي ألف عام في منطقة يهوذا الكنعانية، فسميت باسمها، ثم انتشر استعمال اسم اليهود بعد السبي البابلي منذ القرن السادس للميلاد[٩].

وقد ذكروا في القرآن بعبارات عدة، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

وتفسير القرطبي: ١/٤٣٢-٤٣٣.
(١) أنظر: تفسير الطبري(١٠٩٤):ص١٤٣/٢.
(٢) قيل: (هود): جمع هائد كعوذ جمع عائذ وقيل : مصدر يستوي فيه الواحد وغيره وقيل : إنه مخفف يهود بحذف الياء وهو ضعيف وعلى القول بالجمعية يكون أسم كان مفردا عائدا على من بإعتبار لفظها وجمع الخبر بإعتبار معناها وهو كثير في الكلام خلافا لمن منعه.(انظر: التحرير والتنوير: ٣٥٩/١).
(٣) البيت ورد في تفسير القرطبي: ٤٣٣/١، ولم أتعرف على قائله.
(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٤٣٢/١.
(٥) انظر: المحرر الوجيز:١٥٧/١.
(٦) انظر: تهذيب اللغة، باب ا"الهاء والدال"، و"خوط"، ومقاييس اللغة، مادة"ردف"، وأساس البلاغة، باب"ردف"، والعباب الزاخر،"ردف"، واللسان، مادة"ردف"، وتاج العروس، مادة"وخد"، "هود"، "ردف"، وغريب الحديث للقاسم بن سلام:٢٨٧/٤، والمحرر الوجيز:١٥٧/١، وواللباب:٦٣..
(٧) انظر: اللباب في علوم الكتاب:١٣٣/٢.
(٨)انظر: اللسان، مادة: "هود"، و تفسير القرطبي:١/ ٤٣٣، والمحرر الوجيز:١/ ١٥٧، والدر المصون :١/ ٤٠٥، واللباب في علوم الكتاب:١٣٣/٢.
(٩) انظر: مفصل العرب واليهود في التاريخ: ٩٢٥.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢]، وقوله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: ١٣٥]، والآيات في ذكرهم باسم اليهود كثيرة، وذكر شيخ الاسلام: " أن هؤلاء المذكورين في الآية، الذين أثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين لم يبدلوا ما أنزل الله ولا كفروا بشيء مما أنزل الله؛ فاليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد"(١).

ولهذا فإن لفظ اليهود هو اسم خاص بالمنحرفين من بني إسرائيل.. وهو لفظ أعم من لفظة "عبرانيين"(٢) و"بني إسرائيل"(٣) وذلك لأن لفظة يهود تطلق على العبرانيين وعلى غيرهم غيرهم ممن دخل في دين اليهود وهو ليس منهم، وفي الحقيقة أنه لا يستطيع أحد أن يجزم بتحديد التاريخ الذي أطلقت فيه هذه التسمية على بني إسرائيل وسبب إطلاقها، لعدم وجود دليل على ذلك لا من الكتاب ولا من السنة، وإنما بنيت الاجتهادات السابقة على تخمينات لغوية لا تقوم بها حجة؛ غير أننا نستطيع أن نستنتج من الاستعمال القرآني لكلمة "يهود" أن هذه التسمية إنما أطلقت عليهم بعد انحرافهم عن عبادة الله وعن الدين الصحيح، وذلك لأنه لم يرد في القرآن

---

(١)مجموع الفتاوى (٢١/٩١).

(٢)اختلفت الآراء في سبب تسميتهم بـ"العبريين" أو "العبرانيين"، قيل: إنهم سموا بذلك نسبة إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام نفسه، فقد ذكر في سفر التكوين باسم: "إبراهيم العبراني"، لأنه عبر نهر الفرات وأنهاراً أخرى، وقيل إنهم: سموا بالعبرانيين نسبة إلى "عِبْر "، و هو الجد الخامس لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، و الرأي الثالث يقول: إن سبب التسمية يرجع إلى الموطن الأصلي لبني إسرائيل، ذلك أنهم في الأصل كانوا من الأمم البدوية الصحراوية التي لا تستقر في مكان، بل ترحل من بقعة إلى أخرى بإبلها و ماشيتها للبحث عن الماء و المرعى.، وغالب المؤرخين أجمعوا على أن التسمية ناتجة عن عبور إبراهيم عليه الصلاة والسلام نهر الفرات، ويؤكد هذا الرأي ما جاء في سفر يسوع: "وهكذا قال الرب إله إسرائيل في عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر."

ويرى البعض أن هذه اللفظة لم تظهر إلا بعد اجتياز إبراهيم نهر الفرات"، فضلاً عن أن الأخذ بهذا الرأي أقرب إلى الصحة والصواب من الآراء الأخرى

وقيل: لفظ "العبري" أطلق تاريخياً على شراذم من الغجر الرحل كانوا يعيثون في الأرض فسادا، ويتبعون الجيوش الغازية، بوصفهم مرتزقة يستعان بهم في الأعمال الدنية، ووصفهم إبراهيم بأنه "عبري" غير صحيح، إلا إذا أخذنا من لفظ عبري معنى: الترحال والتنقل، وقد ألصق اليهود بإبراهيم وصف "العبري" ليصلوا إلى وصف لغتهم بأنها "العبرية" قديمة ترجع إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهذا كلام باطل لأن اللغة العبرية جاءت متأخرة جداً عن زمن إبراهيم، و هي لهجة آرامية عربية، ظهرت بعد عصر موسى بحوالي ست مئة سنة و لأن التوراة نزلت باللغة الهيروغلوفية، حيث تخاطب قوما في مصر أو أخرجوا من مصر .

وأرى أن الذي ذكره هو الصواب؛ فاللغة العبرية لغة متأخرة جداً عن زمن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام .(انظر: العرب واليهود في التاريخ: الأستاذ شراب: ٣٦).

(٣)تم إطلاق مصطلح إسرائيليين على شتات اليهود القادمين إلى فلسطين بعد إعلان اليهود قيام دولة أسموها "إسرائيل" في ٥١ مايو ٨٤٩١م؛ فأصبح كل من يعيش على أرض فلسطين من اليهود يأخذ مُسَمى "إسرائيلي"، وجنسية "إسرائيلية"، ومجموع شتاتهم على أرض فلسطين المغتصبة "إسرائيليين !!"

وشاعت تلك التسميات على ألسن الناس عموماً وفي بلاد المسلمين أيضاً، حيث أطلق على الكيان اليهودي والصهيوني "إسرائيل" واليهودي "بالإسرائيلي"، وشاع مصطلح "إسرائيليون" على اليهود الذين أتوا إلى فلسطين غزاة ...

وإسرائيل كلمة عبرانية مركبة من "إسرا" بمعنى: عبد، ومن "إيل" وهو الله، فيكون معنى الكلمة: عبد الله، وإسرائيل اسم لنبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام، وجاء في تسمية بني إسرائيل بهذا الاسم نسبة إلى أبيهم يعقوب عليه الصلاة والسلام، ويهود اليوم التصقوا بهذا الاسم، ليلبسوا على العامة بأنهم من نسل "إسرائيل" يعقوب عليه الصلاة السلام، ولإثبات عدم اختلاطهم بالشعوب الأخرى ليتحقق لهم الزعم بنقاء الجنس اليهودي، وأن يهود اليوم هم النسل المباشر ليهود التوراة، وذلك لتبرير العودة إلى أرض الميعاد !!

لذا فهذه التسمية منكرة، لما شاع على الألسن القول في سياق الذم فعلت إسرائيل كذا، وستفعل كذا ؛ وإسرائيل هو رسول كريم من رسل الله تعالى، وهو "يعقوب" عليه الصلاة والسلام، وهو بريء من الكيان اليهودي الخبيث الماكر، إذ لا توارث بين الأنبياء والرسل وبين أعدائهم من الكافرين .

الكريم إطلاق اليهود على سبيل المدح، بل لم تذكر عنهم إلا في معرض الذم والتحقير، وإظهار صفاتهم وأخلاقهم الذميمة، والتنديد بكفرهم.

قوله تعالى:{وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ} [المائدة: ٤٤]، أي:" وكذلك حكم العلماء منهم والفقهاء، بسبب أمر الله إياهم بحفظ كتابه من التحريف والتضييع"[١].

قال ابن كثير:" أي:وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء، والأحبار وهم العلماء، بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به"[٢].

قال الزمخشري:أي:" وكذلك حكم الربانيون والأحبار والمسلمون، بسبب ما استحفظهم أنبياؤهم من كتاب الله والقضاء بأحكامه، وبسبب كونهم عليه شهداء.

ويجوز أن يكون الضمير في: {استحفظوا} للأنبياء والربانيين والأحبار جميعا ويكون الاستحفاظ من الله، أى كلفهم الله حفظه وأن يكونوا عليه شهداء"[٣].

قال المراغي:" أي: ويحكم بها الربانيون والأحبار فى الأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء معهم أو يحكمون مع وجودهم بإذنهم بسبب ما أودعوه من الكتاب وائتمنوا عليه وطلب منهم أنبياؤهم حفظه، كالعهد الذي أخذه موسى بأمر الله على شيوخ بنى إسرائيل بعد أن كتب التوراة أن يحفظوها ولا يحيدوا عنها"[٤].

قال السعدي:" أي: وكذلك يحكم بالتوراة للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين، أي: العلماء العاملين المعلمين الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم مسلك الأنبياء المشفقين. و«الأحبار»، أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم، وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم"[٥].

و«الأحبار»: جمع حَبْر، بالفتح والكسر، وهو العالم[٦]، وفي سبب تسميته أقوال:

أحدها: أنه سُمِّي بذلك اشتقاقاً من التحبير، وهو التحسين، لأن العالم يحسن الحسن ويقبح القبيح، ويحتمل أن يكون ذلك لأن العلم فى نفسه حسن. وهذا قول الفراء [٧].

والثاني: وقال الثوري سألت الفراء:لم سمي الحبر حبرا؟ فقال: يقال للعالم:حَبر، وحِبر، والمعنى: مداد حبر، ثم حذف كما قال تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ} [يوسف: ٨٢] [٨].

والثالث: أنه سمي حبرا، لتأثيره يقال على أسنانه حبرة أي صفرة أو سواد. وهذا قول الأصمعي[٩].

وفي قوله تعالى:{اسْتُحْفِظُوا} [المائدة: ٤٤]، تأويلان:

أحدهما: استودعوا، وهو قول الزجاج[١٠]، والأخفش[١١]، والنحاس[١٢].

والثاني: العلم بما حفظوا، وهو قول الكلبي[١٣].

قال السعدي:" وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق {بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء} أي: بسبب أن الله استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة

---

[١] انظر: الكشاف: ٦٣٧/١ وصفوة التفاسير:٣١٨.
[٢] التفسير الميسر:١١٧/٣.
[٣] الكشاف:٦٣٧/١.
[٤] تفسير المراغي:١٢٣/٦.
[٥] تفسير السعدي:٢٣٢.
[٦] انظر: النكت والعيون:٤٢/٢.
[٧] انظر: النكت والعيون:٤٢/٢.
[٨] انظر: معاني القرآن للنحاس:٣١٤/٢.
[٩] انظر: معاني القرآن للنحاس:٣١٤/٢.
[١٠] انظر: معاني القرآن:١٧٨/٢.
[١١] انظر: النكت والعيون:٤٢/٢.
[١٢] انظر: معاني القرآن:٣١٤/٢.
[١٣] انظر: النكت والعيون:٤٢/٢.

عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان، وتعليمه لمن لا يعلمه، وهم شهداء عليه، بحيث أنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما اشتبه على الناس منه"[١].

قوله تعالى:{وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤]، أي:"وكانوا رقباء على الكتاب لئلا يبدل"[٢].

قال ابن عباس:" هم الشهداء لمحمد ﷺ بما قاله إنه حق جاء من عند الله، فهو نبي الله محمد ﷺ أتته اليهود فقضى بينهم بالحق"[٣].

قال الماوردي:" يعني: على حكم النبي -ﷺ- أنه في التوراة"[٤].

قال القاسمي:" أي: رقباء يحمونه من أن يحوم حوله التغيير والتبديل بوجه من الوجوه. أو بأنه حق وصدق من عند الله"[٥].

قال المراغي:" أي: وكان السلف الصالح منهم رقباء على الكتاب وعلى من تحدثه نفسه العبث به كما فعل عبد الله بن سلام فى مسألة الرجم، لا كما فعل الخلف من كتمان بعض أحكامه اتباعا للهوى، أو خوفا من أشرافهم إن أقاموا عليهم حدوده، وطمعا فى صلاتهم إذا هم حابوهم، ومما كتموه صفة النبي ﷺ والبشارة به"[٦].

قوله تعالى:{فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: ٤٤]، أي:" فلا تخشوا الناس في تنفيذ حكمي؛ فإنهم لا يقدرون على نفعكم ولا ضَرّكم، ولكن اخشوني فإني أنا النافع الضار"[٧].

قال مقاتل بن حيان:" {فلا تخشوا الناس}، في أمر محمد ﷺ والرجم، يقول: أظهروا أمر محمد ﷺ والرجم"[٨]، " واخشون في كتمان محمد ﷺ والرجم"[٩].

قال ابن كثير:" أي: لا تخافوا منهم وخافوني"[١٠].

قال مقاتل:" يقول: لا تخشوا يهود خيبر أن تخبروهم بالرجم ونعت محمد- ﷺ- واخشون إن كتمتموه "[١١].

قال الزمخشري:"نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم[١٢] فيها وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد من القرباء والأصدقاء"[١٣].

قال المراغي: ثم خاطب الله تعالى رؤساء اليهود الذين كانوا زمن التنزيل لا يخافون الله فى الكتمان والتبديل بعد أن قص سيرة السلف الصالح من بنى إسرائيل لعلهم يعتبرون ويرعوون عن غيهم فقال:{فلا تخشوا الناس واخشون}، أي: وإذا كان الحال كما ذكر أيها الأحبار ولا شك أنكم لا تنكرونه كما تنكرون غيره مما قصه الله على رسوله من سير أسلافهم- فلا تخشوا الناس فتكتموا ما عندكم من الكتاب خشية أحد، أو طمعا فى منفعة عاجلة منه، واخشوني واقتدوا بمن كان قبلكم من الربانيين والأحبار واحفظوا التوراة ولا تعدلوا عن ذلك، فإن النفع والضر بيدي"[١٤].

---

[١] تفسير السعدي:٢٣٢.
[٢] انظر: الكشاف:٦٣٧/١.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤١٧):ص١١٤١/٤.
[٤] النكت والعيون:٤٢/٢.
[٥] محاسن التأويل:١٤٤/٤.
[٦] تفسير المراغي:١٢٣/٦.
[٧] التفسير الميسر:١١٥.
[٨] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤١٩):ص١١٤١/٤.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٢٠):ص١١٤١/٤.
[١٠] التفسير الميسر:١١٧/٣.
[١١] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/١.
[١٢]قوله «وادهانهم فيها» في الصحاح: المداهنة- كالمصانعة. والادهان مثله.
[١٣] الكشاف:٦٣٧/١.
[١٤] تفسير المراغي:١٢٣/٦.

وفي قوله تعالى:{فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ} [المائدة: ٤٤]، تأويلان:
أحدهما: فلا تخشوهم في كتمان ما أنزلت، وهذا قول السدي[١].
والثاني: في الحكم بما أنزلت[٢].

قوله تعالى:{وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} [المائدة: ٤٤]، أي:" ولا تأخذوا بترك الحكم بما أنزلتُ عوضًا حقيرًا"[٣].

قال مقاتل:" عرضا يسيرا مما كانوا يصيبون من سفلة اليهود من الطعام والثمار"[٤].

قال الطبري:أي:" ولا تأخذوا بترك الحكم بآيات كتابي الذي أنزلته على موسى، أيها الأحبار، عوضًا خسِيسًا وذلك هو الثمن القليل، وإنما أراد تعالى ذكره، نهيَهم عن أكل السحت على تحريفهم كتاب الله، وتغييرهم حكمه عما حكم به في الزانيين المحصنين، وغير ذلك من الأحكام التي بدَّلوها طلبًا منهم للرشَى"[٥].

قال المراغي:" أي: ولا تتركوا بيانها للناس والعمل بها لقاء منفعة دنيوية قليلة تأخذونها من الناس كرشوة أو جاه أو غيرهما من الحظوظ العاجلة التي تصدكم عن الاهتداء بآيات الله وتمنعكم عن الخير العظيم الذي تنالونه من ربكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم"[٦].

قال السعدي:أي:" فتكتمون الحق، وتظهرون الباطل، لأجل متاع الدنيا القليل، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم، ويعلم أن الله قد استحفظه ما أودعه من العلم واستشهده عليه، وأن يكون خائفا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدا للبطالة، غير قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه، قد أهمله وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة، فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة، كفرها ودفع حظا جسيما، محروما منه غيره"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا} [المائدة: ٤٤]، وجوه من التفسير:
أحدها: معناه لا تأخذوا على كتمانها أجراً. ذكره الماوردي[٨].
والثاني: معناه لا تأخذوا على القرآن أجراً . وهذا قول الربيع بن أنس[٩].
والثالث: معناه: لا تأكلوا علينا السحت كما صنعت اليهود. وهذا قول عبدالرحمن بن زيد بن أسلم[١٠].
والرابع: معناه: لا تأخذوا طعما قليلا وتكتموا اسم الله فذلك الطمع وهو الثمن. وهذا قول السدي[١١].

قال سعيد بن جبير:" وإن آيات كتابه الذي أنزل إليهم وإن الثمن القليل هو الدنيا وشهواتها"[١٢].

قال الحسن:" الثمن القليل: الدنيا بحذافيرها"[١].

---

[١] انظر: تفسير الطبري(١٢٠١٩):ص١٠/٣٤٤.
[٢] انظر: النكت والعيون:٢/٤٢.
[٣] التفسير الميسر:١١٥.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:١/٤٧٩.
[٥] تفسير الطبري:١٠/٣٤٤.
[٦] تفسير المراغي:٦/١٢٣.
[٧] تفسير السعدي:٢٣٢.
[٨] انظر: النكت والعيون:٢/٤٢.
[٩]انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٦٤٢١):ص٤/١١٤١.
[١٠] انظر:: تفسير ابن ابي حاتم(٦٤٢٢):ص٤/١١٤١.
[١١] انظر:: تفسير ابن ابي حاتم(٦٤٢٤):ص٤/١١٤٢.
[١٢] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٢٣):ص٤/١١٤١.

قوله تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، أي:" أي من لم يحكم بشرع الله كائناً من كان فقد كفر"[٢].

قال ابن عباس:" من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقرّ به ولم يحكم، فهو ظالم فاسقٌ"[٣].

قال مقاتل:" ومن لم يحكم بما أنزل الله في التوراة: بالرجم ونعت محمد- ﷺ-، ويشهد به {فأولئك هم الكافرون}"[٤].

قال الزمخشري:أي:" ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهينا به فأولئك هم الكافرون"[٥].

قال الطبري:أي:"ومن كتم حُكم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حكمًا بين عباده، فأخفاه وحكم بغيره، كحكم اليهود في الزانيين المحصنين بالتجبيه والتحميم، وكتمانهم الرجم، وكقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفي بعض بنصف الدية، وفي الأشراف بالقِصاص، وفي الأدنياء بالدية، وقد سوَّى الله بين جميعهم في الحكم عليهم في التوراة فهؤلاء هم الذين سَتَروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينُه، وغطَّوه عن الناس، وأظهروا لهم غيره، وقضوا به، لسحتٍ أخذوه منهم عليه"[٦].

قال المراغي:" أي: وكل من رغب عن الحكم بما أنزل الله وأخفاه وحكم بغيره كحكم اليهود فى الزانيين المحصنين بالتحميم، وكتمانهم الرجم وقضائهم في بعض قتلاهم بدية كاملة وفى بعضها بنصف الدية، والله قد سوى بين الجميع فى الحكم فأولئك هم الكافرون الذين ستروا الحق الذي كان عليهم كشفه وتبيينه، وغطوه وأظهروا لهم غيره وقضوا به"[٧].

قال السعدي:" فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر، وقد يكون كفرا ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه. وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر قد استحق من فعله العذاب الشديد"[٨].

وقوله تعالى:{وَمَن لَّمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]، ثم قال تعالى: {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: ٤٥]،، ثم قال تعالى{فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: ٤٧]، وفي اختلاف هذه الآي الثلاث أربعة أقاويل:

أحدها: أنها واردة في اليهود دون المسلمين، وهذا قول ابن مسعود[٩]، وحذيفة[١٠]، والبراء[١١]، وقتادة[١٢]، وعكرمة[١٣].

الثاني: أنها نزلت في أهل الكتاب، وحكمها عام في جميع الناس، وهذا قول الحسن[١٤]، وإبراهيم[١٥]، والسدي[١٦].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٢٥):ص١١٤٢/٤.
[٢] صفوة التفاسير:٣١٨.
[٣] أخرجه الطبري(١٢٠٦٣):ص٣٥٧/١٠.
[٤] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٧٩/١.
[٥] الكشاف:٦٣٧/١.
[٦] تفسير الطبري:٣٤٥/١٠-٣٤٦س.
[٧] تفسير المراغي:١٢٣/٦.
[٨] تفسير السعدي:٢٣٢.
[٩] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٣٧):ص٣٥٢/١٠-٣٥٣.
[١٠] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٢٧) ، و(١٢٠٢٩)، و(١٢٠٣٠)ص٣٤٧/١٠-٣٤٩.
[١١] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٢٢):ص٣٤٥/١٠، و(١٢٠٣٤):ص٣٥١/١٠.
[١٢] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٣٢):ص٣٥١/١٠.
[١٣] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٣١)، و(١٢٠٣٣):ص٣٥١/١٠.
[١٤] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٦٠):ص٣٥٧/١٠.
[١٥] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٥٧)-(١٢٠٥٩):ص٣٥٦/١٠-٣٥٧.
[١٦] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٦٢):ص٣٥٧/١٠.

والثالث: أنه أراد بالكافرين أهل الإسلام، وبالظالمين اليهود، وبالفاسقين النصارى، وهذا قول الشعبي[1].
والرابع: أن من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به، فهو كافر، ومن لم يحكم مقراً به فهو ظالم فاسق، وهذا قول ابن عباس[2].
قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: نزلت هذه الآيات في كفّار أهل الكتاب، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات ففيهم نزلت، وهم المعنيُّون بها. وهذه الآيات سياقُ الخبر عنهم، فكونُها خبرًا عنهم أولى.
فإن قال قائل: فإن الله تعالى ذكره قد عمَّ بالخبر بذلك عن جميع منْ لم يحكم بما أنزل الله، فكيف جعلته خاصًّا ؟
قيل:إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكمَ، على سبيل ما تركوه، كافرون. وكذلك القولُ في كل من لم يحكم بما أنزل الله جاحدًا به، هو بالله كافر، كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعدَ علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوّة نبيّه بعد علمه أنه نبيٌّ"[3].
الفوائد:
١- وجوب خشية الله بأداء ما أوجب وترك ما حرم.
٢- كفر من جحد أحكام الله فعطلها أو تلاعب بها فحكم بالبعض دون البعض.
٣- قال السعدي:إن" الله تعالى قد حمل أهل العلم، ما لم يحمله الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا، وأن لا يقتدوا بالجهال، بالإخلاد إلى البطالة والكسل، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة، من أنواع الذكر، والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا.
وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصا الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم"[4].

القرآن

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)} [المائدة: ٤٥]

التفسير:
وفَرَضنا عليهم في التوراة أن النفس تُقْتَل بالنفس، والعين تُفْقَأ بالعين، والأنف يُجْدَع بالأنف، والأذُن تُقْطع بالأذُن، والسنَّ تُقْلَعُ بالسنِّ، وأنَّه يُقْتَصُّ في الجروح، فمن تجاوز عن حقه في الاقتصاص من المُعتدي فذلك تكفير لبعض ذنوب المعتدى عليه وإزالةٌ لها. ومن لم يحكم بما أنزل الله في القصاص وغيره، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله.
قوله تعالى:{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥]، أي:" وفَرَضنا عليهم في التوراة أن النفس تُقْتَل بالنفس"[5].
قال ابن عباس:"يقول: تقتل النفس بالنفس"[6].

---

[1] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٣٨)-(١٢٠٤٦):ص١٠/٣٥٣-٣٥٥.
[2] انظر: تفسير الطبري(١٢٠٦٣):ص١٠/٣٥٧.
[3] تفسير الطبري:١٠/٣٥٨.
[4] تفسير السعدي:٢٣٢.
[5] التفسير الميسر:١١٥.
[6] أخرجه الطبري(١٢٠٧٢):ص١٠/٣٦١.

قال سعيد بن جبير:" يعني نفس المسلم الحر بنفس المسلم الحر وبالمسلمة إذا كان عمدا وقال النبي -ﷺ-: «لا يقتل مؤمن بكافر»[1]"[2].

قال مقاتل:" يعني قضى، أن النفس بالنفس"[3].

قال ابن الجوزي:أي:" فرضنا على اليهود في التوراة"[4].

قال السمرقدي:" يعني: فرضنا على بني إسرائيل، في التوراة أن النفس بالنفس إذا كان القتل عمدا"[5].

قال الزمخشري:أي:" فرضنا عليهم فيها أن النفس مأخوذة بالنفس مقتولة بها إذا قتلتها بغير حق"[6].

قال الطبري:أي:" وفرضنا عليهم فيها أن يحكموا في النَّفس إذا قتلت نفسًا بغير حق بالنفس، يعني: أن تقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة"[7].

قال ابن كثير:" وهذا أيضًا مما وُبِّخَتْ به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون ذلك عمدًا وعنادًا، ويُقيدون النضري من القرظي، ولا يُقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار"[8].

عن أنس بن مالك ؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: "{ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ } نصب النفس ورفع العين"[9].

قال ابن عباس:" كان على بني إسرائيل القصاصُ في القتلى، ليس بينهم دية في نفسٍ ولا جُرْحٍ. قال: وذلك قول الله تعالى ذكره: وكتبنا عليهم فيها في التوراة، فخفف الله عن أمّة محمد ﷺ، فجعلَ عليهم الدية في النَّفس والجِراح، وذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن تصدَّق به فهو كفارة له"[10].

في مصحف أبي: «وأنزل الله على بنى إسرائيل فيها» [11].

قوله تعالى:{وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ} [المائدة: ٤٥]، أي:" والعين تُفْقَأ بالعين"[12].

قال ابن عباس:" وتفقأ العين بالعين"[13].

قال السمرقدي:" يعني: والعين بالعين إذا كان عمدا"[14].

قال الطبري:أي:"وفرضنا عليهم فيها أن يفقأوا العين التي فقأ صاحبها مثلَها من نفس أخرَى بالعين المفقوءة"[15].

قال الزمخشري:أي:" وكذلك العين مفقوءة بالعين"[16].

---

[1] أخرجه البخاري كتاب العلم ١/ ٣٨.
[2] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٤٣٩):ص١١٤٤/٤.
[3] تفسير مقاتل بن سليمان:٤٨٠/١.
[4] زاد المسير:٥٥٣/١.
[5] بحر العلوم:٣٩٤/١.
[6] الكشاف:٦٣٨/١.
[7] تفسير الطبري:٣٥٨/١٠.
[8] تفسير ابن كثير:١٢٠/٣.
[9] المسند (٢١٥/٣) وسنن أبي داود برقم (٣٩٧٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٢٩). وقال الترمذي : حسن غريب. وقال البخاري : تفرد ابن المبارك بهذا الحديث.
[10] أخرجه الطبري(١٢٠٦٧):ص٣٦٠/١٠-٣٦١..
[11] انظر: الكشاف:٦٣٨/١.
[12] التفسير الميسر:١١٥.
[13] أخرجه الطبري(١٢٠٧٢):ص٣٦١/١٠.
[14] بحر العلوم:٣٩٤/١.
[15] تفسير الطبري:٣٥٩/١٠.
[16] الكشاف:٦٣٨/١.

قال عقيل:" سألت بن شهاب عن رجل أعور فقأ عين صحيح أتفقأ عينه الباقية فيكون أعمى؟ قال: قضاء الله في كتابه أن العين بالعين فعينه وإن كانت بقية بصره"[١].

قوله تعالى:{وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ} [المائدة: ٤٥]، أي:" والأنف يُجْدَع بالأنف"[٢].

قال ابن عباس:"ويقطع الأنف بالأنف"[٣].

قال الطبري:أي:" ويجدع الأنف بالأنف"[٤].

قال الزمخشري:أي:" والأنف مجدوع بالأنف"[٥].

قوله تعالى:{وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ} [المائدة: ٤٥]، أي:" والأذُن تُقْطع بالأذُن"[٦].

قال الطبري:أي:" وتقطع الأذن بالأذن "[٧].

قال الزمخشري:أي:" والأذن مصلومة بالأذن"[٨].

روي عن ربيعة:" أنه قال في رجل وقع به قوم فقطعوا أذنيه، قال: أرى أن يصنع لهم مثل الذي صنعوا به"[٩].

قوله تعالى:{وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ} [المائدة: ٤٥]، أي:" والسنَّ تُقْلَعُ بالسنِّ"[١٠].

قال ابن عباس:"وتنزع السنّ بالسن"[١١].

قال الطبري:أي:" وتقلع السنّ بالسنّ"[١٢].

قال الزمخشري:أي:" والسن مقلوعة بالسن"[١٣].

قال أنس:" أمر رسول الله ﷺ بالاقتصاص من السن، وقال: كتاب الله القصاص"[١٤].

قوله تعالى:{وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: ٤٥]، أي:" وأنَّه يُقْتَصُّ في الجروح"[١٥].

قال ابن عباس:"وتقتصّ الجراح بالجراح"[١٦].

وعن ابن عباس ايضا:" يقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوي فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسائهم فيما بينهم إذا كان عمدا في النفس وكما دون النفس ويستوي فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمدا في النفس وما دون النفس"[١٧].

قال الطبري:أي:" ويُقْتَصَّ من الجارِح غيره ظلمًا للمجروح"[١٨].

قال الزمخشري:أي:" ذات قصاص، وهو المقاصة، ومعناه: ما يمكن فيه القصاص وتعرف المساواة"[١٩].

والقصاص: "مقابلة الفعل بمثله، مأخوذ من: قص الأثر"[٢٠].

---

[١] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٤١):ص١١٤٤/٤-١١٤٥.
[٢] التفسير الميسر:١١٥.
[٣] أخرجه الطبري(١٢٠٧٢):ص٣٦١/١٠.
[٤] تفسير الطبري:٣٥٩/١٠.
[٥] الكشاف:٦٣٨/١.
[٦] التفسير الميسر:١١٥.
[٧] تفسير الطبري:٣٥٩/١٠.
[٨] الكشاف:٦٣٨/١.
[٩] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٤٣):ص١١٤٥/٤.
[١٠] التفسير الميسر:١١٥.
[١١] أخرجه الطبري(١٢٠٧٢):ص٣٦١/١٠.
[١٢] تفسير الطبري:٣٥٩/١٠.
[١٣] الكشاف:٦٣٨/١.
[١٤] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٤٤):ص١١٤٥/٤.
[١٥] التفسير الميسر:١١٥.
[١٦] أخرجه الطبري(١٢٠٧٢):ص٣٦١/١٠.
[١٧] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٤٥):ص١١٤٥/٤.
[١٨] تفسير الطبري:٣٥٩/١٠.
[١٩] الكشاف:٦٣٨/١.
[٢٠] زاد المسير:١٣٧/١.

وإن قيل: "كيف يكون القصاص فرضا والولي مخير بينه وبين العفو؟ فالجواب: أنه فرض على القاتل للولي، لا على الولي"[١].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: "كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، فنزلت"[٢].

في مصحف أبى:«وأن الجروح قصاص»، والمعطوفات كلها قرئت منصوبة ومرفوعة، والرفع للعطف على محل أن النفس، لأن المعنى وكتبنا عليهم النفس بالنفس، إما لإجراء كتبنا مجرى قلنا، وإما لأن معنى الجملة التي هي قولك النفس بالنفس مما يقع عليه الكتب كما تقع عليه القراءة. تقول: كتبت الحمد لله[٣].

قوله تعالى:{فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [المائدة: ٤٥]، أي:" فمن تجاوز عن حقه في الاقتصاص من المُعتدي فذلك تكفير لبعض ذنوب المعتدى عليه وإزالةٌ لها"[٤].

قال ابن عباس:" فمن عفى عنه وتصدق عليه، فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب"[٥].

قال الزمخشري:أي:" فمن تصدق من أصحاب الحق به بالقصاص وعفا عنه فهو كفارة له فالتصدق به كفارة للمتصدق يكفر الله من سيئاته ما تقتضيه الموازنة كسائر طاعاته"[٦].

وفي قوله تعالى:{فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ} [المائدة: ٤٥]، تاويلان:

أحدهما: أنه كفارة للجروح، وهو قول عبد الله بن عمر[٧]، وإبراهيم[٨]، والحسن[٩]، وقتادة[١٠]، وقتادة[١٠]، والشعبي[١١]، وجابر بن زيد[١٢].

روى الشعبي عن ابن الصامت قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: "مَنْ جُرِحَ فِي جَسَدِهِ جِرَاحَةً فَتَصَدَّقَ بِهَا كَفَّرَ عَنْهُ ذُنُوبَهُ بِمِثْلِ مَا تَصَدَّقَ بِهِ"[١٣].

والثاني: أنه كفارة للجارح، لأنه يقوم مقام أخذ الحق منه، وهذا قول ابن عباس [١٤]، ومجاهد[١٥]، وزيد بن اسلم[١٦]، وهذا محمول على من عفى عنه بعد توبته.

قال الطبري:" وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: عني به: فمن تصدّق به فهو كفارة له ، المجروحَ فلأن تكون الهاء في قوله: {له}، عائدةً على {مَنْ}، أولى من أن تكون مِنْ ذِكْر من لم يجر له ذكر إلا بالمعنى دون التصريح، وأحرَى، إذ الصدقة هي المكفِّرة ذنبَ صاحبها دون المتصدَّق عليه في سائر الصدقات غير هذه، فالواجب أن يكون سبيلُ هذه سبيلَ غيرها من الصدَّقات"[١٧].

---

[١] زاد المسير:١٣٧/١.
[٢] الكشاف:٦٣٨/١.
[٣] انظر: الكشاف:٦٣٨/١.
[٤] التفسير الميسر:١١٥.
[٥] أخرجه ابن أبي حاتم(٦٤٤٧):ص١١٤٥/٤.
[٦] الكشاف:٦٣٨/١.
[٧] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٧٣)-(١٢٠٧٥):ص٣٦٢/١٠-٣٦٣.
[٨] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٧٦):ص٣٦٣/١٠.
[٩] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٨٢):ص٣٦٥/١٠.
[١٠] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٨٤):ص٣٦٥/١٠.
[١١] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٨٣):ص٣٦٥/١٠.
[١٢] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٧٧):ص٣٦٣/١٠.
[١٣] أخرجه أحمد(٢٢٧٩٢):ص٤٥٤/٣٧، والطبري(١٢٠٨١):ص٣٦٤/١٠-٣٦٥، ورواه البيهقي بغير هذا اللفظ من طريق أبي داود ، عن محمد بن أبان ، عن علقمة بن مرثد ، عن الشعبي ، وقال : هو منقطع ، وذلك أن الشعبي ، لم يسمع من عبادة بن الصامت، وخرجه ابن كثير في تفسيره ٣ / ١٦٨ ، وزاد نسبته للنسائي ، عن علي بن حجر ، عن جرير بن عبد الحميد.
[١٤] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٨٦):ص٣٦٦/١٠، و(١٢٠٩٦)-(١٢٠٩٨)، و(١٢١٠١):ص٣٦٧-٣٦٨.
[١٥] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٨٧)-(١٢٠٩٣):ص٣٦٦/١٠-٣٦٧.
[١٦] نظر: تفسير الطبري(١٢٠٩٤):ص٣٦٧/١٠.
[١٧] تفسير الطبري:٣٦٩/١٠.

قوله تعالى:{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥)} [المائدة: ٤٥]، أي:" ومن لم يحكم بما أنزل الله في القصاص وغيره، فأولئك هم المتجاوزون حدود الله"[١].

قال ابن كثير:" لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا، وقال هاهنا: { فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدى بعضهم على بعض"[٢].

عن البراء قوله: {فأولئك هم الظالمون}، قال: أنزلت في اليهود"[٣]. قال ابن أبي حاتم:"وروي عن ابن عباس والشعبي والحسن ومقاتل بن حيان نحو ذلك"[٤].

وروي عن عطاء قوله: "{فأولئك هم الظالمون}، قال: ظلم دون ظلم"[٥].

قال ابن كثير:" وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكي مقررًا ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي وأكثر الأصحاب بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة.

وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة. رواه ابن أبي حاتم.

وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه ثالثها: أن شرع إبراهيم حجة دون غيره، وصحح منها عدم الحجية، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أقوالا عن الشافعي ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ، رحمه الله، في كتابه "الشامل" إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة.

وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره: أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة»[٦].

وفي الحديث الآخر:«المسلمون تتكافأ دماؤهم»[٧]، وهذا قول جمهور العلماء"[٨].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:" أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية ؛ لأن ديتها على النصف من دية الرجل، وإليه ذهب أحمد في روايته عنه وحكي هذا عن الحسن البصري وعطاء، وعثمان البتي، ورواية عن أحمد به أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها، بل تجب ديتها.

وهكذا احتج أبو حنيفة، رحمه الله تعالى، بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين عن أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يقتل مسلم بكافر" [٩].

وأما العبد فعن السلف في آثار متعددة: أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرًا بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

---

[١] التفسير الميسر:١١٥.
[٢] تفسير ابن كثير:١٢٠/٣.
[٣] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٥١):ص١١٤٦/٤.
[٤] تفسير ابن ابي حاتم:١١٤٦/٤.
[٥] أخرجه ابن ابي حاتم(٦٤٥٢):ص١١٤٦/٤.
[٦]سنن النسائي (قسامة باب ٤٦).
[٧]روي من حديث عبد الله بن عباس : أخرجه ابن ماجة في السنن برقم (٢٦٨٣) من طريق سليمان عن أبيه ، عن حنش ، عن عكرمة ، عن ابن عباس. وقال البوصيري في الزوائد (٣٥٣/٢) : "هذا إسناد ضعيف لضعف حنش واسمه حسين بن قيس". وروي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : أخرجه أبو داود في السنن برقم (٤٥٣١) من طريق يحيى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
[٨] تفسير ابن كثير:١٢١/٣.
[٩]صحيح البخاري برقم (٦٩٠٣).

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك: عن أنس بن مالك: «أن الرُّبَيع عَمّة أنس كسرت ثَنِيَّة جارية، فطلبوا إلى القوم العفو، فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: "القصاص". فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله تكسر ثنية فلانة ؟! فقال رسول الله ﷺ: "يا أنس، كتاب الله القصاص". قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق، لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضي القوم، فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ: "إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبَّره»[(١)]"[(٢)].

الفوائد:

١- حكم القصاص في الإسلام وهو المساواة والمماثلة فيقتل الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة والمرأة بالرجل والرجل بالمرأة، ويقتل القاتل بما قتل به مماثلة لحديث: "المرء مقتول بما قتل به".

ولما كان العبد مقوماً بالمال فإنه لا يقتل به الحر، بل يدفع إلى سيده مال. وبهذا حكم الصحابة والتابعون وعليه الأئمة الثلاثة: مالك، والشافعي، وأحمد، وخالف أبو حنيفة فرأى القود فيقتل الحر بالعبد أخذاً بظاهر هذه الآية.

٢- وجوب القود في النفس والقصاص في الجراحات؛ لأن ما كتب على بني إسرائيل كتب على هذه الأمة.

٣- من الظلم أن يعتدى في القصاص بأن يقتل الواحد اثنان أو يقتل غير القاتل أو يفقأ بالعين الواحدة عينان مثلاً، وهو كفر مع الاستحلال وظلم في نفس الوقت.

٤-محاسن الشرع الإسلامي وما فيه من اليسر والرحمة حيث أجاز العفو والدية بدل القصاص.

القرآن

{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦)} [المائدة: ٤٦]

التفسير:

وأتبعنا أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم مؤمنًا بما في التوراة، عاملا بما فيها مما لم ينسخه كتابه، وأنزلنا إليه الإنجيل هاديا إلى الحق، ومبيِّنًا لما جهله الناس مِن حكم الله، وشاهدًا على صدق التوراة بما اشتمل عليه من أحكامها، وقد جعلناه بيانًا للذين يخافون الله وزاجرًا لهم عن ارتكاب المحرَّمات.

قوله تعالى:{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [المائدة: ٤٦]، أي:" وأتبعنا أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم"[(٣)].

قال البغوي:" أي: على آثار النبيين الذين أسلموا، { بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ }"[(٤)].

قال القرطبي:" أي: جعلنا عيسى يقفو آثارهم، أي: آثار النبيين الذين أسلموا"[(٥)].

قال الواحدي:" أَيْ: جعلناه يقفو آثار النَّبيّين يعني: بعثناه بعدهم على آثارهم"[(٦)].

قال ابن كثير:" {وَقَفَّيْنَا}، أي:أتبعنا {لَى آثَارِهِمْ }، يعني: أنبياء بني إسرائيل -عليه السلام-"[(٧)].

قال القاسمي:" أي: أتبعنا على آثار أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، أي: أرسلناه عقبهم مصدقا"[(١)].

---

(١)المسند (١٢٨/٣) وصحيح البخاري برقم (٦٨٩٤) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير:١٢١/٣-١٢٢.

(٣) التفسير الميسر:١١٦.

(٤) تفسير البغوي:٦٤/٣.

(٥) تفسير القرطبي:٢٠٨/٦.

(٦) الوجيز:٣٢١.

(٧) تفسير ابن كثير:١٢٧/٣.

قال السعدي:" أي: وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين، الذين يحكمون بالتوراة، بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم"[٢].

يقال: قفّى أثره، وقفّى غيرَه على أثره، أي: اتبعه إياه، والقفا: مُؤَخَّرُ العُنُق، ويقال للشيخ إذا هرم: رُدّ على قَفَاه، ورُدّ قَفًا، قال الشاعر[٣]:

إن تَلْقَ رَيْبَ المنايا أو تُرَدُّ قفًا لا أَبْكِ مِنك على دينٍ ولا حَسَب

ومنه: قافية الشعر[٤].

قوله تعالى:{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} [المائدة: ٤٦]، أي:" عاملا بما فيها مما لم ينسخه كتابه"[٥].

قال القرطبي:" يعني: التوراة، فإنه رأى التوراة حقا، ورأى وجوب العمل بها إلى أن يأتي ناسخ"[٦].

قال ابن كثير:" أي: مؤمنا بها حاكما بما فيها"[٧].

قال السعدي:" بعثه الله مصدقا لما بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية، وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام، كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ٥٠] "[٨].

قال الواحدي: أيْ: "يُصدِّق أحكامها ويدعو إليها"[٩].

قوله تعالى:{وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ} [المائدة: ٤٦]، أي:" وأنزلنا إليه الإنجيل هاديا إلى الحق، ومبيِّنًا لما جهله الناس مِن حكم الله"[١٠].

قال ابن كثير:"أي:هدى إلى الحق، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات"[١١].

قال القاسمي:" { فِيهِ هُدًى}، أي: إلى الحق { وَنُورٌ}، أي: بيان للأحكام"[١٢].

قال السعدي:أي:" يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل"[١٣].

وقرأ الحسن: «الإنجيل»، بفتح الهمزة/ فإن صح عنه فلأنه أعجمى خرج لعجمته عن زناة العربية، كما خرج:هابيل، وآجر[١٤].

قوله تعالى:{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ} [المائدة: ٤٦]، أي:" وشاهدًا على صدق التوراة بما اشتمل عليه من أحكامها"[١٥].

قال السعدي:أي:" بتثبيتها والشهادة لها والموافقة"[١٦].

---

[١] محاسن التأويل:١٥٤/٤.
[٢] تفسير السعدي:٢٣٣.
[٣]البيت بلا نسبة في: "لسان العرب" ٦/ ٣٧٠٨، و"أساس البلاغة" ص ٢/ ٢٦٩، والتفسير البسيط: ١٢٨/٣.
[٤] انظر: تهذيب اللغة" ٣/ ٣٠١٣، "المحرر الوجيز" ١/ ٣٨٥، والتفسير البسيط: ١٢٨/٣، واللسان" ٦/ ٣٧٠٨ مادة (قفا).
[٥] التفسير الميسر:١١٦.
[٦] تفسير القرطبي:٢٠٨/٦.
[٧] تفسير ابن كثير:١٢٧/٣، ونقله بتمامه القاسمي في محاسن التأويل:١٥٤/٤.
[٨] تفسير السعدي:٢٣٣.
[٩] الوجيز:٣٢١.
[١٠] التفسير الميسر:١١٦.
[١١] تفسير ابن كثير:١٢٧/٣.
[١٢] محاسن التأويل:١٥٤/٤.
[١٣] تفسير السعدي:٢٣٣.
[١٤] انظر: الكشاف:٦٣٩/١.
[١٥] التفسير الميسر:١١٦.
[١٦] تفسير السعدي:٢٣٣.

قال القاسمي:"أي: لما فيها من الأحكام. وتكرير ذلك لزيادة التقرير"[١].

قال ابن كثير:" أي: متبعًا لها، غير مخالف لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل: { وَلأحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ } [آل عمران: ٥٠] ؛ ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بَعْضَ أحكام التوراة"[٢].

وفي قوله تعالى::{وَمُصَدِّقًا}[المائدة: ٤٦]، وجهان[٣]:

أحدهما: أن يكون لعيسى وتعطفه على مصدقا الأول.

والثاني: أن يكون حالا من الإنجيل، ويكون التقدير: وآتيناه الإنجيل مستقرا فيه هدى ونور ومصدقا.

قوله تعالى:{وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٤٦]، أي:" وقد جعلناه بيانًا للذين يخافون الله وزاجرًا لهم عن ارتكاب المحرَّمات"[٤].

قال الواحدي: " معناه: وهادياً وواعظاً"[٥].

قال ابن كثير:" أي:وجعلنا الإنجيل { هُدًى } يهتدى به، { وَمَوْعِظَةً } أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم { لِلْمُتَّقِينَ } أي: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه"[٦].

قال القرطبي:أي:" هاديا وواعظا {للمتقين}، وخصهم لأنهم المنتفعون بهما"[٧].

قال السعدي:أي:" فإن [المتقين] الذين ينتفعون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق"[٨].

قال الشيخ ابن عثيمين:" و«التقوى»: اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه"[٩].

الفوائد:

١-أن التوراة والإنجيل: كتابان أنزلا على موسى وعيسى عليهما السلام، - على الترتيب - إلى بني إسرائيل.

٢- ومن الفوائد أن التوراة كانت مضموماً إليها تعديلات الإنجيل شريعة وعقيدة، قال تعالى:{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْأِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْأِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة:٤٦-٤٧]، لكن الذي حدث هو أن هذه الشريعة لم يكتب لها التطبيق على المستوى العام لسببين متلازمين:

الأول: أنه لم يقم لها دولة تتبناها وتقيمها في الأرض، إذ من المعلوم أن عيسى عليه السلام، توفاه الله ورفعه إليه وهو لم يزل في مرحلة الدعوة التي تشبه حال الدين الإسلامي قبل الهجرة.

والثاني: أنه، عليه السلام، قد بعث إلى قوم قساة القلوب غلاظ الأكباد، وفي الوقت نفسه كانت المنطقة المبعوث فيها جزءاً من مستعمرات إمبراطورية وثنية عاتية، فكان ميلاد الدين الجديد في محيط معاد كل العداء له ولرسوله ونتج عن ذلك اضطهاد فظيع للمؤمنين به لم يدع لهم فرصة لتطبيقه إلا في النطاق الشخصي الضيق.

---

[١] محاسن التأويل:١٥٤/٤.

[٢] تفسير ابن كثير:١٢٧/٣.

[٣] انظر: تفسير القرطبي:٢٠٨/٦-٢٠٩.

[٤] التفسير الميسر:١١٦.

[٥] الوجيز:٣٢١.

[٦] تفسير ابن كثير:١٢٧/٣.

[٧] تفسير القرطبي:٢٠٩/٦.

[٨] تفسير السعدي:٢٣٣.

[٩] تفسير ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة:٢٨/١.

وكان أول من وضع العراقيل أمام دعوة المسيح وشريعته اليهود قتلة الأنبياء، وتكاد الأناجيل والرسائل تكون وصفاً للعنت الذي لقيه المسيح وأتباعه من الطوائف اليهودية، وقد جللوا عداوتهم بإغراء الحاكم الرومانى بقتله وصلبه، ولكن الله تعالى رفعه إليه ونجاه منهم ومنه[(١)].

٣- ومن فوائد الآية: فضيلة التقوى، وأنها من أسباب الاهتداء والاتعاض.

٤- ومنها: أن المواعظ قسمان:

- كونية: وذلك مثل قوله تعالى: {فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}[البقرة:٦٦]، فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين.
- وشرعية: وأما الشرعية فمثل قوله تعالى:{يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور} [يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات[(٢)].

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

انتهى الجزء الحادي عشر من التفسير ويليه الجزء الثاني عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (٤٧) من سورة «المائدة».

(١)انظر: العلمانية، نشأتها وتطورها:٥٨

(٢) انظر: تفسير ابن عثيمين:٢٢٨/١ .